

صَحِيح

مختصر تفسیر ابن کثیر

لِلْحَافِظِ عِمَادِ الدِّينِ ابْنِ الْفَدَاوِ اسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَثِيرٍ

اَتَمَّهُ وَضَعَهُ اَمَامُهُ وَضَعَ فَرَسَ الْفَقَاهِ

أَحْمَدُ عَبْدُ الرَّازِقِ الْبَكْرِيُّ مُحَمَّدُ عَادِلُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدُ عَبْدُ الْلطِيفِ خَلْفٌ

المجلد الثاني

ذِي السَّنَةِ الْأَمْرِ

الطباعة والنشر والتوزيع والزجعة

صَحِيح

مَخْصَرُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ

لِلْحَافِظِ عِمَادِ الدِّينِ أَبِي الْفِدَاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ كَثِيرٍ

اقتصره وشرح أماريته وشرح غريب ألفاظه

أحمد عبد الرزاق البكري محمد عادل محمد محمد عبد اللطيف خلف

المجلد الثاني

دار السَّلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كَافَةُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ وَالتَّرْجَمَةِ مَحْفُوظَةٌ

لِلنَّاشِرِ

دَارُ السَّلَامِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّرْجَمَةِ

لصاحبها

عبد الفادر محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

الطبعة الثالثة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

القاهرة - جمهورية مصر العربية

الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موانز لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران

عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشرييني - مدينة نصر

هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع

مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

بريدياً : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دَارُ السَّلَامِ

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت

على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة

أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،

٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجا لقد

ثالث مضمي في صناعة النشر

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿التَّصَّ ١﴾ كَيْتَبُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ .

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه ، قال ابن عباس : ﴿التَّصَّ﴾ أنا الله أفصل ﴿كَيْتَبُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي : هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد : شك منه ، وقيل : لا تخرج به في إبلاغه والإنذار به ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ ولهذا قال : ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي : أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم قال تعالى مخاطباً للعالم : ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي : اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي : لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٢﴾ فَلَنَسْتَلِزَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِزَّ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾ فَلَنَقْضَنَّ عَلَيْهِمْ بِعَلَمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٤﴾ . يقول الله تعالى : ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِرُسُلِنَا قِبَلَكَ فَنَاقَىٰ بِاللَّيْلِ سَجْرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وقوله : ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي : فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيِّنًا﴾ أي : ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ من القيلولة : وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة وهو كما قال : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ٥﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ٦﴾ وقوله : ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي : فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا ، كقوله تعالى : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ٧﴾ إلى قوله ﴿خَائِدِينَ﴾ قال ابن جرير : في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ قال : « مَا هَلَكَ قَوْمٌ حَتَّى يُغْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » (١) .

وقوله : ﴿فَلَنَسْتَلِزَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية كقوله : ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ قَبُولَ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته ، ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿فَلَنَسْتَلِزَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِزَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال : عما بلغوا . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالْإِمَامُ يُسْأَلُ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ يُسْأَلُ عَنْ أَهْلِهِ ، وَالْمَرْأَةُ تُسْأَلُ عَنْ نَيْتِ زَوْجِهَا ،

وَالْعَبْدُ يُسْأَلُ عَنْ مَالِ سَيِّدِهِ» ^(١) وقال ابن عباس في قوله : ﴿ فَلَنَقْصَنَ عَنْهُمْ بِعَلٍّ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ؛ لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور .

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِإِيَابِنَا يُظْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَالْوَزْنُ ﴾ أي : للأعمال يوم القيامة ﴿ الْحَقُّ ﴾ أي : لا يظلم تعالى أحداً كقوله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِهَا حَاسِبِينَ ﴾ .

فصل : والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً . وعن ابن عباس كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف ^(٢) . ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظلمات نهارك ^(٣) . وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر : « فَيَأْتِي الْمُؤْمِنَ شَابٌّ حَسَنُ اللَّوْنِ طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ » وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق ^(٤) .

وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ، ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر ، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله ، فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تظلم . فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان ، قال رسول الله ﷺ : « فَطَاشَتِ السَّجِلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ » ^(٥) .

وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث : « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ السَّمِينِ فَلَا يَرَى عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَغْوَصَةٍ » ^(٦) ثم قرأ : ﴿ فَلَا تَعْمُرْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَأً ﴾ . وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقِيهِ ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أَخِي » ^(٧) .

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً ، تارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها ، والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممثلاً على عبده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً ، وجعل فيها رواسي

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٨٨) وأحمد في مسنده (٥٢ ، ٥٤) والترمذي في السنن (١٧٠٥) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل القرآن (١٥) وأحمد في مسنده (٢٤٩/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٨/٥) وابن ماجه في سننه (١٢٤٢/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٨٧/٥) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٣/٢) .

(٦) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٩) ومسلم في صفات المنافقين (١٨) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٠/١ ، ٤٢١) .

وأنهاؤا ، وجعل لهم فيها منازل ويوتوا ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معاش أي : مكاسب وأسبابا يكسبون بها ويتجرون فيها ، ويتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك وقد قرأ الجميع معاش بلا همز إلا عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج فإنه همزها ، والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ .

بنبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم ، ويبيّن لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منظور عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ وذلك أنه تعالى لما خلق آدم ^{عليه السلام} بيده من طين لازب ، وصوره بشرا سويا ، ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الله تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، وقال ابن عباس ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء . وقال الربيع بن أنس والضحاك في هذه الآية : أي خلقنا آدم ثم صورنا الذرية ، وهذا فيه نظر لأنه قال بعده : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم ، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر ، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ : ﴿ وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمْ الظُّلُمَاتِ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّانَ وَاتَّخَذْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ ذَلِيلًا ﴾ والمراد آبائهم الذين كانوا في زمن موسى ، ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل ؛ صار كأنه واقع على الأبناء وهذا بخلاف قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ الآية ، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة ، وذريته مخلوقون من نطفة ، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معينا ، والله أعلم .

﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ .

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ لا : هنا زائدة ، وقال بعضهم : زيدت لتأكيد الجحد .

وقول إبليس لعنه الله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع من الطاعة ؛ لأنه لا يؤمر الغاضل بالسجود للمفضول ، يعني - لعنه الله - وأنا خير منه ، فكيف تأمرني بالسجود له ، ثم يبين أنه خير منه بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياسا فاسدا في مقابلة نص قوله تعالى : ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود ، فلهذا أبلس من الرحمة أي : أوبس من الرحمة ، فأخطأ قبحه الله . وعن عائشة ^{رضي الله عنها} قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَّارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ مِثْلٍ وَصَفَ لَكُمْ » ^(١) .

﴿ قَالَ فَأَمِيطَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعُثُونَ ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٦٠) وأحمد في مسنده (١٥٣/٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٩) .

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمرٍ قدرى كونى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبَدِّلْ قَدِيمًا بَدِيلًا ۚ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ رِجْزٌ بَرَزِي ۖ﴾ . فما يكون لك أن تتكبر فيها . قال كثير من المفسرين : الضمير عائد إلى الجنة ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزل التي هو فيها في الملوكوت الأعلى ﴿فَأَخْرَجَ إِنْكَ مِنَ الصَّافِينَ﴾ أي : الدليلين الحقيرين ، معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده بضده ، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين ، قال : ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ١٣ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ . أجاب تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٤ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ واستوثق إبليس بذلك ، أخذ في المعاندة والتمرد فقال : ﴿فِيمَا آغَاوَيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي : كما أغويتني ، قال ابن عباس : كما أضللتني ، وقال غيره : كما أهلكني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي : طريق الحق وسبيل النجاة ، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحّدوك بسبب إضلالك إياي . وقال بعض النحاة : الباء هنا قسمية كأنه يقول : فياغواذك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، قال مجاهد : ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني الحق ، وقال عبد الله : يعني طريق مكة ، قال ابن جرير : الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك . وعن سيرة بن أبي الفاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعْدَ لَابْنِ آدَمَ بِطَرَفِهِ ، فَقَعْدَ لَهُ بِطَرَفِي الْإِسْلَامَ فَقَالَ : أَتَسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ؟» قَالَ : فَعَصَاهُ وَأَسْلَمَ قَالَ : «وَقَعْدَ لَهُ بِطَرَفِي الْهَجْرَةَ فَقَالَ أَتَهَاجِرُ وَتَدْعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطُّولِ ، فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ . ثُمَّ قَعْدَ لَهُ بِطَرَفِي الْجِهَادَ وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ ، فَقَالَ : تُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتَنْكُحُ الْمَرْأَةَ وَيُقَسِّمُ الْمَالُ ، قَالَ فَعَصَاهُ وَجَاهَدَ» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «فَعَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمَاتَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ قُتِلَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ غَرِقَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّةٌ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ» (١)

وقوله : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية قال ابن عباس : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أشهي لهم المعاصي ، وفي رواية ابن عباس : أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم ، وأما من خلفهم فأمر آخرتهم ، وأما عن أيمنهم فمن قبل حسناتهم ، وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم ، واختار ابن جرير أن المراد جمع طرق الخير والشر ، فالخير يصدّهم عنه والشر يحسنه لهم ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ ولم يقل : من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٣/٣) .

فوقهم ؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم ، وقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ قال : موحدين ، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق في هذا الواقع كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ أَنِيسٌ ظَنُّهُمْ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَمَن هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ .

ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها كما روي عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يدعو : « اللَّهُمَّ أَشْأَلَكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي ، وَآمِنْ رَوْعَاتِي ، وَاحْفَظْنِي مِمَّنْ بَيْنَ يَدَيْ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي ، وَمِنْ قَوْفِي ، وَأَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي » (١) .

﴿ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّتَحَوِّرًا لَّمَّا يَمَسَّ مِنْهُمْ لَبِئْلًا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمِينَ ﴾ .
أكد تعالى لإبليس عليه اللعنة والطرود والإبعاد والنفي عن محل الملاء الأعلى بقوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّتَحَوِّرًا ﴾ قال ابن جرير : أما المذموم : فهو المعيب ، والذام غير مشدد : العيب ، يقال : ذامه فهو مذموم ، ويتركون الهمز فيقول : ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا ، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم . قال : والمذحور : المقصي ، وهو المبعد المطرود . وقال ابن زيد بن أسلم : ما نعرف المذموم والمذموم إلا واحدًا ، وقال ابن عباس : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّتَحَوِّرًا ﴾ قال : مقيتًا ، وقال ابن عباس : صغيرًا مقيتًا وقال قتادة : لعينا مقيتًا . وقال مجاهد : منفيًا مطرودًا . وقال الربيع من أنس : ﴿ مَذْمُومًا ﴾ منفيًا والمذحور المصغر . وقوله تعالى : ﴿ لَمَّا يَمَسَّ مِنْهُمْ لَبِئْلًا جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمِينَ ﴾ كقوله : ﴿ قَالَ آذِهِمْ فَمَنْ يَمَسُّ مِنْهُمْ لَبِئْلًا جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَّقْصُورًا ﴾ (٢) وَاسْتَفْزَزَ مِنِّي اسْتَفْزَزَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَتَلَبَّ عَلَيْهِمْ بِحَبْلِكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأُمُورِ وَالْأَوَّلِيدِ وَعَذَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٣) إِنَّ عِبَادِي لَشَرٌّ لَّكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا .

﴿ وَتَقَادِمُ اسْتِكْبَارُ أَنْتَ وَرَبُّكَ الْجَنَّةُ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُتَبَدَّى لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْفَاحِشِينَ (٥) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَ النَّصِيبِ ﴾ .

يذكر تعالى أنه أباح لآدم ﷺ ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة ، فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿ وَقَالَ ﴾ كذبًا واقتراء : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ ﴾ أي : فلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا ، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما . وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ ﴾ بكسر اللام وقرأ الجمهور بفتحها (٦) ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أي : حلف لهما بالله ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَنَ النَّصِيبِ ﴾ فإني من قبلكما ها هنا وأعلم بهذا المكان ، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين ، أي : حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما ، قال قتادة في الآية : حلف بالله إنني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فأتبعاني أرشدكما

وكان بعض أهل العلم يقول : من خدعنا بالله أنخدعنا له .

﴿ تَدْلُوهُمَا يُتْرَكُ لَأَنَّ الشَّجَرَةَ بُدَّتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطُفِقَا بَخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَقَادَهُمَا رَبُّهُمَا أَلَّا يَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَغْفِيرٌ لَنَا وَرَحْمَةٌ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ ﴾ .

قال أبي بن كعب رضي الله عنه : كان آدم رجلاً طويلاً كأنه نخلة سحق كثير شعر الرأس فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها ، فانطلق هارباً في الجنة ، فعلق برأسه شجرة من شجر الجنة ، فقال لها : أرسليني ، فقال : إني غير مرسلتك ، فناداه ربه تعالى يا آدم أمني تفر ؟ قال : يا رب إني استحييتك . وعن ابن عباس رضي الله عنه ﴿ وَطُفِقَا بَخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ قال : ورق التين صحيح إليه ، وقال مجاهد : جعلاً بخصفان عليهما من ورق الجنة قال : كهيئة الثوب ، وقال وهب بن منبه في قوله : ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ قال : كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا ، فلما أكلوا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما . وقال الضحاك بن مزاحم في قوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَغْفِيرٌ لَنَا وَرَحْمَةٌ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ ﴾ : هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

﴿ قَالُوا أَهَاطُوا بِضُرُوحٍ يُفْعِلُ فَعَلُهُمْ وَفِي الْأَرْضِ مَسَدٌ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ۝ قَالُوا فِيهَا عَجْوَجٌ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝ ﴾ .

قيل : المراد بالخطاب في ﴿ أَهَاطُوا ﴾ آدم وحواء وإبليس والحية ، ومنهم من لم يذكر الحية والله أعلم . والعمدة في العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال تعالى في سورة طه : ﴿ قَالُوا أَهَاطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ الآية . وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهي تبع لإبليس ، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها ، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿ وَلَكُ فِي الْأَرْضِ مَسَدٌ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي : قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة قد جرى بها القلم . وأحصاها القدر وسطرت في الكتاب الأول ، وقال ابن عباس : ﴿ مَسَدٌ ﴾ القبور . وعنه قال : ﴿ مَسَدٌ ﴾ فوق الأرض وتحتها . وقوله : ﴿ قَالُوا فِيهَا عَجْوَجٌ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا ، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلأ بعمله .

﴿ يَكْبِتُ عَادَ قَدْ أَزَلْنَا عَنْكَ لِإِسَاءِ يَوْمِي سَوَءَ يَكْفُكُمْ وَرَيْثًا وَلِيَّاشَ الْتَقَوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ .

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش ، فاللباس ستر العورات وهي السوءات ، والرياش والريش ما يتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات . قال ابن جرير : الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب ، وقال ابن عباس وحكاة

البخاري عنه : الرياش : المال ، وقال ابن عباس : الريش اللباس والعيش والنعيم ، وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم : الرياش : الجمال . وعن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ اسْتَجَدَّ ثَوْبًا فَلَيْسَ لَهُ قَلْبٌ يَتَلَعَّ تَوَفُّوتُهُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الْخَلْقِيِّ فَتَصَدَّقَ بِهِ كَأَن فِي ذِمَّةِ اللَّهِ ، وَفِي جِوَارِ اللَّهِ ، وَفِي كَنْفِ اللَّهِ ، حَيًّا وَمَيِّتًا » ^(١) . وعن أبي مطر أنه رأى علياً عليه السلام أتى غلاماً جديداً فاشتري منه قميصاً بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين يقول حين لبسه : الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأوارني به عورتي ، فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن النبي ﷺ ؟ قال : هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي مِنَ الرِّيشِ مَا أَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسَ النَّفَقِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ قرأ بعضهم ﴿ وَلِبَاسَ التَّقْوَى ﴾ بالنصب وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء ، و ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ خبره ^(٣) ، واختلف المفسرون في معناه ، فقال عكرمة : يقال : هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة . وقال زيد بن علي والسدي : ﴿ وَلِبَاسَ النَّفَقِ ﴾ : الإيثار ، وقال ابن عباس : العمل الصالح . وقال ابن عباس : هو السميت الحسن في الوجه . وعن عروة بن الزبير : ﴿ وَلِبَاسَ النَّفَقِ ﴾ خشية الله . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَلِبَاسَ النَّفَقِ ﴾ يتقي الله فيواري عورته فذاك لباس التقوى . وكلها متقاربة ويؤيد ذلك الحديث الذي روي عن الحسن قال : رأيت عثمان بن عفان عليه السلام على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص فوهي محلول الزر ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام ، ثم قال : يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَسْرَ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلْبَسَهُ اللَّهُ رَدَاءَهَا عَلَانِيَةً ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ » ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَرِدْيًا وَلِبَاسَ النَّفَقِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ ﴾ ^(٤) قال : السميت الحسن . وقد روى الأئمة الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصري : أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام يوم الجمعة على المنبر .

﴿ يَكُنْ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا إِنَّهُ يَرِٰئَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سعيه في إخراجهم من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤/١) وابن ماجه في سننه (٣٥٥٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/١) .

(٣) قرأ نافع وابن عامر والكلبي ﴿ وَلِبَاسٌ ﴾ بالنصب ، وقرأ الباقر بالرفع (انظر : حجة القراءات ص ٢٨٠) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٥) ومسلم في الجنة (٥٨) والدارمي في سننه (٣٢٦/٢) .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّسْتَهْزَأُونَ ﴾ .

قال مجاهد : كان المشركون يطوفون بالبيت عراة ، يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على قبلها النسعة أو الشيء وتقول :

الْيَوْمَ يَجِدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلهُ وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجْلَهُ (١)

فأنزل الله ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ الآية . قلت : كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها ، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها ، وكانت قريش وهم الخمس يطوفون في ثيابهم ، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ، ثم يلقيه فلا يملكه أحد ، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً ، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ليستر بعض الستر فتقول :

الْيَوْمَ يَجِدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلهُ وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجْلَهُ

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فقال تعالى ردّاً عليهم : ﴿ قُلْ أَي : يا محمد لمن ادعى ذلك ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أي : هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك ، ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ أي : بالعدل والاستقامة ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : أركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته ؛ فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صواباً موافقاً للشرعية ، وأن يكون خالصاً من الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ الضَّلَالَةَ ﴾ اختلف في معنى قوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ فقال مجاهد : يحييكم بعد موتكم ، وقال الحسن البصري : كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء . وقال قتادة : بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم ذهبوا ثم يعيدهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما بدأكم أولاً يعيدكم آخرًا .

وعن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حِفَاةَ غُرَاءَ غُرُولًا ﴾ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٢) . قال مجاهد : يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً . وقال سعيد بن جبير : كما كتب عليكم تكونون . وقال محمد بن كعب القرظي من ابتداء الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن

(١) البيت ينسب لضباعة بنت عامر بن صعصعة ، من بني سلمة بن قشير كما في الروض الأنف للسهيبي في شرح سيرة ابن هشام (١/١٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٥) ، ومسلم في الحجة (٥٨) ، والدارمي في سننه (٣٢٦/٢) .

عمل بأعمال أهل السعادة ، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء ، كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدأوا عليه . وقال السدي : كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم ، وقال ابن عباس قوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ قال : إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرٌ وَمُنْكَرٌ مُّؤْمِنٌ ﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً . قلت : ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْئَلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْئَلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ» (١) . وعن جابر عن النبي ﷺ أنه قال : «تُبْعَثُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ» (٢) .

قلت : ويتأيد بحديث ابن مسعود . قلت : ولابد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى : ﴿ فَافْقَرْتُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فَفُطِرَ اللَّهُ أَلَنِي فَنُكِرَ النَّاسَ عَلَيَّ ﴾ وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجْسِنَانِهِ» (٣) . وفي الصحيح عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُتَفَاءَ فَجَاءَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَأَجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ» (٤) الحديث ، ووجه الجمع على هذا : أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده ، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم ، ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرٌ وَمُنْكَرٌ مُّؤْمِنٌ ﴾ وفي الحديث «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا» (٥) وقدر الله نافذ في بريته فإنه هو ﴿ الَّذِي قَدَّرَ هَهْنَا ﴾ وفي الصحيحين : «قَائِمًا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَسْرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَسْرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» (٦) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ ثم علل ذلك فقال : ﴿ إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية . قال ابن جرير : وهذا من أين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد وفريق الهدى فرق ، وقد فرق الله تعالى بين اسمائهما وأحكامهما في هذه الآية (٧) .

﴿ يَبْيِئُ مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في القدر (١) وأحمد في مسنده (٣٨٢/١) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٦/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) وأبو داود في سننه (٤٧١٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) وأحمد في مسنده (١٦٢/٤) .

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة (١) وأحمد في مسنده (٢٣١/٣١) .

(٦) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٢) ومسلم في القدر (٦) . (٧) ذكره ابن جرير في تفسيره (٢٠٩/٨) .

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عرا كما رواه ابن عباس قال : كانوا يطوفون بالبيت عرا الرجال والنساء ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :
 الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجَلَ

فقال الله تعالى : ﴿عُدُّوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ^(١) وعن ابن عباس في قوله : ﴿عُدُّوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية ، قال : كان رجال يطوفون بالبيت عرا فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس وهو ما يوارى السوءة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع ، فأمرُوا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبيرة وقتادة والسدي والضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها ، وعن أنس مرفوعاً : أنها نزلت في الصلاة في النعال ولكن في صحته نظر والله أعلم ، ولهذه الآية وما ورد في معناها من الستة يستحب التجميل عند الصلاة ، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد ، والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك ، ومن أفضل اللباس البياض ، كما قال ابن عباس مرفوعاً : قال رسول الله ﷺ : «الْبَيْضُ مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضُ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ وَكَفَّنُوا فِيهَا مَوْتَكُمْ ، وَإِنْ خَيْرَ أَكْحَالِكُمُ الْإِفْئِدُ ؛ فَإِنَّهُ يَجْلُو الْبَصَرُ ، وَيُنَبِّتُ الشَّعْرَ» ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية ، قال بعض السلف : جمع الله الطيب كله في نصف آية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ قال ابن عباس : كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَيْسُوا وَتَصَدَّقُوا مِنْ غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرْفٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى نَعْمَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ» ^(٣) وعن المقدم بن معد يكرب الكندي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتٍ يَتَمَنَّى ضُلْبُهُ ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلاً لَا مَحَالَةَ فَتَلَّتْ لِبَطْنِهِ وَتَلَّتْ لِشَرَابِهِ وَتَلَّتْ لِنَفْسِهِ» ^(٤) وقال السدي : كان الذين يطوفون بالبيت عرا يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم فقال الله تعالى لهم : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية ، يقول : لا تسرفوا في التحريم ، وقال مجاهد : أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يقول : ولا تأكلوا حراماً ذلك الإسراف ، وقال ابن عباس قوله : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ إِنْهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ﴾ ، وقال ابن جرير : وقوله : ﴿إِنْهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ حده في حلال أو حرام الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال ، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المأكول أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٢١٠/٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٠٦١) وابن ماجه في سننه (١٤٧٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٢) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٤) .

من الله ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ الآية ، أي : هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبدته في الحياة الدنيا ، وإن شركهم فيها الكفار حسًا في الدنيا ، فهي لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار ، فإن الجنة محرمة على الكافرين ، قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عرا يصفرون ويصفقون فأنزل الله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ فأمروا بالثياب .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ ، فَلِذَلِكَ حُرِّمَ الْفَوَاحِشُ مَا ظَهَرَ وَمَا بَطَنَ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمَذْحِ مِنَ اللَّهِ » (١) . وقوله : ﴿ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ قال السدي : أما الإثم فالمعصية ، والبغي أن تبغي على الناس بغير حق ، وقال مجاهد : الإثم المعاصي كلها ، وأخبر أن الباغي بغيه على نفسه ، وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغي هو التعدي إلى الناس ، فحرم الله هذا وهذا . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ أي : تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الاتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك مما لا علم لكم به .

﴿ وَلِكُلِّ أَجَلٌ أَجَلٌ فَلِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ ﴾ ﴿ بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَنْقَضَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أَجَلٌ أَجَلٌ ﴾ أي : قرن وجيل ﴿ أَجَلٌ فَلِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ ﴾ أي : ميقاتهم المقدر لهم ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ ﴾ ثم أندر تعالى بني آدم أنه سبيح إلىهم رسلاً يقصون عليهم آياته وبشر وحذر فقال : ﴿ فَمَنْ أَنْقَضَ وَأَصْلَحَ ﴾ أي : ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ أي : كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي : ما كانوا فيها مكثًا مخلدًا .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَتْلَوْنَ نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّعُهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّْا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاثِبُونَ ﴾ .

يقول : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة ﴿ أُولَئِكَ يَتْلَوْنَ نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، فقال ابن عباس : ينالهم ما كتب عليهم ، وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسود ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يقول نصيحتهم من الأعمال من عمل خيرًا جزى به ، ومن عمل شرًا جزى به . وقال مجاهد : ما وعدوا به من خير وشر ، وقال محمد بن كعب القرظي : ﴿ أُولَئِكَ يَتْلَوْنَ نَصِيحَتَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ قال : عمله ورزقه وعمره ، وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وهذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٤٨/٢) .

القول قوي في المعنى والسياق يدل عليه وهو قوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ . وقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ الآية ، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفرعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ، ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه ، قالوا : ﴿هَسُلُوا عَنَّا﴾ أي : ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي : أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ .

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَاتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَهْلَ الْاَمْرِ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفسرين عليه المكذبين بآياته : ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي : من أمثالكم وعلى صفاتكم ﴿مَنْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي : من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ . يحتمل أن يكون بدلاً من قوله : ﴿فِي أُمَمٍ﴾ ، ويحتمل أن يكون ﴿فِي أُمَمٍ﴾ : أي : مع أم . وقوله : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية . وقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي : اجتمعوا فيها كلهم ﴿قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ﴾ أي : أحرهم دخولاً وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبعون لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم ، فدخلوا قبلهم ، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة ؛ لأنهم هم الذين أضلوه عن سواء السبيل فيقولون : ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَاتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ أي : أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى : ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية ، وقوله : ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ أي : قد فعلنا ذلك وجازينا كلًا بحسبه ، كقوله : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذَوقُوا عَذَابًا﴾ الآية ، ﴿وَقَالَتْ أُهْلِكْنَاهُ لِأَخْرَيْنَهُ﴾ أي : قال المتبعون للاتباع : ﴿هَؤُلَاءِ كَانُوا لَنَا عَدُوًّا مِنْ قَبْلُ﴾ ، قال السدي : لقد ضللتكم كما ضللنا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ بما كنتم تكسبون . وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لَكَ بَعْضٌ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ وقال الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرٌ آلِيلٍ وَالنَّهَارُ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَعْبُدَ إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَنَجْعَلَ لَكُمُ الْاَدَاةَ وَنَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْطَالَ فِيْ أَصْنَافٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَتَخَذُ لَهُمْ أَرْوَاحُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَنَدٍ لِّخِيَابِهِ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ . ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ .

قوله : ﴿لَا تَتَخَذُ لَهُمْ أَرْوَاحُ السَّمَاءِ﴾ قيل : المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء ، وقيل : المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ويؤيده ما قال البراء : أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بأفبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى

السماء ، فيستفتحون بابها فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ الآية (١) .
وعن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : « اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » - مَوْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ إِلَى الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ يَبْضُ الْوُجُوهُ كَأَنَّ وَجُوهُهُمْ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَخُطُوبٌ مِنْ خُطُوبِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ أَتَيْتُهَا النَّفْسَ الْمُطَهَّيَّةَ أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرُضْوَانٍ » - قَالَ - : « فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا يَسِيلُ الْقَطْرُ مِنْ فِي السَّمَاءِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذَهَا فَيَجْعَلُهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْخُطُوبِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطِيبِ نَفْحَةٍ مِنْ شَجَرٍ وَجَدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَضَعُدُونَ بِهَا فَلَا يَمُوتُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ ، فَيَقُولُونَ : فَلَانُ ابْنُ فَلَانٍ - بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهَا بِهَا فِي الدُّنْيَا - حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتَحُونَ لَهُ فَيَفْتَحُ لَهُ فَيَشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، قَالَ : فَتَعَادُ رُوحُهُ ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّي اللَّهُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِيْنُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِيْنِي الْإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يُبْعَثُ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : وَمَا عَمَلُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ صَدَّقَ عَبْدِي ، فَأَقْرَسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْأَبْشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَانْفُخُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِبِيبِهَا وَيُفْسَخُ لَهُ قَبْرُهُ مَدَّ الْبَصَرِ » - قَالَ - : « وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ ، فَيَقُولُ : رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي .

قال : « وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ إِلَى الْآخِرَةِ ؛ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ شُدَّ الْوُجُوهُ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَتَيْتُهَا النَّفْسَ الْخَبِيْثَةَ أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ » قَالَ : « فَتَفْرُقُ فِي جَسَدِهِ ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السُّفُودَ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ وَجَدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، فَيَضَعُدُونَ بِهَا فَلَا يَمُوتُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيْثَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فَلَانُ ابْنُ فَلَانٍ ، بِأَفْجَسِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتَحُ

فَلَا يَفْتَحُ لَهُ « ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمْ آتُونَ السَّمَاءَ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سِنِّ الْخِيَاطِ ﴾ فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا « ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ﴾ فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهُ هَاهُ لَا أَذْرِي ، فَيَقُولَانِ : مَا دِيْنُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهُ هَاهُ لَا أَذْرِي ، فَيَقُولَانِ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يُبْعَثُ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاهُ هَاهُ لَا أَذْرِي ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ كَذَبَ عَبْدِي فَأَقْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الْقِيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَشِوْكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْشَّرِّ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ « ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سِنِّ الْخِيَاطِ ﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير ، قال ابن مسعود : هو الجمل ابن الناقة ، وفي رواية زوج الناقة ، وقال الحسن البصري : حتى يدخل البعير في خرق الإبرة ، وكذا قال أبو العالية والضحاك ، وكذا روي عن ابن عباس : أنه كان يقرؤها ﴿ يَلِجُ الْجَمَلُ فِي سَمِ الْخِيَاطِ ﴾ ، بضم الجيم وتشديد الميم ، يعني الحبل الغليظ في خرق الإبرة ، وهذا اختيار سعيد بن جبير ، وفي رواية أنه قرأ ﴿ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ ﴾ يعني قُلُوسُ السُّفْنِ وهي الحبال الغلاظ ، وقوله : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ بَهَادٌ ﴾ قال محمد بن كعب القرظي : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ بَهَادٌ ﴾ قال : الفرش ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ قال : اللحف ، ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا لَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ نبيه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ أي : من حسد وبغض كما جاء عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَأَقْصَصَ لَهُمْ مَظَالِمُ كَانَتْ يَتَنَبَّهُونَ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَتَقَوَّأْ ؛ أَذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدُهُمْ يَمْتَزِلُهُ فِي الْجَنَّةِ أَدْلُ مِنْهُ بِمَشْكِيهِ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا » ^(٢) . وقال السدي في قوله : ﴿ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عيان ، فشربوها من إحداها فينزِع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور ، واغتسلوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) وأبو داود في مسنده (٤٧٥٣) والترمذي في مسنده (٣٦٠٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنازة (١٣٧) والحاكم في المستدرک (٢٥٤/٢) .

من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً . قال علي : فينا والله أهل بدر نزلت ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُرَى مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ : لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي فَيَكُونُ لَهُ شُكْرًا ، وَكُلُّ أَهْلِ النَّارِ يُرَى مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ : لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي فَيَكُونُ لَهُ حَسْرَةٌ » ^(١) ولهذا لما أورشوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلکم أورشموها بما كنتم تعملون ، أي بسبب أعمالکم نالکم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأنم منازلکم بحسب أعمالکم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله قال : « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » ^(٢) .

﴿ وَادَّخَلَ الْجَنَّةَ أَحَدَهُمُ النَّارَ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٣) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ .

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا ﴾ أن ههنا مفسرة للقول المحذوف ، وقد للتحقيق ، أي قالوا لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حَقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حَقًّا ؟ قالوا : نعم . وكذلك قرع رسول الله ﷺ قلى القلب يوم بدر فنادى : « يَا أَيُّهَا الْجَهْلُ بْنُ هِشَامٍ وَيَا عُتْبَةَ بْنَ رِيعَةَ وَيَا شَيْبَةَ بْنَ رِيعَةَ - وَسَمَّى رُؤُوسَهُمْ - هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا » وقال عمر : يا رسول الله تخاطب قومًا قد جيفوا فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : أعلم ونادى مناد ﴿ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أي : مستقرة عليهم ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي : يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ، ويغفون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ أي : وهم بقاء الله في الدار الآخرة كافرون ، أي : جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالغون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً .

﴿ وَيَتَّبِعُنَّ جِجَابًا وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَانِهِمْ وَادَّخَلَ الْجَنَّةَ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَئِنُّونَ ﴾ ^(٥) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَحْصَبِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجاباً ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، قال ابن جرير : وهو السور الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ فَصَرَبَ يَنْتَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ فَيْكِهِ الْعَذَابُ ﴾ وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ ثم روي عن السدي أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّبِعُنَّ جِجَابًا ﴾ هو السور وهو الأعراف ، وقال مجاهد :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥١٢/٢) والحاكم في المستدرک (٤٣٥/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٣/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٧٧) وأحمد في مسنده (٢٧/١) .

الأعراف حجاب بين الجنة والنار سور له باب ، قال ابن جرير : والأعراف جمع عرف وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً . وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه . وعن عبد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول : الأعراف هو الشيء المشرف . وقال : الأعراف سور كعرف الديك ، وفي رواية عنه : الأعراف جمع : تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار ، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قرية ترجع إلى معنى واحد . وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله ، وقد جاء في حديث عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته فقال : « أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ » ^(١) وله وجه آخر عن رجل من مزينة قال : سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب الأعراف فقال : « إِنَّهُمْ قَوْمٌ خَرَجُوا عُصَاةَ يَغِيرِ إِذِنْ آبَائِهِمْ فَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٢) .

قال الشعبي : أرسل إلي عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش ، فإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا ، فقلت لهما : إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة ، فقالا : هات ، فقلت : إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَعْيُنِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم : اذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم ^(٣) . وقال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال : يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم قرأ قول الله : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ الآيتين ، ثم قال : الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح ، قال : ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ، فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم ، وإذا صرّفوا أبصارهم إلى يسارهم ونظروا أهل النار ﴿ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ تعوذوا بالله من منازلهم ، قال : فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً وكل أمة نوراً ، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة ، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا ﴾ وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهناك يقول الله تعالى : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ فكان الطمع دخولاً قال : فقال ابن مسعود : إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشراً ، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ، ثم يقول : هلك من غلبت آحاده عشرائه ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه ، وقال : أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام ،

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤٩/٨) والسيوطي في الدر المنثور (٨٧/٣) .

(٢) ذكره الطبري في تفسير (٢٥٢/٨) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤٩/٨) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥٠/٨) .

﴿لَمْ يَدْخُلُوها وَمَنْ يَطْمَعُونَ﴾ أن يدخلوها ، وهم داخلوها إن شاء الله . وقوله : ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَيْهَا أَحْصَبَ النَّارُ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال السدي : وإذا مروا بهم يعني أصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال عكرمة : تحدد وجوههم للنار ، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَيْهَا أَحْصَبَ النَّارُ﴾ فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ^(١) .

﴿وَقَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِيَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ .

يقول الله تعالى إخبارًا عن تقرير أهل الأعراف لرجال من صنديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي : كثرتكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي : لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله ، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال ابن عباس : يعني أصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وعن ابن عباس ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية ، قال : فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا ، يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار ، قال الله لأهل التكبر والأموال : ﴿أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وقال حذيفة : إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة ، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة ، فأتوا آدم فقالوا : يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك ، فقال : هل تعلمون أن أحدًا خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته إليه غضبه وسجدت له الملائكة غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا ابني إبراهيم ، فيأتون إبراهيم عليه السلام فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فيقول : تعلمون من أحد اتخذ الله خليلاً ؟ هل تعلمون أن أحدًا أحرقه قومه بالنار في الله غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا ابني موسى ، فيأتون موسى عليه السلام ، فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليمًا وقربه نبجًا غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا عيسى ، فيأتونه عليه السلام ، فيقولون له : اشفع لنا عند ربك ، فيقول : هل تعلمون أحدًا خلقه الله من غير أب ؟ فيقولون : لا ، فيقول : هل تعلمون من أحد كان يري الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله غيري ؟ قال : فيقولون : لا ، فيقول : أنا حبيج نفسي ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا محمدًا عليه السلام فيأتوني ، فأضرب بيدي على صدري ، ثم أقول : أنا لها ، ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش ، فأتي ربي ﷻ ، فيفتح لي من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ، ثم أسجد ، فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسي ثم أثني على ربي ﷻ ثم أختّر ساجدًا ، فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعطه

واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : ربي أمتي ، فيقول : هم لك ، فلا يبقى نبي مرسل ولا ملك مقرَّب إلا غبطني بذلك المقام وهو المقام المحمود ، فأتي بهم الجنة فأستفتح فيفتح لي ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له : نهر الحيوان ، حافته قصب مكلل بالؤلؤ ترابه المسك وحصابؤه الياقوت ، فيغتسلون منه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة ، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال : مساكين أهل الجنة » (١) .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ ﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْكِبَرَةُ الذَّنْبُ قَالِيَوْمَ نَنْسَهُنَّ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ يَجْحَدُونَ ۖ ﴾ .

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرايبهم وطعامهم ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك ، قال السدي : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يعني الطعام ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يستطعمونهم ويستسقونهم ، فيقولون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وروي من وجه آخر عن ابن عباس مثله سواء ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني طعام الجنة وشرايبها ، قال ابن عباس ، أو سئل : أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ الْمَاءُ ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى أَهْلِ النَّارِ لَمَّا اسْتَعَاثُوا بِأَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا : ﴿ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ . وعن أبي صالح قال : لما مرض أبو طالب قالوا له : لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بعنقود من الجنة لعله أن يشفيك به ، فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي ﷺ فقال أبو بكر : إن الله حرهما على الكافرين ، ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعباً ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة ، وقوله : ﴿ قَالِيَوْمَ نَنْسَهُنَّ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ أي : يعاملهم معاملة من نسيمهم ، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ، ولا ينساه كما قال تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ وإنما قال تعالى : هذا من باب المقابلة كقوله : ﴿ سَأُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وقال ابن عباس في قوله : ﴿ قَالِيَوْمَ نَنْسَهُنَّ كَمَا سَأُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ قال : نسيمهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : قال : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا ، وقال مجاهد : نتركهم في النار ، وقال السدي : نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا ، وفي الصحيح : أن الله تعالى يقول للبعد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني (٢) .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّغَوِيٍّ يُؤْمِنُونَ ۖ هَٰذَا نَبُطِرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُعَاعَةٍ فَيَسْأَلُوكُنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۖ ﴾ .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦٠/٨) هذا الحديث مرسل عن السدي ولم أجده بهذا اللفظ في مكان آخر .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين كقوله : ﴿ كِتَابٌ أُخْبِتَ مَا فِيهِ ثُمَّ فُشِّلَتْ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ فَصَلَّتْ عَلَىٰ عِلْرٍ ﴾ للعالمين أي : على علم منا بما فصلناه به كقوله : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ قال ابن جرير : وهذا الآية مردودة على قوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي مَذْرَبِكَ حَبْرٌ وَتَهُ ﴾ الآية ﴿ وَلَقَدْ جَنَّاهُمْ بِكِتَابٍ ﴾ الآية وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإنه قد طال الفصل ولا دليل عليه ، وإنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة ذكر أنه قد أراح عيولهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْتَكَ رَسُولًا ﴾ ولهذا قال : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ أي : ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار . وقال مالك : ثوابه ، وقال الربيع : لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ . قوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ أي : يوم القيامة ، قاله ابن عباس ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُعَاعَةٍ فَيُشْفَعُوا لَنَا ﴾ أي : في خلاصتنا بما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ إلى دار الدنيا ﴿ فَتَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِذْ وَفُّوا عَلَىٰ أَلْتَارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكُذِّبُ بِكَائِبِ رَبَّنَا وَلَوْ كُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ كما قال ههنا : ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴾ أي : خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴾ أي : ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه .

﴿ إِنَّا رَجَبُكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ أَنْهَارٌ يَطْلُبُهُ حَيْنًا وَاللَّيْلُ وَاللَّيْلُ وَاللَّيْلُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه خالق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام ، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة الأيام هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام ، واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كالف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل فقد روي عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : « خَلَقَ اللَّهُ الثُّرُوبَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرِ فِيهَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ ، وَخَلَقَ الثُّورَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ » (١) .

وأما قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكليف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/٩) .

اللَّهُ لَا يَشْبَهُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿بَلِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الْأُتَمَّةُ : مِنْهُمْ نَعِيمٌ بَنَ حَمَادُ الْخَزَاعِي شَيْخَ الْبَخَارِيِّ ، قَالَ : مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولَ تَشْبِيهِ ، فَمَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيْقُ بِجَلَالِ اللَّهِ وَنَفَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى النِّقَاطُصَ ، فَقَدْ مَلَكَ سَبِيلَ الْهَدْيِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَعْنِي أَلَيْدَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ أَي : يَذْهَبُ ظِلَامُ هَذَا بَضِيَاءُ هَذَا وَضِيَاءُ هَذَا بِظِلَامِ هَذَا ، وَكُلُّهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَقِيقًا أَي : سَرِيعًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، بَلْ إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا وَعَكْسُهُ كَقَوْلِهِ : ﴿وَلَا أَيْلَ سَائِقِ النَّهَارِ﴾ أَي لَا يَفُوتُهُ بِوَقْتٍ يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، بَلْ هُوَ فِي أَثَرِهِ بَلَا وَاسْطَةُ بَيْنَهُمَا وَلِهَذَا قَالَ : ﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ مِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ وَكِلَاهُمَا قَرِيبُ الْمَعْنَى ^(١) ، أَي : الْجَمِيعُ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَمَشِيتَتِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ مِنْبَهَا : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ﴾ أَي : لَهُ الْمُلْكُ وَالتَّصَرُّفُ ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ الْآيَةُ ، وَعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشَّامِيِّ عَنْ أَبِيهِ وَكَانَتْ لَهُ صَحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ لَمْ يَخْمَدْ اللَّهَ عَلَى مَا عَمِلَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ وَحَمِدَ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ وَخَبِطَ عَمَلُهُ ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْعِبَادِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ » لِقَوْلِهِ : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢) وَفِي الدَّعَاءِ الْمَأْثُورِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَرَوِي مَرْفُوعًا : « اللَّهُمَّ لَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ ، وَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ » ^(٣) .

﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

أُرْشِدُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى دَعَائِهِ الَّذِي هُوَ صَلَاحُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاجُهُمْ فَقَالَ : ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً وَخُفْيَةً ، كَقَوْلِهِ : ﴿وَأَذْكُرْكَ فِي نَفْسِكَ﴾ الْآيَةُ . عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالْإِدْعَاءِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ » ^(٤) . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قَالَ : السَّرُّ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : ﴿تَضَرُّعًا﴾ تَذَلُّلاً وَاسْتِكَانَةً لَطَاعَتَهُ ﴿وَخُفْيَةً﴾ يَقُولُ : بِخُشُوعِ قُلُوبِكُمْ وَصَحَّةِ الْيَقِينِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرَبُوبِيَّتِهِ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ لَا جَهَارًا مَرَاعَا ، وَقَالَ الْحَسَنُ : إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ فَهَمَ الْفَقْهَ الْكَثِيرَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَصْلِيَ الصَّلَاةَ الطَّوِيلَةَ فِي بَيْتِهِ وَعِنْدَهُ الزَّوَارُ وَمَا يَشْعُرُونَ بِهِ ، وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَامًا مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ يَقْدِرُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي السَّرِّ فَيَكُونُ عِلَانِيَةً أَبَدًا ، وَلَقَدْ كَانَ

(١) قرأ ابن عامر (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) برفع الأسماء الأربعة والباقيون بنصبها وكسر التاء في (مسخرات) (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٥) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦٨/٨) والسيوطي في الدر المنثور (٩٢/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٤/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٤١/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤) وأحمد مسنده (٣٩٤/٤) .

المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَةً خَفِيَةً ﴾ وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤثر بالتضرع والاستكانة ، ثم روي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَا يُجِبُ الْمُتَدَبِّعِينَ ﴾ في الدعاء ولا في غيره : وقال أبو مجلز : ﴿ إِنَّهُ لَا يُجِبُ الْمُتَدَبِّعِينَ ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء ، وعن زياد بن مخرق سمعت أبا نعام عن مولى لسعد أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحواً من هذا . وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها . فقال : لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوذت به من شر كثير ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ إِنَّهُ سَيَكُونُ قَوْمٌ يَتَعَذُّونَ فِي الدُّعَاءِ ﴾ - وفي لفظ : ﴿ يَتَعَذُّونَ فِي الظُّهُورِ وَالدُّعَاءِ ﴾ وقرأ هذه الآية ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا ﴾ الآية - « وَأَنْ بِحَسْبِكَ أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضربه بعد الإصلاح ، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضراً ما يكون على العباد ، فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي : خوفاً مما عنده من ويل العقاب ، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب ، ثم قال : ﴿ إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتَسِبُ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ ﴾ الآية ، وقال : قريب ولم يقل : قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله ، فلهذا قال : قريب من المحسنين ، وقال مطر الرزاق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين . ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدير المسخر ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر ، نبه تعالى على أنه الرزاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا ﴾ أي : مبشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ، ومنهم من قرأ ﴿ بشراً ﴾ ^(٢) كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّحَ بُشْرًا ﴾ وقوله : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : بين يدي المطر وقوله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ أي : حملت الرياح سحاباً ثِقَالاً ، أي : من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة .

وقوله : ﴿ سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ أي : إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها كقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٢/٣) .

(٢) قرأ عاصم ﴿ بشراً ﴾ هنا والفرقان والنمل والباء وضما وإسكان الشين وابن عامر بالنون وضما وضم الشين (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٥) .

في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا ، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ ﴿ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه ﴿ أَتُفَكِّكُم بِرِسَالَتِي رَبي وَأَصْحَكُم لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغا فصيحا ناصحا عالما بالله لا يدرهم أحد من خلق الله في هذه الصفات ، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَشْهَوْنَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ » ^(١) .

﴿ أَوْ عَجِبْتَ أَنَّ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِّنكَ لِيُنذِرَكَ وَلِتَقْوَىٰ وَلِتُكْفِرَ تَرْحُمَ ﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عِيبًا ﴾ .

يقول تعالى إخبارا عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ أَوْ عَجِبْتَ ﴾ الآية ، أي : لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم لينذركم ، ولتقوا نعمة الله ولا تشركوا به ﴿ وَلِتُكْفِرَ تَرْحُمَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي : تمادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن منهم إلا قليل كما نص عليه في موضع آخر ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِ ﴾ أي : السفينة كما قال ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفَةِ ﴾ ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ كما قال : ﴿ مَنَا حَاطِيطُهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْجَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لِمَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصْنَارًا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عِيبًا ﴾ أي : عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له فينبى تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ الآية ، وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالفرق ونجى نوحًا وأصحابه المؤمنين .

﴿ وَلَئِكَ عَادَ أَصْحَابُ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ قَالَ أَلَمْ أَكُن مِّن قَوْمِهِ إِذَا لَزَنَّاكَ فِي سَعَاهُ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَعَاهُ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ أَتُفَكِّكُم بِرِسَالَتِي رَبي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ﴿ أَوْ عَجِبْتَ أَنَّ جَاءَكَ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِّنكَ لِيُنذِرَكَ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْعَةً فَذَكَّرُوا ءَالَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا ، وقال محمد بن إسحاق : هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح . قلت : هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ يَنْحَلَا فِي الْإِلْدَادِ ﴾ وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهي جبال الرمل ، وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة : سمعت عليًا يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيبًا أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل

(١) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) وأبو داود في سننه (١٩٠٥) وابن ماجه في سننه (٣٠٥٥) .

رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين والله إنك لتنته نعت رجل قد رآه ، قال : لا ، ولكني قد حدثت عنه ، فقال الحضرمي : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيه قبر هود عليه السلام . وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن ، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك ، وقد كان من أشرف قومه نسباً ، لأن الرسل إنما يعيهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم ، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق ، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى طاعته وتقواه ﴿ قَالَ أَلَمْ أَكُنْ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ والملا هم الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ أي : في ضلالة حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده ، كما تعجب الملا من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا : ﴿ لَبَّيْكَ أَتَىٰ الْإِلَٰهَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴾ الآية ﴿ قَالَ يَتَقَوَّرُونَ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : لست كما تزعمون ، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء ، فهو رب كل شيء ومليكه ﴿ أُتِيتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أي : لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقائه ، بل احمدا الله على ذاكم ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ أي : زاد طولكم على الناس بسطة ، أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم ، كقوله في قصة طالوت ﴿ وَزَادَكُمْ بَسْطَةً فِي أَلْسِنِهِ وَالْجَسَدِ ﴾ ﴿ فَادْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ ﴾ أي : نعمه ومننه عليكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ والآلاء جمع إلى ، وقيل : ألى .

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ مَا سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ النَّسَاطِينِ ﴿ فَأَجَبْنَاهُ وَأَلَّيْنَاهُ مَعَهُمْ رِجْمَهُمْ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَابِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَنَحْذَرُ ﴾ الآية . وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناماً ، ولهذا قال هود عليه السلام ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ أي قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجس ، قيل : هو مقلوب من رجس ، وعن ابن عباس : معناه سخط وغضب ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ مَا سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ أي : أتجادلوني في هذه الأصنام التي سميتوها أنتم وآبائكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً ، ولهذا قال : ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ النَّسَاطِينِ ﴾ وهذا تهديد ووعد من الرسول لقومه ، ولهذا عقبه بقوله : ﴿ فَأَجَبْنَاهُ وَأَلَّيْنَاهُ مَعَهُمْ رِجْمَهُمْ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَابِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن آخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَمَّا عَادَ فَأَتَوْا بِرَبِّجِ مَرَمَرٍ عَلَيْهِ ﴾ .

وقد ورد عن الحارث البكري قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة ، فإذا بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مبلغني إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد سيفاً بين يدي رسول الله ﷺ ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً ، قال : فجلست ، فدخل منزله - أو قال : رحله - فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت وسلمت ، فقال : « هل بينكم وبين تميم شيء ؟ » قلت : نعم ، وكانت لنا الدائرة عليهم ، ومرت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك ، وها هي بالباب ، فأذن لها فدخلت ، فقالت : يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء ، فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال : قلت : إن مثلي مثل ما قال الأول : معزى حملت حتفها ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً ، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد ، قال لي : « وَمَا وَافِدٌ عَادٍ ؟ » وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه ، قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له : قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريثان يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة ، فقال : اللهم إنك تعلم أنني لم أجيئ إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه ، فمرت به سحباب سود ، فنودي منها اختر ، فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها خذها رماداً رمداً ، لا تبقى من عاد أحداً ، قال : فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا ، قال أبو وائل : وصدق . قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد ^(١) .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَازِغٌ فَاقَهُ اللَّهُ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَتَسَوَّمَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ إِلَهِ ﴾ ٧٣
وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخِفُّونَ مِنْ سُوءِهِمْ فَصُورًا وَتَنْجَثُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا فَادْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿ ٧٤ ﴾ قَالَ أَلَمْ لَأُذِينَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ تَغْلِبُونَ أَنْتُمْ صَالِحِينَ مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿ ٧٥ ﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿ ٧٦ ﴾ فَصَبَرُوا السَّاقَةَ وَعَصَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ ٧٧ ﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيَّةً ﴿ ٧٨ ﴾ .

قال علماء التفسير والنسب : ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله ، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع ، وعن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور ، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا

العجيين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : « إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ » ^(١) وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ » ^(٢) وعن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ صَالِحٌ فَكَانَتْ - يَغْنِي الثَّاقَةَ - تَرْدٌ مِنْ هَذَا الْفَجِّ وَتَصُدُّ مِنْ هَذَا الْفَجِّ ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا ، فَعَقَرُوهَا ؛ فَأَخَذَتْهُمْ صَبِغَةٌ أَهَمَدَ اللَّهُ مِنْ تَحْتِ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ » فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : « أَبُو رِغَالٍ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ ؛ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ » ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَلِكَ ثَمُودٌ ﴾ أي : ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿ قَالَ يَبْقَرُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ، فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ وقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ أي : قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئكم به وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيئوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها : الكاتبة ، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهد والميثاق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهدهم وموآثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله ﷻ ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنبها بين جنبها كما سألوها ، فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصددهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر ابن جلهم ، وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له : شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس وكان من أشراف ثمود وأفاضلها ، فأراد أن يسلم أيضاً فنجاه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال له : مهوش بن عثمة بن الدميل رضي الله عنه :

وَكَانَتْ غَضَبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرِو إِلَى دِينَ النَّبِيِّ دَعَا شَهَابًا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا فَهَمَّ بِأَنْ يُجِيبَ فَلَوْ أَجَابَا
لَأُصْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزًا وَمَا عَذَّلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنَّ السُّوَاءَ مِنْ آلِ حُجَيْرٍ تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمْ ذِيَابَا

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعت بين أظهرهم مدة ، تشرب من برها يومًا وتدعه لهم يومًا ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٤/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٢٠) ومسلم في الزهد والرقائق (٣٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٣) .

وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملؤون ما شاعوا من أوعيتهم وأوانيتهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَنَبَتْهُمْ أَنْ اللَّهَ فَتَمَّةٌ يَنْهَمُ كُلُّ ذَرْبٍ مَخَضَرًا ﴾ وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها ؛ لأنها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقاً هائلًا ومنظراً رائعاً ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها ، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي ﷺ عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم ، فيقال : إنهم اتفقوا كلهم على قتلها ، قال قتادة : بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان . قلت : وهذا هو الظاهر لقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهُ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِخِّرُهُمْ فَسَوْنَهَا ﴾ وقال : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ فأسند ذلك على مجموع القبيلة فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم . قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح ﷺ ومن تبعه ﷺ ، إلا أن رجلاً يقال له : أبو رغال كان لما وقعت النعمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم ، فلم يصبه شيء ، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله .

وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، قال : إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال : « أَتَذَرُونَ مِنْ هَذَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ رَجُلٍ مِنْ ثَمُودَ كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ فَمَنْعَهُ حَرَمُ اللَّهِ عَذَابَ اللَّهِ ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ فَذَفِنَ هَاهُنَا مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَنَزَلَ الْقَوْمُ فَابْتَدَرُوهُ بِأَشْيَاءَ فِيهِمْ فَبَحِثُوا عَنْهُ فَاسْتَحْرَجُوا الْغُصْنَ » (١) . ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْفُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَاتِ ﴾ .

هذا تقرير من صالح ﷺ لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى ، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً ، ثم أمر بإرحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل ، فركبها ثم سار حتى وقف على القلب قلب بدر فجعل يقول : « يَا أَبَا جَهْلٍ بَنَ هِشَامَ يَا عُتْبَةَ بَنَ رَبِيعَةَ وَيَا شَيْبَةَ بَنَ رَبِيعَةَ وَيَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا ؟ » فقال له عمر : يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا ؟ فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَا يُحْيِيُونَ » (٢) وفي السيرة أنه عليه الصلاة والسلام قال لهم : « فَيَسَّ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ ، كَذَبْتُمُونِي وَصَدَّقْتُمِي النَّاسُ ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَأَوَانِي النَّاسُ ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرْتُمِي النَّاسُ ، فَيَسَّ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ » (٣) وهكذا صالح ﷺ قال لقومه : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ ﴾ أي : فلم تتفعلوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً ، ولهذا قال : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَاتِ ﴾ وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلك أمة كان يذهب فيقيم في الحرم حرم مكة والله أعلم .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٨٨) والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٦/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٧٧) وأحمد في مسنده (١٠٤/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١٨/٦) .

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿لوطًا﴾ أو تقديره ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطًا﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴿و﴾ ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام ، وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث . قوله : ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق ، لولا أن الله تعالى قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً ، ولهذا قال لهم لوط عليه السلام : ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿٨٠﴾ أي : عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل ؛ لأنه وضع الشيء في غير محله ، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى : ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتُ لِنِ أَنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّيْتُمْ﴾ فأرشدهم إلى نساءهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَيْثُ وَرَأَيْتُمْ فَتَمَنَّيْتُمْ﴾ أي : لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة ، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك . وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض ، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضًا . ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَظَاهَرُونَ﴾ .

أي : ما أجابوا لوطًا إِلَّا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالى سالمًا وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَظَاهَرُونَ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد : إنهم أناس يتظاهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨١﴾ .

يقول تعالى : فَأَنْجَيْنَا لَوْطًا وَأَهْلَهُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ سِوَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَطْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَأَنْجَيْنَاكَ مِنْهَا وَكَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨١﴾ فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٢﴾ .

كانت على دين قومها تماثلهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسري بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول : بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم ، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ههنا : ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي : الباقين ، وقيل : من الهالكين ، وهو تفسير باللازم . وقوله : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضَوٍّ﴾ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الْغَابِرِينَ يَبِيدُ ﴿٨٣﴾ ولهذا قال : ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي : انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله تعالى ويكذب رسله ، وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللامط يلقي من شاق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب

آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن وهو أحد قولي الشافعي رحمته الله ، والحجة ما روي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَغْمَلُ عَمَلُ لُوطٍ فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » ^(١) وقال آخرون : هو كالزاني فإن كان محصناً رجم ، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة ، وهو القول الآخر للشافعي ، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى ، وهو حرام بإجماع العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض السلف ، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا الْكَاسَ أَسْيَاءُ هُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝۱۰۰ ﴾

قال محمد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر ، قال : واسمه بالسريانية يثرون . قلت : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتُفِرُّونَ ۝۱۰۰۱ وَهُمْ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ كَمَا سَنَدِّكُوهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثَّقَةُ ۝۱۰۰۲ قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ ۝۱۰۰۳ هَذِهِ دَعْوَةُ الرِّسْلِ كُلِّهِمْ ۝۱۰۰۴ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۝۱۰۰۵ ﴾ ، أي : قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتمكم به ، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أي : لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا .

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا يَكْلِيَّ صِرَاطِ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا ۝۱۰۰۶ وَأَنذَرُوكُمُوهَا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا نَّكَرْتُمُوهَا وَأَنْظَرُوكُمُوهَا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝۱۰۰۷ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝۱۰۰۸ ﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا يَكْلِيَّ صِرَاطِ تُوعِدُونَ ۝۱۰۰۶ ﴾ أي : تتواعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم ، قال السدي وغيره : كانوا عشارين ، وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا يَكْلِيَّ صِرَاطِ تُوعِدُونَ ۝۱۰۰۶ ﴾ : أي تتواعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه ، والأول أظهر ؛ لأنه قال : ﴿ يَكْلِيَّ صِرَاطِ ۝۱۰۰۶ ﴾ وهو الطريق ، وهذا الثاني هو قوله ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا ۝۱۰۰۶ ﴾ أي : وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة ﴿ وَأَنذَرُوكُمُوهَا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا نَّكَرْتُمُوهَا ۝۱۰۰۷ ﴾ أي : كنتم مستضعفين لقتلكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿ وَأَنْظَرُوكُمُوهَا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝۱۰۰۸ ﴾ أي : من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله . وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا ۝۱۰۰۸ ﴾ أي : قد اختلفتم علي ﴿ فَاصْبِرُوا ۝۱۰۰۸ ﴾ أي : انتظروا ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۝۱۰۰۸ ﴾ وبينكم أي : يفصل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝۱۰۰۸ ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/١) والترمذي في سننه (١٤٥٦) وأبو داود في سننه (٤٤٦٢) .

﴿ قَالَ أَلَمْ أَكُنْ مِنَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَمُخْرِجِكَ يَنْشِعُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِينَتَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِيثَاقًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاعِلِينَ ﴿٨٩﴾ ۝ ﴾ .

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم ، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملّة . وقوله : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ ؟ يقول : أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه فإننا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً ، وهذا تنفير منه على اتباعهم ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ وهذا رد إلى الله مستقيم فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي : في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاعِلِينَ ﴾ أي : خير الحاكمين ، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً .

﴿ وَقَالَ أَلَمْ أَكُنْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴿٩٠﴾ ۝ فَآخَذَتْنَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾ ۝ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وقرودهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا وقالوا : ﴿ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴾ فلهذا عقبه بقوله : ﴿ فَآخَذَتْنَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾ أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم في سورة هود فقال : ﴿ وَلَكِنَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِجَنَّتَيْنَا شُعَيْبًا وَآلِيَيْنَ ءَامِنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَآخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَآصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا ﴾ أي : كأنهم لما أصابتهم النقرة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلاً لقليلهم : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

﴿ فَنُوحِلْهُمْ عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَقَوْمُ لَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ رَسُولًا رَقِيَ وَنَصَحَتْ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَنَ عَلَى قَوْمٍ كَفِيرِينَ ﴾ . أي : فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقرة والنكال ، وقال مقررًا لهم وموبخًا : ﴿ يَتَقَوْمُ لَقَدْ أَتَيْنَاكُمْ رَسُولًا رَقِيَ وَنَصَحَتْ لَكُمْ ﴾ أي : قد أدبت إليكم ما أرسلت به فلا أسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به فلهذا قال : ﴿ فَكَيْفَ ءَامَنَ عَلَى قَوْمٍ كَفِيرِينَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَيْنِ نَبِيٍّ إِلَّا آخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٢﴾ ۝ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيْنَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَمَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء ، يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك لعلمهم يضرعون ، أي : يدعون ويخشعون ويتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم . وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم ، فقلب عليهم الحال إلى

الرخاء ليختبرهم فيه ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ أي : حولنا الحال من شدة إلى رخاء ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ليشكروا على ذلك فما فعلوا . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ عَفَوْا ﴾ أي : كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، يقال : عفا الشيء إذا كثر ﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آيَاتُنَا الْقُرْآنَ وَالنَّصْرَ فَآخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ لَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول تعالى : ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينبؤا إلى الله ، فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا ، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا ، وقالوا : قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين ، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت في الصحيحين : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » ^(١) وجاء في الحديث : « لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ حَتَّىٰ يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنْ دُنُوبِهِ ، وَالْمُتَّقِيُّ مِثْلُهُ كَمَثَلِ الْحِمَارِ لَا يَذِرِي فِيْمَ رِبْطُهُ أَهْلُهُ وَلَا فِيْمَ أَرْسَلُوهُ » ^(٢) ﴿ فَآخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ لَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : أخذناهم بالعقوبة بغتة ، أي : على بغتة وعدم شعور منهم ، أي أخذناهم فجأة ، كما في الحديث : « مَوْتُ الْفَجَاءَةِ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ ، وَأَخْذَةُ أَصْفٍ لِلْكَافِرِ » ^(٣) .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(٤) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ يَقِيمُونَ ﴿٥﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٦﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْسَسْ لَمَّا ءَامَنُوا كَسَفْنَا عَنْهُمْ غَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي : أمنت قرية بتمامها إلا قوم يؤنس فإنهم آمنوا وذلك بعدما عاينوا العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ أي : أمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : قطر السماء ونبات الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ، ثم قال تعالى مخوفاً ومحدِّثاً من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجه : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾ أي : الكافرة ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ أي : عذابنا ونكالنا ﴿ بَيِّنًا ﴾ أي : ليلاً ﴿ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴾ ^(٥) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْمِزُونَ ﴿٦﴾ أي : في حال شغلهم وغفلتهم ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ أي : بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رحمته الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٦٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٨/٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٤٦/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٧٤/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٩/٤) وأبو داود في سننه (٣١١٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٧٨/٣) .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ أولم يبين لهم ﴿ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ قال مجاهد وغيره في تفسيرها : أولم يبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا على ربهم ﴿ أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ يقول : أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : ونختم على قلوبهم ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ موعظة ولا تذكيرا . قلت : وهكذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ . ﴿ يَذْكُرُ الْفُرْقَى نَفْضَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ .

لما قص تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين ، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن يبين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى : ﴿ يَذْكُرُ الْفُرْقَى نَفْضَ عَلَيْكَ ﴾ أي : يا محمد ﴿ مِنْ أَنْبِيَائِهِ ﴾ أي : من أخبارها ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى يَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ الباء سببية ، أي : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم ولهذا قال هنا ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ ﴾ أي : لأكثر الأمم الماضية ﴿ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ أي : ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامثال ، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه ، وأخذ عليهم في الأصلاص أنه ربهم ومليكمهم وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع وفي الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك ، كما جاء في صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَأَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَخَوَّعَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَخْلَلْتُ لَهُمْ » ^(١) وفي الصحيحين « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَهْوَاهُ يَهُودَانَهُ ، وَنَصْرَانَهُ ، وَمَجْسَنَانَهُ » ^(٢) الحديث ، وقد قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ ما روي عن أبي بن كعب قال : كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق أي : فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك ، وقال السدي : ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فأمنوا كرها ، وقال مجاهد هذا كقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا ﴾ الآية . ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَاهُ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ . يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي : الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط

(١) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) وأحمد في مسنده (١٦٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٢ ، ٢٥) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .

وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿مُوسَىٰ يَتَذَكَّرُ﴾ أي : بحجتنا ودلائلنا البينة إلى فرعون وهو ملك مصر في زمن موسى ﴿وَمَلَايِكَةٍ﴾ أي : قومه ﴿فَقَالُوا يَا أَيُّهَا أَيُّهَا : جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْمَلَكِينَ﴾ حَقِيقٌ عَلَيْهِ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جُنْتُكُمْ بِبَيْنَتِهِ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٤﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمَكِيدِينَ .

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون والجمامه إياه بالحجة وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر فقال تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْمَلَكِينَ﴾ أي : أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربى ومليكه ﴿حَقِيقٌ عَلَيْهِ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فقال بعضهم : معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق ، أي : جدير بذلك وحري به ، قالوا : والباء وعلى يتعاقبان ، وقال بعض المفسرين : معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق ، وقرأ آخرون من أهل المدينة ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾^(١) بمعنى واجب وحق علي ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿قَدْ جُنْتُكُمْ بِبَيْنَتِهِ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي : بحجة قاطعة من الله أعطانها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي : أطلقهم من أسرك وقهرك ودعمهم وعبادة ربك وربهم فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمَكِيدِينَ﴾ أي قال فرعون : لست بمصدقك فيما قلت ، ولا بمعطيك فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت .

﴿فَأَلْفَنِي عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وَرَجَّ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ .

قال ابن عباس في قوله : ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الحية الذكر ، وفي حديث الفتون^(٢) عن ابن عباس قال : ﴿فَأَلْفَنِي عَصَاهُ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاهما مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل ، وقال قتادة : تحولت حية عظيمة مثل المدينة ، وقال السدي في قوله : ﴿فَأِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الثعبان الذكر من الحيات فاتحة فاهما واضعة لحيةما الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح : يا موسى خذها وأنا أو من بك وأرسل معك بني إسرائيل ، فأخذها موسى ~~التي~~ فعادت عصا ، وقال وهب بن منبه : لما دخل موسى على فرعون قال له فرعون : أعرفك ، قال نعم ، قال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا فِيْنَا وَلِيدًا﴾ قال : فرد إليه موسى الذي رد ، فقال فرعون : خذوه فبادر موسى ﴿فَأَلْفَنِي عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ فحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً ، قتل بعضهم بعضاً ، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت^(٣) . وقوله ﴿وَرَجَّ يَدُهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِ﴾ أي : أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا

(١) قرأ نافع ﴿علي﴾ بتشديد الياء ، وقرأ الباقر ﴿على﴾ بالتخفيف (انظر : حجة القراءات ص ٢٨٩) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٦/١٦) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره ٢٠/٩ وهذا القصة هي من مرويات بني إسرائيل المشهورة في الكتب .

مرض كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْخِلْ بِدَكَ فِي جَبِيكَ فَخَرَّجَ يَصْغَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ﴾ الآية ، وقال ابن عباس في حديث الفتون : ﴿ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ﴾ يعني من غير برص ، ثم أعادها إلى كنه فعدادت إلى لونها الأول .
﴿ قَالَ أَمْلَأْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكُمْ فَكَذَا تَأْمُرُونَ .

أي قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه واستقر على سريره مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ فوافقه وقالوا كمثلته وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره ، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته وظهور كذبه وافتراءه ، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون ، فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم ، والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى : ﴿ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَجًا وَهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ فلما تشاوروا في شأنه واتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاها الله تعالى عنهم في قوله تعالى :
﴿ قَالُوا أَتَمْنَى وَأَخَاهُ وَأَرْسِلَ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ ﴾ بِأَتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ .

قال ابن عباس ﴿ أَمْنَى ﴾ أخره ، وقال قتادة : احبسه ﴿ وَأَرْسِلَ ﴾ أي : ابعث ﴿ فِي الدَّائِنِ ﴾ أي : في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿ حَشِيرِينَ ﴾ أي : من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم ، وقد كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء موسى به ﷺ من قبيل ما تشعبه سحرتهم ، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البيئات .
﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَرِعُونَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَيَنَّ الْمَقْرِينَ .
يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى ﷺ إن غلبوا موسى ليثيبهم وليعطينهم عطاء جزيلا ، فوعدهم ومثاهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقرين عنده ، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله :
﴿ قَالُوا يَمْشِي إِمَامًا أَنْ تُلْقَى وَإِمَامًا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمَلِيقِينَ ﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ .

هذه مبارزة من السحرة لموسى ﷺ في قولهم : ﴿ إِمَامًا أَنْ تُلْقَى وَإِمَامًا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمَلِيقِينَ ﴾ أي : قبلك ، فقال لهم موسى ﷺ : ﴿ أَلْقُوا ﴾ أي : أنتم أولا ، قيل : الحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار منهم لحجته ، فيكون أوقع في النفوس ، وكذا كان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أي : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال . قال ابن عباس : ألقوا حبالا غلاظا وخشبيا طوالا ، قال : فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، وقال محمد بن إسحاق : صف خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر حباله وعصيه ، وخرج موسى ﷺ معه أخوه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته ، ثم قال السحرة : ﴿ يَمْشِي إِمَامًا أَنْ تُلْقَى وَإِمَامًا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ قَالَ بَلْ

أَلْقَوْا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعْيُهُمْ ﴿١﴾ فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس بعد ، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصي فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً ، وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل ليس رجل منهم إلا ومعه جبل وعصا ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَوْبَهُمُ ﴿٣﴾ يقول : فرقوم أي : من الفرق ، ولهذا قال تعالى : ﴿٤﴾ وَجَاءَهُمْ سِحْرٌ عَظِيمٌ ﴿٥﴾ .

﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ فَغَلَبُوا هُنَاكَ وَلَقَبُوا صَاحِبِينَ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢﴾ .

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل ، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿٦﴾ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴿٧﴾ أي : تأكل ﴿٨﴾ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٩﴾ أي : ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل ، قال ابن عباس : فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته ، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ، ليس هذا بسحر ، فخرّوا سجداً وقالوا : ﴿١٠﴾ ءَأَمَّا رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢﴾ جعلت تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا ، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت ، ووقع السحرة سجداً ، و ﴿١٣﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٤﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٥﴾ ، لو كان هذا ساحراً ما غلبنا ﴿١٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ فاغرفاه يبتلع حبالهم وعصبيهم فألقى السحرة عند ذلك سجداً ، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها . ﴿١٨﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْسَتْكُمْ يَدِي قَبْلَ أَنْ ءَادَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْسُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَهُ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا نَنبِئُكَ بِإِلاَّ أَنْتَ ءَأَمَّا رَبِّاتٍ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأْ سُلَيْمِينَ ﴿٢٢﴾ .

يخبر تعالى عما توعد به فرعون - لعنه الله - السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله : ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴿٢٤﴾ أي : إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى : ﴿٢٥﴾ إِنَّمَا لَكُم مِّمَّا أَكَلْتُمْ شِسْرَةً ﴿٢٦﴾ وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل ، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملته سلطته ، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملا من قومه ، وأحضّرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل ، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون ، وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تسترًا وتدليسًا على رعا ع دولته وجهلتهم ، كما قال تعالى : ﴿٢٧﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴿٢٨﴾ فإن قومًا صدقوه في قوله : ﴿٢٩﴾ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٣٠﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم ، وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى : ﴿٣١﴾ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ ﴿٣٢﴾

قال : التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة ، فقال له موسى : أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق ، قال الساحر : لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر ، فوالله لئن غلبتني لأؤمنن بك ولأشهدن أنك حق ، وفرعون ينظر إليهما ، قالوا : فلماذا قال ما قال ، وقوله : ﴿ لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا ﴾ أي : تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : ما أصنع بكم ، ثم فسر هذا الوعيد بقوله : ﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَبْطَلُكُمْ مِنَ الْخَلْقِ ﴾ يعني يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿ فِي جُودَعٍ أَلْتَلِّحُ ﴾ أي : على الجذوع ، قال ابن عباس : وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون .

وقول السحرة : ﴿ إِنَّا لَكُمْ رِيَّاءُ مُقْبِلُونَ ﴾ أي : قد تحققنا أنا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك ونكاله على ما تدعوننا إليه اليوم ، وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك ، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله ، ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أي : عمتنا بالصبر على دينك والثبات عليه ﴿ وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ ﴾ أي : متابعين لنبيك موسى عليه السلام ، وقالوا لفرعون : ﴿ فَأَقِصْ مَا أَنْتَ فَاخِرٌ إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ لَعْنَةَ الذَّنْبِ ﴾ ﴿ إِنَّا عَامِنَا بِرَبِّنَا يَنْفِرُ لَنَا خَلَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابِتٌ ﴾ فكانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء بررة ، قاله ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج .

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَذَكَرْكَ وَآلِهَتُكَ قَالَ سَتَقْبِلُونَ آيَاتَهُمْ وَتَسْتَجِيبُ لِنِسَاءِهِمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَبِمَا كُفَرْنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَزْدُكُمْ وَسَتَجْلِبُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما تمألاً عليه فرعون وملؤه وما أضمره لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : لفرعون ﴿ أَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴾ أي : أتدعهم ليفسدوا في الأرض ، أي : يفسدوا أهل رعيته ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك ، يا الله العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! إلا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، ولهذا قالوا : ﴿ وَذَكَرْكَ وَآلِهَتُكَ ﴾ قال بعضهم : الواو هنا حالية ، أي : أأنذره وقومه يفسدون في الأرض وقد ترك عبادتك ؟ وقرأ ذلك أبي بن كعب ، وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك ، وقال آخرون : هي عاطفة ، أي : أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك ؟ وقرأ بعضهم : (إلهتك) أي : عبادتك ^(١) ، وعلى القراءة الأولى قال بعضهم : كان لفرعون إله يعبد ، قال الحسن البصري : كان لفرعون إله يعبد في السر ، وقال في رواية أخرى : كان له حنانة في عنقه معلقة يسجد لها ، ﴿ سَتَقْبِلُونَ آيَاتَهُمْ وَتَسْتَجِيبُ لِنِسَاءِهِمْ ﴾ ، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل في صنيعة أيضاً لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد : أعزهم الله وأذلهم وأرغمهم

(١) قرأ أبي بن كعب (قد تركوك أن يعبدوك وآلهتك) وقرأ ابن عباس (وآلهتك) (الطبري في تفسيره ٣٣/٩) .

أنفه وأغرقه وجنوده . ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله : ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلشَّافِقِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَوَإِذَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي : فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك ، فقال منبها لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه في ثاني الحال : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَذْرَابَكُمْ ﴾ الآية ، وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَلَيَْهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿ بِالسِّنِينَ ﴾ وهي سنين الجوع بسبب قلة الزروع ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ قال مجاهد : وهو دون ذلك ، وقيل : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ ﴾ أي : من الخصب والرزق ﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أي : هذا لنا بما نستحقه ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي : جذب وقحط ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أي : هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَلَيَْهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : مصائبهم عند الله ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَلَيَْهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي : من قبل الله .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ مَائِدَتِ مِصْرَ فَنُصَلَّتْ فَنَسَّكَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ وَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزَ قَالُوا يَنْمُوسَى اادْعُ لَنَا رَبَّكَ إِنَّمَا عَاهَدُ عِنْدَكَ لَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتَرْسِلُنَا مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يقولون : أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها ، فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾ اختلفوا في معناه ، فعن ابن عباس في رواية : كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ، وعنه في رواية أخرى : هو كثرة الموت ، وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد : الطوفان : الماء والطاعون على كل حال ، وعن عائشة ؓ قالت : قال رسول الله ﷺ : « الطوفان : الموت » ^(١) ، وقال ابن عباس في رواية أخرى : هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ ﴿ فَلَمَّا عَلِيَ طَلَمُوتُ بَيْنَ رَبِّكَ وَهُمْ قَائِمُونَ ﴾ ، وأما الجراد فمعروف مشهور ، وهو مأكول كما ورد عن أبي يعفور قال : سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد فقال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد ^(٢) . وروي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « أُحِلَّتْ لَنَا مِيتَتَانِ وَدَمَانِ : الْحَوْثُ وَالْجَرَادُ ، وَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ » ^(٣) وعن سلمان قال : سئل

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٣٠٠/٨) والهندي في كنز العمال (٢٨٩٦) .

(٢) أخرجه النسائي في سننه (٤٣٥٦) وذكره الهنفي في مجمع الزوائد (٢٤٤/٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٧/٢) وذكره البيهقي في السنن الكبرى (٢٥٤/١) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٨/١) .

رسول الله ﷺ عن الجراد فقال : « أَكْثَرُ جُنُودِ اللَّهِ لَا أَكْلُهُ وَلَا أَحْرَمُهُ » ^(١) وإنما تركه عليه الصلاة والسلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه .

وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة ، وعنه أنا الدبا وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : القمل البراغيث ، وقال ابن جرير : القمل جمع واحدها قملة وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل فيما بلغني .

قال : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب الحممان ، واحدها حممانة ، وهي صغار القردان فوق القمامة . وعن سعيد بن جبير قال : لما أتى موسى ﷺ فرعون قال له : أرسل معي بني إسرائيل فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر ، فصب عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فأثبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبت قبل ذلك من الزروع والثمار والكلاء ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلبه على الكلاء ، فلما رأوا أثره في الكلاء عرفوا أنه لا يقي الزرع ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، فداسوا وأحرقوا في البيوت ، فقالوا : قد أحرزنا ، فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه ، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل ، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع ، فقال لفرعون : ما تلقى أنت وقومك من هذا ؟ فقال : وما عسى أن يكون كيد هذا ؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فيشب الضفدع في فيه ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فلم يؤمنوا ، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً فشكوا إلى فرعون ، فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب ، فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً ، فأتوه وقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ^(٢) .

وقد روي نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقاتدة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك ، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمته الله : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلولاً مغلولاً ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين ، وأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ، ثم ركد لا يقدر أن يحرقوا ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٨١٣) وابن ماجه في سننه (٣٢١٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٥٧/٩) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٤٦/٩) .

جوعاً ، فلما بلغهم ذلك ﴿ قَالُوا يَمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجَرَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني ، حتى إن كان لياكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كتيب حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كتيب أهيل عظيم فضربه بها ، فانتال عليهم قملًا حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فسأل ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دمًا لا يستقون من بحر ولا نهر ، ولا يعترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا .

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَأْتِمُتُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكَنَا فِيهَا وَتَمَّتْ رِجَّتُكَ الْحَقُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا بِعِرْشَتِهِ .

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة ، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم ، وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم ، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم ، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الحسن البصري وقادة في قوله : ﴿ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكَنَا فِيهَا ﴾ يعني الشام ، وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ رِجَّتُكَ الْحَقُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ قال مجاهد وابن جرير : وهي قوله تعالى : ﴿ وَزَيْدٌ أَنْ تَتَّنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ وتكن لهم في الأرض وتري فِرْعَوْنَ وَهَمْلَنَ وَهَمْلَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْدُرُونَ ﴿ وقوله : ﴿ وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ أي : وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿ وَمَا كَانُوا بِعِرْشَتِهِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : ﴿ بِعِرْشَتِهِ ﴾ يبنون .

﴿ وَجَوْرْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْرِ يَمْكُتُونَ عَلَى أَصْنَائِهِمْ لَهْمُ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَطِيلٌ مَا كَانُوا يَمْلُكُونَ .

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿ فَأَتَوْا ﴾ أي : فمروا ﴿ عَلَى قَوْرِ يَمْكُتُونَ عَلَى أَصْنَائِهِمْ لَهْمُ ﴾ . قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين ، وقيل : كانوا من لحم ، قال ابن جرير : وكانوا يعبدون أصنامًا على صور البقر ، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك ، فقالوا : ﴿ يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي : تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من

الشريك والمثيل ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءَ مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ ﴾ أي : هالك ﴿ وَنَطْلُ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴾ فعن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة فقلت : يا نبي الله : اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ : « اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴾ اجْعَلْ لَنَا لَهَا كَمَا لَمْ ءَالِهَةً ﴿ إِنَّكُمْ تَزْكِبُونَ شَيْئًا مِنْ قَبْلِكُمْ » ^(١) .

﴿ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهِهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْغَالِبِينَ ﴾ ﴿ وَإِذْ أَجَبْنَاكُمْ مِنْ مَّالٍ فِرْعَوْنَ بِسُوءِكُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ يُقِيلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

يذكرهم موسى ﷺ نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره . ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّيَ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى ممثلاً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى ﷺ وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم ، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ، قال المفسرون : فصامها موسى ﷺ وطواها ، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة ، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين ، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي ، فالأكثر على أن الثلاثين هي : ذو القعدة والعشر : عشر ذي الحجة ، وروي عن ابن عباس وغيره ، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى ﷺ وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور ، فحينئذ استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الفساد ، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون ﷺ نبي شريف كريم على الله له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن موسى ﷺ أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه ، فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظِرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي ﴾ وقد أشكل حرف لن ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأييد ، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة ، وهذا أضعف الأقوال ؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى : ﴿ وَجِبُّهُ يَوْمَ هُمْ نَاصِرَةٌ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ .

عن أنس عن النبي ﷺ قال : لما تجلى ربه للجبل أشار بإصبعه فجعله دكاً ، وأرانا أبو إسماعيل بإصبعه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٥) والطبراني في الكبير (٢٧٥/٣ ، ٢٧٦) .

السبابة ، وعن أنس أيضًا أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : هكذا ياصبعه ، ووضع النبي ﷺ إصبعه الإبهام على الفصل الأعلى من الخنصر « فَسَاخَ الْجَبَلُ » ^(١) .

وقال ابن عباس في قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ قال : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال : ترابًا ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا ﴾ قال : مغشيًا عليه ، وقال قتادة : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا ﴾ قال : ميتًا ، وقال سفيان الثوري : ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب معه .

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « لَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِلْجَبَلِ طَارَتْ لِعَظَمَتِهِ سِتَّةُ أَجْبَلٍ ، فَوَقَعَتْ ثَلَاثَةٌ بِالْمَدِينَةِ وَثَلَاثَةٌ بِمَكَّةَ ، بِالْمَدِينَةِ : أَحَدُ وَزَوْقَانِ وَرَضْوَى ، وَوَقَعَ بِمَكَّةَ : حِزَاءٌ وَثَبِيرٌ وَغُزُورٌ » ^(٢)

وقيل : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ فنظر إلى الجبل لا يمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقًا ، وقال عكرمة : ﴿ جَعَلَهُ دَكًا ﴾ قال : نظر الله إلى الجبل فصار صحراء ترابًا ، وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير ^(٣) ، والمعروف أن الصعق هو الغشي ها هنا كما فسره ابن عباس وغيره ، لا كما فسره قتادة بالموت وإن كان ذلك صحيحًا في اللغة ، كقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَكُوتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ ﴾ فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشي وهو قوله : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿ قَالَ سُبْحَنَكَ ﴾ تنزيهاً وتعظيمًا وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات وقوله : ﴿ بَيَّنْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال مجاهد : أن أسألك الرؤية ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : أنه لا يراك أحد ، وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول : أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة ، وهذا قول حسن له اتجاه .

وقوله : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَوِقًا ﴾ فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبي ﷺ فأما حديث أبي سعيد الخدري ﷺ فقال : جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه ، وقال : يا محمد إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي قال : « اذغوه » فدعوه قال : « لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ ؟ » قال : يا رسول الله إني مررت باليهودي فسمعتة يقول : والذي اصطفى موسى على البشر ، قال : وعلى محمد ؟ قال : فقلت : وعلى محمد وأخذتني غصبة فلطمته ، فقال : « لَا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يُضَعِّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَنْفِقُ ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرُوشِ ، فَلَا أَذْرِي أَفَاقَ قَبِيلِي أَمْ جُوزِي بِصَفْقَةِ الطُّورِ » ^(٤) . وأما حديث أبي هريرة فقال : استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمدًا على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه ، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره ، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٧٤) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١٩/٣) والهندي في كنز العمال (٤٣٧٧) .

(٣) قرأ حمزة والكسائي ﴿ دكًا ﴾ بالمد والهمز ، وقرأ الباقون ﴿ دكا ﴾ منوًا (انظر حجة القراءات ص : ٢٩٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٢) ومسلم في الفضائل (١٥٩) .

تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى فَإِنَّ النَّاسَ يَضْعُقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفَيْقُ ، فَإِذَا يُمَوِّسِي مُنْسِكَ بِجَانِبِ الْعَرْشِ ، فَلَا أَذْرِي أَكَانَ مِنْ صُعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ يَمَا اسْتَنْتَى اللَّهُ ﷻ » (١) .

والكلام في قوله ﷻ : « لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى » كالكلام على قوله : « لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَلَا عَلَى يُؤُنْسَ بْنِ مَتَّى » قيل : من باب التواضع ، وقيل : قبل أن يعلم بذلك ، وقيل : نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب ، وقيل : على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي ، والله أعلم . وقوله : « فَإِنَّ النَّاسَ يَضْعُقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه - والله أعلم به - وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ، وتجلي للخلائق الملك الديان ، كما صعق موسى من تجلي الرب تبارك وتعالى ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « فَلَا أَذْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَغْفَةِ الطُّورِ » .

﴿ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَى فَنَذَ مَا ءَاتَيْتُكَ وَكَذَّبْتَ الشَّكْرِينَ ﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَهُوَّ وَآمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأَوِيكَ دَارَ الْفَنَاقِينَ . يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم ، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل ﷺ ، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن ﷺ ، ولهذا قال الله تعالى له : ﴿ فَنَذَ مَا ءَاتَيْتُكَ ﴾ أي : من الكلام والمناجاة ﴿ وَكَذَّبْتَ الشَّكْرِينَ ﴾ أي : على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به ، ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ، قيل : كانت الألواح من جوهر وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام ، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَدَمِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصِكَايَرٍ لِّلنَّاسِ ﴾ وقيل : الألواح أعطاها موسى قبل التوراة ، فالله أعلم ، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه ، والله أعلم . وقوله ﴿ فَنَذَ مَا يَهُوَّ ﴾ أي : بعزم على الطاعة ﴿ وَآمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا ﴾ قال ابن عباس : أمر موسى ﷺ أن يأخذ بأشد ما أمر قومه .

وقوله : ﴿ سَأَوِيكَ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴾ أي : سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدماء والتباب ، قال ابن جرير : وإنما قال : ﴿ سَأَوِيكَ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره ، ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري وقيل : معناه ﴿ سَأَوِيكَ دَارَ الْفَنَاقِينَ ﴾ أي : من أهل الشام وأعطيكم إياها ، وقيل : منازل قوم فرعون والأول أولى ، والله أعلم ؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر ، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه ، والله أعلم .

(١) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١١) ومسلم في الفضائل (١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢) وأحمد في مسنده (٢٦٤/٢) .

﴿ سَامِرِثُ عَنْ مَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ مَائِنَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ اللَّهِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾^{١٤٦} وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

يقول تعالى : ﴿ سَامِرِثُ عَنْ مَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي : سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق ، أي : كما استكبروا بغير حق أدلهم بالجهل . وقال بعض السلف : لا ينال العلم حيي ولا مستكبر ، وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً ، وقال سفيان بن عيينة في قوله : ﴿ سَامِرِثُ عَنْ مَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ قال : أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي . قال ابن جرير : وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة . قلت : ليس هذا بل لازم لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ مَائِنَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^{١٤٧} وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كَلَّ مَائِنَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْمَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ أي : وإن ظهر لهم سبيل الرشداً أي : طريق النجاة لا يسلكوها ، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً ، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : كذبت بها قلوبهم ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أي : لا يعملون بما فيها . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ ﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله وقوله : ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر وكما تُدين ثدان .

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَدْوٍ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُمْ خُورٌ أَلَّهُ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾^{١٤٨} وَلَمَّا سَيطَ فِتْ أَيْدِيَهُمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَتَفَرَّغَ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حليّ القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكّل لهم منه عجلاً ، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلاً جسداً له خوار ، والخوار صوت البقر ، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى ، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى لإخباراً عن نفسه الكريمة : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَسْلَمْنَا السَّامِرِيُّ ﴾ وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوّت كالبقرة على قولين ، والله أعلم . ويقال : إنهم لما صوّت لهم العجل رقصوا حوله وافتنوا به وقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴿ أَلَّهُ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ ينكر تعالى عليهم ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ، ولكن غطى على أعين بصائرهم

عمى الجهل والضلال كما تقدم عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « حُبُّكَ الشَّيْءَ يُغَيِّبُ وَيُصَيِّمُ » ^(١) .

وقوله : ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي : ندموا على ما فعلوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وقرأ بعضهم ﴿لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا﴾ بالطاء المثناة من فوق ﴿رَبُّنَا﴾ منادى و﴿تَغْفِرْ لَنَا﴾ ^(٢) ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله ﷻ .
﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَ عَلَيْهِمْ أَيْضًا قَالَ يَسْتَأْذِنُ بَلَدَيْنِي مِنْ بَدِيِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوكُمْ وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ فِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوَرِ الْأَعْلَى﴾ ^(٣) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

يخبر تعالى أن موسى ﷺ لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف ، قال أبو الدرداء : والأسف : أشد الغضب ﴿قَالَ يَسْتَأْذِنُ بَلَدَيْنِي مِنْ بَدِيِّكُمْ﴾ يقول : بش ما صنعتكم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم . وقوله : ﴿أَعِجِّلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول : استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى . وقوله : ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ قيل : كانت الألواح من زمرد ، وقيل : من ياقوت ، وقيل : من برد ، وقيل : من سدر ، وفي هذه دلالة على ما جاء في الحديث : « لَيْسَ الْخَبِيرُ كَالْمُعَايِنَةِ » ^(٤) ثم ظاهر السياق أنه إما ألقى الألواح غضبا على قومه وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا ، وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة ، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء وهو جدير بالرد ، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة . وقوله : ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيمهم ﴿يَا ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوكُمْ وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ فِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوَرِ الْأَعْلَى﴾ أي لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم ، وإنما قال : ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ ليكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى ﷺ براءة ساحة هارون ﷺ فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْخَبِيرِ ، أَخْبِرَهُ رَبُّهُ ﷻ أَنَّ قَوْمَهُ قُتِلُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَابَ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَابَ » ^(٥) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوَعَالَ سَيَأْتِيهِمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ^(٦) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا وقوله : ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٤/٥) وأبو داود في سننه (٥١٣٠) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (تغفر لنا وترحمنا) بالخطاب فيهما ونصب باء (ربنا) والباقون بالغيب والرفع (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/١) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٥٣/١) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٨٠/٢) .

ناثلة لكل من افترى بدعة فإن ذل البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه وقال سفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل ، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي يا محمد يا رسول التوبة ونبي الرحمة ﴿ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد تلك الفعللة ﴿ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن ذلك ، يعني الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها ، فتلا هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ فِي شَخْبَتِهَا هَذَى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ . يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ ﴾ أي سكن ﴿ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ ﴾ أي غضبه على قومه ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَابَ ﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له ﴿ فِي شَخْبَتِهَا هَذَى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ يقول كثير من المفسرين : إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ؛ ولهذا قال بعض السلف : فوجد فيها هذى ورحمة ، وأما التفصيل فذهب ، وزعموا أن رضاها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك من بني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية ، وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها وهي من جوهر الجنة ، فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿ هَذَى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ ضمن الرهبة معنى الخضوع ولهذا عداها باللام .

وقال قتادة : في قوله تعالى : ﴿ أَخَذَ الْأَلْوَابَ ﴾ قال : رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون ، أي آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا منها شيئاً ولم يعرفوه - قال قتادة : وإن الله أعطاكم آيتها الأمة من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم - قال : رب فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاثلون فصول الضلالة حتى يقاثلون الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة قبلت منه بعث الله عليها نازراً فأكلتها وإن ردت عليه فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقركم قال : رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها ، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم المستجيون والمستجاب لهم ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد ، قال : رب إني

أجد في الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال قتادة : فذكر لنا أن نبي الله موسى ﷺ نبذ الألواح وقال : اللهم اجعلني من أمة أحمد .

﴿ وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلِكَنَّهُ بِمَا فَعَلَ الشُّعْقَاءُ بِنَا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَافْغِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ • وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِنَّاكَ • .

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً فاختر سبعين رجلاً ، فبرز بهم ليدعوا ربهم ، وكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلِكَنَّهُ ﴾ الآية ، وقال السدي : إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً ﴿ وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ على عينيه ثم ذهب بهم ليعتذروا ، فلما أتوا ذلك المكان قالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ ﴾ يا موسى ﴿ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ فإنك قد كلمته فأمرناه ﴿ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْقَةَ ﴾ فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ؟ ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلِكَنَّهُ • .

وقال ابن عباس : إنهم أخذتهم الرجفة ؛ لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم ، ويتوجه هذا القول بقول موسى : ﴿ أَتْلِكَنَّا بِمَا فَعَلَ الشُّعْقَاءُ بِنَا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك . قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وأبو العالية ، والريعي بن أنس ، وغير واحد من علماء السلف والخلف ، ولا معنى له غير ذلك ، يقول : إن الأمر إلّا أمرك وإن الحكم إلّا لك فما شئت كان ، تضل من تشاء وتهدي من تشاء ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لمن منعت ولا مانع لما أعطيت ، فالملك كله لك والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر .

وقوله : ﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا فَافْغِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ الغفر هو الستر وترك المؤاخذه بالذنب ، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ أي لا يغفر الذنب إلّا أنت ﴿ وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور وهذا لتحصيل المقصود ﴿ وَكَتُبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أي أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة ﴿ إِنَّا هُنَا إِنَّاكَ ﴾ أي تبنا ورجعنا وأبنا إليك . وعن علي قال : إنما سميت اليهود لأنهم قالوا ﴿ إِنَّا هُنَا إِنَّاكَ • .

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ • .

يقول تعالى مجيباً لنفسه في قوله : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ الآية ، قال : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه لا إله إلّا هو ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ

رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴿ وعن جندب هو - ابن عبد الله البجلي ؓ - قال : جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقّلها ، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما وصل رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقّلها ثم ركبها ، ثم نادى : اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « أَتَقُولُونَ هَذَا أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ ؟ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ ؟ » قالوا : بلى قال : « لَقَدْ حَظَرْتُ رَحْمَةً وَاسِعَةً ، إِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَأَنْزَلَ رَحْمَةً يَتَعَاطَفُ بِهَا الْخَلْقُ ، جَنَّتْهَا وَإِنْشَأَهَا وَبَهَائِمُهَا ، وَأَخْرَجَ عَنْهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً ، أَتَقُولُونَ هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ ؟ » ^(١) وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، جَعَلَ عَنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، وَجَعَلَ عَنْدَكُمْ وَاحِدَةً تَتَرَاخَمُونَ بِهَا بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَبَيْنَ الْخَلْقِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صَمَّمَهَا إِلَيْهِ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ فَسَاكُنْتِهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ ﴾ الآية ، يعني فسأوجب حصول رحمتي منه مني وإحساناً إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ يَنْقُونَ ﴾ أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات ، وهم أمة محمد ﷺ ﴿ لِلَّذِينَ يَنْقُونَ ﴾ أي الشرك والعظائم من الذنوب . قوله : ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ قيل : زكاة النفوس ، وقيل : الأموال ، ويحتمل أن تكون عامة لهما ، فإن الآية مكية . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ يَتَابِعُنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يصدقون .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُمْ مَكْنُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيُبَصِّعُ عَنْهُمْ إِمْرَهُمْ وَأَخْلَلَ أَلْيَتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَحْدُثُ لَهُمْ مَكْنُوبًا عَنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشرى أمهم ببعثه وأمرهم باتباعه ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم ، كما روي عن رجل من الأعراب قال : جليت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعي قلت : لألقين هذا الرجل فلاسمع مني ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فبتعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ، ناشر التوراة يقرأها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَنْشُدْكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ هَذَا صِفَتِي وَمَخْرَجِي » فقال برأسه هكذا ، أي : لا ، فقال ابنه : أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال : « أَقِيمُوا الْيَهُودِيَّ عَنْ أَخِيكُمْ » ثم تولى كفته والصلاة عليه ^(٣) .

وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ؟ قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأمتين ، أنت عبدي ورسولي ، اسلمك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٢/٤) وأبو داود في سننه (٤٨٨٥) والحاكم في المستدرک (٢٤٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (١٩ ، ٢٠) وأحمد في مسنده (٥٢٦/٢) وابن ماجه في سننه (٤٢٩٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الحدود (٦) وأحمد في مسنده (٤١١/٥) وابن ماجه في سننه (٢٥٥٨) .

يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ويفتح به قلوبنا غلقاً وآذاننا صمّاً وأعيننا عمياً . قال عطاء : ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك ، فما اختلف حرفاً ، إلا أن كعباً قال بلغته قال : قلوبنا غلوفياً وآذاننا صمومياً وأعيننا عمومياً ^(١) . وعن محمد بن جبير بن معطم قال : خرجت تاجراً إلى الشام ، فلما كنت بأدنى الشام لقيني رجل من أهل الكتاب ، فقال : هل عندكم رجل نبياً ؟ قلت : نعم ، قال : هل تعرف صورته إذا رأيته ؟ قلت : نعم ، فأدخلني بيتاً فيه صور ، فلم أر صورة النبي ﷺ فبينما أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا ، فقال : فيم أنتم ؟ فأخبرناه ، فذهب بنا إلى منزله ، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبي ﷺ وإذا رجل آخذ بعقب النبي ﷺ ، قلت : من هذا الرجل القابض على عقبه ؟ قال : إنه لم يكن نبي إلا كان بعده نبي إلا هذا النبي فإنه لا نبي بعده ، وهذا الخليفة بعده وإذا صفة أبي بكر ﷺ .

وعن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب ﷺ قال : بعثني عمر إلى الأسقف فدعوت ، فقال له عمر : هل تجدني في الكتاب ؟ قال : نعم ، قال : فكيف تجدني ؟ قال : أجدك قرناً ، فرفع عمر الدرة وقال : قرن مه ، قال : قرن حديد أمير شديد ، قال : فكيف تجد الذي بعدي ؟ قال : أجد خليفة صالحاً غير أنه يؤثر قرابته ، قال عمر : يرحم الله عثمان ثلاثاً ، قال : كيف تجد الذي بعده ؟ قال : أجد صديقاً حديد ، فوضع عمر يده على رأسه وقال : يا دفراه يا دفراه ، قال : يا أمير المؤمنين إنه خليفة صالح ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيوف مسلولة والدم مهراق ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْعُرْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشُّكْرِ ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر ، كما قال عبد الله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فأرعاها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه ؛ ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ ﴾ . عن أبي حميد وأبي أسيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سمعتم الحديث عني بما تعرفه قلوبكم وتبين له أشعاركم وأبشاركم وتزورون أنه منكم قريب فأننا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكروه قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وتزورون أنه منكم بعيد ؛ فأننا أبعدكم منه » ^(٣) .

وقوله ﴿ وَحُجِّلَ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ قال ابن عباس : كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكول التي حرمها الله تعالى . قال بعض العلماء : فكل ما أحل الله تعالى من المأكول فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين ، وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من

(١) أخرجه : البخاري في التفسير (٤٨٣٨) وأحمد في مسنده ١٧٤/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٥٠) .

(٣) أخرجه أبو داود في مسنده (٤٦٥٦) .

يرى التحسين والتفبيح العقليين ، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له ، وكذا احتج بها من ذهب من العلماء ، إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب في حل رفاهيتها ، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبطته ، وفيه كلام طويل أيضًا .

وقوله : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أنه جاء باليسير والسباحة ، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بُعِثْتُ بِالْحَيَيَّةِ الشَّعْبَةِ » ^(١) وقال ﷺ لأُميريه معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن : « بَشِّرَا وَلَا تُفْسِرَا وَلَا تُعَسِّرَا وَتَطَاوَعَا وَلَا تُخْتَلِفَا » ^(٢) قال صاحبه أبو برزة الأسلمي : إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره ، وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائهم ضيق عليهم ، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ » ^(٣) وقال : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالْثَمَانِ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ » ^(٤) .

وقوله : ﴿ فَأَلْزِمُوا بِيَدِهِ وَجْرَهُ وَيَصْرُوهُ ﴾ أي عظموه ووقروه . وقوله : ﴿ وَأَتَّبِعُوا النَّوَارَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ ﴾ أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلى الناس ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿ قَدْ يَتَأَيَّمُ النَّاسُ إِنْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَمْ تُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُعِي وَيُحْيِي فَتَأَمُّوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ آلَتِي الْاُمِّي الَّذِي يَوْمُتُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ : ﴿ قَدْ ﴾ يا محمد ﴿ يَتَأَيَّمُ النَّاسُ ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿ إِنْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي جميعكم ، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ وعن أبي إدريس الخولاني قال : سمعت أبا الدرداء ؓ يقول : كانت بين أبي بكر وعمر ؓ محاورة ، فلأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عنه عمر مغضبًا ، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ، فقال أبو الدرداء ونحن عنده ، فقال رسول الله ﷺ : « أَمَا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ » أي غاضب وحاقد ، قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر ، قال أبو الدرداء : فغضب رسول الله ﷺ ، وجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله ﷺ : « هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو صَاحِبِي ؟ إِنْ قُلْتُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتُ » ^(٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) والهندي في كنز العمال (٩٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٨) ومسلم في الجهاد (٧) وأحمد في مسنده (٤١٧/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) ومسلم في الإيمان (٢٠١ ، ٢٠٢) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٢) .

(٤) أخرجه : أحمد في مسنده ٤٢٠/٤ .

(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٣٦/١٠) .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيتُ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي ، وَلَا أَقُولُهُ فَخْرًا ، بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدَ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَأُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُعْطِيتِ الشَّفَاعَةُ فَأَخْرَجْتُهَا لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَمِينُ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا » (١) ، وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » (٢) .

وفي الصحيحين أيضًا من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ ، وَأُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتِ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (٣) .

وقوله : ﴿ الَّذِي لَمْ يُلْثُ السَّنَكُوتَ وَالْأَرْضَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء ورب ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم . وقوله : ﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأَمِينُ ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿ النَّبِيُّ الْأَمِينُ ﴾ أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة ، فإنه منعوت بذلك في كتبهم ، ولهذا قال ﴿ النَّبِيُّ الْأَمِينُ ﴾ وقوله : ﴿ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَانَ فِي دِينِهِ ﴾ أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿ وَاتَّبِعُوهُ ﴾ أي اسلكوا طريقه وافتقوا أثره ﴿ لَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى الصراط المستقيم .

﴿ وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلونه به كما قال تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ .

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ آتِ بِصَكَكَ الْحَجَرِ فَلَبِجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْفَرَاسَ وَالسَّلَوتَ كُلُوا مِنْ طِبَّتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَقَرْنَا لَكُمْ خَوَاطِنَكُمْ سَرَّيْدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ .

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكِّي ، ونبناها على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا ، ولله الحمد والمنة .

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) والدارمي في سننه (٢٢٤/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) وأحمد في مسنده (٢٢٢/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) والدارمي في سننه (٢٢٤/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٢/١) .

﴿ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ افْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ الآية ، يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿ وَسَأَلْتَهُمْ ﴾ أي وأسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نعمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم ، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم ، وهذه القرية هي أيلة ، وهي على شاطئ بحر القلزم . قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ هي قرية يقال لها : أيلة بين مدين والطور .

وقوله : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ أي يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية به إذ ذاك ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا ﴾ قال ابن عباس : أي ظاهرة على الماء ، وقال ابن عباس : ظاهرة من كل مكان ، قال ابن جرير : وقوله : ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ ﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائهم عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ ﴾ نختبرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ يقول بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها ، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِبْنِ رَيْكَ وَلَعَلَّهَا يَتَّقُونَ ﴾ فَلَمَّا سَأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجَبْنَاهُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْبِيسَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق ، فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطيد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله ، فلا فائدة في نهيكهم إياهم ، قالت لهم المنكرة : ﴿ مَعَذَرَةَ إِبْنِ رَيْكَ ﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقديره هذه معذرة ، وقرأ آخرون بالنصب أي نفعل ذلك ﴿ مَعَذَرَةَ إِبْنِ رَيْكَ ﴾ ^(١) أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَلَعَلَّهَا يَتَّقُونَ ﴾ يقولون : ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَأَلُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي فلما أي الفاعلون قبول النصيحة ﴿ أَجَبْنَاهُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿ بِعَدَابِ بَيْبِيسَ ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكنين ؛ لأن الجزء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين ، على قولين ، وقال ابن عباس : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ

(١) قرأ حفص (معذرة) بالنصب والباقون بالرفع (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٦) .

مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿١٦٤﴾ : هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها : أيلة ، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر ، فإذا مضى يوم السبت لم يقدرُوا عليها ، فمضى على ذلك ما شاء الله ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة وقالوا : تأخذونها ، وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ، فلم يزدادوا إلا غيًّا وعتوًّا ، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم ، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النّهاء : تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿١٦٥﴾ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴿١٦٦﴾ وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى ، فقالوا : ﴿ مَعَذَرَةٌ لَّكَ رَبِّكَ وَلَعْلَهُمْ يَنْفِقُونَ ﴾ وكل قد كانوا ينفقون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ والذين قالوا : ﴿ مَعَذَرَةٌ لَّكَ رَبِّكَ ﴾ ، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة .

وعن عكرمة قال : جثت ابن عباس يوماً وهو يكي ، وإذا المصحف في حجره ، فأعظمت أن أدنو منه ، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست ، فقلت : ما يكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك ؟ قال : فقال : هؤلاء الورقات ، قال : وإذا هو في سورة الأعراف ، قال : تعرف أيلة ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه كان بها حي من اليهود سيق الحيتان إليهم يوم السبت ، ثم غاصت لا يقدرُون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة ، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً يبضاً سمناً كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأنفيتهم ، فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت ، فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام ، فقالت ذلك طائفة منهم ، وقالت طائفة : بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت ، فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها ، واعتزلت طائفة ذات اليمين وتحت ، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكت ، وقال الأيمنون : ويلكم الله ، نهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله ، وقال الأيسرون : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال الأيمنون : ﴿ مَعَذَرَةٌ لَّكَ رَبِّكَ وَلَعْلَهُمْ يَنْفِقُونَ ﴾ أي ينتهون ، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا ، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم ، فمضوا على الخطيئة ، وقال الأيمنون : فقد فعلتم يا أعداء الله ، والله لناثنينكم الليلة في مدينتكم ، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب ، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا ، فوضعوا سلماً وأعلوا سور المدينة رجلاً ، فالتفت إليهم فقال : أي عباد الله قردة ، والله تعاوي لها أذنان ، قال : ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القروء أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة ، فجعلت القروء يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابها وتبكي ، فيقول : ألم نهكم عن كذا ، فتقول برأسها : أي نعم ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ فَلَمَّا سَوَّأَ مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَنَّا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْإِسْوَاءِ وَآخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ قال : فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها ، قال : قلت : جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ قال : فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين ، وكذا روى مجاهد عنه .

وعن مالك قال : زعم ابن رومان أن قوله تعالى ﴿ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَكَنَتْهُمُ تُرَابًا ﴾ لا يسقطون لا تأتيتهم قال : كانت تأتيتهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر ، فاتخذ لذلك رجل خيطاً ووتدًا ، فربط حوقاً منها في الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد فاشتواه ، فوجد الناس ريحه فأثروه فسألوه عن ذلك فجحدهم ، فلم يزالوا به حتى قال لهم : فإنه جلد حوت وجدناه ، فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ، ولا أدري لعله قال : ربط حوتين ، فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه ، فوجدوا رائحة ، فجاءوا فسألوه ، فقال لهم : لو شئتم صنعتم كما أصنع ، فقالوا له : وما صنعت ؟ فأخبرهم ، ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك ، وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم ، فأصابهم من المسخ ما أصابهم ، فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس ، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم ، فتسوروا عليهم فإذا هم قردة ، فجعل القرود يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به ^(١) .

القول الثاني : أن الساكنين كانوا من الهالكين ، فعن ابن عباس أنه قال : ابتدعوا السبت ، فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان ، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر ، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل ، فإذا جاء السبت جاءت شرعاً فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخرم أنفه ، ثم ضرب له وتدًا في الساحل وربطه وتركه في الماء ، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاهم منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الأسواق ، ففعل علانية ، قال : فقالت طائفة للذين ينهونهم ﴿ لِمَ يَتَّبِعُونَ قَوْلَ اللَّهِ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذَرَةُ لِمَنِ رَبُّكَ ﴾ فقالوا : نسخط أعمالهم ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَرُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ قِرَدَةٌ خَسِيفَةٌ ﴾ قال ابن عباس : كانوا أثلاثاً ؛ ثلث نهوا ، وثلث قالوا : ﴿ لِمَ يَتَّبِعُونَ قَوْلَ اللَّهِ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وثلث أصحاب الخطيئة ، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم ^(٢) . وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكنين أولى من القول بهذا ؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَدْنَا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا بَئِيسًا ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا ، وبئس فيه قراءات كثيرة ، ومعناه الشديد ، وفي رواية : أليم ، وأخرى : موجه ، والكل متقارب والله أعلم ، وقوله : ﴿ خَسِيفَةٌ ﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكَّتُكَ لِبَيْعَتٍ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُمْ لَفُغْرٌ رَّجِيعٌ ﴾ .

﴿ تَأَذَّتْ ﴾ تفعل من الأذان أي أعلم ، وقال غيره : وأمره ، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا أتبع باللام في قوله : ﴿ لِبَيْعَتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على اليهود ﴿ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتياهم على

الحارم ، ويقال : إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وكان أول من ضرب الخراج ، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين ، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم لإيهم وأخذهم منهم الجزية والخراج ، ثم جاء الإسلام ومحمد عليه السلام فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية . قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : هي المسكنة وأخذ الجزية منهم ، وقال علي بن أبي طلحة عنه : هي الجزية ، والذي يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله عليه السلام وأمه إلى يوم القيامة ، وعن سعيد بن المسيب ، قال : يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية . قلت : ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارًا للدجال ، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام ، وذلك آخر الزمان .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ أي لمن عصاه وخالف شرعه ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعُودُ رَجِيءٌ ﴾ أي لمن تاب إليه وأتاب ، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس ، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرًا لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف .

﴿ وَقَعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن ياتهم عرض مثله يأخذوه أَرَأَيْتُمْ عَلَيْهِمْ يَتَّخِذُ الْكِتَابَ عَلَى اللَّهِ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارِ الْأَخْرَجَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا يَتَّقُونَ ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أما أي طوائف ﴿ وَمِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك ، ﴿ وَبَلَوْنَهُمْ ﴾ أي اختبرناهم ﴿ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ أي بالرخاء والشدة والرغبة والرهبه والعافية والبلاء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ يقول تعالى : فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم ، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة ، وقال مجاهد : هم النصارى وقد يكون أعم من ذلك ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ، ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه ، ولهذا قال : ﴿ وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ وكما قال سعيد بن جبیر : يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله ، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه . وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ قال : لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ويتمنون المغفرة ﴿ رِيقُولُونَ سِغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ وقال قتادة في الآية : إي والله لخلف سوء ﴿ وَرثُوا الْكِتَابَ ﴾ بعد أنبيائهم ورسلمهم أورثهم الله وعهد إليهم ، وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ الآية . قال : ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ يقولون سيغفر لنا ﴿ تَمَنَّا عَلَى اللَّهِ أَمَانِي وَغَرَّةَ يَغْتَرُونَ بِهَا ﴾ وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينههم شيء عن ذلك ، كلما هفا لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالاً كان أو حراماً .

قال الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ عَلَيْهِمْ يَتَّخِذُ الْكِتَابَ عَلَى اللَّهِ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ الآية . يقول تعالى

منكراً عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس ولا يكتُمونه ، قال ابن عباس : ﴿ أَلَمْ يَخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ قال : فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّارِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه ويحذرهم من وبيل عقابه ، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يقول : أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير ؟ ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَسْكُوتُونَ بِآلِ الْكِتَابِ ﴾ أي اعتصموا به وابتعدوا بأوامره ، وتركوا زواجره ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ جَنَاحَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلٌّ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . قال ابن عباس : قوله : ﴿ وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ ﴾ يقول : رفعناه وهو قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَاتِ الْفُلِ ﴾ . وقال ابن عباس : ثم سار بهم موسى ﷺ إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، وأمرهم بالذي أمر الله أن يلغهم من الوظائف ، فنقلت عليهم وأبوا أن يقرأوا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿ كَانَهُ ظِلٌّ ﴾ قال : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم . وعن أبي بكر بن عبد الله قال : هذا كتاب أقبولونه بما فيه فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم ؟ قالوا : لا ، حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها ؟ فراجعوه مراراً ، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء ، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء ، قال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربي ﷻ ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي إِدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٢٥﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطروهم على ذلك وجلبهم عليه ، وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ » - وفي رواية : « عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ - فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجْسِنَانِهِ ، كَمَا تُوَلَّدُ بَهِيمَةٌ جَمْعَاءَ ، هَلْ تَحِشُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ ؟ » ^(١) وعن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَفَاءَ فَجَاءَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَخَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أُخْلِصْتُ لَهُمْ » ^(٢) . وعن الأسود بن سريع من بني سعد قال : غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات ، قال : فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة ، فبلغ ذلك رسول

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٥) ومسلم في القدر (٢٢ ، ٢٥) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

اللَّهُ ﷻ فاشتد عليه ، ثم قال : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَاولُونَ الذُّرِّيَّةَ ؟ » فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال : « إِنَّ خِيَارَكُمْ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ ، أَلَا إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةٌ تُولَدُ إِلَّا وَوَلَدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَمَا نَزَلَ عَلَيْهَا حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهَا لِسَانُهَا فَأَبْوَاهَا يَهُودَانِهَا وَيُنَصِّرَانِهَا » قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية (١) .

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم ﷺ وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم . وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال : « يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَتَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي » (٢) .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ﷺ بِتُعْمَانِ يَوْمِ عَرَفَةَ ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَاهَا ، فَتَنَزَّهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قَبْلًا قَالَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ - إلى قوله - ﴿ أَلَمْ نَبْطُلُوا ﴾ (٣) .

وعن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قَالُوا بَلَى الآية ، فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ﷺ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، قَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَيَعْمَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَغْمَلُونَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، قَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَيَعْمَلُ أَهْلُ النَّارِ يَغْمَلُونَ » فقال رجل : يا رسول الله فقيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ : « إِذَا خَلَقَ اللَّهُ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَغْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخِلْهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَغْمَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخِلْهُ النَّارَ » (٤) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْضًا مِنْ نُورٍ ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ : أَيُّ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيْضَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، قَالَ : أَيُّ رَبِّ مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ ، قَالَ : رَبِّ وَكَمْ جَعَلْتَ عُمرَهُ ؟ قَالَ : سِتِّينَ سَنَةً ، قَالَ : أَيُّ رَبِّ قَدْ وَهَبْتُ لَهُ مِنْ عُمرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَلَمَّا انْقَضَى عُمرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، قَالَ : أَوَلَمْ يَتَّقِ مِنْ عُمرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَوَلَمْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٣٥/٣ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٧/٣) والهندي في كنز العمال (٢٨٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٢/١) والهندي في كنز العمال (١٥١٢٤) والسيوطي في الدر المنثور (١٤٢/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤/١) والترمذي في سننه (٣٠٧٥) وأبو داود في سننه (٤٦٩٣) .

تُعْطِيهَا ابْنَك دَاوُدَ ؟ قَالَ : فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَنَسِيَ آدَمُ فَتَنَسَّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَخَطَى آدَمُ فَخَطَطَتْ ذُرِّيَّتُهُ » (١) .

فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم ، فما هو إلا في حديث ابن عباس ، وفي حديث عبد الله بن عمرو ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إما هو فطرهم على التوحيد ، كما تقدم ، وقد فسر الحسن الآية بذلك . قالوا : ولهذا قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ ولم يقل من آدم ﴿ مِنْ ظُهُورِهِ ﴾ ولم يقل : من ظهره ﴿ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قالوا بلى ﴿ أي أوجدتهم شاهدين بذلك قائلين له جالاً وقالاً ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله : ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ الآية ، وتارة تكون حالاً كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ ﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك ، لا أنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال ، كقوله : ﴿ وَمَا تَنْتَهُمُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا : أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراف ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه ، فإن قيل : إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده ، فالجواب ، إن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ، ولهذا قال : ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا ﴾ أي التوحيد ﴿ غَافِلِينَ ﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا ﴾ الآية .

﴿ وَأَقْبَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ فَاَنْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَخَلَّى الْأَكْبَابُ لِأَنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَتْ أَوْ تَرْكُضَهُ يَلْهَتْ ذَلِكَ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ سَلَّمَ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴾ .

قال عبد الله بن مسعود ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ فَاَنْسَلَخْ مِنْهَا ﴾ الآية ، هو رجل من بني إسرائيل يقال له : بلعم بن باعوراء ، وعن ابن عباس هو صيفي بن الراهب . قال قتادة ، وقال كعب : كان رجلاً من أهل البلقاء ، وكان يعلم الاسم الأكبر ، وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين ، وقال ابن عباس ﷺ : هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه آياته فتركها . وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف ، قال ابن عباس : هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام ، وكان يعلم اسم الله الأكبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف : كان مجاب الدعوة ، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ، وقال السدي : لما انقضت الأربعون سنة التي قال

اللَّهُ : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ بعث يوشع بن نون نبيًا ، فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي ، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين ، فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام ، فكان عالمًا يعلم الاسم الأعظم المكتوم ، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين ، وقال لهم : لا ترهبوا بني إسرائيل فإنني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون ، وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمتهم ، فكان ينكح أتانًا له ، وهو الذي قال الله تعالى : ﴿ فَأَنْسَلَخْ مِنْهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امثل وأطاعه ، ولهذا قال : ﴿ فَكَانَ مِنَ الْفَآوِيكِ ﴾ أي من الهالكين الحائرين البائسين .

عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مما أتخوف عليكم رجلًا قرأ القرآن حتى إذا رُئيت به حته عليه وكان رداءة الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله ، انسلخ منه ونبذ وراء ظهره وسعى على جاريه بالسيف ورماه بالشرك ^(١) »

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناها لإياها ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي .

وقوله تعالى : ﴿ قَتَلْتُمْ كَذِبًا كَذِبًا إِنَّ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ﴾ اختلف المفسرون في معناه فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلعامًا اندلع لسانه على صدره ، فتشبيهاه بالكلب في لهيته في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر ، وقيل : معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء ، كالكلب في لهيته في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين ، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقيل : معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى ، فهو كثير الوجيب ، فعبّر عن هذا بهذا ، نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقْصِصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ فَأَقْصِصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم ، الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب في غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان ، كلهم الله موسى بن عمران عليه السلام ، ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله ، فإن الله قد أعطاهم علمًا وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به ، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد

(١) ذكره الطحاوي في مشكل الآثار (٣٧٤) .

أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة .

وقوله : ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ يقول تعالى : ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أي ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب ، وبمس المثل مثله ، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ مِنَّا مَثَلُ السُّوءِ ، الْعَائِدُ فِي هَيْبِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْبِهِ » ^(١) . وقوله : ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ أي ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى .

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : من هده الله فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود : « إِنَّ الْخَفْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ » ^(٢) .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَمْ تَلَوْبْ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آفَاقٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَشْمَةِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهم ﴿ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ ﴾ أي هيأناهم لها ويعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق ، علم ما هم عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدَرُ مَقَادِيرِ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » ^(٣) .

وعن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال رسول الله ﷺ : « أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ ؟ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَضْلَابِ آبَائِهِمْ ، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا وَهُمْ فِي أَضْلَابِ آبَائِهِمْ » ^(٤) وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود : « ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : فَيُكْتَبُ رِزْقُهُ ، وَأَجَلُهُ ، وَعَمَلُهُ ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ » ^(٥) .

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢١٢٦) ومسلم في الهبات (٨) والترمذي في سننه (١٢٩٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٢/١) والترمذي في سننه (١١٠٥) والنسائي في سننه (٣٢٧٧) .

(٣) أخرجه مسلم في القدر (١٦) وأحمد في مسنده (١٦٩/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في القدر (٣١) .

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) وأحمد في مسنده (١٩٧/٥) .

وقوله تعالى : ﴿ لَمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُوْنَ بِهَا وَلَمْ أُعْطِ لَّا يَعْبُرُوْنَ بِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَّا يَسْمَعُوْنَ بِهَا ﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلْنَا لَهُمُ سَمَاءً وَابْصَرْنَا وَافْتَدَيْنَا فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا اقْدَرْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِنْدِيِّ يَتَّقِي بَآ لَّا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاةً وَنِدَاءً ﴾ أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول . ولهذا قال في هؤلاء : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ أي من الدواب ؛ لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها وإن لم يفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به ؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَهُوَ وَثَرٌ يُحِبُّ الْوِثَرَ » ^(١) وزاد الترمذي بعد قوله : « يُحِبُّ الْوِثَرَ : هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الرَّحْمَنُ ، الرَّحِيمُ ، الْمَلِكُ ، الْقُدُّوسُ ، السَّلَامُ ، الْمُؤْمِنُ ، الْمُهِمِّنُ ، الْعَزِيزُ ، الْجَبَّارُ ، الْمُتَكَبِّرُ ، الْخَالِقُ ، الْبَارِئُ ، الْمُصَوِّرُ ، الْغَفَّارُ ، الْقَهَّارُ ، الْوَهَّابُ ، الرَّزَّاقُ ، الْفَتَّاحُ ، الْعَلِيمُ ، الْقَابِضُ ، الْبَاسِطُ ، الرَّافِعُ ، الْمُغِزُّ ، الْمَذِلُّ ، السَّمِيعُ ، الْبَصِيرُ ، الْحَكِيمُ ، الْعَدْلُ ، اللَّطِيفُ ، الْخَبِيرُ ، الْحَلِيمُ ، الْعَظِيمُ ، الْغَفُورُ ، الشَّكُورُ ، الْكَبِيرُ ، الْحَفِيفُ ، الْمُقِيتُ ، الْحَسِيبُ ، الْجَلِيلُ ، الرَّقِيبُ ، الْجَبَّارُ ، الْوَاسِعُ ، الْحَكِيمُ ، الْوَدُودُ ، الْحَمِيدُ ، الْبَاطِلُ ، الشَّهِيدُ ، الْحَقُّ ، الْوَكِيلُ ، الْقَوِيُّ ، الْمُتَيْنُ ، الْوَلِيُّ ، الْحَمِيدُ ، الْحَمِيدُ ، الْمُبْدِيُّ ، الْمُعِيدُ ، الْحَيُّ ، الْمَمِيتُ ، الْحَيُّ ، الْقَيُّومُ ، الْوَاجِدُ ، الْمَاجِدُ ، الْوَاحِدُ ، الْأَحَدُ ، الْفَرْدُ ، الصَّمَدُ ، الْقَادِرُ ، الْمُقْتَدِرُ ، الْمُقَدِّمُ ، الْمُؤَخِّرُ ، الْأَوَّلُ ، الْآخِرُ ، الظَّاهِرُ ، الْبَاطِنُ ، الْوَالِي ، الْمُتَعَالِي ، الْبَرُّ ، الثَّوَابُ ، الْمُتَّقِي ، الْعَفْوُ ، الرَّؤُوفُ ، مَالِكُ الْمُلْكِ ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، الْمُقْسِطُ ، الْجَامِعُ ، الْغَنِيُّ ، الْمُغْنِي ، الْمَانِعُ ، الضَّارُّ ، النَّافِعُ ، الثَّوَرُ ، الْهَادِي ، الْبَدِيعُ ، الْبَاقِي ، الْوَارِثُ ، الرَّشِيدُ ، الصَّبُورُ » ^(٢) .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين ، بدليل ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أُمْتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمِعْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمٍ

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤١٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في سننه (٣٥٠٦) وأحمد في مسنده (٢٥٨/٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٠٧) .

الْغَيْبِ عِنْدِكَ ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِيعَ قَلْبِي ، وَتُورَ صَدْرِي ، وَجَلَاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي ، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ ، وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ فَرَحًا « فقيل : يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال : « بَلْ يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا » (١) .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَذُرُوا الَّذِينَ يُبَيِّدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ ﴾ قال : إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله ، وقال مجاهد : اشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز . وقال قتادة : يلحدون : يشركون في أسمائه . وقال ابن عباس : الإلحاد : التكذيب ، وأصل الإلحاد في كلام العرب ، العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .

﴿ وَيَمَنِّ خَلْقًا أَتَّهُ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَدْهُونَ ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ وَيَمَنِّ خَلْقًا ﴾ أي بعض الأمم ﴿ أَتَّهُ ﴾ قائمة بالحق قولاً وعملاً ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ يقولونه ويدعون إليه ﴿ وَبِهِ يَدْهُونَ ﴾ يعملون ويقضون ، وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة الحمديدية . قال قتادة في تفسير هذه الآية : بلغني أن النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية : « هَذِهِ لَكُمْ قَدْ أُعْطِيَ الْقَوْمُ يَسَّرَ أَيْدِيَكُمْ مِثْلَهَا ﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أَتَّهُ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَدْهُونَ (٢) وقال الربيع بن أنس ، في قوله تعالى : ﴿ وَيَمَنِّ خَلْقًا أَتَّهُ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَدْهُونَ ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ مِنْ أُمَّتٍ قَوْمًا عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَنْزِلَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَتَى مَا نَزَلَ » (٣) .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴾ وَأَتَمِّلِي لَهُمْ لَئِنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴿ وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ وَوُجُوهَ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَغْتَرُوا بِمَا هُمْ فِيهِ ، وَيَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَتَمِّلِي لَهُمْ ﴾ أَيِ وَسَامِلِي لَهُمْ أَيِ أَطْوَلِ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ ﴿ لَئِنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ﴾ أَيِ قُوِي سَدِيدٍ .

﴿ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَنْءٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ مَا يَصَاحِبُهُمْ ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ مِنْ جَنْءٍ ﴾ أي ليس به جنون ، بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي ظاهر لمن كان له لب قلب يعقل به ويعي به كما قال تعالى : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِبَشِيرٍ ﴾ وقال قتادة بن دعامة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً يا بني فلان يا بني فلان ، فحذرهم بأس الله ووقائع الله ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح فأنزل الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَنْءٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ فَيَأْتِي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١) والهيثم في مجمع الزوائد (١٨٦/٧) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٤٩/٣) وابن الجوزي في زاد المسير (٢٩٤/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمامة (١٧٠) وأحمد في مسنده (٢٨٨/٧) .

حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٦﴾ .

يقول تعالى : أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض وفيما خلق من شيء فيهما ، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له ، فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله ، وينيبوا إلى طاعته ، ويخلعوا الأنداد والأوثان ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه . وقوله : ﴿ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ يقول : فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه ، الذي أتاهم به من عند الله في أي كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله ﷻ ؟ وقد روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي كَذَا ، فَلَمَّا انْتَهَيْتَا إِلَى السَّمَاءِ الشَّامَةِ فَتَنْظَرْتُ فَوْقِي فَإِذَا أَنَا بِرَعْدٍ وَبَرْقٍ وَصَوَاقِعُ ، وَأَتَيْتُ عَلَى قَوْمٍ يُطَوِّئُهُمْ كَالْبَيْتِ ، فِيهَا الْحَيَّاتُ تُرَى مِنْ خَارِجٍ يُطَوِّئُهُمْ ، قُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرَّبِّ ، فَلَمَّا نَزَلْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَتَنْظَرْتُ إِلَى أَسْفَلَ مِنِّي فَإِذَا أَنَا بِرَهْجٍ وَدُخَانٍ وَأَصْوَاتٍ ، قُلْتُ : مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينُ يَحْمُومُونَ عَلَى أَغْنِي نَبِيِّ آدَمَ أَنْ لَا يُفَكِّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَأَوْا الْعَجَائِبَ » (١) .

﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَ هَادِي لَمْ يَدْرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى : من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئا ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْحٌ إِلَّا هُوَ تَنَزَّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ قيل : نزلت في قريش ، وقيل : في نفر من اليهود ، والأول أشبه ؛ لأن الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها ، وتكديفاً بوجودها ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ قال ابن عباس : منتهاها أي متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْحٌ إِلَّا هُوَ ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى ، فإنه هو الذي يجليها لوقتها ، أي يعلم جليلة أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى ، ولهذا قال : ﴿ تَنَزَّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال قتادة : ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون ، قال الحسن : إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض ، يقول : كبرت عليهم ، وقال الضحاك عن ابن عباس : ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة ، وقال ابن جريج : إذا جاء انشقت السماء وانتشرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وكان ما

(١) أخرجه : أحمد في مسنده ٣٥٣/٢ ، والهيتمي في مجمع الزوائد (١١٧/٤) .

قال الله ﷻ فذلك ثقلها ، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض ، وقال قتادة ، في قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعْثَةٌ ﴾ : قضى الله أنها ﴿ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعْثَةٌ ﴾ قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « إِنَّ السَّاعَةَ تَهْبِجُ بِالنَّاسِ وَالرَّجُلُ يُضْلِحُ حَوْضَهُ ، وَالرَّجُلُ يَشْقِي مَا شِئْتَهُ ، وَالرَّجُلُ يُقِيمُ سِلْعَتَهُ فِي السُّوقِ وَيُخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ » ^(١) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ ، فَذَلِكَ جِئْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَبَشَّرَ الرَّجُلَانِ نُوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَنْبَغِيَايَهُ وَلَا يَطْوِيَايَهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بَلَيْنَ لَفَحَتِهِ فَلَا يَطْعُمُهُ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَشْقِي فِيهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا » ^(٢) .

وقوله : ﴿ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنَّا ﴾ : اختلف المفسرون في معناه فقيل : معناه كما قال ابن عباس : كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم ، قال ابن عباس : لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم ، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً ، وقال قتادة : قالت قريش لمحمد ﷺ : إن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة فقال الله ﷻ : ﴿ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنَّا ﴾ وقد روي من رواية ابن أبي نجيح وغيره ﴿ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنَّا ﴾ قال : استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها ، كذا قال الضحاك عن ابن عباس : كأنك عالم بها لست تعلمها ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . وقال معمر عن بعضهم ﴿ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنَّا ﴾ كأنك عالم بها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كأنك بها عالم ، وقد أخفى الله علمها على خلقه وقرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية ، ولهذا قال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولهذا لما جاء جبريل الطليق في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد وسأله ﷺ عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم قال : فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ : « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » أي لست أعلم بها منك ، ولا أحد أعلم بها من أحد ، ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية ، وفي رواية فسأله عن أشراف الساعة فبين له أشراف الساعة ، ثم قال : « فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ » وقرأ هذه الآية ، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب : صدقت ، ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدق ، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ : « هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » وفي رواية قال : « وَمَا أَتَانِي فِي صُورَةٍ إِلَّا عَرَفْتُ فِيهَا إِلَّا صُورَتَهُ هَذِهِ » ^(٣) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة ، فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول : « إِنْ يَعْشُ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْكُمْ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٥/٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٥) ومسلم في الإيمان (٢٤٨) وأبو داود سننه (٤٣١٢) وابن ماجه في سننه (٤٠٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (٥) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

سَاعَتُكُمْ» ^(١) يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة . وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقيد بساعتكم في حديث عائشة رضي الله عنها ، وعن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر : « تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَقْسِمُ بِاللَّهِ مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسٍ مَنُوقَسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ » ^(٢) .

وعن حذيفة قال : سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال : « عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي ﷻ لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِيِّهَا إِلَّا هُوَ ، وَلَكِنْ سَأُخْبِرُكُمْ بِمَشَارِيطِهَا وَمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهَا ، إِنَّ بَيْنَ يَدَيْهَا فِتْنَةٌ وَهَرَجًا » قالوا : يا رسول الله الفتنة قد عرفناها فما الهرج ؟ قال : « بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْقَتْلُ » قال : « وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّشَاكُرُ ، فَلَا يَكَاذُ أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا » ^(٣) وفي الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها ^(٤) ، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلِمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ قال مجاهد : لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحاً ، وقال مثله ابن جريج وفيه نظر ؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفي رواية : كان إذا عمل عملاً أثبتته ^(٥) . فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله ﷻ في جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك ، والله أعلم . والأحسن في هذا ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ أي من المال ، وفي رواية : لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه ، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر ، وقال ابن جرير ، وقال آخرون : معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجيدة من الخصب ، ولوقت الغلاء من الرخص ، فاستعددت له من الرخص . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ قال : لاجتنب ما يكون من الشر قبل أن يكون واقفته ، ثم أخبر أنه هو نذير وبشير ، أي نذير من العذاب ، وبشير للمؤمنين بالجنات .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١٣٦) وأحمد في مسنده (٢١٣/٣) والهندي في كنز العمال (٣٩٥٧٠) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢١٨) وأحمد في مسنده (٣٢٦/٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٠/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/٥) والهندي في كنز العمال (٣٨٥٤٤) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٢٩/٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٣) ومسلم في الفتن (١٣٥) وأحمد في مسنده (١٢٤/٣) والترمذي في مسنده (٢٢١٤) .

(٥) أخرجه : مسلم في صلاة المسافرين (١٤١) .

فَمَرَّتْ بِهِ. فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعَاَ اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَاحِبًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَاحِبًا جَمَلًا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَتْهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ .

ينبىه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ، ثم انتشر الناس منها ، كما قال تعالى : ﴿ يَخْلُقُهَا الْإِنْسَانُ مِنْ نَسْلِكَ مِنْ دُونِ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَ نَفْسًا شَعُوبًا وَقَبَائِلَ لِيَتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ ﴾ ، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أي ليألفها ويسكن بها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدته إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿ فَلَمَّا تَشَاءَهَا ﴾ أي وطئها ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا ﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألماً ، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة وقوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ قال مجاهد : استمرت بحمله ، وقال ميمون بن مهران عن أبيه : استخفته ، وقال أيوب : سألت الحسن عن قوله : ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ قال : لو كنت رجلاً عريفاً لعرفت ما هي ، إنما هي فاستمرت به ، وقال قتادة : استبان حملها ، وقال ابن جرير : معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت ، وقال ابن عباس : استمرت به فشكت أحملت أم لا ﴿ فَلَمَّا أَتَتْكَ ﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها ، وقال السدي : كبر الولد في بطنها ﴿ دَعَاَ اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَاحِبًا ﴾ أي بشراً سوياً كما قال ابن عباس : أشفقا أن يكون بهيمة ، وكذلك قال أبو البخري وأبو مالك : أشفقا أن لا يكون إنساناً ، وقال الحسن البصري : لن آتينا غلاماً ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَاحِبًا جَمَلًا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَتْهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ذكر المفسرون ههنا آثارا وأحاديث منها :

عن سمرة عن النبي ﷺ قال : « لَمَّا وُلِدَتْ حَوَاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ ، وَكَانَ لَا يَعْيشُ لَهَا وَلَدٌ ، فَقَالَ : سَعِيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ فَإِنَّهُ يَعْيشُ ، فَسَمَّيْتُهُ عَبْدَ الْحَارِثِ فَعَاشَ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ » (١) .

فأما الآثار : فعن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله ، ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاهما إبليس فقال : إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش ، قال : فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث ، فقيه أنزل الله يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ جَمَلًا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَتْهُمَا ﴾ إلى آخر الآية ، وقال ابن عباس : قوله في آدم ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ شكت أحملت أم لا ؟ ﴿ فَلَمَّا أَتَتْكَ دَعَاَ اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَاحِبًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ فأتاهما الشيطان فقال : هل تدریان ما يولد لكما ؟ أم هل تدریان ما يكون أبهيمه أم لا ؟ وزين لهما الباطل إنه غوي مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً ، ومات كما مات الأول ، فسميا ولدهما عبد الحارث ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَاحِبًا جَمَلًا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَتْهُمَا ﴾ الآية .

وهذا الأثر يظهر عليه والله أعلم أنه من آثار أهل الكتاب ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكْذِّبُوهُمْ » ^(١) ثم إخبارهم على ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضًا ، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه الصلاة والسلام : « حَدِّثُوا عَنْ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ » ^(٢) وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله « فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكْذِّبُوهُمْ » وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر ، فأما من به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمته الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله : ﴿ فَتَعَلَى اللَّهِ عَنَّا بُشْرُكُونَ ﴾ ثم قال : فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ الآية ، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زين بها السماء ليست هي التي يرمى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ، ولهذا نفاثر في القرآن والله أعلم .

﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُنَى لَا يَسْتَجِيبُوا سَوَاءً عَلَيْكَ أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أَمْتَ مِنْهُمْ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَتَاهُمْ قَادُومُهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْيَهُودَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ فَاذْكُرُوا يَوْمَ أَنْصُرَكُم بِمَا كُنْتُمْ كَافِرِينَ ﴾ ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْقَوْلِ الْأَوْفَى فَلَا تُطِيعُوا ﴾ إِنَّ وَلِىَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُنَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَنِّمُ نَظْرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿ .

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهي مخلوقة لله ، مربوبة مصنوعة لا تملك شيئاً من الأمر ، ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تتصور لعابديها ، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر ، وعابدها أكمل منهم بسمعهم وبصرهم وبطشهم ، ولهذا قال : ﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي أشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أي بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ الآية ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا ﴾ أي لعابديهم ﴿ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء ، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله : ﴿ فَرَأَى عَلَيْهِمْ مَรَبًّا بِالْأَيْدِينَ ﴾ وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما وكانا شاوين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ، ويرتووا لأنفسهم ، فكان لعمر بن الجموح

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٦/٤) والحاكم في المستدرک (٣٥٨/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٩/٢) وأبو داود في سننه (٣٦٦٢) والترمذي في سننه (٢٦٦٩) .

وكان سيداً في قومه صنم يعبده ويطيبه ، فكانا يجيثان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعدرة ، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيقاً ويقول له انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضاً ، حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ، ودلياه في حبل في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال :

ثَالِثُهُ لَوْ كُنْتُ إِلَهاً مُشْتَدَن لَمْ تَكُ وَالْكَلْبُ جَمِيعاً فِي قَرْنٍ

ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيداً رضي الله وأرضاه .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ الآية ، يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحها ، كما قال إبراهيم : ﴿ يَتَّبِعُ لِمَ قَبُدْ مَا لَا يَسَعُ وَلَا يُبْعِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها ، أي مخلوقات مثلهم ، بل الإنسان أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطلش ، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك . وقوله : ﴿ قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ الآية ، أي استنصروا بها علي ، فلا تؤخروني طرفة عين ، واجهدوا جهدكم ﴿ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ أي الله حسبي وكافيني ، وهو نصيري وعليه متكلي ، وإليه ألتجأ وهو وليي في الدنيا والآخرة ، وهو ولي كل صالح بعدي .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ إلى آخر الآية مؤكداً لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذاك بصيغة الغيبة ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَسْتَلِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَبْصُرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَدُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَتَرْتَدُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ إنما قال : ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد ، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل ؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان ﴿ وَتَرْتَدُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ فغير عنها بضمير من يعقل ، وقال السدي : المراد بهذا المشركون ، وروي عن مجاهد نحوه ، والأول أولى وهو اختيار ابن جرير وقاله قتادة .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . قال ابن عباس : قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ يعني خذ ما عفا لك من أموالهم ، وما أتوك به من شيء فخذ ، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات ، قاله السدي . وقال ابن عباس : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ أنفق الفضل ، وقال : الفضل ، وقال الفضل بن زيد بن أسلم : أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ، ثم أمره بالغلظة عليهم ، واختار هذا القول ابن جرير ، وقال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ قال : من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس ، وقال عروة : أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس ، وفي رواية قال : خذ ما عفا لك من أخلاقهم ، وعن عبد الله بن الزبير قال : إنما أنزل ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ من أخلاق الناس ، وعن أبي الزبير قال : من أخلاق الناس والله لا أخذه منهم ما صحبتهم ، وهذا أشهر الأقوال ويشهد له ما روي أبي قال : لما أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ ؟ » قَالَ : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ أَنْ تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ ،

وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك . وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يا رسول الله ، أخبرني بفواضل الأعمال فقال : « يَا عَقْبَةُ ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » ^(١) .

قوله ﴿ خُذِ الْقَوَارِئِ وَأَنْتَ بِالْغَرَفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ ﴾ العرف : المعروف . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدينهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً ، فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه ، قال : سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس : استأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ! فغضب عمر حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال لنبيه : ﴿ خُذِ الْقَوَارِئِ وَأَنْتَ بِالْغَرَفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ ﴾ وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله ﷻ ^(٢) .

وقال بعض العلماء : الناس رجلان ، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه ، وإما مسيء فمره بالمعروف ، فإن تمالى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه ، ففعل ذلك أن يرد كيده كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿ أي هذه الوصية ﴾ ﴿ وَإِنَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْغَلِيظُ ﴾ وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً : ﴿ وَإِنَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن ، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ؛ ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان ؛ فإنه لا يكفه عنك الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ؛ فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك ، قال ابن جرير في تفسير قوله : ﴿ وَإِنَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ وإما يفضبنك من الشيطان غضب يصدق عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ يقول فاستجر بالله من نزغه ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك ، والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه ، لا يخفى عليه منه شيء ، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمر خلقه .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما نزلت ﴿ خُذِ الْقَوَارِئِ وَأَنْتَ بِالْغَرَفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّاتِ ﴾ قال : يا رب كيف بالغضب ؟ ، فأنزل الله ﴿ وَإِنَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ قلت : وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزج ^(٣) غضباً ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا

(٢) يتمزج : أي ينقطع ويتشقق .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .

(٣) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٢) .

يَجِدُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ « فقل له ؟ فقال : ما بي من جنون ^(١) . وأصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِمَا كَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ والعياذ الإلتجاء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما الملاذ ففي طلب الخير .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ وَلِيُخَوِّثَهُمْ بِمَذْذُوبَتِهِمْ فِي النَّارِ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجر أنهم ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ أي أصابهم طيف ، وقرأ الآخرون ﴿ طَائِفٌ ﴾ وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان ^(٢) ، فقليل : بمعنى واحد ، وقيل : بينهما فرق ، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسر مس الشيطان بالصرع ونحوه ، ومنهم من فسره بالهلم بالذنب ، ومنهم من فسره بإصابة الذنب . وقوله : ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعدده ووعيده ، فتابوا وأتابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . عن أبي هريرة ؓ قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف ، فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يشفيني فقال : « إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ ، وَإِنْ شِئْتَ فَاصْبِرِي وَلَا حِسَابَ عَلَيْكَ » فقالت : بل أصبر ولا حساب علي . ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت : يا رسول الله إني أصرع وأتكشف فادع الله أن يشفيني ، فقال : « إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيكَ ، وَإِنْ شِئْتَ صَبِرْتِ وَلَكَ الْجَنَّةُ » فقالت : بل أصبر ولي الجنة ، ولكن ادع الله أن لا أتكشف ، فدعا لها ، فكانت لا تتكشف ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيُخَوِّثَهُمْ بِمَذْذُوبَتِهِمْ ﴾ أي وإخوان الشياطين من الإنس كقوله : ﴿ إِنَّ الْمَلِئِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ﴾ وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿ بِمَذْذُوبَتِهِمْ فِي النَّارِ ﴾ أي تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم ، وقال ابن كثير : المذذ زيادة ، يعني يزيدونهم في الغي ، يعني الجهل والسفه ﴿ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴾ قيل : معناه إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك ، كما قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلِيُخَوِّثَهُمْ بِمَذْذُوبَتِهِمْ فِي النَّارِ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴾ الآية ، قال : لا الإنس يقصرون عما يعملون ، ولا الشياطين تمسك عنهم . وقال : هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يقصرون ، يقول : لا يسأمون ، وكذا قال السدي وغيره : إن الشياطين يمدون أوليائهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر ؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿ لَا يَقْصِرُونَ ﴾ لا تفتر فيه ولا تبطل عنه كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَّعَتْهُمْ أَزْأًا ﴾ قال ابن عباس وغيره : ترجعهم إلى المعاصي إزعاجا .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧٨٠) والحاكم في المستدرک (٤٤١/٢) والطبرانی في الكبير (١١٦/٧) .

(٢) قرأ البصريان وابن كثير والكسائي (طيف) بياء ساكنة من غير ألف والباقون بألف : (النشر في القراءات العشر من ١١٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الرضى (٥٦٥٢) ومسلم في البر والصلة (٥٤) وأحمد في مسنده (٣٤٧/١) .

طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث : « مَنْ كَانَ لَهُ إِيمَانٌ فَقِرَاءَتُهُ قِرَاءَةٌ لَهُ » ^(١) . وقال ابن عباس قوله : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ يعني في الصلاة المفروضة ، وعن طلحة ابن عبيد الله بن كريب قال : رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان والقاص يقص ، فقلت : ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعد ؟ قال : فنظرا إلي ثم أقبلتا على حديثهما ، قال : فأعدت فنظرا إلي وأقبلتا على حديثهما ، قال : فأعدت الثالثة قال : فنظرا إلي فقالا : إنما ذلك في الصلاة ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ . وعن مجاهد قال : في الصلاة ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ؛ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ ، وَمَنْ تَلَاهَا ؛ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٢) .

﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ ^(٣) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ .

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً ، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء وهذه الآية مكية ، وقال : ههنا بالغدو وهو أول النهار ، والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين ، وأما قوله : ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهرًا ولهذا قال : ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرًا بليغًا ، ولهذا لما سألو رسول الله ﷺ فقالوا : أقریب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله ﷻ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا ، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ غُثِّي رَاحِلَتِهِ » ^(٣) وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به ، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم ، وليتخذ سبيلًا بين الجهر والإسرار ، وكذا قال في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ وقد زعم ابن جرير وقبلة عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها ، أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة وهذا بعيد منافٍ للإنصات للمأمور به ، ثم إن المراد بذلك في الصلاة كما تقدم ، أو في الصلاة والخطبة ، ومعلوم أن للإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان ، سواء كان سرًا أو جهرًا ، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ؛ لئلا يكونوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٩/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤١/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١٠) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٤٤) وأبو داود في سننه (١٥٢٨) .

من الغافلين ، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ الآية ، وإنما ذكرهم بهذا ليقنطروا بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله ﷻ كما جاء في الحديث : « أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا يُصَوِّفُ الصُّفُوفَ ، الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ ، وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ » ^(١) وهذا أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١١٩) وأحمد في مسنده (١٠١/٥) وابن ماجه في سننه (٩٩٢) .

سورة الأنفال

وهي مدنية ، آياتها سبعون وست آيات ، كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة ، حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ .
قال البخاري : قال ابن عباس : الأنفال المغام (١) . وعن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس ؓ : سورة الأنفال ، قال : نزلت في بدر (٢) . وعن ابن عباس أيضاً أنه قال : الأنفال الغنائم ، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء .

وقال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب ؓ إذا سئل عن شيء قال : لا أملك ولا أنهاك ، ثم قال ابن عباس : والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجراً أمراً ، محللاً محرماً . قال القاسم : فسلط على ابن عباس رجل فسأله عن الأنفال فقال ابن عباس : كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه ، فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك ، ثم عاد عليه حتى أغضبه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبيه أو على رجليه ، فقال الرجل : أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك .

وقال مجاهد : إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت : ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۝﴾ وقال ابن مسعود ومسروق : لا نفل يوم الزحف ، إنما النفل قبل التقاء الصفوف ، وقال ابن المبارك وغير واحد : يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع ، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء ، وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير : وقال آخرون : هي أنفال السرايا ، وعن علي بن صالح بن حي قال : بلغني في قوله تعالى : ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۝﴾ قال : السرايا ، ومعنى هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش . وهو ما روي عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير ، قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه ، وكان يسمى ذا الكتيفة ، فأتيت به النبي ﷺ فقال : « أَذْهَبَ فَاطْرَحُهُ فِي الْقَبْضِ » قال : فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي ، قال : فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله ﷺ : « أَذْهَبَ فَخُذْ سَلْبَكَ » (٣) .

وعن سعد بن مالك قال : قلت : يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف ، فقال : « إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَا لَكَ وَلَا لِي ، ضَعُهُ » قال : فوضعته ثم رجعت فقلت : عسى أن يعطي هذا السيف من لا يلي بلائي ، قال : فإذا رجل يدعوني من ورائي ، قال : قلت : قد أنزل الله

(١) أخرجه : البخاري في التفسير (سورة الأنفال باب ١) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٤٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥٨/٣) .

فِي شَيْءٍ؟ قَالَ : كُنْتُ سَأَلْتُنِي السَّيْفَ وَلَيْسَ هُوَ لِي ، وَإِنَّهُ قَدْ وَهَبَ لِي فَهُوَ لَكَ ، قَالَ : وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ يَتَنَلَّوْكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلُ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ^(١) . وعن سعد قال : نزلت في أربع آيات ، أصابت سيفاً يوم بدر فأثبت النبي ﷺ فقلت : نفلني ، فقال : « ضَعُهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ » مرتين ، ثم عاودته فقال النبي ﷺ : « ضَعُهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ » فنزلت هذه الآية ^(٢) ﴿ يَتَنَلَّوْكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ الآية ، وتام الحديث في نزول ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَسَنًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَقُتْرُ وَاللَّيْسُ ﴾ وآية الوصية .

سبب آخر في نزول الآية : عن أبي أمامة قال : سألت عبادة عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فانترعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء ، يقول : عن سواء ^(٣) . وعن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم : نحن خويناهم فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق منه منا ، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم ، وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت : ﴿ يَتَنَلَّوْكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلُ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع ، فإذا أقبل راجعاً نفل الثلث ، وكان يكره الأنفال ^(٤) . وعن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صَنَعَ كَذًّا وَكَذًّا فَلَهُ كَذًّا وَكَذًّا » فسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغامم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا فإننا كنا ردءاً لكم لو انكشفتهم لفقتهم إلينا ، فتنازعوا فأنزل الله تعالى ﴿ يَتَنَلَّوْكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥) .

وقال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ : في كتاب الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها . أما الأنفال : فهي المغامم وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب ، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ ، يقول الله تعالى : ﴿ يَتَنَلَّوْكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلُ الْأَنْفَالِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد ، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى ، قلت : هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس سواء ، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي . وقال ابن زيد : ليست منسوخة بل هي محكمة ، قال أبو عبيد : وفي ذلك آثار ، وأنفال أصلها جماع الغنائم إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة ، ومعنى الأنفال في كلام العرب : كل إحسان فعله فاعل تفضلاً من غير أن يجب

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/١) وأبو داود في سننه (٢٧٤٠) والحاكم في المستدرک (١٣٢/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد (٣٤) وأحمد في مسنده (١٨٦/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٩١/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٢/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٥) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٣٧) .

ذلك عليه ، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم ، وإنما هو شيء خصهم الله به تطولاً منه عليهم ، بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم فنفلها الله تعالى هذه الأمة ، فهذا أصل النفل . قلت : شاهد هذا ما روي عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي » فذكر الحديث إلى أن قال : « وَأَحْلَيْتُ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي » ^(١) ، ثم قال أبو عبيد : ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً ، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم ، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو ، وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى : فإحداهن : في النفل لا خمس فيه وذلك السلب .

والثانية : النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس ، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب فتأتي الغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس .
والثالثة : في النفل من الخمس نفسه ، وهو أن تحاز الغنيمة كلها ثم تخمس ، فإذا صار الخمس في يدي الإمام نفل منه على قدر ما يرى .

والرابعة : في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء ، وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها . وفي كل ذلك اختلاف .

قال الربيع : قال الشافعي : الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب . قال أبو عبيد : والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم ، وذلك من خمس النبي ﷺ ، فإن له خمس الخمس من كل غنيمة ، فينبغي للإمام أن يجتهد ، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم وقل من يازاته من المسلمين ، نفل منه اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ ، وإذا لم يكن ذلك لم ينفل ، والوجه الثالث من النفل إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً فقال لهم قبل اللقاء : من غنم شيئاً فهو له بعد الخمس ، فهو لهم على ما شرط الإمام ؛ لأنهم على ذلك غزوا وبه رضوا ، انتهى كلامه ^(٢) . وفيما تقدم من كلامه وهو قوله : إن غنائم بدر لم تخمس نظر ، ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي ، اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي في قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ الله ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي لا تستبوا ؛ ولنذكر ههنا حديثاً عن أنس رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ فقال : « رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَنَّتَا يَسَّ يَدَيَّ رَبِّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَالَ أَحَدُهُمَا : يَا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ ،

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) .

(٢) الأموال من ٣١٩ - ٣٣٩ .

قَالَ : يَا رَبِّ لَمْ يَتَّقِ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ ، قَالَ : رَبِّ فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي » قَالَ : ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال : « إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيَّ مَنْ يَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلطَّلَافِ : ازْفَعْ بِصَرْكَ وَأَنْظُرْ فِي الْجِنَانِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : يَا رَبِّ أَرَى مَذَابِنَ مِنْ فَضِيَةٍ وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ ، لِأَيِّ نَبِيِّ هَذَا ؟ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا ؟ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا لِمَنْ أُعْطِيَ ثَمَنُهُ ، قَالَ : رَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ثَمَنَهُ ؟ قَالَ : أَنْتَ تَمْلِكُهُ ، قَالَ : مَاذَا يَا رَبِّ ؟ قَالَ : تَغْفِرُ عَنْ أَخِيكَ ، قَالَ : يَا رَبِّ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ عَنْهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَادْخُلَا الْجَنَّةَ » ثم قال رسول الله ﷺ : « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُصْلِحُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ۝ ١ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ٢ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ ٣ ۝

قال ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عن أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف الله المؤمنين فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ يقول : زادتهم تصديقاً ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يقول : لا يرجون غيره . وقال مجاهد : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فرقت أي فرغت وخافت .

وقوله : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ كقوله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ هَؤُلَاءِ إِيْمَانًا فَآلَا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَفْشِرُونَ ﴾ وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة ، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد ، كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري ولله الحمد والمنة . ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك ، وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب . ولهذا قال سعيد بن جبیر : التوكل على الله جماع الإيمان .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم ، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى ، وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها ، وقال مقاتل بن حيان : إقامتها المحافظة على مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها ، وتمام ركوعها وسجودها ، وتلاوة القرآن فيها ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٧٦/٤) والندري في الترغيب والترهيب (٣٠٩/٣) .

والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها . والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب . والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه . قال قتادة في قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ : فأنفقوا مما رزقكم الله فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان ، وعن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ ؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « أَنْظِرْ مَا تَقُولُ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟ » فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظلمات نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال : « يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَلَرْزَمْ » ثلاثاً ^(١) . وقال عمرو بن مروة : في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيد حقاً وفي القوم سادة ، وفلان تاجر حقاً .

وقوله : ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات . وقال الضحاك في قوله : ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ : أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه ، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد ، ولهذا جاء أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَاهُمْ مَنْ أَمْنَعُلَ مِنْهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِرَ فِي أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِ السَّمَاءِ » قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم ؟ . فقال : « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجَالَ أَمْتُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ » ^(٢) وفي الحديث الآخر عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِرَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ وَأَنْعَمَا » ^(٣) .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ^(١) يُجَدِّلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ^(٢) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكُوكِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ^(٣) لِيُخَيِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ وَآمَنَلَهُوا ﴾ .

قال الإمام أبو جعفر الطبري : اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ فقال بعضهم : شبه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله ، ثم روي عن عكرمه نحو هذا ، ومعنى هذا أن الله تعالى يقول : كما أنكم لما اختلفتم في المغام وتباحثتم فيها ، فانتزعها الله منكم ، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله ﷺ ، فقسمها على العدل والتسوية ، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم ، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ، وهم النفيير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز غيرهم ، فكان عاقبة

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٠٢/٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٣/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم في الجنة (١١) .

كراحتكم للقتال بأن قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشداً وهدى ، ونصراً وفتحاً . قال ابن جرير ، وقال آخرون : معنى ذلك ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ على كره من فريق من المؤمنين ، كذلك هم كارهون للقتال ، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم . ثم روي عن مجاهد نحوه أنه قال : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ قال : كذلك يجادلونك في الحق ، وقال السدي : أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوا ﴾ لطلب المشركين ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ ﴾ وقال بعضهم : يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا : أخرجتنا للعر ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له .

قلت : رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لغير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال الجزيلة لقريش ، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم ، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر ، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة فنهضوا في قريب من ألف مقنع ، ما بين التسعمائة إلى الألف ، وتيا من أبو سفيان بالعر إلى سيف البحر فنجا ، وجاء النفير فوردوا ماء بدر ، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم ، والفرقة بين الحق والباطل كما سيأتي بيانه ، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير ، ورغب كثير من المسلمين إلى العير ؛ لأنه كسب بلا قتال كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ تَكُونُوا ﴾ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكُلِّ مَكِيدَةٍ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿ وعن أسلم أبي عمران أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : « إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مفيلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها ؟ » قلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا : « مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ الْقَوْمِ فَإِنَّهُمْ قَدْ أُخْبِرُوا بِخُرُوجِكُمْ ؟ » قلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكننا أردنا العير ، ثم قال : « مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ الْقَوْمِ ؟ » قلنا : مثل ذلك ، فقال المقداد بن عمرو : إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى ﴿ قَدْ هَبَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَتِيدُونَ ﴾ قال : فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم ، قال : فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوا ﴾ ^(١) وذكر تمام الحديث .

وقال ابن عباس : لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو ، وقال له سعد بن عباد ما قال وذلك يوم بدر ، أمر الناس أن يتهيأوا للقتال ، وأمرهم بالشوكة ، فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله ﷻ ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوا ﴾ ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ وقال مجاهد : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ في القتال ، وقال محمد بن إسحاق : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ أي كراهية للقاء المشركين ، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم ، وقال

السدي : ﴿يُجِدُّوْكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ أي بعدما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به . قال ابن جرير : وقال آخرون : عني بذلك المشركين ، قال ابن زيد : في قوله تعالى : ﴿يُجِدُّوْكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ قال : هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام وهم ينظرون . قال : وليس هذا من صفة الآخرين ، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . ثم قال ابن جرير : ولا معنى لما قاله ؛ لأن الذي قبل قوله : ﴿يُجِدُّوْكَ فِي الْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان ، والذي يتلوه خبر عنهم . والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق ، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام ؛ والله أعلم . عن ابن عباس قال : قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر : عليك بالغير ليس دونها شيء ، فناده العباس بن عبد المطلب وهو أسير في وثاقه : إنه لا يصلح لك ، قال : « ولم ؟ » قال : لأن الله ﷻ إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك ^(١) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿وَوَدُّوْتَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَ تَكُوْنُ لَكَ﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم وهي العير ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوك والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالباً على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم .

﴿إِذْ تَسْتَفِيْثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِ بْنِ الْمُكَتَمِ بْنِ مَرْثَدٍ ۖ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

عن عمر بن الخطاب ؓ قال : لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ مِنَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُغَيِّزْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا» قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله ﷻ ﴿إِذْ تَسْتَفِيْثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِ بْنِ الْمُكَتَمِ بْنِ مَرْثَدٍ﴾ فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً ، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً . فقال رسول الله ﷺ : « مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ » قال : قلت : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكنني أرى أن تمكثني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين ، هؤلاء صنائدهم وأئمتهم وقادتهم . فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٨٠) والطبراني في المعجم الكبير (٢٠٩/٤) .

منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يكيان فقلت : يا رسول الله ما يكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، قال النبي ﷺ : « لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَذْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ » - لشجرة قريبة من النبي ﷺ . وأنزل الله ﷻ ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَكُلُوا مِنْهَا غَنِمَتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ فأحل لهم الغنائم . فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم من وجهه ، فأنزل الله ﷻ ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مَعْصِيَتَهُ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِهَا فَلَمْ أَنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بأخذكم الفداء ^(١) .

قال البخاري في كتاب المغازي : باب قول الله تعالى ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ ﴾ عن طارق بن شهاب قال : سمعت ابن مسعود يقول : شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به ، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره - يعني قوله ^(٢) . وعن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ يوم بدر : « اللَّهُمَّ أَنْشُدْكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبِدْ » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك فخرج وهو يقول : ﴿ سَيَهْرُمُ الْجَنُوعُ وَيُولُونَ الدَّبِيرَ ﴾ ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّكَ الْمَلَكُ مَرْوِيْفٌ ﴾ أي يردف بعضهم بعضاً كما قال ابن عباس : ﴿ مَرْوِيْفٌ ﴾ متتابعين ويحتمل أن المراد ﴿ مَرْوِيْفٌ ﴾ لكم أي نجدة لكم كما قال ابن عباس : المدد ، كما تقول أنت للرجل : زده كذا وكذا ، وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارئ وابن زيد ﴿ مَرْوِيْفٌ ﴾ ممدين ، وقال ابن عباس : ﴿ سَيُذَكُّكُمْ يَأْتِيَنَّكَ الْمَلَكُ مَرْوِيْفٌ ﴾ قال : وراء كل ملك ملك . وفي رواية بهذا الإسناد ﴿ مَرْوِيْفٌ ﴾ قال : بعضهم على أثر بعض . عن علي عليه السلام قال : نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا في الميسرة ^(٤) . وهذا يقتضي إن صح إسناده أن الألف مردفة بمثلها ؛ ولهذا قرأ بعضهم ﴿ مردفين ﴾ بفتح الدال ^(٥) والله أعلم .

والمشهور ما رواه ابن عباس قال : وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة ، وروي ابن عباس قال : بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً ، قال : فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (٥٨) وأحمد في مسنده (٣٠/١ ، ٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٢) . (٣) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٣) .

(٤) ذكره ابن جرير في تفسير ٢٥٥/٩ .

(٥) قرأ المدنيان ويعقوب (مردفين) بفتح الدال والباقون بكسرها (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١٨) .

وجبه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع ، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة » ، فقتلوا يومئذ سبعين وأسرُوا سبعين^(١) . عن معاذ بن رفاعه بن رافع الزرقي عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ » ، أو كلمة نحوها قال : وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة^(٢) . وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة : « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُذِرُكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرِ فَقَالَ : اغْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾ الآية . أي وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى ﴿ وَلِتُطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ﴿ وَلِتُطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي بدون ذلك ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَنتَحَسُمُوا فَشُدُّوا الرِّبَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ حَتَّى تَضَعَ الرِّجْلُ أَوَّلَهَا ذَلِكَ وَلَوْ أَنَّهُ اللَّهُ لَأَنصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ سَيِّدِهِمْ وَيُصْلِحْ بَالَهُمْ ① وَيُدْخِلُهُمْ لِفَنَةٍ عَرَفَهَا مَتَّ ② فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها ، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة ، كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعاد الأولى بالدبور ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل ، ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدهائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان ، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه ، وإنما غسلوه بالماء قذفًا من بعيد ، ورجموه حتى دفنوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي له العزة والرسولة وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته ③ .

﴿ إِذْ يُنْفِثُكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ① إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ أِنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَتَّبِعُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَغْنَابِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ② ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ③ ذَلِكَمْ فَذُوقُوا وَآتِ الْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ .

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم ، أمانًا أمنتهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أُحُد كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَدْرٍ أَعْلَىٰ مَنَاسٍ يُفْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ① الْآيَةُ ، قال أبو طلحة :

(١) أخرجه : مسلم في الجهاد (٥٨) والبيهقي في شرح السنة ٣٨١/١٣ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٩٢) وابن ماجه في سننه (١٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٨٣) ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) .

كنت ممن أصابه النعاس يوم أُحد ، ولقد سقط السيف من يدي مرارًا يسقط وأخذه ، ويسقط وأخذه ، ولقد نظرت إليهم يميّدون وهم تحت الحجف . وعن علي عليه السلام قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويكي حتى أصبح . وعن عبد الله بن مسعود عليه السلام أنه قال : النعاس في القتال أمانة من الله ، وفي الصلاة من الشيطان . وقال قتادة : النعاس في الرأس ، والنوم في القلب ، قلت : أما النعاس فقد أصابهم يوم أُحد وأمر ذلك مشهور جدًا ، وأما الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر ، وهي دالة على وقوع ذلك أيضًا وكان ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم أمنة مطمئنة بنصر الله ، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق عليه السلام وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ متبسّمًا فقال : « أَبَشِّرْ يَا أَبَا بَكْرٍ هَذَا جَبْرِيلُ عَلَى ثَنَائِهِ الثُّغْعُ » ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَيَهْرُمُ الْبَطْنُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ۚ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ وَيَرْزُقْ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ قال ابن عباس : نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة ، وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ ، يوسوس بينهم ترعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين ، فأمر الله عليهم مطرًا شديدًا فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمائة مجنبه ، وميكائيل في خمسمائة مجنبه ^(٢) .

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك ، أي أول ماء وجده ، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال : يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوز ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : « بَلْ مَثَرٌ نَزَلْتُهُ لِلْحَرْبِ وَالْمَكِيدَةِ » فقال يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى نزل على أدنى ماء يلي القوم ، ونغور ما وراءه من القلب ، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء ، فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك ، وفي مغازي الأموي أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ﷺ فقال ذلك الملك : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : إن الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر ، فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام فقال : « هَلْ تَعْرِفُ هَذَا ؟ » فنظر إليه فقال : ما كل الملائكة أعرفهم وإنه ملك وليس بشيطان . وأحسن ما في هذا ما رواه يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء وكان الوادي دهشًا ، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من السير ، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه ، وقال مجاهد : أنزل

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٥٣) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥٨/٩) .

اللَّهُ عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت نفوسهم ، وثبتت به أقدامهم ، وقال علي عليه السلام : أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجرة والحجف نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله صلى الله عليه وآله وحرص على القتال (١)

وقوله : ﴿ إِيْطِهْرَكُمْ بِدِهٍ ﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر ، وهو تطهير الظاهر ﴿ وَيَذْهَبْ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ أي من وسوسة أو خاطر سيئ ، وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالى في حق أهل الجنة : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَسَبْعٌ أَلْوَانٌ مِنْ خَضِرٍ ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿ وَسَقَمْتُمْ رِيْجِمَ شَرَاكَا مَطْهُورًا ﴾ أي مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض ، وهو زينة الباطن وطهارته ﴿ وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿ وَبَيَّنَّتْ يَدُ الْأَقْدَامِ ﴾ وهو شجاعة الظاهر ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا أَلِيبَ آمَنُوا ﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروها عليها ، وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وأوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين ، يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا . قال ابن إسحاق : وازروهم ، وقال غيره : قاتلوا معهم ، وقيل : كثروا سوادهم ، وقيل : كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فيقول : سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون : والله لمن حملوا علينا لنكشفن ، فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك فتقوى أنفسهم (٢) . وقوله : ﴿ سَأَتْلُو فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ أي ثبتوا أنتم المؤمنين ، وقوموا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك ، سألقى الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أي اضربوا الهام ففلقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعوها ، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم ، وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ فقيل : معناه اضربوا الرؤوس ، قاله عكرمة ، وقيل : معناه أي على الأعناق وهي الرقاب ، قاله الضحاك وعطية العوفي ، ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَغْلَقْتُمُوهُمْ فَشَدُّوا الرِّبَاقَ ﴾ واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام (٣) ، قلت : وفي مغازي الأموي أن رسول الله صلى الله عليه وآله جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول : ﴿ يَفْلُقْ هَامًا ﴾ فيقول أبو بكر :

مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَنَى وَأَظْلَمَا

فابتدئ رسول الله صلى الله عليه وآله بأول البيت ويستطعم أبا بكر عليه السلام إنشاد آخره ؛ لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتَهُ الْقِعْرَ وَمَا يَكْنِي لَهُ ﴾ وقال الربيع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦١/٩) .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٥٨/٩) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦٢/٩) .

وقوله : ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال ابن جرير : معناه : واضربوا عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم ، والبنان جمع بنانة .

وقال ابن عباس : ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ يعني بالبنان الأطراف ، وكذا قال الضحاك وابن جرير . وقال السدي : البنان الأطراف ، ويقال : كل مفصل . وقال الأوزاعي : اضرب منه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار ، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك . وقال ابن عباس فذكر قصة بدر إلى أن قال : فقال أبو جهل : لا تقتلوهم قتلاً ولكن خذوهم أخذاً حتى تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم ورجبتهم عن اللات والعزى ، فأوحى الله إلى الملائكة ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ فَتَيِّرُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الآية . فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً ، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً فوفى ذلك سبعين يعني قتيلاً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاؤُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي خالفوهما فساروا في شق وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق ، ومأخوذ أيضاً من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناواه ، لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء ، تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ ذَلِكَمَنْ فَذَوْهُ وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ النَّارِ ﴾ هذا خطاب للكفار أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا ، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة .

﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّجًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : ﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ أي تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم ﴿ فَلَا تُلُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴾ أي تفروا وتتركوا أصحابكم ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّجًا لِقَالٍ ﴾ أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ، ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ أي فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه فيجوز له ذلك ، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ثم بنتا ، ثم قلنا : وعرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « مَنْ الْقَوْمُ ؟ » فقلنا : نحن الفرارون ، فقال : « لَا بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَازُونَ أَنَا فَتُكُّمُ وَأَنَا فَتَةُ الْمُسْلِمِينَ » قال : فأتيناه حتى قبلنا يده ^(١)

قال أهل العلم : معنى قوله : « الْعَكَازُونَ » أي : العرافون ، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من المجوس فقال عمر : لو تحيز إلي لكنت له فئة ، وعن نافع أنه سال ابن عمر قلت : إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ، ولا ندرى من الفئة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٠/٢) وأبو داود في سننه (٢٦٤٧) .

أماننا أو عسكرنا ، فقال : إن الفقة رسول الله ﷺ فقلت : إن الله يقول : ﴿ إِذَا لَيْسَتْ الذِّينَ كَفَرُوا رَحَقًا ﴾ الآية ، فقال : إنما أنزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها ، وقال الضحاك في قوله : ﴿ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فَتْرٍ ﴾ التحيز الفار إلى النبي وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه ، فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر .. وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « اجْتَنِبُوا الشَّبَعِ الْمُؤَبَّاتِ » قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشُّرُكُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْحَصَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤَمَّنَاتِ » ^(١) وله شواهد من وجوه أخر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ نَقَذَ بَكَاءً ﴾ أي رجع ﴿ يَخْضِبُ مِنْكَ اللَّهُ وَمَاؤُهُ ﴾ أي مصيره ومنقلبه يوم مياعده ﴿ جَهَنَّمَ وَيَسُ الْخَصِيرُ ﴾ .

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة ؛ لأنه كان فرض عين عليهم ، وقيل : على الأنصار خاصة ؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره . وقيل : المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة ، ويروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة ونافع والحسن البصري وغيرهم ، وحثتهم في هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكه يفيئون إليها إلا عصابتهم تلك ، كما قال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنْ تَهَلَّكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَا تُعْبِدُ فِي الْأَرْضِ » ^(٢) ولهذا قال عبد الله بن المبارك بن فضالة عن الحسن في قوله : ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرِهِ ﴾ قال : ذلك يوم بدر ، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر أحسبه فلا بأس عليه ، وقال ابن المبارك أيضاً عن ابن لهيعة : حدثني يزيد بن أبي حبيب قال : أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار ، قال : ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرِهِ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فَتْرٍ فَقَدْ بَكَءَ يَخْضِبُ مِنْكَ اللَّهُ ﴾ فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال : ﴿ إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين قال : ﴿ ثُمَّ وَلَيْسَتْ مُثِيرَاتٍ ... ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِإِشْلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ذَلِكَمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِدٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ .

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير ؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ الآية ، ثم قال تعالى لنبية ﷺ أيضاً في شأن القبضه من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال : « شَاهَتِ الْوُجُوهُ » ^(٣) ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا ، فأوصل

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) وأبو داود في سننه (٢٨٧٤) .

(٢) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٨١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٨١) وأحمد في مسنده ٣٦٨/١٥ .

اللَّهُ تِلْكَ الْحَصَبَاءُ إِلَى أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا نَالَهُ مِنْهَا مَا شَغَلَهُ عَنْ حَالِهِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّكَ اللَّهُ رَمَى ﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكتبهم بها لا أنت . قال ابن عباس : رفع رسول الله ﷺ يديه - يعني يوم بدر - فقال : « يَا رَبِّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا » فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مديرين ^(١) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصبات فرمى بحصبات ميمنة القوم ، وحصبات في ميسرة القوم ، وحصبات بين أظهرهم وقال : « شَاهَتِ الْوُجُوهُ » فانهزموا ، وقد روي في هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر ، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضًا .

وعن عروة بن الزبير في قوله : ﴿ وَلَيَسْلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا ﴾ أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب . وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنهم كل مالهم في تبار ودمار ولله الحمد والمنة .

﴿ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَدُّوا نَعْدٌ وَلَنْ تُنْفَى عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى للكفار : ﴿ إِنْ تَسْتَفِيحُوا ﴾ أي تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يعصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتهم . عن عبد الله بن ثعلبة بن صعيبر : إن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينما كان أقطع للرحم وأتانا بما لا يعرف فاحنه الغداة . وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت ﴿ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ إلى آخر الآية ، وقال السدي : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين ، فقال الله ﴿ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ يقول : قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو قوله تعالى إخباراً عنهم ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَإِنْ تَنْهَوْا ﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَدُّوا نَعْدٌ ﴾ كقوله : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عِدْنَا ﴾ معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة . وقال السدي : ﴿ وَإِنْ تَوَدُّوا ﴾ أي إلى الاستفتاح ﴿ نَعْدٌ ﴾ أي إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه ، والأول أقوى

(١) أخرجه : البيهقي في دلائل النبوة ٧٩/٣ .

﴿ وَلَنْ تُقِنَّا عَنْكَ فَتَحُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي .
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ إِلَيْكُمْ وَالَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أي تتركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجه ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أي بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قيل : المراد المشركون ، واختاره ابن جرير ، وقال ابن إسحاق : هم المنافقون ؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك ، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة ، فقال : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ ﴾ أي عن سماع الحق ﴿ إِلَيْكُمْ ﴾ عن فهمه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فهو لاء شر البرية ؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا ، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذِيِّ يَنْعَمُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ ﴾ الآية ، وقيل : المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش ^(١) روي عن ابن عباس ومجاهد واختاره ابن جرير . وقال محمد بن إسحاق : هم المنافقون ، قلت : ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا ؛ لأن كلاً منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح ، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً فقال : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام ﴿ وَ ﴾ لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أي أفهمهم ﴿ لَتَوَلَّوْا ﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ عنه .
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

قال البخاري : ﴿ اسْتَجِيبُوا ﴾ أجيبوا ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ لما يصلحكم ^(٢) . وعن خبيب بن عبد الرحمن قال : سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبي سعد بن الملعلي رضي الله عنه قال : كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيت فقال : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟ أَلَمْ يَأْمُرْكَ اللَّهُ : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ - ثم قال - لَأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أُخْرِجَ » فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له . وقال معاذ : عن خبيب بن عبد الرحمن سمع حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بهذا وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني ^(٣) . وقال مجاهد : في قوله : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ قال : للحق ، وقال قتادة : هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة ، وقال السدي : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ففي

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٦) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٧) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب ٣) .

الإسلام لإحيائهم بعد موتهم بالكفر ، وقال عروة بن الزبير : أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم .

قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ وقال ابن عباس : يحول بين المؤمن وبين الكفر . وبين الكافر وبين الإيمان ، وفي رواية عن مجاهد في قوله : ﴿ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ أي حتى يتركه لا يعقل ، وقال السدي : يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . وقال قتادة هو كقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية . فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول : « يَا مُقْلَبُ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » قال : فقلنا : يا رسول الله أمانا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : « نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إضْبَاطَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ تَعَالَى يُقْلِبُهَا » ^(١) .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة ، أي اختباراً ومحنة ، يعم بها المسيء وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ، ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع عن مطرف قال : قلنا للزبير : يا أبا عبد الله ما جاء بكم ؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ، لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت ^(٢) ، وقال ابن عباس : في قوله : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة . وقال أيضاً : أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب ، وهذا تفسير حسن جداً ، ولهذا قال مجاهد : في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ هي أيضاً لكم ، وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ؛ إن الله تعالى يقول : ﴿ أَمَّا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ فأبكم استعاذ فليستعد بالله من مضلات الفتن ^(٣) .

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم ، هو الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن ، ومن أخص ما يذكر ههنا ما روي عن عدي بن عميرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يَعْذُبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَبْرُو الْمُتَكَبِّرِينَ ظَهْرَانِيَهُمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلَا يُنْكِرُوهُ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ » ^(٤) .

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْتِرُنَّ بِالْمَغْرُوفِ وَلَتَنْتَهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُؤْثِرَنَّ اللَّهُ أَنْ يَتَّعَتْ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ لَتَدْعُوهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » وروى عن إسماعيل بن جعفر وقال : « أَوْ لَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ قَوْمًا ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » ^(٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٢/٣) والترمذي في سننه (٢١٤) والحاكم في المستدرک (٢٨٨/٢) .

(٢) أخرجه : أحمد في مسنده ١٦٥/١ . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٨٩/٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/٤) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٦٧/٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/٥) والترمذي في سننه (٢١٦٩) والطبراني في المعجم الكبير (١٨٠/١٠) .

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَنْهُمْ اللَّهُ بِالْعَذَابِ مِنْ عِنْدِهِ » فقلت : يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون ؟ قَالَ : « بَلَى » قالت : فكيف يصنع أولئك ؟ قال : « يُصَيِّبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ »^(١)

﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قِلِيلٌ تُسْتَضْعَمُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخطفَكُمُ النَّاسُ فَتَأْتِيَكُمُ الْيَدُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ وَرِزْقَكُمُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ لَكُمْ تَكُونُونَ ﴾ .

ينبئ تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثرتهم ، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه وامتلأوا جميع ما أمرهم . وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة ، قليلين مستضعفين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي ، كلهم أعداء لهم لقتلهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فأواهم إليها وقبض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره ، وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ . قال قتادة بن دعامة السدوسي رضى الله عنه : في قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قِلِيلٌ تُسْتَضْعَمُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاء عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعره جلوداً وأبينه ضللاً ، من عاش منهم عاش شقيلاً ، ومن مات منهم ردي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به في البلاد ، ووسع به في الرزق ، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من الله .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْوُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوُّوا أَمَنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ بِلَهُمْ وَأَدَّكَمُ فِتْنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال أبو قتادة والزهري : أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعث رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك ، وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح ، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه ، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه ، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد حتى أنزل الله توبته على رسوله ، فجاء الناس يشيرونه بتوبة الله عليه ، وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحلوه منها إلا رسول الله ﷺ بيده فحله ، فقال : يا رسول الله ، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة فقال : « يُجْزِيكَ الثُّلُثُ أَنْ تَصَدَّقَ بِهِ »^(٢) . وعن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضى الله عنه ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْوُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ الآية^(٣) .

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إليهم عام

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٤/٦) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٦٨/٧) .

(٢) أخرجه : عبد الرزاق في مصنفه (٩٧٤٥) وأبو داود في السنن (٣٣١٩) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٩٢/٩) والسيوطي في الدر المنثور (٥٠/٤) .

الفتح ، فأطلع الله رسوله على ذلك ، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطبًا فأقر بما صنع ، وفيها فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله : ألا أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؟ فقال : « دَعُهُ فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَذْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَذْرِ فَقَالَ : اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ » ^(١) قلت : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء ، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية . وقال ابن عباس : ﴿ وَخَوَّضُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد يعني الفريضة ، يقول : ﴿ لَا تَخُونُوا ﴾ لا تنقضوها ، وقال في رواية : ﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ يقول بترك سنته وارتكاب معصيته .

وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمَنَ بِلَكُمْ وَأُولَدُكُمْ فَتَنَّهُ ﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أن تشكرونها عليها وتطيعونه فيها ، أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد ، فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يغني عنك شيئًا ، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة . وفي الأثر يقول الله تعالى : يا ابن آدم اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتكت فأتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء ، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ » ^(٢) بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس ، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِيهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ^(٣) ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ مخرجًا ، زاد مجاهد : في الدنيا والآخرة ، وفي رواية عن ابن عباس ﴿ فُرْقَانًا ﴾ نجاة ، وفي رواية عنه : نصرًا . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ أي فصلًا بين الحق والباطل ، وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله ، فإن من اتقى الله بفعل وأوامره وترك زواجه وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها ، وغفرها سترها عن الناس .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ ليقيدوك ، وقال عطاء وابن زيد : ليجسوك ، وقال السدي : الإثبات هو الحبس والوثاق ، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء ، وهو مجمع الأقوال

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٧٤) ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) وأحمد في مسنده ١٠٩/٢ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٧) وأحمد في مسنده (١٠٣/٣) والنسائي في سننه (٩٨٨٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٢١) ومسلم في الإيمان (٧٢) والنسائي في سننه (٥٠١٤) .

وهو الغالب من صنع من أراد غيره بسوء . وعن المطلب بن أبي وداعة أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ : ما يَأْتِرُكَ قومك ؟ قال : « يُرِيدُونَ أَنْ يَسْجُونِي أَوْ يَقْتُلُونِي أَوْ يُخْرِجُونِي » فقال : من أخبرك بهذا ؟ قال : « رَجُلِي » قال : نعم الرب ربك فاستوص به خيراً ، قال : « أَنَا أَسْتَوْصِي بِهِ ! بَلْ هُوَ يَسْتَوْصِي بِي » قال : فنزلت : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ الآية (١) ، وذكر أبي طالب في هذا غريب جداً بل منكر لأن هذه الآية مدنية ، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الاتهام والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء ، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجتروا عليه بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه .

والدليل على صحة ما قلنا ما روي عن ابن عباس قال : أن نفرًا من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد : سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي ، قالوا : أجل ادخل فدخل معهم ، فقال : انظروا في شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره ، فقال قائل منهم : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابعة إنما هو كأحدهم ، قال : فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال : والله ما هذا لكم برأي ، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم . قالوا : صدق الشيخ فانظروا في غير هذا ، قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم وكان أمره في غيركم ، فقال الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم . قالوا : صدق والله فانظروا رأياً غير هذا ، قال : فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتوه بعد ، لا أرى غيره ، قالوا : وما هو ؟ قال : تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهذاً ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه . قال : فقال الشيخ النجدي : هذا والله الرأي ، والقول ما قال الفتى ولا أرى غيره . قال : فنفروا على ذلك وهم مجمعون له ، فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ .

وقال ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ الآية ، تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا

أصبح فأنبئوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي ﷺ على فراش رسول الله ﷺ ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليًا يحسبونه النبي ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا عليًا رد الله تعالى مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري فاقصصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال .^(١)

﴿ وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَعَيْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وَإِذَا قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانتَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقُّ مِنۢ عِنْدِكَ فَٱنظُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ٱثْنِتْنَا بِعَذَابٍ ٱلَّيْلِ وَمَا كَانتَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانتَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وقرمدهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون : ﴿ قَدْ سَعَيْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ﴾ وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً ، وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم . وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم ، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم وإسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول : بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد ؟ ولهذا ما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه ففعل ذلك ولله الحمد ، وكان الذي أسره المقداد بن الأسود ﷺ ، كما روي عن سعيد بن جبير قال : قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله أسيري ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول في كتاب الله ﷻ ما يقول » فأمر رسول الله ﷺ بقتله ، فقال المقداد : يا رسول الله أسيري ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ٱللَّهُمَّ أَغْنِ ٱلْمَقْدَادَ مِنۢ فَضْلِكَ » فقال المقداد : هذا الذي أردت ، قال : وفيه أنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَعَيْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾^(٢) وعن سعيد بن جبير أنه قال : المطعم بن عدي بدل طعيمة وهو غلط ؛ لأن المطعم بن عدي لم يكن حياً يوم بدر ، ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذ : « لو كان المطعم بن عدي حياً ثم سألتني في هؤلاء لنتني لو هبتم له - يعني الأسارى - لأنه كان قد أجاز رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف »^(٣) .

ومعنى ﴿ أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وهو جمع أسطورة أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس ، وهذا هو الكذب البحت .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٤٨/١ .

(٢) أخرجه أبو داود في مراسيله (٣٧) والطبري في تفسيره (٣٠٥/٩) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٢٣) وأحمد في مسنده ٨٠/٤ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم ، وهذا مما عيىوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة كقوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ أَنَّ أَجَلَ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ عن أنس بن مالك قال : هو أبو جهل بن هشام قال : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فنزلت : ﴿ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ^(١) وعن ابن عباس : في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال : هو النضر بن الحارث بن كعدة قال : فأنزل الله ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ بَيْنَهُمْ وَلَكِنَّ لَكَ يَوْمَ ذَلِكَ دَلِيلٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، فيقول النبي ﷺ : « قَدْ قَدْ » ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . ويقولون : غفرانك غفرانك فأنزل الله : ﴿ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ الآية . قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : النبي ﷺ والاستغفار ، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار . وعن يزيد ابن رومان ومحمد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها لبعض : محمد أكرم الله من بيننا ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ الآية ، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا غفرانك اللهم - فأنزل الله ﴿ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ يقول : ما كان الله ليُعَذِّبَ قوماً وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم ، ثم قال : ﴿ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يقول : وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار ، يستغفرون يعني يصلون ، يعني بهذا أهل مكة . وقال الضحاك وأبو مالك : يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة ، وعن النضر بن عدي عن ابن عباس قال : إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داموا بين أظهرهم ، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم قوله ﴿ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، وعن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانَيْنِ لِأُمِّي ﴾ ﴿ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنْتَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فَإِذَا مَضَيْتِ تَرَكْتُ فِيهِمُ الْاسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ^(٣) ويشهد لهذا ما روي عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ : وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَتْرُكُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ ، فَقَالَ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي » ^(٤) .

(١) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤٨) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣١٠/٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٨٢) والهندي في كنز العمال (٢٠٨١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٣) والحاكم في المستدرک (٢٦١/٤) .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم ، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم ، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر فقتل صناديدهم وأسر سرائهم ، وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد . وقال قتادة والسدي وغيرهما : لم يكن القوم يستغفرون ، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا . واختاره ابن جرير ، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد ، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك : عن ابن أبي قال : كان النبي ﷺ بمكة فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ قال : فخرج النبي ﷺ إلى المدينة فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال : وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها مستضعفين ، يعني بمكة ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فلما خرجوا أنزل الله ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ قال : فأذن الله في فتح مكة ، فهو العذاب الذي وعدهم (١) .

وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم ، فغن عن عكرمة والحسن البصري قالا : قال في الأنفال : ﴿ وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فنسختها الآية التي تليها ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ إلى قوله ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر ، وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة ، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام ، وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه . عن أنس بن مالك ؓ قال : سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك ؟ قال : « كُلُّ تَقِيٍّ » وتلا رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) . وقال عروة والسدي ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ هم محمد ﷺ وأصحابه ؓ . وقال مجاهد : هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا .

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعاملونه به فقال : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ قال عبد الله بن عمرو وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير : هو الصفير . وزاد مجاهد وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم ، وقال السدي : المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء ويكون بأرض الحجاز . عن ابن عباس في قوله :

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٠٩/٩) والسيوطي في الدر (٥٦/٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١١٥/١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٩/٧) .

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق ، والمكاء الصغير والتصدية التصفيق ، وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ قال : صدهم الناس عن سبيل الله ﷻ . وقوله : ﴿فَذَرُوا الْعَذَابَ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق : هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسي ، واختاره ابن جرير ولم يحك غيره ، وعن مجاهد قال : عذاب أهل الإقرار بالسيف ، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة .
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْزِنُهُمْ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْرَجُونَ ﴿٣٦﴾ لَيْسَ لِلَّهِ الْخَيْبُ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعْمَلُ الْخَبِيثُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُكُمْ جِيعًا فَيَجْعَلُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلِيَّكُمْ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ .

عن الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قال : لما أصيب قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان ابن أمية في رجال من قريش أصيب آبائهم وإخوانهم بيدركموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش : إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا ، قال : ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله ﷻ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ . وقال الضحاك : نزلت في أهل بدر . وعلى كل تقدير فهي عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصاً ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم تجد شيئاً ؛ لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ومعلن كلمته ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي ، ولهذا قال : ﴿سَيُفْزِنُهُمْ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْرَجُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لَيْسَ لِلَّهِ الْخَيْبُ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال ابن عباس : فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، وقال السدي : يميز المؤمن من الكافر ، وهذا يختم أن يكون هذا التميز في الآخرة كقوله : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَيْتُمْ فَرَيْتُمْ بَيْنَهُمْ﴾ وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا نَسُوا نَجْمَ الْوَحْيِ﴾ ويحتمل أن يكون هذا التميز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله ، أي إنما أقدرناهم على ذلك ﴿لَيْسَ لِلَّهِ الْخَيْبُ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين ، أو يعصيه بالنكول عن ذلك ، كقوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْخَبِيثِ﴾ الآية ، ﴿لَيْسَ لِلَّهِ الْخَيْبُ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَعْمَلُ الْخَبِيثُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُكُمْ جِيعًا فَيَجْعَلُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلِيَّكُمْ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِجَالًا﴾ أي متراكماً متراكباً ﴿فَيَجْعَلُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلِيَّكُمْ هُمُ الْخَائِرُونَ﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣٨) وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلُمُوا لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهُوا فَلَا تَكُنْ لَهُمْ بَصِيرَةٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُوَلِّكُمْ يَوْمَ الْمُؤَلَّى وَنِعْمَ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم ، كما جاء عن ابن مسعود ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أَخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ » (١) وفي الحديث أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « الْإِسْلَامُ يُجِبُّ مَا قَبْلَهُ ، وَالتَّوْبَةُ تُجِبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا » (٢) وقوله : ﴿ وَإِنْ يُودُوا ﴾ أي يستمروا على ما هم فيه ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم إنا نعاملهم بالعذاب والعقوبة . قال مجاهد : في قوله : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي ، في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلُمُوا لِلَّهِ ﴾ عن نافع عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ الآية ، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا ابن أخي ، أعير بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ إلى آخر الآية ، قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن في دينه إما إن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال : فما قولكم في علي وعثمان ؟ قال ابن عمر : أما قولي في علي وعثمان ، أما عثمان : فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما علي : فابن عم رسول الله ﷺ وختنه ، وأشار بيده ، وهذه ابنته أو بنته حيث ترون (٣) . ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ حتى لا يفتن مسلم عن دينه . وقوله : ﴿ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلُمُوا لِلَّهِ ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية : قال : يخلص التوحيد لله ، وقال الحسن وقتادة وابن جريج : أن يقال لا إله إلا الله ، وقال محمد بن إسحاق : ويكون التوحيد خالصاً لله ليس فيه شرك ، ويخلع ما دونه من الأنداد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلُمُوا لِلَّهِ ﴾ لا يكون مع دينكم كفر ، ويشهد لهذا ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أَمِزْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ » (٤) . وعن أبي موسى الأشعري قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ﷻ ؟ فقال : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ » (٥)

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٠) وأحمد في مسنده (٤٠٩/١) وابن ماجه في مسنده (٤٢٤٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٤) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥) ومسلم في الإيمان (٣٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الإمامة (١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١) وأحمد في مسنده (٣٩٢/٤) .

وقوله : ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا ﴾ أي بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَمْشُرُونَ بَصِيرٌ ﴾ كقوله : ﴿ إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ الآية ، وفي الآية الأخرى ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ وقال : ﴿ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأسامة ، لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال : لا إله إلا الله فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال لأسامة : « أَقْتَلْتُهُ بَعْدَ مَا قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ وَكَيْفَ تَضَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ؟ فقال : يا رسول الله إنما قالها تعودًا قال : « هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ ؟ » وجعل يقول ويكرر عليه : « مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ » قال أسامة : حتى تمتيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ (١) .

وقوله : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَوْمَ الْقَوْلِ يَقَعُ النَّصِيرُ ﴾ أي وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ ﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعيم المولى ونعم النصير . ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتْحِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .
يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصًا لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم . والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، والفِيء ما أخذ منهم بغير ذلك ، كالأموال التي يصالحون عليها أو يتوفون عنها ولا وارث لهم والحزبة والخراج ونحو ذلك ، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف ، ومن العلماء من يطلق الفِيء على ما تطلق عليه الغنيمة وبالعكس أيضًا ، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ الآية ، قال : فنسخت آية الأنفال تلك وجعلت الغنائم أربعة أخماس للمجاهدين وخمسة منها لهؤلاء المذكورين ، وهذا الذي قاله بعيد ؛ لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر وتلك نزلت في بني النضير ، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر ، وهذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، فمن يفرق بين معنى الفِيء والغنيمة يقول : تلك نزلت في أموال الفِيء وهذه في الغنائم ، ومن يجعل أمر الغنائم والفِيء راجعًا إلى رأي الإمام يقول : لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام والله أعلم .
فقوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ . تؤكد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والخيط وقوله : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ اختلف المفسرون ههنا فقال بعضهم لله : نصيب من الخمس يجعل في الكعبة . عن أبي العالية الرياحي قال : كان رسول الله ﷺ يؤتي بالغنيمة فيخمسها على خمسة ، تكون أربعة أخماس لمن شهدا ، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، فيأخذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة ، وهو سهم الله ، ثم يقسم ما بقي على خمسة ، فيكون سهم للرسول وسهم لذوي القربى وسهم لليتامى وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل . وقال آخرون : ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك وسهم لرسوله عليه الصلاة والسلام . قال ابن عباس :

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٩ ، ١٦٠) وأحمد في مسنده (٢٠٠/٥) .

كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة ، فضرب ذلك الخمس في خمسة ثم قرأ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ مفتاح كلام ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحدًا . وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن بن محمد ابن الحنفية والحسن البصري وقتادة ومغيرة وغير واحد : إن سهم الله ورسوله واحد . ويؤيد هذا ما روي عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال : أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى ، وهو يعرض فرسًا فقلت : يا رسول الله ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : « لِلَّهِ خُمُسُهَا وَأَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهَا لِلْجَيْشِ » قلت : فما أحد أولى به من أحد ؟ قال : « لَا وَلَا السَّهْمُ تَنْتَخِرُجُهُ مِنْ جَيْبِكَ لَيْسَ أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ » ^(١) .

وعن الحسن قال : أوصى أبو بكر بالخمس من ماله وقال : ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه ^(٢) . ثم اختلف قائلو هذا القول ، فعن ابن عباس قال : كانت الغنيمة تخمس على خمسة أخماس فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس فربح لله وللرسول ﷺ فما كان لله وللرسول فهو لقراءة النبي ﷺ ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئًا . وعن عبد الله ابن بريدة في قوله : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ قال : الذي لله فلنبيه ، والذي للرسول لأزواجه . وعن عطاء بن أبي رباح قال : خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ما شاء ، يعني النبي ﷺ وهذا أعم وأشمل ، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ، ويرده في أمته كيف شاء ، ويشهد لهذا ما روي عن المقدم بن معد يكرب الكندي أنه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندي فنذاكروا حديث رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة ، كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس ، فقال عبادة : إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بغير من المغنم ، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أظفاريه فقال : « إِنَّ هَذِهِ مِنْ غَنَائِمِكُمْ وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي فِيهَا إِلَّا نَصِيبِي مَقَكُمُ الْخُمُسُ ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ ، فَأَذُوا الْخَيْطَ وَالْخَيْطُ ، وَأَكْبَرِ مِنْ ذَلِكَ وَأَصْغَرِ ، وَلَا تَغْلُوا ، فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَجَاهِدُوا النَّاسَ فِي اللَّهِ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ ، وَلَا تَبَالُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةٍ لَأَيِّمٍ ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي السُّفْرِ وَالْحَضَرِ ، وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ عَظِيمٌ ، يُنْجِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ » ^(٣) . وعن عمرو بن عبسة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بغير من المغنم فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير ثم قال : « وَلَا يَحِلُّ لِي مِنْ غَنَائِمِكُمْ مِثْلُ هَذِهِ إِلَّا الْخُمُسُ ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ » ^(٤) وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك ، وروى عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى (٣٢٤/٦) والهندي في كنز العمال (١٠٩٨٦) .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٦/١٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٦/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (٣٣٨/٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٥٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٣٩/٦) .

ذا الفقار يوم بدر ، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أُحُد ^(١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت صفية من الصفي ^(٢) . وروي عن يزيد بن عبد الله قال : كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى بَنِي زُهَيْرٍ بْنِ أَيْثَرٍ إِنَّكُمْ إِذْ شَهِدْتُمْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وَأَدَيْتُمُ الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ ، وَسَهْمَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَسَهْمَ الصَّفِيِّ ؛ أَنتُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » فقلنا : من كتب لك هذا ؟ فقال : رسول الله ﷺ ^(٣) فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوتها ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه . وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين ، كما يتصرف في مال الفيء . وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمته الله : وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الأقوال .

فإذا ثبت هذا وعلم فقد اختلف أيضًا في الذي كان يناله عليه الصلاة والسلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده ؟ فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده ، روي هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة ، وقال آخرون : يصرف في مصالح المسلمين . وقال آخرون : بل هو مردود على بقية الأصناف ذوي القرى واليتامي والمساكين وابن السبيل ، اختاره ابن جرير ، وقال آخرون : بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القرى مردودان على اليتامي والمساكين وابن السبيل . عن قيس ابن مسلم : سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية رحمه الله تعالى عن قول الله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ فقال : هذا مفتاح كلام الله الدنيا والآخرة . ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال قائلون : سهم النبي ﷺ تسليمًا للخليفة من بعده . وقال آخرون : لقرابة النبي ﷺ وقال آخرون : سهم القرابة لقرابة الخليفة ، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله ، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . قال الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح ، فقلت لإبراهيم : ما كان علي يقول فيه ؟ قال : كان أشدهم فيه . وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء ، رحمهم الله ، وأما سهم ذوي القرى فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب ؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول الله ﷺ وحماية له : مسلمهم طاعة لله ولرسوله ، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا بني عمهم فلم يوافقوهم على ذلك بل حاربوهم وناذبوهم ومالوا بطون قريش على حرب الرسول ، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم ، ولهذا يقول في أثناء قصيدته :

جَزَى اللَّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا عُقُوبَةً شَرًّا عَاجِلٍ غَيْرِ آجِلٍ
يُمِيزَانِ قِسْطَ لَا يَخِيشُ شَعِيرَةً لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلٍ

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/١) .

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٥٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٧/٥) وأبو داود في سننه (٢٩٩٩) والنسائي في سننه (٤١٤٦) .

لَقَدْ سَفَهَتْ أَخْلَافُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلَفٍ قَيْصًا بَنًا وَالْعَيَاطِلِ
وَنَحَرُ الصِّمِيمِ مِنْ ذَوَابَةِ هَاشِمٍ وَأَلٍ قُصَيٍّ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ

وقال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل : مشيت أنا وعثمان بن عفان ، يعني ابن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس ، إلى رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله أعطيت بني المطلب من خمس خبير وتركنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة ؟ فقال : « إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمَطْلَبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ » ^(١) . وفي بعض روايات هذا الحديث « إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ » ^(٢) وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب . وقال آخرون : هم بنو هاشم ، ثم روي عن مجاهد قال : علم الله أن في بني هاشم فقراء فجعل لهم الخمس مكان الصدقة ، وفي رواية عنه قال : هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحمل لهم الصدقة ، قال ابن جرير : بل هم قريش كلها . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رَغِبْتُ لَكُمْ عَنْ غَسَالَةِ الْأَيْدِي ؛ لِأَنَّ لَكُمْ مِنْ خُمْسِ الْخُمْسِ مَا يُغْنِيكُمْ أَوْ يَكْفِيكُمْ » ^(٣) . وقوله : ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ أي أيتام المسلمين ، واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين ، والمساكين هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم ﴿ وَأَنْتَ السَّبِيلُ ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة وليس له ما ينفقه في سفره ذلك .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْ عَبْدِنَا ﴾ أي امثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله . ولهذا جاء في حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم : « وَأَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْتَ هَاشِمٌ عَنْ أَرْبَعٍ ، أَمْرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ » - ثم قال : « تَذَرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ » ^(٤) فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان . وقال مقاتل بن حيان ﴿ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أي في القسمة . وقوله : ﴿ يَوْمَ اتَّخَذَ الْأَجْمَعُونَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل بيد ، ويسمى الفرقان ؛ لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل ، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه ، قال ابن عباس : ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل . وقال مجاهد : إنه يوم بدر ، وقال عروة بن الزبير : يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة ، فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك ، وقد روي عن ابن مسعود قال في ليلة القدر : تحروها لإحدى

(١) أخرجه : أبو داود في السنن (٢٩٧٨) والبيهقي في السنن ١٤٩/٢ .

(٢) أخرجه النسائي في سننه (٤١٣٦) وأحمد في مسنده ٨١/٤ ، والطبراني في الكبير ١٤٧/٢ .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٦/٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣ ، ٢٦) وأحمد في مسنده (٢٣/٣) .

عشرة يقيين فإن في صبيحتها يوم بدر ^(١) . وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال : قال الحسن بن علي : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان ^(٢) .

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدَّةِ الْآخِرَةِ وَالرَّكْبُ اسْتَفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْيَعْبَدِ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَّةِ الدُّنْيَا ﴾ أي إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿ وَهُمْ ﴾ أي المشركون نزول ﴿ بِالْمُدَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿ اسْتَفَلَ مِنْكُمْ ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿ لَأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْيَعْبَدِ ﴾ عن عبد الله بن الزبير في هذه الآية قال : ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم ﴿ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم ، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه . وفي حديث كعب بن مالك قال : إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ^(٣) . وعن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان في الركب من الشام وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه فالتقوا بيدرا ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقى السقاة ونهد الناس بعضهم لبعض ^(٤) .

قال محمد بن إسحاق : ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بشبش بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء الجهنين يلتزمان الخبر عن أبي سفيان ، فانطلقا حتى إذا وردا بدراً فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء فاستقيا في شئ لهما من الماء . فسمعا جارييتين تختصمان تقول إحداهما لصاحبها : اقضيني حقي ، وتقول الأخرى : إنما تأتني العير غداً أو بعد غد فأقضيك حقل ، فخلص بينهما مجدي بن عمرو وقال : صدقت ، فسمع بذلك بشبش وعدي فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر ، وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر فتقدم أمام عيره وقال لمجدي بن عمرو : هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره ؟ فقال : لا والله ، إلا أنني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا من شئ لهما ثم انطلقا ، فجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما فأخذ من أبعارهما ففته فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب ، ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره فانطلق بها ف ساحل حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال : إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نأتي بدراً - وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثاً فنطعم بها الطعام ، ونحرق بها الجزر ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢٠/٣ .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣/١٠) والسيوطي في الدر المنثور (٧٢/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٦/١٠) .

ونسقي بها الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا ، فلا يزالون يهابونا بعدها أبداً . فقال الأخنس بن شريق : يا معشر بني زهرة ، إن الله قد أنجى أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا ، فأطاعوه فرجعت بنو زهرة فلم يشهدوها ولا بنو عدي .

وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر ، فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص وغلاماً لبني الحجاج ، فأتوا بهما رسول الله ﷺ فوجدوه يصلي ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما لمن أنتما ؟ فيقولان : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما ، فلما أزلقوهما قالوا : نحن لأبي سفيان فتركوهما ، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم وقال : « إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرْبَتْهُمَا ، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا ! صَدَقَا وَاللَّهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ أَخْبَرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ » قالوا : هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكتيب : العقنقل - فقال لهما رسول الله ﷺ : « كَمْ الْقَوْمُ ؟ » قالوا : كثير . قال : « مَا عِدَّتُهُمْ ؟ » قالوا : ما ندري ، قال : « كَمْ يَنْحَرُونَ كُلُّ يَوْمٍ ؟ » قالوا : يوماً تسعاً ويوماً عشرة . قال رسول الله ﷺ : « الْقَوْمُ مَا يَنْتِ السَّعِيمَاتِ إِلَى الْأَلْفِ » ثم قال لهما : « فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ؟ » قالوا : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبدود ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : « هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلَقْتُ إِلَيْكُمْ أَفْلَاحَ كَبِدِهَا » ^(١) .

وقوله : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَرُبْحَانٍ مَنِ حَتَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ قال محمد بن إسحاق : أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآيات والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك ، وهذا تفسير جيد . وبسط ذلك أنه تعالى يقول : إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل ، ليصير الأمر ظاهر والحجة قاطعة والبراهين ساطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، فحيث يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره إنه مبطل لقيام الحجة عليه ﴿ وَرُبْحَانٍ مَنِ حَتَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ أي يؤمن من آمن ﴿ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ أي حجة وبصيرة ، والإيمان هو حياة القلوب قال الله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ ﴾ وقالت عائشة ، في قصة الإفك : فهلك في من هلك ^(٢) . أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك . وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ ﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثكم به ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفُتِلْتُمْ وَلَتَرْجَعُنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنَّ اللَّهَ سَكَنَ لِمَنَّهُ عَلَيْهِ يَدَاتُ الصُّدُورِ ﴾ ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَّفَاقُتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَلِيلٌ لَهُمْ يَخْلُفُ اللَّهَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/١) والهيثم في مجمع الزوائد (٧٥/٦) والهندي في كنز العمال (٢٩٩٤١) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١) .

أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٥﴾ .

قال مجاهد : أراهم الله إياه في منامه قليلاً وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تبييناً لهم ، وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها ^(١) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَرَدْنَاكُمْ كَثِيرًا لَفُشِنْتُمْ ﴾ أي لجنتم عنهم واختلقتهم فيما بينكم ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أي من ذلك بأن أراكم قليلاً ﴿ إِنَّمَا عَلَيْكَ بِنَادِ الْمُسَدِّدِ ﴾ أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء ﴿ يَلْمِزُكَ الْإِنْسَانُ أَغَايَةً لِلْعَيْنِ وَمَا نَحْنُ بِالْمُسَدِّدِينَ ﴾ : وقوله : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي آغِيثِكُمْ قَلِيلًا ﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم . عن عبد الله بن مسعود ؓ قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه فقال : كنا ألفاً ^(٢) . وقوله : ﴿ وَبَقِلْكَ فِي آغِيثِهِمْ ﴾ عن عكرمة ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ ﴾ الآية ، قال : حضض بعضهم على بعض . وعن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى ﴿ لَيَقْبِضَنَّ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَفْعُولًا ﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته ، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر ، وقلله في عينه ليطمع فيه ، وذلك عند المواجهة ، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه كما قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتِيِنِ الَّتِي تَقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافَّةً يَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا لَكَ الْآيَةَ فِي نَفْسِكَ ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين فإن كلا منها حق وصدق والله الحمد والمنة .

﴿ يَأْتِيهَا الْبُزْتُ ﴾ مَأْمُورًا إِذَا لَقِيَتْ فِتْنَةً فَاقْبِتُوهَا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٧﴾ .

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال : ﴿ يَأْتِيهَا الْبُزْتُ ﴾ مَأْمُورًا إِذَا لَقِيَتْ فِتْنَةً فَاقْبِتُوهَا ﴿ عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّيُوفِ » ثم قام النبي ﷺ وقال : اللَّهُمَّ مُنزِّلَ الْكِتَابِ ، وَمُجَرِّي السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ » ^(٣) .

وعن عطاء قال : وجب الإنصات وذكر الله عند الزحف ، ثم تلا هذه الآية ، قلت : يجهرون بالذكر ؟ قال : نعم . وعن عبد الله بن عباس قال : ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر ، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال ، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال :

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٩ / ١٠) .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٨ / ١٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٢٠) وأبو داود في سننه (٢٦٣١) والحاكم في المستدرک (٧٨ / ٢) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم فلا يفزوا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه ، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك ، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا ، وما نهاهم عنه انزعجوا ، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم ﴿وَنَذَمَ بِمُحْكٍ﴾ أي قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال ﴿وَأَصِيرُوا إِنْ اللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وقد كان للصحابه ﷺ في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به ، وامثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم . قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة ، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين وحشرنا في زمريهم إنه كريم وهاب .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَحْكُمُونَ مُحِيطٌ﴾
وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقُسُوفَ
تَكَصَّ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٥﴾ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَبِهِمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ .

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره ، ناهيًا لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم : ﴿بَطَرًا﴾ أي : دفعا للحق ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم ، كما قال أبو جهل ، لما قيل له إن العير قد نجا فارجعوا ، فقال : لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، وننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدًا ، فانعكس ذلك عليه أجمع ؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحيمام ، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء ، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي ؛ ولذا قال : ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَحْكُمُونَ مُحِيطٌ﴾ أي عالم بما جاءوا به وله ، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم . قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا : هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر . وقال محمد بن كعب : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر ، خرجوا بالقيان والدفوف فأنزله الله ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَحْكُمُونَ مُحِيطٌ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ الآية ، حسن لهم - لعنه الله - ما جاءوا به وما هموا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال : إني جار لكم ، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج كبير تلك الناحية

وكل ذلك منه ، كما قال تعالى عنه : ﴿ يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية : لما كان يوم بدر سار إبليس برأيه وجنوده مع المشركين ، وألقى في قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبكم ، وإني جار لكم ، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة ﴿ تَكْصُ عَلَى عَيْبَيْهِ ﴾ قال : رجع مدبراً ، وقال : ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ الآية ، وقال ابن عباس : جاء إبليس يوم بدر في جنيد من الشياطين معه رأيه في صورة رجل من بني مدلج في صورة سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولي مدبراً وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقه ، أتزعم أنك لنا جار فقال : ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وذلك حين رأى الملائكة .

وعن طلحة بن عبيد الله بن كرز : أن رسول الله ﷺ قال : « مَا رَأَى إِبْلِيسُ يَوْمَ هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَحَقَرُ وَلَا أَذْخَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَذَلِكَ بِمَا تَرَى مِنْ زُرُولِ الرُّوحَةِ وَالْعَفْوِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ » قالوا : يا رسول الله وما رأى يوم بدر ؟ قال : « أَمَا إِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرْفَعُ الْمَلَائِكَةَ » (١) .

وقوله : ﴿ إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ مِنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية : لما دنا القوم بعضهم من بعض قتل الله المسلمين في أعين المشركين ، وقتل المشركين في أعين المسلمين ، فقال المشركون : غرَّ هؤلاء دينهم وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم ، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك فقال الله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وقال قتادة : رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله ، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال : والله لا يعبد الله بعد اليوم قسوة وعتوا . وقال ابن جريج في قوله : ﴿ إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ : هم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر ، وقال مجاهد : في قوله ﷻ : ﴿ إِذْ يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ مِنْهُمْ ﴾ قال : فئة من قريش : قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وعلي بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياح فحبسهم ارتياحهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : غرَّ هؤلاء دينهم ، حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم . وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي لا يضام من التجأ إليه ، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها ، فينصر من يستحق النصر ، ويخذل من هو أهل لذلك .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَكَّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى الْمَلَائِكَةِ يَبْصُرُهُمْ رَبُّهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ دُونَهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ذَلِكَ

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٤٢٢/١) ويزع الملائكة أي يعيهم ويصفهم للقتال .

قَدَمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥٠﴾ .

يقول تعالى : ولو عاينت يا محمد ، حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكراً ، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم : ذوقوا عذاب الحريق . قال ابن عباس : إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم . وقال مجاهد في قوله : ﴿ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ يوم بدر ، وعن سعيد بن جبير ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ قال : وأستاهم ، ولكن الله يكتفي . وعن الحسن البصري قال : قال رجل : يا رسول الله : إنني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك ، قال : « ذَاكَ ضَرْبُ الْمَلَائِكَةِ » وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر ولكنه عام في حق كل كافر ؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر ، بل قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ وفي سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ أُلْقِلُوا فِي غَمَرَاتٍ مُّكْوَنَاتٍ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ أي باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم إذا استصعبت أنفسهم وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً ، وذلك إذا بشروهم بالعذاب والغضب من الله ، كما في حديث البراء : أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة يقول : اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من يحموم ، فتفرق في بدنه فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول ^(١) ، فتخرج معها العروق والعصب ، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم : ذوقوا عذاب الحريق .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي : هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا ، جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي لا يظلم أحداً من خلقه ، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور تبارك وتعالى وتقُدَّس وتنزه الغني الحميد ، ولهذا جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِبَادِي إِنِّي خَزَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ يَنَازِلَكُمْ مُّحَرَّمًا ، فَلَا تَطْلُمُوا ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَٰلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » ^(٢) ولهذا قال تعالى :

﴿ كَذَٰبَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .
يقول تعالى : فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد كما فعل الأمم المكذبة قبلهم ، ففعلنا بهم ما هو أدبنا أي عادتنا وستتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول ، الكافرين بآيات الله ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكتهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي : لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب .
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَرِكًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُفَرِّدُوا مَا بَيْنَهُمْ ﴾ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰبِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في مسنده (٤٥/٢) .

ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَفْكَكْتُمْ بَذُوبَهُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَاثِرٍ ظَالِمِينَ ﴿٥٥﴾ .
 يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَّخِذُ مَا يَقُولُ حَتَّى يَتَّخِذَ مَا يَنْفُسُ مِنْهُ ﴾ وقوله : ﴿ كَذَّبَ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكتهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين .

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ أَلَيْسَ عَهْدُكُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُتُونَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ مَرْءٍ وَهُمْ لَا يَنْفِقُونَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا تَتَفَقَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَتَرَدُّ بِهِمْ مَن خَلَفْتُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ .
 أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه ، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ﴿ وَهُمْ لَا يَنْفِقُونَ ﴾ أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام ﴿ إِنَّمَا تَتَفَقَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿ فَتَرَدُّ بِهِمْ مَن خَلَفْتُمْ ﴾ أي نكل بهم ، قاله ابن عباس والحسن البصري ومعناه : غلظ عقوبتهم وأتخنهم قتلاً ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم ، ويصيروا لهم عبرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ وقال السدي : لعلمهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك .

﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيفَتُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ ﴾ .
 يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خِيفَتُهُمْ ﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿ فَإِنَّهُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم ، وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء ، أي تستوي أنت وهم في ذلك .

وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ : أي : على مهل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ ﴾ أي : حتى ولو في حق الكفار لا يحبها أيضاً . عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير في أرض الروم ، وكان بينه وبينهم أمد ، فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم ، فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر ، الله أكبر وفاء لا غدراً ، إن رسول الله ﷺ قال : « وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحُلُّ عُقْدَةً وَلَا يَشُدُّهَا حَتَّى يَنْقُضِي أَمَدَهَا ، أَوْ يُنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » قال فبلغ ذلك معاوية فرجع ، فإذا بالشيخ عمرو بن عبسة ^(١) وعن سلمان الفارسي ﷺ أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه : دعوني أَدْعُوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم فقال : إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله ﷻ للإسلام ، فإن أسلمتم فلکم ما لنا وعليکم ما علينا ، وإن أبيتُم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، وإن أبيتُم نابذناکم على سواء ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاقِينَ ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٤) وأبو داود في السنن (٢٧٥٩) والترمذي في السنن (١٥٨٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/٥) .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا بِإِيْتِهِمْ لَا يَصْحُرُونَ ﴾ ❶ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَظْفَرْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أي فاتونا فلا تقدر عليهم ، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ أَسْنَانًا أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي يظنون ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَظْفَرْتُمْ ﴾ أي مهما أمكنكم ﴿ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ . عن أبي علي ثمامة بن شفي أخي عقبة بن عامر أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : « ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَظْفَرْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرُّمِيَّ ، إِلَّا إِنَّ الْقُوَّةَ الرُّمِيَّ » ^(١) وروي عن رسول الله ﷺ قال : « اؤْمُوا وَارْكَبُوا ، وَأَنْ تَرْمُوا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا » ^(٢) وعن أبي هريرة ؓ : أن رسول الله ﷺ قال : « الْخَيْلُ لثَلَاثَةٍ ، لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ ؛ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ مِنَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ ؛ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنْتَ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ ؛ كَانَتْ أَثَارَهَا وَأَزْوَائِهَا حَسَنَاتٍ لَهُ ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يُشْقَى بِهِ ؛ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ ، فَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغْنِيًا وَتَعَفُّفًا وَلَمْ يُنَسْ حَقُّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظَهْرُهَا ؛ فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخَرًا وَرِيَاءً وَنَوَاءً ؛ فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وَزْرٌ » ^(٣) وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَاذَةُ ﴾ فَمَنْ يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ❷ وَمَنْ يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ❸ » ^(٤) .

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل ، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي ، وقول الجمهور أقوى للحديث ، والله أعلم . وعن ابن شماس أن معاوية ابن خديج مر على أبي ذر هو قائم عند فرس له فسأله ما تعاني من فرسك هذا ؟ فقال : إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته . قال : وما دعاء بهيمة من البهائم ؟ قال : والذي نفسي بيده ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول : اللهم أنت خولتني عبدًا من عبادك ، وجعلت رزقي بيده ، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده ^(٥) . وعن عروة بن أبي الجعد البارقبي أن رسول الله ﷺ قال : « الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ » ^(٦)

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (١٦٧) وأحمد في مسنده (١٥٧/٤) والترمذي في جامعه (٣٠٨٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١٣/١٠ ، ١٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٦٠) وأحمد في مسنده (٢٦٢/٢) ومالك في الموطأ (٤١٤/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٦٠) ومسلم في الزكاة (٢٤ ، ٢٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٨٢/٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٥) .

(٦) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١١٩) ومسلم في الزكاة (٢٦) وأحمد في مسنده (٤٩/٢) .

وقوله : ﴿ تَرَاهُمْ ﴾ أي تخوفون ﴿ بِهِ عَذَرُوا اللَّهَ وَعَذَرُكُمْ ﴾ أي من الكفار ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ قال مجاهد : يعني بني قريظة ، وقال السدي : فارس ، وقال سفيان الثوري : قال ابن يمان : هم الشياطين التي في الدور . وقال مقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المنافقون ، وهذا أشبه الأقوال ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَبِمَنْ حَوْلَكُمْ يَدُ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْأَنفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُغْلَبُونَ ﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يُوفَّى إليكم على التمام والكمال .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِعْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي إِلَيْكَ يَتَّبِعُونَ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء ، فإن استمروا على حربك ومنابدتك فقاتلهم ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا ﴾ أي : مالوا ﴿ لِلْسَّلَامِ ﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فَاجْتَنِعْ لَهُمْ ﴾ أي فعمل إليهم واقبل منهم ذلك ، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّهُ سَيَكُونُ اخْتِلَافٌ أَوْ أَمْرٌ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَكُونَ السَّلَامُ فَأَفْعَلْ ﴾ ^(١) وقال مجاهد : نزلت في بني قريظة ، وهذا فيه نظر ؛ لأن السياق كله في وقعة بدر ، وذكرها مكتنف لهذا كله ، وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿ فَانِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية ، وفيه نظر أيضا لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، فأما إن كان العدو كتيفاً فإنه يجوز مهادنتهم كما دللت عليه هذه الآية الكريمة ، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي صالحهم وتوكل على الله فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ أي كافيك وحده ، ثم ذكر نعمته عليه بما أتاه به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي إِلَيْكَ يَتَّبِعُونَ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج ، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان كما قال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللَّهُ بِي » كلما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٠/١) .

قال شيئا قالوا : الله ورسوله آمن^(١) ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَسَكُنَّ اللَّهُ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عزيز الجناح فلا يخيب رجاء من توكل عليه ، حكيم في أفعاله وأحكامه .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتُ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية ، قال : هم المتحابون في الله ، وفي رواية : نزلت في المتحابين في الله^(٢) ، وعن ابن عباس قال : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء ثم قرأ ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتُ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ ﴾^(٣) .

وعن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فَأَخَذَ بِيَدِهِ تَحَاثَّتْ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا كَمَا تَحَاتُّ الْوَرَقُ عَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ فِي يَوْمٍ رِيحٍ عَاصِيفٍ ، وَإِلَّا غَفَرَ لَهُمَا ذُنُوبُهُمَا وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَيْدِ الْبَحَارِ »^(٤) .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٥) يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَرِيرُونَ يَلْبِسُوا يَأْتِيَنَّ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَلْبِسُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾^(٦) أَلَفْتُ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَارَ يَلْبِسُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَلْبِسُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

يحرص تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ، ويخبرهم أنه حسبهم أي كافيتهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم ، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم ، ولو قل عدد المؤمنين . قال الشعبي في قوله : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حسبك الله وحسب من شهد معك . ولهذا قال : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ أي حثهم وذمر عليهم ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في غددهم وعُددهم : « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ » فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » فقال : يخ بخر فقال : « مَا يَخِيلُكَ عَلَى قَوْلِكَ يَخُ بَخ ؟ » قال : رجاء أن أكون من أهلها قال : « فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ثم ألقى بقيتين من يده وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها حياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ^(٥) . وقد روي عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب وكمل به الأربعون ، وفي هذا نظر لأن هذه الآية مدنية وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة ، والله أعلم .

ثم قال تعالى مبشرا للمؤمنين وأمرًا : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَرِيرُونَ يَلْبِسُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٣٩) وأحمد في مسنده (٥٧/٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٢٩/٢) . (٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٢٨/٢) .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١٥/٦) والهندي في كنز العمال (٥٣٦٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٥) وأحمد في مسنده (١٣٦/٣) والحاكم في المستدرک (٤٢٦/٣) .

يَأْتُهُ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٦٧﴾ كُلِّ وَاحِدٍ بَعِشْرَةَ ثَم نَسَخَ هَذَا الْأَمْرَ وَبَقِيَتِ الْبَشَارَةُ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْمُبَارَكِ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿٦٨﴾ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴿٦٩﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَ وَاحِدٌ مِنْ عَشْرَةٍ ثَم جَاءَ التَّخْفِيفُ فَقَالَ : ﴿٦٩﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴿٦٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿٦٨﴾ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ : خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْعِدَّةِ وَنَقَصَ مِنَ الصَّبْرِ بِقَدَرِ مَا خَفَّفَ عَنْهُمْ ^(١) . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : كَتَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَفِرَ عَشْرُونَ مِنْ مِائَتِينَ ثَم خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَقَالَ : ﴿٦٩﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ مَعْفَاً ﴿٦٨﴾ فَلَا يَنْبَغِي لِمِائَةِ أَنْ يَفِرُوا مِنْ مِائَتِينَ ^(٢) . وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿٦٨﴾ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ : نَزَلَتْ فِينَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ .

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(٣) لَوْلَا كِتَابُ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ فَكُلُوا مِنَّمَا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٨﴾ .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : اسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ فِي الْأَسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : « إِنْ اللَّهُ قَدْ أَمَنَّكُمْ مِنْهُمْ » فقام عمر بن الخطاب فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، ثَم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَنَّكُمْ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالْأَمْسِ » فقام عمر فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، ثَم عاد النَّبِيُّ ﷺ فقال للناس مثل ذلك فقام أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَى أَنْ تَعْفُو عَنْهُمْ وَأَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ ، قَالَ : فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْغَمِّ فَعَفَا عَنْهُمْ وَقَبَلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ ، قَالَ : وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ لَوْلَا كِتَابُ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(٣) . وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى ؟ » فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْمُكَ وَأَهْلُكَ اسْتَبَقَهُمْ وَاسْتَبْتَهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، وَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَذِبُوكَ وَأَخْرَجُوكَ فَقَدِمَهُمْ فَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْتَ فِي وَادٍ كَثِيرٍ الْحَطَبُ فَاضْرِمِ الْوَادِي عَلَيْهِمْ نَارًا ثَم أَلْقِهِمْ فِيهِ ، قَالَ : فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يردْ عَلَيْهِمْ شَيْئًا ، ثَم قام فدخل ، فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، ثَم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « إِنْ اللَّهُ لَيَلْبِسُنَّ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلَيَّنَ مِنَ اللَّبَنِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَشْدُدُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ ، وَإِنْ مِثْلُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمِثْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : ﴿ فَمَنْ يَعْصِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَإِنْ مِثْلُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمِثْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : ﴿ إِنْ عَذَّبْتُمْ فَلَا بُدَّ مِنْكُمْ عَذَابًا وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفِيرُ لَفَكَيْدٌ ﴾ وَإِنْ مِثْلُكَ يَا عُمَرُ كَمِثْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن مَّا نَدْعُوْا وَلَا تَجْعَلْ لِّقُلُوبِنَا حَبْرًا وَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ وَتَكُونُ مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٣/٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (٨٧/٦) .

فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١﴾ وَإِنْ مَلَكَ بِأَعْبَدَ اللَّهِ كَمَلَّ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ﴿٢﴾ أَتُتَمَّ عَالَةً فَلَا يَتَفَكَّرُونَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبَةٍ غُنِّيَ ﴿٣﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا سَهِيلَ بْنِ بَيْضَاءٍ فَإِنَّهُ يَذْكُرُ الْإِسْلَامَ ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَا رَأَيْتَنِي فِي يَوْمٍ أَخُوفُ مِنْ أَنْ تَقَعَ عَلَيَّ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ مِنِّي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، حَتَّى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِلَّا سَهِيلَ بْنَ بَيْضَاءٍ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (١) .

وعن ابن عباس ﴿ مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . قال : غنائم بدر قبل أن يحلها لهم ، يقول : لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، وقال الأعمش : سبق منه أن لا يعذب أحدًا شهد بدرًا ، وقال مجاهد : ﴿ لَوْلَا كِتَابُ بَيْنِ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ أي لهم بالمغفرة ، وقال ابن عباس : يعني في أم الكتاب الأول أن المغنم والأسارى حلال لكم ﴿ لَسَكُم مِمَّا أَخَذْتُمْ ﴾ من الأسارى ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ تَكُونُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الآية . وكذا روي عن ابن عباس ، وعن أبي هريرة وابن مسعود أن المراد ﴿ لَوْلَا كِتَابُ بَيْنِ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، ويستشهد لهذا القول بما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرَّغَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَأُجِلَّتْ لِي الْعَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمْ تَحُلْ الْعَنَائِمُ لِشُودِ الرُّؤُوسِ غَيْرَنَا » (٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ تَكُونُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ الآية ، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء ، وعن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة (٣) ، وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل بيني قريظة ، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر ، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء .

﴿ يَأْتِيهِمُ النَّاسُ قُلُوبًا يَمِينًا فِي أَيْدِيهِمْ رَبِّكَ الْأَسْرَى إِنْ يَسْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥٥ ﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَنْتَكَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٥﴾ .

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : « إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ أَنْاسًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أَخْرَجُوا كَرْهًا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا ، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْهُمْ - أَنِّي مِنْ بَنِي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٣/١) والهندي في كنز العمال (٢٩٨٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/٢) والترمذي في جامعه (٣٠٨٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٩١) .

هَاشِم - فَلَا يَقْتُلُهُ ، وَمَنْ لَقِيَ الْبُخْتَرِيَّ بْنِ هِشَامٍ فَلَا يَقْتُلُهُ ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَا يَقْتُلُهُ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَخْرَجَ مُشْتَكِرَهَا » فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقثل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرتنا ونترك العباس ١؟ ، والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف ! ، فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب : « يَا أَبَا حَفْصٍ » قال عمر : والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص « أ يضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟ » فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه ، فوالله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك : والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيداً ﷺ^(١) . وبه عن ابن عباس قال لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل فقال له أصحابه : يا رسول الله ما لك لا تنام ؟ - وقد أسر العباس رجل من الأنصار - فقال رسول الله ﷺ : « سَمِعْتُ أَنِينَ عَمِّي الْعَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ فَأَطْلِقُوهُ » فسكت ، فنام رسول الله ﷺ^(٢) . قال محمد بن إسحاق : وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب وذلك أنه كان رجلاً موسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً .

وفي الحديث عن أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار قالوا : يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن اختنا عباس فداءه ، قال : « لَا وَاللَّهِ لَا تَذَرُونِ مِنْهُ ذَرْهَمًا »^(٣) .

وعن ابن عباس قال : قال العباس : في نزلت ﴿ مَا كَانَتْ لِيَنِي أَنْ يَكُونَ لَكَ أَشْرَى حَتَّى يُنْخَبِتَ فِي الْأَزْنَيْنِ ﴾ فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذت مني فأبى ، فأبدلني الله بها عشرين عبداً ، كلهم تاجر ، مالي في يده^(٤) . ﴿ إِنْ يَسْلَمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ ﴾ إيماناً وتصديقاً يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿ وَتَغْيِرَ لَكُمْ ﴾ الشرك الذي كنتم عليه ، قال : فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن لي الدنيا لقد قال : ﴿ يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ ﴾ ، فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف ، وقال : ﴿ وَتَغْيِرَ لَكُمْ ﴾ وأرجو أن يكون قد غفر لي .

فقال قتادة في تفسير هذه الآية : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً وقد توضعاً لصلاة الظهر ، فما أعطى يومئذ شاكياً ولا حرم سائلاً ، وما صلى يومئذ حتى فرقه ، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتشي فكان العباس يقول : هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة . وعن حميد بن هلال قال : بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد . قال فنشرت على حصير ونودي بالصلاة ، قال : وجاء رسول الله ﷺ فمشل قائماً على المال ، وجاء أهل المسجد ، فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان إلا فيضاً ، وجاء العباس بن

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨٩/٩) .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٢٣/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٥/٦) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره ٦٤/١٠ .

عبد المطلب فحثا في خميصة عليه وذهب يقوم فلم يستطع ، قال : فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : ارفع علي ، قال : فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه أو نابه ، وقال له : « أَعِذْ مِنَ الْمَالِ طَائِفَةً وَقُمْ بِمَا تُطِيقُ » قال : ففعل وجعل العباس يقول : وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندري ما يصنع في الأخرى ﴿ يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ قُلُومًا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَنْسَارِ ﴾ الآية ، ثم قال : هذا خير مما أخذ منا ، وما أدري ما يصنع الله في الأخرى ، فما زال رسول الله ﷺ ماثلاً على ذلك المال حتى ما بقي منه درهم ، وما بعث إلى أهله بدرهم ، ثم أتى الصلاة فصلى .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ ﴾ فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿ فَأَتَيْنَهُمْ ﴾ أي بالأسارى يوم بدر ﴿ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بفعله حكيم فيه . قال قتادة : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين ، وقال ابن جريج عن ابن عباس : نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا : لننصحن لك على قومنا ، وفسرها السدي على العموم ، وهو أشمل وأظهر ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّيْتِمِ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك ، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا لإخوانهم المهاجرين في منازلهم ، وواسوهم في أموالهم ، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان ، فكانوا يتوارثون بذلك إراثاً مقدماً على القرابة ، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواثيق . عن جرير بن عبد الله البجلي ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ، وَالْطُّلُقَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْعَتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(١) . وعن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ، وَالطُّلُقَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْعَتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » ^(٢) . وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْصَرَةِ ﴾ الآية ، وأحسن ما قيل في قوله : ﴿ وَلَا يَحْذَرُونَ فِي مُدْرِجِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُرُوا ﴾ أي لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم ، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك ، عن حذيفة قال : خيرني

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٤) والطبراني في المعجم الكبير (٣٥٠/٢) والهندي في كنز العمال (٣٤١٠٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣١/١٠) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٥/١٠) .

رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة فاخترت الهجرة (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَائِهِمْ ﴾ ﴿ قَرَأْ حِمَزة ﴾ ﴿ وَلَا يَتِهِمْ ﴾ بالكسر والباقون بالفتح وهما واحد كالدلالة والدلالة (٢) ﴿ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ ﴿ هَذَا هُوَ الصَّنْفُ الثَّالِثُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا بَلْ أَقَامُوا فِي بُوَادِيهِمْ فَهُؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْمَغَانِمِ نَصِيبٌ ، وَلَا فِي خُمْسِهَا إِلَّا مَا حَضَرُوا فِيهِ الْقِتَالُ ، كَمَا رَوَى عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْخَصِيبِ الْأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى سَرِيَةٍ أَوْ جَيْشٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ، وَقَالَ : « اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، إِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيُّهُنَّ مَا أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَكُفَّ عَنْهُمْ : اذْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ . ثُمَّ اذْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَأَعْلِنَهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنْ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَأَنْ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ، فَإِنْ أَبَوْا وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ ، فَأَعْلِنَهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْفَنَاءِ وَالْغَنِيمَةِ نَصِيبٌ ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ . فَإِنْ هُمْ أَبَوْا ، فَادْعُهُمْ إِلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ ، فَإِنْ أَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِنْ أَبَوْا ، فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ » (٣) . وقوله : ﴿ وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ ﴾ الآية ، يقول تعالى : وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا فِي قِتَالِ دِينِي عَلَى عَدُوِّ لَهُمْ فَانصُرُوهُمْ ، فَإِنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ نَصْرُهُمْ لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، إِلَّا أَنْ يَسْتَنْصَرُوكُمْ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ مَهَادَنَةٌ إِلَى مَدَّةٍ ، فَلَا تَخْشَوْنَ دِمَّتَكُمْ وَلَا تَنْقُضُوا أَيْمَانَكُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ . وَهَذَا مَرْوِي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار ، كما ورد عن أسامة عن النبي ﷺ قال : « لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ ، وَلَا يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا وَلَا كَافِرٌ مُسْلِمًا » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (٤) . قلت : والحديث من رواية أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ » (٥) . وعن الزهري أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال : « تُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتُحِجُّ الْبَيْتَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَإِنَّكَ لَا تَرَى نَارَ مُشْرِكٍ إِلَّا وَأَنْتَ لَهُ »

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٤/٣) والبخاري في مسنده (٢٧١٨) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٥/٦) .

(٢) قرأ حمزة (ولا يتهيم) هنا وفي الكهف (هناك الولاية) بكسر الواو فيها ، (واقفه الكسائي وخلف في الكهف) والباقون بفتح الواو فيهما (تقريب النشر ص ١١٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٣) وأحمد في مسنده (٢٤٠/٤) وأبو داود في سننه (٢٦١٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/٢) والترمذي في السنن (٢١٠٨) والحاكم في المستدرک (٢٤٠/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٤) ومسلم في الفرائض (١) وأحمد في مسنده (٢٠٠/٥) .

حِزْبٌ» ^(١) وعن سمرة بن جندب : أما بعد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَرَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ » ^(٢) ثم روي عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَرُوجُهُ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ » ^(٣) ومعنى قوله : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ ﴾ أي : إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين ، وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين ، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٥٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٥٨ ۝ »

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضي ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه . ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال : ﴿ وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ الآية ، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » ^(٤) وفي الحديث الآخر « وَمَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ » وفي رواية : « حُشِرَ مَعَهُمْ » ^(٥) . وأما قوله : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي في حكم الله وليس المراد بقوله : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبه ، بل يدلون بوارث كالخاله والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ، ويعتقد ذلك صريحا في المسألة ، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات ، كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً ، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص ، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَغْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ » ^(٦) قالوا : فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى ، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً ، والله أعلم .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٢/١) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٨٧) والهندي في كنز العمال (١١٠٢٩) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٩٦٧) والحاكم في المستدرک (١٦٩/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٦٨) ومسلم في البر والصلة (١٦٥) وأحمد في مسنده (٣٩٢/١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٤) والطبراني في المعجم الكبير (٣٥٠/٢) والهندي في كنز العمال (٣٤١٠٦) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٤) وأبو داود في سننه (٢٨٧٠) وابن ماجه في سننه (٢٧١٣) والترمذي في سننه (٢١٢٠) .

سورة التوبة

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١ ﴾ فَيَسْخَرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّكَ عِزٌّ مُتَعَبِرٌ لِلَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ٢ .

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ عن البراء بن عازب يقول : آخر آية نزلت ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ وآخر سورة نزلت براءة (١) وإنما لم يسئل في أولها ؛ لأن الصحابة لم يكتبوا البسمة في أولها في المصحف الإمام ، بل اقتدوا في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان ؓ وأرضاه ، وعن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطول ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنتم بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطول (٢) .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عبادة ، فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصديق ؓ أميراً على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادي في الناس ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبه له كما سيأتي بيانه . فقله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله : ﴿ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١ ﴾ فَيَسْخَرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴿ اخْتَلَفَ الْمَغْسَرُونَ ههنا اختلافاً كثيراً فقال قائلون : هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة ، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا إِيَّاهُمْ عَاهِدُهُمْ إِلَى مَدَتِّهِمْ ﴾ الآية ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته ، وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقال ابن عباس في قوله ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١ ﴾ فَيَسْخَرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴿ الآية ، قال : حُدَّ اللَّهُ للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسبحون في الأرض حيث شاءوا ، وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ الحرم فذلك خمسون ليلة ، فأمر الله نبيه إذا انسلخ الحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام ، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥٧/١ ، والحاكم في المستدرک ٣٣٠/٢ ، والترمذي في السنن (٣٠٨٦) .

وقال مجاهد : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومذليج ومن كان له عهد أو غيرهم ، فقفّل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ ، فأراد رسول الله ﷺ الحج ثم قال : « إِنَّمَا يَخْضَرُ الْمَشْرِكُونَ فَيَطُوفُونَ غُرَاءً ، فَلَا أَحِبُّ أَنْ أَحُجَّ حَتَّى لَا يَكُونَ ذَلِكَ » فأرسل أبا بكر وعلياؓ فطافا بالناس في ذي الحجاز وبأمكناتهم التي كانوا يتابعون بها وبالمواسم كلها ، فأذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر فهي الأشهر المتواليات ، عشرون من ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم ، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا .

﴿ وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَصَيْتُمْ مَعْجِزَى اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى وإعلام ﴿ يَنْتَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس ﴿ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعا ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ أي بريء منهم أيضًا ، ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال : ﴿ فَإِنْ تَبُتُمْ ﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَصَيْتُمْ مَعْجِزَى اللَّهِ ﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيطته ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال ، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال . عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر ؓ في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان . قال حميد : ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة ، قال أبو هريرة فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة ، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . وعن حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ^(١) ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر ، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك ^(٢) .

وعن أبي هريرة قال : كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال : فكنت أنادي حتى صحل صوتي ^(٣) .

وعن علي ؓ أن رسول الله ﷺ حين بعثه ببراءة قال : يا نبي الله إني لست باللسن ولا بالخطيب قال : « لَا بُدَّ لِي أَنْ أَذْهَبَ بِهَا أَنَا ، أَوْ تَذْهَبَ بِهَا أَنْتَ » قال : فإن كان لابد فسأذهب أنا ، قال : « انْطَلِقْ فَإِنَّ اللَّهَ يُبَيِّتُ لِسَانَكَ وَيَهْدِي قَلْبَكَ » قال : ثم وضع يده على فيه ^(٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٦) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٥٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٠/١) والهندي في كنز العمال (٤٤٠١) .

وعن عطاء قال : يوم الحج الأكبر يوم عرفة . وعن شهاب بن عباد البصري عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : هذا يوم عرفة ، هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد . وروي عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا : يوم عرفة يوم الحج الأكبر ، وقد ورد فيه حديث عن ابن مخزومة أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة فقال : « هَذَا يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ » ^(١) . والقول الثاني : أنه يوم النحر ، روي عن علي بن أبي طالب قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر . وقال عبد الله بن أبي أوفى : يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وعن ابن عباس أنه قال : الحج الأكبر يوم النحر . وعن ابن عمر قال : وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال : « هَذَا يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ » ^(٢) .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْنَا الْيَوْمَ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ إِلَيْنَا فَعَلِمَ اللَّهُ لَبِئْسَ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت ، فأجله أربعة أشهر يسبح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء ، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عاهد عليها ، وقد تقدمت الأحاديث ، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته ، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحداً ، أي يمالئ عليهم من سواهم ، فهذا الذي يوفي له بدمته وعهده إلى مدته ، ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي الموفين بعهدهم .

﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هنا ما هي ؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْقِيَمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ ﴾ الآية ، وقال ابن جرير : آخر الأشهر الحرم في حقهم الحرم ، وهذا الذي ذهب إليه حكاها علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وإليه ذهب الضحاك أيضاً وفيه نظر ، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه ، أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله : ﴿ فَيَسْجُوْا فِي الْأَرْضِ أَشْهُرَ أَرْبَعَةٍ ﴾ ثم قال : ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ ﴾ أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمت عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها ، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر .

وقوله : ﴿ فَاغْلِبُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ أي من الأرض وهذا عام والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله : ﴿ وَلَا تَقْبِلُوا لَهُمُ الْقِسِيَةَ لَتُسَيِّدُنَا يَوْمَهُمْ ﴾ أي وأسروهم إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً . وقوله : ﴿ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم ، بل اقصدوهم بالحصار في معاقبتهم وحصونهم ، والرصد في طرقتهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٧٤٢) وابن ماجه في سننه (٣٠٥٨) والبيهقي في السنن الكبرى (١٢٥/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣٣١/٢ وأبو داود في (١٩٤٥) .

الإسلام ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١) ولهذا اعتمد الصديق عليه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها ، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال ، وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته ، ونبه بأعلاها على أذناها ، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عليه ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج ، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة . وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ »^(٢) وعن عبد الله بن مسعود عليه السلام قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يترك فلا صلاة له . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ، وقال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفتقه ! . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِذَا شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَاسْتَقْبَلُوا قِتْلَتَنَا ، وَأَكَلُوا ذَيْحَتَنَا ، وَصَلُّوا صَلَاتَنَا فَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ »^(٣) . وعن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَارَقَهَا وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ »^(٤) قال : وقال أنس : هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ قال : توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم قال في آية أخرى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ ، وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاک بن مزاحم إنها نسخت كل عهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أحد من المشركين ، وكل عقد ، وكل مدة ، وقال ابن عباس في هذه الآية : لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم ، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر من يوم أذن براءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر . وقال : أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام ، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق ، وأذهب الشرط الأول . وعن علي بن أبي طالب بعث النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف : سيف في المشركين من العرب ، قال الله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ ، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُؤْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ، والسيف الثالث : قتال المنافقين في قوله : ﴿ يَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ الآية . والرابع : قتال الباغين في قوله : ﴿ وَلَنْ تَلْفِتَانِ مِنْ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ومسلم في الإيمان (٣٤) وأحمد في مسنده (١٩٩/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ومسلم في الإيمان (٣٤) وأحمد في مسنده (١٩٩/٣) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٣٢/٢) والهندي في كنز العمال (٢٧٨) .

الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَقِيَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَىٰ حَتَّىٰ يَفِئَءَ إِلَيْكَ أَمْرُ اللَّهِ ﴿٦﴾ ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمَفْسُورُونَ فِي آيَةِ السِّيفِ هَذِهِ فَقَالَ الضُّحَّاكُ وَالسَّيِّدِي : هِيَ مَنْسُوخَةٌ يَقُولُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا مَتَّأَ بَعْدَ وَلَمَّا فُتِنَهُ﴾ وَقَالَ قَتَادَةُ بِالْعَكْسِ .

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقَ اللَّهَ مَأْمَرُهُ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم ، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ : أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله ، أي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ثُمَّ اتَّقَ اللَّهَ مَأْمَرُهُ﴾ ، أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عبادته . ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة ابن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم ، واحداً بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قصر ، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم . ولهذا أيضاً قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له : أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : «لَوْلَا أَنَّ الرَّسُولَ لَا تَقْتُلُ لَضَرَبْتُكَ عُتْقَكَ» ^(١) وقد قبض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له : ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة ، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له : إنك الآن لست في رسالة وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه . والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً ، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه ، لكن قال العلماء : لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله .

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْبَلْتُمْ لَكُمْ فَاسْتَقْبِلُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظيرته إياهم أربعة أشهر ، ثم بعد ذلك السيف المرفف أين تقفوا فقال تعالى : ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله ، كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية كما قال تعالى : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَىٰ مَقْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلُّهُ﴾ الآية . ﴿فَمَا اسْتَقْبَلْتُمْ لَكُمْ فَاسْتَقْبِلُوا لَهُمْ﴾ أي مهما تمكسوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقْبِلُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون ، استمر

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٦١) والحاكم في المستدرک (١٤٢/٢) .

العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست ، إلى أن نقضت قريش العهد وما لأوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوه معهم في الحرم أيضًا ، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصبيهم ولله الحمد والمنة ، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء ، وكانوا قريتين من ألفين ، ومن استمر على كفره وفؤ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتيسير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله الحمود على جميع ما يقدره ويفعله .

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَأَتَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْفَرُكُمْ فَتَسْفُوتَ ﴾ .
يقول تعالى محرضًا للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ، ومبيِّنًا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأدبوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة . قال ابن عباس : الإل القرابة ، والذمة العهد . وقال مجاهد : الإل : الله ، وفي رواية : لا يرقبون الله ولا غيره . عن أبي مجلز في قوله تعالى ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ مثل قوله : جبريل ميكائيل إسرافيل ، كأنه يقول : لا يرقبون الله ، والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر . وعن مجاهد أيضًا : الإل : العهد . وقال قتادة : الإل : الحلف .
﴿ اشْتَرَوْا بِعَابَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَدُونَ ٢ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِذْهُمْ فِي الدِّينِ وَتَفَصِّلِ الْآيَةَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ .

يقول تعالى ذمًا للمشركين وحثًا للمؤمنين على قتالهم ﴿ اشْتَرَوْا بِعَابَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما انتهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً تقدم تفسيره ، وكذا الآية التي بعدها ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ إلى آخرها تقدمت . وعن الربيع بن أنس قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَعِبَادَتِهِ لَا يُشْرِكُ بِهِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، فَارَقَهَا وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ » ^(١) وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ يقول فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِذْهُمْ فِي الدِّينِ ﴾ .
﴿ وَإِنْ كَفَرُوا أَيْمَنُوا مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ فَعَلَهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم ، أي عهودهم

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٣٢/٢) والهندي في كنز العمال (٢٧٨) .

ومواثيقهم ﴿ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أي عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص ، ولهذا قال : ﴿ فَتَنَبَّلُوا أَنِيمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْا ﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدد رجالاً ، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم ، والله أعلم .

﴿ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أُولَئِكَ اتَّخَذْتُهُمْ فِتْنَةً أَتَقْبَلُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ١ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِمَكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَنْشِفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ ٢ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وهذا أيضاً تهيج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة كما قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أُولَئِكَ ﴾ قيل : المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر غيرهم ، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجههم طلباً للقتال بغياً وتكبراً كما تقدم بسط ذلك ، وقيل : المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لحزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان والله الحمد والمنة . وقوله : ﴿ اتَّخَذْتُهُمْ فِتْنَةً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يقول تعالى لا تخشوهم واخشون ، فأنأ أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوتي ، فبيدي الأمر ، وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ، ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد ، مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده : ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِمَكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَنْشِفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم ، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية : ﴿ وَيَنْشِفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني خزاعة ، وأعاد الضمير في قوله : ﴿ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ ﴾ عليهم أيضاً . وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال : « يَا غَوْنِشُ قُولِي : اللَّهُمَّ رَبِّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ ذَنْبِي ، وَأَذْهَبْ غَيْظَ قَلْبِي ، وَأَجْزِنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ » (١) . ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي من عباده ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي بما يصلح عباده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية ، فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وهو العادل الحاكم الذي لا يجرور أبداً ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة . ﴿ أَرَأَيْتُمْ أَنْ تَتْرَكُوا أَلَّامًا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا لِيَجْزِيَ بِلَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى ﴿ أَرَأَيْتُمْ أَنْ تَتْرَكُوا أَلَّامًا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلَا لِيَجْزِيَ بِلَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي بطانة ودخيلة ، بل هم في الظاهر والباطن على النصيح لله ولرسوله ، فاكتمى بأحد القسمين عن الآخر .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٢/٦) والهندي في كتر العمال (١٨٤٠٩) .

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ ﴾ الآية ، والحاصل : أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة ، وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ، ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ .

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، ومن قرأ ﴿ مسجد الله ﴾ (١) فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض ، الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأُسسه خليل الرحمن ، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم ومقالهم ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ ﴾ أي بشركهم ﴿ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولَئِيُّهُمْ إِلَّا الْتَمَتُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمارة المساجد كما روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَغْتَاذُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ » (٢) . وعن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ ذُئِبُ الْإِنْسَانِ كَذُئِبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاجِيَةَ ، فَإِنَّا كُمْ وَالشَّعَابِ وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَةِ وَالْمَسْجِدِ » (٣) .

وقوله : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق . وقوله : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي ولم يخفف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ قال ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ يقول : من وحد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ يقول لم يعبد إلا الله ، ثم قال : ﴿ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ يقول تعالى إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ : ﴿ عَسَى أَنْ يَمْعَنَكَ رَبُّكَ مَقَامًا تَحْمَدُ ﴾ وهي الشفاعة ، وكل عسى في القرآن فهي واجبة ، وقال محمد ابن إسحاق بن يسار رحمه الله : وعسى من الله حق .

﴿ أَجْمَلْتُمْ سِيَاةَ الْحَاجِّ وَرِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ مسجد الله ﴾ وقرأ الباقون ﴿ مساجد ﴾ (انظر تقريب النشر ص : ٣١٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٣) وابن ماجه في سننه (٨٠٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٦٦/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٣/٢) والهندي في كثر العمال (١٠٢٦) .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَٰرِقُونَ ﴿١٩﴾ يُبَيِّرُهُم رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَّعْتَ لَمْ فِيهَا نَيْمٌ ثَمِيمٌ ﴿٢٠﴾ خَلَّيْنِكَ فِيهَا أَدَاً
إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ .

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : إن المشركين قالوا : عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير
من آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره ، فذكر الله
استكبارهم وإعراضهم فقال لأهل الحرم من المشركين : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُثَلِّثُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ تَفْقِينِكُمْ
تَنَكُّسُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِدِ سَمِيرًا تَهْجُرُونَ ﴿٢١﴾ يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال : ﴿ بِدِ سَمِيرًا ﴾ كانوا
يسمرون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ ، فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة
المشركين البيت وقيامهم على السقاية ، ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمر
بيته ويحرمون به . قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني الذين زعموا
أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشرهم فلن تغن عنهم العمارة شيئاً .

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية : قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر بيدر قال :
لئن كنتم سبقتُمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعلم المسجد الحرام ونسقي ونفك العاني ،
قال الله ﷻ : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني أن ذلك كله
كان في الشرك ، ولا أقبل ما كان في الشرك . وقال الضحاک بن مزاحم : أقبل المسلمون على
العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك ، فقال العباس : أما والله لقد كنا نعلم
المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج ، فأنزل الله ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ الآية .
وعن الشعبي قال : نزلت في علي والعباس ﷺ بما تكلموا في ذلك . وعن الحسن قال : نزلت في
علي وعباس وشيبة تكلموا في ذلك فقال العباس : ما أراني إلا أني تارك سقايتنا ، فقال رسول
الله ﷺ : « أقيموا على سقايتكم فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا خَيْرًا » (١) .

وعن النعمان بن بشير الأنصاري قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه ، فقال
رجل منهم : ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج ، وقال آخر : بل عمارة
المسجد الحرام ، وقال آخر : بل الجهاد في سبيل الله خير مما قُتِم ، فزجرهم عمر بن الخطاب ﷺ ،
وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة
دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه ، قال : ففعل ، فأنزل الله ﷻ ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمَقَرِّ ﴾ إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوِيَّةً إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَغْلَظُ ﴿٢٢﴾ قَدْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمَلُوا اقْتَرَبْتُمْوَمَا
وَيَجْعَلُ تَحْشُونَكُمْ سَادَةً وَمَسْكِكُمْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى
يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أي اختاروا

وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ ، فبلغه أن هوزان جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري ، ومعه ثقيف بكما لها ، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل ، وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر ، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم ، وجاءوا بقضهم وقضيضهم ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين ، فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له : حنين ، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح ، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوزان ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم . قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم ، فغبت ذلك ولي المسلمون مدبرين كما قال الله ﷻ ، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلانها لثلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه - عليه الصلاة والسلام - ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول : « إِيَّيْ عِبَادَ اللَّهِ ، إِيَّيْ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ » . ويقول في تلك الحال : « أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ » ^(١) .

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون ، فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأمين بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم ، ثم أمر ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته : يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم : يا أصحاب السمرة ، ويقول تارة : يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون : يا لبيك يا لبيك ، وانعطف الناس فراجعوا إلى رسول الله ﷺ ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ ، فلما اجتمعت شردمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم - عليه الصلاة والسلام - أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من تراب بعدما دعا ربه واستنصره ، وقال : « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي » ^(٢) ثم رمى القوم بها فما بقي لإنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ .

وعن أبي عبد الرحمن الفهري واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين ، فسرنا في يوم قاتظ شديد الحر ، فنزلنا تحت ظلال الشجر ، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي ، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح ؟ فقال : « أَجَلْ »

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٣٠) ومسلم في الجهاد (٧٨ ، ٧٩) وأحمد في مسنده (٢٦٤/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد (٥٨) .

فقال « يَا بِلَالُ » فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر ، فقال : لبيك وسعديك وأنا فداؤك ، فقال : « أُسْرِجْ لِي فَرْسِي » فأخرج سرجاً دفناه من ليف ليس فيهما أثر ولا بطر ، قال : فأسرج فركب وركبنا فصافقناهم عشتينا وليلتنا ، فتشامت الخيلان ، فولى المسلمون مدبرين ، كما قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « يَا عِبَادَ اللَّهِ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » ثم قال : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » قال : ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفاً من تراب ، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم وقال : « شَاهَتِ الْوُجُوهُ » فهزمهم الله تعالى . قال يعلى بن عطاء : فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا : لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً ، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الجديد ^(١) .

وعن البراء بن عازب ؓ أن رجلاً قال له : يا أبا عمارة أفررت عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رماة ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهم فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبوسفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء ، وهو يقول : « أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ » ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ^(٢) قلت : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة ، أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلًا عليه ، وعلمًا منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ أي طمأنينته وثباته على رسوله ﴿ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي الذين معه ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة .

وعن ابن مسعود ؓ قال : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة ، قال : ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدماً ، فحادث بغلته فمال عن السرج ، فقلت : ارتفع رفعك الله ، قال : « نَأُولُنِي كَفًّا مِنَ التَّرَابِ » . فناولته ، قال : فضرب به وجوههم فامتلات أعينهم تراباً ، قال : « أَيُّنَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ؟ » قلت : هم هناك ، قال : « اهْتِفْ بِهِمْ » فهتفت بهن فجاءوا وسيوفهم بأيانهم كأنها الشهب ، وولى المشركون أديبارهم ^(٣) .

وعن شيبه بن عثمان قال : لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى ، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحزمة إياهما ، فقلت : اليوم أدرك ثأري منه ، قال : فذهبت لأجيئه عن يمينه ، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت : عمه ولن يخذله ، قال : ففجئته عن يساره ، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت : ابن عمه ولن يخذله ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٠٦/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٤/١) والهيثم في مجمع الزوائد (١٨٠/٦) .

قال : فنجته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت أن يخمشني ، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقري فالتفت رسول الله ﷺ وقال : « يَا شَيْعَةَ يَا شَيْعَةَ اذْنُ مِنِّي اللَّهُمَّ أَذْهَبْ عَنْهُ الشَّيْطَانَ » . قال : فرفعت إليه بصري ولهو أحب إلي من سمعي وبصري فقال : « يَا شَيْعَةَ قَاتِلِ الْكُفَّارَ » (١) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نُصِرْتُ بِالرَّغَبِ ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ » (٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة ، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يومًا ، فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة فردّه عليهم ، وقسم الأموال بين الغانمين ، ونقل أناسًا من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل ، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضري واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ يَمْثِلُ مُحَمَّدٍ
أَوْفَى وَأَعْطَى لِلْجَزِيلِ إِذَا اجْتَدَى وَمَتَى يَشَأْ يُخْبِرَكَ عَمَّا فِي غَدٍ
وَإِذَا الْكَتِيبَةُ عُرِذَتْ أَنْتَابُهَا بِالسُّنْهَرِيِّ وَضُرِبَ كُلُّ مَثْنٍ
فَكَانَهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ وَشَطَّ الْمَبَاةُ خَادِرٌ فِي مَرْصِدٍ

﴿ يَتَابَعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَءُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمَلِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا بنفي المشركين الذين هم نجس دينًا عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية ، وكان نزولها في سنة تسع ، ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا صحبة أبي بكر رضي الله عنهما ، وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأثم الله ذلك وحكم به شرعًا وقدرًا . وقد روي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَدْخُلْ مَسْجِدَنَا بَعْدَ عَامِنَا هَذَا مُشْرِكٌ إِلَّا أَهْلُ الْعَهْدِ وَخَدَمُهُمْ » (٣) .

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي : كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ .

وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى : ﴿ فَلَا يَقْرَءُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمَلِهِمْ هَذَا ﴾

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٨) .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٦/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٢/٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٠/٤) .

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك ، كما ورد في الصحيح : « المؤمن لا ينجس » ^(١) وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس ينجس البدن والذات ؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ .

وقوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قال محمد بن إسحاق : وذلك أن الناس قالوا : لتقطع عنا الأسواق ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق ، فأنزل الله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ من وجه غير ذلك ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ صَغِيرُونَ ﴾ أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق ، فعوضهم الله بما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ أي بما يصلحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي فيما يأمر به وينهى عنه ، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله ، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ، وهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة .

وقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ، ولا بما جاءوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه ؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ ؛ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه ، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل ، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين ؛ لأنه من عند الله ، بل لحظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا ، واستقامت جزيرة العرب ، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى ، وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جدد ووقت قيظ وحر ، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك ، فنزل بها وأقام بها قريناً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس ، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى . وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالجوس ، كما صح فيهم الحديث : أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر ^(٢) . وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه . وقال أبو حنيفة رحمته الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . وقال الإمام مالك : بل

(١) أخرجه : أبو داود في السنن (٢٣٠) وابن ماجه في السنن (٥٣٤) والنسائي في السنن ٥١/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة (٣١٥٧) .

يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك .

وقوله : ﴿ حَتَّى يَبْطُغُوا الْبَحْرَيْنِ ﴾ أي إن لم يسلموا ﴿ عَنْ يَمِينِهِ ﴾ أي عن قهر لهم وغلبة ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي ذليلون حقيرون مهانون ، فلهمنا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صغرة أشقياء ، كما جاء عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « لَا تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَأَضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَاقِهِ » ^(١) ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ تلك الشروط المعروفة في إذلهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب ؓ حين صالح نصارى من أهل الشام : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديورا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ، ولا نحبي منها ما كان خططا للمسلمين ، وأن لا تمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من مربنا من المسلمين ثلاثة أيام نطمعهم ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسا ، ولا نكتم غشنا للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شركا ولا ندعوا إليه أحدا ، ولا تمنع أحدا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام وإن أرادوه ، وأن نوفر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ، ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا نقش خواتمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمر ، وأن نمجز مقادير رؤوسنا ، وأن نلزم زينا حيثما كنا ، وأن نشد الزنانيير على أوساطنا ، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا ، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربا خفيفا ، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعائنا ولا بعوثا ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم . قال : فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا تضرب أحدا من المسلمين ، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّهُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَنفُسِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَسَلْنَاهُمُ اللَّهُ أَفَّ يَوْفَكُونَ ۝ أَخَذُوا أَجْرَهُمْ وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَرْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة ،

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٣) وأحمد في مسنده (٢٦٦/٢) والترمذي في سننه (١٦٠٢) .

والفرية على الله تعالى ، فأما اليهود فقالوا في العزيز إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .
وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر ، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم ﴿ يُصْهَرُونَ ﴾ أي يشابهون ﴿ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿ فَتَنَّا لَهُمُ اللَّهُ ﴾ قال ابن عباس : لعنهم الله ﴿ أَفَ يَزِيدُكُونَ ﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟

وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ . روي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرأى إلى الشام وكان قد تنصّر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيئ ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فحدث الناس بقدمه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ قال فقلت : إنهم لم يعبدوه فقال : « بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ : « يا عديّ ما تقول ؟ أبيضرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ، ما يضرّوك ، أبيضرك أن يقال : لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ » ^(١) ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق ، قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » ^(٢) وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرّموا ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَسْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرع اتباعه ، وما حكم به نفذ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَهًا أَن يُضَيَّرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾ أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافتراءهم ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس أو نور القمر بنفخة ، وهذا لا سبيل إليه ، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر ؛ ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَهًا أَن يُضَيَّرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ، ومنه سمي الليل كافراً ؛ لأنه يستر الأشياء ، والزارع كافراً ؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال : ﴿ أَحَبَّ الْكَفَّارُ بَآئَهُ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ، ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي على سائر الأديان ، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩٩/١٧) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٤) .

اللَّهُ زَوَىٰ لِيَ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا ، وَسَيَّلْتُ لَكَ أُمَّتِي مَا زَوَىٰ لِيَ مِنْهَا ^(١) وعن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحمي من محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّهُ سَتُفْتَحُ لَكُمْ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَعَارِبُهَا ، وَإِنْ عَمَلَهَا فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ ^(٢) » . عن تميم الداري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَيُتْلَعَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلَا يَبْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْيَنَ وَلَا يَبْرُكُ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ ، يُعْزَىٰ غَزِيرًا وَيُذِلُّ ذَلِيلًا ، عِزًّا يُعْزَى اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ ^(٣) » .

وعن عدي بن حاتم : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : « يَا عَدِيُّ أَشْلِمَ تَسْلَمَ » . فقلت : إني من أهل دين قال : « أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ » فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : « نَعَمْ أَلَسْتُ مِنْ الرُّكُوبِيَّةِ وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِزْبَاعَ قَوْمِكَ ؟ » قلت : بلى ! قال : « فَإِنَّ هَذَا لَا يَجِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ » قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال : « أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْتَنِعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ ، تَقُولُ إِنَّمَا اتَّبَعْتُهُ ضَعْفَةُ النَّاسِ وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ ، وَقَدْ رَضَتْهُمْ الْعَرَبُ ، أَتَعْرِفُ الْحَيْرَةَ ؟ » قلت : لم أرها وقد سمعت بها ، قال : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ ، حَتَّى تَخْرُجَ الظُّعِينَةُ مِنَ الْحَيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ مِنْ غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ ، وَلَتُفْتَحَنَّ كَنْزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ » قلت : كسرى ابن هرمز ؟ قال : « نَعَمْ كِسْرَى بْنُ هُرْمُزٍ ، وَلَيُذِلَّنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ^(٤) » قال عدي بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُغْبِثَ اللَّائِي وَالْعُرَى » فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله ﷻ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الآية ، أن ذلك تام ، قال : « إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ﷻ ، ثُمَّ يَخْتِ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَيَتَوَفَّى كُلُّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَزْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ ^(٥) » .

﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ مَأْسُواً مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يَوْمَ يُخْتَمُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَتُغْمَقُ أَسْفُلًا يَكْفُرُوا بِالَّذِي كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿ ١٠٣ 〉

قال السدي : الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى ، وهو كما قال ، فإن الأخبار هم علماء اليهود كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَتَنَبَّأُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآيَةَ وَأَكْبَهُمُ الشَّعْثُ ﴾ والرهبان عباد

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١٩) وأحمد في مسنده (١٢٣/٤) وأبو داود في السنن (٤٢٥٢) والترمذي في السنن (٢١٧٦) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٥/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٦٠/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٣/٤) والحاكم في المستدرک (٤٣٠/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٤) والهيتمي في كثر العمال (٢٤ ، ٣٦ ، ٣٧) .

(٥) أخرجه مسلم في الفتن (٥٢) والحاكم في المستدرک (٤٤٦/٤) والهيتمي في السنن الكبرى (١٨١/٩) .

هذه فلا تحفظوها علي ، واحفظوا ما أقول لكم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا كَتَرَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَأَكْثَرُوا هَوْلَاءِ الْكَلِمَاتِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّباتَ فِي الْأَمْرِ ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا ، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُ لِمَا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » (١).

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي يقال لهم هذا الكلام تبكيًا وتقريعا وتهكما كما في قوله : ﴿ ثُمَّ صُوبُوا قَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيرِ ﴾ ذُقْ لِمَا أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿ أي هذا بذاك ، وهذا الذي كنتم تكتزون لأنفسكم ، ولهذا يقال : من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله عُدْبَ به ، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها ، كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدا في عداوة رسول الله ﷺ وامراته تعينه في ذلك ، كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضًا في جيدها أي عنقها حبل من مسد ، أي تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه من هو أشفق عليه في الدنيا كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمرى عليها في نار جهنم وناهيك بحرها ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول : « مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مِثْلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ رَيْبَتَانِ يَنْبَغُهُ وَيَقُولُ : وَيَلَكَّ مَا أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي تَرَكْتَهُ بَعْدَكَ ، وَلَا يَزَالُ يَنْبَغُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضُمَهَا ، ثُمَّ يَنْبَغُهَا سَائِرَ جَسَدِهِ » (٢). وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ رَجُلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ إِلَّا لَجِعَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَيُكْوَىٰ بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وظُهُرُهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَىٰ يَنْ الْعِبَادِ ، ثُمَّ يَرَىٰ سَبِيلَهُ : إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ » (٣).

وقال البخاري في تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال : مررت على أبي ذر بالربذة فقلت : ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُلْقِيُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِئْسَ تَرْغُهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾ فقال معاوية ما هذه فينا ، ما هذه إلا في أهل الكتاب ، قال : قلت : إنها لفينا وفيهم (٤) . وعن أبي ذر ؓ فذكره ، وزاد : فارتفع في ذلك بيني وبينه القول فكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إلي عثمان أن أقبل إليه ، قال : فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ ، فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لي : تنح قريبا ، قلت : والله لن أدع ما كنت أقول ، قلت : كان من مذهب أبي ذر ؓ تحريم إداخار ما زاد على نفقة العيال ، وكان يفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه ، فنهاه معاوية فلم ينته ، فخشي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٣/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨٩/٢) والطبراني في المعجم الكبير (٨٦/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٤) والترمذي في السنن (٣٠١٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٨١/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦٠) .

أن يضر بالناس في هذه ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة وحده ، وبها مات ﷺ في خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية ﷺ وهو عنده هل يوافق عمله قوله : فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ، ثم بعث إليه الذي أتاه بها : فقال : إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب ، فقال : ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به . وهكذا روي عن ابن عباس أنها عامة ، وقال السدي : هي في أهل القبلة ، وقال الأحنف بن قيس : قدمت المدينة فبينما أنا في حلقة فيها ملأ من قريش ؛ إذ جاء رجل أخشن الثياب ، أخشن الجسد ، أخشن الوجه ، فقام عليهم فقال : بشر الكنازين برضف يحمى عليه في نار جهنم ، فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه ، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل ، قال : فوضع القوم رءوسهم فما رأيت أحدا منهم رجع إليه شيئا ، قال : فأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية ، فقلت : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال : إن هؤلاء لا يعلمون شيئا ^(١) . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : « مَا يَشْرُونِي أَنْ عِنْدِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا يَمُرُّ عَلَيَّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ ، إِلَّا دِينَارٌ أَوْضَدُهُ لِدَيْنٍ » ^(٢) فهذا والله أعلم هو الذي حدا أبا ذر على القول بهذا .

وعن عبد الله بن الصامت ﷺ أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية ، فجعلت تقضي حوائجها ففضلت معها سبعة ، فأمرها أن تشتري به فلوسا ، قال : قلت : لو ادخرته لحاجة ييوتك وللضيف ينزل بك ، قال : إن خليلي عهد إلي أن أيما ذهب أو فضة أوكئ عليه فهو جمر على صاحبه ، حتى يفرغه في سبيل الله ﷻ ^(٣) .

وعن يزيد بن الصرم قال : سمعت عليا ﷺ يقول : مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ : « كَيْتَانِ صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ » ^(٤) .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الْيَوْمُ الْقِيَامُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَتَذِلُّوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا بَدَّلْتُمْكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الثَّانِينَ ﴾ .
عن أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال : « أَلَا إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، الْمَنَّةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ : ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْحَرَمُ ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي يَسَّرَ لِمُحَمَّدٍ جُمَادَى وَشَعْبَانَ » ثم قال : « أَلَا أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسمي به غير اسمه قال : « أَلَيْسَ يَوْمُ النَّحْرِ ؟ » قلنا : بلى ، ثم قال : « أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسمي به غير اسمه قال : « أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ ؟ » قلنا : بلى ، ثم قال : « أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسمي به غير اسمه قال : « أَلَيْسَتِ الْبَلَدَةُ ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - وَأَحْسَبُهُ قَالَ : وَأَعْرَاضَكُمْ - عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا . وَتَسْتَلْقُونَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَلَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، أَلَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٦٩/٥ ، والبيهقي في السنن ٣٥٩/٦ بنحوه .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٧٥/٥ . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠١/١) .

هَلْ بَلَغْتُ ، أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ مَنْ يُلْفُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ » ^(١)
وقال ابن عباس في قوله : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ قال : منحرمة ورجب وذو القعدة وذو الحجة .
وقوله ﷺ في الحديث : « إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه ، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نسيء ولا تبديل ، كما قال في تحريم مكة : « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٢) وهكذا قال ههنا : « إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » أي الأُمُر اليوم شرعاً كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض . وقد قال بعض المفسرين والتكلمين على هذا الحديث : إن المراد بقوله : « قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » أنه اتفق أنه حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة ، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة ، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة ، وفي هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء . وأغرب منه ما رواه الطبراني عن بعض السلف في جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع ، والله أعلم .

فصل : ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه سماه (المشهور في أسماء الأيام والشهور) أن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً ، وعندى أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه ؛ لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عائماً وتحرمه عائماً ، ويجمع على محرمات ومِحَارِم ومَحَارِم . وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار ، يقال : صفر المكان إذ خلا ، ويجمع على أصفار كجمل وأجمال . وشهر ربيع الأول سمي بذلك لارتباعهم فيه ، والارتباع الإقامة في عمارة الربع ، ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء ، وعلى أربعة كרגيف وأرغفة . وربيع الآخر كالأول . جمادى سمي بذلك لجمود الماء فيه ، قال : وكانت الشهور في حسابهم لا تدور ، وفي هذا نظر ؛ إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة فلا بد من دورانها ، فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جمود الماء في البرد كما قال الشاعر :

وَلَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَةٍ لَا يُصْبِرُ الْعَبْدُ فِي ظُلُمَائِهَا الطُّبَا
وَلَا يَنْبُحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ حَتَّى يُلْفَ عَلَى خُرْطُومِهِ الذَّنْبَا

ويجمع على جماديات كجبارى وجباريات ، وقد يذكر ويؤنث فيقال : جمادى الأولى والأول ، وجمادى الآخر والآخر . رجب من الترجيب وهو التعظيم ، ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات . شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ، ويجمع على شعابين وشعبانات . رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر ، يقال : رمضت الفصال إذا عطشت ، ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة ، قال : وقول من قال : إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت إليه ، قلت : قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبينته في أول كتاب الصيام . شوال من شالت الإبل أذنانها

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣٤/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٥٩/١ ، والبيهقي في السنن ١٩٥/٥ .

للطراق ، قال : ويجمع على شواول وشواويل وشوالات . القعدة بفتح القاف ، قلت : وكسرها ، لقعودهم فيه عن القتال والترحال ، ويجمع على ذوات القعدة ، الحجة بكسر الحاء ، قلت : وفتحها ، سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه ، ويجمع على ذوات الحجة .

أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأوحد ووحد ، ثم يوم الاثنين ويجمع على أثنين . الثلاثاء يمد ويذكر ويؤنث ، ويجمع على ثلاثاوات وأثالث . ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاء وأرباع وأرباع . والخميس يجمع على خمسة وأخامس . ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضًا ويجمع على جمع وجماعات ، السبت مأخوذة من السبت وهو القطع لانتفاء العدد عنده ، وكانت العرب تسمي الأيام أول ثم أهون ثم جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار ، قال الشاعر من العرب العرباء العاربة المتقدمين :

أَرْجِي أَنْ أَعِيشَ وَإِنْ يَوْمِي بِأَوَّلِ أَوْ بِأَهْوَنَ أَوْ جُبَارِ
أَوْ السَّالِي دُبَارَ فَإِنْ أَفْشَى فَمُؤْنِسُ أَوْ عَرُوبَةُ أَوْ شِيَارِ

وقوله تعالى : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضًا في الجاهلية تحرمه ، وهو الذي كان عليه جمهورهم ، إلا طائفة منهم يقال لهم : البسل ، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقًا وتشديدًا . وأما قوله : « ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » فإنما أضافه إلى مضر لبيان صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان ، لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم ، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ، ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرًا وهو ذو القعدة ؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال ، وحرم شهر ذي الحجة ؛ لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون فيه بأداء المناسك ، وحرم بعده شهرًا آخر وهو المحرم ؛ ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتماد به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنة .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ آفَقْتُمْ ﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة ؛ لأنها أكد وأبلغ في الإثم من غيرها ، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْعَمَاءِ يُظْلَمِ نُفُوسُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال : في الشهور كلها ، وقال ابن عباس : فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن ، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حرامًا وعظم حرمتهم ، وجعل الذنب فيهن أعظم ، والعمل الصالح والأجر أعظم . وقال قتادة في قوله : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرًا من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا ، ولكن الله

يعظم من أمره ما يشاء . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً كما فعل أهل الشرك ، فإما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيارة في الكفر ﴿ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية .

وقوله ﴿ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أي جميعكم ﴿ كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ أي جميعاً ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين :

أحدهما : وهو الأشهر أنه منسوخ ؛ لأنه تعالى قال ههنا : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وأمر بقتال المشركين ، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً ، ولو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها ، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى هوازن في شوال ، فلما كسبرهم واستفاء أموالهم ورجع فلهم لجأوا إلى الطائف ، فعمد إلى الطائف فحاصره أربعين يوماً وانصرف ولم يفتحها ، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام . والقول الآخر : أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام ، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا هَذِهِ الْأَشْهُرَ الْحَرَامَ ﴾ وقال ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية . وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين . وأما قوله تعالى : ﴿ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ، ويكون من باب التهيج والتحضيض ، أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم ، فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم ، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ الآية ، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف ، فإنهم هم الذين ابتدأوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال ، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم ، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم ، فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة ، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً ، وكان ابتداءه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء ، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة ، والله أعلم .

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا يَلْوِطُوا عِندَهُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله ؛ فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل الحرم فأخروه إلى صفر ، فيحلون الشهر الحرام

ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة .

عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ قال : النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة ، فينادي ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال ، فيحله للناس ، فيحرم صفرًا عامًا ، ويحرم المحرم عامًا ، فذلك قول الله : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ يقول : يتركون المحرم عامًا وعامًا يحرمونه ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ الآية ، قال : هذا رجل من بني كنانة يقال له : القلمس ، وكان في الجاهلية ، وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام ، يلقي الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده ، فلما كان هو قال : اخرجوا بنا ، قالوا له : هذا المحرم ، قال : ننسئه العام ، هما صفران ، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين ، قال : ففعل ذلك ، فلما كان عام قابل قال : لا تغزوا في صفر حرموه مع المحرم هما محرمان ، فهذه صفة غريبة في النسيء وفيها نظر ؛ لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط ، وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر ، فأين هذا من قوله تعالى : ﴿ يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ ؟ .

وعن ابن عمر أنه قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا فإنا نأمرهم أن يحرموا المحرم عامًا ويستحلوا المحرم وهو النسيء . وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة فقال : كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله ﷻ القلمس ، وهو حذيفة بن عبد قيس بن عدي بن عامر بن ثعلبة ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ، ثم من بعد عباد ابنه قلع ، ثم ابنه أمية ، ثم ابنه عوف ، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف ؛ وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيبًا فحرم رجبا وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عامًا ويجعل مكانه صفر ، ويحرمه عامًا ليواطئ عدة ما حرم الله .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنِ اقْرَأُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ إِلَّا نَفِروا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا بِكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ .

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيظ ، فقال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنِ اقْرَأُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار ﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أي ما لكم فعلتم هكذا رضا منكم بالدنيا بدلًا من الآخرة ؟ ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا ، ورغب في الآخرة فقال : ﴿ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ كما روي عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَا

تَرْجِعُ» . وأشار بالسبابة ^(١) . وعن أبي عثمان قال : قلت : يا أبا هريرة سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول : سمعت نبي الله يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ » قال أبو هريرة : بل سمعت رسول الله يقول « إِنَّ اللَّهَ يُجْزِي بِالْحَسَنَةِ أَلْفِي أَلْفِ حَسَنَةٍ » ^(٢) . ثم تلا هذه الآية ﴿ فَمَا مَنَعَ الْحَبِيرَةَ الذُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل .

وعن الأعمش في الآية ﴿ فَمَا مَنَعَ الْحَبِيرَةَ الذُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال : كزاد الراكب . ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال : ﴿ إِلَّا تَنْصَرُوا يَمُذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حيا من العرب فتناقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا خَيْرَكُمْ ﴾ أي لنصرة نبيه وإقامة دينه ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ أي ولا تضروا الله شيئا بتوليكم عن الجهاد ، ونكولكم وتناقلكم عنه ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم ، وقد قيل : إن هذه الآية وقوله : ﴿ أَنْصَرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِأَقْلٍ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْمَةٍ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَفُّوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أنهم منسوخات بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْئَةٍ فَتَقُولُوا نَنْقَرُ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ روي هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم ، ورد ابن جرير وقال : إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك ، فلو تركوه لعوقبوا عليه ، وهذا له اتجاه ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿ إِلَّا تَنْصَرُوا فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصَرُوا ﴾ أي تنصروا رسول الله ﷺ فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ أي عام الهجرة ، لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربا ، بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة ، فجعل أبو بكر ﷺ يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - منهم أذى . عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، قال : فقال : « يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ يَا ثَنَيْنِ اللَّهِ تَالِهُمَا » ^(٣) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي تأييده ونصره عليه ، أي على الرسول ﷺ في أشهر القولين ، وقيل : على أبي بكر ، وروي عن ابن عباس وغيره قالوا : لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينه ، وهذا لا ينافي بتجدد سكينه خاصة بتلك الحال ، ولهذا قال : ﴿ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ أي الملائكة ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ قال ابن عباس : يعني كلمة الذين كفروا : الشرك ، وكلمة الله هي لا إله إلا الله . وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٩/٤) والترمذي في السنن (٢٣٢٣) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣٩/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١) وأحمد في مسنده (٤/١) والترمذي في السنن (٣٠٩٦) .

يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(١) وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي في انتقامه وانتصاره ، منيع الجنب لا يضام من لاذ ببابه ، واحتسب بالتمسك بخطابه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أقواله وأفعاله .

﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . قال أبو الضحى مسلم بن صبيح : هذه الآية ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ أول ما نزل من سورة براءة ، وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم حضرمي أنه ذكر له أن ناسًا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً وكبيراً فيقول : إني لا أثم ، فأنزل الله ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ الآية ، أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر فقال : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ وعن أبي طلحة : كهولاً وشباناً ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل ، وفي رواية : قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فقال : أرى ربنا استنفرتنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بني ، فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك فأبى ، فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير دفنوه فيها . وقال مجاهد : شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين ، وقال ابن عباس : انفروا نشاطاً وغير نشاط .

وقال السدي : غنياً وفقيراً وقويّاً وضعيفاً ، فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد - وكان عظيمًا سميتا - فشكا إليه وسأله أن يأذن له ، فأبى ، فنزلت يومئذ : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس ففسخها الله فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وعن محمد قال : شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عامًا واحدًا ، وكان أبو أيوب يقول : قال الله تعالى ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقیلاً ^(٢) .

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله ، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله فقال : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة ؛ لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا ، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة ، كما قال النبي ﷺ : « تَكْفُلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يُرَدَّهُ إِلَى مَنَزِلِهِ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » ^(٣) ولهذا قال الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٠) ومسلم في الإمارة (١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٨٠/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٧) ومسلم في الإمارة (٢٨) ومالك في الموطأ (٤٤٣) .

تَقْلُوتُ ﴿ وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا وَوِي عَنْ أَنَسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ : « أَتُحِبُّ » قَالَ أَجِدُنِي كَارَهَا ، قَالَ : « أَتُحِبُّ » وَإِنْ كُنْتُ كَارَهَا ١ .

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٢ .

يقول تعالى مويخًا للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعدار ولم يكونوا كذلك فقال : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ٣ ﴾ قال ابن عباس : غيمة قريبة ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ٤ ﴾ أي قريبًا أيضًا ﴿ لَاتَّبَعُوكَ ٥ ﴾ : أي لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿ وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ٦ ﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ٧ ﴾ أي لكم إذا رجعت إليهم ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ٨ ﴾ أي لو لم يكن لنا أعدار لخرجنا معكم قال الله تعالى : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٩ .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ١٠ ﴾ لَا يَسْتَفْذِلُكَ الَّذِينَ يَزِيدُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ١١ ﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْذِلُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَفْزَعُونَ ١٢ .

عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعايبة ، فقال : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ١٣ ﴾ . وقال قتادة : عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال : ﴿ فَإِذَا اسْتَفْذَلُوكَ بِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْزَلْنَا مِنْهُمُ ١٤ ﴾ الآية . وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ١٥ ﴾ أي في إبداء الأعدار ﴿ وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ١٦ ﴾ يقول تعالى : هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، فقال : ﴿ لَا يَسْتَفْذِلُكَ ١٧ ﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ١٨ ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ولما ندبهم إليه باذروا وامتلوا ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ١٩ ﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْذِلُكَ ٢٠ ﴾ أي في القعود ممن لا عذر له ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ٢١ ﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ٢٢ ﴾ أي شككت في صحة ما جئتهم به ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَفْزَعُونَ ٢٣ ﴾ أي يتحيرون يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى ، وليست لهم قدم ثابتة في شيء ، فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ لِعِمَّتِهِمْ فَغَبَطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْفَاقِعِينَ ٢٤ ﴾ لَوْ خَرَجُوا فِكرَ مَا زَادَكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُدْعَوُا إِلَى الْغُلَاظِ بَعَثُوا إِلَيْنَا وَفِيكُمْ سَنُؤْتِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٢٥ ﴾ . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ٢٦ ﴾ أي معك إلى الغزو ﴿ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ٢٧ ﴾ أي لكانوا تأهبوا له

﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْقِبَاءَهُمْ ﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قدراً ﴿ فَتَبَطَّهْمُ ﴾ أي أخرجهم ﴿ وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَدِيدِينَ ﴾ أي قدراً . ثم يبين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أي لأنهم جنباء مخذولون ﴿ وَلَا دَعْوَا غَلَّتْكُمْ يَتُوبُوكُمْ الْفِتْنَةُ ﴾ أي ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿ وَفِيكُمْ سَعَعُونَ لَكُمْ ﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم . وكلامهم يستصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير : ﴿ وَفِيكُمْ سَعَعُونَ لَكُمْ ﴾ أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم ، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام في جميع الأحوال ، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ . ﴿ لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلِّمُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴾ .

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه الصلاة والسلام على المنافقين ﴿ لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلِّمُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة ، وذلك أول مقدم النبي ﷺ بالمدينة ، رتمه العرب عن قوس واحدة ، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد الله بن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه ، فدخلوا في الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنِي وَلَا تَقِيَّتِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ . يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك : يا محمد ﴿ أَتَدْنِي ﴾ في القعود ﴿ وَلَا تَقِيَّتِي ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم . قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا ، كما قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة : « هَلْ لَكَ يَا جَدُّ الْعَامِ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ ؟ » فقال : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني ، ولاني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قَدْ أَذِنْتُ لَكَ » ^(١) ففي الجد بن قيس نزلت هذه ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنِي وَلَا تَقِيَّتِي ﴾ الآية ، أي : إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وهكذا روي عن ابن عباس أنها نزلت في الجد بن قيس ، وقد كان الجد ابن قيس هذا من أشرف بني سلمة . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لهم : « مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ ؟ » قالوا : الجد بن قيس على أننا نبخله . فقال رسول الله ﷺ : « وَأَيُّ ذَايَ أَذُوا مِنْ الْبُخْلِ ، وَلَكِنْ

سَيُدْخِلُكُمُ الْفَتَى الْجَعْدُ الْأَبْيَضُ بِشَرِّ بْنِ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ ^(١) وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُمْ فِي كَيْدِهِمْ ﴾ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُمْ فِي كَيْدِهِمْ .

﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَبِّحْهُنَّ كَسَبِّحْهُنَّ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ فَقُلْ إِنَّهَا مِنْ عَمَلِي ﴾ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلِكَ وَكَتَبْنَا لَهُمْ ﴿ قَدْ لَنْ يَصِيبَكَ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء ؛ لأنه مهما أصابه من حسنة ، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ فَقُلْ إِنَّهَا مِنْ عَمَلِي ﴾ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلِكَ أَي قد احتجزنا من متابعتك من قبل هذا ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُمْ ﴾ فَأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال : ﴿ قُلْ ﴾ أي لهم ﴿ لَنْ يَصِيبَكَ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره ﴿ هُوَ مَوْلَانَا ﴾ أي سيدنا وملجؤنا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا أَلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْضَى بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيِّدِنَا فَتَرْضَوْا إِنَّا مَعَكُم مُرْتَضُونَ ﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ لَكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَتَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا ﴾ أي تنتظرون بنا ﴿ أَلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ﴿ وَنَحْنُ نَرْضَى بِكُمْ ﴾ أي ننتظر بكم ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيِّدِنَا ﴾ أي ننتظر بكم هذا أو هذا إما ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيِّدِنَا ﴾ بنسي أو بقتل ﴿ فَتَرْضَوْا إِنَّا مَعَكُم مُرْتَضُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿ لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ لَكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ ﴾ نفقة ﴿ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ : أن الله لا يمل حتى تملوا ^(٢) . وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ^(٣) .

فهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً ؛ لأنه إنما يتقبل من المتقين . ﴿ فَلَا تَجْعَلْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ . يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فَلَا تَجْعَلْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ائْتَسِبُونَ أَمْوَالَهُمْ مِنْ تَالِي وَتَالِي ﴾ شَارِعٌ لَمْ يَلْ لِفَتْرَةٍ بَلْ لَا يَتَرَوْنَ ﴿ وَقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال الحسن البصري : بركاتها والنفقة منها في سبيل الله ، وقال قتادة : هذا من المقدم

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨١/١٩) والحاكم في المستدرک (٢١٩/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٣) ومسلم في المسافرين (٢١٥) وأحمد في مسنده (٤٠/٦) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٤٦/٣) وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) .

والمؤخر تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة .
وقوله : ﴿ وَزَهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم ، عياداً بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .
﴿ وَخَلَّوْا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ ٥٦ لَوْ يَحْدُوثُ مَلَجًا أَوْ مَعْدَرَتٍ أَوْ مَذَخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ .

يخبر تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفرعهم وفرقهم واهلهم أنهم ﴿ وَخَلَّوْا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ﴾ ميمًا مؤكدة ﴿ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ ﴾ أي في نفس الأمر ﴿ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف ﴿ لَوْ يَحْدُوثُ مَلَجًا ﴾ أي حصنًا يتحصنون به ، وحرزًا يتحرزون به ﴿ أَوْ مَعْدَرَتٍ ﴾ وهي التي في الجبال ﴿ أَوْ مَذَخَلًا ﴾ وهو السرب في الأرض والنفق قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقادة ﴿ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ ﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم ؛ لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساعهم ذلك ، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ، ولهذا قال ﴿ لَوْ يَحْدُوثُ مَلَجًا أَوْ مَعْدَرَتٍ أَوْ مَذَخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ ٥٧ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي من المنافقين ﴿ مَن يَلْمِزُكَ ﴾ أي يعيب عليك ﴿ فِي ﴾ قسم ﴿ الصَّدَقَاتِ ﴾ إذا فرقتها ويتهمك في ذلك ، وهم المتهمون المأبونون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ؛ ولهذا إن أعطوا من الزكاة ﴿ رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ أي يغضبون لأنفسهم . عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له : اعدل فإنك لم تعدل ، فقال : « لَقَدْ خِبتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَغْدِلُ » ثم قال رسول الله ﷺ « وقد رآه مقفيا : » « إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِغْثِي هَذَا قَوْمٌ يَخْفِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ ، يَمْزُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُزْوَقَ الشَّهْمِ مِنَ الزُّمَيْيَةِ ، فَأَنْتُمْ لَا تَقِشُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَذِيمِ السَّمَاءِ » ^(١) . ثم قال تعالى منبها لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا ، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ ، وامثال أوامره ، وترك زواجه ، وتصديق أخباره ، والافتقار بآثاره .

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهِ وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنَمِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ، ولزمهم إياه في قسم الصدقات . يبين تعالى

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٢) وأحمد في مسنده (٣٥٣/٣) .

أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه - ولم يكل قسمها إلى أحد غيره ، فجزأها لهؤلاء المذكورين كما روي عن زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فبايعته ، فأتي رجل فقال : أعطني من الصدقة ، فقال له : « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْزُقْ بِحُكْمِ نَبِيِّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ فَجَزَأَهَا ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أُعْطِيَكَ » ^(١) . وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين : أحدهما : أنه يجب ذلك ، وهو قول الشافعي وجماعة .

والثاني : أنه لا يجب استيعابها ، بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقيين ، وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران ، وقال ابن جرير : وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف هنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعابها .

وإنما قدم الفقراء هنا على البقية ؛ لأنهم أخرج من غيرهم على المشهور ، ولشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير وهو كما قال أحمد . وعن محمد قال : قال عمر رضي الله عنه : الفقير ليس بالذي لا مال له ، ولكن الفقير الأخلق الكسب . وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد . واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً ، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس ^(٢) . ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية .

فأما الفقراء : فعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيِّ ، وَلَا لِذِي مَرَّةٍ سَوِيٍّ » ^(٣) وعن عبيد الله بن عدي بن الحيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه من الصدقة فقلّب فيهما البصر فرأهما جليدين فقال : « إِنْ شِئْتُمَا أُعْطِيْتُكُمَا وَلَا حَظٌّ فِيهَا لِغَنِيِّ وَلَا لِقَرَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ » ^(٤) .

وأما المساكين : فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ قَبْرُهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ ، وَالثَّمَرَةُ وَالثَّمَرَتَانِ » قَالُوا : فَمَا الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ ، وَلَا يَقْطُنْ لَهُ فَيَصَّدَّقَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً » ^(٥) .

وأما العاملون عليها : فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك ، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تحرم عليهم الصدقة ، لما ورد عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستعملهما على الصدقة ، فقال : « إِنْ الصَّدَقَةُ لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ ؛ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ » ^(٦) .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٦٣٠) والدارقطني في السنن (١٣٧/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١٧٤/٤) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٣/١٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/٢) وأبو داود في السنن (١٦٣٤) والترمذي في السنن (٦٥٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٤/٤) والنسائي في السنن (٢٥٩٨) والدارقطني في السنن (١١٩/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٦) ومسلم في الزكاة (١٠٢) وأحمد في مسنده (٢٦٠/٢) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٩/٢) والطبراني في الكبير (٧٧/٣) .

وأما المؤلفه قلوبهم فأقسام : منهم من يعطى ليسلم ، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين وقد كان شهدا مشركا ، عن صفوان بن أمية قال : أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي ، ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ، ويثبت قلبه ، كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم مائة من الإبل ، وقال : « إِنِّي لأعطي الرجلَ وَغَيْرُهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ ؛ خَشْيَةُ أَنْ يَكْبَهُهُ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » ^(١) . وعن أبي سعيد : أن عليا بعث إلى النبي ﷺ بذهبية في تربتها من اليمن ، فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال : « أَتَأَلَّفُهُمْ » ^(٢) . ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه . ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد . ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع ، والله أعلم .

وهل تعطى المؤلفه على الإسلام بعد النبي ﷺ ؟ فيه خلاف : فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده ؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ، ومكن لهم في البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد . وقال آخرون : بل يعطون ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن ، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم .

وأما الرقاب : فروي عن الحسن البصري وسعيد بن جبير أنهم المكاتبون ، وهو قول الشافعي والليث رحمهما الله . وقال ابن عباس والحسن : لا بأس أن تعتق الرقة من الزكاة ، وهو مذهب أحمد ومالك وإسحاق ، أي أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقة فيعتقها استقلالاً ، وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقة أحاديث كثيرة ، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها ، حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلا لأن الجزء من جنس العمل ﴿ وَمَا نُجِزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ حَقُّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ : الْعَاذِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْمُكَاتِبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ ، وَالتَّائِيحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَا » ^(٣) . وعن البراء بن عازب قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار فقال : « اغْتِنِ النَّسَمَةَ وَفَكَ الرِّقَبَةَ » فقال : يا رسول الله أو ليسا واحداً ؟ قال : « لَا ، غِنَتْ النَّسَمَةُ أَنْ تَفْرِدَ بِعِتْقِهَا ، وَفَكَ الرِّقَبَةَ أَنْ تَعِينَ فِي ثَمَنِهَا » ^(٤) .

وأما الغارمون : فهم أقسام ؛ فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه ، فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه ، أو في معصية ثم تاب فهو لاء يدفع إليهم ، والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال : « أَقَمْتُ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَتَأْمُرُ لَكَ بِهَا » قال : ثم قال : « يَا قُبَيْصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةَ رَجُلٍ تَحْمَلُ حِمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُنْسَكَ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاخَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣٦) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤) ومسلم في الزكاة (١٤٣) وأحمد في مسنده (٦٨/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥١/٢) والنسائي في السنن (٣٢١٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٩/٤) والدارقطني في السنن (١٣٥/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧٣/١٠) .

الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ : سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةَ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَرَابَةِ قَوْمِهِ ، فَيَقُولُونَ : لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوْمًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ : سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُ مِنْ الْمَسْأَلَةِ سُحَّتْ بِأَكُلِهَا صَاحِبُهَا سُحَّتًا ^(١) .
وعن أبي سعيد قال : أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه ، فقال النبي ﷺ : « تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ » فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه ، فقال النبي ﷺ لغرمائه : « اخذُوا مَا وَجَدْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ » ^(٢) . وعن عبد الرحمن بن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « يَدْعُوُ اللَّهُ لِصَاحِبِ الدِّينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُوقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ فِيمَ أَخَذْتَ هَذَا الدِّينَ وَفِيمَ ضَيَّعْتَ حَقُّوقَ النَّاسِ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَخَذْتُهُ فَلَمْ أَكُلْ وَلَمْ أَشْرَبْ وَلَمْ أَضَيِّعْ ، وَلَكِنْ أَتَى عَلَى يَدَيَّ إِذَا حَزَقٌ ، وَإِذَا سَرَقٌ ، وَإِذَا وَضِيعَةٌ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : صَدَقَ عَبْدِي أَنَا أَحَقُّ مَنْ قَضَى عَنْكَ الْيَوْمَ ، فَيَدْعُوُ اللَّهُ بِشَيْءٍ فَيَضَعُهُ فِي كَفِّهِ مِيزَانِهِ فَتَزْجَحُ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ » ^(٣) .

وأما في سبيل الله : فمنهم الغزاة الذين لاحق لهم في الديوان . وعند الإمام أحمد والحسن بن إسحاق : والحج من سبيل الله للحديث ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال ، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء ، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه .
والدليل على ذلك الآية ، وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَحْمِلِ الصَّدَقَةَ لِنَفْسٍ إِلَّا لِلْخِمْسَةِ : الْعَامِلِ عَلَيْهَا ، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ ، أَوْ غَارِمٍ ، أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ مُسْكِينٍ تُصَدَّقُ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِنَفْسٍ » ^(٤) . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَحْمِلِ الصَّدَقَةَ لِنَفْسٍ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، أَوْ جَارٍ فَقِيرٍ ، فَيَهْدِي لَكَ أَوْ يَدْعُوكَ » ^(٥) .

وقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ أي حكما مقدرا بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصلح عباده ﴿ خَبِيرٌ ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشعره ويحكم به لا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي من قال له شيئا صدقه فينا ، ومن حدثه صدقه ، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا . روي معناه عن ابن عباس ومجاهد وقادة . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٩) وأبو داود في السنن (١٦٤٠) والنسائي في السنن (٢٥٨٠) .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٨) وأحمد في مسنده (٣٦/٣) وأبو داود في السنن (٣٤٦٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٨/١) والهندي في كثر العمال (١٥٥١٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٤/٢) وابن ماجه في السنن (١٨٤١) .

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٤١) وأبو داود في السنن (١٦٣٤) .

الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْتِيَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي وهو حجة على الكافرين ولهذا قال : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .
 ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُثْبِتَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ❶ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبْدَلُوا فِئَةً ذَلِكُمْ فَجَاءَهُمْ خِلَدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُثْبِتَكُمْ﴾ الآية : ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحمير ، قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار ، قال : فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبروه فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : « ما حملك على الذي قُلْتَ ؟ » فجعل يلتمن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله الآية (١) . وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية : أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادَّ الله ﷻ أي شاقه وحاربه وخالفه ، وكان في حد ، والله ورسوله في حد ﴿فَأَبْدَلُوا فِئَةً ذَلِكُمْ فَجَاءَهُمْ خِلَدًا فِيهَا﴾ أي مهاتماً معذباً ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير .

﴿يَحْذَرُ الْمُتَنِفِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزَيِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ تُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ .
 قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون : عسى الله أن لا يفشي علينا سراً هذا ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ خَبْرَكَ بِمَا لَمْ يَحْجِبْكَ بِهِ اللَّهُ وَبَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ أَنَّهُمْ لَيَصْلَوْنَهَا فَيَنْتَهِىَ الْعَصِيدُ﴾ وقال في هذه الآية : ﴿قُلِ اسْتَزَيِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ تُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمرهم ، كقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغاثَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَتَرَفَّتْهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية ، لهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة الفاضحة ، فاضحة المنافقين .

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِكُمْ وَآلِهَتِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ❷ لا تَسْتَهْزِئُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِسْنَادِكُمْ إِنْ تَقِفْ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تَعَذَّبَ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ .
 عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى قراءة هؤلاء إلا أרגبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة ، وأجبنا عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : ﴿أَبِإِلَهِكُمْ وَآلِهَتِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ إلى قوله ﴿كَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ (٢) .

وقال قتادة : ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال : فبينما النبي ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسرون بين يديه ، فقالوا : يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٠/٢٢١) .

(١) أخرجه : البيهقي في دلائل النبوة (١٣٤) .

هيئات هيئات ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا فقال : « عَلَيَّ بِهَؤُلَاءِ الْفَرِّ » فدعاهم فقال : « قُلْتُمْ : كَذًا وَكَذًا ؟ » فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب ^(١) . قال عكرمة في تفسير هذه الآية : كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : اللهم إني أسمع آية أنا أعني بها تقشعر منها الجلود ، وتجل منها القلوب ، اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك ، لا يقول أحد أنا غسيت أنا كفتت أنا دفنت . قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره .

وقوله : ﴿ لَا تَنْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿ إِنْ تَقُفْ عَنْ مَلَأْنَاهُ مِنْكُمْ تُحْدِثُ طَائِفَةً ﴾ أي لا يعفى عن جمعكم ولا بد من عذاب بعضكم ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .

﴿ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالشُّكْرِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمَعْرِوفِ وَيَقِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(٢) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ .

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿ يَأْمُرُونَ بِالشُّكْرِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمَعْرِوفِ وَيَقِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي عاملهم معاملة من نساهم ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق ، الداخلون في طريق الضلالة . وقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكنين فيها مخلدين هم والكفار ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أي كفايتهم في العذاب ﴿ وَلَعْنَةُ اللَّهِ ﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةُ آثِمَتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم . وقوله : ﴿ بِخَلْقِهِمْ ﴾ قال الحسن : بدينهم . وقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ أي في الكذب والباطل ﴿ أُولَئِكَ حِطَّةُ آثِمَتُمْ ﴾ أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ الآية ، قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَسْبِغَنَّكُمْ حَتَّى لَوْ دَخَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ » ^(٣) وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَسْبِغَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بِشَبْرِ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ وَبَاعًا بِبَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢٠/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/٢) .

لَدْخَلْتُمُوهُ « قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب : قال : « فَمَنْ ؟ » ^(١)

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وما أصابهم من الفرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿ وَعَادٍ ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام ﴿ وَثَمُودَ ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ كيف نصره الله عليهم وأينده بالمعجزات الظاهرة عليهم ، وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن ، وقال في الآية الأخرى ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَقْوَى ﴾ أي الأمة المؤتفكة وقيل : أم قراهم ، وهي سدوم ، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام ، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿ أَنْتُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي بإهلاكه إياهم ؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَشَرُهُمْ آبَاؤُهُمْ بَعْضٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَشَرُهُمْ آبَاؤُهُمْ بَعْضٌ ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون ، كما جاء في الحديث : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » ^(٢) وشبك بين أصابعه . وفي الحديث أيضاً : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالشَّهْرِ » ^(٣) وقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيما أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي يعز من أطاعه ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة ، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٥٦) ومسلم في العلم (٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦) ومسلم في البر والصلة (٦٥) وأحمد في مسنده (٤٠٤/٤) والترمذي في السنن (١٩٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥٣/٣) .

وَرِضُونُ مِنْ أَكْثَرِ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْمَظِيدُ .

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكين فيها أبداً ﴿ وَسَيَكُنْ لَهُمْ فِيهَا نِسَاءٌ ﴾ أي حُسنة البناء طيبة القرار ، كما جاء عن عبد الله بن قيس الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « جَنَّاتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّاتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكَثْرَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدَنَ » ^(١) . وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ لَحَيَّةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، طُولُهَا سِتُونَ مِيلًا ، فِي السَّمَاءِ ، لِلْمُؤْمِنِينَ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ لَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا » ^(٢) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ حَيَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » . قالوا : يا رسول الله أفلا نخبر الناس ؟ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفْجُرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ » ^(٣) . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاوُنَ الْعَرْفَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ » ^(٤) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ فَسَلُّوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ » قيل : يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال : « أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ لَا يَنْتَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ » ^(٥) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُّوا لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مِثْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٦) . وعن أبي هريرة ؓ قال : قلنا : يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لَبَنَةٌ ذَهَبٌ وَلَبَنَةٌ فِضَّةٌ ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ ، وَحَضْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ ، وَتُرَابُهَا الزُّعْفَرَانُ ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ ، وَيَدْخُلُهَا لَا يَمُوتُ ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى سَبَابُهُ » ^(٧) .

وعن علي ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعَرْفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا » فقام أعرابي فقال : يا رسول الله لمن هي ؟ فقال : « لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامَ » ^(٨) . وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٤) ومسلم في الإيمان (٢٩٦) وابن ماجه في السنن (١٨٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٢٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٧٩٠) وأحمد في مسنده (٢٣٥/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٥) ومسلم في الجنة (١١) والطبراني في المعجم الكبير (١٧٣/٦) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٢) .

(٦) أخرجه مسلم في الصلاة (١١) وأبو داود في السنن (٥٢٣) والترمذي في السنن (٣١٦٤) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٢) والترمذي في السنن (٢٥٢٦) .

(٨) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٢٧) والهندي في كنز العمال (٤٤٣٠٦) .

هَلْ مِنْ مُشْمِرٍ إِلَى الْجَنَّةِ ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا حَظَرَ لَهَا ، هِيَ وَرَبُّ الْكَفْبَةِ نُورٌ يَتَلَأَلُ ، وَرِيحَانَةٌ تَهْتَرُ ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ، وَنَهْرٌ مُطَرِدٌ ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ ، وَزَوْجَةٌ حَسَنَاءُ جَمِيلَةٌ ، وَحُلُلٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ ، وَفَاكِهَةٌ وَخُضْرَةٌ وَخَبِيزَةٌ ، وَنِعْمَةٌ فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ « قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال : « قُولُوا : إِنَّ شَاءَ اللَّهِ » . فقال القوم : إِنَّ شَاءَ اللَّهِ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ ﻻ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لِيَبَّكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَغْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبُّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أَجَلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَشْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ^(٢) . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ اللَّهُ ﻻ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا فَازِيدُكُمْ ؟ قَالُوا : يَا رَبَّنَا مَا خَيْرٌ مِّمَّا أُعْطِينَا ؟ قَالَ : رِضْوَانِي أَكْبَرُ ^(٣) .

﴿ يَأْتِيهِمُ النَّارُ فِي جَهْدِ الْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا يَنَالُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَلْعَنَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ^(١) .

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة ، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين ﴿ إِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ وسيف للكفار أهل الكتاب ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ وسيف للمنافقين ﴿ جَهْدِ الْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ وسيف للبغاة ﴿ فَاقْتُلُوا الَّذِينَ تَبَغَّيَ حَتَّى تَقِىَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ . وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير . وقال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ جَهْدِ الْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ قال : بيده ، فإن لم يستطع فليكهفه في وجهه . وقال ابن عباس : أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيوف والمنافقين باللسان ، وأذهب الفرق عنهم ، وقال الضحاك : جاهد الكفار بالسيوف وأغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم . وقال الحسن وقتادة ومجاهد : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم .

وقوله : ﴿ يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ قال قتادة : نزلت في عبد الله بن أبي وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال عبد الله للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القاتل : سَمَنْ كَلْبِكَ يَا كَلْكُ ،

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٣٣٢) والهندي في كنز العمال (١٣٣٦) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٥٧١٨) ومسلم في الجنة (٩) وأحمد في مسنده (٨٨/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٤) ومسلم في الإيمان (٢٩٧) والحاكم في المستدرک (٨٢/١) .

وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فسمعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ ، فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية . وعن عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : حزن علي من أصيب بالحرمة من قومي ، فكتب إلى زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَلَا تَبْنِ الْأَنْصَارِ» (١) . وشك ابن الفضل في أبناء الأنصار ، قال ابن الفضل : فمأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال : هو الذي يقول له رسول الله ﷺ : «أَوْفَى اللَّهِ لَهُ يَازِيدُ» . قال : وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول : ورسول الله ﷺ يخطب لئن كان صادقاً فنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم : فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار ، ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجحدته القائل ، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد ، يعني قوله ﴿يَخْلُفُونَ بِلَهُ مَا قَالُوا﴾ الآية .

وقال محمد بن إسحاق : كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له : عمير بن سعد فأنكرها ، فحلف بالله ما قالها ، فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغني . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً تحت ظل شجرة فقال : «إِنَّهُ سَيَأْتِيَكُمْ إِنْسَانٌ فَيَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنِي الشَّيْطَانِ ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا تُكَلِّمُوهُ» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : «علام تشتمني أنت وأصحابك ؟» فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم فأنزل الله ﷻ ﴿يَخْلُفُونَ بِلَهُ مَا قَالُوا﴾ الآية (٢) .

وقوله ﴿وَكَمْثُوا بِمَا لَزَّ يَتَّأَلَوْا﴾ قيل : أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال : لأخبرن رسول الله ﷺ ، وقيل : في عبد الله بن أبي : هم بقتل رسول الله ﷺ ، وقال السدي : نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ ، وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً . وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كنت أخذًا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده ، حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا بأثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها ، قال : فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، وصرخ بهم ، فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ : «هَلْ عَرَفْتُمُ الْقَوْمَ ؟» قلنا : لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ، ولكننا قد عرفنا الركاب قال : «هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» وَهَلْ تَذَرُونَ مَا أَرَادُوا ؟ قلنا : لا ، قال : «أَرَادُوا أَنْ يُزَاحِمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَقَبَةِ فَيُلْقُوهُ مِنْهَا» قلنا : يا رسول الله أفلا نبعث إلي عشايرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : «لَا ، أَكْرَهُ أَنْ تَخْذُلَ الْقَرْبَ بَيْنَهَا أَنْ مُحَرَّمًا قَاتَلَ بِقَوْمٍ ، حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ يَقْتُلُهُمْ» ثُمَّ قَالَ : «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُمْ بِالْذِّبِيلَةِ» . قلنا : يا رسول الله وما الذبيلة ؟ قال : «شِهَابٌ مِنْ نَارٍ يَقَعُ عَلَى نَيْطِ قَلْبٍ أَحَدِهِمْ فَيَهْلِكُ» (٣) .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨٧/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (٤٠/١٠ ، ٤١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/١) والحاكم في المستدرک (٤٨٢/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٣/٥) .

ويشهد لهذه القصة ما روي عن أبي الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك ، فقال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر ، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم ، وقد كان في حرة يمشي فقال : « إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد ، فوجد قوماً قد سبقوه فلعنهم يومئذ » ^(١) . وروي عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال : « في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا حَتَّى يَلْجَأَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ : ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكُهُمُ الدَّيْلَةُ ، سِرَاجٌ مِنْ نَارٍ يَظْهَرُ بَيْنَ أَكْتَافِهِمْ حَتَّى يَنْجُمَ فِي صُدُورِهِمْ » ^(٢) . ولهذا كان حذيفة يقال له : صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، أي من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعهم عليهم رسول الله ﷺ دون غيره ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَيْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته وبمن سعادته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ : « اللَّهُ أَجْدُكُمْ ضَلَالًا فَهَذَا كُمْ اللَّهُ بِي ؟ وَكُنتُمْ مُتَقَرِّبِينَ فَالْفُكْمُ اللَّهُ بِي ؟ وَغَالَةً فَأَغْنَاهُمْ اللَّهُ بِي ؟ » ^(٣) . كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمن ^(٤) وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كقوله : ﴿ وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ الآية ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « مَا يَتَّقِمُ ابْنٌ جَبِيلًا إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ » ^(٥) . ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال : ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٦) . ثم دعاهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ يَبْتَغُوا غَيْرَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا أي بالقتل والهم والغم ، والآخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿ وَمَا كُنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَهُ نَصِيبٌ ﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْتُؤْمِنَ بِهِ وَلَنْقُوتَ اللَّهَ لَعَنَّا الَّذِينَ الْمُتَقَرِّبِينَ ﴾ ^(٧) فَمَا أَتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ يُجْلُوا بِهِمْ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ^(٨) أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ يَبْتَغُوا غَيْرَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٩) .

يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قال ، ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله ﷻ يوم القيامة عياداً بالله من ذلك . وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري ^(١٠) ،

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (١٤) وأحمد في مسنده (٣٩١/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٩) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٥) والبيهقي في السنن الكبرى (١٩٨/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٤/٣) . (٤) أخرجه مسلم في الزكاة (١٣٩) وأحمد في مسنده ٧/٣ .

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (١١) وأبو داود في مسنده (١٦٢٣) والنسائي في مسنده (٢٤٦٤) .

(٦) قال ابن حجر في الإصابة بعد إيراد الرواية الواردة عن ابن عباس بأنه ثعلبة بن حاطب الأنصاري البصري : (وقد ثبت أنه ﷺ قال : لا يدخل النار أحدٌ شهد بدرًا والحديبية ، وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه وينزل فيه ما نزل ؛ الظاهر أنه غيره والله أعلم . الإصابة (٢٠٦/١) .

وقد ورد فيه حديث عن ثعلبة أنه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يرزقني مالا ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « وَيَحْكُ يَا ثُعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُوَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ » قال : ثم قال مرة أخرى فقال : « أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ اللَّهِ ؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ الْجِبَالُ مَعِيَ ذَهَبًا وَفِضَّةً لَسَارَتْ » قال : والذي بعثك بالحق لمن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثُعْلَبَةَ مَالًا » قال : فاتخذ غنما فمتم كما ينمي الدود ، فضافت عليه المدينة ، فتحنى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم تمت وكثرت فتحنى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا فَعَلَ ثُعْلَبَةُ ؟ » . فقالوا : يا رسول الله اتخذ غنما فضافت عليه المدينة فأخبروه بأمره ، فقال : « يَا وَيْحَ ثُعْلَبَةُ ، يَا وَيْحَ ثُعْلَبَةُ ، يَا وَيْحَ ثُعْلَبَةُ » . وأنزل الله ﷻ ثناؤه : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية ، ونزل فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلا من جهينة ورجلا من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما : « مُرَّا بِثُعْلَبَةَ وَبِقَلَانٍ - رَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ - فَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا » فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي ، فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك ، فقال : بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة ، وإنما هي له ، فأخذها منه ومرا على الناس فأخذوا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أروني كتابكما فقرأه فقال : ما هذا إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال : « يَا وَيْحَ ثُعْلَبَةُ » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمي بالبركة ، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي . فأنزل الله ﷻ ﴿ وَرَمَتْهُمْ مِنْ عَهْدِ اللَّهِ كَيْتَءَاتِكُنَا مِنْ فَضْلِهِ لِنَصَّدَقَنَّ ﴾ الآية ، قال : وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : « إِنْ اللَّهُ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتِكَ » فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله ﷺ : « هَذَا عَمَلُكَ قَدْ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِيعْنِي » فلما أتى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئا ، ثم أتى أبا بكر ﷺ حين استخلف فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار فأقبل صدقتي ، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ : وأبى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها ، فلما ولي عمر ﷺ أتاه فقال : يا أمير المؤمنين أقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك ؟ فقبض ولم يقبلها ، فلما ولي عثمان ﷺ أتاه فقال : أقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه ، فهلك ثعلبة في خلافة عثمان ^(١) .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٦٠/٨ ، والهيتمي في مجمع الزوائد (٣١/٧) .

وقوله تعالى : ﴿ سَمَّا أَخْلَقُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ الآية ، أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ » ^(١) .

قوله : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَمَّا أَنْ يَكْفُرْ بَلَاءُ لَكُمْ يَسِّرُهُ اللَّهُ وَيَخَوِّضُهُ ﴾ الآية ، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى ، وأنه أعلم بضمايرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم ؛ لأنه تعالى علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن .
﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وهذا أيضًا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبتهم ولزمهم في جميع الأحوال ، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مرء ، وإن جاء بشيء يسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . كما روي عن أبي مسعود ؓ قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا : مرائي ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . فنزلت ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ الآية ^(٢) . وعن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبيع فقال : حدثني أبي - أو عمي - أنه رأى رسول الله ﷺ بالبيع وهو يقول : « مَنْ يَتَصَدَّقْ بِصَدَقَةٍ أَشْهَدَ لَهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ » . قال : فحللت من عمامتي لوثًا أو لوثين وأنا أريد أن أتصدق بهما ، فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبيع رجلاً أشد سوادًا ولا أصغر منه ولا أدم ، يعبر ساقه لم أر بالبيع ناقة أحسن منها فقال : يا رسول الله أصدقة ؟ قال : « نعم » قال : دونك هذه الناقة ، قال : فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه ؟! فوالله لهي خير منه ، قال : فسمعها رسول الله ﷺ فقال : « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ، ثم قال : « وَيَلِ الْأَصْحَابِ الْمُنِجِينَ مِنَ الْإِبْرِيلِ » ثلاثًا ، قالوا : إلا من يا رسول الله ؟ قال : « إِلَّا مَنْ قَالَ بِأَمَالٍ هَكَذَا وَهَكَذَا » . وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال : « قَدْ أَقْلَحَ الْمَرْهَدُ الْمُجْهَدُ » ثلاثًا . المزهد في العيش المجهد في العبادة ^(٣) .

وقال ابن عباس أن رسول الله خرج إلى الناس يومًا فنأدى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم ، فجمع الناس صدقاتهم ، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر ، فقال : يا رسول الله هذا صاع من تمر ، بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر ، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فسخر منه رجال وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شيء ؟ ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ : هل بقي أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ غَيْرُكَ » فقال له عبد الرحمن بن عوف : فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات ، فقال له عمر بن الخطاب ؓ : أمجنون أنت ؟ قال : ليس

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) .

(٢) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١/٣) والهندي في كثر العمال (٦٢٨٠) .

بي جنون ، قال : أفعلت ما فعلت ؟ قال : نعم مالي ثمانية آلاف ، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي ، وأما أربعة آلاف فلي ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » ^(١) ولمزه المنافقون فقالوا : والله ما أعطى عبد الرحمن هبطته إلا رياء وهم كاذبون ، إنما كان به متطوعاً ، فأنزل الله ﷻ وعذره صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ .

وقوله ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملته من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

يخير تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، وقد قيل : إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم ؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها . وقيل : بل لها مفيهوم . عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية : « أَسْمَعُ رَبِّي قَدْ رَخَّصَ لِي فِيهِمْ ، قَوْلَ اللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ » ^(٢) . فقال الله من شدة غضبه عليهم : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية . وقال الشعبي : لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال : إن أبي يحضر فأحب أن تشهده وتصلني عليه ، فقال له النبي ﷺ : « ما اسمك » قال الحباب بن عبد الله قال : « بل أنت عبد الله بن عبد الله ، إن الحباب اسم شيطان » . فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلّى عليه فقبل له : أتصلني عليه ؟ فقال : « إِنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وَلَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ وَسَبْعِينَ » ^(٣) .

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُمَهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا نَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۖ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى دائماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا ببقعدهم بعد خروجه ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُمَهِدُوا ﴾ معه ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا ﴾ أي بعضهم لبعض ﴿ لَا نَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار ، فلماذا قالوا : ﴿ لَا نَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مما فررت منه من الحر ، بل أشد حرّاً من النار ، كما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نَارُ نَبِيِّ آدَمَ الَّتِي تَوْقَدُونَهَا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ »

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢/٧) والهندي في كنز العمال (٣٦٣٣) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥) .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٢) والهندي في كنز العمال (٤٥٩٩١) .

فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : «فُضِّلْتُ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسِتِّينَ جُزْءًا» ^(١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أَوْقَدَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اخْمَرَتْ ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ ، فَبُهِتَ سَوْدَاءُ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ» ^(٢) . وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَلَهُ تَغْلَانِ وَشِرَاكَيْنِ مِنْ نَارٍ جَهَنَّمَ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ ، كَمَا يَغْلِي الْمَوْجِلُ ، لَا يَرَى أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْهُ ، وَإِنَّ أَهْلَهُمْ عَذَابًا» ^(٣) .

وقال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿لَا إِنَّمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَآتٍ ۖ نَزَعَهُ لِّلشَّيْءِ﴾ ثم قال تعالى متوعدا هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا ﴿فَلْيَضْحَكُوا بَلَلًا﴾ الآية ، قال ابن عباس : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ﷻ استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً . وعن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَنَبَّأَكُمْ ، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَتَكَوَّنُونَ حَتَّى تَسِيلَ دُمُوعُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ فَتَسِيلَ الدَّمَاءُ فَتَقَرَّحَ الْعُيُونُ ، فَلَوْ أَنَّ شَفْعًا أَرْجِئْتُ فِيهَا لِحَرْثٍ» ^(٤) .

﴿فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ إِلَيْنَا فَاغْلِبْنَا مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ نَخْرُجََا مَعَكُمْ أَبَدًا وَلَنْ تُنَاصِرُونَا مَعَكُمْ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ .

يقول تعالى أمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿فَإِنْ رَجَعْتَ اللَّهُ﴾ أي يردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَيْنَا فَاغْلِبْنَا مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ نَخْرُجََا مَعَكُمْ أَبَدًا وَلَنْ تُنَاصِرُونَا مَعَكُمْ عَدُوًّا﴾ أي تعزوا لهم وعقوبة ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن جزاء السيئة السيئة بعدها ، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وقوله تعالى : ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قال ابن عباس : أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة ، وقال قتادة : أي مع النساء ، قال ابن جرير : وهذا لا يستقيم ؛ لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ، ولو أريد النساء لقال : فاقعدوا مع الخوالف أو الخالقات ، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنه .

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ بَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ .
أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه ، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ، كما روي : عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) ومالك في الموطأ (٩٩٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٣٢٠) والهندي في كنز العمال (٣٩٤٩٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٦٢) ومسلم في الإيمان (٣٦٣) وأحمد في مسنده (٢٧١/٤) .

(٤) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤٩٣/٤) .

تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا خَيْرِنِي اللَّهُ فَقَالَ : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ وَسَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ » قال : إنه منافق ! قال : فضلى عليه رسول الله ﷺ فانزل الله ﷻ آية ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ ^(١) وعن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب ؓ يقول : لما توفي عبد الله أبي دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره ، فقلت : يا رسول الله أعلیٰ عدو الله عبد الله بن أبي القاتل يوم كذا وكذا وكذا - يعدد أيامه - قال : ورسول الله ﷺ يتبسم ، حتى إذا أكرت عليه قال : « أَخْزَعْني يَا عَمْرُ ، إِنِّي خَيْرُ ثَفَاخُزَثْ ، قَدْ قِيلَ لِي : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الْآيَةُ . لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ » قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه ، قال : فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ الْآيَةُ . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله ﷻ ^(٢) .

وعن أبي قتادة قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها ، فإن أثنى عليها خيرا قام فضلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها : « سَأُنْكُمْ بِهَا » ولم يصل عليها ^(٣) ، وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان ؛ لأنه كان يعلم أعيان المنافقين ، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ ، ولهذا كان يقال له : صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، أي من الصحابة . وقال أبو عبيد في كتاب الغريب في حديث عمر أنه أراد أن يصلي على جنازة رجل فرزعه حذيفة ، كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها . ثم حكي عن بعضهم أن المرز بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع .

ولما نهى الله ﷻ عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك ، وفي فعله الأجر الجزيل ، كما ثبت عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ » . قيل : وما القيراطان ؟ قال : « أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أَحَدٍ » ^(٤) وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروي عن عثمان ؓ قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ النَّشِيبَ فَإِنَّهُ الْآنَ يَسْأَلُ » ^(٥) .

﴿ وَلَا تَحْجِبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَدَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعْذِبَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزَكَّى أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد والمنة .

﴿ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعِذْكَ أُولَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٤٠٢/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦/١) والترمذي في السنن (٣٠٩٧) والسنائي في السنن (١٩٦٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنايز (١٣٢٥) ومسلم في الجنايز (٥٢) وأحمد في مسنده (٤٠١/٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٣٢٢١) وانظر بإخراجه .

الْقَائِدِينَ ﴿٨٩﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَجَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٩٠﴾ .

يقول تعالى منكروا وذامًا للمتخلفين عن الجهاد الناكِلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول ، واستأذنوا الرسول في القعود وقالوا : ﴿ ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَائِدِينَ ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء وهن الخوالف بعد خروج الجيش ، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلامًا كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ لِقَاؤُ رَأْسِهِمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ مِنْ أُلْمِئَةٍ إِذَا ذَهَبَ لِقَاؤُ سَلَوْتِكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ ﴾ أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن ، وفي الحرب أجبن شيء .

وقوله : ﴿ وَطَجَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿ فَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم في فعلوه ، ولا ما فيه مضرة لهم في تجنبوه . ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْرِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ اَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩١﴾ .

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم فقال : ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا ﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم ، وقوله : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى . ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج ، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة . قال الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ بالتخفيف ويقول : هم أهل العذر . وقال ابن جريج عن مجاهد : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ ^(١) قال : نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ، والقول الأول أظهر والله أعلم ؛ لما قدمنا من قوله بعده ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن الجيئ للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَجَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ .

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد ، ومنه

(١) قرأ يعقوب (المغلطون) بتخفيف الذال والباقون بالتشديد (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢١) .

العمى والعرج ونحوهما ، ولهذا بدأ به . ومنها ما هو عارض بسبب مرض عُنْ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله ، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب ، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يخطوهم وهم محسنون في حالهم هذا ، ولهذا قال : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وعن أبي ثمامة رضي الله عنه قال : قال الحواريون : يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله ؟ قال : الذي يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا . وقال الأوزاعي : خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر أستم مفرين بالإساءة ؟ قالوا : اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا نسمعك تقول ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ اللهم وقد أقرنا بالإساءة فافقر لنا وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا . وقال قتادة : نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة ، فإني لو اضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ ﴾ الآية .

وقال ابن عباس في هذه الآية : وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن يبيعوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني فقالوا : يا رسول الله احملنا ، فقال لهم : « وَاللَّهِ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ » فتولوا وهم ييكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ : نزلت في بني مقرن من مزينة . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَاِدْيَا وَلَا سِرْتُمْ سِيرًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ » قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « نَعَمْ حَبَسَهُمُ الْقَدَرُ » ^(١) ، ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذون في القعود وهم أغنياء وأنهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالم في الرجال ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ يَتَذَكَّرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَذَابِ الْعَذَابِ وَاللَّهُدَى فَيَنْتَقِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ يَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرَضَا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضَوْا عَنْهُمْ فَلَا تَرْضَى عَنِ الْقَوْرِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أي لن نصدقكم ﴿ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٣٩) ومسلم في الإمارة (١٥٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٤/٩) .

عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴿٩٧﴾ أَي سَيُظْهِرُ أَعْمَالَكُمْ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا ﴿٩٨﴾ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّزِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ أَي فَيُخَبِّرُكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ خَيْرًا وَشَرًّا وَيُجْزِيكُمْ عَلَيْهَا . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيُحْلِفُونَ لَكُمْ مُعْتَذِرِينَ لَتَعْرَضُوا عَنْهُمْ ، فَلَا تُؤْنِبُهُمْ ، فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ احْتِقَارًا لَهُمْ ﴿١٠٠﴾ إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَي خَشِيَ نَجَسُ بَوَاطِنِهِمْ وَاعْتِقَادَاتِهِمْ ، ﴿١٠١﴾ وَمَأْوَاهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ ﴿١٠٢﴾ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠٣﴾ أَي مِنَ الْآثَامِ وَالْخَطَايَا وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِنْ رَضُوا عَنْهُمْ لِحْلَفِهِمْ لَهُمْ ﴿١٠٤﴾ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٥﴾ أَي الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، فَإِنَّ الْفُسْقَ هُوَ الْخُرُوجُ ، وَمِنْهُ سَمِيَتِ الْفَارَةُ فَوَيْسِقَةُ لَخُرُوجِهَا مِنْ جَحْرِهَا لِلْإِفْسَادِ ، وَيُقَالُ : فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامِهَا .

﴿١٠٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾ وَنِزَالُ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٨﴾ وَنِزَالُ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ قُرْبَهُ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٩﴾ .

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارًا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أي أخرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا ، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَنَ » ^(١) . ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لهم يبعث الله منهم رسولاً ، ولما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ ﴿١١٠﴾ ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي ، قال : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتَّجَلَ هَدِيَّةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ » ^(٢) لَأَنْ هَؤُلَاءِ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْمَدِينَةَ وَمَكَّةَ وَالطَّائِفَ وَالْمَدِينَةَ وَالْيَمَنَ ، فَهُمْ أَلْطَفُ أَخْلَاقًا مِنَ الْأَعْرَابِ ، لَمَّا فِي طَبَاعِ الْأَعْرَابِ مِنَ الْجَفَاءِ .

وعن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم ، قالوا : لكننا والله ما نقبل ، فقال رسول الله ﷺ : « وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرُّخْمَةَ ؟ » وقال ابن نمير : « من قلبك الرحمة » ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل ، والإيمان والكفر والنفاق ، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته . وأخبر تعالى أن منهم ﴿ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ ﴾ أي : فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ مَغْرَمًا ﴾ أي : غَرَامَةً وَخَسَارَةً ﴿ وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ ﴾ أي : يَنْتَظِرُ بِكُمْ الْحَوَادِثَ وَالْآفَاتِ ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ أي : هِيَ مُنْعَكِسَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَالسَّوْءُ دَائِرَةٌ عَلَيْهِمْ ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٧/١) وأبو داود في السنن (٢٨٥٩) والترمذي في السنن (٢٢٥٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٢/٢) والنسائي في السنن (٣٧٦٠) والحاكم في المستدرک (٦٣/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل (٦٤) وابن ماجه في السنن (٣٦٦٥) .

سميع لدعاء عباده ، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان . وقوله : ﴿ وَرَبِّ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب ، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ، ويتغنون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ أَلَا إِنَّا قَرَأْنَا لَهُمْ ﴾ أي ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿ سَيَذَلِّهِمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، ورضاهم بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم ، قال الشعبي : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ من أدراك بيعة الرضوان عام الحديبية ، وقال أبو موسى الأشعري : هم الذين صلوا إلى القبليتين مع رسول الله ﷺ ، وقال محمد بن كعب القرظي : مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ فأخذ عمر بيده فقال : ممن أقرأك هذا ؟ فقال : أبي بن كعب ، فقال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم . قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : لقد كنت أرى أنا رفعا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، فقال أبي : تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وفي سورة الحشر ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ الآية ، وفي الأنفال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ لَكُمْ ﴾ الآية ^(١) ، رواه ابن جرير ، قال : وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع الأنصار ^(٢) عطفًا على ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة ؓ ، فإن الطائفة الخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويغضونهم ويسبونهم ! عياذا بالله من ذلك ، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن ؓ ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يتدون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنين .

﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمُ الْعَرَبُ مُتَّبِعُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْإِتِّفَاقِ لَا تَقْلَقُهُمْ تَحَنُّنًا تَقْلَقَهُمْ سَعْدُ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَيْكَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب من حول المدينة منافقون ، وفي أهل المدينة أيضًا منافقون ﴿ مَرَدُّوا عَلَى الْإِتِّفَاقِ ﴾ أي مزنوا واستمروا عليه ، ومنه يقال : شيطان مرید ومارد ، ويقال : تمرد فلان على الله أي عتا وتجبر . وقوله : ﴿ لَا تَقْلَقُهُمْ تَحَنُّنًا تَقْلَقَهُمْ ﴾ لا ينافي قوله

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٢/١١) .

(٢) قرأ يعقوب ﴿ والأنصار ﴾ برفع الراء والباقون بالخفض (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢١) .

تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَمَرْنَاكُم بِالْحَمْدِ فَلَظُنْتُمْ بِإِسْمِهِمْ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً وإن كان يراه صباحاً ومساءً ، وشاهد هذا بالصحة ما روي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال : « لَتَأْتِيَنَّكُمْ أَجُورُكُمْ وَلَوْ كُنتُمْ فِي جُبْحِ ثَغْلَبِ » . وأصغى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال : « إِنْ فِي أَصْحَابِي مُنَافِقِينَ » ^(١) . ومعناه أنه قد ييوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم ، وتقدم في تفسير قوله ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ أنه صلى الله عليه وسلم أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً ، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم ، والله أعلم . وعن أبي الدرداء أن رجلاً يقال له : حرمة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه ، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ، ولم يذكر الله إلا قليلاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ لِسَانًا ذَاكِرًا ، وَقَلْبًا شَاكِرًا ، وَازْزُقْهُ حُبِّي وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّنِي ، وَصَبِّرْ أَمْرَهُ إِلَى خَيْرٍ » فقال : يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم أفلا أتيك بهم ؟ قال : « مَنْ أَتَانَا اسْتَفْزَنَّا لَهُ ، وَمَنْ أَصْرَفَ فَالَهُ أَوْلَى بِهِ ، وَلَا تَخْرُقَنَّ عَلَى أَحَدٍ سِتْرًا » ^(٢) .

وقال ابن عباس في هذه الآية قال : قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيباً يوم الجمعة فقال : « اخرج يا فلان فلان فإنك منافق ، واخرج يا فلان فلان فإنك منافق » فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم ، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاحتبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم . قال ابن عباس : فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثاني : عذاب القبر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ سَمِعْتُهُمْ مِرَّتَيْنِ ﴾ : يعني القتل والسبي ، وقال في رواية : بالجوع وعذاب القبر ﴿ ثُمَّ يَرْدُّوكَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ . قال ابن جريج : عذاب الدنيا وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم النار ، وقال الحسن البصري : عذاب في الدنيا وعذاب في القبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد : أما العذاب في الدنيا فالأموال والأولاد ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْبِبَّكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر ، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ ثُمَّ يَرْدُّوكَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : النار .

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديتها وشكاً ، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلًا وميلًا إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ، ولهم أعمال آخر صالحة خلطوا هذه بتلك ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨٣/٤) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٥٢/٥) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/٤) والهيتمي في مجمع الزوائد (٤٠٢/٩) .

فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه ، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخطئين المتلوثين ، وقد قال مجاهد : إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة : إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه ، وقال ابن عباس ﴿ وَآخَرُونَ ﴾ نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال بعضهم : أبو لبابة وخمسة معه ، وقيل : وسبعة معه ، وقيل : وتسعة معه ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم . وعن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ لنا : « أَتَانِي لِلَّيْلَةِ آتِيَانِ فَأَبْتَغَانِي فَأَتَيْتُهُمَا يَبِي إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بَلَيْنٍ ذَهَبَ وَلَبَيْنَ فُضِيَّةٍ ، فَتَلَقَانَا رَجَالٌ شَطْرَ مَنْ خَلَقَهُمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ ، وَشَطْرُ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ ، قَالَا لَهُمْ : اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ فَوَقَعُوا فِيهِ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ الشَّيْءُ عَنْهُمْ ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ . قَالَا لِي : هَذِهِ جَنَّةٌ عَذْنٌ وَهَذَا مَنْزِلُكَ ، قَالَا : وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرَ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرَ مِنْهُمْ قَبِيحٌ ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا فَأَبَازَرَهُمُ اللَّهُ عَنْهُمْ » (١) .

﴿ حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِي اللَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ .

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها ، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون ، وإنما كان خاصاً بالرسول ﷺ ولهذا احتجوا بقوله تعالى : ﴿ حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ ﴾ الآية ، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقتلهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ حتى قال الصديق : والله لو منعوني عناقاً - وفي رواية : عقلاً - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه . وقوله : ﴿ وَصَلَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم ، كما رواه عبد الله بن أبي أوفى قال : كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم ، فأتاه أبي بصدقة فقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى أَبِي أَوْفَى » (٣) . وفي الحديث الآخر : أن امرأة قالت يا رسول الله صل علي وعلى زوجي فقال : « صَلِّ عَلَى اللَّهِ عَلَيْكَ وَعَلَى زَوْجِكَ » (٤) وقوله : ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ قرأ بعضهم صلواتك على الجمع ، وآخرون قرأوا إن صلواتك على الأفراد (٥) ﴿ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ قال ابن عباس رحمة لهم ، وقال قتادة : وقار . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي لدعائك ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي : بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له . وعن ابن حذيفة عن أبيه أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابته ولده وولد ولده (٥) .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ومسلم في الزكاة (١٧٦) وأحمد في مسنده (٣٥٣/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/٣) وأبو داود في السنن (١٥٣١) والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٣/٢) .

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص ﴿ إن صلواتك ﴾ بالتوحيد وفتح التاء والباء ﴿ صلواتك ﴾ بالجمع والكسر (تقرب النشر في

القرائات العشر ص ١٢١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٦٨/٨) .

وقوله ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحسها ويمحقها ، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه . ومن تصدّق بصدقة من كسب حلال ؛ فإن الله تعالى يتقبلها يمينه فيريها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أخذ ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرِيهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يُرِيَّ أَحَدَكُمْ مُهْرَهُ ، حَتَّى إِنْ اللَّقْمَةُ لَتَكُونُ مِثْلَ أَحَدٍ » ^(١) . وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ وقوله : ﴿ يَمْحُ اللَّهُ الذَّنْبَ عَنْ رَجُلٍ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ ﴾ قال : عبد الله بن مسعود ؓ : إن الصدقة تقع في يد الله ﷻ قبل أن تقع في يد السائل ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ .

﴿ وَفِي أَعْمَالِهِمْ لَسَبْرٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ قال مجاهد : هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال : ﴿ يَوْمَ يُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا كما روي عن أبي سعيد مرفوعاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَأَخْرَجَ اللَّهُ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ كَأَنَّهُمَا مَا كَانَ » ^(٢) وقد ورد : أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ كما روي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى أَقَارِبِكُمْ وَعَشَائِرِكُمْ فِي قُبُورِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا اسْتَبَشَرُوا بِهِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَالُوا : اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَاهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِكَ » ^(٣) . وعن عائشة ؓ قالت : إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل ﴿ أَعْمَلُوا فَيَرْضَى اللَّهُ عَنْكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمِ يَحْتَمِلُ لَهُ ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ أَوْ بُزْهَةً مِنْ دَهْرِهِ يَعْمَلُ صَالِحًا لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُزْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ يَعْمَلُ سَيِّئًا لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ خَيْرًا اسْتَغْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ » . قالوا : يا رسول الله وكيف يستعمله ؟ قال : « يُوقِفُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ » ^(٤) . ﴿ وَأَخْرَجُوا مُرَجُوتَ الْأَمْرِ إِنْهَا يَعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا ، أي عن التوبة وهم : مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلًا وميلًا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لا شكا ونفاقًا ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورن ،

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٦٦٢) والهندي في كنز العمال (١٥٩٩٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٣) والهيثم في مجمع الزوائد (٢٢٥/١٠) .

(٣) أخرجه أحمد مسنده (١٦٤/٣) والطبراني في معجم الكبير (١٥٤/٤) والهيثم في مجمع الزوائد (٣٢٨/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٠/٣) والهيثم في مجمع الزوائد (٢١١/٧) والهندي في كنز العمال (٥٨٩) .

فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجأ هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ الآية : ﴿ وَمَنْ أَتْلَفَ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِمَتْ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا يَمِدُّهُمْ وَإِنَّا يَنْوِبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا ، وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، حكيم في أفعاله وأقواله ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا كَذَابًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِلُنَّ إِنَّ آرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنُ وَاللَّهُ بِشَهِدٍ إِتْمَمَ لَكِنْدُونُ ﴾ لا نَفْعَ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُتِيَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوْلَى يَوْمٍ أَهَقَّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَظْهَرُوا وَاللَّهُ يُخَيِّتُ الْمُظْهِرِينَ ﴾ .

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهروهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فارّاً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالؤهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أخذ فكان من أمر المسلمين ما كان وامتنعهم الله ﷻ ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفيين فوق في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أخذ ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، وذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده ، وكب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يُقدّم عليهم فيه من يُقدّم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إِنَّا عَلَى سَفَرٍ وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . فلما قفل عليه الصلاة والسلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى ،

فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة .

كما قال ابن عباس في الآية : هم أناس من الأنصار بنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدًا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتي بجنود من الروم وأخرج محمدًا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله ﷻ ﴿ لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا ﴾ إلى قوله ﴿ الظالمين ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَكَيْلُكُمْ ﴾ أي الذين بنوه ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ أي : ما أردنا بينانه إلا خيرًا ورفقًا بالناس ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : فيما قصدوا وفيما نوا ، وإنما بنوه ضرارًا لمسجد قباء ، وكفرًا بالله ، وتفريقًا بين المؤمنين ، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب لعنه الله . وقوله : ﴿ لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا ﴾ نهى له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أي يصلي أبدًا . ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنيانه على التقوى ، وهي طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمعًا لكلمة المؤمنين ، ومعقلًا وموئلًا للإسلام وأهله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٍ أُسَسَّ عَلَى الْأَفْئِدَةِ يَوْمَ يُورَى الْحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ قَبَاءٍ كَعُمْرَةٍ » (٢) .

وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكبًا وماشيًا (٣) .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناه وأُسسه أول قدمه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عين جهة القبلة ، فالله أعلم .

وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ قَبَاءٍ ﴾ ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ « قَالَ : « كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ فَتَزَلَّتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ » (٤) .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال : « مَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي أَتَيْتُ اللَّهَ عَلَيْهِكُمْ ؟ » ، فقال : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه - أو قال : مقعدته - فقال النبي ﷺ : « هَذَا » (٥) .

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، ورواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، ورواه الزهري عن عروة بن الزبير . وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٣٣/١١ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٤١١) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٥١٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه (٤٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢ / ٣) ، والحاكم في المستدرک (١٥٥ / ١) ، والبيهقي في مجمع الزوائد (٢١٢ / ١) .

جوف المدينة هو المسجد الذي أُسِّس على التقوى ، وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية وبين هذا ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسِّس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى ، ولهذا روي عن سهل بن سعد الساعدي قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى فقال أحدهما : هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فأتيا النبي ﷺ فسألاه فقال : « هُوَ مَسْجِدِي هَذَا » (١) .

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف ، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله .

وقوله : ﴿ لَتَسْجِدَ أُسَسَّرَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتزهد عن ملابس الفاذورات .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ إن الطهور بالماء لحسن ، ولكنهم المطهرون من الذنوب . وقال الأعمش : التوبة والتطهر من الشرك ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء : « قَدْ أَتَى اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ فَمَآذَا تَصْنَعُونَ ؟ » . فقالوا نستنجي بالماء (٢) .

وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نتبع الحجارة بالماء .

﴿ أَفَمَنْ أَتَسَسَّرَ بِئِنَّكُمْ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَّرَ بِئِنَّكُمْ عَلَى شِقَا جُرْحِي هَارٍ فَأَتَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لَا يَزَالُ بُيِّنْتُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

يقول تعالى : لا يستوي من أسس بنياته على تقوى من الله ورضوان ، ومن بنى مسجداً ضاراً وكفراً وتفرقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، فلما بني هؤلاء بنيانهم على شقا جرف هار أي طرف حفيرة مثاله ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبد الله : رأيت المسجد الذي بني ضاراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ . وقال ابن جريح : ذكر لنا أن رجالاً حفروا فوجدوا الدخان الذي يخرج منه . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُيِّنْتُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي شكا ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع ، أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابداً العجل حبه . وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي بموتهم ، قاله ابن عباس ومجاهد وقادة وزيد بن أسلم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي بأعمال

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٠٦/٦) والحاكم في المستدرک (١٥٥/١) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢١٣/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٣) والترمذي في سننه (٣٠٩٩) والنسائي في السنن (٦٩٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٢/٣) والحاكم في المستدرک (١٥٥/١) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢١٢/١) .

الخلق ولهذا قال : ﴿ وَيَسِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

بيان أن المراد بالسياحة الصيام : عن عبد الله بن مسعود قال ﴿ أَلْتَسْتَحُونَ ﴾ : الصائمون . وقال ابن عباس : كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون ، وكذا قال الضحاك رحمته الله . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، وقال الحسن البصري ﴿ أَلْتَسْتَحُونَ ﴾ : الصائمون شهر رمضان . وقال أبو عمرو العبدى ﴿ أَلْتَسْتَحُونَ ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « السَّائِحُونَ هُمُ الصَّائِمُونَ » ^(١) .

وعن أبي أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله ائذن لي في السياحة ، فقال النبي ﷺ : « سِيَاحَةُ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٢) . وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرين ، وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الرَّجُلِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ ، يَقْرُؤُ بِدِينِهِ مِنَ الْقُرْآنِ » ^(٣) وقال ابن عباس في قوله ﴿ وَالْمُحْسِنُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ : القائمون بطاعة الله ، وكذا قال الحسن البصري : لفرائض الله ، وعنه رواية القائمون على أمر الله .

﴿ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وما كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَرْغَبَةٍ وَغَدَاً إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ .

عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال : « أَيُّ غَمٍّ ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةُ أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال : أنا على ملة عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ : « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَتَمَّ أَنَّهُ غَنَكَ » . فنزلت : ﴿ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ قال : ونزلت فيه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(٤) وعن علي ﷺ قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ؟ فقلت : أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفروا إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت ﴿ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية ^(٥) . وعن ابن بريدة عن أبيه قال : كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر ، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب ، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان ، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله ما لك ؟ قال : « إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فِي الاسْتِغْفَارِ

(١) أخرجه الهندي في كنز العمال (٢٩٠٤) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٤/٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٤٨٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٨) وأحمد في السنن (٦/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٨٤) والنسائي في السنن (٢٠٣٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/١) .

لَأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ، فَدَمَعَتْ عَيْنَايَ رَحْمَةً لَهَا مِنْ النَّارِ ، وَإِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ثَلَاثَ : نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ ؛ فَزُورُوهَا لِتَذْكُرْكُمْ زِيَارَتُهَا خَيْرًا ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لَحُومِ الْأَضَاجِي بَعْدَ ثَلَاثَ ، فَكُلُوا وَأَمْسِكُوا مَا شِئْتُمْ ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ الْأَشْرِيَةِ فِي الْأَوْعِيَةِ ، فَأَشْرَبُوا فِي أَيِّ وَعَاءٍ شِئْتُمْ ، وَلَا تَشْرَبُوا مُشْكِرًا » (١) .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية ، أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله ﷻ عن ذلك فقال : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ ﷺ قَدْ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ (٢) . الآية ، وقال ابن عباس في هذه الآية : كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية ، فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ الآية .

وعن ابن عباس : مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه ، فذكر ذلك لابن عباس فقال : فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح ما دام حيًا ، فإذا مات وكله إلى شأنه ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ لم يدع ، ويشهد له بالصححة ما روي عن علي ؓ ، لما مات أبو طالب قلت : يا رسول الله : إن عمك الشيخ الضال قد مات قال : « أَذْهَبَ قَوَارِهِ وَلَا تُحَدِّثَنَّ شَيْعًا حَتَّى تَأْتِيَنِي » فذكر تمام الحديث (٣) .

وقوله ﴿ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ قال ابن عباس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وفي رواية : لما مات تبين له أنه عدو الله ، وقال عبيد بن عمير وسعيد ابن جبير : إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقي أباه وعلى وجه أبيه القفرة والغبرة ، فيقول يا إبراهيم : إني كنت أعصيك ، فيقول : أي ربي ألم تعدني أن لا تخزني يوم يعثون ، فأني خزي أخزى من أبي الأبعد ، فيقال : انظر إلى ما ورائك فإذا هو بذبح متلطح أي قد مسخ ضبيعًا ، ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار . وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ عن عبد الله بن مسعود أنه قال : الأواه الدعاء ، وعن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : بينما النبي ﷺ جالس قال رجل : يا رسول الله ما الأواه ؟ قال : « الْمُتَضَرَّعُ » (٤) قال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ . وعن ابن عباس الأواه المؤمن ، زاد علي بن أبي طلحة عنه : هو المؤمن التواب ، وقال العوفي عنه : هو المؤمن بلسان الحبشة .

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو النجادين : « إِنَّهُ أَوَّاهٌ » وذلك أنه رجل كان إذا ذكر الله في القرآن رفع صوته بالدعاء (٥) ، وقال ابن عباس ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ قال : فقيه . قال الإمام أبو جعفر بن جرير : وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء ، وهو المناسب للسياق ، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه ، وقد كان إبراهيم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٥/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (١١٦/١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر الثور (٢٨٣/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٠/١) والنسائي في السنن (١٩٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٠٤/١) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (٧٠/١١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٩/٤) والحاكم في المستدرک (٣٦٨/١) والطبراني في المعجم الكبير (٢٩٥/١٧) .

كثير الدعاء حليماً عن ظلمه وأناله مكروهاً ، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِكًا ﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيظًا ﴿ فحلم عنه مع أذاه له ، ودعا له واستغفر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ الْإِنَّمَاءُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿ .

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم ، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا تُمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ ﴾ الآية . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ ﴾ الآية ، قال : بيان الله ﷻ للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيانه لهم معصيته وطاعته عامة ، فافعلوا أو ذروا . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ قال ابن جرير : هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر ، وأنهم يثقوا بنصر الله مالِك السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ولا يرهبوا من أعدائه ؛ فإنه لا ولي لهم من دون الله ، ولا نصير لهم سواه . وعن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم : « هَلْ تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ ؟ » قالوا : ما نسمع من شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَأَسْمَعُ أَطِيطَ السَّمَاءِ ، وَمَا تَلَامُ أَنْ تَطِيطَ وَمَا فِيهَا مِنْ مَوْضِعٍ شَيْءٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ » (١) .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال مجاهد وغير واحد : نزلت هذه الآية في غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء ، وقال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان نفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقبلهم من غزوتهم . وعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة ، فقال عمر بن الخطاب : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قبط شديد ، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ﷺ إن الله ﷻ قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا فقال : « نَحْبُ ذَلِكَ ؟ » قال : نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت ، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر (٢) . وقال ابن جرير في قوله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ ﴾ أي من النفقة والظهر والزاد والماء ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ .

ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إِنَّهُمْ بِهِمْ زَاهُونَ رَجِيمٌ ﴾ .
﴿ وَعَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ بِكَيْفَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ .

عن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبيد بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بني حنظل حين عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاهها قط ، إلا في غزاة تبوك ، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر . وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا وري بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاه رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً ، فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله ﷻ ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أععدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى استمر بالناس الجدد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفرط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم وليت أنني فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أنني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذره الله ﷻ ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » فقال رجل من بني سلمة حبسه يا رسول الله ﷺ برداه والنظر في عطفه ، فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ . قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك ، حضرني بشي وطفقت أتذكر الكذب . وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادماً زاح عني الباطل ، وعرفت أنني لم أنج منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه ، فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ف صلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه

المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جثت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم الغضب ثم قال لي : « تعال » فجثت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : « مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ اشْتَرَيْتَ ظَهْرًا ؟ » فقلت : يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه إني لأرجو عقي ذلك من الله ﷻ ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « أَمَا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَنُفِّمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ » . فقممت وقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، قال : فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ، قال : ثم قلت لهم : هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا : نعم معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لي ، قال : ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدوا في بيوتهما يكيان ، وأما أنا فكننت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي : أحرك شفتيه برد السلام علي أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسأقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي فإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم . قال : ففاضت عينا ي وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل علي كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاء دفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنيت كاتباً فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضیعة ، فالحق بنا نواسك . قال : فقلت حين قرأته : وهذا أيضاً من البلاء ، قال : فتيممت به التنور فسجرت به ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك ، قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها ، قال : وأرسل إلي صاحبتي بمثل ذلك . فقلت لامرأتي : الحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء ، قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله

ﷺ فقالت : يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يقربك » قالت : وإنه والله ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، قال : فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب ، قال : فلبثنا عشر ليال فأكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضافت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ، قال : فخرزت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج من الله ﷻ بالتوبة علينا فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي رجل فرساً وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنني نزعته له ثوبي فكسوتهما إياه بشارته ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤني بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله ، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال : وهو يبرق وجهه من السرور : « أَتُبَشِّرُ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ » قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » . قال : - وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه - فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال : « أَتُمِئْتُكَ عَلَيْهِ بَعْضُ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » . قال : فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخير ، وقلت : يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، قال : فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله ﷻ فيما بقي (١) . قال : وأنزل الله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْقُسْفَى مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهْمَةٌ رَحِيمٌ ١٥٠ وَعَلَى الَّذِينَ اتَّبَعُوا الَّذِينَ خَلَعُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٥١ ﴾ بَيِّنَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿ إلى آخر الآيات . قال كعب : فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٥٣) وأحمد في مسنده (٤٥٧/٣ ، ٤٥٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥/٩) .

حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى : ﴿ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِنَا أَنْفَلَيْتُمْ إِلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ قَاتَلُوا رَسُولَهُمْ وَأَوَّلَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَاتَلُوا رَسُولَهُمْ فَكَرِهَ اللَّهُ لَا بَرْحَةَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿ قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين خلفوا فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله ﷻ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه ^(١) .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها ، وضاعت عليهم أنفسهم وضاعت عليهم الأرض بما رحبت أي مع سعتها ، فسددت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وإنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم ولهذا قال : ﴿ يَأْتِيَنَّكَ الْزَيْتُ مَأْمُوءًا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي : اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ومخرجًا . وقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالْصَّدَقِ ؛ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا . وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا » ^(٢) .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَنَّ حَوْلَهُ بَيْنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَلُّونَ مَوَاطِنًا يَبْغِطَ الْكُفَّارُ وَلَا يَنَالُوكَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ، وورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة ؛ فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وهو العطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وهو التعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ وهي الجاعة ﴿ وَلَا يَطَلُّونَ مَوَاطِنًا يَبْغِطُ الْكُفَّارُ ﴾ أي ينزلوا منزلاً يهرب عدوهم ﴿ وَلَا يَنَالُوكَ ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلية تحت قدرهم ، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ . ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَسْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أي قليلاً ولا كثيراً

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٦ / ٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣ / ١ ، ٥) وابن ماجه في السنن (٣٨٤٩) .

﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿ إِلَّا كَتِبَ لَهُمْ ﴾ ولم يقل ههنا به ؛ بل لأن هذه أفعال صادرة عنهم ولهذا قال : ﴿ يَجْزِيهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان ؓ من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة ، كما ورد عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال : خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان ؓ : علي مائة بعير بأحلاسها وأقباها ، قال : ثم حث ، فقال عثمان : علي مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقباها ، قال : ثم نزل مراقبة من المنبر ثم حث ، فقال عثمان بن عفان : علي مائة أخرى بأحلاسها وأقباها ، قال : فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها - وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب - : « مَا عَلَى عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذَا » (١) .

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان ؓ إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه ، حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة ، قال : فصبها في حجر النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده « ما ضراب بن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددها مراراً (٢) ، وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتِبَ لَهُمْ ﴾ الآية ، ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهلهم إلا ازدادوا قرباً من الله .

﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ يُنْفِرُوا كُلَّهَا فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ، فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ . ولهذا قال تعالى ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ وقال ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَقْرَابِ ﴾ الآية ، قال : فنسخ ذلك بهذه الآية . وقد يقال : إن هذا بيان لمراعاة تعالى من نفير الأحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو ، فيجتمع لهم الأمان في هذا النفير المعين وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد فإنه فرض كفاية على الأحياء . وقال ابن عباس في الآية ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ يُنْفِرُوا كُلَّهَا ﴾ يقول : ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده. ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ يعني عصابة ، يعني السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون عن النبي ﷺ ، وقالوا : إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد تعلمناه ، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى ، فذلك قوله : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ يقول : ليعلموا ما أنزل الله نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفًا ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم : ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا ، فوجدوا أنفسهم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٤) والترمذي في السنن (٣٧٠٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٧٠١) والحاكم في المستدرک (١٠٢/٣) .

من ذلك تخرجوا ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ فقال الله ﷻ : ﴿ قُلُوا نَفَرًا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ يعنون الخير ﴿ يَسْتَفْقَهُوا فِي الدِّينِ ﴾ وليستمعوا ما في الناس وما أنزل الله فعذرهم ﴿ وَلِيُذَرِّدُوا قَوْمَهُمْ ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ . وقال قتادة في الآية : هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش أمرهم الله أن يغزوا بنبية ﷺ وتقيم طائفة مع رسول الله ﷻ تتفقه في الدين ، وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرها وقائع الله فيمن خلا قبلهم .

وقال ابن عباس ﴿ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَّةً ﴾ : إنها ليست في الجهاد ولكن لما دعا رسول الله ﷻ على مضر بالسنين أجذبت بلادهم ، وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلو بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷻ وأجهدوهم ، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين ، قردهم رسول الله ﷻ إلى عشائهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله ﴿ وَلِيُذَرِّدُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ الآية . وقال ابن عباس في هذه الآية : كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقون في دينهم ، ويقولون للنبي ﷺ : ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما تأمر به عشائنا إذا قدمنا عليهم ، قال : فيأمرهم نبي الله ﷻ بطاعة الله وطاعة رسوله ، ويعيئهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا : إن من أسلم فهو منا وينذرونهم ، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه ، وكان النبي ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم ، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويشيرونهم بالجنة . وقال عكرمة : لما نزلت هذه الآية ﴿ إِلَّا تَسْفَرُوا بِعِدَابِ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الدِّيْنَةِ ﴾ الآية ، قال المنافقون : هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه ، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَّةً ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ وَالَّذِينَ يَخُشَوْنَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَهَنَّمَ دَاحِضَةً غُدْرَتِهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ وقال الحسن البصري في الآية : ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قَبِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَرِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً قأولاً ، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله ﷻ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا ، شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب فبلغ تبوك ، ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع من هجرته عليه الصلاة والسلام ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً فاختره الله لما عتده ، وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق ﷺ وقد مال الدين ميلاً كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به ، فوطد القواعد وثبت الدعائم ،

ورد يشارد الدين وهو راغم ، ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام ، ويمن الحق لمن جهله ، وأدّى عن الرسول ما حمّله ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصليبان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد ، وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله ، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولي عهده الفاروق الأواب ، شهيد الحراب ، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدّين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً ، وحملت إليه خزائن الأموال سائر الأقاليم بعداً وقرباً ، ففرقها على الوجه الشرعي ، والسبيل المرضي ، ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً ، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار فكسى الإسلام رئاسة حلة سابعة ، وأمدت في سائر الأقاليم على رقب العباد حجة الله البالغة ، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وعلت كلمة الله وظهر دينه ، وبلغت الملة الخنيقة من أعداء الله غاية مآربها ، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّكَ الَّذِينَ آمَنُوا فَيَقُولُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم ، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن ، غليظاً على عدوه الكافر كقوله تعالى : ﴿ سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه ، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى ، لم يزلوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار ، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك ، طمع الأعداء في أطراف البلاد ، وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة ، ثم لم يزلوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله ، والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين نواصي أعدائهم الكافرين ، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم .

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آتَيْنَاكُمْ زَادَتْهُ هِذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ فمن المنافقين ﴿ مَن يَقُولُ آتَيْنَاكُمْ زَادَتْهُ هِذِهِ إِيمَانًا ﴾ أي : يقول بعضهم لبعض : أيكم زادته هذه السورة إيماناً ؟ قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك ، وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله . ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ أي

زادتهم شكاً إلى شكهم ، وريثاً إلى ريهم كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاعَةٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُّونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وهذا من جملة شقاقهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم ، كما أن سعى المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يرينكم من أحد ثم أنصرفوا صرفاً الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون . يقول تعالى : أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يختبرون ﴿ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ أي لا يتوبون عن ذنوبهم السالفة ، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم . قال مجاهد : يختبرون بالسنة والجوع ، وقال قتادة : بالغزو في السنة مرة أو مرتين ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ هذا أيضاً لإخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ أي تلفتوا ﴿ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ﴾ أي تولوا عن الحق وأنصرفوا عنه ، وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى : ﴿ قَالِ الْآيِنِ كُفِّرُوا بِلِقَائِكُمْ مُطِيعِينَ ﴾ عَنِ الْآيِنِ وَعَنِ الْإِثْمَالِ عَزِينَ ﴿ أي ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالاً هروباً من الحق وذهاباً إلى الباطل . وقوله : ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون عن الله خطابه ، ولا يتصدون لفهمه ولا يريدونه ، بل هم في شغل عنه ونفور منه فلماذا صاروا إلى ما صاروا إليه . ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ .

يقول تعالى ممثلاً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي منكم وبلغتكم ، كما قال جعفر بن أبي طالب عليه السلام للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته (١) ... وذكر الحديث . وقال جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ قال : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية . وقال عليه السلام : ﴿ خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أُخْرَجْ مِنْ سِفَاحٍ ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها ، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال : ﴿ بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ الْمُسْتَحَقَّةِ ﴾ (٣) . وفي الحديث : ﴿ إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ ، وَشَرِيعَتُهُ كُلُّهَا سَهْلَةٌ سَهْلَةٌ كَامِلَةٌ يَنْبِيرَةٌ عَلَى مَنْ يَسْرَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ﴾ (٤) .

﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم . وعن أبي ذر

(١) أخرجه : البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٧٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٩٠/٧) والهندي في كنز العمال (٣١٨٦٨) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢١٤/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) والهندي في كنز العمال (٩٠٠) .

(٤) أخرجه النسائي في سننه (٥٠٣٤) والبيهقي في السنن (١٨/٣) .

قال : تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً قال : وقال رسول الله ﷺ : « مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقْرَبُ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ » ^(١) . وعن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُحَرِّمْ حَزْمَةً إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُطْلَعُ مِنْكُمْ مَطْلَعٌ ، أَلَا وَإِنِّي أَخَذُ بِحُجْرَتِكُمْ أَنْ تَهَاقُوا فِي النَّارِ كَتَهَاقَتِ الْفَرَّاشِ أَوْ الذُّبَابِ » ^(٢) . وعن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعده أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به ، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال : أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني ؟ فقالوا : نعم ، قال : فانطلق بهم فأوردهم رياضاً رواء ، فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم : ألم ألكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني ؟ فقالوا : بلى ، فقال : فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب ممن هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني ، فقالت طائفة : صدق والله لتتبعنه ، وقالت طائفة : قد رضينا بهذا نقيم عليه ^(٣) .

وقوله : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوسٌ رَجِيمٌ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَنُخْضِرَنَّ جَنَّتَكَ لِإِنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فَإِنَّ عَصْرَكَ فَقَدْ لَبَّى بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَزِيِّ الرَّحِيمِ ﴾ وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿ فَقَدْ حَسِبْكُمْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي الله كافي ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه ؛ لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات ، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدره نافذ في كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل . وعن أبي بن كعب قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ إلى آخر السورة ^(٤) . وعن عباد بن عبد الله بن الزبير ؓ قال : أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ إلى عمر بن الخطاب فقال : من معك على هذا ؟ قال : لا أدري ، والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها ، فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ قال : لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها ، فوضعوها في آخر براءة ^(٥) .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٦٦/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٦٣/٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٠/١) والطبراني في المعجم الكبير (٢٦٥/١٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ .

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها ، عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿الرَّ﴾ : أي أنا الله أرى . ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين وقوله : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية . يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار ومن لإرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم : ﴿أَبَشِّرْ بِمُحَمَّدٍ﴾ وقال هود وصالح لقومهما : ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ وقال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، قال : فأنزل الله ﷻ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية . وقوله : ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ اختلّفوا فيه فقال ابن عباس في قوله ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ يقول : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول ، وقال ابن عباس ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقول : أجراً حسناً بما قدموا ، وقال مجاهد : الأعمال الصالحة صلاحاتهم وصومهم وصدقاتهم وتسييحهم ، قال : ومحمد ﷺ يشفع لهم ، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان ، وقال قتادة : سلف صدق عند ربهم ، واختار ابن جرير قول مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي قدموها كما يقال له قدم في الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم ، رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر ، وهم الكاذبون في ذلك . ﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذِيءَ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قيل : كهذه الأيام ؛ وقيل : كل يوم كآلف سنة مما تعدون كما سيأتي بيانه . ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ والعرش أعظم المخلوقات وسقفها . وعن إسماعيل بن أبي خالد قال : سمعت سعداً الطائي يقول : العرش ياقوته حمراء ، وقوله : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلظه المسائل ولا يترجم بالحاج الملحين ، ولا يلهمه تدبير الكبير عن الصغير ، في الجبال والبحار والعرمان والقفار ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية ، وعن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة أنه قال حين نزلت هذه الآية ﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية ، لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا : من الجن خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية . وقوله : ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذِيءَ﴾ كقوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقوله : ﴿ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفردوه

بالعبادة وحده لا شريك له ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهًا غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق .

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحدًا حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من يحوم ﴿ هَذَا قَلْبُ دُفُوهِ جَمِيدٌ وَعَسَاقٌ ۝ وَمَا خَرَّ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ ۚ وَالْحِسَابُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّا فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورًا ، وهذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لثلا يشبتها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو صغيرًا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر ، كقوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ۝ لَا الشَّمْسُ يَلْبَسُ لَمَّا أَنْ تَدْرَكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ وَقَدَرَهُ ﴾ أي القمر ﴿ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ ۚ وَالْحِسَابُ ﴾ فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي لم يخلقه عبثًا بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة وقوله : ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّا فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب هذا جاء هذا ، لا يتأخر عنه شيئًا ، كقوله تعالى : ﴿ يَقْبِضُ اللَّيْلَ الْتَّهَارَ ظُلُمٌ حِينًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال : ﴿ إِنَّا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي العقول ، وقال ههنا : ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أي عقاب الله وسخطه وعذابه . ﴿ إِنَّا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ۝ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ نَارٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ، ولا يرجون في لقائه شيئًا ، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأننت إليها نفوسهم . قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها ، بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام ، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِبُ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ① دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾ .

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات ؛ بأنهم سيهديهم بإيمانهم ، يحتمل أن تكون الباء ههنا سببية فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا بهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم ، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ قال : يكون لهم نوراً يمشون به ، وقال ابن جريج في الآية : يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويشره بكل خير فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك ، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله تعالى : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح متنتة ، فيلزم صاحبه ويلاذه حتى يقذفه في النار ، وقوله : ﴿ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي هذا حال أهل الجنة . قال ابن جريج : أخبرنا أن قوله : ﴿ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ ﴾ قال : إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا سبحانك اللهم وذلك دعواهم ، فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله : ﴿ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ قال : فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم ، فذلك قوله : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقال مقاتل بن حيان : إذا أراد أهل الجنة أن يدعو بالطعام قال أحدهم ﴿ سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ ﴾ قال : فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحيفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى ، قال : فيأكل منهن كلهن ، وقال سفيان الثوري : إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال ﴿ سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ ﴾ وهذه الآية فيها شبه من قوله : ﴿ نَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو الحمد أبداً ، المعبود على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله ، حيث يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ ﴾ وأنه الحمد في الأولى والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، في جميع الأحوال ، ولهذا جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس » ① .

﴿ وَلَوْ يَعْرِضُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَاهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَصَّى لَهُمْ إِمَّا يَسْمَعُ أَوْ لَا يَسْمَعُ ۚ وَلَئِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِمْ لَكَنَافٍ ۝ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفًا ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ يَعْرِضُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْبَاهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَصَّى لَهُمْ إِمَّا يَسْمَعُ أَوْ لَا يَسْمَعُ ۚ ﴾ أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم ، ولكن لا ينبغي

الإكثار من ذلك كما ورد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لَا تُؤَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ » ^(١) .
﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِيًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُتَرَفِّينَ مَا كَانُوا يَمَكُونُ ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَتَوْ دُعَاكَ عَرِيضٌ ﴾ أي كثير ، وهما في معنى واحد ، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك ، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه ، وفي جميع أحواله ، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه ، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ ﴾ . ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال : ﴿ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُتَرَفِّينَ مَا كَانُوا يَمَكُونُ ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ . وكقول رسول الله ﷺ : « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ » ^(٢) .
﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءهم به من البينات والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله ، وفي الحديث عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَأَتُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النَّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنَ النِّسَاءِ » ^(٣) . وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر : رأيت فيما يرى النائم كأن سبياً دلي من السماء فانتشط رسول الله ﷺ ، ثم أعيد فانتشط أبو بكر ، ثم ذرع الناس حول المنبر ففضل عمر بثلاث أذرع حول المنبر ، فقال عمر : دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها ، فلما استخلف عمر قال : يا عوف رؤياك ؟ قال : وهل لك في رؤياي من حاجة أو لم تنتهني ؟ قال : ويحك إني كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه ، فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع قال : أما إحداهن فإنه كان خليفة ، وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم ، وأما الثالثة فإنه شهيد ، قال : فقال : يقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ . فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل ؟ وأما قوله : فإنني لا أخاف في الله لومة لائم فيما شاء ، وأما قوله : شهيد فأني لعمر الشهادة والمسلمون مطيعون به ؟ ^(٤)
﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِشْرًا غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤) وأبو داود في السنن (١٥٣٢) . (٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) وأحمد في مسنده (٢٤/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) وأحمد في مسنده (٣٦٤/٦) والترمذي في السنن (٢١٩١) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١٢٤/١١) .

لَئِنْ أَنْبَأْتُمْ مِنْ بَيْنِائِي نَفْسِي أَنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ لَئِنْ خَافُ لَئِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْرٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

يخير تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش المجاحدين المعرضين عنه ، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له : ﴿ أَتَنْتِ بِشَرِّهِ غَيْرَ هَذَا ﴾ ، أي رد هذا وجننا بغيره من نخط آخر أو بدله إلى وضع آخر ، قال الله تعالى لنبية ﷺ : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ بَيْنِائِي نَفْسِي ﴾ أي ليس هذا إليّ ، إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله : ﴿ لَئِنْ أَنْبَأْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ لَئِنْ خَافُ لَئِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْرٍ عَظِيمٍ ﴾ ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ أي هذا إنما جئتمكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيتته وإرادته ، والدليل على أنني لست أتفوله من عندي ولا افتريته ؛ أنكم عاجزون عن معارضته ، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله ﷻ لا تنتقدون عليّ شيئاً تغمصوني به ، ولهذا قال : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال هرقل لأبي سفيان : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا ، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق والفضل ما شهدت به الأعداء ، فقال له هرقل : فقيّد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله . وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة : بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه الصلاة والسلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة ^(١) ، وعن سعيد بن المسيب ثلاثاً وأربعين سنة ، والصحيح المشهور الأول .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : لا أحد أظلم ولا أعنى ولا أشد إجحاماً ﴿ وَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ وتقول على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشبهه حال هذا بالأنبياء ، فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على براه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء ، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي . قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس فكننت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، قال : فكان أول ما سمعته يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَقْسُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا ؛ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ » ^(٢) . ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٧٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١٠٥) والترمذي في سننه (٢٤٨٥) وابن ماجه في سننه (١٣٣٤) .

بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له : من رفع هذه السماء ؟ قال : « الله » قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال : « الله » قال : ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : « الله » قال : فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض أالله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : « اللهم نعم » ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ، ويحلف له رسول الله ﷺ ، فقال له : صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص ^(١) . فاكفى هذا الرجل بمجرد هذا ، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه .

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة ، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة ، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة ، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة ، وكم من فرق بين قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ إلى آخرها . وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله قبحه الله : لقد أنعم الله على الحبلي ، إذا أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى . إلى غير ذلك من الخرافات والبهانيات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء ، ولهذا أرغم الله أنفه ، وشرب يوم الحديقة حتفه ، ومزق شمله ، ولعنه صحبه وأهله وقدموا على الصديق تائبين ، وجاءوا في دين الله راغبين ، فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله عليه ورضي عنه أن يقرأوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة لعنه الله فسألوه أن يعفيهم من ذلك ، فأبى عليهم إلا أن يقرأوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا قال لهم الصديق ﷺ : ويحكم أين كان يذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إل . وذكروا أن عمرو ابن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقا له في الجاهلية وكان عمرو لم يسلم بعد ، فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ - في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۝ كَفِيرٌ ۝ ﴾ إلى آخر السورة ، ففكر مسيلمة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل علي مثله ، فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر ، يا وبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حفر نقر ، كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب ، فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه ، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه ، فكيف بأولي البصائر والنهى ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۚ ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُنْجُونَ ۚ ﴾ وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ، وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما في الحديث : « أغتى الناس على الله رجل قتل نبيا أو قتله نبي » ^(٢) .

(١) أخرجه : أحمد في مسنده (٤٠٧/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٦/٨) .

(٢) أخرجه : أحمد في مسنده ٢٦٤/١ .

﴿ وَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَبْزُرُهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ١٨ ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله ، فأجبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئا ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ، ولا يكون هذا أبدا ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَمْلِكُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ وقال ابن جرير : معناه : أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض ؟ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس ، كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام . قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنناد والأوثان فبعث الله الرسل بآياته وبيّناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة : ﴿ لِيَهْدِيَكَ مِنْ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ رِجْلًا مِّنْ أُمَّةٍ مِّنْ قَبْلِهِمْ لَقَدْ جَاءَكَ يُنَبِّئُكَ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية ، أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود ، لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه ، فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِيَّ اللَّهُ فَأَنْتَظِرُونَ ﴾ ١٩ ﴿ أَي يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الْمَكِيدُونَ : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، يَعْنُونَ كَمَا أَعْطَى اللَّهُ نُمُودَ النَّاقَةِ ، أَوْ أَنْ يَحُولَ لَهُمُ الصِّفَا ذَهَبًا ، أَوْ يَزِيحَ عَنْهُمْ جِبَالُ مَكَّةَ وَيَجْعَلَ مَكَانَهَا بَسَاتِينَ وَأَنْهَارًا ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا اللَّهُ عَلَيْهِ قَادِرٌ ، وَلَكِنَّهُ حَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ الآية ، يقول تعالى : إن سستي في خلقي أني إذا أتيتهم ما سألو ، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة . ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألو فإن آمنوا وإلا عذبوا ، وبين إنظارهم اختار إنظارهم كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سأله : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِيَّ اللَّهُ ﴾ أي الأمر كله لله ، وهو يعلم العواقب في الأمور ﴿ فَأَنْتَظِرُونَ لِيَّ مَعَكُمْ مِنَ السَّاعَةِ ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله في فيكم ، هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألو حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق اثنتين ، فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه ، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألو وما لم يسألوا ، ولو علم منهم أنهم سألو ذلك استرشادا وتبنا لأجابه ، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعتنا فتركهم فيما رابهم ، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَانٍ فَلَسَوْهُ بِإِيدِيهِمْ لَقَالُوا لَئِنْ كُنَّا إِلاَّ سِحْرٌ مُّثْنٌ ﴾ فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألو ؛ لأنه لا فائدة من جوابهم ، لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم ولهذا قال : ﴿ فَأَنْتَظِرُونَ لِيَّ مَعَكُمْ مِنَ السَّاعَةِ ﴾ .

﴿ وَإِذَا أَدَّكَ النَّاسُ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَرَةٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا

تَمَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِيَمِ رِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ آمَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بَيَّأَتْهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا سَرَجَمَكُمْ فَفَتَنَّاكُمْ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ .

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجذب ، والمطر بعد القحط ، ونحو ذلك ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ قال مجاهد : استهزاء وتكذيب كقوله : ﴿ وَإِنَّا مِنَ الْإِنْسَنِ الْأَشَرِّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَالِمًا ﴾ الآية ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل - أي مطر - ثم قال : « هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنُورٍ كَذَا ؛ وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » ^(١) . وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَشْرَعُ مَكْرًا ﴾ أي أشد استدراجاً وإمهالاً ، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة ، ثم يؤخذ على غرة منه والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحسونه عليه ، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والنقيز والقطمير ، ثم أخبر تعالى أنه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِيَمِ رِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ أي بسرعة سيرهم رافقين ، فبينما هم كذلك إذ ﴿ جَاءَتْهَا ﴾ أي تلك السفن ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ أي شديدة ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي اغتلم البحر عليهم ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي هلكوا ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ آمَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ والابتهاال ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ آمَنَّا مِنْ هَذِهِ ﴾ أي هذه الحال ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي لا نشرك بك أحداً ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ ﴾ أي من تلك الورطة ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ . أي كأن لم يكن من ذلك شيء ، ثم قال تعالى : ﴿ بَيَّأَتْهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي إنما يدوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم ، كما جاء في الحديث : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْخِرُ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ » ^(٢) . وقوله : ﴿ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنية الحقيرة ﴿ ثُمَّ إِنَّنَا سَرَجَمَكُمْ ﴾ أي مصيركم ومآلكم ﴿ فَفَتَنَّاكُمْ ﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَاتَّخِطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا تِلْكَ أَوْ هَذَا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٥) وأحمد في مسنده (١١٧/٤) وأبو داود في السنن (٣٩٠٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٠٢) والترمذي في السنن (٢٥١١) والدارمي في السنن (٢٥٢) .

يَا أَيُّسَ كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ .
 ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذي أخرج الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من آبٍ وقضب وغير ذلك ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَثْبَذَتِ الْأَرْضُ ثَمَرَهَا ﴾ أي زيتها الغانية ﴿ وَارْتَبَتْ ﴾ أي حسنت بما خرج في رباهما من زهور نظرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿ وَظَلَّتْ أَهْلَهَا ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿ أَنْتُمْ قَدْ زُرْتُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي على جذاها وحصادها ، فينبأهم كذا ذلك إذ جاءت صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيسست أوراقها وأتلفت ثمارها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنْتُمْ أَهْلُهَا أَمْ تَنْتَ لَا أَوْ تَهَارًا فَمَعَلَنْتَهَا حَبِيدًا ﴾ أي يابسا بعد الخضرة والنضارة ﴿ كَانَ لَمْ تَنْتَ يَا أَيُّسَ ﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك . وقال قتادة : ﴿ كَانَ لَمْ تَنْتَ ﴾ كأن لم تنعم ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن . ولهذا جاء في الحديث : « يُؤْتَى بِأَنْتُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فَيُغَمَسُ فِي النَّارِ غَمَسَةً ، فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا فَيُغَمَسُ فِي النَّعِيمِ غَمَسَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا » ^(١) ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترابها بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها وتفلتها عنهم ، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ الآية . لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام ، أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا ، فَقَالَ : اسْمَعْ سَمِعْتُ أَذُنُكَ ، وَأَعْقِلْ عَقْلَ قَلْبِكَ ، إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا ، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا ، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً ، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ ، فَلِلَّهِ الْمُلْكُ ، وَالِدَارُ الْإِسْلَامُ ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الرَّسُولُ ، فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مِنْهَا » ^(٢) . وعن أبي الدرداء مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ إِلَّا وَبَيْنَ يَدَيْهَا مَلَكَانِ يُتَادِيَانِ يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ، إِنَّ مَا قُلْ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَاللَّهِ » قال : وأنزل في قوله : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ الآية ^(٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٣) وابن ماجه في سننه (٤٣٢١) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢٨٦٠) والحاكم في المستدرک (٣٩٣/٤) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٤٥/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٥٦/١٠) .

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .
 يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى في الدار الآخرة ،
 كقوله تعالى : ﴿مَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ وقوله : ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال
 بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضًا ، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان
 من القصور والخور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين ، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى
 وجهه الكريم ، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن
 اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى والضحاك والحسن وقتادة
 والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف ، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي
 ﷺ فمن ذلك ما روي عن صهيب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه تلا هذه الآية : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، نَادَىٰ مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ
 اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّضَ كُفُوهَ ، فَيَقُولُونَ : وَمَا هُوَ أَلَمْ يَنْقُلْ مَوَازِينَنَا ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا
 الْجَنَّةَ وَيُجْرِنَا مِنَ النَّارِ » - قَالَ : « فَيَكْشِفُ لَهُمُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْعًا
 أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقْرَبَ لَأَعْيُنِهِمْ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي قمام
 وسواد في عرصات المحشر ، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القفرة والغبرة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي
 هوان وصغار ، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر ، بل هم كما قال تعالى في
 حقهم : ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَعْرَةً وَرُودًا﴾ أي نضرة في وجوههم ، وسرورًا في قلوبهم ،
 جعلنا الله منهم بفضله ورحمته أمين .

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْسُلُهَا وَيَرْمُقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا
 مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك ، عطف بذكر
 حال الأشقياء ، فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك
 ﴿وَيَرْمُقُهُمْ﴾ أي تعريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال : ﴿وَيَرْهَقُهُمْ يُعْرَضُونَ
 عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِّنَ الذَّلِيلِ﴾ الآية ، وقوله : ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي مانع ولا واق يقيهم
 العذاب ، وقوله : ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية ، لإخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ
 يُعْبُدُونَ ﴿١٥﴾ فَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَفْلَةٍ ﴿١٦﴾ هَٰذَا لَكُم مَّا أَصْلَفْتُمْ وَرُدُّوا
 إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْرَأُونَ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر كقوله :
 ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ بِهِمْ لُحَاً﴾ ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية . أي الزموا أنتم وهم مكانًا معيّنًا امتازوا
 فيه عن مقام المؤمنين ، لقوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّقُونَ﴾ أي يصيرون صدعين ، وهذا يكون إذا جاء

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٣/٤) وابن ماجه في سننه (١٨٧) .

الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ولهذا قيل ذلك يستشفع المؤمنين إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا ، وفي الحديث الآخر : « نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كَوْمٍ فَوْقَ النَّاسِ » (١) وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة ﴿ مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَقْنَا بَيْنَهُمُ الْآيَةَ ، أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا عِبَادَتَهُمْ وَتَوَارَوْا مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِبَادَتِهِمْ ﴾ الآية ، وقوله في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم : ﴿ فَكَلَّمَ اللَّهُ شَيْدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية ، أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها ، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم ، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا منكم بذلك ، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفني عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده ، بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه ، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء ، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه أمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ناهياً عن عبادة ما سواه .

وقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْلُ التَّارِثُ ﴾ وقد قرأ بعضهم ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ (٢) وفسرها بعضهم بالقراءة ، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر ، وفسرها بعضهم بحديث « لَتَتَّبِعَنَّ كُلُّ أُمَّةٍ مَّا كَانَتْ تَعْبُدُ ، فَيَتَّبِعَنَّ مَنْ كَانَ يَتَّبِعُ الشُّعْسُ الشَّمْسُ ، وَيَتَّبِعَنَّ مَنْ كَانَ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ الْقَمَرُ ، وَيَتَّبِعَنَّ مَنْ كَانَ يَتَّبِعُ الطُّوَاعِغِ الطُّوَاعِغُ » (٣) الحديث ، وقوله : ﴿ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ ﴾ . أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكيم العدل ، ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي ذهب عن المشركين ﴿ مَّا كَانُوا يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ يَرْزُقُ الْغَنَى فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْدُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَتَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيتها وربوبيته على وحدانية إلهيته فقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيطته ، فيخرج منها حباً وعنباً وقضباناً وزيتوناً ونخلًا وحدائق غلباً وفاكهة وأباً ، إله مع الله ؟ فسيقولون : الله . وقوله : ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة ، والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٥/٣) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (هنالك تبتلوا) بتاءين والباقون بالتاء والباء (تقرب النشر في القراءات العشر ص ١٢٢) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

وقوله : ﴿وَمَنْ يُدْرِ الْأَمْرُ﴾ أي من يده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يبسأل عما يفعل وهم يسألون : ﴿يَسْأَلُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم . وقوله : ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الآية ، أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم والهمكم الحق ، الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فَنَادَا بَمَدِّ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي فكل معبود سواه باطل ، لا إله إلا هو واحد لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء ، والمتصرف في كل شيء . وقوله : ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ الآية ، أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده ، الذي بعث رسله بتوحيده ، فهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار .

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَجَّ آمَنَ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿وَمَا يُنَجَّ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق ، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلها بفناء ما فيهما ، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يهدي الحيارى والضلال ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو ﴿أَفَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَجَّ آمَنَ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ أي أفيستعبد العبد الذي يهدي إلى الحق ويصير بعد العمى ، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي لعماه وبكمه . وقوله تعالى : ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي فما بالكم أن يذهب بعقولكم ، كيف سويتم بين الله وبين خلقه ، وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ، وهلا أفردتم الرب جلَّ جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده ، ثم يئن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً ، وإنما هو ظن منهم أي توهم وتخيل ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم ووعيد شديد ؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْغَالِبِينَ﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَدَّبَهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِمْ وَلَكِنَّا إِنَّمَا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَوْتِي بِهِ وَمِنْهُمْ مَن لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ .

هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العزيرة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيئاً عليه ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل . وقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْغَالِبِينَ ﴾ أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً لا مرية فيه من الله رب العالمين . وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي إن ادعيتهم وافتريتهم وشككتم في أن هذا من عند الله ، وقتلتم كذباً : إن هذا من عند محمد ، فمحمد بشر مثلكم ، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله ، أي من جنس هذا القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، وهذا هو المقام الثالث في التحدي ؛ فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده . وليستعينوا بمن شاءوا ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَحْتَمَتِ إِلَٰهِي وَالْحِجُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وهذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته ، فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً ، كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من الله ، وأن هذا لا يستطيع لبشر إلا بإذن الله . وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى ، فكان يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله . ولهذا جاء في الحديث عن رسول الله عليه السلام أنه قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ آتَتْهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَخِيَا أَوْخَاهُ اللَّهُ إِلَهِي ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا » ^(١) .

وقوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِغَيْبِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ يقول : بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم السالفة ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم . وقوله : ﴿ وَهُمْ مَنْ يُؤْتِنُ بِهِ ﴾ الآية ، أي ومن

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٢٧٢٤) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

هؤلاء الذين بعث إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به ﴿ وَنَهْنَم مِّنْ لَاَ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿ وَذَلِكَ أَكْثَرُ بِالْمُتَسِدِّينَ ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ؟ ومن يستحق الضلالة فيضلّه ، وهو العادل الذي لا يجوز ، بل يعطي كلّ ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو .

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وَنَهْنَم مِّنْ يَسْتَعِينُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَشِيعُ الْقَسَمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَقُولُونَ ﴿ وَنَهْنَم مِّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

يقول تعالى لبيته محمد ﷺ : وإن كذبك هؤلاء المشركون كثيراً منهم ومن عملهم ﴿ قُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ كقوله تعالى ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿ وقوله : ﴿ وَنَهْنَم مِّنْ يَسْتَعِينُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم ، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم وهو الأطرش ، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله ﴿ وَنَهْنَم مِّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهي ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوفاق ، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً ، وإن كان قد هدى به من هدى ، وبصر به من العمى ، وفتح به أعينا عمياً ، وآذانا صماء ، وقلوباً غلفاً ، وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وعن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ : « يَا عِبَادِي إِنِّي خَوَّضْتُ الظُّلُمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُ يَتِّكُمُ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا » إلى أن قال في آخره : « يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » .

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ عَنْهُمْ رُوْحُهُمْ كَأَن لُّرَّ يَبْسُوتُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة ، وحشرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ عَنْهُمْ رُوْحُهُمْ ﴾ الآية . كقوله : ﴿ كَانَتْ يَوْمَ يَرْوَنَ مَا يُوعَدُونَ لَرَّ يَبْسُوتُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ نَّهَارٍ ﴾ وهذا دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة ، كقوله : ﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا الْعَالَمِينَ ﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ وقوله : ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يعرف الأبناء الآباء ، والقربات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي السُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ كقوله تعالى ﴿ وَرَبِّكَ يُؤْمِنُ بِالْمُكَذِّبِينَ ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) وأحمد في مسنده (١٦٠/٥) .

الخسران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة .

﴿ وَإِنَّا نُرِيتُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّمْ أَوْ نَنْفُتُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ٥٥ ﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ فُتِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ : ﴿ وَإِنَّا نُرِيتُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُّمْ ﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿ أَوْ نَنْفُتُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم ، والله شهيد على أفعالهم بعدك . وعن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال : « عَرَضْتُ عَلَىٰ أُمِّي الْبَارِحَةَ لَدَىٰ هَذِهِ الْحَجَرَةِ أَوَّلَهَا وَآخِرُهَا » . فقال رجل : يا رسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق ؟ فقال : « صُورُوا لِي فِي الطِّينِ حَتَّىٰ إِنِّي لَأَعْرِفُ بِالْإِنْسَانِ مِنْهُمْ ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِصَاحِبِهِ » (١) . وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ قال مجاهد : يعني يوم القيامة ﴿ فُتِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ الآية ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ الآية ، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً ، أمة بعد أمة ، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق ، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة ، يفصل بينهم ويقضى لهم ، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمُقْضِي لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ » (٢) فأتمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٥٦ ﴾ قُلْ لَا أَتْلُوهُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ٥٧ ﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ اتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَادًّا يَسْتَعْمِلُونَهُ الْمُتَعَمِّرُونَ ٥٨ ﴾ أَنَّهُ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْسَنُكُمْ بِهِ ءَأَلْتُمْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْمِلُونَ ٥٩ ﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُعْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب ، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين ، مما لا فائدة لهم فيه كقوله : ﴿ يَسْتَعْمِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا لَحَقٌّ ﴾ أي كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عينا ، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال : ﴿ قُلْ لَا أَتْلُوهُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ الآية ، أي لا أقول إلا ما علمني ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه ، فأنا عبده ورسوله إليكم ، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة ، ولم يطلعني على وقتها ولكن ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة ، فإذا انقضى أجلهم : ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴾ الآية ، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ اتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا ﴾ أي ليلاً أو نهاراً ﴿ مَادًّا يَسْتَعْمِلُونَهُ الْمُتَعَمِّرُونَ ﴾ أَنَّهُ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْسَنُكُمْ بِهِ ءَأَلْتُمْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْمِلُونَ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ الآية ، ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبيكتنا وتقريفاً .

﴿ وَيَسْتَنْفِثُوكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَشَدُّ بِمُحْمَدٍ ٦٠ ﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ

(١) أخرجه : الطبراني في الكبير ١٨١/٣ ، والهيتمي في مجمع الزوائد ٦٩/١٠ .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (١٩) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٧١/٣) .

لَأَقْدَتَ بِهِ. وَأَسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِنَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ .

يقول تعالى : ويستخبرونك ﴿ أَحَقُّ هُوَ ﴾ أي المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابا ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَشَدُّ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي ليس صيورتكم ترابا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وفي التغابن : ﴿ زَمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو اقتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿ وَأَسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِنَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالحق ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

﴿ أَلَا إِنَّ إِلَهَنَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٤﴾ .
يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ذلك ، العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .
﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشَقَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٥﴾ .

يقول تعالى ممثلاً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي زاجر عن الفواحش ﴿ وَشَقَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا ؛ فإنه أولى ما يفرحون به ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ آذَنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا مَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفَكَّرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .
قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ يَمِينًا ذَرْأًا مِنَ الْحَرْبِ وَالْأَنْكَمِ تَصِيْبًا ﴾ الآيات . وعن عوف بن مالك بن فضلة يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال : « هَلْ لَكَ مَالٌ ؟ » « قُلْتُ نَعَمْ . قَالَ : « مِنْ أَيْ مَالٍ ؟ » « قَالَ : قُلْتُ : مِنْ كُلِّ الْمَالِ ، مِنَ الْإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالْخَيْلِ وَالْغَنَمِ فَقَالَ : « إِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيَرْ عَالِيكَ » وقال : « هَلْ تُنْتِجُ إِبِلَكَ صَحَاحًا أَذَانَهَا فَتَغْعَمُدُ إِلَيَّ مُوسَى فَتَقْطَعُ أَذَانَهَا فَتَقُولُ : هَذِهِ بَحْرٌ ، وَتَشْقُ جُلُوهَا وَتَقُولُ : هَذِهِ صُرْمٌ ، وَتَحْمُزُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ » . قال : نعم ، قال : « فَإِنْ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ جِلٌّ ، سَاعِدُ اللَّهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ ، وَمُوسَى اللَّهُ أَحَدٌ مِنْ مُوسَاكَ » .

وذكر تمام الحديث ^(١) ، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ : أي ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ قال ابن جرير : في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا . قلت : ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم بما خلقه من المنافع في الدنيا ، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ، ويسيئون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً . وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ فِيهِ وَمَا يَمُرُّ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ . يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة ، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك أكبر إلا في كتاب مبين كقوله : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَمَا تَشْعُقُ مِنْ رَحْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات ، وكذلك الدواب السارحة في قوله : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ الآية ، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء ، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْمُرْسِيْنَ الرَّحِيمِ ﴾ الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ ﴿ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ ﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء ، نحن مشاهدون لكم راعون سامعون ، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان : « أَنْ تَقْبَلَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ^(٢) .

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى أن أوليائه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم بهم ، فكل من كان تقياً كان لله ولياً ف ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما وراءهم في الدنيا . وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف : أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكروا الله ، وقد ورد هذا في حديث مرفوع عن ابن عباس قال : قال رجل : يا رسول الله من أولياء الله ؟ قال : « الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ » ^(٣) وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٣/٣) والطبراني في المعجم الكبير (٢٧٧/١٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (١ ، ٥) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢١٨) والالباني في الصحيحة (١٧٣٣) والهيتمي في مجمع الزوائد ٧٨/١٠ .

عِبَادًا يَنْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ . قيل : من هم يا رسول الله لعلنا نحبههم ؟ قال : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ وَلَا أَنْسَابٍ ، وَجُوهُهُمْ نُورٌ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ » ثم قرأ : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلَىٰ آلَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ^(١) .

عن أبي الدرداء في قوله : ﴿ لَهُمُ الْبُتْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ قال : سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدا سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ فقال : « هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ أَوْ تَرَىٰ لَهُ ، بُشْرَاهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَبُشْرَاهُ فِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ » ^(٢) . وعن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله : الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ، ويشنون عليه به ، فقال رسول الله ﷺ : « تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ » ^(٣) . وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَهُمُ الْبُتْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فقال : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يُبَشِّرُهَا الْمُؤْمِنُ جِزْءًا مِنْ تِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ جِزْءًا مِنَ النَّبِوةِ ، فَمَنْ رَأَى ذَٰلِكَ فَلْيُخْبِرْ بِهَا ، وَمَنْ رَأَى سِوَى ذَٰلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيُخْرِئَهُ ، فَلْيَنْتَفُتْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَكْبِرْ ، وَلَا يُخْبِرْ بِهَا أَحَدًا » ^(٤) .

وقيل : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ وفي حديث البراء رضي الله عنه : أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان ، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء ^(٥) . وأما بشرائهم في الآخرة فكما قال تعالى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ لَا نَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْآيَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(٦) أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ^(٧) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ ﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه ، فإن العزة لله جميعا أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بأحوالهم ، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض ، وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئا لا ضرا ولا نفعا ، ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخريصهم وكذبهم وإفكهم ، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحرركاتهم ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيقا لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٩٠) وأحمد في مسنده (٢٢٩/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٢/٦) والحاكم في المستدرک (٣٤٠/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦٦) وأحمد في مسنده (١٥٦/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٩/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥/٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) .

ومصلحهم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها .

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْفَرِيُّ لِمَ مَلِيفٌ لِّلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنِّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرًا إِنَّمَا مَرَجَعُهُمْ ثُمَّ يَنفِخُهُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على من ادعى أن له ﴿ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْفَرِيُّ ﴾ أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه ﴿ لِمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له ، عبد له ﴿ إِنِّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا ﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إنكار ووعد أكيد ، وتهديد شديد . ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولدا بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة ، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلا ﴿ ثُمَّ نَضَعُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ كما قال تعالى ههنا ﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي مدة قريبة ﴿ ثُمَّ إِنَّمَا مَرَجَعُهُمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَنفِخُهُمُ الْعَذَابُ الشَّدِيدَ ﴾ أي الموجه المؤلم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم وافرائهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الإفك والزور .

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَارًا تُوقِئُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّقُوا إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ فَتَنَاجَوْا بَيْنَكُمْ أَمْ تُنَادُونَ إِلَّآ عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فكذبوه فنجيته ومن معي في الفلك وبجملته خلت ﴿ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي أخبرهم واقصص عليهم ، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿ نَارًا تُوقِئُ ﴾ أي خبره مع قومه الذين كذبوه ، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالفرق أجمعين عن آخرهم ، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّقُوا إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي عظم عليكم ﴿ فَتَنَاجَوْا بَيْنَكُمْ أَمْ تُنَادُونَ إِلَّآ عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْثَلَكُمْ عَلَيْهِمْ غَنَّةٌ ﴾ أي ولا تجمعوا أمركم عليكم ملتبسا ، بل افصلوا حالكم معي ، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلي ﴿ وَلَا تُظْهِرُوا ﴾ أي ولا تؤخروني ساعة واحدة ، أي مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم ؛ لأنكم لستم على شيء .

وقوله ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ ﴾ أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئا ﴿ إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي وأنا ممثل ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم

وتعددت مناهلهم كما قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَمَلًا مِّنكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ ﴾ قال ابن عباس : سبيلاً وسنة ، فهذا نوح يقول ﴿ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ رَبِّيَ الْعَلَمِينَ ﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الَّذِينَ فَلَا تُشْرِكُونَ إِلَّا وَأَشْرَ مُسْلِئُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورًا يُخَيِّمُ بِهَا الْيَتِيمُونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ بُرِئْتُ مِنْكُمْ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي من هذه الأمة ، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه : « نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَوْلَادُ عِلَاقٍ وَدِينُنَا وَاحِدٌ » ^(١) أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت شرائعنا ، وذلك معنى قوله علقات وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد . وقوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ مِمَّنْ مَعَهُ ﴾ أي على دينه ﴿ فِي الْفُلْكِ ﴾ وهي السفينة ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ أي في الأرض ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ أي يا محمد كيف أنجيناه المؤمنين وأهلكنا المكذبين .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْغَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ من بعد نوح ﴿ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءهم به ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم لإياهم أول ما أرسلوا إليهم كقوله تعالى : ﴿ وَتَقَلُّبُ آبَدَتِهِمْ وَأَبْصَرَتِهِمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ كَذَلِكَ نَطْغَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل ، وأنجى من آمن بهم ، وذلك من بعد نوح ﷺ ، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم ﷺ في الإسلام ، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحاً ﷺ ، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة : أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . وقال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، وقال الله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ . الآية ، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيّد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين ، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال ، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك ؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّثِينٌ ﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ سِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِدُونَ ﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْبَالَةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ من بعد تلك الرسل ﴿ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي قومه ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أي حججنا وبراهيننا ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٤٣) وأبو داود في السنن (٤٦٧٥) بنحوه .

والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْئٌ ﴾ كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسَى ﴾ منكرًا عليهم ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْقِنَا أَيْ تَنْثِنَا ﴾ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴿ أَيِ الدِّينِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ ﴾ وَتَكُونُ لَكُمْ ﴿ أَيِ لَكَ وَلِهَارُونَ ﴾ الْكَزِبِ ﴿ أَيِ الْعِظْمَةِ وَالرِّيَاسَةِ ﴾ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ .

وكثيرًا ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز ؛ لأنها من أعجب القصص ، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر ، فسخره القدر أن رآه هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ، ثم ترعرع وعقد الله له سببًا : أخرجه من بين أظهرهم ، وورقه النبوة والرسالة والتكليم ، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليُعبدَه ويرجع إليه ، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان ، فجاءه برسالة الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام ، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية ، والنفس الخبيثة الأبية ، وقوي رأسه وتولى بركنه ، وادعى ما ليس له وتجهرم على الله وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل ، والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ، ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام ، ولم تزل الحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئًا بعد شيء .، ومرة بعد مرة ، مما يبهز العقول ، ويدهش الألباب ، مما لا يقوم له شيء ، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْثَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا ﴾ وصمم فرعون وملؤه قبحهم الله على التكذيب . بذلك كله ، والجحد والعناد والمكابرة ، حتى أحل بهم بأسه الذي لا يرد ، وأغرقهم في صيحة واحدة أجمعين ﴿ فَتَقَطَّعَ دَلِيلُ الْقَوْرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ رَيبٌ أَلَمَّا يَنْزِلُ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لَهْرُ مُوسَى أَلْقَا مَا أَنتَ مُلْقٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا مُوسَى مَا جِئْتَهُ بِالسَّحْرِ إِلَّا أَنْ سَيْطَانُكَ إِنَّ اللَّهَ سَبَّطَلَهُ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكْذِبُونَ ﴾ وَكَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هنالك وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء ، وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يهرج على الناس ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين ، يزخارف السحرة والمشعبدن ، فانعكس عليه النظام ، ولم يحصل له ذلك المرام ، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك الحفل العام : ﴿ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴾ ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار ، على رسول عالم الأسرار ، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لَهْرُ مُوسَى أَلْقَا مَا أَنتَ مُلْقٍ ﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿ قَالُوا يَمْشِي إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَهَبًا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقَا ﴾ فأراد موسى أن تكون البداية منهم ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم ، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ؛ فعند ذلك قال موسى لما ألقوا : ﴿ مَا جِئْتُمْ بِشَيْءٍ كَالَّذِي سَخَّرَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ لِقَوْمٍ أُخِلَّتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَلَهُمْ آيَاتُ الْآخِرَةِ وَلَهُمْ آيَاتُ الْآخِرَةِ وَلَهُمْ آيَاتُ الْآخِرَةِ ﴾ .

يَدِ السِّحْرِ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَيُخَيِّئُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٤﴾ وعن ليث وهو ابن أبي سليم قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر إذا قرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور ، الآية التي من سورة يونس : ﴿ فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا مَوْسَى مَا جِئْتَهُ بِدَلِيلٍ ﴾ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ وَيُخَيِّئُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٦﴾ .
﴿ فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَى إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب ، على وجل وخوف منه ومن ملته أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ؛ لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعنوة ، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفاً شديداً . قال ابن عباس : ﴿ فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَى إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ قال : فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير ، منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه . وروى عن ابن عباس في قوله ﴿ فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَى إِذْ ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ ﴾ يقول : من بني إسرائيل ، وعن ابن عباس والضحاك وقتادة الذرية القليل ، وقال مجاهد قال : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم ، واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكرين ، وفي هذا نظر لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب ، وأنهم من بني إسرائيل ، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به ، وقد كانوا يعرفون نعتة وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة ، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئاً ، ولما جاء موسى أذاهم فرعون أشد الأذى و ﴿ قَالُوا أَوْدَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَعَنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَذَابُكُمْ وَنَسْتَنْظِرَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ أي وأشرف قومهم أن يفتنهم ، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون ، فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم ، لكنه كان طاوياً إلى فرعون متصلاً به متعلقاً بحباله ، ومن قال : إن الضمير في قوله : ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه ، أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد ، وإن كان ابن جرير قد حكاها عن بعض النحاة . ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٨﴾ وَخَيَّجْنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْرِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل : ﴿ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴾ أي فإن الله كاف من توكل عليه ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ وكثيراً ما يقرن الله

تعالى بين العباداة والتوكل كقوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿ إِنَّا كَ نَعْبُدُ وَإِنَّا كَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقد امثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا تظهرهم بنا وتسلبهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على باطل فيفتنوا بذلك ، وعن مجاهد ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ لا تسلبهم علينا فيفتنوا . وقوله : ﴿ وَهَيَّا بِرَحْمَتِكَ ﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي الذين كفروا الحق وسثروه ، ونحن قد آمانا بك وتوكلنا عليك .

﴿ وَارْحَبْنَا إِلَىٰ مَوْسَىٰ وَأَنبِئْهُ أَن نَّبُوءَا لِّقَوْمِكَ يَبْصُرُ بِنُوءَانَا وَاجْعَلُوا يَوْمَكُمْ فِتْنَةً ﴾ وأقيموا الصَّلَاةُ وَابْتَغُوا الْفُتُورَ يَذْكُرُ تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون ﴿ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ أن يتبوأ أي يتخذوا لقومهما بمصر بيوتا ، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلُوا يَوْمَكُمْ فِتْنَةً ﴾ فقال ابن عباس : أمروا أن يتخذوها مساجد ، وعن إبراهيم قال : كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، وكأن هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيئوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿ وَاجْعَلُوا يَوْمَكُمْ فِتْنَةً ﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةُ وَابْتَغُوا الْفُتُورَ أي بالثواب والنصر القريب ، وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية : قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ : لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة ، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم ، أمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة ، وقال مجاهد ﴿ وَاجْعَلُوا يَوْمَكُمْ فِتْنَةً ﴾ : لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة ، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلية الكعبة يصلون فيها سرا ، وكذا قال قتادة والضحاك ، وقال سعيد بن جبیر ﴿ وَاجْعَلُوا يَوْمَكُمْ فِتْنَةً ﴾ أي يقابل بعضها بعضا .

﴿ وَقَالَ مَوْسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ مَآبَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَن أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى ﴿ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق ، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلما وعلوا وتكبرا وعتوا ، قال موسى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَآبَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً ﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿ وَأَمْوَالًا ﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿ فِي ﴾ هذه ﴿ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلُّوا عَن سَبِيلِكَ ﴾ بفتح الباء أي أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم ، استدراجا منك لهم كقوله تعالى : ﴿ لَتَنِيذِرُهُمْ فِيهِ ﴾ وقرأ آخرون : ﴿ لِيُصَلُّوا ﴾ بضم الباء (١) أي ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَن أَمْوَالِهِمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها ، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس : جعلها الله حجارة منقوشة كهيفة ما كانت ، وقوله : ﴿ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أي اطبع عليها ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى ﴿ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء ، ولهذا

(١) قرأ الكوفيون ﴿ لِيُصَلُّوا ﴾ بضم الباء ، والباقون بفتحها (حجة القراءات ص ٢٣٧) .

استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أثن عليها أخوه هارون فقال تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ ، قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس : دعا موسى وأثن هارون أي قد أجابكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون ، وقد يحتج بهذه الآية من يقول : إن تأمين المأموم على قراءة فاتحة ينزل منزلة قراءتها ؛ لأن موسى دعا وهارون أثن ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ الآية ، أي كما أجيب دعوتكما فاستقيما على أمري ، قال ابن عباس : ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ فامضيا لأمرى وهي الاستقامة ، قال ابن جريج : يقولون : إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة ، وقال محمد بن كعب وعلي بن الحسين : أربعين يوما .

﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْنَاهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُمْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ٩٠ ءَأَلَفْنِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٩١ قَالُوا نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَعَفِيلُونَ ٩٢ .

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده ، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام ، وهم فيما قيل : ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية ، وقد كانوا استعاروا من القبط حليًا كثيرًا فخرجوا به معهم ، فاشتد حق فرعون عليهم ، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه ، فركب ورائهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم ، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته ، فلحقهم وقت شروق الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَنَذْكُرَنَّ ﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون ورائهم ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان ، وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه ؟ فيقول : إني أمرت أن أسلك ههنا ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع ، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم ، أي كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقًا ، لكل سبط واحد ، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿ فَانْشَرَبَ لَمْ يَرَوْا فِي الْبَحْرِ سَبَبًا لَا يَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخَافُ ﴾ وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا . وجاوزت بنو إسرائيل البحر ، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى ، وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع ، وهيئات ولات حين مناص ، نفذ القدر . واستجيب الدعوة ، وجاء جبريل عليه الصلاة والسلام على فرس وديق حائل ، فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها ، واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان ورائه ، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئًا ، فتجلد لأمرائه وقال لهم : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم ، وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحدًا إلا ألحقه بهم ، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهم أولهم بالخروج منه ، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك : ﴿ ءَأَمَنْتُمْ لِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُمْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ؛ ولهذا قال الله تعالى في

جواب فرعون حين قال ما قال : ﴿ مَا لَكِنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ أي أهدأ الوقت تقول ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴾ أي في الأرض الذين أضلوا الناس .

وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ ولهذا قد روي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ - قَالَ - قَالَ لِي جِبْرِيلُ : لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ خَالِ الْبَحْرِ فَدَسَسْتُهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّخْمَةُ » (١) .

وقوله : ﴿ قَالِ يَوْمَ تَنْتَجِبُ يَدَيْكَ لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف : إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون ، فأمر الله تعالى البحر أن يلقى به جسده سوياً بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض ، وهو المكان المرتفع ليحققوا موته وهلاكه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قَالِ يَوْمَ تَنْتَجِبُ ﴾ أي ترفعلك على نشز من الأرض ﴿ يَدَيْكَ ﴾ قال مجاهد : بجسدك ، وقال الحسن : بجسم لا روح فيه ، وقال عبد الله بن شداد : سوياً صحيحاً ، أي لم يتمزق ليحققوه ، ويعرفوه ، وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك ، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم : ﴿ لِيَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها ، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما روي عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : « مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ ؟ » فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي ﷺ لأصحابه : « أَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ » (٢) .

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِمَّنْ أَلْطَيْتُمْ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ لِمَنِ كَانَ يَنْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

يخير تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية ، وقوله : ﴿ مَبْوَءَ صِدْقٍ ﴾ قيل : هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه ، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْزَنَّا الْفُلْكَمُ الْفُلْكَمُ كَانُوا يُسْتَعْمَلُونَ مَسْجِدَ آدَمَ وَنَعْبُوكَهَا أَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكُنْتَ لَكِنَّ رَبِّكَ الْخَشِيُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَّا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ولكن استمروا مع موسى ﷺ طالعين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل ﷺ ، فاستمر موسى بن معه طالبا بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالة ، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ، ومات فيه هارون ثم موسى ﷺ ، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس ، واستقرت أيديهم عليها ، إلى أن أخذها منهم باختصر حيناً من الدهر ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك اليونان فكانت أحكامهم مدة طويلة ، وبعث الله عيسى ابن مريم ﷺ في تلك المدة فاستعانت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٩/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٥٤٤٠) ومسلم في الصيام (١٢٨) وأحمد في مسنده (٢٩١/١) .

اليهود قبحهم الله على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ، ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا ، فبعثوا من يقبض عليه فرفعه الله إليه وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره ، فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۖ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ ﴾ ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية ، وكان فيلسوفًا قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل : تقية وقيل : حيلة ، ليفسده ، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة بدعوها وأحدثوها ، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار والصوامع والهياكل والمعابد والقلايات ، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ، ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان ، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم ، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران كبصرى وغيرها من البلدان بنايات هائلة محكمة ، وعبدوا الصليب من حيثئذ ، وصلوا إلى الشرق وصوروا الكنائس ، وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ، ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة ، وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول . والغرض أن يدهم لم تنزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم ، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مِنْ الْغَيْبِ ۖ ﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعًا وشرعًا .
وقوله : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۖ ﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم ، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس ، وقد ورد في الحديث : « إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، منها واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار . قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » ^(١) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ أي يفصل بينهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ ﴾ .

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا نَزَّلْنَا إِلَيْكَ فَتَنِلِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَةِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَنْ عِلْمِهِمْ كُلِّمَتْ رَبُّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ هَاتِيئًا هَاتِيئًا سَرَّحْنَاهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ذُعُرُوا لَهُمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيَقُولُنَّ سَحَابٌ مُمطرٌ ۝ ﴾

قال قتادة بن دعامه : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَا أَشْكُ وَلَا أَشَأَلُ » ^(٢) . وكذلك قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري ، وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم صلى الله عليه وسلم موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ۖ ﴾ الآية ، مع هذا العلم الذي يعرفونه من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٣) والحاكم في المستدرک (١٢٨/١) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠٢١١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣١٧/٣) .

كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويدلون به ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝ أَي لَا يُؤْمِنُونَ إِمَانًا يَنْفَعُهُمْ بَلْ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْشِرُونَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝ .

يقول تعالى : فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل ، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم ، كقوله تعالى : ﴿ يَحْزَنُونَ عَلَىٰ آلِهِمَا وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وفي الحديث : « عَرَضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمْزُ وَمَعَهُ الْفِقَامُ مِنَ النَّاسِ ، وَالنَّبِيُّ يَمْزُ مَعَهُ الرَّجُلُ ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ »^(١) ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ، ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه ، كثرة مدت الخافقين الشرقي والغربي . والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم مما سلف من القرى ، إلا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا تخوفا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه .

وخرج رسولهم من بين أظهرهم ، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا ، كما قال تعالى : ﴿ إِلَّا قَوْمٌ يُؤْشِرُونَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي ، أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين : أحدهما : إنما كان ذلك في الحياة كما هو مقيد في هذه الآية .

والثاني : فيهما كقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي ، وهذا هو الظاهر ، والله أعلم .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ تُخَلِّفُونَ ۝ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُو وَنَمَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأُمَّلَانٍ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ أي تلزمهم وتلجهم ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي حجج الله وأدلتها ، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى ، وإضلال من ضل .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤١/١٨) .

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٠١ ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ١٠٢ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الأبواب ، مما في السموات من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما ، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها ، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذراً فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع ، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب ، وما في البحر من العجائب والأمواج ، يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه . وقوله : ﴿ وَمَا تُنْفِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية ، والرسائل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون . وقوله : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم ﴿ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ ١٠٢ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي ونهلك المكذبين بالرسول ﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٠٣ ﴿ حَقًّا أَوْجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وكما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أي أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي » (١) .

﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْنَاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٠٤ ﴿ وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٠٥ ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ ١٠٦ ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِلَهِ يَرْدُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْنَاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي ﴾ من صحة ما جئكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إلي ، فأن لا ﴿ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو ﴿ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً فأن لا أعبدها ، فادعوها فلتنصروني فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَنْ أَقْرَبَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ الآية ، أي أخلص العبادة لله وحده حنيفاً ، أي منحرفاً عن الشرك ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهو معطوف على قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ الآية ، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده ، لا يشاركه في ذلك أحد ، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٥٤) وأحمد في مسنده (٢٧٤/٤) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْمَقْشُورُ الرَّجِيدُ ﴾ أي لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان ، حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه .

﴿ قُلْ يَتَّابِعِهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك ، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ، ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى .

وقوله : ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ ﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كُنْتُ أَكُنْتُ مَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّنِي لَكُم مِّنْ نَّبِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَإِنْ أَسْتَعِزُّوا رَبَّهُمْ ثُمَّ ثَوَّبُوا إِلَيْهِ يَتَّبِعُهُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ .

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق ، وأما قوله : ﴿أَكُنْتُ مَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ فَضَّلْتُ﴾ أي هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها ، فهو كامل صورة ومعنى . وقوله : ﴿مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه ، خبير بعواقب الأمور : ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ، وقوله : ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْ نَّبِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تُصَبِّحُكُمْ ، أَلَسْتُمْ مُصَدِّقِي ؟ » فقالوا : ما جربنا عليك كذبا قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ يَدِي عَذَابٍ شَدِيدٍ » ^(١) وقوله : ﴿وَإِنْ أَسْتَعِزُّوا رَبَّهُمْ ثُمَّ ثَوَّبُوا إِلَيْهِ يَتَّبِعُهُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله ﷻ فيما تستقبلونه ، وأن تستمعروا على ذلك : ﴿يَتَّبِعُهُمْ مِّنَّا حَسَنًا﴾ أي في الدنيا : ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ . أي في الدار الآخرة ، قاله قتادة . وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجُورَتْ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ » ^(٢) وعن ابن مسعود ؓ في قوله : ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت عليه عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده على أعشاره . وقوله : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسله ، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب . ﴿أَلَّا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّ يُسْخَرُونَ مِنْهُم مَّا يُبْذَرُونَ وَمَا يُعْلَنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يُدَاتُ السُّدُورُ﴾ .

قال ابن عباس : كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم ، فأنزل الله هذه

(١) أخرجه البخاري بنحوه في تفسير القرآن (٤٩٧١) والترمذي في سننه (٣٣٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٦٨/٦) .

الآية ، وعن عباد بن جعفر : أن ابن عباس قرأ : (**أَلَا إِنَّهُمْ تَشْنُونِي صُدُورُهُمْ**) الآية فقلت : يا أبا العباس ما تشنوني صدورهم ؟ ^(١) قال : الرجل كان يجمع امرأته فيستحي ، أو يتخلى فيستحي فنزلت : (**أَلَا إِنَّهُمْ تَشْنُونِي صُدُورُهُمْ**) وفي لفظ آخر له قال ابن عباس : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجمعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم ، وعن عمرو قال : قرأ ابن عباس : (**أَلَا إِنَّهُمْ تَشْنُونِي لِيَسْتَفْخُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَفْخُونَ يَأْكُمُهُمْ**) قال ابن عباس ﴿ **يَسْتَفْخُونَ** ﴾ : يغطون رعوسهم ، وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية : يعني به الشك في الله وعمل السيئات ، أي أنهم يشنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿ **يَقْلَمُ مَا يُشْرُونَ** ﴾ من القول ﴿ **وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الْأَشْدَرِ** ﴾ أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر .

﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** ﴾ .

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها ، بحريها وبريها ، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها ، أي يعلم أين تنتهي سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها . وقال ابن عباس ﴿ **وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا** ﴾ أي حيث تأوي ﴿ **وَمُسْتَوْدَعُهَا** ﴾ حيث تموت . وعن مجاهد : ﴿ **مُسْتَقَرَّهَا** ﴾ في الرحم ﴿ **وَمُسْتَوْدَعُهَا** ﴾ في الصلب ، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك ، كقوله : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أَشْأَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَعْوَةٍ إِنَّكَ لَیَّهِمْ بِشُرُوتٌ** ﴾ .

﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ . ^(٢) **وَلَكِنْ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَدَلِ الْأَمْوَاتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** ^(٣) **وَلَكِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَآ أَنَّهُمْ مَعْدُودُونَ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك ، كما روي عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ** » وقال : « **يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يُغِيضُهَا نَفَقَةً ، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** » . وقال : « **أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُغَضِّ مَا فِي يَمِينِهِ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَيَبِيدُهُ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ** » ^(٢) .

وعن لقيط بن عامر بن المنفق العقبلي قال : قلت : يا رسول الله : أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « **كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ ، ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ بَعْدَ ذَلِكَ** » ^(٣) . وقال مجاهد : ﴿ **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** ﴾ قبل أن يخلق شيئاً ، وقال قتادة ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض ، وقال الربيع بن أنس : فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٢) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١١) والهندي في كنز العمال (١٦٣١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١/٤) والترمذي في سننه (٣١٠٩) وابن ماجه في سننه (٨٨٢) .

قسمين ، فجعل نصفًا تحت العرش وهو البحر المسجور . وقال ابن عباس : إنما سمي العرش عرشًا لارتفاعه ، وقال إسماعيل بن أبي خالد : سمعت سعدًا الطائي يقول : العرش ياقوته حمراء .

وقوله تعالى : ﴿ يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين يحلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، ولم يخلق ذلك عبثًا كقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكبير .

وقوله : ﴿ يَبْلُوكُمْ ﴾ أي ليختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ولم يقل أكثر عملًا ، بل أحسن عملًا ، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله تعالى على شريعة رسول الله ﷺ ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حبط وبطل . وقوله : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَدَأِ السُّمُوتِ ﴾ الآية ، يقول تعالى : ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة ، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴾ وقولهم : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي يقولون كفرًا وعنادًا : ما نصدقك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول .

وقوله : ﴿ وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ الآية ، يقول تعالى : ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذه عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولوا تكذبت واستعجالًا ما يحبس أي يؤخر هذا العذاب عنا ، فإن سجايهم قد ألقت التكذيب والشك ، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد ، والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة ، فإيرادها الأمد كقوله في هذه الآية : ﴿ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ وقوله في يوسف ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وتستعمل في الملة والدين كقوله لإخبارًا عن المشركين إنهم قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى بَاطِلٍ مُتَقَدِّمُونَ ﴾ . وتستعمل في الجماعة كقوله : ﴿ وَلَمَّا وَدَّعْنَا مَذْيَبَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ . والمراد من الأمة ههنا : الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » (١) . وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسول كما قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

﴿ وَلَئِن أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ يَكْفُرُ ۖ وَلَئِن أَدْقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأَةٍ مَسْتَهْةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ إلا الذين صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأْس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل ، وكفر وجحود لماضي الحال ، كأنه لم ير خيرًا ولم يرج بعد ذلك فرجًا ، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نعمة ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ

السَّيِّئَاتِ عَنِّي ﴿١﴾ أي يقول : ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿٢﴾ إِنَّهُمْ لَنَجِحُ فَنُحُورُ ﴿٣﴾ أي فرح بما في يده ، بطر فخور على غيره ، قال الله تعالى ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَرَوْا ﴿٥﴾ أي على الشدائد والمكاره ﴿٦﴾ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٧﴾ أي في الرخاء والعافية ﴿٨﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴿٩﴾ أي بما يصيبهم من الضراء ﴿١٠﴾ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء ، كما جاء في الحديث : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ وَلَا نَصَبٌ وَلَا وَصَبٌ وَلَا حُزْنٌ حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا ؛ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » ^(١) وفي الحديث : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ » ^(٢) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿١٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿١٤﴾ .

﴿ فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُ بِسُورٍ قَيْنَةٍ مَقْرِنَةٍ وَادْعُوا مِن آسَاطِنِهِ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٧﴾ .

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ عما كان يتعنّت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول . أن لا يضيق بذلك منهم صدره ، ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله ﷻ أثناء الليل وأطراف النهار ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ظَهَرَ أَفْكَ يَعْيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ الآية ، وقال ههنا : ﴿ فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا ﴾ أي لقولهم ذلك ، فإنما أنت نذير ، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك ، فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله ﷻ ، ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ؛ لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أي فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ .

قال ابن عباس في الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً ، يقول : من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل ، لا يعمل إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى : أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذي كان يعمل لالتماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين . وقال أنس بن مالك والحسن : نزلت في اليهود والنصارى ، وقال مجاهد وغيره : نزلت في أهل الرياء ، وقال قتادة : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبتة جازاه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) وأحمد في مسنده (٣٣٢/٤) .

الله بحسناته في الدنيا ، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ، ويثاب عليها في الآخرة .

﴿ أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ . وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . وَمَن يَكْفُرْ بِهِ . مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْأَنَارُ مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجْسِئَانِهِ ، كَمَا تُوَلَّدُ النَّهْيَةُ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْشَوْنَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ ؟ » (١)

الحديث . وعن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَمْتَ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا » (٢) . فالؤمن باق على هذه الفطرة . وقوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أي وجاءه شاهد من الله ، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أنه جبريل عليه السلام ، وعن علي عليه السلام والحسن وقتادة : هو محمد ﷺ وكلاهما قريب في المعنى ؛ لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى ، فجبريل إلى محمد ، ومحمد إلى الأمة ، ﴿ أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ . وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ ، وبلغه النبي محمد ﷺ إلى أمته .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم وقُدوة يقتدون بها ، ورحمة من الله بهم ، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ . مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْأَنَارُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ، ممن بلغه القرآن كما قال تعالى : ﴿ لَا تُذِرْكُم بِهِ . وَمَن بَلَغَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ . مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْأَنَارُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ . عن سعيد بن جبیر قال : كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ إلا وجدت مصداقة - أو قال : تصديقه - في القرآن ، فبلغني أن النبي ﷺ قال : « لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، فَلَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » (٣) فجعلت أقول : أين مصداقة في كتاب الله ؟ وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقًا في القرآن حتى وجدت هذه الآية : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ . مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْأَنَارُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ قال : من الملل كلها وقوله : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية ، أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه ، كما قال تعالى : ﴿ تَبَيَّنَ الْكِتَابُ لِرَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ السَّمَلَيْنِ ﴾

(١) أخرجه البخاري في الجائز (١٣٨٥) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) وأبو داود في السنن (٤٧١٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) وأحمد في مسنده (١٦٢/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) .

رَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿١٨﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾ لَا جَرَءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٤﴾ .

يبين تعالى حال المفسرين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رعوس الخلائق من الملائكة والرسول والأنبياء وسائر البشر والجان ، كما روي عن صفوان بن محرز قال : كنت أخذًا بيد ابن عمر إذ عرض له رجل ، قال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ، قال سمعته يقول : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُذْنِبِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَتِفَهُ وَيَسْتَرْهُ مِنَ النَّاسِ وَيَقْرُؤُهُ بِذُنُوبِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ حَتَّى إِذَا قَوَّزَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ﴾ (١) . وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله ﷻ ويجنبونهم الجنة ، ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجًا غير معتدلة ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ وفي الصحيحين : « إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » (٢) . ولهذا قال تعالى : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الآية ، أي يضاعف عليهم العذاب ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعًا وأبصارًا وأخذة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أخذتهم ، بل كانوا صمًا عن سماع الحق ، عميًا عن اتباعه ، كما أخبر تعالى عنهم حين دخلوهم النار كقوله : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا سَمِعُ أَوْ نَبُؤُا مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي خسروا أنفسهم بأنهم أدخلوا نارًا حامية ، فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا حَبَّتْ ذُرَّتُهُمْ سَمِيرًا ﴾ ﴿ وَصَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي ذهب عنهم ﴿ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئًا ، بل ضرته كل الضرر ، ولهذا قال : ﴿ لَا جَرَءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴾ يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة ؛ لأنهم استبدلوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٤/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٩٤/٦) .

الدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم ، وعن الحور العين بطعام من غسلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ورؤيته ، بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْتَصَرْنَا لَكَ أَجَلَهُمْ أَتُؤْتِيكَ الْجَنَّةَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَغْصَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّيِّعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ، ثنى بذكر السعداء ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلًا من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا الجنات ، المشتعلة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات ، والحسان الخيرات ، والفواكه المتنوعات ، والمأككل المشتبهات ، والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، وينامون ولا يتغوطون ، ولا يصقون ولا يتمخطون ، إن هو إلا رشح مسك يعرقون . ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء ، والمؤمنين بالسعادة ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء كالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ، وأما المؤمن ففطن ذكي ليب بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل فيتبع الخير ويترك الشر ، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا تعتبرون فتفرون بين هؤلاء وهؤلاء .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٢٤﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ ﴿٢٥﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَادُوا الرَّأْيَ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام ، أنه قال لقومه : ﴿ إتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله ، ولهذا قال : ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ وقوله : ﴿ إتِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ والملا هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ أي لست بملك ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا ، ثم ما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالبيعة والحاكة وأشباههم ، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر ، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَرْنَكَ أَتَّبِعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَادُوا الرَّأْيَ ﴾ أي في أول بادئ ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ يقولون : ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم في دينكم هذا ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذ صرتم إليها ،

هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه ، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ؛ فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالباً أن من يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ مُقْتَدُونَ ﴾ ولما سأل هرقل ملك الروم أباً سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : هم أتباع الرسل . وقولهم : بادئ الرأي ليس بمذمة ولا عيب ؛ لأن الحق إذا وضع لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال ، بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ، بل لا يفكر ههنا إلا غبي أو عمي ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي واضح .

وقوله : ﴿ وَمَا نُرِيكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق ، لا يسمعون ولا يبصرون ، بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأراذلون ، وفي الآخرة هم الأخسرون .

﴿ قَالَ يَتَقَوُّوا أَرْهَبْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتَقَرُّ مِنْ رَبِّي وَاللَّيْلِ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَعَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ كَرِهْتُمْ ﴾ . يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك ﴿ أَرَهَبْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتَقَرُّ مِنْ رَبِّي ﴾ أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿ فَعَبَّيْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها ، بل بادرت إلى تكذيبها وردّها ﴿ أَنْتُمْ كَرِهْتُمْ ﴾ أي نفصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون .

﴿ وَتَقَوُّوا لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ يُضَرِّفُ مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْنَاهُمْ أَفَلَا نَذْكُرُونَ ﴾ .

يقول لقومه لا أسألكم على نصحي لكم مالاً ، أجرة أخذها منكم ، إنما أبتغي الأجر من الله تعالى ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم ، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم أن يطرد عنه جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعَيْنِ ﴾ الآية . ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَينَ الْظَالِمِينَ ﴾ .

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك ، ولا يسألكم على ذلك أجراً ، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع ، فمن استجاب له فقد نجا . ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه ، وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات . ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم أنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فإن

كانوا مؤمنين باطنًا كما هو الظاهر من حالهم فلمهم جزاء الحسنی ، ولو قطع لهم أحدٌ بشر بعدما آمنوا لكان ظالمًا قاتلاً ما لا علم له به .

﴿ قَالُوا يَبْنَوحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا بِمَا قَدَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ ٣٣ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٤ .

يقول تعالى مخبرًا عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق . ﴿ قَالُوا يَبْنَوحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ أي حاجبتنا فأكثر من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿ قَالُوا إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُعْجِزٍ ﴾ أي إنما الذين يعاقبكم ويعجلها لكم الله لا يعجزه شيء ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي : أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أي إغواءكم ودماركم ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور ، له الخلق وله الأمر ، وهو المبدئ المعيد مالك الدنيا والآخرة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُوحٌ قَدْ جَاءَ بِكُنُوزٍ مِمَّا نَحْنَمُوعُونَ ٣٥ ﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها مقرر لها ، يقول تعالى لمحمد ﷺ : أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا واقتله من عنده ﴿ قَدْ جَاءَ بِكُنُوزٍ مِمَّا نَحْنَمُوعُونَ ﴾ أي فائمه ذلك علي ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أي ليس ذلك مفتعلًا ولا مفترى ؛ لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ٣٦ وَأَصْنَعِ الْفُلَ ٣٧ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ٣٨ وَصْنَعِ الْفُلَ ٣٩ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَىٰ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٤٠ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤١ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ٤٢ .

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبرًا عنه أنه قال : ﴿ رَبِّي لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم ﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلَ ﴾ يعني السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا ﴿ وَوَحْيُنَا ﴾ أي تعليمنا لك ما تصنعه ﴿ وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ فقال بعض السلف : أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه ويبيسه فكان ذلك في مائة سنة ، ونجرها في مائة سنة أخرى ، وقيل : في أربعين سنة ، والله أعلم . وعن ابن عباس : طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ، وقيل : طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع ، فالله أعلم . قالوا كلهم : وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعًا ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للإنس ، والعليا للطيور ، وكان بابها في عرضها ،

ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

وقوله : ﴿ وَصَنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَيْهِ مَلَأً مِنْ قَوِيهِ سَخَرُوا مِنْهُ ﴾ أي يهزأون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق : ﴿ قَالَ إِنْ سَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ ﴾ الآية ، وعيد شديد وتهديد أكيد ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي يهينه في الدنيا ﴿ وَجَلَّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أي دائم مستمر أبداً .
﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَثَرُهَا وَقَارَ النَّوُّورُ فَلَمَّا أَجْمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذي لا يقلع ولا يفتقر ، وقوله : ﴿ وَقَارَ النَّوُّورُ ﴾ فعن ابن عباس : التنور وجه الأرض ، أي صارت الأرض عيوناً تغور ، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار ، صارت تغور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف ، وعن علي بن أبي طالب عليه السلام ﴿ النَّوُّورُ ﴾ فلق الصبح ، وتنوير الفجر وهو ضياؤه وإشراقه ، والأول أظهر . فحيث أن الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل : وغيرها من النباتات اثنين : ذكرًا وأنثى ، فقيل كان أول من أدخل من الطيور الدرة ، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار ، فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فينقله إبليس وهو متعلق بذنبه ، فجعل يقول له نوح عليه السلام : ما لك ويحك ادخل ، فينهض ولا يقدر فقال : ادخل وإن كان إبليس معك فدخل في السفينة ، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَمَّا حَمَلَ نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، قَالَ أَصْحَابُهُ : وَكَيْفَ تَطْمَئِنُّ الْمَوَاشِي وَمَعَهَا الْأَسَدُ ؟ فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْحُمَى فَكَانَتْ أَوَّلُ جُمَى نَزَلَتْ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ شَكَّوْا الْفَارَةَ فَقَالُوا : الْفُؤَيْسِقَةُ تُفْسِدُ عَلَيْنَا طَعَامَنَا وَمَتَاعَنَا فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْأَسَدِ فَقَطَّعَ الْهَرَّةَ مِنْهُ فَتَحَبَّأَتِ الْفَارَةُ مِنْهَا » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله ، فكان منهم ابنه الذي انزل وحده ، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله . وقوله : ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ أي من قومك : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَا الْفُلَ مَوْجًا وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ قَالَ سَوَادٌ إِلَى جَبَلٍ يَمُصُّ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَكَانَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ .
يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٣١/١) وهذا من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس ولم نشر عليه في أي من كتب الحديث التي تحت أيدينا غير هذين الكتاين ، ويبدو أنه من أخبار بني إسرائيل .

يَسْرِ اللَّهُ بِجَبرِئِيلَ وَتَرْسَنَهَا ﴿١﴾ أي بنسم الله يكون جريها على وجه الماء ، ويسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها . وقرأ أبو رجاء العطاردي ﴿ يَسْرِ اللَّهُ مجريها ومرسيها ﴾ ^(١) ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴿ الآية ، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه فمن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « أَمَانٌ أَتَمَّتْ مِنِ الْغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا فِي الشُّفْنِ أَنْ يَقُولُوا بِسْمِ اللَّهِ الْمَلِكِ ﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿ الآية ﴿ يَسْرِ اللَّهُ بِجَبرِئِيلَ وَتَرْسَنَهَا إِنْ رُبِّي لَنَقُورُ رَحِمٌ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ إِنْ رُبِّي لَنَقُورُ رَحِمٌ ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ، فذكر أنه غفور رحيم كقوله : ﴿ إِنْ رُبِّيكَ سَرِيحَ الْقَوَابِ وَإِنَّهُ لَنَقُورُ رَحِمٌ ﴾ . وقوله : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض ، حتى طفت على رعوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً وقيل : بشمانين ميلاً ، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه . وقوله : ﴿ وَتَأْدَى نُوحٌ أَبْنَاهُ ﴾ الآية ، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافراً ، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يفرق مثل ما يفرق الكافرون . قال : ﴿ سَتَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِيُ رَبِّكَ الْكَافِرُ ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رعوس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق ، فقال له أبوه نوح ﷺ : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ أي ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله ، وقيل : إن عاصمًا بمعنى معصوم كما يقال : طاعم وكاس بمعنى مطعوم ومكسو ﴿ وَتَأْدَى بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

﴿ وَقِيلَ يَتَّزِلْ أَلْفِي مَاءٍ وَنَسَمَاءُ أَلْفِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُئِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة ، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تغلق عن المطر ﴿ وَغِيصَ الْمَاءُ ﴾ أي شرع في النقص ﴿ وَفُئِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار ﴿ وَاسْتَوَتْ ﴾ السفينة بمن فيها ﴿ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ قال مجاهد : وهو جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاوت وتواضع هو لله ﷻ فلم يفرق ، وأرست عليه سفينة نوح ﷺ . وقال قتادة : استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها ، قال قتادة : قد أبقي الله سفينة نوح ﷺ على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً .

وقال الضحاك : الجودي جبل بالموصل وقال بعضهم : هو الطور ، وعن أبي هريرة قال : مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال : « مَا هَذَا الصُّومُ ؟ » قالوا : هذا اليوم

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (مجريها) بفتح الميم وكسر الراء والباقون بضمها تقرب النشر في القراءات العشر ص (١٢٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٥/١٢) . والهندي في كثر العمال (١٧٠٣٧) .

الذي نَجَّى الله به موسى وبني إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي ، فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله تعالى ، فقال النبي ﷺ : «أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى وَأَحَقُّ بِصَوْمِ هَذَا الْيَوْمِ» . فصام وقال لأصحابه : «مَنْ كَانَ أَصْبَحَ مِنْكُمْ صَائِماً فَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ ، وَمَنْ كَانَ أَصَابَ مِنْ غِذَاءِ أَهْلِهِ فَلْيَتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ» ^(١) . وقوله : ﴿وَقِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْعَرَبِ الظَّالِمِينَ﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله ، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية . وعن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النبي ﷺ قال : «لَوْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ» . قال رسول الله ﷺ : «كَانَ نُوحٌ عليه السلام مَكَثَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَغْنِي وَغَرَسَ مِائَةَ سَنَةَ الشَّجَرِ فَعُظُمَتْ وَذَهَبَتْ كُلُّ مَذْهَبٍ ، ثُمَّ قَطَعَهَا ثُمَّ جَعَلَهَا سَفِينَةً ، وَيَمْشُونَ عَلَيْهِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ : تَعْمَلُ سَفِينَةً فِي الْبَرِّ فَكَيْفَ تَجْرِي ؟ قَالَ : سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، فَلَمَّا فَرَغَ وَتَبَعَ الْمَاءُ وَصَارَ فِي السَّكَاكِ خَشِيثٌ أُمَّ الصَّبِيِّ عَلَيْهِ وَكَانَتْ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا ، فَخَرَجَتْ إِلَى الْجَبَلِ حَتَّى بَلَغَتْ ثَلَاثَةَ ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ ازْتَفَعَتْ حَتَّى بَلَغَتْ ثَلَاثَةَ ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْمَاءُ خَرَجَتْ بِهِ حَتَّى اسْتَوَتْ عَلَى الْجَبَلِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ رَقَبَتَهَا رَفَعَتْهُ يَدَيْهَا فَرَقًّا ، فَلَوْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ» ^(٢) .

﴿وَدَاوُدُ نُوْحٌ رَبُّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْحَقَّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْحَقَّ﴾ قَالَ يَسُوْعُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْطَأُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

هذا سؤال استعمال وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِ﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ، ووعدك الحق الذي لا يخلف ، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ﴿قَالَ يَسُوْعُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم ، لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ، ولهذا قال : ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالفرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام ، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية ، واحتج بعضهم بقوله ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ويقولون : ﴿فَخَانَتْكُمَا﴾ فمن قاله : الحسن البصري احتج بهاتين الآيتين ، وبعضهم يقول ابن امرأته ، وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازاً لكونه كان ربيّاً عنده ، فالله أعلم ، وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : ما زنت امرأة نبي قط ، قال : وقوله ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الذين وعدتك بنجاتهم . وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه ، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ؛ فعن ابن عباس قال : هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية ، وعن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وسمعته يقول : ﴿يَتَجَادَى الَّذِينَ أَمَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٣٦) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٨/٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٤٢/٢) والهيثم في مجمع الزوائد (٢٠٠/٨) .

تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴿١﴾ ولا ييالي ﴿٢﴾ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ وعن أم سلمة : أن رسول الله ﷺ قرأها ﴿٤﴾ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ مَبْلُوحٍ ﴿٥﴾ ، وعن سليمان بن قبة قال : سمعت ابن عباس سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله ﴿٦﴾ فَخَافَتْهُمَا ﴿٧﴾ قال : أما إنه لم يكن بالزنى ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون ، وكانت هذه تدل على الأضياف ثم قرأ ﴿٨﴾ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ مَبْلُوحٍ ﴿٩﴾ . وقال بعض العلماء : ما فجرت امرأة نبي قط .

﴿١٠﴾ قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبَطْ يَسْكُنْ مِنَّا وَزَكَرْتَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّهِ وَمَنْ تَعَلَّمَ وَأَنْتُمْ سَمِعْتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمُ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أُرست السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين قال محمد بن إسحاق : لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء ، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة ، يقول الله تعالى : ﴿١٢﴾ وَقِيلَ يَتَأْتِشُ آبَاؤُكَ الْآيَةَ ، فجعل الماء ينقص ويغض ويدير ، وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه ، وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رعوس الجبال ، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها ، ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم تجد لرجليها موضعا ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتون ، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر ، وكشف نوح غطاء الفلك ، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه : ﴿١٣﴾ قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبَطْ يَسْكُنْ مِنَّا ﴿١٤﴾ الآية (١٣) .

﴿١٥﴾ تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْفَيْبِ نُوحِيًّا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٦﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ هذه القصة وأشباهها ﴿١٧﴾ مِنْ آيَاتِ الْفَيْبِ ﴿١٨﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحيا إليك على وجهها كأنك شاهدتها ، ﴿١٩﴾ نُوحِيًّا إِلَيْكَ ﴿٢٠﴾ أي نعلمك بها وحيا منا إليك ﴿٢١﴾ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴿٢٢﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها ، حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك ، فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿٢٣﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴿٢٤﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿٢٥﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٤/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٤/٦) وقرأ الكسائي ﴿٣﴾ إنه عَمِلَ غير صالح ﴿٤﴾ ينصب اللام والراء ، والباقون ﴿٥﴾ عَمِلَ غير صالح ﴿٦﴾

يفتح الميم وضم اللام والراء (حجة القراعات ص ٣٤١) .

(٣) يدل سياق هذا الأثر على أنه من أخبار بني إسرائيل .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُودًا قَالُ بِتَقْوَى اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ بِتَقْوَى اللَّهِ أَشْتَكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أُجِرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَبِتَقْوَى اللَّهِ أَسْتَغْفِرُكُمْ رَبِّكُمْ ثُمَّ قُبُولًا إِلَيْهِ يَرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يُمْذِرًاكَ وَرَبِّدَكُمْ قُوَّةَ إِنْ قُوَّتَكُمْ وَلَا تَنُولُوا مَحْرِمِيكُمْ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿٥٠﴾ لقد أرسلنا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُودًا﴾ أمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ناهيا لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة ، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجره ، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة ، وبالتوبة عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه ، وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال : ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ يُمْذِرًاكَ﴾ ، وفي الحديث : « مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » (١) .

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٤﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِبِصَابِنَا إِنِّي رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

يخبر تعالى أنهم قالوا للنبىهم : ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي بمجرد قولك اتركوهم نتركهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يقولون : ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابتك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعييك لها ﴿قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ﴾ يقول : إني بريء من جميع الأنداد والأصنام ﴿فَيَكْذِبُنِي جَمِيعًا﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقا ﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ أي طرفه عين . وقوله : ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِبِصَابِنَا﴾ أي تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذي لا يجوز في حكمه ، فإنه على صراط مستقيم .

﴿إِنْ تَوَلَّيْتُ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخَّلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَقْرُونَهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَظِيظٌ ﴿٥٥﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّبْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٦﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي نَقُصُّ عَلَيْكَ لِقَاءِ هُودٍ وَآتَابَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٧﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِقَنَاءِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِقَاءِ قَوْمِهِ هُودٍ ﴾ .

يقول لهم هود : فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿وَسَخَّلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ، ولا ييالي بكم ، فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَظِيظٌ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه ﴿وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي نَقُصُّ عَلَيْكَ لِقَاءِ هُودٍ وَآتَابَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تركوا اتباع كفوهم من كفو بني بني فقد كفر بجميع الأنبياء ؛ لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به ، فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿وَأَتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تركوا اتباع

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٥١٨) وابن ماجه في السنن (٣٨١٩) والبيهقي (٣٥١/٣) .

رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، فلهذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا ، وينادي عليهم يوم القيامة على رعوس الأشهاد ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ الآية ، قال السدي : ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه ^(١) .

﴿ وَإِلَّا تَتُودَ آخَاثُمْ صَالِحًا قَالَ يَتُودُ آخَاثُمْ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ وَإِلَّا تَتُودَ ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم ﴿ آخَاثُمْ صَالِحًا ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ، ولهذا قال : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي ابتداء خلقكم منها خلق سنها أبابكم آدم ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي جعلكم عمارة تعمرونها وتستغلونها ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَصْلِحْ فَذَكُّتْ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ آبَاءَنَا وَإِنَّا لَنُفِي شَيْءٍ مِمَّا نَدْعُوًّا إِلَيْهِمْ ﴾ قَالَ يَتُودُ آخَاثُمْ أَنْ يَنْتَهَى عَنْ رَبِّي وَأَنَا نِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْ مَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْصِيرٍ ﴿ يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ بَيْنَ صَالِحٍ وَالظَّالِمِينَ قَوْمَهُ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعِنَادِ فِي قَوْلِهِمْ ﴾ فَذَكُّتْ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴿ أَي كُنَّا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴾ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ آبَاءَنَا ﴿ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ أَسْلَافُنَا ﴾ وَإِنَّا لَنُفِي شَيْءٍ مِمَّا نَدْعُوًّا إِلَيْهِمْ ﴿ أَي شك كثير ﴾ قَالَ يَتُودُ آخَاثُمْ أَنْ يَنْتَهَى عَنْ رَبِّي وَأَنَا نِي مِنْهُ رَحْمَةً عَلَى يَدَيْهِمْ وَبِرْهَانٍ ﴿ وَأَنَا نِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُمْ ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿ غَيْرَ تَخْصِيرٍ ﴾ أي خسارة .

﴿ وَتَقُولُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَاخْذُرْ عَذَابَ قَرِيبٍ ﴾ فَفَعَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا مِنَ الْكَاذِبِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَازِلَةٍ مُزَيَّنَةٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْبَةَ فَصَبُّوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينًا ﴾ كَانَ لَمْ يَفْتُوا فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُدَا لِمُؤَدٍ ﴾ .

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادتها ها هنا وبالله التوفيق .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنبَأْنَا بِكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴾ وَأَنزَلْنَاهُ قَاهِمَةً فَفَصَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ إِسْحَاقَ بِعُتُوبٍ ﴿ قَالَتْ يَوْنٰلَيْقَىٰ ءَالِدٌ وَإِنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْعًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ قَالُوا أَنْتَجِيبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتْ اللَّهُ الْبَنَاتِ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَبِيدٌ تَجِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ وهم الملائكة ﴿ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ ﴾ قيل : تبشره بإسحاق ، وقيل : بهلاك قوم لوط ، ويشهد للأول قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ مُجْدِيًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ أي عليكم ، قال علماء البيان : هذا أحسن مما حيّوه به ؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ﴾ أي ذهب سريعًا فاتاهم بالضيافة وهو عجل فنى البقر ﴿ خَبِيرٍ ﴾ مشوي على الرضف وهي الحجارة المحمأة . وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾

ننكرهم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ،
 فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك ﴿ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
 خِيفَةً ﴾ قال السدي : لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان حتى نزلوا على
 إبراهيم فتضيفوه ، فلما رآهم أجلبهم ﴿ فَرَأَى إِلَهُهٖ فَمَآءٌ يَبْعِلُ سَيْنَ ﴾ فذبجه ثم شواه في الرضف وأتاهم
 به ، فقعده معهم وقامت سارة تخدمهم ، فذلك حين يقول (وامرأته قائمة وهو جالس) في قراءة ابن
 مسعود ﴿ فلما قربته إليهم قَالِ أَلَا تَأْكُلُوتِ ﴾ قالوا : يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بشمن ، قال : فإن لهذا
 ثمناً ، قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تذكرون اسم الله على أوله وتحمودونه على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكايل
 فقال : حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ ﴾ يقول : فلما رآهم لا يأكلون
 فزع منهم وأوجس منهم خيفة ، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت
 وقالت : عجبنا لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا ! وقوله تعالى إخباراً
 عن الملائكة ﴿ قَالُوا لَا تَنْفَخْ ﴾ أي قالوا : لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم ،
 فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم وعنادهم ، فلهذا جوزيت بالبشارة
 بالولد بعد الإياس . وقال قتادة : ضحكت وعجبت أن قوماً يأتيهم العذاب وهم في غفلة . وقوله
 ﴿ وَبَنَ وَرَكَوٓهُ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ ﴾ عن ابن عباس : ﴿ فَضَحِكْتُ ﴾ أي حاضت ، وقول محمد بن قيس : إنما
 ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط . وقول وهب بن منبه : إنما ضحكت
 لما بشرت إسحاق وهذا مخالف لهذا السياق فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا
 بِإِسْحَاقَ وَبَنَ وَرَكَوٓهُ إِسْحَاقُ يَعْقُوبُ ﴾ أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ، فإن يعقوب ولد إسحاق كما
 قال في آية البقرة ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ
 وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَإِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ﴾ ومن هنا استدل من استدل بهذه الآية
 على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له
 يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعده
 الله حق لا خلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل ، وهذا من
 أحسن الاستدلال وأصح وأبينه والله الحمد ﴿ قَالَتْ يَوْنُلَقَى ۖ إِلَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَتْلَى شَيْخًا ﴾ الآية ، حكى
 قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى فإنها ﴿ قَالَتْ يَوْنُلَقَى ۖ إِلَهُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ ﴿ قَالُوا
 أَسْمِعِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي قالت الملائكة لها : لا تعجبي من أمر الله ، فإنه ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْخًا أَنْ يَقُولَ لَمْ كُنْ
 فَيَكُونُ ﴾ فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً ، فإن الله على ما يشاء قدير
 ﴿ رَحِمَتْ اللَّهُ وَرَكَوٓهُ عَلَيْهِ عَلَيَّكَ آهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود مجدد
 في صفاته وذاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا
 رسول الله ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ،
 وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » ^(١) .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٠) ومسلم في الصلاة (٦٥) وأحمد في مسنده (١١٨/٤) .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعَ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ ابْنُ دَافِقٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ أَذَىٰ مُّسِيَّبٍ ﴿٧٦﴾ يَكْذِبُهُمْ ﴾
أَعْرِضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِينٌ عَدَاْبٌ غَيْرَ مَرْدُوْرٍ .

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط ، أخذ يقول لهم : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : ثلاثون ؟ قالوا : لا ، حتى بلغ خمسة قالوا : لا ، قال : رأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِسَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا مِّنْكَ ﴾ الآية ، فسكت عنهم واطمأنت نفسه . وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَذَىٰ مُّسِيَّبٍ ﴾ مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها . وقوله تعالى : ﴿ يَكْذِبُهُمْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ الآية ، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المحرمين .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا إِلَيْهِمْ فَصَافَىٰ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٧﴾ وَكَانَ قَوْمُهُ يَجْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَفْعَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي صَنِيعِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ .

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة ، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطا عليه السلام ، وهو على ما قيل في أرض له ، وقيل في منزله ، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساء شأنهم وضاعت نفسه بسببهم ، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : شديد بلاؤه ، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك . وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم ، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه : إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أحب من هؤلاء ، ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم ، حتى كرره أربع مرات ، قال قتادة : وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبههم بذلك ، وقال السدي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ، ولقوا بنت لوط تستقي ، فقالوا : يا جارية هل من منزل ؟ فقالت : مكانكم حتى آتيكم ، وفرت عليهم من قومها فأتت أباهما ، فقالت : يا أبتاه أدرك فتيانا على باب المدينة ما رأيتهما وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك ، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا ، فقالوا : خل عنا فلنضيف الرجال ، فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه . وقوله : ﴿ يَجْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك . وقوله : ﴿ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَفْعَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي لم يزل هذا من سجيبتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال . وقوله : ﴿ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ يرشدهم إلى نسائهم فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة ، قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته ، وكذا روي عن قتادة وغير واحد . وقال ابن جريج : أمرهم أن يتزوجوا النساء لم يعرض

عليهم سفاحا . وقال سعيد بن جبیر : يعني نساءهم من بناته وهو أب لهم ، وقوله : ﴿ فَأَنقَرُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي صَبَإٍ ﴾ أي اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿ أَلَيْسَ يَنْكَرُ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أي فيه خير يقبل ما أمره به ويترك ما أنهاه عنه ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتبهين ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور وأنت تعلم ذلك ، فأبي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك ؟ قال السدي ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ إنما نريد الرجال .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَايَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُشِلَ رَبِّكَ لَنَ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نبيه لوط عليه السلام أن لوطا توعدهم بقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ ﴾ الآية ، أي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي ، ولهذا ورد في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَىٰ لُوطٍ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ - يعني الله ﷻ - فَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا فِي ثُرُوءٍ مِنْ قَوْمِهِ » ^(١) . فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُشِلَ رَبِّكَ لَنَ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم ، أي يكون ساقا لأهله ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم ، ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين ﴿ إِلَّا أَمْرَانِكَ ﴾ قال الأكثرون : هو استثناء من المثبت وهو قوله : ﴿ فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ ﴾ تقديره ﴿ إِلَّا أَمْرَانِكَ ﴾ وكذلك قرأها ابن مسعود ، ونصب هؤلاء امرأتك لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم ، وقال آخرون من القراء والنحاة . هو استثناء من قوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ ﴾ فجوزوا الرفع والنصب ^(٢) . وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت : وا قوماه ، فجاءها حجر من السماء فقتلها ، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيرا له لأنه قال لهم أهلكوهم الساعة فقالوا : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه ، وهم لا يقبلون منه بل يتوعدونه ويتهددونه ، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُورٍ ﴾ ^(٣) مَسْؤَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا مِنْ آلَافٍ لَّيْلٍ بِعَمِيدٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿ جَعَلْنَا عَلَىٰهَا ﴾ وهي سدوم ﴿ سَافِلَهَا ﴾ أي أمطرنا عليها حجارة من سجيل وهي بالفارسية حجارة من طين ، قاله ابن عباس وغيره . وقال بعضهم : أي من سنك وهو الحجر وكل هو الطين ، وقال البخاري : ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ : الشديد الكبير ، سجيل اللام والنون أختان ^(٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٢/٢) والترمذي في سننه (٣١١٦) .

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ إِلَّا امرأتك ﴾ بالرفع ، وقرأ الباقون ﴿ إِلَّا امرأتك ﴾ بالنصب (حجة القراءات ص : ٣٤٧ - ٣٤٨) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٤) .

وقوله : ﴿ مَنشُورٌ ﴾ قال بعضهم : منضودة في السماء أي معدة لذلك . وقال آخرون : أي يتبع بعضهم بعضاً في نزولها عليهم . وقوله : ﴿ مُسَوَّاةٌ ﴾ أي معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه . وقال قتادة وعكرمة : مطوقة بها نضح من حمرة ، وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها ، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره ، فتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد . وقال مجاهد : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم ، حملهم بمواشيهم وأمتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن ، قال : ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها . وقال قتادة : بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها إلى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم ، ثم دمر بعضها على بعض ، ثم اتبع شذاذ القوم صخرًا . قال : وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى ، في كل قرية مائة ألف ، وفي رواية : ثلاث قرى الكبرى منها سدوم ، قال : وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سدوم ويقول : سدوم يوم هالك . يقول الله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا بَيْنَ سَجِيلٍ ﴾ فأهلكها الله وما حولها من المؤتلفات . وقال السدي : لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقطع الأرض من سبع أراضين فحملها حتى بلغ بها السماء ، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ، ثم قلبها فقتلهم ، فذلك قوله : ﴿ وَالْمُؤَنَّفَكَةُ اقْوَى ﴾ ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ، ومن كان منهم شاذًا في الأرض يتبعهم في القرى فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ أي في القرى الحجارة من سجيل ، هكذا قال السدي . وقوله : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ اللَّذَلِيَّتِ بَعِيدٌ ﴾ أي وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه ، وقد ورد في الحديث المروي عن ابن عباس مرفوعاً « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلُ قَوْمٍ لُوطٍ فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » ^(١) وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللامط يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن عملاً بهذا الحديث ، وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقي من شاهر ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْكِبَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْطَرُونَ .

يقول تعالى : ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان ، بلاداً تعرف بهم يقال لها مدين ، فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً ، ولهذا قال : ﴿ أَخَاهُ شُعَيْبًا ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿ إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم . وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْطَرُونَ ﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿ وَيَنْفَوِرَ أَوْفُوا الْكِبَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٠﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/١) وأبو داود في مسنده (٤٤٦٢) والترمذي في مسنده (١٤٥٦) وابن ماجه في مسنده (٢٥٦١) .

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط
أخذين ومعطين ، ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد ، وقد كانوا يقطعون الطريق . وقوله :
﴿ يَفَيْتُ اللَّهَ خَيْرَ لَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : رزق الله خير لكم ، وقال الحسن : رزق الله خير لكم من
بخسكم الناس ، وقال مجاهد : طاعة الله ، وقال قتادة : حظكم من الله خير لكم ، وقال عبد
الرحمن بن زيد بن أسلم : الهلاك في العذاب والبقية في الرحمة ، وقال أبو جعفر بن جرير :
﴿ يَفَيْتُ اللَّهَ خَيْرَ لَكُمْ ﴾ أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال
الناس ، قال : وقد روي هذا عن ابن عباس . قلت : ويشبه قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْكَافِرُ
وَالْطَّيِّبُ وَلَوْ أَتَىٰ بَكَ كَثْرَةُ الْكَافِرِينَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي برفيق ولا حفيظ ،
أي افعولوا ذلك لله ، لا تفعلوا ليراكم الناس بل لله .
﴿ قَالُوا يَسْخَبُ أَصْلَانَا أَنْ تَنَزَّلَ مَا يَبْعُدُ أَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ .

يقولون له على سبيل التهم فبحهم الله ﴿ أَصْلَانَا ﴾ قال الأعمش : أي قراءتك ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ
تَنَزَّلَ مَا يَبْعُدُ أَبَاؤُنَا ﴾ أي الأوثان والأصنام ﴿ أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ فترك التطفيف عن
قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد ، قال الحسن في قوله : ﴿ أَصْلَانَا تَأْمُرُكَ أَنْ تَنَزَّلَ مَا يَبْعُدُ
أَبَاؤُنَا ﴾ أي والله إن صلاحه لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آبائهم ، وقال الثوري في قوله : ﴿ أَوْ
أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ يعنون الزكاة ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ قال ابن عباس وابن جرير :
يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء فبحهم الله ولعنهم عن رحمته وقد فعل .

﴿ قَالَ يَتَوَكَّرُ أَرَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ كُفَّ
عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

يقول لهم : هل رأيتم يا قوم إن كنت ﴿ عَلَىٰ يَمِينٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه
﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ قيل : أراد النبوة ، وقيل : أراد الرزق الحلال ، ويحتمل الأمرين . وقال
الثوري : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ كُفَّ عَنْهُ ﴾ أي لا أنهاركم عن الشيء وأخالف أنا في السر
فأفعله خفية عنكم ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ أي فيما أمركم وأنهاركم إنما أريد إصلاحكم
جهدي وطاقتي ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ أي في إصابة الحق فيما أريده ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في جميع
أموري ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع ، عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالكا قال : يا معاوية إن
محمدا أخذ جيرانني فانطلق إليهم فإنه قد كلمك وعرفك ، فانطلقت معه فقال : دع لي جيرانني فقد
كانوا أسلموا . فأعرض عنه ، فقام مغضبا فقال : أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك لتأمرنا
بالأمر وتخالف إلى غيره ، وجعلت أجره وهو يتكلم فقال رسول الله ﷺ : « مَا تَقُولُ ؟ » فقال : إنك
والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره ، قال فقال : « أَوْ قَدْ قَالُوهَا
- أي قائلهم - وَلَئِنْ فَعَلْتُ مَا ذَاكَ إِلَّا عَلَيَّ وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ أَرْسَلُوا لَهُ جِيرَانَهُ » (١)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٥) والطبراني في الكبير (٤١٤/١٩) .

ومن هذا القليل الحديث الذي روي عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال : سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولون عنه عليه السلام أنه قال : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُوهُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَلِيْنُ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ ، وَتَرْوُونَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُوهُ قُلُوبُكُمْ وَتَنْفِرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ ، وَتَرْوُونَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ ، فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ » ^(١) . وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث : « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ » ^(٢) ومعناه والله أعلم : مهما بلغكم عني من خير فأنا أَوْلَاكم به ، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ ﴾ عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : تنهى عن الواصلة ؟ قال : نعم ، قالت : ففعله بعض نسائك ، فقال : ما حفظت وصية العبد الصالح إذا ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ ﴾ . وعن أبي سليمان الضبي قال : كانت نجينا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي ، فيكتب في آخرها وما كانت من ذلك إِلَّا كما قال العبد الصالح : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ . ﴿ وَتَنفَرُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ يَنْزِلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ فَنَجَّيْنَاهُمْ بِعَبِيدٍ ﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ . يقول لهم : ﴿ وَتَنفَرُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النعمة والعذاب . وقال قتادة : يقول : لا يحملنكم فراقي ، وقال السدي : عداوتي ، على أن تبادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم . وقوله : ﴿ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِعَبِيدٍ ﴾ المراد في الزمان ، قال قتادة : يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل : في المكان ، ويحتمل الأمران ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ من سالف الذنوب ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة . وقوله ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ لمن تاب . ﴿ قَالُوا يَسْتَعْجِلُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ زُرَّاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . يقولون : ﴿ يَسْتَعْجِلُ مَا نَفَقَهُ ﴾ ما نفهم ﴿ كَثِيرًا ﴾ من قولك ﴿ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا ﴾ قال سعيد ابن جبير : وكان ضرير البصر ، وقال الثوري : كان يقال له خطيب الأنبياء ، قال السدي : ﴿ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا ﴾ قال : أنت واحد ، ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَاكَ ﴾ أي قومك لولا معزتهم علينا لرجمناك ، قيل : بالحجارة ، وقيل : لسبناك ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أي ليس عندنا لك معزة ﴿ قَالَ يَنْقُورُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ يقول : أتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاما لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة ، وقد اتخذتم جانب الله ﴿ زُرَّاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيك . ﴿ وَتَنفَرُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٥/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٤٩/١) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٦٨) وأحمد في مسنده (٤٢٥/٥) .

وَأَرْقِبُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْثَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِيثٌ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَتَوَفَّا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ نَعْمُودُ .

لما يس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال : يا قوم ﴿٩٣﴾ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ ﴿٩٤﴾ أي طريقتكم ، وهذا تهديد شديد ﴿٩٣﴾ إني عَمِلٌ ﴿٩٤﴾ على طريقتي ﴿٩٣﴾ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِّنْ بَآئِنِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَرَأَيْتَ هُوَ كَذِبٌ ﴿٩٣﴾ أي مني ومنكم ﴿٩٣﴾ وَأَرْقِبُوا ﴿٩٤﴾ أي انتظروا ﴿٩٣﴾ إني مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٤﴾ قال الله تعالى : ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْثَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِيثٌ ﴿٩٤﴾ وقوله : ﴿٩٣﴾ جَنِيثٌ ﴿٩٤﴾ أي هامدين لا حراك بهم . وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ؛ ففي الأعراف : لما قالو : ﴿٩٣﴾ لَنُخْرِجَنَّكَ بِصُيُوبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْبِنًا ﴿٩٤﴾ ناسب أن يذكر هناك الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم عى نبيهم ذكر الصيحة التي استلبتهم وأحمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا : ﴿٩٣﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩٤﴾ قال : ﴿٩٣﴾ فَآخَذَهُمْ عَذَابٌ يُّورِ الظُّلَّةَ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يُّورٍ عَظِيمٍ ﴿٩٤﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة . وقوله : ﴿٩٣﴾ كَأَن لَّمْ يَتَوَفَّا فِيهَا ﴿٩٤﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿٩٣﴾ إِلَّا بَعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ نَعْمُودُ ﴿٩٤﴾ وكانوا جيرانهم قريتا منهم في الدار ، وشبيها بهم في الكفر وقطع الطريق ، وكانوا عربا مثلهم .

﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٥﴾ إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَكِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٦﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَفْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٧﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْسُ الرِّقْدِ الْمَرْفُودُ ﴿٩٨﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه ﴿٩٥﴾ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴿٩٥﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿٩٥﴾ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٥﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها ، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر ﴿٩٦﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَفْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٧﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة وقوله : ﴿٩٥﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْسُ الرِّقْدِ الْمَرْفُودُ ﴿٩٨﴾ الآية ، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ﴿٩٥﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْسُ الرِّقْدِ الْمَرْفُودُ ﴿٩٨﴾ قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة فلك لعنتان ، وقال ابن عباس : لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاک وقطادة .

﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقَضُكُمْ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ ﴿٩٩﴾ وَمَا ظَلَمْتُهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَلْيِيبٍ ﴿١٠٠﴾ .

لما ذكر تعالى خير الأنبياء وما جرى لهم مع أمهم ، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال : ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى ﴿٩٩﴾ أي أخبارهم ﴿٩٩﴾ نَقَضُكُمْ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ ﴿٩٩﴾ أي عامر ﴿٩٩﴾ وَحَصِيدٌ ﴿٩٩﴾ أي هالك ﴿٩٩﴾ وَمَا ظَلَمْتُهُمْ ﴿٩٩﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿٩٩﴾ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿٩٩﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿٩٩﴾ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ﴿٩٩﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿٩٩﴾ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴿٩٩﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم ياهلاكهم ﴿٩٩﴾ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَلْيِيبٍ ﴿٩٩﴾ قال مجاهد وقطادة وغيرهما : أي غير تخسير ، وذلك

أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة .
﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنْ ظِلْمِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ عن أبي موسى ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَيُعْلَى لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ مِنْ ظِلْمِهِ ﴾ الآية ^(١) .
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠١﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٠٢﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿ لَآيَةً ﴾ أي عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها . وقوله : ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴾ أي ما تؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينقص منها ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله ، كقوله : ﴿ لَا تَكَلِّمُوا إِلَّا مَن أَوْذَنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ . وفي الصحيحين في حديث الشفاعة : « وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ » ^(٢) . وقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أي فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد . عن عمر قال : لما نزلت : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ سألت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله : علام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال : « عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ يَا عُمَرُ وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ ، وَلَكِنْ كُلُّ مُبْتَلًى لِمَا خُلِقَ لَهُ » ^(٣) . ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال : ﴿ نَأْتِيكَمُ الْيَوْمَ شَقَوًّا فَنَبِّئُكُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَسَهيقٌ ﴿١٠٣﴾ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنْ فِيهَا زُفِيرٌ وَسَهيقٌ ﴾ قال ابن عباس : الزفير في الحلق والشهيق في الصدر ، أي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب عياداً بالله من ذلك ﴿ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت : هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون : هو باق ما اختلف الليل والنهار ، وما سمر أبناء سمير ، وما لألأت العير بأذنانهم يعنون بذلك كله أبداً ، فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال : ﴿ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٩٤/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٨٠٦) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في القدر (٩) والترمذي في السنن (٣١١١) وأبو داود في السنن (٤٧٠٩) .

الجنس ؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ ولهذا قال الحسن البصري في قوله : ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ قال : يقول سماء غير هذه السماء ، وأرض غير هذه ، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض ، وعن ابن عباس قال : لكل جنة سماء وأرض ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ كقوله : ﴿ النَّارُ مَثْوًى لِّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ . وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة ، فعن ابن عباس والحسن أيضاً أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعاة الشافعين ، من الملائكة والنبين والمؤمنين ، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوماً من الدهر : لا إله إلا الله . ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها ، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة . وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر وأبي سعيد من الصحابة ، وعن أبي مجلز والشعبي وغيرهما من التابعين ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة في أقوال غريبة ، وقال السدي : هي منسوخة بقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ . ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُئِلُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوفٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُئِلُوا ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ فِي الْجَنَّةِ ﴾ أي فمأواهم الجنة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ، فله المنة عليهم دائماً ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس ، وقال الضحاك والحسن البصري : هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها ، وعقب ذلك بقوله : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوفٍ ﴾ أي غير مقطوع ، قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد : لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء ، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع ، كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته ، وأنه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوفٍ ﴾ وقد جاء في الحديث : « يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ » ^(١) . وفي الصحيح أيضاً : « يُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعْمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا » ^(٢) .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَبْعُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَبْعُدُونَ إِلَّا كَمَا يَبْعُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٣٠) وأحمد في مسنده (٢٦١/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٢٢) وأحمد في مسنده (٣١٩/٢) .

مَنْقُوصٌ ﴿١١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٦﴾ وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا لِيُوقِنْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١٧﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ المشركون أنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات ، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذبهم عذاباً لا يعذبه أحداً ، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة . قال ابن عباس : ﴿ وَإِنَّا لَمُوفُونَهُمْ نَصِيحَتَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ قال : ما وعدوا من خير أو شر . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص ، ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه ، فمن مؤمن به ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ولا يهيدنك ذلك ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ . قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر فقال : ﴿ وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا لِيُوقِنْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها ، وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناها كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلَّ لَمَّا لَجَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .

﴿ فَاسْتَوَيْتُمْ كَمَا أُمِرْتُمْ وَمَنْ تَابَ مَعَكُمْ وَلَا تَقْلَبُوا إِنَّمَا بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ﴿١١٨﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ .

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ، ونهى عن الطغيان وهو البغي فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك ، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء . وقوله : ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ابن عباس : لا تدهنوا ، وقال ابن عباس : هو الركون إلى الشرك ، وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم ، وقال ابن جرير عن ابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، وهذا القول حسن ؛ أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتهم بأعمالهم : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذك ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّرَّاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴾ ﴿١١٩﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ﴾ يعني الصبح والمغرب ، وقال الحسن في رواية قتادة والضحاك وغيرهم : هي الصبح والعصر ، وقال مجاهد : هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى : ﴿ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم : يعني صلاة العشاء ، وقال الحسن ﴿ وَرُفُلًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ يعني المغرب والعشاء ، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع

الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضًا في قول ، والله أعلم .

وقوله ﴿ إِنَّ الْحَسَنَتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ﴾ يقول : إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث عن علي بن أبي طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثًا نفعتني الله بما شاء أن ينفعني منه ، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته فإذا حلف لي صدقته ، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يذنب ذنبًا فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له » ^(١) وفي الحديث عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ وقال : « من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » ^(٢) وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رأيتم لو أن بياض أحدكم نهرًا غمرًا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئًا ؟ » قالوا : لا يا رسول الله قال : « كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا » ^(٣) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » ^(٤) .

وعن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أنني لم أجامعها ، قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك ، فافعل بي ما شئت ، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئًا فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال : « رُدُّوهُ عَلَيَّ » فردوه عليه فقرأ عليه ﴿ وَإِنِ الْصَّلَاةُ طَرَفُ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ ﴾ فقال معاذ : وفي رواية عمر : يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : « بَلَى لِلنَّاسِ كَأَفَّةً » ^(٥) . وعن عبد الله بن مسعود أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ يَتَنَكَّمُ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ يَتَنَكَّمُ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يَحِبُّ وَمَنْ لَا يَحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ ، وَالَّذِي تَفْسِي يَدِهِ لَا يُشْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ بِجَارِهِ بِوَائِقِهِ » قال : قلنا : وما بوائقه يا نبي الله ؟ قال : « غِشُّهُ وَظُلْمُهُ ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا حَرَامًا فَيَنْفِقُ مِنْهُ فَيُبَارِكُ لَهُ فِيهِ ، وَلَا يَصْدُقُ فَيَقْبَلُ مِنْهُ ، وَلَا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، إِنَّ الْحَيِّثَ لَا يَمْحُو الْحَيِّثَ » ^(٦)

وعن أبي عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة فأخذ منها غصنًا يابسًا فهزه حتى تحات ورقه ، ثم قال : أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا ؟ قلت : ولم تفعله ؟ قال : هكذا فعل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩/١) والهيثم في مجمع الزوائد (٣٠١/١) . (٢) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٩) .

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨) ومسلم في المساجد (٢٨٣) وأحمد في مسنده (٣٧٩/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤ ، ١٥ ، ١٦) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والترمذي في السنن (٢١٤) .

(٥) أخرجه مسلم في التوبة (٤٢) وأحمد في مسنده (٤٤٥/١) والبيهقي في السنن (٢٤١/٨) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والحاكم في المستدرک (٣٣/١) .

رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ » ، قال : ﴿ وَأَقْبَرُ الصَّلَاةِ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ أَحْسَنَ يَذْهَبَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ فَتَوَلَّوْا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (٢) وما كادَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى يَطْلُمَ وَأَهْلُهَا مُضِلَّوْنَ .

يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض . وقوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرًا ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وفي الحديث : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يَغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ » (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّوْا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أَئِمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (٤) إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ وَلِلَّذَلِكَ خَلْقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعًا ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (٥) إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم ، قال عكرمة : مختلفين في الهدى ، وقال الحسن البصري : مختلفين في الرزق يسخر بعضهم بعضًا ، والمشهور الصحيح الأول . وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ ﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَإِنَّ النَّصَارَى افْتَرَقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً » قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » (٦) . وقال عطاء : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿ إِلَّا مَنْ رَجَمَ رَبُّكَ ﴾ يعني الحنيفة . وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٥) والدارمي في السنن (١٨٣/١) والطبراني في الكبير (٣١٦/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١) ، وابن ماجه في السنن (٤٠٠٥) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٦/١ ، ١٢٨) .

وقوله : ﴿ وَلِلَّذِينَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال الحسن البصري في رواية عنه : وللأختلاف خلقهم ، وقال ابن عباس : خلقهم فريقين كقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ وقيل : للرحمة خلقهم ، وعن ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، كذا قال مجاهد والضحاك وقتادة .

وقوله : ﴿ وَتَمَتَّ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْتَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ الْجَنَّةُ : مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُطُهُمْ ؟ وَقَالَتِ النَّارُ : أَوْزُوثُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءَ ، وَقَالَ لِلنَّارِ : أَنْتِ عَذَابِي أَنْتَقِمُ بِكَ مِنْ أَشَاءَ ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا ، فَأَمَّا الْجَنَّةُ : فَلَا يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ حَتَّى يَنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا يَسْكُنُ فَضْلَ الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا النَّارُ : فَلَا تَزَالُ تَقُولُ : هَلْ مِنْ مَرِيدٍ ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهَا رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ فَتَقُولُ : قَطُ قَطُ وَعِزَّتِكَ » (١) .

﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أمهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ، كل هذا مما ثبت به فؤادك أي قلبك يا محمد ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة . وقوله : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ أي في هذه السورة ، عن الحسن في رواية عنه وقتادة : في هذه الدنيا ، والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ، ونبا صدق ، وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ۖ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي على طريقتكم ومنهجكم ﴿ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا ﴿ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴾ أي ﴿ فَسَوْفَ نَعْمَلُ مِنْ تَكْوُنَاتٍ لَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿ وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم . ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ، فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه . وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم ، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين .

نسألك ، قال : « فَعَزَّ مَعَادِينَ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فَعِزَّائُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عِزَّائُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفَقَهُوا » ^(١) .

وقال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وحي ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه .

﴿ قَالَ بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخشون له ساجدين لإجلالاً واحتراماً وإكراماً ، فخشى يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسداً منهم له ، ولهذا قال له : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها ، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلْيُحَدِّثْ بِهِ ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ ؛ فَلْيَتَحَوَّلْ إِلَى جَنْبِهِ الْآخَرِ ، وَلْيَتَشَلَّ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا ، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ » ^(٢) .

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُزِيلُ نَمَتَهُ عَنْكَ وَعَلَى وَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : يعني تعبير الرؤيا ﴿ وَيُزِيلُ نَمَتَهُ عَنْكَ ﴾ أي يارسالك والإيحاء إليك ، ولهذا قال : ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهو الخليل ﴿ وَإِسْحَاقَ ﴾ ولده وهو الذبيح في قول وليس بالرجيح ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَسَاءِلِينَ ﴾ ^(١) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا نَزَلْنَاهُ غُصْبَةً إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ^(٢) أَفَتُلْوَ يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ^(٣) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى : لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه ، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا نَزَلْنَاهُ ﴾ أي حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه ، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا نَزَلْنَاهُ غُصْبَةً ﴾ أي جماعة ، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ يعنون في تقديمهما علينا ، ومحبتة إياهما أكثر منا .

واعلم أنه لم يقدّم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥٠٢٢) وابن ماجه في السنن (٣٩٠٨) وأحمد في مسنده (٢٩٦/٥) .

الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى : ﴿ قُولُوا مَنكُم بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا لِرَبِّهِمْ فَلْيَسْمِعُوا وَلْيَسْمِعُوا وَتَقُولُوا ﴾ وهذا فيه احتمال ؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم ، والله أعلم . ﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ امْكُرُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ ﴾ يقولون : هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم ، أعدموه من وجه أبيكم إما بأن تقتلوه ، أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه ، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ فأضرموا التوبة قبل الذنب ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق : وكان أكبرهم واسمه رويل ، وقال السدي : الذي قال ذلك يهوذا ، وقال مجاهد : هو شمعون الصفا ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله ؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إتمامه وإتمامه من الإحياء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له بيلاد مصر والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة رويل فيه وإشارته عليهم بأن يلقيه في غيابة الحب وهو أسفله . قال قتادة : وهي بئر بيت المقدس ﴿ يَلْقَظُهَا بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أي المارة من المسافرين ، فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلَيْكُمْ ﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون .

﴿ قَالُوا يَبْنَأُ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴾ أرسله ممناً عداً يرتع ويلعب وإننا له لحفيظون . لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير رويل ، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا : ما بالك ﴿ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴾ وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك ، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا ﴾ أي ابشع معنا ﴿ غَدًا نَرْتَعِ وَنَلْعَبُ ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿ يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ ﴾ ^(١) قال ابن عباس : يسمى وينشط ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِيظُونَ ﴾ يقولون : ونحن نحفظه ونحوطه من أهلك . ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ .

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ أي يشق عليّ مفارقتهم مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ يقول : وأخشى أن تشتغلوا عنه بزميكم وورعكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة : ﴿ لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ ﴾ يقولون : لنن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذا لهالكون عاجزون . ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَآجَمُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ يرتع ونلعب ﴾ بالنون وقرأ أهل المدينة ﴿ يرتع ويلعب ﴾ (انظر حجة القراءات ص ٣٥٥ ، ٣٥٦) .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .
 يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له وبسطاً وشرحاً لصدره وإدخالاً للسرور عليه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشمه ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة فقام فوقها .

وقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر ، إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه وتثبيتاً له إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع . وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن عباس : ستبتهم بصنيعهم هذا في حقل وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك .

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ ١٥ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقَ وَنَرْكُضَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْكُهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ ١٦ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ يَدِرُ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ليكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، وقالوا معتردين عما وقع فيما زعموا ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقَ ﴾ أي نترامى ﴿ وَنَرْكُضَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا ﴾ أي ثيابنا وأمتعنا ﴿ فَاكْكُهُ الذَّئْبُ ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه . وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه ، يقولون ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت اتهمنا في ذلك ؛ لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب ، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابية ما وقع وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ يَدِرُ كَذِبٌ ﴾ أي مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب ، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقت عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال . وقال ابن عباس : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ يَدِرُ كَذِبٌ ﴾ : لو أكله السبع لخرق القميص ، وقال مجاهد : الصبر الجميل الذي لا جزع فيه .

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشِّرُنِي هَذَا عَلَّمَ وَأَمَرُوهُ يُضَعُّ عَلَيْهِ يَمًا يَمَلُوكَ ۝ وَشَرُّهُ يَشْمَنُ بِخَمِيرٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝﴾ .

يقول تعالى : مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام في الحب حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الحب وحيداً فريداً ، فمكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش ، وقال محمد بن إسحاق : لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع وما يُصنع به ، فساق الله له سيارة فنزلوا قريئاً من تلك البئر ، وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به وقال : ﴿يَبُشِّرُنِي هَذَا عَلَّمَ ۝﴾ وقرأ بعض القراء ﴿يا بشراي﴾ ^(١) فزعم السدي أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه معلماً له أنه أصاب غلاماً ، وهذا القول من السدي غريب ؛ لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس ، والله أعلم ، وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى ، ويكون قد أضاف البشري إلى نفسه وحذف ياء الإضافة وهو يريد بها ، كما تقول العرب : يا نفس اصبري ، ويا غلام أقبل ، بحذف حرف الإضافة ، ويجوز الكسر حيثيذ والرفع وهذا منه ، وتفسرها القراءة الأخرى ﴿يا بشراي﴾ والله أعلم . وقوله : ﴿وَأَمَرُوهُ يُضَعُّ أَيَّ وَأَسْرَهُ الْوَارِدُونَ مِنْ بَقِيَةِ السَّيَّارَةِ وَقَالُوا : اشْتَرَيْنَاهُ وَتَبَضَّعْنَاهُ مِنْ أَصْحَابِ الْمَاءِ مَخَافَةَ أَنْ يَشَارِكُوهُمْ فِيهِ إِذَا عُلِمُوا خَبْرَهُ ، وقال ابن عباس قوله ﴿وَأَمَرُوهُ يُضَعُّ﴾ يعني إخوة يوسف ، أسروا شأنه وكتبوا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ، واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه ﴿يَبُشِّرُنِي هَذَا عَلَّمَ﴾ يباع فباعه إخوته . وقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ يَمًا يَمَلُوكَ﴾ أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه ، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ولكن له حكمة وقدر سابق ، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿أَلَا لَهُ الْخِتَابُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي هذا تعريض لرسوله محمد عليه السلام وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك ، وأنا قادر على الإنكار عليهم ولكنني سأملئ لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم ، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته .

وقوله : ﴿وَشَرُّهُ يَشْمَنُ بِخَمِيرٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يقول تعالى : وباعه إخوته بثمان قليل . وقاله جاهد وعكرمة ، والبخس : هو النقص كما قال تعالى : ﴿فَلَا يَخَافُ يَحْشَى وَلَا رَفَقًا﴾ أي اعتاض عنه إخوته بثمان دون قليل ، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أي ليس لهم رغبة فيه ، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا . وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك : إن الضمير في قوله ﴿وَشَرُّهُ﴾ عائذ على إخوة يوسف ، وقال قتادة : بل هو عائذ على السيارة ، والأول أقوى ؛ لأن قوله : ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة ، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه ، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿وَشَرُّهُ﴾ إنما هو لإخوته ، وقيل : المراد بقوله ﴿يَشْمَنُ﴾ الحرام ، وقيل : الظلم ، وهذا وإن كان كذلك ليس المراد هنا لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد لأن ثمنه حرام على كل جال وعلى كل أحد ، لأنه نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن ،

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي ﴿يا بُشْرَى﴾ بترك الإضافة ، وقرأ الباقون ﴿يا بشراي﴾ بفتح ياء الإضافة وتضمها حجة القراءات ص ٣٥٧ .

فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزیوف أو كلاهما ، ولهذا قال : ﴿ ذَرَيْمَ مَعْدُودٍ ﴾ فعن ابن مسعود ؓ باعوه بعشرين درهماً ، وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً ، وقال محمد بن إسحاق وعكرمة : أربعون درهماً . وقال الضحاک في قوله : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله ﷻ ، وقال مجاهد : لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم : استوثقوا منه لا يبقى حتى وقوفه بمصر ، فقال : من يتاعني وليشر؟ فاشتراه الملك وكان مسلماً .

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْرِي مَثْوًى عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يخبر تعالى بالطرافة بيوسف عليه السلام أنه قبض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامراته : ﴿ أَكْرِي مَثْوًى عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها . وعن ابن عباس : وكان اسمه قطفير ، وقال محمد بن إسحاق : اسمه أطفير بن رحيب وهو العزيز ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، قال : واسم امرأته راعيل بنت رعايل ، وقال غيره : اسمها زليخا ، وقال ابن عباس : كان الذي باعه بمصر مالك بن ذعر بن قريب بن عنقا بن مديان بن إبراهيم فآله أعلم . وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامراته ﴿ أَكْرِي مَثْوًى ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها ﴿ يَتَابَعْتُ أَهْلَ بَيْتِكَ ﴾ وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني بلاد مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ قال مجاهد والسدي : هو تعبير الرؤيا ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ أي إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه ، قال سعيد بن جبير : أي فعال لما يشاء . وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول : لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد . وقوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي : أي : استكمل عقله وتم خلقه ﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يعني : النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي أنه كان محسناً في عمله ، عاملاً بطاعة الله تعالى ، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة ، وعن ابن عباس بضع وثلاثون ، وقال الضحاک : عشرون ، وقال الحسن : أربعون سنة ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

﴿ وَرَزَقْنَاهُ آلَهُ فِي بَيْتِهِمَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُمْ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُمْ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وإكرامه ، فراودته عن نفسه أي حاولته على نفسه ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجمالته وحسنه وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع و ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُمْ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى ﴾ وكان يطلعون الرب على

السيد والكبير ، أي : إن بعلك ربي أحسن مثواي أي : منزلي ، وأحسن إليّ فلا أقبله بالفاحشة في أهله ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقد اختلف القراء في قوله : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ فقراه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء . وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : معناه أنها تدعوه إلى نفسها ، وقال ابن عباس ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ تقول هلم لك ، وعن الحسن : وهي كلمة بالسريانية أي عليك ، وقال السدي : أي هلم وهي بالقبطية ، وقال مجاهد : هي لغة عربية تدعوه بها ، وقال البخاري : وقال عكرمة : أي هلم لك بالخورانية : هكذا ذكره معلقاً وعن عكرمة مولى ابن عباس قال : هلم لك ، قال : هي بالخورانية^(١) ، وكان الكسائي يحكي هذه القراءة يعني ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ ويقول : هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز ومعناها تعال .

وقرأ ذلك آخرون ﴿ هَيْثُ لَكَ ﴾ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء ، بمعنى تهيأت لك من قول القائل : هئت بالأمر أميء هئة ، ومن روي عنه هذا القراءة ابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو وائل ، وعكرمة ، وقتادة ، وكلهم يفسرها بمعنى تهيأت لك . قال ابن جرير : وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة ، وقرأ عبد الله بن إسحاق ﴿ هَيْتَ ﴾ بفتح الهاء وكسر التاء وهي غريبة ، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة ﴿ هَيْثُ ﴾ بفتح الهاء وضم التاء وعن ابن مسعود قال : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا تهمز ، وقال آخرون : ﴿ هَيْثُ لَكَ ﴾ بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء^(٢) ، قال أبو عبيد معمر بن المثني : لا تشي ولا تجمع ولا تؤنث ، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد ، فيقال : هيت لك ، وهيت لكم ، وهيت لكما ، وهيت لكن ، وهيت لهن .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بُرْهَنَ رَبِّيَ . كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتْلِصِينَ ﴾ .

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام ، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبيرة وطائفة من السلف المراد بهمه بها خطرات حديث النفس ، فعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكَبُوهَا بِعَشْرِ أَثْمَالِهَا ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاتَّكَبُوهَا حَسَنَةً ، فَإِنَّمَا تَوَكَّاهَا مِنْ جَوَائِي ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاتَّكَبُوهَا بِمِثْلِهَا »^(٣) وقيل : هم بضربها ، وقيل : تمنأها زوجة ، وقيل : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بُرْهَنَ رَبِّيَ ﴾ أي فلم يهم بها ، وأما البرهان الذي رآه فيه أقوال أيضاً ؛ فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبيرة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن إسحاق وغيرهم : رأى صورة أبيه يعقوب عاصباً على إصبعه بفمه ، وقيل عنه في رواية : فضرب في صدر يوسف . وقال ابن عباس : رأى خيال الملك يعني سيده .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب قوله : ﴿ وَرَزَقْنَاهُ آلِيَهُ مَرْفِئًا ﴾) .

(٢) قرأ أهل العراق ﴿ هَيْثُ لَكَ ﴾ بفتح الهاء والتاء ، وقرأ أهل المدينة والشام ﴿ هَيْثُ ﴾ بفتح الهاء ، وضم التاء وقرأ هشام ﴿ هَيْثُ ﴾ . (انظر حجة القراءات ص ٣٥٧ ، ٣٥٨) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٠١) .

قال ابن جرير : والصواب أنه يقال : إنه رأى آية من آيات الله نزجره عما كان هم به ، وجائز أن يكون صورة يعقوب وجائز أن يكون صورة الملك وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك ، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك ، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى ^(١) . وقوله : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْبَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الشُّغْلَوِينِ﴾ أي من المجتبيين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار صلوات الله وسلامه عليه .

﴿وَأَسْتَفْتَا الْآلِبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا آلِبَابٍ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قَالَ هِيَ زَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَذِبَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ .

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه فقدته قدأ فظيماً ، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بدائها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي فاحشة ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾ أي يحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً ، فعند ذلك انتصر يوسف ^{عليه السلام} بالحق وتبرأ مما رمت به من الخيانة ، و ﴿قَالَ﴾ بارأ صادقاً ﴿هِيَ زَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قادت قميصه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ أي من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها ؛ لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبت أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه .

وقد اختلف في هذا الشاهد هل هو صغير أو كبير ؟ على قولين لعلماء السلف : فعن عكرمة عن ابن عباس ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال : ذو لحية ، وعن ابن أبي مليكة عن ابن عباس : كان من خاصة الملك . وقال ابن عباس : في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال : كان صبيّاً في المهد .

وقوله : ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمت به ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُنَّ﴾ أي : إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إِنَّ كَذِبَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ثم قال أمراً ليوسف ^{عليه السلام} بكتمان ما وقع ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي اضرب عن هذا صفحاً أي فلا تذكره لأحد ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلاً أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ، فقال لها : استغفري لذنبك أي

الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿ إِنَّكَ كُنتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِيْنَةِ أَمْرَأَتُ الْعَزِيْزِ تَزُوْدُ فَلَهَا عَنْ نَفْسِيْهِ قَدْ شَفَعَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيْمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَوَاسْتَعْصِمَ وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُورٌ لِّيَسْجَنَ وَلِكُونَا مِنَ الصَّغِيْرَيْنِ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ائْتِنِي حَبًّا إِلَيَّ وَمَا يَدْعُوْنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصْرَفْ عَنْكَ كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْكَاهِلِيْنَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴾ .

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس ﴿ وَقَالَ يَسُوْفُ فِي الْمَدِيْنَةِ ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء ينكرون على امرأة العزيز وهو الوزير ويعين ذلك عليها ﴿ أَمْرَأَتُ الْعَزِيْزِ تَزُوْدُ فَلَهَا عَنْ نَفْسِيْهِ ﴾ أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ﴿ قَدْ شَفَعَهَا حُبًّا ﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه ، ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ ﴾ أي في صنيعها هذا من حبها فتاها ومرادتها إياه عن نفسه ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ قال بعضهم بقولهن : ذهب الحب بها ، وقال محمد بن إسحاق : بل بلغهن حُسن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته ، فعند ذلك ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم : هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ وذلك أنها كانت قد خباؤه في مكان آخر ﴿ فَلَمَّا ﴾ خرج و ﴿ رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي أعظمن شأنه وأجللن قدره وجعلن يقطعن أيديهن دهشًا برؤيته وهن يظنن أنهم يقطعن الأترج بالسكاكين ، والمراد أنهم حزنن أيديهن بها ، ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيْمٌ ﴾ ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا ، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريبًا منه ، فإنه ﷺ كان قد أعطي شطر الحسن ، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح من حديث الإسرائ أن رسول الله ﷺ مر بيوسف ﷺ في السماء الثالثة قال : « فَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرُ الْحُسَيْنِ » (١) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرُ الْحُسَيْنِ » (٢) فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : معاذ الله ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾ وقرأ بعضهم (مَا هَذَا بَشَرِي) أي بمشترى بشراء ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيْمٌ ﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴿ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله ﴾ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَوَاسْتَعْصِمَ ﴿ أي فامتنع ، قال بعضهم : لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن وهي العفة مع هذا الجمال ، ثم قالت تتوعده : ﴿ وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُورٌ لِّيَسْجَنَ وَلِكُونَا مِنَ الصَّغِيْرَيْنِ ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف ﷺ من شرهن وكيدهن ﴿ قَالَ رَبِّ ائْتِنِي حَبًّا إِلَيَّ وَمَا يَدْعُوْنِي إِلَيْهِ ﴾ أي من الفاحشة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦/٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٧٠/٢) .

﴿وَالَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك ، أنت المستعان عليك التكلان ، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أَصْبُ إِلَيْنَ﴾ وَأَكُنْ مِنَ الْبَهِيلِينَ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ الآية ، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة وحماه ، فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيده وهي امرأة عزيز مصر وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه .

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ، إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَتَوَدَّ إِلَيْهِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّتَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » ^(١) .

﴿ثُمَّ بَدَأَ مِنْهُمَا بَعْدَ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنَهُمَا فِي سِجْنٍ﴾ .

يقول تعالى : ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين ، أي إلى مدة ، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته ، وكأنهم والله أعلم إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسه وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تبين براءته مما نسب إليه من الخيانة ، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه . وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه ويرأ عرضه فيفضحها .

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثًا يَتَّوِيلُوهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

قال قتادة : كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه . قال محمد بن إسحاق : كان اسم الذي على شراب نبوا والآخر مجلث . قال السدي : كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه ، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجوود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمات وكثرة العبادة صلوات الله عليه وسلامه ، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم ، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به وأحباه حباً شديداً وقالوا له : والله لقد أحبيناك حباً زائداً ، قال بارك الله فيكما إنه ما أحبني أحد إلا دخل علي من محبته ضرر ، أحببتي عمتي فدخل علي الضرر بسببها ، وأحبني أبي فأوذيت بسببه ، وأحببتي امرأة العزيز فكذلك ، فقالا : والله ما نستطيع إلا ذلك ثم إنهما رأيا مناماً فرأى الساقى أنه يعصر خمراً يعني عنباً ، وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود (إني أراني أعصر عنباً) وعن ابن مسعود أنه قرأها أعصر عنباً . وقال الضحاك في قوله : ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يعني عنباً قال :

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٠) ومسلم في الزكاة (٩١) .

وأهل عمان يسمون العنب خمرًا : وقال عكرمة : قال له : إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب فنبتت فخرج فيها عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك ، فقال : تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمرًا . وقال الآخر وهو الخباز ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْجِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثًا يَتَّوِيلُ ﴾ الآية ، والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره .

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَآئِكُمَا يَتَّوِيلُ ﴾ قِيلَ أَنَّ يَأْتِيكُمَا ذَلِكَمَا مِنَّا عَلَيْنِي رَفَعْتُ إِيَّيْ تَرْكَبْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَآئِكُمَا يَتَّوِيلُ ﴾ قال مجاهد : يقول ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ ﴾ في يومكما ﴿ إِلَّا نَبَآئِكُمَا يَتَّوِيلُ ﴾ قِيلَ أَنَّ يَأْتِيكُمَا ﴿ وقال ابن عباس : إنما هو من تعليم الله إياي لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا في المعاد ﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿ الآية ، يقول هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين ، فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إماما يقتدى به في الخير ، وداعيا إلى سبيل الرشاد ﴿ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم بل ﴿ بَدَلُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ كُفْرًا وَآخَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ عن ابن عباس أنه كان يجعل الجد أبا ويقول : والله لمن شاء لأعنته عند الحجر ما ذكر الله جدًا ولا جدة قال الله تعالى : يعني إخبارًا عن يوسف ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

﴿ يَصْطَلِحِي السَّجَنَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقَاتٌ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَاسِقُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتينين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما فقال : ﴿ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقَاتٌ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أي الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمته سلطانه ، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله . ولهذا قال : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي حجة ولا برهان ، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشقة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه ، ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَاسِقُ ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم

الذي أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلهذا كان أكثرهم مشركين .

﴿ يَصْنَعِ الْيَسْجِينَ آمَنَّا أَحَدَكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿ .

يقول لهما ﴿ يَصْنَعِ الْيَسْجِينَ آمَنَّا أَحَدَكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا ، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك ، ولهذا أبهمه في قوله ﴿ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا ، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ؛ لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عُبِّرَتْ وقعت . وعن إبراهيم بن عبد الله قال : لما قالوا ما قالوا وأخبرهما ، قالوا : ما رأينا شيئا فقال ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ وحاصله أن من تحلم بباطل وفسه فإنه يلزم بتأويله والله تعالى أعلم . وقد ورد عن أنس مرفوعا : « الرؤيا لأول غاير » ^(١) .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ .

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج ، قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم - لئلا يشعره أنه المصلوب - قال له : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يقول : اذكر قصتي عند ربك وهو الملك ، ففسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكاييد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله : ﴿ فَأَنَسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ عائد على الناجي ويقال : إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام وأما البضع فقال مجاهد وقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع ، وقال وهب بن منبه : مكث أيوب في البلاء سبعا ، ويوسف في السجن سبعا ، وعذب بختنصر سبعا ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ قال : ثنتا عشرة سنة ، وقال الضحاك : أربع عشرة سنة .

﴿ وَقَالَ آلِكَ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُتَبْدَاتٍ خُضِرَ وَأُخْرَ يَأْسَبْنَ يَأْتِيَنَّهُنَّ الْغَلَاءُ أَتَوْنِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَأُفِئدُكَ أَخْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُتَبْدَاتٍ خُضِرَ وَأُخْرَ يَأْسَبْنَ لَمَلَى أَرْجِعْ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّا مَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِتُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ﴾ .

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سببا لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززا مكرما ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهااته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها ،

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٩١٥) والألباني في الصحيحة (١٢٠) .

فجمع الكهنة والحادة وكبار دولته وأمرأه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك ، واعتذروا إليه بأنها ﴿ أَصْنَعْتُ أَخْلَرٌ ﴾ أي أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِبِلِينَ ﴾ أي لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا أن معرفة بتأويلها وهو تعبيرها ، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذنك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف ، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك ، فعند ذلك تذكر بعد أمة أي مدة ، وقرأ بعضهم ﴿ بعد أمه ﴾ أي بعد نسيان ، فقال لهم أي للملك والذين جمعهم لذلك ﴿ أَنَا أَنْتُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي بتأويل هذا المنام ﴿ فَأَرْسَلُونِي ﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن ، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال : ﴿ يَوْشُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَتَيْنَا ﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك ، فعند ذلك ذكر له يوسف ~~التي~~ تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك بل قال : ﴿ تَزْعَوْنَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا ﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين لأنها تثير الأرض التي تشتغل منها الثمرات والزررع وهن السنبلات الخضراء ، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين فقال : ﴿ فَا حَصَدْتُمْ فَذَرَّوْهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أي مهما استغللت في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلا المقدار الذي تأكلونه وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه لتتفجروا في السبع الشداد ، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان ؛ لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعه في سني الخصب وهن السنبلات اليابسات ، وأخبرهم أنهم لا يبنون شيئاً وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ولهذا قال : ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَنَا إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِثُونَ ﴾ ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يقات الناس أي يأتيهم الغيث وهو المطر ، وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه ، وسكر ونحوه ، حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضاً ، قال ابن عباس ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يحلبون .

﴿ وَقَالَ إِلَهِكَ أَنْتُنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَيْكَ فَسَلِّ مَا بَالُ الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَعْتَ يَدَيَّ إِنِّي أَخَذْتُ بِكَ بَيْعَتِي عَلَيْهِ ۖ قَالَ مَا هَؤُلَاءُ إِلَّا مَا عَمِلْنَا عَلَيْهِ مِنْ سَوْءٍ قَالَتْ أَمَرْتُ الْعَزِيزَ أَنِ يَصْحَبَكَ أَنَا زَوْجَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۚ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْغَالِينَ ۚ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ ٥٠ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه ، فعرف فضل يوسف ~~العليه~~ وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه وحسن أخلاقه على من يبilde من رعاياه فقال : ﴿ أَنْتُنِي بِهِ ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه ، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز ، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه ، بل كان ظلماً وعدواناً فقال : ﴿ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَيْكَ ﴾ الآية . وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه . وعن

أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُنْزِلُ السَّمَاءَ ﴾ - الآية - وَنَزَحَ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثْتُ يُوسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ » ^(١) وعن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْبَقَرَاتِ الْعِجَافِ وَالسَّمَانِ ، وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ مَا أَجَبْتُهُمْ حَتَّى أَشْتَرِطَ أَنْ يُخْرِجُونِي ، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ يُوسُفَ وَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ، حِينَ أَنَاءَ الرُّسُولُ وَلَوْ كُنْتُ مَكَانَهُ لَبَادَرْتُهُمُ الْبَابَ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْغَدْرُ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاودْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ لإخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطباتا لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز ، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿ مَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي شأنكن وخبركن ﴿ إِذْ رَاودْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ يعني يوم الضيافة ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أي قالت النسوة جوابا للملك حاش لله أن يكون يوسف متهما ، والله ما علمنا عليه من سوء ، فعند ذلك ﴿ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصَصَ الْحَقُّ ﴾ قال عباس ومجاهد وغير واحد : تقول الآن تبين الحق وظهر وبرز ﴿ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّ لِي مِنَ الصَّدِيقِينَ ﴾ أي في قوله ﴿ قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ تقول إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ﴿ تقول المرأة ولست أبرئ نفسي ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأن ﴿ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ، وقد حكاها الماوردي في تفسيره ، وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الآيتين ، أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي ، وليعلم العزيز ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الآية ، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه .

وعن ابن عباس قال : لما جمع الملك النسوة فسألهن هل راودتن يوسف عن نفسه ؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصَصَ الْحَقُّ ﴾ الآية ، فقال يوسف ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ فقال له جبريل عليه السلام : ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ﴾ الآية ^(٣) ، والقول الأول أقوى وأظهر ؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِدِيءِ اسْتِخْلَافِي لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٧) ومسلم في الفضائل (١٥٢) .

(٢) أخرجه : الطبراني في الكبير ٢٤٩/١١ ، والألباني في الصحيحة (١٩٤٥) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٣/١٣) .

الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلَيْهِ ﴿٥٦﴾ .

يقول تعالى لإخباراً عن الملك حين تحقق برلمة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال ﴿ أَتُونِي بِهِ أَتَسْخِطُهُ لِنَفْسِي ﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتني ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أي خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال ، قال له الملك ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة ، فقال يوسف عليه السلام ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَصِيظٌ عَلَيْهِ ﴾ مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة ، وذكر أنه ﴿ حَصِيظٌ ﴾ أي خازن أمين ﴿ عَلَيْهِ ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاها . وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها ، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ، ولهذا قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٧) وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٨﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أرض مصر ﴿ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يتصرف فيها كيف يشاء ، وقال ابن جرير : يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار (١) ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، فلهذا أعقبه الله تعالى النصر والتأييد ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٨) وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٩﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبية يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا ، والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر ، مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته ، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام قاله مجاهد . ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (٦٠) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِمَهَازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَنْعَامِكُمْ لَعَلَّكُمْ أَتُونَ أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٦١﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٢﴾ قَالُوا سَعَوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَ لِفَتَاهِهِ اجْعَلُوا يَصْنَعْتَهُمْ فِي رِحْلِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٤﴾ .

جاء إخوة يوسف - عن أمر أبيهم لهم - ليوسف للميرة ، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يغطي الناس الطعام بشمته ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً ، وركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام ، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف ، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته ، عرفهم حين نظر إليهم وهم له منكرون أي لا يعرفونه ؛ لأنهم فارقه وهو صغير حدث ، وباعوه للسيارة ولم يلزموا أن يذهبوا به ، ولا كانوا يستشعرون في

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٥٦/١٣) .

أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم .

فذكر السدي : غيره أنه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ فقالوا : أيها العزيز إنا قدما للميرة ، قال : فاعلمكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله ، قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله ، قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا هلك في البرية وكان أجنبنا إلى أبيه ، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم ، قال : ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرت لأعلم صدقكم فيما ذكرتكم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ ؟ يرغبهم في الرجوع إليه ، ثم رغبهم فقال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ الآية . أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ ﴿ قَالُوا سَرَّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَنَعْلَمُونُ ﴾ أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه ، وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم ، وفي هذا نظر ؛ لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيراً وهذا لحرصه على رجوعهم ﴿ وَقَالَ لِفَتَاهِهِ ﴾ أي غلامانه ﴿ اجْعَلُوا يَصْنَعُكُمْ ﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بها ، قيل : خشى يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها ، وقيل : تدم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن طعام ، وقيل أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجاً وتورعاً ، لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلْ وَإِنَّا لَمُرَّحِفُونَ ﴾ ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّهَ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلَ ﴾ يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا آخانا بنيامين لا نكتل ، فأرسله معنا نكتل وإنا له لحافظون ، قرأ بعضهم بالياء أي يكتل هو ^(١) ﴿ وَإِنَّا لَمُرَّحِفُونَ ﴾ أي لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك ، قال لهم : ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه ؟ ﴿ فَأَلَّهَ خَيْرٌ حَفِظًا ﴾ وقرأ بعضهم - حفظاً - ^(٢) ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أي هو أرحم الراحمين بي ، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي ، وأرجو من الله أن يرده عليّ ويجمع شملتي به ، إنه أرحم الراحمين .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبْغِي آهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَزَدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِيَدِهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَّ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

يقول تعالى : ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، وهي التي كان أمر

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (يكتل) بالياء والباقون بالنون (تقرب النشر في القراءات العشر ص ١٢٧) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (حافظاً) بالفتح بعد الحاء والباقون من غير ألف (تقرب النشر في القراءات العشر ص ١٢٧) .

يوسف فتياته بوضعها في رحالهم ، فلما وجدوها في متاعهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِيٌّ ﴾ أي ماذا نريد ﴿ هَذِهِ بَصَعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كما قال قتادة : ما نبغي وراء هذا إن بضاعتنا ردت إلينا ، وقد أوفى لنا الكيل ﴿ وَنَبِيْرُ أَهْلِنَا ﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿ وَتَحْفَظُ أَخَانَا وَتَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيْرٍ ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير ، وقال مجاهد : حمل حمار ، وقد يسمى في بعض اللغات بعيرا ، كذا قال ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ ﴾ أي تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿ لَأَنْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أكده عليهم فقال : ﴿ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

﴿ وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كانت يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب فقصنهما ولله لذة عليهما لعلهنه ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

يقول تعالى إخبارا عن يعقوب عليه السلام أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة فإنه كما قال ابن عباس وقتادة والسدي وغير واحد : أنه خشي عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء ، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم ، فإن العين حق ، تستنزل الفارس عن فرسه ، وروي عن إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ قال : علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب وقوله : ﴿ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه ، فإن الله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع ﴿ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كانت يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب فقصنهما قالوا : هي دفع إصابة العين لهم ﴿ وَلَئِنَّ لَذُو عَلِيرٍ لِمَا عَلَمْنَاهُ ﴾ . قال قتادة والثوري : لذو علم بعلمه ، وقال ابن جرير : لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعهم على شأنه وما جرى له وعرفه أنه أخوه ، وقال له : لا تبتس أي لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعهم عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يقيه عنده معزرا مكرما معظما .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَمَعَ السَّقَابَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنْ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ﴿ ٨ ﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا

عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧١﴾ .

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية وهي إناء من فضة في قول الأكثرين ، وقيل : من ذهب ، قاله ابن زيد ، كان يشرب فيه ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك ، وعن ابن عباس ﴿ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ الملك قال : كان من فضة يشربون فيه ، وكان مثل المكوك ، وكان للعباس مثله في الجاهلية . فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد ، ثم نادى مناد بينهم ﴿ أَيَّتُهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ ﴾ فالتفتوا إلى المنادي وقالوا ﴿ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴿ أي صاعه الذي يكيل به ﴾ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴿ وهذا من باب الجعالة ﴾ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿ وهذا من باب الضمان والكفالة .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿ .

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا ؛ لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة ، إِنَّا ﴿ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أي ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة ، فقال لهم الفتيان : ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ أي : أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه ؟ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه ، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، أي فتشها قبله تورية ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه ، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة . وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر ، وإنما قبض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ولهذا مدحه الله تعالى فقال : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَن نَّشَاءُ ﴾ ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴾ قال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله ﷻ ، وعن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب فتعجب رجل فقال : الحمد لله فوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس : بش ما قلت ، الله العليم فوق كل عالم ، وكذا روي عن ابن عباس قال : يكون هذا أعلم من هذا وهذا أعلم من هذا والله فوق كل عالم ، وقال قتادة : حتى ينتهي العلم إلى الله ، منه بدئ وتعلمت العلماء ، وإليه يعود . وفي قراءة عبد الله : وفوق كل عالم عليم .

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَنَّاتٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ يتصلون إلى العزيز من التشبه به ، وذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف عليه السلام . وعن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجدّه أبي أمه فكسره ، وقوله : ﴿ فَاسْرَمَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله : ﴿ أَنْتَ سَرَّ مَكَائًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أي تذكرون ، قال هذا في نفسه ولم يده لهم ، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر ، قال العوفي عن ابن عباس : ﴿ فَاسْرَمَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ قال : أسر في نفسه ﴿ أَنْتَ سَرَّ مَكَائًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَائًا إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٧٧ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا .

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم ، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يعنون : وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقدّه ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَائًا ﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي العادلين النصفين القابلين للخير ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عَنْدَهُ ﴾ أي كما قلتم واعترفتم ﴿ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا ﴾ أي إن أخذنا بريئاً بسقيم .

﴿ فَلَمَّا اسْتَمْتَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ٧٨ أَرْجِعُوا إِلَيْنَا أَيْبَكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ ٧٩ وَتَسَلَّ الْقَرْيَةَ أَلَيَّ كُنَّا فِيهَا وَالْعِمَرُ أَلَيَّ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يسوسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه وعاهدوه على ذلك فامتنع عليهم ذلك ﴿ خَلَصُوا ﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿ نَجِيًّا ﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو روبيل : وقيل : يهوذا ، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله قال لهم : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ لتردنه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أي لن أفارق البلدة ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ قيل : بالسيف ، وقيل : بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عنده ، ويتصلوا إليه ويرؤوا ما وقع بقولهم . وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ قال قتادة وعكرمة : ما علمنا أن ابنك سرق ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً ، إنما سألنا ماجزاء السارق ؟ ﴿ وَتَسَلَّ الْقَرْيَةَ أَلَيَّ كُنَّا فِيهَا ﴾ قيل : المراد مصر قاله قتادة ، وقيل غيرها ﴿ وَالْعِمَرُ أَلَيَّ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أي التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقة .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَلَى اللَّهِ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ

الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ وَقَالَ تِثَاسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبِیَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَضُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّىٰ تَكُونَتْ حَرْمًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّفَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ .

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿٨٣﴾ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنْفُسُكُمْ أَنْتُمْ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴿٨٤﴾ قال محمد بن إسحاق : لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم فظن أنها كفعلتهم يوسف قال : ﴿٨٥﴾ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنْفُسُكُمْ أَنْتُمْ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴿٨٤﴾ وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه وصح قوله : ﴿٨٥﴾ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنْفُسُكُمْ أَنْتُمْ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴿٨٤﴾ ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة يوسف وأخاه بنيامين ورويل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ؛ ولهذا قال : ﴿٨٥﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ أي العليم بحالي ﴿٨٥﴾ الْحَكِيمُ ﴿٨٤﴾ في أفعاله وقضائه وقدره ﴿٨٥﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ وَقَالَ تِثَاسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴿٨٤﴾ أي أعرض عن بنيهِ وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول ﴿٨٥﴾ تِثَاسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴿٨٤﴾ جَدَّدَ لَهُ حُزْنَ الْبَنِينَ الْحُزْنَ الدِّفِينِ ، وعن سعيد بن جبير أنه قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب الطَّيِّبُ ﴿٨٥﴾ تِثَاسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبِیَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق . وقال الضحاك : فهو كظيم كتيب حزين .

فعند ذلك رق له بنوه وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه ﴿٨٥﴾ تَاللَّهِ تَفْتَضُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ ﴿٨٤﴾ أي لا تفارق تذكر يوسف ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ تَكُونَتْ حَرْمًا ﴿٨٤﴾ أي ضعيف القوة ﴿٨٥﴾ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٤﴾ يقولون : إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف ﴿٨٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّفَ إِلَى اللَّهِ ﴿٨٤﴾ أي أجابهم عما قالوا بقوله : ﴿٨٥﴾ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّفَ ﴿٨٤﴾ أي همي وما أنا فيه ﴿٨٥﴾ إِلَى اللَّهِ ﴿٨٤﴾ وحده ﴿٨٥﴾ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ أي أرجو من الله كل خير .

وعن ابن عباس ﴿٨٥﴾ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ يعني رؤيا يوسف أنها صدق ، وأن الله لا بد أن يظهرها . وقال العوفي عنه في الآية : أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأني سوف أسجد له ^(١) . ﴿٨٥﴾ يَبْنَئِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّبُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٦﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَأْتِيَا الْعَزِيزُ مَسَنَا وَأَهْلَنَا الْفَرُّ وَحُشْنَا يَضَعُهُمْ مُرْجَلُهُ فَأَوْبَىٰ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٧﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب الطَّيِّبُ أنه ندب بنيهِ على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين ، والتحسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا يأسوا من روح الله ، أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون . وقوله : ﴿٨٥﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴿٨٤﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف ﴿٨٥﴾ قَالُوا يَتَأْتِيَا الْعَزِيزُ مَسَنَا وَأَهْلَنَا الْفَرُّ ﴿٨٤﴾ يعنون من

الجدب والقحط وقلة الطعام ﴿ وَجَعْنَا بِضْعَةَ مِئْزَةٍ ﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل ، وقال ابن عباس : الرديء لا ينفق مثل خلق الغرارة والحبل والشيء ، وفي رواية عنه الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان . وقال سعيد بن جبیر : هي الدراهم الفسول . وقال الضحاک : كاسدة لا تنفق .

وقوله لإخباراً عنهم ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أي : أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك ، وقرأ ابن مسعود - فأوقر ركابنا وتصدق علينا - وقال ابن جريج : وتصدق علينا برد أخينا إلينا ، وقال سعيد بن جبیر والسدي : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ يقولون : تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوز فيها ، وشئل سفيان بن عيينة : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ ؟ فقال : ألم تسمع ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ يُّوسُفَ قَالَ أَنَا يُّوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا نَأَلَّهُ لَقَدْ مَنَّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾ ﴿ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يُغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن يوسف ﷺ أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب ، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته ، وبدره البكاء فتعرف إليهم ، فيقال : إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة وقال ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل وقرأ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَنَّةٍ ﴾ الآية ، والظاهر والله أعلم أن يوسف ﷺ إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك والله أعلم ، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق فعند ذلك قالوا : ﴿ أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ يُّوسُفَ ﴾ وقرأ أبي بن كعب ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُّوسُفَ ﴾ وقرأ ابن محيصن (أنت يُّوسُفَ) والقراءة المشهورة هي الأولى ؛ لأن الاستفهام يدل على الاستعظام أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكرم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام : ﴿ أَوَلَمْ نَكْ لَأَنْتَ يُّوسُفَ قَالَ أَنَا يُّوسُفَ وَهَذَا أَخِي ﴾ .

وقوله : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا نَأَلَّهُ لَقَدْ مَنَّكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الآية ، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضاً على قول من لم يجعلهم أنبياء ، وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه ﴿ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ ﴾ يقول أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم ، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

﴿ اذْهَبُوا بِقِمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى رِجْلَيْ بَصِيرَا وَأَتُونِي بِأَمْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِمْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْكَبِيرِ ٩٥ .

يقول اذهبوا بهذا القميص ﴿ فَالْقُوهُ عَلَى رِجْلَيْ بَصِيرَا ﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ﴿ وَأَتُونِي بِأَمْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي بجميع بني يعقوب ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِمْرُ ﴾ أي خرجت من مصر ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ تنسبونني إلى الفند والكبر . وعن ابن عباس يقول : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِمْرُ ﴾ قال : لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ قال : فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام ^(١) ، وقال الحسن وابن جريج : كان بينهما ثمانون فرسخا ، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة . وقوله : ﴿ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبيرة : تسفهون ، وقال مجاهد أيضا والحسن : تهرمون . وقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْكَبِيرِ ﴾ قال ابن عباس : لفي خطئك القديم ، وقال قتادة : أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ . ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٩٥ قَالُوا يَتَّبِعُنَاكَ مَتَّبِعِينَ لَنَا دُثُونًا إِنَّا كُنَّا خُطِيعِينَ ٩٦ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٩٧ .

قال ابن عباس والضحاك : ﴿ الْبَشِيرُ ﴾ البريد ، وقال مجاهد والسدي : كان يهوذا بن يعقوب ، قال السدي : إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا ، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرا ، وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أعلم أن الله سيرده إلي ، وقلت لكم ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفين له ﴿ يَتَّبِعُنَاكَ مَتَّبِعِينَ لَنَا دُثُونًا إِنَّا كُنَّا خُطِيعِينَ ﴾ ٩٦ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٩٧ أي من تاب إليه تاب عليه ، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر ، وعن محارب بن دثار قال : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنسانا يقول : اللَّهُمَّ دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت وهذا السحر فاغفر لي ، قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأله عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ ٩٨ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَوَلَّىٰ زُرَيْتِي مِنْ قَبْلُ فَدَّ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٩٩ .

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام ، وقدمه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع

يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام ، ويقال : إن الملك خرج أيضًا لتلقيه وهو الأشبه ، وقد أشكل قوله : ﴿ ءَاوَيْتَ إِلَيْنِ أَوْبِيكَ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ ﴾ على كثير من المفسرين فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر ومعنى الكلام ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وأوى إليه أبويه ورفعهما على العرش ، ورد ابن جرير هذا وأجاد في ذلك ، ثم اختار ما حكاه السدي أن يوسف أوى إليه أبويه لما تلقاهما ، ثم لما وصلوا إلى باب البلد قال : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وفي هذا نظر أيضًا ؛ لأن الإيواء إنما يكون في المنزلة ، كقوله : ﴿ ءَاوَيْتَ إِلَيْنِ أَخَاهُ ﴾ وفي الحديث : « مَنْ أَوَى مُخِذًا » ^(١) وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآوَاهم إليه ادخلوا مصر ، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمين أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط . ويقال والله أعلم : إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدة ببركة قدوم يعقوب عليهم ، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة حين قال : « اللَّهُمَّ اعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبِيعِ يُوشَفَ » ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام ^(٢) .

وقوله ﴿ ءَاوَيْتَ إِلَيْنِ أَوْبِيكَ ﴾ قال السدي : إنما كان أباه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت قديمًا ، وقال ابن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان ، قال ابن جرير : ولم يقم دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها وهذا الذي نصره هو المنصور الذي عليه السياق . وقوله : ﴿ وَرَفَعَ أَوْبِيكَ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : يعني السرير ، أي أجلسهما معه على سريريه ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلًا ﴿ وَقَالَ يَتَّيْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي التي كان قصها على أبيه من قبل ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ الآية ، وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام ، فحرم هذا في الملة وجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى ، وفي الحديث : أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما سجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مَا هَذَا يَا مُعَاذُ ؟ » فقال إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله ، فقال : « لَوْ كُنْتُ أَمِيرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْءَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِعَظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا » ^(٣) .

وقوله : ﴿ قَدْ جَعَلْنَا رَجُلًا ﴾ أي صحيحة صدقًا ، يذكر نعم الله عليه ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِنِ إِذْ أَخْرَجْنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ أي البادية ، قال ابن جريج وغيره : كانوا أهل بادية وماشية ، وقال : كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام ، قال : وبعض يقول كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمي ، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل ، ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَجُلِي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أي إذا أراد أمرًا قبض له أسبابًا وقدره ويسره ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْفَعِيلُ ﴾ بمصالح عباده ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده ، عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة ، قال عبد الله بن شداد : وإليها ينتهي أقصى

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٠٦) ومسلم في الحج (٤٦٣) وأحمد في مسنده (٨٨/١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٤) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٥٣) والطبراني في الكبير (٣٦/٨) .

الرؤيا ، وعن الحسن قال : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة ^(١) ، وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها ، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه . وعن عبد الله بن مسعود قال : دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنساناً وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً . وعن عبد الله بن شداد : اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

هذا دعاء من يوسف الصديق دعا به ربه ﷻ لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما من الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه ﷻ كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة ، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه ، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره كما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول : « اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى » ثلاثاً ^(٢) . ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره ، لا أنه سأل ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره أمانك الله على الإسلام ، ويقول الداعي : اللهم أحيينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين ، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان ذلك سائغاً في ملتهم ، وكان ابن عباس يقول : ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام ، وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك ، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام ، كما أن نوحاً أول من قال : ﴿ رَبِّ أَنْقِزْ لِي وَلَوْ لَدَيْكَ وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا ﴾ .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَتَمَتَّعُ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِحُضْرٍ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ وَلَا بَدَّ مُتَمَتِّعًا الْمَوْتَ فَلْيَتَلَّ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي » وأخرجاه في الصحيحين وعندهما : « لَا يَتَمَتَّعُ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِحُضْرٍ نَزَلَ بِهِ إِلَّا مُحْسِنًا فَيَزِدُّهُ ، وَإِلَّا سَيِّئًا فَلَعَلَّهُ يَشْتَعِبُ ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي » ^(٣) . وعن أبي أمامة قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء وقال : يا ليتني مت ، فقال النبي ﷺ : « يَا سَعْدُ أَعِنْدِي تَمَتُّعُ الْمَوْتَ ؟ » فردد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : « يَا سَعْدُ إِنْ كُنْتَ تَخْلُقُ لِلْجَنَّةِ فَمَا طَالَ مِنْ عُمرِكَ وَحَسَنَ مِنْ عَمَلِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » ^(٤) . وهذا فيما إذا كان الضرر خاصاً به ، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت كما قال الله تعالى لإخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدهم بالقتل قالوا : ﴿ رَبَّنَا آفِرْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٩٢/١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٤) وأحمد في مسنده (٢٠٠/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٠) والترمذي في السنن (٩٧٠) والنسائي في السنن (٣/٤) وأحمد في مسنده (١٠٣/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٥) والطبراني في الكبير (٢٥٨/٨) .

قال أبو جعفر بن جرير : وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا يوسف ما فعلوا استغفر لهم أبوهم فتاب عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ذنوبهم ^(١) .

وذكر السدي أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق ، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام فدفن عندهما عليهما السلام .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَتَمَعُوا أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ٥٥ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ٥٦ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٥٧ ﴾

يقول تعالى لمحمد عليه السلام لما قص عليه نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، وما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام ، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك والانتعاظ لمن خالفك ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حاضراً عندهم ، ولا مشاهداً لهم ﴿ إِذْ أَتَمَعُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي على إلقائه في الحب ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ به ، ولكننا أعلمناك به وحياً إليك ، وإنزالاً عليك ، كقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ ﴾ الآية ، يقول تعالى إنه رسوله ، وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ كقوله : ﴿ إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصيح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، أي من جعالة ولا أجرة ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصيحا لخلقه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة . ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ٥٨ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ٥٩ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٠ ﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء ، والصمدية للأسماء والصفات ، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ قال ابن عباس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله وهم مشركون به . وفي الحديث : أن المشركين كانوا يقولون في تليبتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك وهو لك ، تملكه وما ملك . وفي صحيح مسلم : أنهم كانوا إذا قالوا : لبيك لا شريك لك ، قال رسول الله عليه السلام : « قَدْ قَدْ » أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا ^(٢) ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَلَمْتَهُ لَطَمُ عَظِيمٌ ﴾ وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ » ^(٣) وفي الحديث : « مَنْ خَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ

(١) تفسير الطبري (٩٧/١٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) والبيهقي في السنن (٤٥/٥) وأحمد في مسنده (٤٥٣/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٦١) ومسلم في الإيمان (١٤١) .

أَشْرَكَ^(١) ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرِّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَّةَ شِرْكَ » وفي لفظ لهما : « الطَّيْرَةُ شِرْكٌ وَمَا مِنَّا إِلَّا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ »^(٢) وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ، قالت : وإنه إذا جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبي فرأى في عنقي خيطاً فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه ، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الرِّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَّةَ شِرْكٌ » قالت : قلت له : لم تقل هذا وقد كانت عيني تقذف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقىها فكان إذا رقاها سكنت ، فقال : إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها ، إنما كان يكفكك أن تقولي كما قال النبي ﷺ : « أَذْهَبِ الْبَاسَ ، رَبُّ النَّاسِ ، أَشْفَى وَأَنْتَ الشَّافِي ، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءٌ لَا يُعَادِرُ سَقَمًا »^(٣) .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ يُنَادِي مُنَادٍ : مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ »^(٤) . وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَازَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُتِبَتْ تُرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ يَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً ؟ »^(٥) .

وعن أبي موسى الأشعري قال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل ، فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا : والله لنخرجن مما قلنا أو لنأتين عمر ماؤونا لنا أو غير ماؤون ، قال : بل أخرج مما قلت ؛ خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشُّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ » فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْعًا نَعْلَمُهُ ، وَنَسْتَعْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ »^(٦) . وقوله : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ الآية ، أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون .

﴿ قُلْ هَلْذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقيلين الإنس والجن ، أمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨٧/٢) والألباني في الصحيحة (١٥٥/٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٨٣) وابن ماجه في السنن (٣٥٣٠) والحاكم في المستدرک (٤١٨/٤) .

(٣) أخرجه : أحمد في مسنده (٣٨١/١) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٠٢) والمنذري في الترغيب (٦٩/١) والعجلوني في كشف الخفاء (١٥٠/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٩/٥) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٣/٤) والمنذري في الترغيب (٧٦/١) .

بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي ، وقوله : ﴿ وَسُبِّحَنَ اللَّهُ ﴾ أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عدل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً ﴿ نَسِجَ لَهُ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسِجُّ بِهِمْ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غُفُورًا ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع ، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشّرها بعيسى ﷺ ، وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا ؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صديقات كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُثِمَّ صِدْقُهُ كُنَّا نَأْكُلُ مِنْ طِينِهَا فَأَلَمَكُمُ ﴾ فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدقية ، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام ، فهي صديقة بنص القرآن . وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ الآية ، أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسَاقِ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجنفى الناس طباعاً وأخلاقاً ، وهذا هو المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل بواديهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي ، ولهذا قال تعالى ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَفَسَادًا ﴾ الآية ، وقال قتادة في قوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ لأنهم أعلم وأحلّم من أهل العمود ، وفي الحديث الآخر أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتَّهَبَ هَبَةً إِلَّا مِنْ قُرَيْشٍ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ » ^(١) .

وعن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ - قال الأعمش هو عمر - عن النبي ﷺ أنه قال : « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَضِيرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَضِيرُ عَلَى أَذَاهُمْ » ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٢/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٥) والبيهقي في السنن (٨٩/١٠) .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي من الأمم المكذبة للرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، وقال تعالى : ﴿ وَلَكَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير ، وأضاف الدار إلى الآخرة فقال : ﴿ وَلَكَارُ الْآخِرَةِ ﴾ كما يقال صلاة الأولى ، ومسجد الجامع ، وعام أول ، وبارحة الأولى ، ويوم الخميس .
﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْفَاجِرِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه ، كقوله تعالى : ﴿ وَذُرُّوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ الآية ، وفي قوله : ﴿ كُذِبُوا ﴾ قراءتان لإحداهما بالتشديد ﴿ قَدْ كُذِبُوا ﴾ وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرأها ، وعن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ قال : قلت : أكذبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة : كذبوا ، قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ ؟ قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك ^(١) ، وعن الزهري قال : أخبرنا عروة فقلت لها : لعلها قد كذبوا مخففة ؟ قالت : معاذ الله ^(٢) . وعن ابن أبي مليكة أن ابن عباس قرأها ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ خفيفة ، قال عبد الله هو ابن أبي مليكة : ثم قال لي ابن عباس : كانوا بشرًا ثم تلا ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ وعن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته وقالت : ما وعد الله محمدًا صلى الله عليه وسلم من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم . قال ابن أبي ملكية في حديث عروة كانت عائشة تقرأها ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مثقلة من التكذيب ^(٣) .
والقراءة الثانية بالتخفيف ، واختلفوا في تفسيرها ، فقال ابن عباس ما تقدم ، وعن مسروق عن عبد الله أنه قرأ ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ مخففة قال ابن مسعود : هو الذي تكره ، وهذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما . أما ابن عباس قال : لما أيسست الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم ، جاءهم النصر على ذلك ﴿ فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ وعن إبراهيم بن أبي حمزة الجزري قال : سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال : أخبرنا أبا عبد الله كيف هذا الحرف ؟ فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿ حَتَّى ﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٦) .

(٣) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿ كُذِبُوا ﴾ وقرأ عاصم وحزمة والكسائي ﴿ كُذِبُوا ﴾ (انظر : زاد المسير ٢٩٦/٤) .

إِذَا أَسْتَيْسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا ﴿١﴾ قَالَ : نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا ، فقال الضحاك بن مزاحم : ما رأيت كاليوم قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلکأ ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً ، وعن تميم بن حزم قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية ﴿ حَتَّى إِذَا أَسْتَيْسَ الرُّسُلُ ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف (١) .

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ .

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وهي العقول ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفتري من دون الله ، أي يكذب ويختلق ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من تحليل وتحريم ومحجوب ومكروه وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ويتغنون به الرحمة من رب العباد ، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْ تِلْكَ مَآئِثُ الْكُتُبِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة ، وقدمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب ، ولهذا قال : ﴿ تِلْكَ مَآئِثُ الْكُتُبِ ﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن ، وقيل : التوراة والإنجيل . قاله مجاهد وقتادة ^(١) وفيه نظر ، بل هو بعيد ، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال : ﴿ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ خبر تقدم مبتدؤه وهو قوله : ﴿ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة ، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي مع هذا البيان والجلال والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ كُلَّ يَوْمٍ تَشَاءُ يَدْبِرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ تُرَوْنَهُ ﴾ .

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي ياذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، بل ياذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدا لا تال ولا يدرك مداها ، فالسمااء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء ، من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام ، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت ، وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام وسمكها خمسمائة عام ، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَفْقَهُنَّ ﴾ الآية . وفي الحديث : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكَرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ ، وَالْكَرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ الْمَجِيدِ كَبَيْتِكَ الْحَلْقَةِ فِي تِلْكَ الْفَلَاةِ » وفي رواية : « وَالْعَرْشُ لَا يَقْدَرُ قَدْرُهُ إِلَّا اللَّهُ ﷻ » ^(٢) وقوله : ﴿ يَغْيِرُ عَمَدَ تَرَوْنَهَا ﴾ روي عن ابن عباس وغير واحد أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا ترى ، وقال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة يعني بلا عمد ، والظاهر من قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَّ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ فعلى هذا يكون قوله : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تأكيدا لنفي ذلك ، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ، وهذا هو الأكمل في القدرة .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، وأنه يمر كما جاء من غير تكليف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علوا كبيرا . وقوله : ﴿ وَسَحَّرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ﴾

﴿ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة ، كقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ وقيل : المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر ، فإنها وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش ، لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه وليس بمحيط كسائر الأفلاك ؛ لأن له قوائم وحملته يحملونه ، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير ، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة ولله الحمد والمنة . وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت ، فإذا كان قد سخر هذه فلا أن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى وقوله : ﴿ يُفْعِلُ الْآيَاتِ لَكُمْ لِقَاءَ رَبِّكُمْ تَرْتَوْنَ ﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وفي الأرض قطع متجوزات وحجّت من أعنت وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء وجيد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

لما ذكر تعالى العالم العلوي شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض ، وأرساها بجبال راسيات شامخات ، وأجرى فيها الأنهار والجدال والعيون ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح من كل ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ ﴾ أي جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر ، فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله . وقوله : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ ﴾ أي أراض يجاور بعضها بعضاً ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً . ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض ، فهذه تربة حمراء وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكل متجاورات ، فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه . وقوله : ﴿ وَحَجَّتْ مِنْ أَعْنَتٍ وَزَرَعَ وَنَخِيلٌ ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات فيكون ﴿ زَرَعَ وَنَخِيلٌ ﴾ مرفوعين ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب فيكون مجروراً ، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة . وقوله : ﴿ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ ﴾ الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك ، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ، ومنه سمي عم الرجال صنو أبيه ، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر : « أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُو أَبِيهِ » ^(١) وعن البراء ﷺ : الصنوان هي النخلات في أصل واحد ، وغير الصنوان المتفرقات . وقوله : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُضٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ :

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١١) والبيهقي في السنن (١٦٤/٦) .

﴿ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ ﴾ قال : « الدقل والقارسي والحلثو والحامض » ^(١) أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزرور في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها ، فهذا في غاية الحلاوة ، وهذا في غاية الحموضة ، وهذا في غاية المرارة ، وهذا عفص ، وهذا عذب ، وهذا جمع وهذا وهذا ، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى ، وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق ، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضب ، ففي ذلك آيات لمن كان واعيا ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فأتت بين الأشياء وخلقها على ما يريد ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوَدَا كَمَا تَرْبَاهَا لَوْ أَنَّ لَنَا خَلْقٌ جَدِيدٌ أَوَّلَتِكَ الَّذِي كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوَّلَتِكَ الْأَعْلَى فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَوَّلَتِكَ أَصْحَابَ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ ﴿ وَإِن تَعَجَّبَ ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه ، على أنه القادر على ما يشاء ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقا جديدا ، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به فالعجب من قولهم : ﴿ أَوَدَا كَمَا تَرْبَاهَا لَوْ أَنَّ لَنَا خَلْقٌ جَدِيدٌ ﴾ وقد علم كل عالم وعافل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل ثم نعت المكذبين بهذا فقال : ﴿ أَوَّلَتِكَ الَّذِي كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوَّلَتِكَ الْأَعْلَى فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أي يسحبون بها في النار ﴿ وَأَوَّلَتِكَ أَصْحَابَ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي ما كثون فيها أبدا لا يحولون عنها ولا يزولون .

﴿ وَتَسْتَعْلِفُونَ بِالْأَلْسِنَةِ قِتْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُهُبِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَتَسْتَعْلِفُونَ ﴾ أي هؤلاء المكذبون ﴿ بِالْأَلْسِنَةِ قِتْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أي بالعقوبة كما قال تعالى ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ ﴾ أي قد أوقعتنا نقمنا بالأمم الخالية ، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم . ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُهُبِهِمْ ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس ، مع أنهم يظلمون ويخطؤون بالليل والنهار ، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُمُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وعن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُهُبِهِمْ ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « لَوْ لَا عَفْوُ اللَّهِ وَتَجَاوُزُهُ مَا هُنَا أَحَدًا الْعَيْشُ ، وَلَوْ لَا وَعِيدُهُ وَعِقَابُهُ لَا تَكَلَّ كُلُّ أَحَدٍ » ^(٢) .

﴿ وَبَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ سِذْرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١١٨) .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٨٥/٩) .

يقول تعالى لإخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً : لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون ، كما تعتنوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها ، وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قال ابن عباس : أي ولكل قوم داع ، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية : يقول الله تعالى : أنت يا محمد منذر ، وأنا هادي كل قوم ، وعن مجاهد : أي نبي كقوله : ﴿ وَلَنْ يَنْ أُمَّةً إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ وعن عكرمة وأبي الضحى قالا : هو محمد ﷺ . وقال مالك : يدعوهم إلى الله ﷻ . ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝ .

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ أي ما حملت من ذكر أو أنثى ، أو حسن أو قبيح ، أو شقي أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره ، كقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ أي خلقكم طوراً من بعد طور ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ خَلَقَ أَحَدُكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عِلَاقَةً مِّثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِّثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، يَكْتُبُ رِزْقَهُ ، وَغَمْرَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ » وفي الحديث الآخر « فَيَقُولُ الْمَلَكُ أَيُّ رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أَثْنَى ؟ أَيُّ رَبِّ أَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ ؟ فَمَا الرِّزْقُ ؟ فَمَا الْأَجَلُ ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ » (١) .

وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ ﴾ يعني السقط ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ يقول ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً ، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى ، وكل ذلك بعلمه تعالى . وقال الضحاك عن ابن عباس قال : ما نقصت من تسعة وما زاد عليها ، وقال الضحاك : وضعتني أُمِّي وقد حملتني في بطنها سنتين ، وولدتني وقد نبئت ثنييتي . وعن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل ، وقال مجاهد : ما ترى من الدم في حملها وما تزداد على تسعة أشهر .

وقال قتادة : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ أي بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلاً معلوماً . وفي الحديث الصحيح : أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت وأنها تحب أن يحضره ، فبعث إليها يقول : « إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَمُرُوهَا فَلْتَضْمِرْ وَلْتَحْسِبْ » (٢) . وقوله : ﴿ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد وما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ﴿ الْمُتَعَالِ ﴾ أي على كل شيء ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ وقهر كل شيء فخضعت له

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ومسلم في الجنائز (١١) أحمد في مسنده (٢٠٤/٥) والبيهقي في السنن (٦٥/٤) .

الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً .

﴿ سَوَاءٌ يَنْصُرُكَ مِنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَلِيلٍ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ ﴾ ❶ لَمْ مُعَقِّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ دَالٍ ﴾ .

يخير تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به فإنه يسمعه ، لا يخفى عليه شيء كقوله : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْإِخْفَى ﴾ وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : سبحان الذي وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وأنا في جنب البيت وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها ، فأُنزل الله ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَلِيلٍ ﴾ أي مختفٍ في قعر بيته في ظلام الليل ﴿ وَسَارٍ بِالنَّهَارِ ﴾ أي ظاهر ماش في يياض النهار وضياؤه ، فإن كلاهما في علم الله على السواء كقوله تعالى : ﴿ أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَفْشِقُونَ إِتَابَهُمْ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ لَمْ مُعَقِّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فائنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً ، حافظان وكتابان كما جاء في الصحيح : « يَتَعَقَّبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَحْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ، فَيُضَعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَشَأُلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ - كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ » ❶ وقال ابن عباس في قوله : ﴿ لَمْ مُعَقِّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ والمُعَقِّبَاتُ من الله هي الملائكة ، وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه ، وقال مجاهد : ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيء يأتيه يريدُه إلا قال له الملك : ورائك ، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه . وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ لَمْ مُعَقِّبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ يعني ولي السلطان يكون عليه الحرس ، وقال عكرمة في تفسيرها : هؤلاء الأمراء الموابك من بين يديه ومن خلفه ، وقال الضحاک في الآية : هو السلطان المحروس من أمر الله وهم أهل الشرك ، والظاهر والله أعلم أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاک بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم .

وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وَإِيَّايَ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ » ❷ .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٩) ومسلم في المساجد (٢١٠) وأحمد في مسنده (٤٨٦/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٦٩) وأحمد في مسنده (٣٩٧/١) .

وقوله : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ قيل المراد حفظهم له من أمر الله ، وقال قتادة : قال وفي بعض القراءات - يحفظونه بأمر الله - وقال أبو أمامة : ما من آدمي إلا ومعه ملك يزود عنه حتى يسلمه للذي قدر له ، وقال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى علي عليه السلام وهو يصلي فقال : احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك ، فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، إن الأجل جنة حصينة . وقال بعضهم : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ بأمر الله كما جاء في الحديث أنهم قالوا : يا رسول الله أرأيت رقتا نسترقى بها هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : « هي مِنْ قَدَرِ اللَّهِ » ^(١) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ قد ورد في حديث مرفوع ، عن علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال : كنت إذا أمسكت عن رسول الله صلى الله عليه وآله ابتدأني ، وإذا سأله عن الخبر أنبأني ، وإنه حدثني عن ربه صلى الله عليه وآله قال : « قَالَ الرَّبُّ : وَعَزَّتِي وَجَلَالِي وَارْتِفَاعِي فَوْقَ عَرْشِي ، مَا مِنْ قَزِيَةٍ وَلَا أَهْلِ بَيْتٍ كَانُوا عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ مَغْصِبَتِي ثُمَّ تَحَوَّلُوا عَنْهَا إِلَى مَا أُحِبُّتُ مِنْ طَاعَتِي إِلَّا تَحَوَّلْتُ لَهُمْ عَمَّا يَكْرَهُونَ مِنْ غَدَابِي إِلَى مَا يُحِبُّونَ مِنْ رَحْمَتِي » ^(٢) .

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ وَيَسْجِعُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ حَيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴾ .
يخبر تعالى أنه هو الذي يستر البرق وهو ما يرى من الشرر اللامع ساطعا من خلال السحاب ، وعن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق فقال : البرق : الماء ^(٣) . وقوله ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قال قتادة : خوفا للمساfer يخاف أذاه ومشقته ، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة ، وهي لكثرة مائها ثقيلة قربة إلى الأرض ، قال مجاهد : السحاب الثقال الذي فيه الماء . قال : ﴿ وَيَسْجِعُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَئِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ وعن إبراهيم بن سعد أخبرني أبي قال : كنت جالسا إلى جنب حميد ابن عبد الرحمن في المسجد ، فمر شيخ من بني غفار فأرسل إليه حميد ، فلما أقبل قال : يا ابن أخي وسع فيما بيني وبينك ، فإنه قد صحب رسول الله صلى الله عليه وآله فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه فقال له حميد : ما الحديث الذي حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال له الشيخ : سمعت عن شيخ من بني غفار أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ السَّحَابَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النَّطْقِ وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ » ^(٤) وعن سالم عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا سمع الرعد والصواعق قال : « اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ » ^(٥) وعن أبي هريرة رفعه أنه كان إذا سمع الرعد قال : « سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ » ^(٦) وعن أبي هريرة أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « قَالَ رَبُّكُمْ ﷻ : لَوْ أَنَّ عِبِيدِي أَطَاعُونِي لَأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ ، وَأَطْلَعْتُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٤٨) وابن ماجه في السنن (٣٤٢٧) والحاكم في المستدرک (٤٠٢/٤) .

(٢) ذكره المنذري في الترغيب (٢٣٤/٤) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٢/١٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٥/٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٠/٢) والبيهقي في السنن (٣٦٢/٣) والحاكم في المستدرک (٢٨٦/٤) .

(٦) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٩/٩) والطبري في تفسيره (١٦٢/١٣) .

عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ بِالنَّهَارِ، وَلَمَّا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرُّعْدِ^(١) . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الرُّعْدَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّهُ لَا يُصِيبُ ذَاكِرًا »^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَنُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي يرسلها نعمة ينتقم بها من يشاء ، ولهذا تكثر في آخر الزمان ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « تَكْثُرُ الصَّوَاعِقُ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ ، حَتَّى يَأْتِيَ الرَّجُلُ الْقَوْمَ فَيَقُولُ مَنْ صَبَقَ قَبْلَكُمْ الْغَدَاةَ ؟ فَيَقُولُونَ : صَبَقَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ »^(٣) . وقد روي في سبب نزولها عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال : « أَذْهَبَ فَأَذْغُهُ لِي » قال : فذهب إليه فقال : يدعوك رسول الله ﷺ ، فقال له : من رسول الله ؟ وما الله ؟ أمن ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو ؟ قال : فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : قد خبرتك أنه أعتى من ذلك ، قال لي كذا وكذا ، فقال له : « ازْجِعْ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ » فذهب فقال له مثلها ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك ، فقال : « ازْجِعْ إِلَيْهِ فَأَذْغُهُ » فرجع إليه الثالثة قال : فأعاد عليه ذلك الكلام فبينما هو يكلمه إذ بعث الله ﷻ سحابة حيال رأسه فعدت ، فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَنُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ الآية^(٤) .

وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن وكذب النبي ﷺ ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته ، وأنزل الله ﷻ ﴿ وَنُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ الآية ، وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر ، فأبى عليهما رسول الله ﷺ فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله : أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرّداً ورجالاً مردّاً ، فقال له رسول الله ﷺ : « يَأْتِي اللَّهَ عَلَيْكَ ذَلِكَ وَأُتْبَاءُ قَيْلَةٍ » يعني الأنصار ، ثم إنهما هُتّا بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقبله من ورائه ، فحماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام ، فأرسل الله على أريد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول : يا آل عامر غدة كغدة البكر وموت في بيت سلوية ، حتى ماتا لعنهما الله ، وأنزل الله في مثل ذلك : ﴿ وَنُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾^(٥) وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخو أريد يرثيه :

أَخْشَى عَلَى أَزْبَدِ الْحُثُوفِ وَلَا
أَوْهَبُ نَوْءِ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ
فَجَعَنِي الرُّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِأَلْ
فَارِسٍ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ النُّجْدِ^(٦)

وقوله : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ أي يشكّون في عظمته وأنه لا إله إلا هو ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴾ قال ابن جرير : مما حلت في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره^(٧) ، وعن علي رضي الله عنه وهو

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والحاكم في المستدرک (٢٥٦/٤) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥١/٤) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٣) .

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٤٦٨) والبيهقي في مجمع الزوائد (٤٢/٧) .

(٥) أسباب النزول للواحدي (ص : ٢٠٤) ، وتفسير الطبري (١٥٨/١٣) .

(٦) المحتوف : الأجل . والجد : الشديد ، (انظر : ديوان لبيد ص : ١٥٨) مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤ .

(٧) تفسير الطبري (١٦٦/١٣) .

شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٤﴾ أَي شَدِيدُ الْأَخْذِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : شَدِيدُ الْقُوَّةِ .

﴿ لَمْ دَعُوهُ لَمُنًى وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغٍ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ .

قال علي بن أبي طالب عليه السلام : ﴿ لَمْ دَعُوهُ لَمُنًى ﴾ قال : التوحيد ، وقال محمد بن المنكدر ﴿ لَمْ دَعُوهُ لَمُنًى ﴾ لا إله إلا الله ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ الآية ، أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿ كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ قال علي بن أبي طالب : كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده ، فهو لا يناله أبداً بيده ، فكيف يبلغ فاه ؟ وقال مجاهد : ﴿ كَبْسِطٍ كَفْتِهِ ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً . وقيل : المراد كقباض يده على الماء فإنه لا يحكم منه على شيء كما قال الشاعر :

فَأُضْبِحْتُ بِمَا كَانَ بَنِي وَبَيْنَهَا مِنْ الْوُدِّ مِثْلَ الْقَائِضِ الْمَاءِ بِالْيَدِ (١)

ومعنى هذا الكلام أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا إِنَّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين ، وكرهاً من الكافرين ﴿ وَظُلُمًا إِنَّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ وهو جمع أصيل وهو آخر النهار .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَأَعْبُدُكُمْ مِن دُونِهِ أُولَئِكَ لَا يَتْلُونَ إِلَّا نَفْسًا وَلَا صَرَ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض ، وهو ربها ومديرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفقا ولا ضرا ، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ؟ ولهذا قال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركين مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقهم فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره ، أي ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ند له ولا عدل له ، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة ﴿ وَتَمَلَّكَ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له ، كما كانوا يقولون في تليتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك (٢) وكما أخبر تعالى عنهم في قوله : ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث

(١) البيت للأحوص بن محمد الأنصاري . انظر : مجاز القرآن لأبي عبيدة (٣٢٧/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ .
 ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُمْ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَخَرٍ فَيَقْرَبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَحْضَرُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفناءه ، فقال تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَهُمْ بِقَدَرِهَا﴾ أي أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علماً كثيراً ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه ، هذا مثل . وقوله : ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ الآية ، هذا هو المثل الثاني ، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية أي لجعل حلية أو نحاساً أو حديدًا فيجعل متاعاً ، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي إذا اجتماعاً لا ثبات للباطل ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل ، ولهذا قال : ﴿فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَحْضَرُ جُفَاءً﴾ أي لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ، ويلقى بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء ، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال : ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ .

وقال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله تعالى يقول : ﴿وَمَا يَعْطِفُكَ إِلَّا أَلَمُكَ لَمُوتِكَ﴾ قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله ، وهو قوله : ﴿فَأَمَّا الزَّيْدُ﴾ وهو الشك ﴿فَيَحْضَرُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو اليقين ، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار ، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك . وقال العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُمْ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يقول : احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد ، فللنحاس والحديد خبث ، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء ، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأثبتت ، فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله ، والعمل السيئ يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد ، وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله ، فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض ، وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل ، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك ، وينتفع أهل الحق بالحق . وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين

مثلين نارياً ومائياً وهما قوله ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الآية ، ثم قال : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ وَرَبُّهُ﴾ الآية .

وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين ، أحدهما : قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَرَابٍ﴾ الآية ، والسراب إنما يكون في شدة الحر ، ولهذا جاء في الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون : أي ربنا عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا تردون ؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً ^(١) ، ثم قال تعالى في المثل الآخر ﴿أَوْ كَظُلُمٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ الآية ، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أُجَادِبٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَقَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَزَرَعُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَتْ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قَيْحَانٌ لَا تُنْمِسُكُ مَاءٌ وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ قَفِيَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ فَعِلْمٌ وَعِلْمٌ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَزِفْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » ^(٢) فهذا مثل مائياً ، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدُّوَابُّ الَّتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، وَجَعَلَ يَحْجِرُهُنَّ وَيَغْلِبُنَّهُ فَيَفْتَحِحْنَ فِيهَا - قَالَ - فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ ، أَنَا أَخُذُ بِحُجَرِكُمْ عَنِ النَّارِ ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونَنِي فَتَفْتَحِحُونَنِي فِيهَا » ^(٣) ، فهذا مثل نارياً .

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخَيْرُ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ .

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا أخباره الماضية والآتية فلهم ﴿الْخَيْرُ﴾ وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنَاسِقَةٍ زِيَادَةٌ﴾ وقوله : ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي لم يطيعوا الله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي في الدار الآخرة ، أي يناقشون على النقيير والقطمير والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عذب ، ولهذا قال : ﴿وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ .

﴿أَمَّنْ يَلْعَنُ أُمَّةً آتَرَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَقَدْ كُنَّ هُمْ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ .

يقول تعالى : لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٧٣) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) وأحمد في مسنده (٣٦٨/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٧٩) ومسلم في الفضائل (١٥) وأحمد في مسنده (٣٩٩/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٦) ومسلم في الفضائل (٢١) وأحمد في مسنده (٣١٢/٢) .

بعضاً ، فأخبره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه : ﴿ أَفَنُفِئَةٌ أَمْ أَرْثٌ أَمْ لَكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كُنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ أي أفهذا كهذا ؟ لا استواء . وقوله : ﴿ إِنَّا نَذْكُرُ لَكُمْ وَلَوْلَا إِلَهُكُمُ ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

﴿ الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴾ ٥٠ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ٥١ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَمْ يُعْطِ الدَّارَ ٥٢ جَنَّتْ عَنْهُمْ يَدْخُلُونَهَا وَنَ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ٥٣ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ .

يقول تعالى مخبراً عن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار ، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿ الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان . ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة ، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية . ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أي عن المحارم والمأثم ففطموا أنفسهم عنها لله تعالى ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي في السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، أثناء الليل وأطراف النهار ﴿ وَيَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ جَنَّتْ عَنْهُمْ ﴾ والعدن الإقامة أي جنات إقامة يخلدون فيها .

وقوله : ﴿ وَنَ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى أنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته ، وقوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ٥٣ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هَلْ تَذَرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِي اللَّهُ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِي اللَّهُ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ ، وَتُنْفَى بِهِمُ الْمَكَارَةُ ، وَيُكْوَتْ أَعْدُهُمْ وَحَاجَّتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ

ذهباً ، وأن يجري لهم ينبوعاً ، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال : ﴿ بَلْ تَفْتَحْ لَهُم بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ ﴾ ^(١) ولهذا قال لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُبْدِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ ﴾ أي هو المضل والهادي ، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبههم إلى سؤالهم ، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ ﴾ أي ويهدي إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً ، ولهذا قال : ﴿ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أي هو حقيق بذلك . وقوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجَبَ ﴾ عن ابن عباس : فرح وقرة عين ، وقال عكرمة : نعم ما لهم ، وقال الضحاك : غبطة لهم ، وقال إبراهيم النخعي : خير لهم ، وقال قتادة : هي كلمة عربية يقول الرجل : طوبى لك ، أي أصبت خيراً ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ طُوبَى لَهُمْ ﴾ قال : هي أرض الجنة بالحشبية ، وقال العوفي عن ابن عباس : لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجَبَ ﴾ وذلك حين أعجبه . وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك . قال : « طُوبَى لِمَنْ رَأَى وَأَمَنَ بِي ، وَطُوبَى لِمَنْ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَزِنِي » قال له رجل : وما طوبى ، قال : « شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرُهَا مِائَةٌ عَامَ ، يُثَابُ أَهْلُ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْثَمِهَا » ^(٢) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ ، أَفَرُّوا إِنْ شِئْتُمْ ﴾ وظلٌّ مَدْوَرٌ ﴿ ٣ ﴾ .

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَىهَا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿ لَبِثُوا عَلَىهَا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم ، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كُذِّبَ الرسل من قبلك فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم ، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَّوْا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتُمْ نَصَرْتُمْ وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَرْسَلِينَ ﴾ أي كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة ، وقوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيها يكفرون بالرحمن لا يقرّون به ؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا : ما ندري ما الرحمن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٢/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨/٥) والحاكم في المستدرک (٨٦/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٢) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨) .

الرَّحِيمِ ^(١) ، وقد قال الله تعالى ﴿ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ نُسَبُّ ﴾ وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَحَبَّ الْأَسْمَاءُ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ » ^(٢) ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به معترف ، مقرر له بالربوبية والإلهية هو ربي لا إله إلا هو ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي في جميع أموري ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أي إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴾ .

يقول تعالى مادحا للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله ﷻ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهد الله فما له من مضل ، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة ؛ لأنه مشتق من الجمع . فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنُ ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِذَاتِهِ أَنْ تُسْرَجَ ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلٍ يَدَّيْهِ » ^(٣) والمراد بالقرآن هو الزبور .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في القول والنفوس ، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله ﷻ على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، فَارْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٤) معناه أن معجزة كل نبي انقضت بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله . وعن عطية العوفي قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ الآية ، قالوا لمحمد ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه ، فأنزل الله هذه الآية ، قال : قلت : هل

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٥١) .

(٢) أخرجه مسلم في الآداب (٢) بلفظ « إِنْ أَحَبَّ أَسْمَاءُكُمْ .. » والبيهقي في السنن (٣٠٦/٩) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٣) وأحمد في مسنده (٣١٤/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٧٤) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ ؟ قال : نعم ، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ، وكذا روي عن ابن عباس والشعبي وقتادة والثوري وغير واحد في سبب نزول هذه الآية والله أعلم . وقال قتادة : لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم . وقوله : ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ قال ابن عباس : أي لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل . ﴿ أَفَلَمْ يَأْتِ الْذِّكْرَ ءَامِنًا ﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا ، وقرأ آخرون : أفلم يتبين الذين آمنوا ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، وقال أبو العالية : قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعًا .

وقوله : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا . قال الحسن ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أي القارعة ، وهذا هو الظاهر من السياق ، وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قال : سرية ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ قال محمد ﷺ ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ قال : فتح مكة ، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قال : عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ يعني نزول رسول الله ﷺ بهم ، وقال عكرمة في رواية عن ابن عباس ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ أي نكبة ، وكلهم قال : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ يعني فتح مكة ، وقال الحسن البصري : يوم القيامة ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ أَلْعِثَادَ ﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِّن قَبْلِكَ ﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أخذه راية ، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأملت لهم كما قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَتَيْنَا لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا وَإِلَى الْمَعِيدِ ﴾ وفي الحديث « إِنَّ اللَّهَ لَيُعْطِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

﴿ أَفَتَنُوحُوا قَائِدًا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَبْلُغُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَعَصُدُوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَتَنُوحُوا قَائِدًا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفسوسة ، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية ﴿ يَبْلُغُ الْبَرَّ وَآخِفُ ﴾ أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعباديتها ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه ، وهو قوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم ، ولهذا قال : ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَبْلُغُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لا وجود له ؛ لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ أَمْ يَظْهَرُ

يَنْ الْقَوْلُ ﴿١﴾ قال مجاهد بظن من القول ، وقال الضحاك وقتادة : يبطل من القول ، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتوها آلهة ﴿٢﴾ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ ﴿٣﴾ قال مجاهد : قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار كقوله تعالى : ﴿٤﴾ وَفَيَضَنَّا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَرَيَنَاهُمْ ﴿٥﴾ الآية ﴿٦﴾ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴿٧﴾ من قرأها بفتح الصاد معناه أنه لما زين لهم ما فيه وأنه حق ، دعوا إليه وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل ، ومن قرأها بالضم أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ، ولهذا قال : ﴿٨﴾ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ هَازٍ ﴿٩﴾ .
﴿١٠﴾ لَمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ رَافٍ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي رُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمَاتُهَا لَيْسَ عَنْهَا لَوُحٌ مُنِيرٌ ﴿١٣﴾ .

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار ، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿١٤﴾ لَمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿١٥﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسرًا ﴿١٦﴾ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ ﴿١٧﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿١٨﴾ أَشَقُّ ﴿١٩﴾ أي من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ» ^(٢) وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه ، فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذاك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً ، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته ، كما قال تعالى : ﴿٢٠﴾ فَيَوْمَذٍ لَا يَمِيزُ لَا يَعِذُّ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يُوثِقُ وَاقِعَهُ أَحَدٌ ﴿٢٢﴾ ولهذا قرن هذا بقوله : ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي رُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ أي صفتها ونعتها ﴿٢٥﴾ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٢٦﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً ، أي يصرفونها كيف شاءوا وأين شاؤوا كقوله : ﴿٢٧﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي رُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعِينٌ ﴿٢٨﴾ الآية .

وقوله : ﴿٢٩﴾ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمَاتُهَا ﴿٣٠﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء ، وما روي عن ابن عباس في صلاة الكسوف وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكلمت فقال : «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ - أَوْ أَرَيْتُ الْجَنَّةَ - فَتَنَاولْتُ مِنْهَا عُثْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُه لَأَكَلْتُ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا» ^(٣) وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَمْتَلِئُونَ وَلَا يَغْمُغُونَ وَلَا يَبُولُونَ ، طَعَامُهُمْ جُشَاءٌ كَرِيمٌ الْمِسْكُ ، وَيُلْهَمُونَ التَّشْيِيعَ وَالتَّقْدِيسَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ» ^(٤) .

وعن تمام بن عتبة سمعت زيد بن أرقم قال : جاء رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم : تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : «نعم والذي نفسي محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة» قال : إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في

(١) قرأ عاصم وحزمة والكسائي ﴿١﴾ وَصَدُّوا ﴿٢﴾ بضم الصاد على ما لم يسم فاعله ، وقرأ الباقون ﴿٢﴾ وَصَدُّوا ﴿٣﴾ بفتح الصاد (انظر حجة القراءات ص ٣٧٣ ، ٣٧٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٤٨) ومسلم في الكسوف (١٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٩) وأحمد في مسنده (٣٤٩/٣) .

الجنة أذى ؟ قال : « تَكُونُ حَاجَةً أَحَدِهِمْ رَشْحًا يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ كَرِيحِ الْمِسْكِ فَيَضُمُّرُ بَطْنُهُ » (١) .

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَفِيهَا ظِلَالٌ كَظِلِّ الظُّلُمِ » .

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار ، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده ﴿ تِلْكَ عِقَى الَّذِينَ أَتَقَوْا وَعِقَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِقُرْحٍ يَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُبْكَرُ بَعْضُهُمْ قُلُوبًا أَمَّا أُثِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَهِي دَعَا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ وكذلك أنزلته حكماً عربياً ولين أتبع أهواءهم بعد ما جاءك من الويل ما لك من الله من ويلي ولا واقف .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ ﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿ بِقُرْحٍ يَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَقُولًا ﴾ أي إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائناً ، فسبحانه ما أصدق وعده فله الحمد وحده . وقوله : ﴿ وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُبْكَرُ بَعْضُهُمْ ﴾ أي ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك وقال مجاهد ﴿ وَمِنَ الْأَخْرَابِ ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ مَنْ يُبْكَرُ بَعْضُهُمْ ﴾ أي بعض ما جاءك من الحق ، وهذا كما قال تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ الآية ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُثِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ ﴾ أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له ، كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُوا ﴾ أي إلى سبيله أَدْعُو الناس ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ أي مرجعي ومصيري . وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجملي وقوله : ﴿ وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي آراءهم ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَيْلِ ﴾ أي من الله سبحانه ﴿ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقِفٍ ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة ، بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة الحمديّة على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَحَمَلْنَا لَكُمْ آزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِثُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ .

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً ، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم ﴿ وَحَمَلْنَا لَكُمْ آزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « أَنَا أَنَا فَاصُومُ وَأَفْطِرُ ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي مُشْتِي فَلَيسَ مِنِّي » (٢)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (٥) وأحمد في مسنده (٤٠٩/٥) .

وقال أبو أيوب : قال رسول الله ﷺ : «أَرْبَعٌ مِنْ شُئْنِ الْمُرْسَلِينَ : التَّعَطُّرُ وَالتَّكَاخُ وَالسَّوَاكُ وَالْحِنَاءُ » ^(١) .
 وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه ليس ذلك إليه ، بل إلى الله ﷻ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها ، وكل شيء عنده بمقدار ، وكان الضحاك بن مزاحم يقول في قوله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي لكل كتاب أجل ، يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين فلهذا ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ منها ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ يختلف المفسرون في ذلك ، فعن ابن عباس : يدبر أمر السنة فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت ، وفي رواية ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ قال : كل شيء إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة ، فإنه قد فرغ منهما . وقال مجاهد : إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران . وقال منصور : سألت مجاهداً فقلت : أرأيت دعاء أحدنا يقول : اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبتته فيهم ، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء ، فقال : حسن ، ثم لقيته بعد ذلك بحول وأكثر فسألته عن ذلك . فقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ﴾ الآيتين ، قال يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة ، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير .

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأنس لهذا القول بما روي عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُخْرَمُ الرِّزْقُ بِالدَّنْبِ يُصِيبُهُ ، وَلَا يَزِدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ » ^(٢) وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « يُفْتَنُ الذُّكْرُ فِي ثَلَاثِ سَاعَاتٍ يَقِفْنَ مِنَ اللَّيْلِ ، فِي السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْهَا يُنْظَرُ فِي الذُّكْرِ الَّذِي لَا يُنْظَرُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ » ^(٣) .

وقال عكرمة عن ابن عباس : الكتاب كتابان فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ أَمْ الْكِتَابِ يقول : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله ، وهو الذي يثبت . وروي عن سعيد بن جبير أنها بمعنى ﴿ فَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ يقول يبدل ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب .

﴿ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَوَفِّتُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٧/٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢١/٥) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢٣/١٣) .

نَنْقُصَهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٠﴾ .

يقول تعالى لرسوله : ﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ ﴾ يا محمد بعض أعدائك من الخزري والنكال في الدنيا ﴿ أَوْ نَوَفِّتَنَّكَ ﴾ أي قبل ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ ﴾ أي إنما أرسالناك لتبلغهم رسالة الله ، وقد فعلت ما أمرت به ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أي حسابهم وجزائهم ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال ابن عباس : أو لم يروا أننا نفتح لحمد ﷺ الأرض بعد الأرض ، وقال في رواية : أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية ، وقال مجاهد وعكرمة ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال : خرابها ، وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين ، وقال العوفي عن ابن عباس : نقصان أهلها وبركتها ، وقال ابن عباس في رواية : خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها . والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْتُبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُنِيَ الدَّارِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ ① فأنظر كيف كانت عاقبة مكرهم أننا دمرتهم وقومهم أجمعين ② فتلك يؤتتهم غاوية بما ظلموا ③ ، وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْتُبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزي كل عامل بعمله ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكَاذِبُ ﴾ والقراءة الأخرى ﴿ الْكُفْرُ ﴾ ④ لِمَنْ عُنِيَ الدَّارِ ⑤ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل ، كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة ولله الحمد والمنة .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

يقول تعالى يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون : ﴿ لَسَتْ مُرْسَلًا ﴾ أي ما أرسلك الله ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي حسي الله هو الشاهد علي وعليكم ، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . وقوله : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ قيل : نزلت في عبد الله بن سلام ، قاله مجاهد وهذا القول غريب لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله ابن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة ، والأظهر في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس قال : هم من اليهود والنصارى ، وقال قتادة : منهم ابن سلام وسلمان وقيم الداري ، وقال مجاهد في رواية عنه : هو الله تعالى ، وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ، ويقول : هي مكية وكان يقرؤها ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ويقول : من عند الله .

والصحيح في هذا أن ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَحِمَنِي وَسَيَعَتُ كُلُّ فِتْنَةٍ فُسَاكَتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ⑥ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ الرُّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ⑦ الآية وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة . وقد ورد في حديث الأخبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة .

(١) قرأ المدنيان وابن كثير وأبو عمرو ﴿ الكافر ﴾ على التوحيد والباقون ﴿ الكفار ﴾ على الجمع - (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٢٩) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَنَبِيٌّ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿رَحْمَنُ الرَّحِيمِ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء ، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض ، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي ، إلى الهدى والرشد وقوله : ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يقابل ، بل هو القاهر لكل ما سواه ﴿الْحَمِيدِ﴾ أي الحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه ، الصادق في خبره . وقوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعاً ، وقرأ آخرون على الإتيان صفة للجلالة ^(١) ، وقوله : ﴿وَنَبِيٌّ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة ؛ إذ خالفوك يا محمد وكذبوك ، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة ، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ .

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، كما روي عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا بِلُغَةِ قَوْمِهِ » ^(٢) .

وقوله : ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم ، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك ، وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاخص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر

(١) قرأ اللذان وابن عامر ﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ برفع الهاء في الحالين وواقهم رويس في الابتداء والباقيون بالخفض في الحالين . تقريب النشر في

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٨/٥) .

القرامات العشر من ١٢٩ .

الناس ، كما ثبت عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصْرَتُ بِالرَّغَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَقُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُعْتَقُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (١) وقال تعالى : ﴿ قَدْ يَتَابَهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا ، قال مجاهد : وهي التسع الآيات ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ أي أمرناه قائلين له ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال ، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ أي بأيادي ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وقلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم الغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم ، وعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ قال : « بِنِعْمِ اللَّهِ » (٢) وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعلهم لكل صبار أي في الضراء ، شكور أي في السراء ، كما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (٣) .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِمَّنْ رَزَقَكُمْ عَظِيمٌ ﴾ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ لِنِ شُكْرَتِكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَكِنَّ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم ؛ إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ويتركون إناثهم ، فأنقذهم الله من ذلك ، وهذه نعمة عظيمة ولهذا قال : ﴿ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِمَّنْ رَزَقَكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها . وقيل وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ بَلَاءٌ ﴾ أي اختبار عظيم . ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا والله أعلم ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَكُونُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِحُجْرَتٍ مُعْتَمِرَةٍ وَتَجْعَلُونَ رِجْلَكُمْ ﴾ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ ﴾ أي أذنكم وأعلمكم

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٨) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (١٦١/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٢/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٤) وأحمد في صحيحه (٣٣٣/٤) .

بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكَّتْ لِيَعْمَنَ عَلَيْهِمْ إِلَّا يَوْمَ الْيُكُوفِ ﴾ وقوله : ﴿ لَيْنَ شُكْرُكُمْ لَا زِيدَنَّكُمْ ﴾ أي لمن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ ﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابها إياهم على كفرها ، وقد جاء الحديث : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُخْرَمُ الرِّزْقُ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » (١) .

وعن أنس قال : أتى النبي ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها أو وحش بها - قال - وأتاه آخر فأمر له بتمرة ، فقال سبحانه الله تمرة من رسول الله ﷺ فقال للجارية : « أَذْهَبِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ ، فَأَعْطِيهِ الْأَزْبَعَيْنِ دِرْهَمًا الَّتِي عِنْدَهَا » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنَفِي حَيْدٍ ﴾ أي هو غني عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفر ، كقوله : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنكَ ﴾ الآية ، وعن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال : « يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ » (٣)

فسبحانه وتعالى الغني الحميد .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ .

قال ابن جرير : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعني وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسول ، وفيما قال ابن جرير نظر ، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ، فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم لا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة والله أعلم . وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول مما لا يحصي عددهم إلا الله ﷻ ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات . فعن عبد الله أنه قال في قوله : ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ كذب النسابون . وقوله : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، قيل : معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله ﷻ ، وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم ، وقيل : بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل ، ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ فكان هذا والله

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٤/٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) .

أعلم تفسير لمعنى ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِيْ أَوْهَامِهِمْ﴾ وعن عبد الله في قوله : ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِيْ أَوْهَامِهِمْ﴾ قال : عضوا عليها غيظًا ، وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ووجهه ابن جرير مختارًا له بقوله تعالى عن المنافقين : ﴿وَإِذَا خَلَا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَابِلَ مِنَ الْغِيظِ﴾ وقال ابن عباس : لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أوهامهم ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ الآية ، يقولون : لا نصدقكم فيما جفتم به ، فإن عندنا فيه شكًا قويًا .

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أُنْشِئَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنُؤَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾^{١٠} قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكَ لِلْمُؤْمِنِينَ^{١١} وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له قالت الرسل : ﴿أَفِى اللَّهِ شَكٌّ﴾ وهذا يحتمل شيئين : أحدهما : أفي وجوده شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار فحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه .

والمعنى الثاني في قولهم : ﴿أَفِى اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي أفي إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقرّبهم من الله زلفى .

وقالت لهم رسلهم : ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي في الدنيا ، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول وحاصل ما قالوه : ﴿إِنْ أُنْشِئَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة ﴿فَأَنُؤَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي خارق نقترحه عليكم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتكم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بعد سؤالنا إياه ، وإذنه في ذلك ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي في جميع أمورهم . ثم قالت الرسل : ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هदानا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَذَيْتُمُونَا﴾ أي من الكلام السيئ والأفعال السخيفة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوَّحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾^{١٢} وَلَنَخْرِجَنَّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ^{١٣} وَأَسْتَفْتَهُمْ خَافَ كُلُّ

جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١١﴾ مِّنْ وَرَأْيِهِ جَهَنَّمُ وَنُفْسٌ مِّنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٢﴾ يَبْجَرَعُهُمْ وَلَا يَكَادُ يُسِيقُهُمْ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ مِّنْ وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٣﴾ .

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم ، كما قال قوم شعيب له ولبن آمن به : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ الآية . وكما قال قوم لوط : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾ الآية ، وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله تعالى ، ولم يزل يريه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته ، ومكن له فيها وأرغم أنوف أعدائهم ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ مِنْ بَدِيهِمْ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الَّذِينَ آمَنُوا بِحُكْمِ رَبِّهِمْ فَهُمْ أَكْبَرُ ﴾ ﴿ وَلَئِن جُنَدَاكُمْ أَتَيْنَا لَنُهْلِكَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقوله : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي .

وقوله : ﴿ وَاسْتَنْصَحُوا ﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا ﴾ مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتَحِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿ ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر ، وقال الله تعالى للمشركين : ﴿ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَتَدْعُوا جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ الآية ، والله أعلم ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي متجبر في نفسه ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق كقوله تعالى : ﴿ آتَيْنَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ﴿ مَنَاجٍ لِلْخَبِيرِ مُمْتَرٍ مُّرِيْبٍ ﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ آتِهِ إِلَهًا مَّا تَرَىٰ فَلْيَنَافِهْ فِي الذُّلِّ وَالْقَبِيْذِ ﴿ وفي الحديث : « إِنَّهُ يُؤْتَىٰ بِجَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُنادي الخلائق فتقول : إني وُكِّلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » ^(١) . وقوله : ﴿ مِّنْ وَرَأْيِهِ جَهَنَّمُ ﴾ وراء هنا بمعنى أمام كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ وكان ابن عباس يقرؤها (وكان أمامهم ملك) ^(٢) أي من وراء الجبار العنيد جهنم ، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد ، ويعرض عليها غدواً وعشيا إلى يوم التناد ﴿ وَنُفْسٌ مِّنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق ، فهذا حار في غاية الحرارة ، وهذا بارد في غاية البرد والنق ، وقال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم ، وقال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده ، وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قلت : يا رسول الله ما طينة الخبال ؟ قال : « صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ » وفي رواية « غُصَاوَةُ أَهْلِ النَّارِ » ^(٣) وعن أبي أمامة ؓ عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَنُفْسٌ مِّنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾ يَبْجَرَعُهُمْ ﴿ قال : « يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكْرَهُهُ ، فَإِذَا أَذْنِي مِنْهُ سَوَىٰ وَجْهَهُ وَوَقَعَتْ قُوَّةُ رَأْسِهِ ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَشْعَاءَهُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ » ^(٤) يقول الله تعالى : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ يَبْجَرَعُهُمْ ﴾ أي يتغصصه ويتكرهه ، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٦/٢) والترمذي بنحوه في جامعه (٢٥٧٤) .

(٢) وهي قراءة أبي بن كعب وابن مسعود . انظر زاد المسير (١٧٨/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) .

يضره الملك بمطراق من حديد ، ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ ﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطيع ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي يَأْلَمُ له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه ، قال عمرو بن ميمون بن مهران : من كل عظم وعصب وعرق ، وقال عكرمة : حتى من أطراف شعره ، وقال ابن جرير : أي من أمامه وخلفه ، وفي رواية وعن يمينه وشماله ومن فوقه ومن تحت أرجله ومن سائر أعضاء جسده . وقال الضحاك عن ابن عباس : أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان الموت ، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال : ﴿ لَا يَفْنَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُهَا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ ومعنى كلام ابن عباس ﷺ أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَرَأَيْتُ عَذَابَ غَلِيظٍ ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ ، أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰءُ الْبَعِيدُ ﴾ .

هذا مثل ضربه تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوه رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ ﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً ، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية ، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا ، إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم كقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ وقوله في هذه الآية : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰءُ الْبَعِيدُ ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة ، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰءُ الْبَعِيدُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ .
يقول تعالى مخبرًا عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والحركات المختلفة والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبراري وصحاري وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها وأشكالها وألوانها ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لَهُمْ صُورَةً يَخْلُقْهُمْ يَخْلُقُهُمْ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أي عظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم كما قال : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ .

﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّعْمَتُؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَبَرِّزُوا ﴾ أي برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أي اجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدا ﴿ فَقَالَ الصُّعْمَتُؤُا ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل قالوا لهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي مهما أمرتمونا اتبعنا وفعلنا ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئا من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا ! فقالت القادة لهم : ﴿ لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمْ ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ ﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله ﷻ ، تعالوا نبك وتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا : إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبرا لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك ، فعند ذلك قالوا : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا ﴾ الآية ^(١) .

قلت : والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الصُّعْمَتُؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْبِغَادِ .

وأما تخاصمهم في المحشر فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَزَقَ إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعُّوا أَنْحَ مَكْدَنُكَ عَنِ الْمُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بِلْ كُتْرُ تَجْرِيهِمْ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ الْبَلِّ وَاللَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْطَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَغَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِي إِيَّكُمْ كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَكْتُم مِّن قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْذَنُ رَبُّهُمْ فَيُخَيِّرُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ .

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيبا ليزيدهم حزنا إلى حزنهم ، وغبتا إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم فقال : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَغَدَ الْحَقُّ ﴾ أي على السنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعدا حقا وخبرا صدقا ، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم

كما قال الله تعالى : ﴿ يَدْعُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ بمجرد ذلك هذا ، وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ فَلَا تَلْمُزُونِي فِي الْيَوْمِ ﴾ ولوموا أنفسكم ﴿ فَإِنَّ الذَّنْبَ لَكُمْ لَكُمْ لَكُمْ خالفتم الحجج وابتعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِئِكُمْ ﴾ أي بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿ وَمَا أَنَا بِمُصْرِئِكُمْ ﴾ أي بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَتْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ قال قتادة أي بسبب ما أشركتهم من قبل . وقال ابن جرير يقول : إني وجدت أن أكون شريكا لله ^(١) .

وهذا الذي قاله هو الراجح كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَاعَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا ، ولكن قد ورد في حديث عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ قَضَاءً مِنْ الْقَضَاءِ ، قَالَ الْمُؤْمِنُونَ : قَدْ قَضَىٰ بَيْنَنَا رَبُّنَا فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا ؟ فَيَقُولُونَ : انْطَلِقُوا بِنَا إِلَىٰ آدَمَ ، وَذَكَرَ نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ، فَيَقُولُ عِيسَى : أَذْلُكُمْ عَلَى النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، فَيَأْتُونِي فَيَأْتِئُ اللَّهُ لِي أَنْ أَقُومَ إِلَيْهِ ، فَيَثُورُ مِنْ مَجْلِسِي مِنْ أَطْيَبِ رِيحٍ شَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ ، حَتَّىٰ أَتِيَ رَبِّي فَيُشْفَعُنِي ، وَيَجْعَلَ لِي ثَوْرًا مِنْ شَعْرِ رَأْسِي إِلَىٰ ظُفْرِ قَدَمِي ، ثُمَّ يَقُولُ الْكَافِرُونَ : هَذَا قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ فَمَنْ يَشْفَعُ لَنَا ؟ مَا هُوَ إِلَّا إِبْلِيسُ هُوَ الَّذِي أَضَلَّنَا ، فَيَأْتُونَ إِبْلِيسَ فَيَقُولُونَ : قَدْ وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ ، فَقُمْ فَاشْفَعْ لَنَا فَإِنَّكَ أَنْتَ أَضَلَلْتَنَا ، فَيَقُومُ فَيَثُورُ مِنْ مَجْلِسِهِ مِنْ أَتْيَنِ رِيحٍ شَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ ثُمَّ يَعْظُمُ نَجِيهِمْ ﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَلَيْكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدَكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوَّأَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(٢) وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله لما قال أهل النار : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجِسٍ ﴾ قال لهم إبليس ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَلَيْكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ ﴾ الآية ، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿ لَمَقَتْ أَلْفُ أَكْبَرٍ مِنْ مَقَاتِلِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ .

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، وأن خطيئهم إبليس عطف بمآل السعداء فقال : ﴿ وَأَدْخِلَ الْآدَمَ وَمَاوَا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ما كثرين أبدا لا يحولون ولا يزولون ﴿ يَذَرُ فِيهِمْ زَوَاجُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ دَعَوْتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْنُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَهُمْ دَعْوَتُهُمْ أَنْ لَقَدْ لَبِثُوا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(٣) تَوْقِ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٦٥/١٣) .

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (٣٢٧/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٧٦/١٠) .

أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ .

قال ابن عباس : قوله : ﴿ مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهو المؤمن ﴿ أَصْلُهَا نَائِتٌ ﴾ يقول لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿ وَرَقُّهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ يقول بها عمل المؤمن إلى السماء ، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن قوله الطيب وعمله الصالح ، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء ، وهكذا عن ابن مسعود قال : هي النخلة ، وعن أنس أن رسول الله ﷺ أتى بقناع بسر فقرأ ﴿ مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال : هي النخلة ، وعن ابن عمر قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : « أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ - أَوْ - كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُّهَا صَيْفًا وَلَا شِتَاءً ، وَتُؤْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا » قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ : « هِيَ النَّخْلَةُ » فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة ، قال : ما ما منعك أن تتكلم ؟ قلت : لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا^(١) .

وعن ابن عباس : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال : هي شجرة في الجنة ، وقوله : ﴿ تُوَفَّى أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ ﴾ قيل غدوة وعشيّاً ، وقيل : كل شهر ، وقيل : كل شهرين ، وقيل : كل ستة أشهر ، وقيل : كل سبعة أشهر ، وقيل : كل سنة . والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار ، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار ، في كل وقت وحين ﴿ يَأْذِنُ رَبُّهَا ﴾ أي كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات ، مشبه بشجرة الحنظل ويقال لها الشريان . فعن أنس بن مالك : أنها شجرة الحنظل ، قوله : ﴿ اجْتُثَّتْ ﴾ أي استؤصلت ﴿ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء .

﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

وعن علقمة بن مرثد قال : سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « الْمُسْلِمُ إِذَا سُعِلَ فِي الْقَبْرِ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ » .

وعن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتبهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به الأرض ،

فرفع رأسه فقال : « استعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » مرتين أو ثلاثاً ثم قال : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ يَبْسُ الوُجُوهَ كَأَنَّهُمْ يُجَوِّهُونَ الشَّمْسَ ، مَعَهُمْ كَفَرٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ ، وَخُنُوطٌ مِنْ خُنُوطِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ - قَالَ - فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي الشَّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذَهَا فَيَجْعَلُهَا فِي ذَلِكَ الْكَفْرِ وَفِي ذَلِكَ الْخُنُوطِ ، وَيَخْرِجُ مِنْهَا كَأَطِيبٍ تَفْحَةٍ مِنْكَ وَجَدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، فَيَضَعُونَ بِهَا فَلَا يَمُوتُونَ بِهَا - يَغْنِي عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - إِلَّا قَالُوا : مَا هَذِهِ النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فَلَانُ ابْنِ فَلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتَحُونَ لَهُ فَيَفْتَحُ لَهُ ، فَيُسَبِّحُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مَقْرُونَةً إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عَلَيَيْنِ ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتَهُمْ وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، قَالَ فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّي اللَّهُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينِي الْإِسْلَامُ ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْعَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا عَلِمَكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَقْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْإِسْوَءِ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ - قَالَ - فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيْبِهَا ، وَنَفْسُهَا لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الثِّيَابِ طَيِّبَ الرَّيْحِ فَيَقُولُ : أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسْرُكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ فَوْجُوهَكَ الْوَجْهَ الَّذِي يَأْتِي بِالْخَيْرِ ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي - قَالَ - وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ سُودُ الْوُجُوهِ ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ : أَيُّهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ : أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَعَظَابٍ - قَالَ - فَتَفْرُقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَرَعُهُ كَمَا يَنْتَرَعُ الصُّوفُ الْمَبْلُولُ فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ ، فَيَخْرِجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِيْفَةٍ وَجَدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، فَيَضَعُونَ بِهَا فَلَا يَمُوتُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذِهِ النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ ؟ فَيَقُولُونَ : فَلَانُ ابْنُ فَلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتَحُونَ لَهُ فَلَا يَفْتَحُ لَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمُ ابْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْيَمَلُ فِي سِرِّ اللَّيْلِ ﴾ فَيَقُولُ اللَّهُ : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِينٍ ﴾ فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهُ لَا أَذْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهُ لَا أَذْرِي ، فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْعَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هَاهُ لَا أَذْرِي ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : كَذَبَ عَبْدِي فَأَقْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ

حَرْمًا وَسَمُومَهَا وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ»، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُتْنِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تَقِمِ السَّاعَةَ ۖ (١).

وعنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه وفيه «فَإِذَا خَرَجْتَ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ ﷻ أَنْ يُعْرِجَ بِرُوحِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ» وفي آخره «ثُمَّ يُفَيِّضُ لَهُ أَغْمَى أَصَمَّ أَبْكَمَ، وَفِي يَدِهِ مَرْزَبَةٌ لَوْ ضَرَبَ بِهَا جَبَلٌ لَكَانَ ثَرَاتًا يَفِضْرُهُ ضَرْبَةً فَيَصِيرُ ثَرَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ ﷻ كَمَا كَانَ فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى فَيَصْبِيحُ صَبِيحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ» ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار (٢).

وعنه أيضًا قوله تعالى: ﴿يُنِثُّ اللَّهُ الذَّرِبَ ۖ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: عذاب القبر. وقال المسعودي عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره فيقال له: ما ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبته الله فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ، وقرأ عبد الله ﷻ ﴿يُنِثُّ اللَّهُ الذَّرِبَ ۖ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ عن أبي الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَإِذَا أُدْخِلَ الْمُؤْمِنُ قَبْرَهُ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ جَاءَهُ مَلَكٌ شَدِيدُ الْإِتِّهَارِ، فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَبْدُهُ، فَيَقُولُ لَهُ الْمَلَكُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ الَّذِي كَانَ لَكَ فِي النَّارِ قَدْ أَتَمَّكَ اللَّهُ مِنْهُ وَأَبْدَلَكَ بِمَقْعَدِكَ الَّذِي تَرَى مِنَ النَّارِ بِمَقْعَدِكَ الَّذِي تَرَى مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا كِلَيْهِمَا، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: دَعُونِي أَبَشِّرْ أَهْلِي، فَيَقَالَ لَهُ: اسْكُنْ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَيَفْغَدُ إِذَا تَوَلَّى عَنْهُ أَهْلُهُ فَيَقَالَ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، أَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيَقَالَ لَهُ: لَا دَرَيْتَ، هَذَا مَقْعَدُكَ الَّذِي كَانَ لَكَ فِي الْجَنَّةِ قَدْ أُبْدِلَتْ مَكَانُهُ مَقْعَدُكَ مِنَ النَّارِ» قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يُنِثُّ كُلُّ عَبْدٍ فِي الْقَبْرِ عَلَى مَا مَاتَ، الْمُؤْمِنُ عَلَى إِيْمَانِهِ، وَالْمُنَافِقُ عَلَى نِفَاقِهِ» (٣).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحَ قَالُوا: اخْرِجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرِجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ - قَالَ - فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبًا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ - قَالَ - فلا يزال يقال لها ذلك حتى يُنْتَهَى بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ. وإذا كان الرجلُ السَّوْءَ قَالُوا اخْرِجِي أَيُّهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرِجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَعَشَاقٍ وَآخِرٍ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ، فلا يزال يقال لها

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) والنسائي في السنن (٥٠٤٩).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٥/٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٣/٣).

ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميعة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء ، فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول ^(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إذا خرجت روح العبد المؤمن تَلْقَاهَا مَلَكَانِ يَضَعَانِ بِهَا ، قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال - ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمريه ، فينطلق به إلى ربه ﷻ ، فيقول انطلقوا به إلى آخر الأجل . وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من نتنها وذكر مقثاً ، ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ، فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل - قال أبو هريرة فرد رسول الله ﷺ ربطة كانت على أنفه هكذا ^(٢) .

وعنه عن النبي ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ الْمَيِّتَ لَيَسْمَعَنَّ خَفَقَ نَعَالِكُمْ حِينَ تَوَلُّونَ عَنْهُ مُذْبِرِينَ ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ ، وَالزُّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ ، وَالصُّوْمُ عَنْ يَسَارِهِ ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ ، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ مَا قَبْلِي مَدْخَلٌ ، فَيُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَتَقُولُ الزُّكَاةُ : مَا قَبْلِي مَدْخَلٌ ، فَيُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الصِّيَامُ : مَا قَبْلِي مَدْخَلٌ ، فَيُؤْتَى مِنْ عِنْدِ رِجْلَيْهِ فيقول : فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مَا قَبْلِي مَدْخَلٌ ، فيقال له : اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب ، فيقال له : أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ فيقول : دَعْنِي حَتَّى أَصَلِّي ، فيقال له : إِنَّكَ سَتَفْعَلُ فَأَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ ، فيقول : وَعَمَّ تَسْأَلُونِي ؟ فيقال : أَرَأَيْتَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَاذَا تَقُولُ فِيهِ ، وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول أُمِّحَمَّدٌ ؟ فيقال له : نعم ، فيقول أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ ، فيقال له : على ذلك حَيِّتْ وَعَلَى ذَلِكَ مِتْ وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذَرَاعًا ، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ ، فيقال له : انظر إلى ما أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا فَيَزِدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا ، ثُمَّ تُجْعَلُ نَسَمَتُهُ فِي النَّسَمِ الطَّيِّبِ ، وَهِيَ طَيِّرٌ يعلقُ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ وَيَعَاذُ الْجَسَدَ إِلَى مَا يُدْءَى مِنَ الثَّرَابِ » وذلك قول الله : ﴿ يَتَّبِعُ اللَّهُ أَلْبَنِينَ ءَامَنُوا بِأَقْوَلِ النَّاسِ فِي الْخَيْرِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ ^(٣) .

وعن محمد بن المنكدر قال : كانت أسماء - يعني بنت الصديق رضي الله عنه - تحدث عن النبي ﷺ قالت : قال : « إِذَا دَخَلَ الْإِنْسَانُ قَبْرَهُ ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا خَفَّ بِهِ عَمَلُهُ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ ، قَالَ فَيَأْتِيهِ الْمَلَكُ مِنْ نَحْوِ الصَّلَاةِ فَيَرُدُّهُ وَمِنْ نَحْوِ الصِّيَامِ فَيَرُدُّهُ ، قَالَ فَيُنَادِي إِبْرَاهِيمَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ ، فيقول له : مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ - يعني النبي ﷺ ؟ قال : مَنْ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، قَالَ أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ وما يُدْرِيكَ ، أَذَرَكْتَهُ ؟ قَالَ أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ : يقول : على ذلك عِشْتُ ، وَعَلَيْهِ مِتُّ ،

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٧٥) ، وأحمد في مسنده ٢٨٧/٤ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٢) . (٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٧٩/١) .

وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ . وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا أَوْ كَافِرًا جَاءَهُ الْمَلَكُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ يَرُدُّهُ ، فَأَجْلَسَهُ فَيَقُولُ لَهُ : مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ قَالَ : أَيْ رَجُلِي ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ؟ قَالَ : يَقُولُ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ ، قَالَ لَهُ الْمَلَكُ : عَلَى ذَلِكَ عِشْتَ ، وَعَلَيْهِ مِتَّ ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ ، قَالَ وَيَسْلُطُ عَلَيْهِ دَابَّةٌ فِي قَبْرِهَ سَوَاطِثُ ثَمَرَتِهِ جَمْرَةٌ مِثْلُ عَرَفِ الْبَيْعِ ، تَضْرِبُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ صَوَاتٍ لَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَتَرْحُمُهُ ^(١) .

وعن ابن طائوس عن أبيه ﴿ يُبْعَثُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ قال : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ المسألة في القبر . وقال قتادة : أما الحياة الدنيا فيبثهم بالخير والعمل الصالح ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ في القبر ، وعن عثمان ؓ قال : كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : « اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَاسْأَلُوا لَهُ الثَّبِيتَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ » ^(٢) .
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْفَرَارَ ۚ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ ﴾

قال البخاري قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ ألم تعلم كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ ﴿ الْبَوَارِ ﴾ الهلاك بار يور بورا ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ هالكين . عن عطاء سمع ابن عباس ؓ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال : هم كفار أهل مكة ^(٣) ، وقال العوفي عن ابن عباس ؓ في هذه الآية : هو جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم ، والمشهور الصحيح عن ابن عباس ؓ هو القول الأول ، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ، فإن الله تعالى بعث محمدًا ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار ، وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول . وعن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل عليًا عن ﴿ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قال : هم كفار قريش يوم بدر . وقال ابن أبي حسين : قام علي بن أبي طالب ؓ فقال : ألا أحد يسألني عن القرآن ؟ فوالله لو أعلم اليوم أحدًا أعلم به مني وإن كان من وراء البحار لأتيته ، فقام عبد الله بن الكواء فقال : من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ؟ قال : مشركو قريش ، أتتهم نعمة الله بالإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . وقال السدي في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ الآية ، ذكر مسلم المستوفي عن علي أنه قال : هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر ، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد ، وكان أبو جهل يوم بدر وأبو سفيان يوم أحد ، وأما دار البوار فهي جهنم .

وعن عمرو بن مرة قال : سمعت عليًا قرأ هذه الآية ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قال : هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتمعوا إلى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٣) والنسائي في السنن (٢٧/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٠) .

حين . وقال ابن عباس لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نَفَسَهُمْ كَفْراً ﴾ قال : هم الأفجران من قريش أخوالي وأعمامك ، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر ، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين . وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد : هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر .

وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أندَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه ، ودعوا الناس إلى ذلك ، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا ، فمهما يكن من شيء ﴿ فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أي مرجعكم وموئلكم إليها .

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسِرّاً زَكَاتَهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه ، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم بأداء الزكوات والنفقة على القربات والإحسان إلى الأجانب ، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها ، وأمر تعالى بالإتفاق مما رزق في السر أي في الخفية ، والعلانية وهي الجهر ، وليبادروا إلى ذلك للخلاص أنفسهم ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لَا بَئِعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه كما قال تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقوله : ﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾ قال ابن جرير : يقول ليس هناك مخالفة خليل فيصفتح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته ، بل هنالك العدل والقسط ، والخلال مصدر من قول القائل خاللت فلاناً فأنا أخاله مخاللة وخلالاً .

وقال قتادة : إن الله قد علم أن في الدنيا يبيعون وخلالاً يتخاللون بها في الدنيا ، فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب ، فإن كان لله فليداوم ، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه ، قلت : والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده ، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً قال الله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُبْتَلَىٰ مِنْهَا غَدَلٌ وَلَا تَنْفَعُكُمْ شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنْهَرَ ﴿٣١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيَّامَ وَاللَّيْلَ لَكُمْ أَسْرَارًا وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْإِنْسَانَ لَقَلْهُمُ كَفَارٌ ﴾ .

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر ، تجري عليه بأمر الله تعالى ، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك ، وما هناك إلى هنا ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من

أنواع المنافع ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلِيلَيْنِ ﴾ أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبُغِي لَهَا أَنْ تَذُرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَلِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان ، والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر .

وقوله : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ يقول : هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم . وقال بعض السلف : من كل ما سألتهموه وما لم تسألوه ، وقرأ بعضهم - وآتاكم من كل ما سألتهموه وما لم تسألوه - وقوله : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ لَّا تُخْبَرُونَ ﴾ يخبر تعالي عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب رحمته الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ رَبِّ إِنِّي نَصَلُّكَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يذكر تعالي في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه أهلة تبرا ممن عبد غير الله . وأنه دعا لمكة بالأمن فقال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالي : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ الآية ، وقال في هذه القصة : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها ، ولهذا قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضاً فقال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولاً . وقوله : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته . ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلافت من الناس ، وأنه تبرا ممن عبدها ، ورد أمرهم إلى الله ، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم ، كقول عيسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَفِيدُهُمْ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفِيرُ الْحَكِيمُ ﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالي ، لا تجوز وقوع ذلك . وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَصَلُّكَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ الآية ، وقول عيسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَفِيدُهُمْ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفِيرُ الْحَكِيمُ ﴾ الآية ، ثم رفع يديه ثم قال : « اللَّهُمَّ أَتَمَّتْ لِلَّهِمَّ أَتَمَّتْ ، اللَّهُمَّ أَتَمَّتْ » وبكى ، فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمد - وربك أعلم - وسله ما ييكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، فقال الله : اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك ^(١) .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّعْرِ ت لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها ،

وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله ﷻ ولهذا قال : ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ وقوله : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ قال ابن جرير وهو متعلق بقوله : ﴿ الْمُحَرَّمِ ﴾ أي إنما جعلته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره : لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكن قال : ﴿ مِّنَ النَّاسِ ﴾ فاختص به المسلمون . وقوله : ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك ، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال : ﴿ أَوَلَمْ تُشْكَنْ لَهُمْ حَرَمًا مَّا وَثِقَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا ﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته ، أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة ، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيَّ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴾ ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيَّ ﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك ، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء ، ثم حمد ربه ﷻ على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ أي إنه يستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد ثم قال : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ أي محافظاً عليها ، مقيماً لحدودها ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴾ أي فيما سألتك فيه كله ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ قرأ بعضهم ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ بالإنفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله ﷻ ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كلهم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أي يوم الحساب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ ﴿ مُهْطِيعَتِ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدَّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاةٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ ﴾ يا محمد ﴿ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، أي لا تحسبه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم ، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدده عليهم عدداً ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة ، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال : ﴿ مُهْطِيعَتِ ﴾ أي مسرعين كما قال تعالى ﴿ مُهْطِيعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : رافعي رؤوسهم ﴿ لَا يَرْتَدَّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة ، مديون النظر لا يطفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والخافة لما يحل بهم عياداً بالله العظيم من ذلك ،

ولهذا قال : ﴿وَأَقْبِدْتَهُمْ هَرَجًا﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف ، ولهذا قال قتادة وجماعة : إن أمكنة أقدتهم خالية ؛ لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف ، وقال بعضهم : هي خراب لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر به تعالى عنهم ، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ لَنُنَكِّرُكَ أَفْسَحًا مِنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۖ وَسَكَتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ۖ وَقَدْ مَكَّرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ۖ

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاناة العذاب ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ الآية ، قال تعالى راداً عليهم في قولهم هذا ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا بذلك . وقال مجاهد وغيره : ﴿مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ﴾ أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة ، كقوله : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ الآية ﴿وَسَكَتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْتَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةٌ بَلِيَّةٌ فَمَا تُنصِتُوا لِنَذْرٍ ۖ

وعن عبد الرحمن بن رباب أن علياً عليه السلام قال في هذه الآية ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال : أخذ ذلك الذي حاج إبراهيم في ربه نسرين صغيرين فرباهما حتى استغظا واستفحلا وشبا ، قال : فأوثق رجل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت ، وجوعهما وقعد هو ورجل آخر في التابوت ، قال : ورفع في التابوت عصاً على رأسه اللحم فطارا ، وجعل يقول لصاحبه : انظر ما ترى ؟ قال : أرى كذا وكذا ، حتى قال : أرى الدنيا كلها كأنها ذباب ، قال : فصبوب العصا فصوبها فهبطا جميعاً ، قال : فهو قوله ﷻ ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قال أبو إسحاق : وكذلك هي في قراءة عبد الله ﴿وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ﴾ قلت وكذا روي عن أبي بن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنهم قرأوا ﴿وَإِنْ كَادَ﴾ كما قرأ علي ، وروي عن عكرمة أن سياق هذه القصة لنمرود ملك كنعان أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر ، كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط ببناء الصرح فججزا وضعفا وهما أقل وأحقر وأصغر وأدحر ، وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها نودي أبها الطاغية أين تريد ؟ ففرق ، ثم سمع الصوت فوقه فصبوب الرماح فصوبت النسور ، ففزعت الجبال من هبتها وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك فذلك قوله : ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ ونقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها ﴿لَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية (١) ، وروي العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول ما كان لتزول منه

(١) قرأ الكسائي لتزول بفتح اللام الأولى وضم الثانية والباقون بكسر الأولى وفتح الثانية حجة القراءات ٣٧٩ .

الجبّال ، وكذا قال الحسن البصري : ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها ، وإنما عاد وبال ذلك عليهم قلت : ويشبه هذا قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَكَنتَ تَبْلَغُ لِمَبَالٍ طُولًا ﴾ والقول الثاني في تفسيرها : ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ ﴾ يقول شركهم كقوله : ﴿ نَكَادُ السَّمَوَاتِ يَنْفَكْنَ مِنْهُ ﴾ الآية ، وهكذا قال الضحاك وقتادة .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلُهُ ﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراداه ولا يغالب ، ذو انتقام ممن كفر به وجحداه ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة ، كما جاء عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ ، لَيْسَ فِيهَا مَغْلَمٌ لِأَحَدٍ » ^(١) وعن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « عَلَى الصُّرَاطِ » ^(٢) .

وعن معاوية بن سلام عن زيد يعني أخاه أنه سمع أبا سلام حدثني أبو أسماء الرحيبي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال : كنت قائماً عند رسول الله فجاءه حبر من أحبار يهود فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول يا رسول الله ، فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهله ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ سَمَّيْنِي بِهِ أَهْلِي » فقال اليهودي : جئت أسألك ، فقال رسول الله ﷺ : « أُتِفَعُكَ شَيْئًا إِنْ حَدَّثُكَ » قال : أسمع بأذني ، فتكّت ^(٣) رسول الله ﷺ يعود معه فقال : « سَلْ » فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هُمْ فِي الظُّلُمَةِ ذَوْنَ الْجِشْرِ » قال : فمن أول الناس إجازة ؟ فقال : « قُرَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ » فقال اليهودي : فما تحفهم حين يدخلون الجنة قال : زِيَادَةُ كَبِدِ الثَّوْنِ » قال : فما غذاؤه في أثرها ؟ قال : « يُنْخَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : فما شربهم عليه ؟ قال : « مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا » قال : صدقت ، قال : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان قال : « أُتِفَعُكَ إِنْ حَدَّثُكَ » ؟ قال : أسمع بأذني ، قال جئت أسألك عن الولد ، قال : « مَاءُ الرَّجُلِ أَيْبَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مِنْهُ الرَّجُلُ مِنْهُ الْمَرْأَةُ كَانَ ذَكَرًا يَأْذِنُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَإِذَا عَلَا مِنْهُ الْمَرْأَةُ مِنْهُ الرَّجُلُ كَانَ أَنْثَى يَأْذِنُ اللَّهُ » قال اليهودي : لقد صدقت ، وإنك لنبي ثم انصرف ، فقال رسول الله ﷺ :

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٢١) ومسلم في صفات المنافقين (٢٨) .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٩) وابن ماجه في السنن (٤٢٧٩) .

(٣) تكّت أي خط بالعود في الأرض خطأ يؤثر فيها ، وهو فعل من ينكر .

« لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِي اللَّهُ بِهِ » ^(١).

وعن أبي أيوب الأنصاري أن حبراً من اليهود سأل النبي ﷺ فقال : أرأيت إذ يقول الله تعالى في كتابه ﴿ يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ فأتين الخلق عند ذلك ؟ فقال : « أَضْيَافُ اللَّهِ فَلَنْ يَعْجِزَهُمْ مَا لَدَيْهِ » ^(٢) وعن عمرو بن ميمون يقول ﴿ يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ قال : أرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة ، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ، حفاة عراة كما خلقوا - قال : أراه قال : قياماً - حتى يلجمهم العرق . وعن زيد قال : أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال : « هل تدرون لم أرسلت إليهم ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : « فَإِنِّي أُرْسِلْتُ إِلَيْهِمْ أَسْأَلُهُمْ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ إِنَّهَا تَكُونُ يَوْمَئِذٍ بَيْضَاءَ مِثْلَ الْفُضَّةِ » فلما جاءوا سألهم ، فقالوا : تكون بيضاء مثل النقي ^(٣) . وهكذا روي عن علي وابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبير أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة ، وعن علي عليه السلام أنه قال : تصير الأرض فضة والسموات ذهباً ، وقال الربيع : عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال : تصير السموات جناتاً ، وقال أبو معشر : عن محمد بن كعب القرظي عن محمد بن قيس في قوله : ﴿ يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ قال : خيزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم ، وكذا روي سعيد بن جبير في قوله : ﴿ يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ قال : تبدل الأرض خيزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه .

وعن كعب في قوله : ﴿ يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ قال : تصير السموات جناتاً ، ويصير مكان البحر نارا ، وتبدل الأرض غيرها . وفي الحديث الذي رواه أبو داود : « لَا يَزْكُبُ الْبَحْرُ إِلَّا غَارِ أَوْ حَاجِ أَوْ مُغْتَبِرٍ ، فَإِنْ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا - أَوْ تَحْتَ النَّارِ بَحْرًا » ^(٤) وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يُبَدَّلُ اللَّهُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتَ فَيَنْشِطُهَا وَيَمُدُّهَا مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيُّ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ، ثُمَّ يُزْجِرُ اللَّهُ الْخَلْقَ زَجْرَةً فَإِذَا هُمْ فِي هَذِهِ الْمَبْدَلَةِ » ^(٥).

وقوله : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب وخضعت له الأبواب .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۖ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ ظِلَارٍ وَتَقَنَّنَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ۖ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ وتبرز الخلائق لديانها ترى يا محمد يومئذ المجرمين ، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي بعضهم إلى بعض ، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف ، كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَكُونُ مِنْكُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ لَنِذْرًا مِنْهُمْ وَلَقَدْ نَقَرْنَا عُقْدَهُمْ بِأَنفُسِهِمْ فَلَمْ يُؤْتُوا بِهَا وَلَقَدْ لَعَنَّاهُمْ فَزَدُوا كُفْرًا وَلَئِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافًا وَلَئِنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ ظِلَارٍ ﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهو الذي تهنأ به الإبل أي تطلبي ، قال قتادة : وهو ألصق شيء بالنار . ويقال فيه : قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها ،

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣٣٣/١٣) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٢٤٨٩) .

(١) أخرجه مسلم في الحيز (٣٤) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٣٢٩/١٣) .

(٥) ذكره الطبري في تفسيره (٣٣١/١٣) .

وبكسر القاف وتسكين الطاء .

وكان ابن عباس يقول : القطران هو النحاس المذاب وربما قرأها ﴿ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ ﴾ أي من نحاس حار قد انتهى حره ، وقوله : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ كقوله : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « أَرْبَعٌ فِي أُمْتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَثْرُكُونَهَا : الْفَخْرُ بِالْأَخْسَابِ ، وَالطُّغْيَانُ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالْإِسْتِشْقَاءُ بِالنَّجُومِ ، وَالنَّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ ، وَالنَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَثْبُتْ قَبْلَ مَوْتِهَا تَقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِّنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِّنْ جَرَبٍ » ^(١) . وعن أبي أمامة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ رفعه « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَثْبُتْ تُوقَفُ فِي طَرِيقِ بَيْنِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَسَرَابِيلُهَا مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وَجْهَهَا النَّارُ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَفْزَا بِمَا عَمِلُوا ﴾ الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ يحتمل أن تكون كقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز ، لأنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم .
﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ .

يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله : ﴿ لَا يُذَكِّرُ بِهِ مِمَّنْ بَلَغَ ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة : ﴿ الرَّحْمَنُ أَنْزَلَكَ إِلَيْنَا لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ الآية ﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ أي ليتعظوا به ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي ذوو العقول .

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٢٩) وأحمد في مسنده (٣٤٢/٥) والبيهقي في السنن (٦٣/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٤/٥) .

سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ١ رَبَّنَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ٢ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا رِسَقَتَهُمْ وَيَلْبَسُوا أَلْمَلَّ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٣﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية ، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين ، وعن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين ، وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً ، وقيل هذا إخبار عن يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ نُفِثُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُتَمِّينَ﴾ وعن عبد الله في قوله ﴿رَبَّنَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال : هذا في الجهنميين إذ رأوهم يخرجون من النار ^(١) . وعن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار ، قال فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا ، قال : فيغضب الله لهم بفضله رحمته فيخرجهم ، فذلك حين يقول : ﴿رَبَّنَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ وعن مجاهد قال : يقول أهل النار للموحدين : ما أغنى عنكم إيمانكم ؟ فإذا قالوا ذلك ، قال الله : أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فعند ذلك قوله : ﴿رَبَّنَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ وهكذا روي عن الضحاك وقتادة وأبي العالية وغيرهم .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ نَاسًا مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَدْخُلُونَ النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُ اللَّاتِ وَالْعُزَّى مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ قَوْلُكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ ؟ فَيَغْضَبُ اللَّهُ لَهُمْ فَيُخْرِجُهُمْ فَلْيَقِيهِمْ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَبْرُؤُونَ مِنْ حَرْفِهِمْ ، كَمَا يَبْرَأُ الْقَمَرُ مِنْ حُسُوفِهِ ، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيُسَمَّوْنَ فِيهَا الْجَهَنَّمِيِّينَ » ، فقال رجل : يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ^(٢) .

وعن محمد بن علي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْرَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى عُقْبَتِهِ عَلَى قَدَرِ ذُنُوبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُكُّ فِيهَا شَهْرًا ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُكُّ فِيهَا سَنَةً ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَأَطْوَلُهُمْ فِيهَا مُكَّتًا بِقَدَرِ الدُّنْيَا مِنْذُ يَوْمِ خُلِقَتْ إِلَى أَنْ تَفْنَى ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْرِجَهُمْ مِنْهَا قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَمَنْ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ وَالْأَوْثَانِ لِمَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ : آمَنَ بِاللَّهِ وَكُتِبَ

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٦/١٤ .

(٢) ذكره الهيثمي مجمع الزوائد (٣٧٩/١٠) وعزاه للطبراني في الأوسط .

ورسله فنحرو وأنتم اليوم في النار سواء ، فيغضب الله لهم غضباً لم يغضب له شيء فيما مضى ، فيخرجهم إلى عين في الجنة وهو قوله : ﴿ رَبُّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَبَسَّتَعُوا ﴾ تهديد شديد لهم ووعد أكيد كقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَتَّبِعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿ فَتَوَفَّ بَعَثُونَ ﴾ أي عاقبة أمرهم .
﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝ مَا تَسْئَلُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها ، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ، ولا يتقدمون عن مدتهم ، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك .

﴿ وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرِينَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم ﴿ يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أي الذي تدعي ذلك ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿ لَوْ مَا ﴾ أي هلا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ ﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون ﴿ فَلَوْلَا آتَيْنِي عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَلَّةٌ مَعَهُ الْمَلَكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴾ ، وكذا قال في هذه الآية ﴿ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرِينَ ﴾ وقال مجاهد : بالرسالة والعذاب ، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى ﴿ لَمْ يَحْضُرُونَ ﴾ على النبي ﷺ كقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَصْصِلُكَ مِنْ أَتَائِي ﴾ والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۝ ﴾ .

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية ، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به ، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى ، قال أنس والحسن البصري ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ يعني الشرك ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُغُونَ ۝ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك بل قالوا ﴿ إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا ﴾ قال مجاهد وابن كثير والضحاك : سدت أبصارنا ، وقال ابن عباس : أخذت أبصارنا ، وقال العوفي عن ابن عباس : شبه علينا وإنما سحرنا .

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٣) وأحمد في مسنده (١٠/٥) والطبراني في الكبير (٢٨٢/٧) .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِقَهَا لِلنَّظِيرِينَ ۝ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَاجٍ ۝ إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ قَالَهُمْ شِهَابٌ مُبِينٌ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ وَمَنْ لَكُمْ لَهُمْ بِرَازِقِينَ ۝ ﴾ .

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات ، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات ، ما يحار نظره فيه ، ولهذا قال مجاهد وقادة : البروج ههنا هي الكواكب ، ومنهم من قال : هي منازل الشمس والقمر ، وقال عطية العوفي : البروج ههنا هي قصور فيها الحرس ، وجعل الشهب حرساً لها من مرادة الشياطين ، لئلا يسمعوها إلى الملائكة الأعلى ، فمن تكرر وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه ، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه ، فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه كما جاء مصرحاً به في الصحيح ، كما روي عن أبي هريرة يبلغ النبي ﷺ قال : « إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ » ^(١) . وقال علي : وقال غيره صفوان ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : للذي قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده وفزع بين أصابع يده اليمنى نصبها بضعها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه ، حتى يلقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء .

ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها ، وما جعل فيها من الجبال الرواسي والأودية والأراضي والرمال ، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة ، وقال ابن عباس : ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ أي معلوم ، وقال ابن زيد : من كل شيء يوزن ويقدر بقدر ، وقال ابن زيد : ما يزنه أهل الأسواق . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ ﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعاش ، وهي جمع معيشة وقوله : ﴿ وَمَنْ لَكُمْ لَهُمْ بِرَازِقِينَ ﴾ قال مجاهد : هي الدواب والأنعام ، وقال ابن جرير : هم العبيد والإماء والدواب والأنعام ، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يشتر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش ، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها ، والأنعام التي يأكلونها ، والعبيد والإماء التي يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم هم المنفعة ، والرزق على الله تعالى .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَفِّعَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُنُوزَهُمْ وَمَا أَنْشَرَهُمْ إِلَّا بَحْرَيْنِ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ شَيْءٌ وَنُثِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَلْشَّاقِقِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا لَلْمُتَّخِرِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَسْرَتِهِمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه ، وأن عنده خزائن الأشياء

من جميع الصنوف ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ كما يشاء وكما يريد ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده ، لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة . وعن عبد الله : ما من عام أمطر من عام ، ولكن الله يقسمه حيث شاء عامًا ههنا وعامًا ههنا ، ثم قرأ ﴿وَرَيْنَ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ الآية . وعن الحكم بن عيينة في قوله : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال : ما عام بأكثر مطرًا من عام ولا أقل ، ولكنه يطر قوم ويحرم آخرون بما كان في البحر ، قال : وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم ، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَزَائِنُ اللَّهِ الْكَلَامُ ، فَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ كُنْ فَكَانَ » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ﴾ أي تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها ، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج ، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج ، لأنه لا يكون إلا بين شيئين فصاعدًا ، وعن عبد الله بن مسعود في قوله : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ﴾ قال : ترسل الريح فتحمل الماء من السماء ، ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة ، وقال الضحاك يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء ، وقال عبيد ابن عمير الليثي يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قمًا ، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر ثم تلا ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفٍ﴾ وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الرِّيحُ الْجُثُوبُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَهِيَ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَفِيهَا مَتَافِعٌ لِلنَّاسِ » ^(٢) وقوله : ﴿فَلْيَتَنَكَّبُوهُ﴾ أي أنزلناه لكم عذابًا يمكنكم أن تشربوا منه ، ولو نشاء جعلناه أجاجًا . وقوله ﴿وَمَا أُنْشِئَ لَهُمُ بَحْرَيْنِ﴾ قال سفيان الثوري : بمانعين ، ويحتمل أن المراد وما أنتم له بحافظين . بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ، ونجعله معينًا وينابيع في الأرض ، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذابًا ، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ليبقى لهم في طول السنة ، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم .

وقوله : ﴿وَلَا تَلَحَّنْ غَمٌّ﴾ وثبت في الخبر عن قدرته تعالى عن بدء الخلق وإعادته ، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ثم يميتهم ثم يعثهم كلهم ليوم الجمع ، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنْكُمْ﴾ الآية ، قال ابن عباس رضي الله عنه : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام ، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة ، وعن مروان بن الحكم أنه قال : كان أناس يستأخرون في الصغوف من أجل النساء فأنزل الله : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرِينَ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسناء ، قال ابن عباس : لا والله ما رأيت مثلها قط ، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعني لثلا يروها ، وبعض يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرِينَ﴾ ^(٣) .

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٩٨٢٨) وعزه لأبي الشيخ في العظمة .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٢/٥) وعزه لأبي الشيخ في العظمة وابن مردويه والديلمي في مسند الفردوس .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/١) والترمذي في السنن (٣١٢٢) وابن ماجه في السنن (١٠٤٦) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ٣٨ ﴾ وَلَلْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ٣٩ .

قال ابن عباس ومجاهد وقاعدة : المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس ، كقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ٣٨ ﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ٣٩ وعن مجاهد أيضًا الصلصال : المنتن ، وتفسير الآية بالآية أولى ، وقوله : ﴿ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ أي الصلصال من حمأ وهو الطين . والمسنون الأملس ؛ ولهذا روي عن ابن عباس أنه قال : هو التراب الرطب ، وعن ابن عباس ومجاهد أيضًا والضحاك أن الحمأ المسنون هو المنتن ، وقيل المراد بالمسنون ههنا المصبوب . وقوله : ﴿ وَلَلْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل الإنسان ﴿ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ﴾ قال ابن عباس : هي السموم التي تقتل ، وقال بعضهم : السموم بالليل والنهار ، ومنهم من يقول السموم بالليل والحرور بالنهار ، وعن عبد الله بن مسعود يقول : هذه السموم جزء من سبعين جزءًا من السموم التي خلق منها الجان ، ثم قرأ ﴿ وَلَلْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ﴾ وعن ابن عباس أن الجان خلق من لهب النار وفي رواية من أحسن النار ، وعن عمرو بن دينار من نار الشمس ، وقد ورد في الصحيح : « خُلِقَتِ الملائكة من نور ، وَخُلِقَتِ الجانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ بَاطِلًا وَصَفَ لَكُمْ » ^(١) والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ٣٩ ﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ٤٠ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٤١ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٤٢ قَالَ يَتَّبِعْكَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ ٤٣ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ٤٤ .

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له ، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال : ﴿ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ٤٤ ﴾ .
﴿ قَالَ فَانْخُزْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٤٥ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِكْ يَوْمِ الدِّينِ ٤٦ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِكْ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٤٧ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ٤٨ إِكْ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ٤٩ .

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع ، بالخروج من المنزل التي كان فيها من الملائكة الأعلى ، وأنه رجيم أي مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة . وعن سعيد بن جبيرة أنه قال : لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورن رنة فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها ، وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة وهو يوم البعث ، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً ، فلما تحقق النظرة قبحه الله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَوَيْتُكَ لِأَتَيْنَكَ لَهْمًا فِي الْأَرْضِ وَأَلْغَوَيْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٠ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَصِلِينَ ٥١ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ٥٢ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ٥٣ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٤ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ٥٥ .

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرفائق (٦٠) وأحمد في مسنده (١٥٣/٦) والبيهقي في السنن (٣/٩) .

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب ﴿يَا أَغْوَيْنِي﴾ قال بعضهم أقسم بإغواء الله له قلت : ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي لذرية آدم ﷺ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي أحب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ، وأزهم إليها وأزعجهم إليها إزعاجاً ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي كما أغويتني وقدرت عليّ ذلك ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له متهدداً ومتوعداً ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي مرجعكم كلكم إليّ ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَيْكَ لِبَالِرْصَادٍ﴾ وقيل طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي ، قاله مجاهد والحسن وقتادة كقوله : ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وقرأ قيس بن عباد ومحمد بن سيرين وقتادة ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ كقوله : ﴿وَلَا إِلَهَ فِي أَرْضٍ إِلَّا كَتَبَ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ أي رفيع ، والمشهور القراءة الأولى . وقوله : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَنَرَى لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ﴾ أي الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ استثناء منقطع .

وقوله : ﴿وَلَا جَهَنَّمَ لَمُوعِدُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، كما قال عن القرآن ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتِ الْأَرْبَابُ مُوْعِدُهُمْ﴾ ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُورٌ﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه ، أجازنا الله منها ، وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بقدر عمله . وعن علي بن أبي طالب وهو يخطب قال : إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون - أطباقاً بعضها فوق بعض . وعن علي عليه السلام قال : أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض ، فيمتلئ الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، حتى تمتلئ كلها ، وقال عكرمة : سبعة أطباق ، وقال ابن جريج سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . وقال قتادة ﴿لَمَّا سَعَتْ أَبْوَابُ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُورٌ﴾ هي والله منازل بأعمالهم ^(١) ، وقال الضحاك ﴿لَمَّا سَعَتْ أَبْوَابُ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُورٌ﴾ قال : باب لليهود ، وباب للنصارى ، وباب للصابئين ، وباب للمجوس ، وباب للذين أشركوا وهم كفار العرب ، وباب للمنافقين ، وباب لأهل التوحيد ، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبداً .

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «لِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ بَابٌ مِنْهَا لِمَنْ سَلَّ السَّيْفَ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ قَالَ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ» ^(٢) . وعن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قوله : ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُورٌ﴾ قال : «إِنَّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَفْبِيهِ ، وَإِنْ مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْرَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرَاقِيهِ ، مَنَازِلُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُورٌ﴾» ^(٣) .

﴿إِنَّ الشَّقِيْنَ فِي جَهَنَّمَ وَعَيْنُونَ ۖ أَدْخَلُوهُمَا سَلَاسِلَ ۖ أَمِينٍ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَيْلٍ إِخْرَاقًا ۖ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَنِّيلِينَ ۖ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝ نَجَّىٰ عِبَادِيَ الَّذِينَ أَنَا أَعْلَمُ الرَّحِيمِ ۖ وَإِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۖ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون . وقوله :

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤٨/١٤) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٣) وأحمد في مسنده (١٠/٥) .

﴿ أَتَخْشَوْنَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي سالمين من الآفات مسلم عليكم ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي من كل خوف وفرع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء . وقوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَافًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴾ عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحنة والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ، ثم قرأ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ ﴾ هكذا في هذه الرواية ، وعن أبي أمامة أيضًا قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل ، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري . وهذا موافق لما في الصحيح عن أبي سعيد الخدري حدثهم أن رسول الله ﷺ قال : « يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُخْبَشُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ يَتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ » ^(١) وعن محمد هو ابن سيرين قال : استأذن الأشر على علي عليه السلام وعنده ابن لطلحة فحبسه ثم أذن له ، فلما دخل قال : إني لأراك إنما احتبستني لهذا ؟ قال : أجل ، قال : إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني ، قال : أجل ، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَافًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴾ .

وعن أبي موسى سمع الحسن يقول : قال علي : فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَافًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴾ وقال كثير النوا : دخلت على أبي جعفر محمد بن علي فقلت ولي وليكم ، وسلمي سلمكم ، وعدوي عدوكم ، وحربي حربيكم ، أنا أسألك بالله أتبرأ من أبي بكر وعمر ؟ فقال : ﴿ قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْكُفَّارِينَ ﴾ تولهما يا كثير ، فما أدركك فهو في رقبتي هذه ، ثم تلا هذه الآية ﴿ إِخْرَافًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴾ قال أبو بكر وعمر وعلي عليه السلام أجمعين وعن أبي صالح في قوله : ﴿ إِخْرَافًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴾ قال : هم عشرة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود عليه السلام . وقوله : ﴿ مُنْقَلَبِينَ ﴾ قال مجاهد لا ينظر بعضهم في قفا بعض .

وعن زيد بن أبي أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فلما هذه الآية ﴿ إِخْرَافًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴾ في الله ينظر بعضهم إلى بعض ، وقوله : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُ فِيهَا نَعَبٌ ﴾ يعني المشقة والأذى ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْشُرَ خَدِيجَةَ بَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لَا صَحْبَ فِيهِ وَلَا نَعَبٌ » ^(٢) وقوله : ﴿ وَمَا هُمْ بِنَبَا بَشَرِينَ ﴾ كما جاء في الحديث : « يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِيحُوا فَلَا تَمْرَضُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَقُتِلُوا فَلَا تَقُتَلُوا أَبَدًا » وقال الله تعالى ﴿ خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حَوْلًا » ^(٣) .

وقوله : ﴿ نِعْمَ عِبَادٌ أَتَيْنَا أَنْكَرَ الْكَرِيمِ ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ الْآلِيمُ ﴿ أي أخبر يا محمد عبادي أنني ذو رحمة وذو عذاب أليم ، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة ، وهي دالة على مقام الرجاء والخوف ، وذكر في سبب نزولها ما روي عن مصعب بن ثابت قال : مر رسول الله

(١) أخرجه البخاري في الرقائق (٦٥٣٥) وأحمد في مسنده (٥٧/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العمرة (١٧٩٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٧١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٢) والترمذي في السنن (٣٣٤٦) وأحمد في مسنده (٣١٩/٢) .

ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال : « اذْكُرُوا الْجَنَّةَ وَادْكُرُوا النَّارَ » فنزلت ﴿ يَتَذَكَّرُ عَبْدِي ﴾ أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ ^(١) وعن ابن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه فقال : « لَا أَرَاكُمْ تَضْحَكُونَ » ثم أدير حتى إذا كان عند الحجر رجع علينا القهقري فقال : « إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ بَجَاءِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِمَ تُقْنَطُ عِبَادِي ؟ ﴾ ﴿ يَتَذَكَّرُ عَبْدِي ﴾ أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ ^(٢) . وعن قتادة في قوله : ﴿ يَتَذَكَّرُ عَبْدِي ﴾ أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ﴿ قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ يَعْلَمُ الْعَبْدُ قَدْرَ عَفْوِ اللَّهِ لَمَا تَوَرَّعَ مِنْ حَرَامٍ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْعَبْدُ قَدْرَ عَذَابِ اللَّهِ لَبَخَعَ نَفْسَهُ » ^(٣) .

﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿ قَالُوا لَا تَوَجَلْ إِنَّا نَبِّئُكَ بِمَا يَكْفُرُ بِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قَالُوا أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي ﴿ قَالُوا بِشَرِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿ .

يقول تعالى : وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر ، وكيف ﴿ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أي خائفون ، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيد ﴿ قَالُوا لَا تَوَجَلْ ﴾ أي لا تخف ﴿ وَبَشِّرُوهُ بِمَا يَكْفُرُ بِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود ثم ﴿ قَالَ ﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونَنِي ﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿ قَالُوا بِشَرِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ وقرأ بعضهم - القنطين - فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر وأسنن امرأته ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿ إِلَّا آَلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لَيْنَ الْعَنَادِينَ ﴿ .

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري أنه شرع يسألهم عما جاؤوا له ، فقالوا : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ يعنون قوم لوط ، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين ، ولهذا قالوا : ﴿ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لَيْنَ الْعَنَادِينَ ﴾ أي الباقيين المهلكين .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آَلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُشْكِرُونَ ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمَصِدُوقُونَ ﴿ .

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُشْكِرُونَ ﴾ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿ يعنون بعدابهم وهلاكهم ودمارهم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٢/٤) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٥٢/١٤) والسيوطي في الدر المنثور (٨٦/٥) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٢/٤) .

الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم ، وحلوله بساحتهم ، ﴿ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به ومن نجاته وإهلاك قومه .
﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُم أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَذِهِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ .

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل ، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو ، إنما يكون ساقية يزجي الضعيف ويحمل المنقطع . وقوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُم أَحَدٌ ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنعكال ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل ﴿ وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ ﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَذِهِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي وقت الصباح .

﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ قَالَ إِنَّ هَذِهِ ضَيْقٌ فَلَا تَنْصَحُونِ ﴿ وَاقْلُوا لِلَّهِ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَنْهَك عَنِ الْفَالِكِ ﴿ قَالَ هَذِهِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَعَلِينَ ﴾ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَنِي سَكْرَتِهِمْ يَمْهُونَ .

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم ، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين ﴿ قَالَ إِنَّ هَذِهِ ضَيْقٌ فَلَا تَنْصَحُونِ ﴾ وَاقْلُوا لِلَّهِ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله ، فقالوا له مجيبين : ﴿ أَوْلَمْ تَنْهَك عَنِ الْفَالِكِ ﴾ أي أو ما نهيناك أن تضيف أحداً ، فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة . وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته ، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصيبهم من العذاب المستقر . ولهذا قال تعالى لحمد ﷺ : ﴿ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَنِي سَكْرَتِهِمْ يَمْهُونَ ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض . وعن ابن عباس : ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال الله تعالى : ﴿ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَنِي سَكْرَتِهِمْ يَمْهُونَ ﴾ يقول وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿ إِيَّاهُمْ لَنِي سَكْرَتِهِمْ يَمْهُونَ ﴾ رواه ابن جرير وقال قتادة : ﴿ لَنِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أي في ضلالهم ﴿ يَمْهُونَ ﴾ أي يلبسون ، وقال ابن عباس : ﴿ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَنِي سَكْرَتِهِمْ يَمْهُونَ ﴾ قال : يترددون . ﴿ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَهُ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّتِينَ ﴾ وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّتِيمٍ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّتِينَ ﴾ أي إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته ، كما قال مجاهد في قوله : ﴿ لِّلْمُتَوَسِّتِينَ ﴾ قال : المتفرسين ، وعن ابن عباس والضحاك : للناظرين ، وقال قتادة : للمعتبرين ، وقال مالك عن بعض أهل المدينة ﴿ لِّلْمُتَوَسِّتِينَ ﴾ للمتأملين . وعن أبي سعيد مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : « اتَّقُوا

فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ يَنْوَرُ اللَّهُ « ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُسْتَعِينٍ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَسْبِلُ قُتَيْبٍ ﴾ أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي ، والقذف للحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خيشة بطريق مهيع ، مسالكه مستمرة إلى اليوم ، وقال مجاهد والضحاك : ﴿ وَإِنَّا لَنَسْبِلُ قُتَيْبٍ ﴾ قال : معلم ، وقال قتادة : بطريق واضح ، وقال قتادة أيضًا : بصقع من الأرض واحد ، وقال السدي : بكتاب مبین ، يعني كقوله ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَارٍ تُبِينٍ ﴾ ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا والله أعلم . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار ، وإنجائنا لوطًا وأهله لدلالة واضحة جليلة للمؤمنين بالله ورسله .

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۝ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّا لَإِيَّامٍ مُّبِينٍ ۝ .

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، قال الضحاك و قتادة وغيرهما : الأيكة الشجر الملتف وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريبًا من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَإِيَّامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي طريق مبین ، قال ابن عباس وغيره : طريق ظاهر ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في إنذاره إياهم : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ بِمَكْرُومٍ ۝ .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَءَاتَيْنَاهُمُ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَايِنِينَ ۝ فَآخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ۝ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ .

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحًا نبيهم ﷺ ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين ، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح ، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ وذكر تعالى أنهم ﴿ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَايِنِينَ ﴾ أي من غير خوف ولا احتياج إليها بل أشرا وبطرا وعبثا ، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ ، وهو ذاهب إلى تبوك ، فقع رأسه وأسرع دابته وقال لأصحابه : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْقَوْمِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِأَكْيَافٍ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا فَتَبَاكُؤُوا خَشْيَةً أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » (٢) وقوله : ﴿ فَآخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لثلا تضيق عليهم في المياه ، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعهم لما جاء أمر ربك . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّعْبُ الْجَلِيلُ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ۝ .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣١٢٧) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٦٨/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٨٠) ومسلم في الزهد والرفائق (٣٩) وأحمد في مسنده (٦٦/٢) .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ أي بالعدل ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بَيْنَا عِِلُوا ﴾ الآية ، ثم أخبر نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة ، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم لما جاءهم به ، كقوله : ﴿ فَاسْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَمْلِكُونَ ﴾ وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : كان هذا قبل القتال ، وهو كما قالوا فإن هذه مكة والقتال إنما شرع بعد الهجرة . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة ، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض .

﴿ وَلَقَدْ مَّا يَتَذَكَّرُ سَمَاعًا مِنَ الثَّانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ لا تَدَنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ : كما أتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه ، فلا تغبطهم بما هم فيه ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك ، ﴿ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِرَبِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ألن لهم جانبك وقد اختلف في السبع الثاني ما هي ؟ .

فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وغيرهم : هي السبع الطوال يعنون : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس . نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير ، وقال سعيد : بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام ، وقال ابن عباس : بين الأمثال والخبر والعبر ، وعن ابن أبي عمير قال : قال سفيان : الثاني البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والأطفال وبراعة سورة واحدة ، قال ابن عباس : ولم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ ، وأعطى موسى منهن ثنتين ^(١) . وقال مجاهد : هي السبع الطوال ، ويقال : هي القرآن العظيم ، وعن زياد بن أبي مريم في قوله : ﴿ سَبْعًا مِنَ الثَّانِي ﴾ قال : أعطيتك سبعة أجزاء : مر ، وانه ، وبشر ، وأنذر ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، وانبثك نبأ القرآن ^(٢) .

والقول الثاني : أنها الفاتحة ، وهي سبع آيات . وروي ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس ، قال ابن عباس : والبسمة هي الآية السابعة ، وقد خصصكم الله بها . وقال قتادة : ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب ، وأنهم يثنون في كل ركعة مكتوبة أو تطوع . وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين : أحدهما : عن أبي سعيد بن الملقى قال : مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي ، فدعاني فلم آته حتى صليت ، فأتيته فقال : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟ » فقلت : كنت أصلي ، فقال : « أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ أَلَا أَعْلَمُكُمْ أَكْثَرَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ » فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هِيَ السَّبْعُ الثَّانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ » ^(٣) .

(١) أخرجه النسائي في السنن باب الافتتاح (٢٦) . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (٧٦/١٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٠/٣) والنسائي في السنن (٩١٣) .

الثاني : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ » ^(١) . فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم ، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك لما فيها من هذه الصفة ، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضًا كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ لَدَيْهِ كِتَابًا تُثَنِّيهِ مَثَانِي ﴾ فهو مثنائي من وجه ومتشابه من وجه ، وهو القرآن العظيم أيضًا ، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فأشار إلى مسجده ، والآية نزلت في مسجد قباء ، فلا تنافي فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة والله أعلم .

وقوله : ﴿ لَا تَدْعُ عِبَتَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أي استعن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن ههنا ذهب ابن عينة إلى تفسير الحديث الصحيح : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ » ^(٢) إلى أنه يستغنى به عما عداه ، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير .

وعن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال : ضاف النبي ﷺ ضيف ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه فأرسل إلى رجل من اليهود « يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ أَسْلِفْنِي دَقِيقًا إِلَى هَلَالِ رَجَبٍ » قال : لا ، إلا برهن ، فأثبت النبي ﷺ فأخبرته فقال : « أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ ، وَأَمِينٌ مَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ أَسْلَفْنِي أَوْ بَاعْنِي لأَوْدِينَ إِلَى » فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَدْعُ عِبَتَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى آخر الآية ، كأنه يعزیه عن الدنيا ^(٣) ، قال العوفي عن ابن عباس ﴿ لَا تَدْعُ عِبَتَكَ ﴾ قال نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه . وقال مجاهد : ﴿ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ هم الأغنياء .

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمِينَ ﴾ ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس ﴿ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ البين النذارة ، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه ، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها ، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام . وقوله : ﴿ الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أي المتحالفين ، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيته وأهله ، وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ ، فَقَالَ يَا قَوْمُ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِثَنِي ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعَرِيَانُ ، فَالْتَّجَاءُ النَّجَاءُ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذْلَجُوا وَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَّوْا ، وَكَذَّبَهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَضْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٤) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٢٧) وأحمد في مسنده (١٧٢/١) وأبو داود في السنن (١٤٦٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٤) وأحمد في مسنده (٤/٣) .

جئت به من الحق» ^(١) وقوله : ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي جزؤوا كتبه المنزلة عليهم ، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض . عن ابن عباس ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال هم أهل الكتاب جزؤوه أجزاء فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ^(٢) . وعن ابن عباس أيضًا ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال : هم أهل الكتاب جزؤوها أجزاء فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ^(٣) .

وعن ابن عباس ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال : السحر ، وقال عكرمة : العضه السحر بلسان قريش ، تقول للساحرة : إنها العاضه ، وقال مجاهد : عضوه أعضاء ، قالوا : سحر وقالوا : كهانة وقالوا : أساطير الأولين ، وقال عطاء قال : بعضهم ساحر ، وقالوا مجنون ، وقال كاهن ، فذلك العضين . وكذا روي عن الضحاك وغيره . وعن ابن عباس إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا شرف فيهم وقد حضر الموسم ، فقال لهم يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ، ويرد قولكم بعضه بعضًا ، فقالوا وأنت يا أبا عبد شمس فقل : وأقم لنا رأيًا نقول به ، قال : بل أنتم قولوا لأسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : ما هو بكاهن ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، قالوا : فماذا نقول ؟ قال : والله إن لقوله لخلاوة فما أنتم بقاتلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر ، فنفرقوا عنه بذلك ، وأنزل الله فيهم : ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أصنافًا ﴿تُورِيكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿أُولَئِكَ النَّفَرُ الَّذِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ . وعن ابن عمر في قوله ﴿لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿قال : عن لا إله إلا الله ، وعن مجاهد قال : عن لا إله إلا الله . وعن أنس عن النبي ﷺ ﴿تُورِيكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال : عن لا إله إلا الله ، وقال عبد الله - هو ابن مسعود - والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر فيقول : ابن آدم ماذا غرّك مني بي ؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ وعن أبي العالية في قوله : ﴿تُورِيكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿قال : يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة ، عما كانوا يعبدون ، عماذا أجابوا المرسلين . وعن ابن عباس في قوله : ﴿تُورِيكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ثم قال : ﴿فَوَيْدُكَ لَا يَسْتَلُّ عَنْ ذَلِيلِهِ إِشْرًا وَلَا جَبْدًا﴾ قال : لا يسألهم هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا .

﴿فَأَصْنَعْ يَا تَوَّابٌ وَأَعْرِضْ عَنِ الشُّرَكِيِّ﴾ إِنَّا كُنْزُكَ الْمُسْتَوِينَ ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ .

يقول تعالى أمرًا رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وإنفاذه والصدع به وهو مواجهة المشركين به ،

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٥) .

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٣) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٦) .

كما قال ابن عباس في قوله : ﴿ فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي أمضه ، وفي رواية : افعل ما تؤمر . وقال مجاهد : هو الجهر بالقرآن في الصلاة ، وعن عبد الله بن مسعود : ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿ فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه . وقوله : ﴿ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ أي بلغ ما أنزل إليك من ربك ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ وَذُوَا لَوْ تَذَهَّنْ فَيَذَهُنَّ ﴾ ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم ، وعن أنس قال في هذه الآية ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ ﴾ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿ قَالَ مَرْسُولَ اللَّهِ ﷺ فغمره بعضهم ، فجاء جبريل - أحسبه قال فغمرهم - فوقع في أجسادهم كهشة الطعنة فماتوا .

وقال محمد بن إسحاق : كان عظماء المستهزين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر ، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم : من بني أسد بن عبد العزى بن قصي ، الأسود ابن المطلب أبو زمة ، ومن بني زهرة : الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ومن بني مخزوم : الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ومن بني سهم : ابن عمرو بن هيصم بن كعب بن لؤي : العاص بن وائل بن هشام بن شعيب بن سعد ، ومن خزاعة : الحارث بن الطلائع بن عمرو بن الحارث بن عبد بن عمرو بن ملكان . فلما تبادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى : ﴿ فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ ﴿ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَكْمُلُونَ ﴾ . وعن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فقام ، وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فمر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه ، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجزأزاه ، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يرش نبلاً له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش وليس بشيء ، فانتفض به فقتله ، ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخصص قدمه فخرج على حمار له يريد الطائف فربض على شبرقة فدخلت في أخصص قدمه فقتلته ، ومر به الحارث بن الطلائع فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله . وعن ابن عباس قال : كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذي جمعهم .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَكْمُلُونَ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَبْقِيُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فَسَيَحْجِيحُ بِحَدِّ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ أي وأنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض ، فلا يهيدنك ذلك ولا يشينتك عن إبلاغك رسالة الله ، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة ، ولهذا قال : ﴿ فَسَيَحْجِيحُ بِحَدِّ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ كما روي عن نعيم بن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ لَا تَعْجَزْ عَنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ » ^(١) ، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٥) .

وقوله : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ قال البخاري : قال سالم الموت ^(١) وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر ، والدليل على ذلك قوله تعالى إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿لَوْ أَنَّكَ مِنَ الْمَصْلُومِينَ ۖ وَلَوْ أَنَّكَ تَعْلِمُ الْغَيْبَ ۖ وَكُنَّا نَحْنُ مَعَ الْكَافِرِينَ ۖ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِرَبِّهِ الَّذِينَ ۖ حَتَّىٰ أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾ وعن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ ما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات قالت أم العلاء : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « وَمَا يُذْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ ؟ » فقلت بأبي وأمي يا رسول الله فمن ؟ قال : « أُمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ » ^(٢) .

ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتًا ، فيصلي بحسب حاله كما ثبت عن عمران ابن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعْ فَعَلَى جَنْبٍ » ^(٣) ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهما إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ، وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين ههنا الموت كما قدمناه ولله الحمد والمنة .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب قوله : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٣) وأحمد في مسنده (٤٣٦/٦) والبيهقي في السنن (٤٠٦/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٧) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٤) .

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا سَتَعْلِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَقَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معيَّراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة ، كقوله : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَا سَتَعْلِلُوهُ ﴾ أي قرب ما تباعد فلا تستعجلوه ، يحتمل أن يعود الضمير على الله ، ويحتمل أن يعود على العذاب ، وكلاهما متلازم ، وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب فقال في قوله ﴿ إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ ﴾ أي فرائضه وحدوده ، وقد رده ابن جرير فقال : لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها ، بخلاف العذاب فإنهم استعجلوا قبل كونه استبعاداً وتكذيباً ، قلت كما قال تعالى ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِؤْنَ فِي السَّاعَةِ لَمُفْسِدِينَ ﴾ وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الثور ، فما تزال ترتفع في السماء ، ثم ينادي مناد فيها : يا أيها الناس فيقبل الناس بعضهم على بعض : هل سمعتم ؟! فمنهم من يقول نعم ، ومنهم من يشك ، ثم ينادي الثانية : يا أيها الناس ، فيقول الناس بعضهم لبعض : هل سمعتم ! فيقولون نعم ، ثم ينادي الثالثة : يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال رسول الله ﷺ : « فوالذي نفسي بيده إن الرجلين لينشتران الثوب فما يطويانه أبداً ، وإن الرجل ليمدُّ حَوْضَهُ فما يسقي فيه شيئاً أبداً ، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً - قال - ويشغل الناس » ^(١) ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد ، تعالى وتقدس علواً كبيراً ، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال : ﴿ سُبْحَنَهُ وَقَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ ﴾ أي الرُّوح وقوله : ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وقوله : ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا ﴾ أي لينذروا ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ أي : فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٥ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات ، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للبعث ، بل ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ﴾ ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يُعبد وحده لا شريك له ، ثم تبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله ، وهو إنما خُلِقَ ليكون عبداً لا ضداً ، كقوله

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٣٩/٤) والمنذري في الترغيب (٣٨٢/٤) .

تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝ وَعَن بَشَرٍ بَن جَحَاش قَالَ : بِصَقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي كَفِهِ ثُمَّ قَالَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : اِنَّ اَدَمَ اَتَى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتُ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَبِالْأَرْضِ مِنْكَ وَثِيْدٌ ، فَجَمَعْتُ وَوَمِنَعْتُ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتُ اَتَصَدَّقُ ، وَأَتَى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟ » (١) .

﴿ وَاللَّامَنَدَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِنْ بَلَغْتَ لَر تَكُونُوا بِبِلْيِهِ إِلَّا بِشِقِ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ .
 يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها ، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة ولهذا قال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ ۝ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروراً وأعلاه أسنمة ﴿ وَحِينَ تَسْرَحْنَ ۝ ﴾ أي غدوة حين تبعثونها المرعى ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ۝ ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿ إِنْ بَلَغْتَ لَر تَكُونُوا بِبِلْيِهِ إِلَّا بِشِقِ الْأَنْفُسِ ۝ ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عِمَلَتٌ آيِدِيًا أَنْصَبًا فهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ۝ ﴾ أي ثياب ﴿ وَمَنْعٌ ۝ ﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة ، وعنه : ﴿ دِفْءٌ وَمَنْعٌ ۝ ﴾ نسل كل دابة ، وقال مجاهد : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ۝ ﴾ أي لباس ينسج ومنافع مركب ولحم ولبن ، وقال قتادة : ﴿ دِفْءٌ وَمَنْعٌ ۝ ﴾ يقول لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة .
 ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرِكْبَهِمَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ .

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم ، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها ، وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها كالإمام أبي حنيفة رحمته ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير ، وهي حرام كما ثبتت به السنة النبوية وذهب إليه أكثر العلماء ، وعن مولى نافع بن علقمة عن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير وكان يقول : قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّامَنَدَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ ﴾ فهذه للأكل ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرِكْبَهِمَا ۝ ﴾ فهذه للركوب (٢) ، واستأنسوا بحديث عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير (٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/٤) وابن ماجه في السنن (٢٧٠٧) .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١١٠/١٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨٩/٤) والنسائي في السنن (٢٠٢/٧) وأبو داود في السنن (٣٧٩٠) .

وعن المقدم بن معد يكرب قال : غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة فقدم أصحابنا إلّٰي اللحم فسألوني رمكة فدفعتمنا إليهم فحبوبها ، وقلت مكانكم حتى آتي خالدًا فأسأله ، فأتيته فسأته فقال غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر فأسرع الناس في حظائر يهود ، فأمرني أن أنادي : الصلاة جامعة ولا يدخل الجنة إلا مسلم ، ثم قال : « أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ قَدْ أَسْرَعْتُمْ فِي حَظَائِرِ يَهُودَ ، أَلَا لَا يَحِلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهِدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَزَامٌ عَلَيْكُمْ لَحُومُ الْحُمْرِ الْأَهْلِيَّةِ وَخَيْلُهَا وَبَعَالُهَا ، وَكُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ ، وَكُلُّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ » ^(١) والرمكة هي الحجرة ، وقوله حببوا أي أوثقوها في الحب ليلذبحوها ، والحظائر البساتين القريبة من العمران ، وكان هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر والله أعلم . فلو صح هذا الحديث لكان نصًّا في تحريم لحوم الخيل ، ولكن لا يقاوم ما ثبت عن جابر بن عبد الله قال : نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل ^(٢) .

وعن أسماء ابنة أبي بكر ؓ قالت : نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا فأكلناه ونحن بالمدينة ^(٣) . فهذه أدل وأقوى وأثبت ، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف والله أعلم .

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايَزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية ، نبه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيرًا ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَزَّوْذُوا فَالَتْ خَيْرٌ أَزَادَ التَّقْوَى ﴾ ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويلغون عليها حاجة في صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه ، فبيّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ كقوله : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال مجاهد في قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ قال طريق الحق على الله ، وقال السدي : الإسلام ، وقال ابن عباس : وعلى الله البيان أي بين الهدى والضلالة ، وكذا قال قتادة والضحاك ، وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق ؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقًا تسلك إليه فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق ، وهي الطريق التي شرعها ورضيها ، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْهَا جَايَزٌ ﴾ أي حائد مائل زائل عن الحق . قال ابن عباس وغيره : هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، وقرأ ابن مسعود : ﴿ وَمِنْكُمْ جَايَزٌ ﴾ ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشئته فقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨٩/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الذبايح (٥٥٢١) ومسلم في الصيد والذبايح (٢٤) وأحمد في مسنده (٢١٩/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الصيد والذبايح (٣٨) .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُبْتِغُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب ، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء ، وهو العلو مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال : ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ أي جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحا أجابا ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم . كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقطادة وابن زيد في قوله : ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي ترعون ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعي ، وروي أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس ^(١) ، وقوله : ﴿ يُبْتِغُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومنته الجسم في تسخير الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثابت والسيارات في أرجاء السموات نورا وضياء ليهتدي بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه ، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة ، وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه . وقوله : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ ﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَنْبِذَ بِكُمْ وَانْهَارًا وَسُبُلًا لَكُمْ تَسْتَدُونَ ﴿١٣﴾ وَعَلَمَنَّا بِالنَّجْمِ هُمْ يَسْتَدُونَ ﴿١٤﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن تسخير البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه ، وجعله السمك والحيتان فيه ، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها ، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه ، وقيل تمخر الرياح ، وكلاهما صحيح ، وقيل : تمخره بجؤجئها - وهو صدرها المسنم - الذي أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك إرثا عن أبيهم

نوح عليه السلام ، فإنه أول من ركب السفن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاسْتَبَعُوا مِن فَضْلِهِ ، وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي نعمه وإحسانه .

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد ، أي لا تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ، ولهذا قال ﴿ وَالْجِبَالِ أَرْسَسَهَا ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنْهَرَا سُبُلًا ﴾ أي جعل فيها أنهارًا تجري من مكان إلى مكان آخر رزقًا للعباد ، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبراري والقفار ويخترق الجبال والآكام فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله ، وهي سائرة في الأرض مينة ويسرة وجنوبًا وشمالًا وشرقًا وغربًا ما بين صغار وكبار ، وأودية تجري حينًا وتنقطع في وقت ، وما بين نبع وجمع ، وقوي السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، وكذلك جعل فيها سبيلًا أي طرقًا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد ، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممزًا ومسلكًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَاجًا سُبُلًا ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ ﴾ أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون برؤا وبحرًا إذا ضلوا الطرق . وقوله : ﴿ وَيَأْتِجُمُ مُمْ يَتَدُونُ ﴾ أي في ظلام الليل ، قاله ابن عباس ، وعن مالك في قوله ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ وَيَأْتِجُمُ مُمْ يَتَدُونُ ﴾ يقول : النجوم وهي الجبال ، ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئًا بل هم يُخلقون ، ولهذا قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم لضعفتكم وتركتم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويجازي على اليسير ، وقال ابن جرير : يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ ﴾ لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا بتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُلْقُونَ ﴾ ١٩ ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۚ أَمْ لَهُمْ غَيْرُ الْحَيَاةِ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر . ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون ، وقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ غَيْرُ الْحَيَاةِ ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يُرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يُرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء .

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحِيدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ ٢٠ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوكُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُحِثُّ ۚ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك

كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿ أَجَلُ الْآلَمَةِ إِلَيْهَا وَجِئْنَا بِكَ لَكِنَّهُ عَجَابٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده ولهذا قال : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي حقاً ﴿ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَشُرُونَ وَمَا يُخْلُتُونَ ﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَجُوكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ٢٤ ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿ مَاذَا أُنْزِلَ رَجُوكُمْ قَالُوا ﴾ معرضين عن الجواب ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي لم ينزل شيئاً ، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين ، أي مأخوذة من كتب المتقدمين كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمُكِّنْ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة . قال الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم ، أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم كما جاء في الحديث : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً » ^(١) وروى عن ابن عباس في الآية : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : إنها كقوله : ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ وقال مجاهد : يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً .

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ الْمَدَابِغَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ٢٥ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قال ابن عباس في قوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ هو النمرود الذي بنى الصرح ، وعن زيد بن أسلم : أول جبار كان في الأرض النمرود ، وهو الذي بنى الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالى : ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ وقال آخرون : بل هو بختنصر ، وذكروا من المكر الذي حكاه الله ههنا ، وقال آخرون : هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذي كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره ، كما قال نوح عليه السلام ﴿ وَكُفُّوا مَعَكُمْ بَارَكَ ﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة ، وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة ، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة ﴿ بَلْ مَكْرُ الْآيِلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أي اجثته من أصله وأبطل عملهم . ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ الْمَدَابِغَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ٢٥ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ ﴿ أَي يظهر فضائحهم ، وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْرَاطُ ﴾ أي تظهر وتشتهر ، كما ورد عن ابن عمر

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٧/٢) وأبو داود في السنن (٤٦٠٩) .

قال : قال رسول الله ﷺ : « يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوْاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِيعَةِ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ ، فَيَقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ ابْنِ فُلَانٍ » ^(١) وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رءوس الخلائق ، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقررًا لهم وموبخًا : ﴿ إِنَّ شُرَكَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَشَدُّ عُتُوًّا وَكُفْرًا فِيمَآ ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم ، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ ﴿ هَلْ يَضُرُّكُمْ أَوْ يَنْفَعُكُمْ ﴾ فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْآيَةَ ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة ، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ، فيقولون حيثذا ﴿ إِنَّ الْآخِرَىٰ خَيْرٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه .

﴿ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَآءَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٢) فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِيكَ فِيهَا فَلَيْسَ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ .

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿ فَأَلْقَوْا السَّلَآءَ ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿ وَاللَّهُ رَئِيفٌ أَعْلَمُ بِمَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ قال الله مكذبًا لهم في قيلهم ذلك ﴿ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(٣) فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِيكَ فِيهَا فَلَيْسَ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿ أي جسس المقييل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان مكبرًا عن آيات الله واتباع رسله ، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴾ لَا يَبْقَىٰ عَلَيْهِمْ فَيْتَوَاتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا . ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِّذِيكَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِذَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٤) جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَوْنَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٥) الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُوكَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء فإن أولئك قيل لهم ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ قالوا معرضين عن الجواب : لم ينزل شيئًا إنما هذا أساطير الأولين ، وهؤلاء قالوا خيرًا ، أي أنزل خيرًا ، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به ، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ الآية ، كقوله تعالى : ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَقَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُجْزِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة ، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير ، أي من الحياة الدنيا والجزء فيها أتم من الجزء في الدنيا ، كقوله : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ وقال رسول الله ﷺ ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ ﴾ بدل من دار المتقين ، أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يدخلونها ﴿ يُجْرَوْنَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١١) ومسلم في الجهاد والسير (١٠) وأحمد في مسنده (٧٠/٢) .

أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله . ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون ، أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ٣٣ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم ، قاله قتادة ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي يوم القيامة وما يعينونه من الأهوال . وقوله : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله ، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدهم بعقاب الله فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿ هَذِهِ آتَانَا الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ ٣٤ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ٣٥ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً ، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه ، قال تعالى راداً عليهم شبهتهم ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم ، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه أكد النهي ، وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ﴿ أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرًا فلا

حجة لهم فيها ؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة ، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل ؛ فلهذا قال : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ فَنَزَّلْنَا فِي الْآرْضِ فَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدًى مِّنْهُمُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فلهذا قال : ﴿ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ أي من أضله ، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله ؟ أي لا أحد ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ أي يتقذرونهم من عذابه ووثاقه .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلْ وَعَدَ عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنِّي لَبِيتُ لَكُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ۝ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم أي اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت ، أي استبعدوا ذلك وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه ، فقال تعالى مكذباً لهم وراذلاً عليهم : ﴿ بَلْ ﴾ أي بلى سيكون ذلك ﴿ وَعَدَ عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أي لا بد منه ﴿ وَلَكِنَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر . ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال : ﴿ إِنِّي لَبِيتُ لَكُمْ ﴾ أي للناس ﴿ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ أي من كل شيء ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَتَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمُنَى ﴾ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت ، ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دُعًا ، وتقول لهم الزبانية ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ أَصَلُّوا فَاَصْبُرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء . ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن ، كما قال الشاعر :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَاِئْتَمَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ قَوْلُهُ فَيَكُونُ

أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف ؛ لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه . وعن عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول : قال الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبنى ابن آدم

ولم يكن ينبغي له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقال ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعُثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِي رَسُولًا ﴾ قال : وقلت : ﴿ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أما شتمه إياي فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَالِكٌ لَّنُفَعُ ﴾ وقلت : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ ﴾ ﴿ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَنَجْزِيَنَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته ، الذين فارقوا الدار والإخوان والحلآن رجاء ثواب الله وجزائه ، ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم عثمان ابن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول ، وأبو سلمة ابن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة وصديق وصديقة ﷺ وأرضاهم وقد فعل ، فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ لَنَنُؤِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قال ابن عباس والشعبي وقتادة : المدينة ، وقيل : الرزق الطيب ، قاله مجاهد ، ولا منافاة بين القولين ؛ فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فغوضهم الله خيرا منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئا لله عوضه الله بما هو خير له منه وكذلك وقع ، فإن الله مكن لهم في البلاد وحكمهم على رقاب العباد وصاروا أمراء حكاما وكل منهم للمتقين إماما ، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرَ ﴾ أي بما أعطيناهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ؛ ولهذا قال هشيم عن العوام عن حماد بن أنس عن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ لَنَنُؤِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَنَجْزِيَنَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم وصفهم تعالى فقال : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلَّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله : ﴿ أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْتَ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ الآية . وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلَّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أهل الكتب الماضية أبشروا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْفَرِيقِ ﴾ ليسوا من أهل السماء ، كما قلتم ، وكذا روي عن ابن عباس أن المراد بأهل الذكر أهل

الكتاب ، وقول عبد الرحمن بن زيد : الذكر القرآن واستشهد بقوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَرَبُّنَا لَمُحْكِمُونَ ﴾ صحيح ، لكن ليس هو المراد ههنا ؛ لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه ، وكذا قول أبي جعفر الباقر : نحن أهل الذكر ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر صحيح ، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة . وعلماء أهل بيت رسول الله ﷺ والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة كعلي وابن عباس وابني علي الحسن والحسين ومحمد ابن الحنفية وعلي بن الحسين زين العابدين وعلي بن عبد الله بن عباس وأبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسين وجعفر ابنه وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم ، وعرف لكل ذي حق حقه ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله ، واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين ، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشرًا كما هو بشر كما قال تعالى : ﴿ قَدْ سَبَّحَانَ رَبِّيَ هَكَذَا كُنْتُ إِلَّا بُشْرًا رَسُولًا ﴾ ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرًا إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياءهم بشرًا أو ملائكة .

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿ وَالزَّبْرِ ﴾ وهي الكتب ، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم ، والزبر جمع زبور تقول العرب : زبرت الكتاب إذا كتبه . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلُوهُ فِي الزَّبْرِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَأَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن ﴿ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيعتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين .

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ١٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ١٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ١٧ .

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها ، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم . وقوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ ﴾ أي في قلبهم في المعاش واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال الملهمية ، قال قتادة والسدي تقلبهم أي أسفارهم ، وقال مجاهد والضحاك وقاتدة ﴿ فِي تَقْلِبِهِمْ ﴾ في الليل والنهار ، قوله : ﴿ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه . وقوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ، ولهذا قال العوفي عن ابن عباس ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ يقول إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة كما ثبت في الحديث « لا أحد أصبر على أذى سمعته من الله ، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيه » (١) وفيهما « إن الله ليُعْطِي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٤٩) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

أَخَذَ الْفَرِيُّ وَهِيَ ظَلِيلَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ إِلَهُ شَدِيدٌ ﴿١﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظُلُفَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ١ ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ٢ ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ٣ .
يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر أن كل ما له ظل يتفتأ ذات اليمين وذات الشمال ، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى . قال مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله ﷻ ، وقوله : ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أي صاغرون ، وقال مجاهد أيضاً : سجد كل شيء فيؤه ، وذكر الجبال قال : سجدوها فيؤها . وقال أبو غالب الشيباني : أمواج البحر صلاته ، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ ﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب ﷻ ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أي مشابرين على طاعته تعالى وامثال أوامره ، وترك زواجه .

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُونَ ﴾ ٤ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ رَاسِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ ٥ ﴿ وَمَا يَكُنْ مِنْ يَتَّقِعَ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴾ ٦ ﴿ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ٧ ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانْتَهَوْا فَتَسْمَعُوا فَمَنْ تَقَلَّمُونَ ﴾ ٨ .
يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه ﴿ وَلَهُ الدِّينُ رَاسِبًا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقادة وغير واحد : أي دائماً ، وعن ابن عباس أيضاً : أي واجباً ، وقال مجاهد : أي خالصاً له ، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض كقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَنْتُحُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ هذا على قول ابن عباس وعكرمة فيكون من باب الخير . وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب أي ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً ، وأخلصوا لي الطاعة كقوله تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ ثم أخبر أنه مالك النفع والضر وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه إليهم ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو ، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه وتسألونه وتلجؤون في الرغبة إليه مستغيثين به ، وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانْتَهَوْا ﴿ قِيلَ : اللام ههنا لام العاقبة ، وقيل : لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا ، أي يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم ، مع أنه المسدي إليهم النعم ، الكاشف عنهم النقم ، ثم توعدهم قائلاً : ﴿ فَتَسْمَعُوا ﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿ فَتَقَلَّمُونَ ﴾ أي عاقبة ذلك .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتَّىٰ عَمَّا كُنْتُمْ تَقْرَوْنَ ﴾ ٩ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ ١٠ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ١١ ﴿ يَتَوَرَّى مِنَ الْغَوِيِّ مِنْ سُوِّ مَا بَشَّرَ بِهِ ءُيمِيكُمْ ﴾

عَلَى هُوبٍ أَرَّ يَدْسُهُ فِي الْغَرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٦﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٧﴾ .

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم ، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا : ﴿ هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ اللَّهُ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْكَ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله ، وفضلوها على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألهم عن ذلك الذي افتروه واتفكوه ، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال ﴿ تَاللَّهِ لَأَسْتَفَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات لله فعبدوها معه فأخطؤوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له ، ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴾ ﴿ تِلْكَ إِنَّمَا تَشْبَهُونَ ﴾ وقوله ههنا ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ﴾ أي عن قولهم وإفكهم وقوله : ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . فإنه ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ﴾ أي كيباً من الهم ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن ﴿ يَتَوَزَّى مِنْ الْقَوْرِ ﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُنُ عَلَى هُوبٍ أَرَّ يَدْسُهُ فِي الْغَرَابِ ﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿ أَرَّ يَدْسُهُ فِي الْغَرَابِ ﴾ أي يدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية ، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بش ما قالوا وبش ما قسموا وبش ما نسبوه إليه ، وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ ﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَاخِرٍ وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَنْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْفِذُونَ ﴾ ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِيفَ الْيَسْتَنْفِذُونَ ﴾ أي الكذب أنك لهم المستنق لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴿ .

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة ، أي لأهلك دواب الأرض تبعاً لإهلاك جميع بني آدم ، ولكن الرب ﷻ يحلم ويستتر ، وينظر إلى أجل مسمى ، أي لا يعاجلهم بالعقوبة ، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً . فعن أبي الأحوص أنه قال : كاد الجعل أن يعذب بذنب بني آدم وقرأ الآية ﴿ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَاخِرٍ ﴾ : وعن أبي سلمة قال : سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، قال : فالتفت إليه فقال بلى والله ، حتى إن الحُبَارَى لتموت في وكرها بظلم الظالم ^(١)

(١) الأثر ذكره الطبري في تفسيره (١٦٦/١٤) والسيوطي في الدر المنثور (١٤٠/٥) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب ، والحُبَارَى : طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة في منقاره طول ، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء والمعنى أن الله يحبس عنها القطر بشؤم ذنوب الظالمين . لسان العرب (٧٥١/٢) ، المعجم الوسيط (١٥٨/١) .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُؤَخِّرُ شَيْئًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ ، وَإِنَّمَا زِيَادَةُ الْعُمْرِ بِالذُّرِّيَّةِ الصَّالِحَةِ يَزُودُهَا اللَّهُ الْعَبْدَ فَيَدْعُوْنَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ فَيُلْحِقُهُ دُعَاؤُهُمْ فِي قَبْرِهِ فَذَلِكَ زِيَادَةُ الْعُمْرِ » ^(١) .

وقوله : ﴿ رَمِمَلُولُكُ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُوْكَ ﴾ أي من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده ، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله . وقوله : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْقَى ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا ، وإن كان ثم معاد ففيه أيضًا لهم الحسنى ، وإخبار عن قيل من قال منهم كقوله : ﴿ وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافِرًا ﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْبَةٍ مَسَّتْهُ لِيُقَوِّلَ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا . قال مجاهد وقادة ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْقَى ﴾ أي الغلمان ، وقال ابن جرير ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْقَى ﴾ أي يوم القيامة وهو الصواب والله الحمد ، ولهذا قال تعالى رادًا عليهم في تمنيههم ذلك ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي حقًا لا بد منه ﴿ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وقادة وغيرهم : منسيون فيها مضيعون ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسُوهُمْ كَمَا سُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ وعن قتادة أيضًا ﴿ مُفْرَطُونَ ﴾ أي معجلون إلى النار من الفرط وهو السابق إلى الورد ، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي يخلدون .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَلَهُمْ فَهَرَبُوا بِهِمْ إِلْيَوْمَ وَلَكِنَّ عَذَابَ إِلْيَوْمِ ﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِشُبَّانٍ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل ، فلك يا محمد في إختوتك من المرسلين أسوة فلا يهيدنك تكذيب قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه . ﴿ فَهَرَبُوا بِهِمْ إِلْيَوْمَ ﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ، ولا صريح لهم ، ولهم عذاب أليم . ثم قال تعالى لرسوله : إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ وَهُدًى ﴾ أي للقلوب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي لمن تمسك به ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها ، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه .

﴿ وَإِنَّ لَكُم فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنَبِّحُوا بِطُغْيَانِ بَنِي إِدْرِيسَ وَدَمْرِ بَنِي خَالِصًا سَابِقًا لِلشَّرِيبِينَ ﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأعنابِ لَنَجِدُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُم فِي الْأَنْعَامِ ﴾ أيها الناس ﴿ فِي الْأَنْعَامِ ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿ تُنَبِّحُوا بِطُغْيَانِ بَنِي إِدْرِيسَ ﴾ أفرده ههنا عودًا على معنى النعم ، أو الضمير عائد على الحيوان ، فإن الأنعام حيوانات ، أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان ،

وفي الآية الأخرى ﴿يَمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ ويجوز هذا وهذا ، وقوله : ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبًا خَالِصًا﴾ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان ، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيصرف منه دم إلى العروق ، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به . وقوله : ﴿لَبًا خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّرِيبِينَ﴾ أي لا يغص به أحد ، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائباً ، نثى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب ، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، ولهذا امتن به عليهم فقال : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه ، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل كما جاءت السنة بتفصيل ذلك وليس هذا موضع بسط ذلك ، كما قال ابن عباس في قوله ﴿سَكَرًا وَرَزَقًا حَسَنًا﴾ السكر ما حرم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما . وفي رواية : السكر حرامه ، والرزق الحسن حلاله ، يعني ما ييس منهما من تمر وزبيب وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان ، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها .

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم هي محكمة في غاية الإتيان في تسديسها وورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرتاً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذلة لها ، أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل ، فتبني الشمع من أجنتها ، وتقيء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها . وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي مطيعة ، فجعلناه حالاً من السالكة . قال ابن زيد : وهو كقول الله تعالى ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَنَبَّأَكُمْ بِمَقَرِّهَا وَقُدِّرَ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ بِلْدَانِهَا الْحَنَافِيُّ وَأَنْتُمْ كَالْعِزَّةِ الْكَبِيرَةِ﴾ . وقال ابن جرير : كلا القولين صحيح ، وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «عُمرُ الذَّبَابِ أَرْبَعُونَ يَوْماً ، والذَّبَابُ كُلُّهُ فِي النَّارِ إِلَّا النَّحْلُ» ^(١) وقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكليها منها .

وقوله : ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي في العسل شفاء للناس أي من أدواء تعرض لهم ، قال بعض من

تكلم على الطب النبوي : لو قال فيه شفاء للناس لكان دواء لكل داء ، ولكن قال : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ : أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، فإنه حار والشيء يداوى بضده . وقال مجاهد وابن جرير في قوله : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ : يعني القرآن ، وهذا قول صحيح في نفسه ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية ، إنما ذكر فيها العسل ، ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا ، وإنما الذي قاله ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والدليل على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هو العسل . الحديث الذي روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أخي استطلق بطنه فقال : « اشقيه عَسَلًا » فذهب فسقاه عَسَلًا ثم جاء فقال : يا رسول الله سقيته عَسَلًا فما زاده إلا استطلاقاً قال : « أَذْهَبَ فَاشْهِقْ عَسَلًا » فذهب فسقاه عَسَلًا ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ ، أَذْهَبَ فَاشْهِقْ عَسَلًا » فذهب فسقاه عَسَلًا فبرئ ^(١) .

قال بعض العلماء بالطب : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عَسَلًا وهو حار تحللت فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه فزاداد التحليل والدفع ، ثم سقاه فكذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ، ببركة إشارته عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام . وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل ^(٢) ، وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ : فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ ، أَوْ شُرْبَةِ عَسَلٍ ، أَوْ كَيْتَةِ بَنَارٍ وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ » ^(٣) . وعن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ : الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ » ^(٤) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَعَقَ الْعَسَلَ ثَلَاثَ غَدَوَاتٍ فِي كُلِّ شَهْرٍ لَمْ يُصِْبْهُ عَظِيمٌ مِنَ الْبَلَاءِ » ^(٥) .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة ، إلى السلوك في هذه المهامه ، والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل وهو أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُنَكِّرُكُمْ مِّنْ بَرٍّ إِلَيْهِ أَزْوَاجُ الْمُؤْمِنِينَ لَكُمْ فِيهَا نِكَاحٌ غَيْرُ شَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ فَذِيرٌ ﴾ . يخبر تعالى عن تصرفه في عبادته ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ الآية ، وقد روي عن علي رضي الله عنه أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وفي هذا

(١) أخرجه مسلم في السلام (٩١) والترمذي في السنن (٢٨٢) وأحمد في مسنده (٩٢/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٦٨٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الطب (٥٦٨١) والبيهقي في السنن (٣٤١/٩) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٤٥٢) والبيهقي في السنن (٣٤٤/٩) .

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٤٥٠) .

السن يحصل له ضعف القوى والحرف وسوء الحفظ وقلة العلم ، ولهذا قال : ﴿ لَيْكُنْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ أي بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفند والحرف ؛ ولهذا روي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو : « أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ ، وَالْكَسَلِ ، وَالْهَرَمِ ، وَأَزْدِلِ الْعُمَرِ ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، وَفِتْنَةِ الدُّجَالِ ، وَفِتْنَةِ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ » (١) .

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي فَضَّلُوا بَرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، فقال تعالى منكراً عليهم أنتم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم ، قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية يقول : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني فذلك قوله : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وقال في الرواية الأخرى : عنه فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم ، وقال مجاهد في هذه الآية هذا مثل الآلهة الباطلة ، وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه ، فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزهه منك . وقوله : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي أنهم جعلوا لله بما ذراً من الحرث والأنعام نصيباً ، فجحدوا نعمته وأشركوا معه غيره ، وعن الحسن البصري قال : كتب عمر بن الخطاب ﷺ هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري : واقع برزقك من الدنيا ، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يتلي به كلاً ، فيتلي من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَكُنْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور ، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين ، وعن ابن عباس ﷺ ﴿ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ ﴾ : هم الولد وولد الولد . وعن عكرمة عن ابن عباس قال : بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك .

وقال مجاهد : ﴿ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ ﴾ : ابنه وخادمه . وقال في رواية : الحفدة الأنصار والأعوان والخدام ، وقال طاووس وغير واحد : الحفدة الخدم . وعن عكرمة أنه قال : الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك ، قال الضحاك : إنما كانت العرب تخدمها بنوها ، وقال العوفي عن ابن عباس قوله ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ ﴾ يقول بنو امرأة الرجل ليسوا منه ، ويقال : الحفدة الرجل

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٧) .

يعمل بين يدي الرجل ، يقال : فلان يحفد لنا أي يعمل لنا ، قال : وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل ، وقال ابن جرير : وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفدة وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت : وإليك نسعى ونحفد ، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ ﴾ قلت : فمن جعل ﴿ وَحَفْدَةً ﴾ متعلقاً بأزواجكم فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار ؛ لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة ، وكذا قال الشعبي والضحاك فإنهم يكونون غالباً تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته ، وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث نضرة بن أكمس « وَالْوَلَدُ عَبْدٌ لَكَ » ^(١) . وأما من جعل الحفدة الخدم ، فعنده أنه معطوف على قوله ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي جعل لكم الأزواج والأولاد خدماً .

وقوله : ﴿ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي من المطاعم والمشارب ، ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره . وفي الحديث الصحيح « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَمَتِّئًا عَلَيْهِ : أَلَمْ أُزَوِّجْكَ ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ ؟ » ^(٢) . ﴿ وَبَعْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ﴿ فَلَا تَقْرِئُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، أي لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر ، ولا يملكون ذلك لأنفسهم أي ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا تَقْرِئُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْهَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن ، وكذا قال قتادة ، واختاره ابن جرير ، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر ، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هو المؤمن ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً يثبت لا يجهره إلا كل غبي قال الله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣١) والبيهقي في السنن (١٥٧/٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ .

قال مجاهد : وهذا أيضًا المراد به الوثن والحق تعالى ، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية ، فلا مقال ولا فعال ، وهو مع هذا كل ، أي عيال وكلفة على مولاه ﴿ إِنَّمَا يُوجِهُهُ ﴾ أي يبعثه ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ من هذه صفاته ﴿ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ أي بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وقيل : الأبكم مولى لعثمان ، وبهذا قال السدي وقتادة وعطاء الخراساني ، واختار هذا القول ابن جرير ^(١) .

وعن ابن عباس : هو مثل للكافر والمؤمن أيضًا كما تقدم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ قال : نزلت في رجل من قريش وعبداه قوله ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ الآية . وفي قوله : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ إلى قوله ﴿ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال : هو عثمان بن عفان ، قال : والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير قال : هو مولى لعثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة ، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيها ^(٢) .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٧٦ ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونٍ أَنَهَضَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٧٧ ﴿ أَلَمْ يَرْوِا إِلَى الْكَلْبِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّكَلِ مَا يُنْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض ، واختصاصه بعلم الغيب فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطعمه تعالى على ما يشاء ، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع ، وأنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون ، كما قال : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَنَفْثِ الْبَصَرِ ﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْثِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم ذكر تعالى منه على عباده في إخراجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا ، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات ، والأبصار التي بها يحسون المراتب ، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح ، وقيل : الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها ، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلًا قليلًا كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده . وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جراحة وعضو وقوة على طاعة مولاه ، كما ورد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحْضَلُ مِنْ آدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أُجِيبَهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وبصره الذي يبصر به ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتُهُ ، وَلَئِنْ

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٩٨/١٤) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٩٨/١٤) والسيوطي في الدر المنثور (١٥٢/٥) وعزاه لابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر وابن أبي حاتم .

دَعَانِي لِأَجِيَّتُهُ ، وَلَقِنْ اسْتَعَاذَ بِي لِأَعِيذَتُهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاعَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ^(١) فمعنى الحديث أن العبد إذا أحلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله ﷻ ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله ، أي ما شرعه الله له ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله ﷻ ، مستعينًا بالله في ذلك كله . ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله : ورجله التي يمشي بها " فَبِي يَسْمَعُ ، وَبِي يَمْشِي " ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كقوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء ، ما يسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك ، كما قال تعالى في سورة الملك : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِلَ وَيَقِظْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّجْمُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ ﴾ وقال ههنا : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينٍ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ ﴾ ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ، ويستترون بها ، ويتنفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضًا من جلود الأنعام بيوتًا أي من الأدم يستخفون حملها في أسفارهم ، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر . ولهذا قال : ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا ﴾ أي الإبل ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ أي المعز ، والضمير عائد على الأنعام ﴿ أَثْنَا ﴾ أي تتخذون منه أثنًا وهو المال ، وقيل المتاع ، وقيل الثياب ، والصحيح أعم من هذا كله ، فإنه يتخذ من الأساس البسط والثياب وغير ذلك ، ويتخذ مالا وتجارة ، وقال ابن عباس : الأثاث المتاع ، وقوله : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾ قال قتادة : يعني الشجر ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا ﴾ أي حصونًا ومعازل كما ﴿ وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ ﴾ كالدرع من الحديد المصفتح والزرد وغير ذلك ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عونًا لكم على طاعته وعبادته ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هكذا فسره الجمهور وقرؤوه بكسر اللام من تسلمون أي من الإسلام ، وقال قتادة في قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ : هذه السورة تسمى سورة النعم ، وعن ابن عباس أنه كان يقرؤها ﴿ تَسْلُمُونَ ﴾ بفتح اللام يعني من الجراح ^(٢) ،

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) .

(٢) هكذا قرأها ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وأبو رجاء بفتح التاء واللام على معنى لعلكم إذا لبستم الدروع تسلمون في الحرب . زاد المسير (٤٧٨/٤) .

وأخرجه ابن جرير من الوجهين ورد هذه القراءة (١) .

قال عطاء الخرساني : إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب . ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنُتًا ﴾ وما جعل من السهل أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب جبال ؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمِنَ الْأَنْهَارِ وَأَصْنَافِهَا وَأَنْبَارَهَا وَشُعَارَهَا أَتْنًا وَمَتْنًا إِلَىٰ يَمِينٍ ﴾ وما جعل من غير ذلك أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ؟ ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْرًا فِيهَا مِن بُرٍّ ﴾ لعجبهم من ذلك ، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ولكنهم كانوا لا يعرفونه ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ سَرِيلٌ نَّفِيسٌ أَلْحَرَّ ﴾ وما بقي من البرد أعظم وأكثر ، ولكنهم كانوا أصحاب حر .

وقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان فلا عليك منهم ﴿ فَإِنَّا عَلَيْكَ بَرِّقُ الْبَرْقِ ﴾ وقد أدبته إليهم ﴿ يَرْفُؤْنَ نِعْمَتَ اللَّهِ تَدْرُؤُونَ ﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك ، وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿ وَأَكْفَرُكُمْ الْكُفْرُونَ ﴾ ، عن مجاهد أن أعرابيا أتى النبي ﷺ فسأله فقراً عليه رسول الله ﷺ ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ يُؤَيِّنُكُمْ سَكَنًا ﴾ فقال الأعرابي : نعم ، قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ الآية ، قال الأعرابي : نعم ، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي : نعم ، حتى بلغ ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فولى الأعرابي فأنزل الله : ﴿ يَرْفُؤْنَ نِعْمَتَ اللَّهِ تَدْرُؤُونَ ﴾ الآية .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿ وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّجْدَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة ؟ وأنه يبعث من كل أمة شهيداً ، وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي في الاعتذار ؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿ فلهذا قال : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ وَإِنَّا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي الذين أشركوا ﴿ الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يفتقر عنهم ساعة واحدة ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب ، فإنه إذا جيء بهنهم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فيشرف عنق منها على الخلائق ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه ، فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد ، الذي جعل مع الله إلهاً آخر ، وبكذا وبكذا وتذكر أصنافاً من الناس كما جاء في الحديث (٢) ، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب ، قال الله تعالى ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ

(١) انظر تفسير الطبري (٢٠٤/١٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٦/٢) والترمذي في السنن (٢٥٧٤) .

فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوها وَلَمْ يَجِدُوا عِنَّا مَصْرِفًا ﴿٨٩﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَبَرِّي آلِهِمْ مِنْهُمْ أَحْوجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهَا فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا رَمَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلَقُوا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي قالت لهم الآلهة كذبتُم ما نحن أمرناكم بعبادتنا ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يَتَكُونُوا لَكُمْ عِزًّا ﴿٩٠﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِغَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يَوْمَئِذٍ الشَّاكِرُ ﴾ قال قتادة وعكرمة : ذلوا واستسلموا يومئذ ، أي استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع . وكقوله : ﴿ أَمَتَّجِ يَوْمَ وَأَصِيرَ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ وقوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يَوْمَئِذٍ الشَّاكِرُ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله ، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير . ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ رِذْلَتُهُمْ عَذَابًا ﴾ الآية ، أي عذابًا على كفرهم ، وعذابًا على صدهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي ينهون الناس عن اتباعه ويتعدون هم منه أيضًا ، وعن عبد الله في قول الله : ﴿ رِذْلَتُهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ قال : زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال . وعن ابن عباس في الآية أنه قال : هي خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل وبعضها في النهار .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُنَبِّئُكَ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهْدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ يعني أمتك ، أي اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فقال له رسول الله ﷺ : « حَسْبُكَ » فقال ابن مسعود ﷺ : فالتفت فإذا عيناه تذرفان ^(١) . وقوله : ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُنَبِّئُكَ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ قال ابن مسعود : قد بينا لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء ، وقال مجاهد : كل حلال وكل حرام ، وقول ابن مسعود أعم وأشمل ، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي ، وكل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ﴿ وَهْدَى ﴾ أي للقلوب ﴿ وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ وقال الأوزاعي ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُنَبِّئُكَ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي بالسنة ، ووجه اقتران قوله ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ مع قوله ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ أن المراد والله أعلم أن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك عن ذلك اليوم وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعَاذُ ﴾ أي إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة ، وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال وهو متجه

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٢) .

حسن .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنُّكْرِ وَالْبَغْيِ يُعْظِمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى : ﴿ وَحَرِّضُوا سِتْرَ سِتْرَةٍ يَتْلَاهَا قَمَرًا وَمَلَجَ قَلْبُهُ عَلَىٰ آفَةٍ ﴾ وقال ابن عباس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ : شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال سفيان بن عيينة : العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً ، والإحسان أن تكون سريره أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريره . وقوله : ﴿ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أي يأمر بصلة الأرحام وقوله : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنُّكْرِ ﴾ فالفواحش المحرمات ، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها ، ولهذا قال في الموضع الآخر : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ وأما البغي فهو العدوان على الناس ، وقد جاء في الحديث : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ عُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَدْخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ » ^(١) وقوله : ﴿ يُعْظِمُكُمْ ﴾ أي بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وعن ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية ، وقال سعيد بن قتادة : قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية ، ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه ، ولما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها قلت ولهذا جاء في الحديث : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفَسَاتِفَهَا » ^(٢) .

وعن عبد الله بن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون ، فكشر إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « أَلَا تَجْلِسُ » فقال : بلى ، قال : فجلس رسول الله ﷺ مستقبله ، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء ، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض ، فتحرف رسول الله ﷺ عن جلسه عثمان إلى حيث وضع بصره ، فأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له وابن مظعون ينظر ، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة ، فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء ، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى ، فقال : يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيته تفعل كفعلك الغداة فقال : « وَمَا رَأَيْتَنِي فَعَلْتُ ؟ » قال رأيته شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك فتحرفت إليه وتركتني ، فأخذت تنفض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك ، قال : « وَقَطِئْتُ لِذَلِكَ ؟ » فقال عثمان : نعم ، قال : رسول الله ﷺ : « أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ أَنِفًا وَأَنْتَ جَالِسٌ » قال : رسول الله ﷺ ؟ قال : « نَعَمْ » قال : فما قال لك ؟ قال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/٥) وابن ماجه في السنن (٤٢١١) .

(٢) ذكره الألباني في الصحيحة (١٦٢٧) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية ، قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي أحببت محمداً ﷺ (١)

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ تَنْخَضُوتُ أَتَيْنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونُ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُوءُ لِلَّذِي عَلَيْهِ الْقِيَمَةُ لَكُمْ بِهِمْ وَلْيَبَيِّنْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ .

هذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدات ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَكُمْ لَأَتُنْصِتَ ﴾ الآية ، وبين قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَتَمْنِيكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ أي لا تركوها بلا كفارة ، وبين قوله ﷺ فيما ثبت عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : « إني والله إن شاء الله لا أخلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا - وفي رواية - وَكَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي » (٢) لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة هاهنا ، وهي قوله : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق ، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع ، ولهذا قال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يعني الحلف ، أي حلف الجاهلية . ويؤيده ما رواه جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً » (٣) . ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه . وأما ما ورد عن أنس رضي الله عنه أنه قال : حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا (٤) فمعناه أنه آخى بينهم ، فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله أعلم .

وعن بريدة في قوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ قال : نزلت في بيعة النبي ﷺ ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام . وعن نافع قال : لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال : أما بعد : فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله ، وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الْغَادِرَ يَنْصَبُ لَهُ لَوَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فَلَانٍ ، وَإِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْغَدْرِ - إلا أن يكون الإشراك بالله - أَنْ يُبَايِعَ رَجُلٌ رَجُلًا عَلَى بَيْعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يَنْكُثُ بَيْعَتَهُ ، فَلَا يَخْلَعَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَدًا ، وَلَا يَسْرِفَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَيَكُونُ فَضْلٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُ » (٥) وعن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ شَرَطَ لِأَخِيهِ شَرْطًا لَا يُرِيدُ أَنْ يَفِيَّ لَهُ بِهِ ، فَهُوَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٨/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان (٩) وأحمد في مسنده (٣٩٨/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٠٦) والإمام أحمد في مسنده (٨٣/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٤٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٠٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٨/٢) والبيهقي في السنن (٢٣٠/٩) .

كَأَمْلِدِي جَارَةً إِلَى غَيْرِ مَثْعَةٍ ^(١) . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعَمَلِكُمْ لَمَّ تَتَعَلَّوْكَ ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَدِّ قُوَّةٍ أَنْكَنَّا ﴾ قال السدي : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه ، وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا . وقوله : ﴿ أَنْكَنَّا ﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر ، نقضت غزلها أنكناً أي أنقاضاً ، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان ، أي لا تكونوا أنكناً جمع نكث من ناكث ، ولهذا قال بعده ﴿ نَتَذَرُكَ أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ أي خديعة ومكرًا ﴿ أَنْ تَكُونُوا أُمَّةً مِنْ أَرَبٍ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم ، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم ، فهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى ، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه ، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى .

وقد قدمنا ولله الحمد في سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد ، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل ، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون ، فقال له عمرو بن عبسة : الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ أَجَلٌ فَلَا يَحُلُّ عُقْدَةً حَتَّى يَنْقُضِي أَمَدَهَا » فرجع معاوية ﷺ بالجيش ^(٢) . قال ابن عباس : ﴿ أَنْ تَكُونُوا أُمَّةً مِنْ أَرَبٍ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي أكثر ، وقال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز ، فنهوا عن ذلك . وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَبْهُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني بالكثرة ، وقال ابن جرير : أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَشْهَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَلَا تُلْجِئُوا أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرُلُ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَفْضَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِئِمًا ﴾ أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباغض ولا شحناء ، وقال ههنا ﴿ وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها ، على الفتيل والنقيير والقطمير . ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً أي خديعة ومكرًا ، لئلا تزل قدم بعد ثوبتها ، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة المشتعلة على الصد عن سبيل الله ؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين فيانصد بسببه عن الدخول في الإسلام ، ولهذا قال

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٤/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٤ ، ١١٣) والبيهقي في السنن (٢٣١/٩) .

﴿ وَتَذَوُّوا السُّوءَ بِمَا صَدَدَتْهُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي لا تعترضوا عن الإيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له ، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده ، ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ أي يفرغ وينقضي ، فإنه إلى أجل محصور مقدر متناه ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له ، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ، أي ويتجاوز عن سيئها . ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً ، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ، من ذكر أو أنثى من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ، بأن يحببه الله حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة ، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت ، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعن علي بن أبي طالب ؓ أنه فسرها بالقناعة ، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : إنها هي السعادة ، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله ، كما جاء عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَزُورِقَ كَفَافًا ، وَقَعْتُهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » ^(١) وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يُعْطِي بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطِي بِهَا خَيْرًا » ^(٢) .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَكَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا أمر ندب ليس بواجب ، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة ، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة ، مبسوبة في أول التفسير ولله الحمد والمنة . والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ، ويخط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر ، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة ، وحكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة ، واحتجوا بهذه الآية ، ونقل النووي في شرح المذهب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً ، ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي ، والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة والله أعلم .

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) والبيهقي في السنن (١٩٦/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٦) وأحمد في مسنده (١٢٣/٣) .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَئِنْ لَمْ سُلْطَنْ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ قال الثوري : ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه ، وقال آخرون معناه : لا حجة له عليهم ، وقال آخرون : كقوله ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ قال مجاهد : يطيعونه ، وقال آخرون : اتخذه ولياً من دون الله ﴿ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ أي أشركوه في عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى ، وقال آخرون : معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد .
﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَصْلَمُ بِمَا يَزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين ، وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتٍ ﴾ أي كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وقال مجاهد : ﴿ بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً ﴾ أي ورفعناها وأثبتنا غيرها ، وقال قتادة هو كقوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ الآية ، فقال تعالى مجيباً لهم : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ أي جبريل ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالصدق والعدل ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً ، وثانياً وتثبت له قلوبهم ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله .
﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَزِزٍ ذِي جَبْتٍ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمي ، كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان يباعاً يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه ، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَزِزٍ ذِي جَبْتٍ ﴾ أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل . قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند المروة إلى سبعة غلام نصراني يقال له جبر عبد لبعض بني الحضرمي فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَزِزٍ ذِي جَبْتٍ ﴾ ^(١) . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلم قتيلاً بمكة وكان اسمه بلعام ، وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده ، فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ

عَبْرَتٌ ثَمِينَةٌ ﴿١﴾ . وقال الضحاك بن مزاحم : هو سلمان الفارسي ، وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسليمان إنما أسلم بالمدينة (٢) ، وقال عبيد الله بن مسلم : كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما ، فكان النبي ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما ، فقال المشركون : يتعلم منهما ، فأنزل الله هذه الآية ، وعن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام وافترى هذه المقالة فتبحة الله .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ .

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره ، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله ، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة ، ثم أخبر تعالى أن رسول الله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب ، لأنه إنما يفترى الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملاحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً ، معروفاً بالصدق في قومه ، لا يشك في ذلك أحد منهم ، بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله ﷻ .

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقُلُوبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦﴾ .

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر ، وشرح صدره بالكفر واطمأن به أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه ، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وختم على سمعهم وأبصارهم ، فلا ينتفعون بها ولا أغنت عنهم شيئاً ، فهم غافلون عما يراد بهم ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة . وأما قوله : ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقُلُوبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ، ووافق المشركين بلفظه : مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرهاً ، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية . وعن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٢/١٤) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٧/٥) وعزه لابن أبي حاتم وابن مردويه .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٤/١٤) .

قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان ، قال النبي ﷺ : « إِنَّ عَادُوا فَقَدْ » ، وفيه أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير قال : « كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان ، فقال : « إِنَّ عَادُوا فَقَدْ » ^(١) وفي ذلك أنزل الله ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال ؓ يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغبط لكم منها لقلتها ، ﷺ وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك . وعن عكرمة أن علياً ؓ حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام ، فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لم أكن لأحرقهم بالنار ، إن رسول الله ﷺ قال : « لَا تُعَذِّبُوا بَعْدَآبِ اللَّهِ » وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷺ : « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ » فبلغ ذلك علياً فقال : ويح أم ابن عباس ^(٢)

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله ، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي ، فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفه عين ما فعلت ، فقال : إذا أقتلك ، فقال : أنت وذاك ، فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموا قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر - وفي رواية ببقرة من نحاس - فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين ، فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقي فيها فزفَع في البكرة ليلقى فيها فبكى ، فطمع فيه ودعاه ، فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله ، وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك بي ، فقال له الملك : فقبل رأسي ، وأنا أطلقك ، فقال : وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ قال : نعم ، فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب ؓ : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبداً ، فقام فقبل رأسه ﷺ .

﴿ ثُمَّ إِنَّكَ لَإِنَّكَ لَإِنَّكَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا ثُمَّ جَنَّهُدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٠٨/٨) والحاكم في المستدرک (٣٥٧/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٧) وأحمد في مسنده (٢١٧/١) والبيهقي في السنن (٧١/٩) .

لَغْفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّدُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ .
هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم ، فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا في سلك المؤمنين وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا ، فأخبر تعالى أنه من بعدها - أي تلك الفعل ، وهي الإجابة إلى الفتنة - لغفور بهم رحيم يوم معادهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّدُ﴾ أي تحاج ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ أي من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير ، ولا يزداد على ثواب الشر ، ولا يظلمون نقيراً .
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٢﴾ .

هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف كما قال تعالى : ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهَذَى مَعَكَ تُنْخَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُنْجِي إِلَيْهِ ضَرْبُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي هنيئاً سهلاً ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا بَيعَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَآخَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنَصُّونَ الْقَرَارَ ﴿ولهذا بدلهم الله بحاليم الأولين خلافهما فقال : ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبي إليها ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبو خلفه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ^(١) ، فأكلوا العلhez وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه . وقوله : ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم ، وامتن به عليهم في قوله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية ، وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ، ورزقهم بعد العيلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وساداتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس .

وعن سليم بن نمير يقول : صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان ﷺ محصور بالمدينة ، فكانت تسأل عنه ما فعل ؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما ، فقالا : قتل ، فقالت حفصة : والذي نفسي بيده إنها القرية - تعني المدينة - التي قال الله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٧٠/٢) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤٣/١٤) .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ ۖ إِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمِمَّا أَهْلُ الْبَيْتِ يَغْتَابُونَ ۚ فَمَنْ أَضَلَّ عَنْ بَاطِلٍ وَلَا عَادِلَ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَفْوٌ رَجِيمٌ ۖ وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبُ الْإِسْنُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۖ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ ۝﴾ .

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب ، وبشكره على ذلك ، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿ وَمِمَّا أَهْلُ الْبَيْتِ يَغْتَابُونَ ۚ ﴾ أي ذبح على غير اسم الله ، ومع هذا ﴿ فَمَنْ أَضَلَّ ﴾ أي احتاج من غير بغى ولا عدوان ﴿ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَفْوٌ رَجِيمٌ ﴾ وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته ولله الحمد ، ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرّموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه في جاهليتهم فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبُ الْإِسْنُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعي ، أو حلل شيئا مما حرم الله ، أو حرم شيئا مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه ، وما في قوله ﴿ لِمَا نَصَبُ ﴾ مصدرية ، أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم ، ثم تواعد على ذلك فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة ، أما في الدنيا فمتاع قليل ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۖ ۝ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُوٌ رَجِيمٌ ۖ ۝﴾ .

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما أُرخص فيه عند الضرورة - وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى - ذكر ﴿ مَا كَانَ حَرَمَهُ عَلَى الْيَهُودِ فِي شَرِيعَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْسَخَهَا ، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْآصَارِ وَالتَّضْيِيقِ وَالْأَغْلَالِ وَالْحَرْجِ فَقَالَ ﴾ ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفَرٍ وَبَرَكِ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُؤْمُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوْ الْحَوَائِي أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِظُلْمِ ذَلِكَ جَرَّتْهُمْ يَتِيمُهُمْ وَإِنَّا لَمَعِدُونَ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي فاستحقوا ذلك ؛ ثم أخبر تعالى تكميلا وامتثالا في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه فقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ أي أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصي ، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُوٌ رَجِيمٌ ۖ ۝﴾ أي تلك الفعل والزلّة ﴿ لَعَفُوٌ رَجِيمٌ ۖ ۝﴾ .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ شَاكِرًا لِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهُدًى لِمَنْ حَرِطَ مُسْتَقِيمٌ ۖ ۝ وَإِنَّهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۖ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَنْبِئْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ .

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ، ويرثه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ فأما الأمة : فهو الإمام الذي يقتدى به والقانت : هو الخاشع المطيع ، والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ بِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وعن أبي العبيدين أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت فقال : الأمة معلم الخير ، والقانت المطيع لله ورسوله ، وعن مالك قال : قال ابن عمر : الأمة الذي يعلم الناس دينهم ، وعن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبد الله فقال : من نسأل إذا لم نسألك ؟ فكأن ابن مسعود رق له فقال : أخبرني عن الأمة ؟ فقال : الذي يعلم الناس الخير ، وعن فروة بن نوفل الأشجعي قال : قال ابن مسعود إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، فقلت في نفسي غلط أبو عبد الرحمن وقال : إنما قال الله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ فقال : تدري ما الأمة وما القانت ؟ قلت : الله أعلم ، فقال : الأمة الذي يعلم الخير ، والقانت المطيع لله ورسوله ، وكذلك كان معاذ ، وقال مجاهد : أمة أي أمة وحده ، والقانت : المطيع ، وقال مجاهد أيضاً كان إبراهيم أمة أي مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار ، وقال قتادة : كان إمام هدى والقانت : المطيع لله . وقوله : ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ ﴾ أي قائماً بشكر نعم الله عليه . وقوله : ﴿ اجْتَنَبَهُ ﴾ أي اختاره واصطفاه ثم قال : ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي . وقوله : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿ وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَئِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي لسان صدق . وقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ثم قال تعالى منكراً على اليهود :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ . لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليفة ، واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده ، ويقال : إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى ، فعدلوا عنه واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة ، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه ، وأخذ مواعيقهم وعهودهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ قال مجاهد : اتبعوه وتركوا الجمعة ، ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى ابن مريم ، فيقال : إنه حولهم إلى يوم الأحد ، ويقال : إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها ، وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع ، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود ، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة والله أعلم . وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَبْدَأُ اللَّهُمَّ

أَوْثُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ ، فَانْطَاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، الْيَهُودُ غَدَاً وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ ^(١) ، وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنه قالوا : قال رسول الله : « أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا ، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ » ^(٢) .
﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى أمراً رسوله محمداً صلی الله علیه وسلم أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة . قال ابن جرير : وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة ، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى ، وقوله : ﴿ وَحَدِّثْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكُمَا لَعْلَهُ يَذْكُرْ أَوْ يَخْشَى ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ الآية ، أي قد علم الشقي منهم والسعيد .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ ﴾ .
يأمر تعالى بالعدل في القصاص ، والمماثلة في استيفاء الحق ، فعن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله ، وقال ابن زيد : كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين ، فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا : يا رسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب ، فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك الجهاد .

وقال الشعبي وابن جرير : نزلت في قول المسلمين يوم أُحُدَ فيمن مثل بهم لتمثلن بهم ، فأُنزل الله فيهم ذلك ، وعن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أُحُدَ قتل من الأنصار ستون رجلاً ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله صلی الله علیه وسلم : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لتمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد : إن رسول الله صلی الله علیه وسلم قد أَمَّنَ الْأَسْوَدَ وَالْأَبْيَضَ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا - نَاسًا سَمَاهُمْ - فَأُنْزِلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ إلى آخر السورة ، فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم : « نَصِيرُ وَلَا نَعَاقِبُ » ^(٣) وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن ، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل ، كما في قوله : ﴿ وَحَزَّوْا سِنِينَ سَنَتَهُ نِتْلَهَا ﴾ . وقال في هذه الآية : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ تأكيد للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٦) ومسلم في الجمعة (١٩) وأحمد في مسنده (٢٤٩/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٢) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٥/٥) .

بمشيئة الله وإعانتة وحوله وقوته ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ أي غم ﴿ يَمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه ، وهذه معية خاصة كقوله لموسى وهارون : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى ﴾ وقول النبي ﷺ للصدّيق وهما في الغار : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » ^(١) وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ومعنى ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي تركوا المحرمات ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أي فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلوهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفهم .

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦١٥) ومسلم في الزهد (٧٥) .

سورة الإسراء

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : إنهن من العتاق الأول ، وهن من تلادي ^(١) . وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمزم ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُبَيِّنَ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

يمجد تعالى نفسه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أي في جرح الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي يبلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم ؛ ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأهمهم في دارهم فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، وقوله تعالى : ﴿الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ أي في الزروع والشمار ﴿لِنُبَيِّنَ﴾ أي محمدًا ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي العظام ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، البصير بهم فيعطى كلًا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

عن أنس بن مالك يقول : ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة : إنه جاء ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة ، فلم يرههم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه . وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيمانًا وحكمة فحشا به صدره ولغاديدته - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا . فضرب بابًا من أبوابها فناده أهل السماء : من هذا ؟ فقال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : معي محمد ، قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : فمرحبًا به وأهلًا ، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله في الأرض حتى يعلمهم ، فوجد في السماء آدم فقال له جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، وردّ عليه آدم فقال : مرحبًا وأهلًا بابني ، نعم الابن أنت ، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : « مَا هَذَانِ التَّهْرَانِ يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : هذان النيل والفرات عنصرهما ، ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال : « مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ » قال : هذا الكوثر الذي خبا لك ربك . ثم

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٨/٦) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٨) .

عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى : من هذا ؟ قال : جبريل ، قالوا : ومن معك ؟ قال : محمد ﷺ قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم ، قالوا : مرحبًا به وأهلًا . ثم عرج به إلى السماء الثالثة ، فقالوا له ما قالت الأولى والثانية ، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك ، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية ، وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه ، وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى ، فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع علي أحدًا ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ﷻ حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : « عَهْدٌ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ » قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيريه في ذلك ، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت ، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو في مكانه : « يَا رَبِّ خَفَّفْ عَنَّا فَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ هَذَا » فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرَ صَلَوَاتٍ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَرُدُّهُ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ حَتَّى صَارَتْ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ ، ثُمَّ احْتَبَسَهُ مُوسَى عِنْدَ الْخَمْسِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ لَقَدْ رَاودَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمِي عَلَى أَدْنَى مِنْ هَذَا فَضَعُفُوا فَتَرَكُوهُ ، فَأَمْتِكَ أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ، ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال : « يَا رَبِّ إِنَّ أُمَّتِي ضَعَفَاءُ أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ ؛ فَخَفَّفْ عَنَّا » فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد ، قال : « لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ » قال : إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب ، فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك . فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : « خَفَّفَ عَنَّا ، أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَثْنَالِهَا » قال موسى : قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضًا ، قال رسول الله ﷺ : « يَا مُوسَى ! قَدْ وَاللَّهِ اشْتَحَيْتُ مِنْ رَبِّي ﷻ بِمَا اخْتَلَفَ إِلَيْهِ » قال : فاهبط باسم الله . قال : واستيقظ وهو في المسجد الحرام ^(١) .

وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ، ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء : افتح ، قال : من هذا ؟ قال : جبريل ، قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم ، معي محمد ﷺ فقال :

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥١٧) .

أرسل إليه ؟ قال : نعم ، فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح - قال : قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : « هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسمة بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى . ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لحازنها : افتح ، فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ففتح » قال أنس : فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ، ولم يثبت كيف منازلهم ، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السماء السادسة ، قال أنس : فلما مر جبريل والنبي ﷺ بإدريس قال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : إدريس . ثم مر بموسى فقال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا موسى . ثم مررت بعيسى فقال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا عيسى . ثم مررت بإبراهيم فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا إبراهيم - قال الزهري : فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان قال النبي ﷺ : « ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » قال أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « ففرض الله على أمتي خمسين صلاة ، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام » فقال : ما فرض الله على أمتك ؟ قلت : قرص خمسين صلاة ؛ قال : موسى فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فرجعت فوضع شطرها ، فرجعت إلى موسى قلت : وضع شطرها ، فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فرجعت فوضع شطرها ، فرجعت إليه فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعت فقال : هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي ، فرجعت إلى موسى فقال : ارجع إلى ربك ، قلت : قد استحييت من ربي ، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبال اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » (١) .

وعن أم هانئ ، قالت : بات رسول الله ﷺ ليلة أسري به في بيتي ففقدته من الليل فامتنع مني النوم ؛ مخافة أن يكون عرض له بعض قریش ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنْ جِئْتَنِي فَأَتَانِي فَأَخَذَ بِيَدِي فَأَخْرَجَنِي ، فَإِذَا عَلَى الْبَابِ ذَابَّةٌ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ ، فَحَمَلَنِي عَلَيْهَا ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَأَرَانِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُشْبِهُ خَلْقَهُ خَلْقِي وَيُشْبِهُ خُلُقِي خُلُقَهُ ، وَأَرَانِي مُوسَى آدَمَ طَوِيلًا سَبَطَ الشَّعْرِ شَبَهُهُ بِرِجَالِ أَزْدَ شَنْوَةَ ، وَأَرَانِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُبْعَةً أَيْضُ يُضْرَبُ إِلَى الْحُمْرَةِ بِعِزَّةٍ بَنٍ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ ، وَأَرَانِي الدَّجَالَ تَمْسُوحُ الْعَيْنِ الِئِمْنَى شَبَهُهُ بِقَطْنِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى » قَالَ : « وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأُخْبِرَهُمْ بِمَا رَأَيْتُ » . فَأَخَذَتْ بِثَوْبِهِ فَقُلْتُ : لِمَ أَذْكَرُكَ اللَّهُ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمَكَ يَكْذِبُونَكَ ، وَيَنْكَرُونَ مَقَالَكَ فَأَخَافُ أَنْ يَسْطُوا بِكَ ، قَالَتْ : فَضْرَبَ

(١) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٣٤٩) ورواه من طريق آخر في (أحاديث الأنبياء) (٣٣٤٢) وأخرجه مسلم في (الإيمان) (٢٦٣) .

ثوبه من يدي ، ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس ، فأخبرهم ما أخبرني ، فقام جبير بن مطعم فقال : يا محمد ، أن لو كنت لك شأن كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرائنا . فقال رجل من القوم : يا محمد هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا ؟ قال : « نَعَمْ وَاللَّهِ ؛ قَدْ وَجَدْتُهُمْ قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ فَهَمُّ فِي طَلَبِهِ » . قال : هل مررت بإبل لبني فلان ؟ قال : « نَعَمْ وَجَدْتُهُمْ فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ انْكَسَرَتْ لَهُمْ نَاقَةٌ حَمْرَاءُ ، وَعِنْدَهُمْ قَصْعَةٌ مَاءٍ فَشَرِبْتُ مَا فِيهَا » . قالوا : فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة قال : « قَدْ كُنْتُ عَنْ عِدَّتِهَا مَشْغُولًا » . فقام فأوتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة ثم أتى قريشًا فقال لهم : « سَأَلْتُمُونِي عَنْ إِبِلِ بَنِي فُلَانٍ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا ، وَفِيهَا مِنَ الرِّعَاةِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، وَسَأَلْتُمُونِي عَنْ إِبِلِ بَنِي فُلَانٍ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا ، وَفِيهَا مِنَ الرِّعَاةِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ ، وَهِيَ تُصْبِحُكُمْ بِالْغَدَاةِ عَلَى الثَّنِيَّةِ » . قال : فقعدها على الثنية ينظرون أَصَدَقْتُهُمْ ما قال ، فاستقبلوا الإبل فسألوه هل ضل لكم بعير ؟ فقالوا : نعم ، فسألوا الآخر هل انكسرت لكم ناقة حمراء ؟ قالوا : نعم قالوا : فهل كانت عندهم قصعة ؟ قال أبو بكر : أنا والله وضعتها فما شربها أحد ولا أهرأقه في الأرض فصدقه أبو بكر وآمن به فسمي يومئذ الصديق ^(١) .

فصل : وإذا حصل الوقوف على مجموع الأحاديث الواردة في الإسراء والمعراج صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة .

قال الزهري : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة . وقد أسري به يقظة لا منامًا من مكة إلى بيت المقدس راكبًا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتى بالمعراج - وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السماوات السبع ، فتلقاها من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مر بموسى في السادسة وإبراهيم في السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، أي أقلام القدر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى ، وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ، ورأى رفرقًا أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسندًا ظهره إليه ؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ، ثم خففها إلى خمس ؛ رحمة منه ولطفًا بعباده . ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة . ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، ثم اختلف الناس هل كان الإسراء بيدنه وروحه ؟ أو بروحه فقط ؟

(١) أورده السيوطي في الدر (١٤٨/٤) والهندي في كنز العمال (٣٨٥١) .

على قولين : فالأكثر على أنه أسري بيده وروحه يقظة لا منامًا ، ولا ينكرون أن يكون رأى قبل ذلك منامًا ثم رآه بعده يقظة ؛ لأنه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام ، فلو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء ، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم ، وأيضًا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَرْضِيَّا إِلَهَ أَرِثْنَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم ^(١) . وقال تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ والبصر من آلات الذات لا الروح ؛ وأيضًا فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقه لها لمعان ، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح ؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه ، والله أعلم .

فائدة حسنة : روى الأصبهاني في دلائل النبوة عن محمد بن كعب القرظي قال : بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر ، فذكر وروده عليه وقدمه إليه ، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ، ثم استدعى من بالشام من التجار ، فجاء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه ، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم ^(٢) - كما سيأتي بيانه - وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده . قال في هذا السياق عن أبي سفيان : والله ما منعني من أن أقول عليه قولًا أسقطه من عينه إلا أنني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علي ولا يصدقني في شيء - قال - : حتى ذكرت قوله ليلة أسري به - قال : فقلت : أيها الملك ألا أخبرك خبرًا تعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ - قال : قلت : إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ، ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح - قال : - وبطريق إيلياء عند رأس قيصر فقال بطريق إيلياء : قد علمت تلك الليلة - قال : - فنظر إليه قيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنني فاستعنت عليه بعمالي ، ومن يحضرني كلهم معالجة فغلبننا ، فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبالاً ، فدعوت إليه النجاجة فنظروا إليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح ، فنظر من أين أتى . قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما ، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربوط الدابة ، قال : فقلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلى الليلة في مسجدنا وذكر تمام الحديث .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ ﴿ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ .

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبيده محمد ﷺ ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله ، وكنيته أيضًا

(٢) انظر البخاري في بدء الوحي (٧) ومسلم في الجهاد (٧٤) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٦) .

فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام ، وبين ذكر التوراة والقرآن ، ولهذا قال : بعد ذكر الإسراء ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة ، ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي الكتاب ، ﴿ هُدًى ﴾ أي هادياً ﴿ لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا ﴾ أي لئلا تتخذوا ﴿ مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني ؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبدوه وحده لا شريك له ، ثم قال : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ تقديره : يا ذرية من حملنا مع نوح ، فيه تهيج وتنبيه على المنة ، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح ، في السفينة تشبهوا بأيكم ﴿ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالني إليكم محمداً ﷺ ، وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف أن نوحاً عليه السلام ، كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله ؛ فلهذا سمي عبداً شكوراً . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها » (١) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » - بطوله ، وفيه - « فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ » (٢) . وذكر الحديث بكماله .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ١ ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ ٢ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ ٣ ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوتُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ ٤ ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْجِعَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ ٥ .

يخبر تعالى : أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ، أي أخبرهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ، يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى قوة وعدة وسلطنة شديدة ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم ، أي بينها ووسطها ، وانصرفوا ذاهبين وجائين ، لا يخافون أحداً ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقادة أنه جالوت الجزري وجنوده سلط عليه أولاً ، ثم أديلوا عليه بعد ذلك . وقتل داود جالوت ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ ﴾ .

وعن سعيد بن جبير : أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده ، وعنه أيضاً وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل ، وقد روي عن سعيد بن المسيب قال : ظهر بختنصر على الشام فخرّب بيت المقدس وقتلهم ، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً غلي على كبا فسألهم ما هذا الدم ؟ فقالوا : أدركنا آباءنا على هذا ، وكلما

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٩) والإمام أحمد في مسنده (١٠٠/٣ ، ١١٧) والترمذي في السنن (١٨١٦) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠) .

ظهر عليه الكبا ظهر ، قال : فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن ^(١) .
ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَحْسَنَ أَحْسَنَتِ أَنْفُسِكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي فعلها . وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ لِيَسْأَلُوا وَجُوهَكُمْ ﴾ أي يقهروكم .
﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ أي بيت المقدس ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وَلِيُخْرِجُوا ﴾ أي يخربوا ﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿ تَنْبِيْراً ﴾ عَنِ زَيْدٍ أَنْ يَرْتَمِكُمْ ﴾ أي فيصرفهم عنكم ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ ﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عُدْنَا ﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال ، ﴿ حَصِيْرًا ﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْرَبُ وَبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

يمدح تعالى كتابه العزيز - وهو القرآن - بأنه يهدي لأقوم الطرق ﴿ وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ به ﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ على مقتضاه ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أي يوم القيامة ، ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ ، أي ويشر الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي يوم القيامة .
﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر ؛ أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، وفي الحديث : « لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ أَنْ تَوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً إِجَابَةً يَسْتَجِيبُ فِيهَا » ^(٢) .

﴿ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَحَوَّنَا آيَةَ أَلِيلٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئَاتِ وَالْحَسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ .

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام ، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ، وينتشروا في النهار للمعاش والصنائع والأعمال والأسفار ، وليلعلموا عدد الأيام ، والجمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات ، والمعاملات ، والإجازات وغير ذلك ، ولهذا قال : ﴿ لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئَاتِ وَالْحَسَابِ ﴾ ، فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً ، وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك . قال ابن جريج : عن عبد الله بن كثير في قوله : ﴿ فَحَوَّنَا آيَةَ أَلِيلٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ قال : ظلمة الليل وسدف النهار . وقال مجاهد : الشمس آية النهار والقمر آية الليل ﴿ فَحَوَّنَا آيَةَ أَلِيلٍ ﴾ السواد الذي في القمر وكذلك خلقه الله تعالى ، وقال ابن عباس : كان القمر يضيء كما تضيء الشمس ،

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٩/١٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤) .

والقمر آية الليل والشمس آية النهار ﴿فَحَوَّنَا نَايَةَ اللَّيْلِ﴾ السواد الذي في القمر ، وقد روى ابن جرير أن ابن الكواء سأل علي بن أبي طالب فقال : يا أمير المؤمنين ما هذه اللطخة التي في القمر ؟ فقال : ويحك أما تقرأ القرآن ؟ ﴿فَحَوَّنَا نَايَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه ^(١) .

﴿وَكَلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْتَهُ طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُجِّجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا .

يقول تعالى : بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه أعمال بني آدم ﴿وَكَلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْتَهُ طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله ، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه ، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً صباحاً ومساءً .

وقوله : ﴿وَنُجِّجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة ، إما يمينه إن كان سعيداً أو شماله إن كان شقيماً ﴿مَنشُورًا﴾ أي مفتوحاً يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي إنك تعلم لم تظلم ، ولم يكتب عليك إلا ما عملت لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي . وقوله : ﴿أَلْزَمْتَهُ طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق ؛ لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد ، ومن أُلزم بشيء فيه فلا محيد له عنه ، وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه ، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة : يا ربنا عبدك فلان قد حبسته ، فيقول الرب ﷻ : اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت » ^(٢) وقال قتادة : ﴿أَلْزَمْتَهُ طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال : عمله ﴿وَنُجِّجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ قال : نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر : وتلا الحسن البصري ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قِيدٌ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفةك وוכל بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفةك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ﴾ الآية . فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك . هذا من أحسن الكلام الحسن ﷻ .

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَا لِيَهْدَىٰ لِغَيْبِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلَا فَرْجَ لَهُ وَلَا نَفْعَ لِلْعَمَلِ إِنْ كُنَّ أَعْيُنُ النَّاسِ عَلَىٰ عَنُودِهِمْ وَمَا لَهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِغَيْرِهِ﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ أي عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجني على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه ، ثم قال : ﴿وَلَا نَزْرُ وَلَا زُرَّةٌ لَهُ وَلَا نَفْعَ لِلْعَمَلِ إِنْ كُنَّ أَعْيُنُ النَّاسِ عَلَىٰ عَنُودِهِمْ وَمَا لَهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِغَيْرِهِ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجني جان إلا على نفسه .

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٦٣/١٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٦/٤) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ لإخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كقوله تعالى ﴿ كَلَّمَآ أَلْفٌ فِيهَا فَوْجٌ سَالَمٌ خَزَنَتَا آلَ يَاقُوتَ نَذِيرٌ ﴾ (١) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن سَمُوتٍ إِنَّهُ أَنشَأَ إِلَّا فِي سَكَلٍ كَبِيرٍ .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ » فذكر الحديث إلى أن قال : « وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا ، وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ خَلْقًا فَيُلْقُونَ فِيهَا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ » ثلاثاً (٢) فهذا إنما جاء في الجنة ؛ لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه .

بقي هاهنا مسألة قد اختلف الأئمة فيها قديماً وحديثاً ، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار ، وآباؤهم كفار ، ماذا حكمهم ، وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته ، وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه ، ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان .

عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال : « أَرْبَعَةٌ يَخْتَجُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : رَجُلٌ أَصَمٌ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا ، وَرَجُلٌ أَحْمَقٌ ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فِتْرَةٍ ، فَأَمَّا الْأَصَمُ فَيَقُولُ : رَبِّ قَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا ، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ : رَبِّ قَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصَّبِيَّانُ يَخَذِفُونِي بِالْبَعْرِ ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ : رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَغْقَلَ شَيْئًا ، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفِتْرَةِ فَيَقُولُ : رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ . فَيَأْخُذُ مَوَائِقَهُمْ لِيُطِيعَهُ فَيُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا » (٣)

وعن البراء بن عازب ؓ قال : سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال : « هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ » وسئل عن أولاد المشركين ، فقال : « هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ » فقيل : يا رسول الله ما يعملون ، قال : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمْ » (٤)

وعن أبي هريرة ؓ ، أن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِيهِ أَوْ يَنْصَرَانِيهِ أَوْ يُمَجْسِسَانِيهِ ، كَمَا تُنْتَجِجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحْمِسُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ » (٥) . وفي رواية قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً ، قال : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا غَامِلِينَ » (٦)

وعن خنساء بنت معاوية ، عن بني صريم ، قالت : حدثني عمي قال : قلت : يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : « النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ ، وَالشَّهِيدُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْمَوْلُودُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْوَيْثُ فِي الْجَنَّةِ » (٧) .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٩) والإمام أحمد في مسنده (٥٠٧/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤/٤) وأورده السيوطي في الدر (١٦٨/٤) والهندي في كنز العمال (٣٨٩٨٠) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٤/٦) والطبراني في الكبير (١٠٣/٨) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ومسلم في القدر (٢٢-٢٥) وأبو داود في سننه (٤٧١٤ ، ٤٧١٦) .

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٤) ومسلم في القدر (٢٣) والترمذي في السنن (٢١٣٨) وأبو داود في السنن (٤٧١١) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥٨/٥ ، ٤٠٩) وأبو داود في سننه (٢٥٢١) .

فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام ، قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولده فقال له جبريل : هذا إبراهيم عليه السلام ، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال : « نَعَمْ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ » . ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله عليه السلام : « هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ » . ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات ، فمن أطاع دخل الجنة ، وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار داخراً ، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة . وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها . وقد صرح به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض . وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن البر النمري بعدما تقدم من أحاديث الامتحان ثم قال : وأحاديث هذا الباب ليست قوية ، ولا تقوم بها حجة ، وأهل العلم ينكرونها ؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء ، فكيف يكلفون دخول النار ، وليس ذلك في وسع المخلوقين والله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

والجواب عما قال : أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء ، ومنها ما هو حسن ، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح ، والحسن ، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها . وأما قوله : إن الدار الآخرة دار جزاء ، فلا شك أنها دار جزاء ، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار ، كما حكاها الشيخ أبو الحسن الأشعري ، عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال وقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ ﴾ الآية ، وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة . وأن المنافق لا يستطيع ذلك ، ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً كلما أراد السجود خر لقفاه ، وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجا منها ، أن الله يأخذ عهوده وموائيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه ، ويتكرر ذلك مراراً ويقول الله تعالى : يا ابن آدم ما أغدرك ، ثم يأذن له في دخول الجنة ^(١) . وأما قوله : فكيف يكلفهم الله دخول النار ، وليس ذلك في وسعهم ، فليس هذا بمنع من صحة الحديث ، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط ، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة ، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم ، كالبرق والريح وكأجاويد الخيل ، والركاب ومنهم الساعي ، ومنهم الماشي ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم المكدوش على وجهه في النار . وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم . وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدبرونه ، أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار ؛ فإنه يكون عليه برذاً وسلاماً ، فهذا نظير ذاك ، وأيضاً فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم ، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا ، فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً يقتل الرجل أباه وأخاه ، وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم ، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل . وهذا أيضاً شاق على

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٧٣) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) .

النفوس جدًّا لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور ، والله أعلم .

فصل : إذا تقرر هذا فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال :

أحدها : أنهم في الجنة ، واحتجوا بحديث سمرة أنه رضي الله عنه رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين . وأيضًا بما تقدم عن خنساء عن عمها . وهذا استدلال صحيح ولكن أحاديث الامتحان أخص منه ، فمن علم الله منه أن يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم ، وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ، ومن علم منه أنه لا يجيب فأمره إلى الله تعالى ، ويوم القيامة يكون في النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ، ونقله الأشعري عن أهل السنة ، ثم إن هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة منهم من يجعلهم مستقلين فيها ، ومنهم من يجعلهم خدماً لهم .

والقول الثاني : أنهم مع آبائهم في النار ، واستدل عليه بحديث عبد الله بن أبي قيس مولى غطفان : أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت : قال رسول الله ﷺ : « هُمْ تَبَعٌ لِآبَائِهِمْ » فقلت : يا رسول الله بلا أعمال ؟ فقال : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » ^(١) .

القول الثالث : التوقف فيهم ، واعتمدوا على قوله ﷺ : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف ، وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة ؛ لأن الأعراف ليس دار قرار ومآل أهلها إلى الجنة . كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف ، والله أعلم .

فصل : وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء ؛ فعن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة ، وهذا هو المشهور بين الناس ، وهو الذي نقطع به إن شاء الله ﷻ فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن بعض العلماء أنهم توقفوا في ذلك ، وأن الولدان كلهم تحت المشيئة ، قال أبو عمر : ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث ، منهم : حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم . وقالوا : وهو يشبه ما رسم مالك في موطنه في أبواب القدر ، وما أورده من الأحاديث في ذلك ، وعلى ذلك أكثر أصحابه ، وليس عن مالك فيه شيء منصوص إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة ، وأطفال المشركين خاصة في المشيئة انتهى كلامه ، وهو غريب جدًّا ، وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب التذكرة نحو ذلك ، وقد ذكروا في ذلك حديث عائشة قالت : دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله طوي لي عصفور من عصفائر الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال : « أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ ؟ » إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم ^(٢) .

ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة ، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧١٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١/٦) وأبو داود في السنن (٢٢٩/٤) .

الشارع ، كره جماعة من العلماء الكلام فيها ، روي ذلك عن ابن عباس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد ابن الحنفية وغيرهم .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَمَرْغَمْنَاهَا نَذِيرًا ﴾ .

اختلف القراء في قراءة قوله : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ فالمشهور قراءة التخفيف ، واختلف المفسرون في معناها ، فقيل : معناه أمرنا مترفيها أمرًا قدريًا ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَنْهَاهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا آلَاءَ اللَّهِ هُمْ لَا يَتَّبِعُونَ ﴾ . وقالوا : معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب ، وقيل معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش ، وقال ابن جرير : يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء .

قلت : إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ (أَمَرْنَا مترفيها) ^(١) قال ابن عباس في قوله : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ : يقول : سلطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب . وهو قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ ﴾ الآية . وقال ابن عباس : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ يقول : أكثرنا عددهم . وعن الزهري ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ أكثرنا ، وقد استشهد بعضهم بحديث : « خَيْرُ مَالٍ أَرِي لَكَ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ أَوْ سِكَّةٌ مَأْمُورَةٌ » ^(٢) قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتابه الغريب : المأمورة كثيرة النسل ، والسكة الطريقة المصطفة من النخل ، والمأبورة من التأثير .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى منذرًا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ : بأنه قد أهلك أمما من المكذبين للرسول من بعد نوح ، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم ، وقد كذبتم أشرف الرسل ، وأكرم الخلائق ، فعقوبتكم أولى وأحرى . وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرا وشرها ، لا يخفى عليه منها خافية .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَالَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۖ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النهم يحصل له ، بل إنما يحصل لمن أراد الله ، وما يشاء ، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات ، فإنه قال : ﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ . أي في الدار الآخرة ﴿ يَصْلَاهَا ﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه . ﴿ مَذْمُومًا ﴾ أي في حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه ؛ إذ اختار الفاني على الباقي . ﴿ مَدْحُورًا ﴾ مبعداً مقصيًّا حقيرًا ذليلاً مهانًا ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدُّنْيَا دَارٌ مَنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالٌ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ » ^(٣) . وقوله : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ

(١) قرأ يعقوب ﴿ أَمَرْنَا ﴾ بمد الهزة ، والباقون بقصرها (تقريب النشر في القراءات العشر ص : ١٣٣) .

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٤٦٨/٣) والبيهقي في السنن (٦٤/١٠) والطبراني في الكبير (١٠٧/٧) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧١/٦) والهيثي في مجمع الزوائد (٢٨٨/١٠) والهندي في كنز العمال (٦٠٨٦) .

الْآخِرَةِ ﴿٢٠﴾ أَي أَرَادَ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ وَالسُّرُورِ ﴿٢١﴾ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴿٢٢﴾ أَي طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِهِ وَهُوَ مُتَابِعَةُ الرِّسُولِ ﷺ ﴿٢٣﴾ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴿٢٤﴾ أَي قَلْبُهُ مُؤْمِنٌ أَي مُصَدِّقٌ بِالثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ ﴿٢٥﴾ فَأُولَئِكَ كَانُوا سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا .

﴿٢٦﴾ كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عِلَّةٍ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا ﴿٢٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا .

يقول تعالى : ﴿٢٦﴾ كَلَّا ﴿٢٧﴾ أَي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا ، وَالَّذِينَ أَرَادُوا الْآخِرَةَ نَمُدُّهُمْ فِيمَا فِيهِ ﴿٢٨﴾ مِنْ عِلَّةٍ رَبِّكَ ﴿٢٩﴾ أَي هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، فَيُعْطِي كَلَامًا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ ، فَلَا رَادَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ ، وَلَا مُعَيِّرَ لِمَا أَرَادَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿٣٠﴾ وَمَا كَانَ عِطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا ﴿٣١﴾ أَي لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ وَلَا يَرُدُّهُ رَادٌ .

ثم قال تعالى : ﴿٣٢﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿٣٣﴾ أَي فِي الدُّنْيَا ، فَمِنْهُمْ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالْحَسَنُ ، وَالْقَبِيحُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَمِنْ يَمُوتُ صَغِيرًا ، وَمَنْ يَمُوتُ حَتَّى يَبْقَى شَيْخًا كَبِيرًا ، وَبَيْنَ ذَلِكَ ﴿٣٤﴾ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٣٥﴾ أَي وَلِتَفَاوُتِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَإِنْ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَكَاتِ فِي جَهَنَّمَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى ، ثُمَّ أَهْلُ الدَّرَكَاتِ يَتَفَاوُتُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ يَتَفَاوُتُونَ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةَ دَرَجَةٍ ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ ، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَفِي الْحَدِيثِ « إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَوْنَ أَهْلَ غُلِيِّنَ ، كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ » (١) . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٣٦﴾ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٣٧﴾ .

عن سلمان مرفوعًا « مَا مِنْ عَبْدٍ يُرِيدُ أَنْ يَرْتَفِعَ فِي الدُّنْيَا دَرَجَةً فَارْتَفَعَ إِلَّا وَضَعَهُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْهَا » . ثُمَّ قَرَأَ : ﴿٣٨﴾ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٣٩﴾ (٢) .

﴿٤٠﴾ لَا يَجْمَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا ﴿٤١﴾ .

يقول تعالى : والمراد المكلفون من الأمة لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكًا . ﴿٤٢﴾ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا ﴿٤٣﴾ أَي عَلَى إِشْرَاكَكَ بِهِ ﴿٤٤﴾ تَحْدُولًا ﴿٤٥﴾ لِأَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى لَا يَنْصُرُكَ ، بَلْ يَكُلِّكَ إِلَى الَّذِي عَبَدْتَ مَعَهُ ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ لَكَ ضَرْبًا وَلَا نَفْعًا ؛ لِأَنَّ مَالِكَ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدِّ فَاقَتَهُ ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ أُرْسِلَ اللَّهُ لَهُ بِالْعَنَى إِمَّا أَجَلًا وَإِمَّا غِنًى عَاجِلًا » (٣) .

﴿٤٦﴾ وَفَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْثَى وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٤٧﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿٤٨﴾ .

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ هَاهُنَا بِمَعْنَى الْأَمْرِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿٤٩﴾ وَفَضَى ﴿٥٠﴾ يَعْنِي وَصَى ﴿٥١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴿٥٢﴾ وَلِهَذَا قَرَنَ بِعِبَادَتِهِ بَرَّ الْوَالِدَيْنِ فَقَالَ : ﴿٥٣﴾ وَبِالْوَالِدَيْنِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٣ ، ٢٧ ، ٩٣ ، ٩٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٩٤/٦) والبيهقي في مجمع الزوائد (٤٩/٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) وأبو داود في السنن (١٦٤٥) والبيهقي في السنن (١٩٦/٤) .

إِحْسَنًا ﴿١﴾ أَي وَأَمْرًا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . وقوله : ﴿إِنَّمَا يَتَلَفَعْنَ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَمَسًا أَنِّي﴾ أَي لَا تَسْمَعُهُمَا قَوْلًا سِيئًا حَتَّى وَلَا التَّأْفِيفَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى مَرَاتِبِ الْقَوْلِ السَّيِّئِ ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أَي وَلَا يَصْدُرُ مِنْكَ إِلَيْهِمَا فِعْلٌ قَبِيحٌ ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أَي لِيُنَاقِضَا طَبِيعًا حَسَنًا بِتَأْدِيبٍ وَتَوْقِيرٍ وَتَعْظِيمٍ ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أَي تَوَاضِعْ لَهُمَا بِفِعْلِكَ ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ أَي فِي كِبَرِهِمَا ، وَعِنْدَ وَفَاتِهِمَا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلشَّارِكِينَ﴾ الْآيَةُ . وَقَدْ جَاءَ فِي بَرِّ الْوَالِدَيْنِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا : عَنْ أَنَسٍ ، وَغَيْرِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ الْمِنْبَرِ ثُمَّ قَالَ : « آمِينَ آمِينَ آمِينَ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَامَ مَا آمَنْتَ ؟ قَالَ : « أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيْكَ ، قُلْ : آمِينَ ، فَقُلْتُ : آمِينَ ، ثُمَّ قَالَ : رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ ، قُلْ : آمِينَ ، فَقُلْتُ : آمِينَ ، ثُمَّ قَالَ : رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَذْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةُ ، قُلْ : آمِينَ ، فَقُلْتُ : آمِينَ » (١) .

وعن مالك بن الحارث ، عن رجل منهم أنه سمع النبي ﷺ يقول : « مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا مِنْ أَبْوَيْنِ مُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْفِرَ عَنْهُ ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ ، وَمَنْ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا ، كَانَ فَكَاهُ مِنَ النَّارِ يُجْزَى بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ » (٢) .

وعن مالك بن عمرو القشيري ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً فَبَيَّ فِدَاؤُهَا مِنَ النَّارِ ، فَإِنَّ كُلَّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ مُحَرَّرَةٌ بِعَظْمٍ مِنْ عِظَامِهِ ، وَمَنْ أَذْرَكَ أَحَدَ وَالِدَيْهِ ، ثُمَّ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ ﷻ ، وَمَنْ ضَمَّ يَتِيمًا مِنْ أَبْوَيْنِ مُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يُغْفِرَ اللَّهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » (٣) . ﴿رَبُّكَ أَغْلَى بِمَا فِي نَفْسِكَ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾ .

قال سعيد بن جبير : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبيه ، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ، وفي رواية : لا يريد إلا الخير بذلك فقال : ﴿رَبُّكَ أَغْلَى بِمَا فِي نَفْسِكَ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ وقوله : ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾ قال قتادة : للمطيعين أهل الصلاة ، وعن ابن عباس : المسيحين . وفي رواية عنه : المطيعين المحسنين ، وقال بعضهم : هم الذين يصلون بين العشاءين ، وقال بعضهم : هم الذين يصلون الضحى . وقال سعيد بن المسيب ، في قوله ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا﴾ الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ، ويصيبون الذنب ثم يتوبون . وقال سعيد بن جبير وغيره : هم الراجعون إلى الخير ، وقال عبيد بن عمير : هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها . وعنه قال : كنا نعد الأبواب الحفيظ ، أن يقول : اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا . وقال ابن جرير : والأولى في ذلك قول من قال : هو الثائب من الذنب ، الرجاء من المعصية إلى الطاعة ، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه (٤) ، وهذا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٤/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٤/٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣١/٣ ، ٣٤٧) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٠/٤ ، ٣٤٤) والطبراني في الكبير (٢٩٩/١٩) .

(٤) انظر تفسير الطبري (٨٩/١٥ - ٩٢) .

الذي قاله هو الصواب ؛ لأن الأواب مشتق من الأوب ، وهو الرجوع ، يقال : أب فلان إذا رجع . ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يُبْدَىٰ تَبْدِيرًا ۝ إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝ وَإِنَّمَا تَرَضُّ عَنْهُمْ آتِنَاكَ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ رَجُومًا فَعَلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْسُورًا ۝﴾ .
لما ذكر تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ، وفي الحديث : « أُمَّكَ وَأَبَاكَ ثُمَّ أَذْنَاكَ أَذْنَاكَ » (١) .

وقوله : ﴿وَلَا يُبْدَىٰ تَبْدِيرًا﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه بل يكون وسطًا ، ثم قال منفردًا عن التبذير والسرف : ﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي أشباههم في ذلك .
وعن أنس بن مالك ؓ قال : أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول إني ذو مال كثير ، وذو أهل وولد وحاضرة فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ إِنْ كَانَ فَإِنَّهَا طَهْرَةٌ تُطَهِّرُكَ ، وَتَصِلُ أَقْرَبَاءَكَ ، وَتَعْرِفُ حَقَّ السَّائِلِ ، وَالْجَارِ وَالْمِسْكِينَ » فقال : يا رسول الله أقلل لي ؟ قال : ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يُبْدَىٰ تَبْدِيرًا﴾ فقال : حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ إِذَا أَدَيْتَهَا إِلَى رَسُولِي فَقَدْ بَرِئْتَ مِنْهَا ، وَلَكَ أَجْرُهَا ، وَإِثْمُهَا عَلَى مَنْ بَدَّلَهَا » (٢) . وقوله : ﴿إِنَّ الْمُبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي في التبذير والسفه ، وترك طاعة الله ، وارتكاب معصيته ، ولهذا قال : ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي جحودًا ؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ، ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته . وقوله : ﴿وَإِنَّمَا تَرَضُّ عَنْهُمْ آتِنَاكَ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ الآية . أي إذا سألك أقاربك ، ومن أمرناك بإعطائهم ، وليس عندك شيء ، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ، ﴿فَعَلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْسُورًا﴾ أي عدهم وعدًا بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله . ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝﴾ .

يقول تعالى أمرًا بالاعتصاف في العيش دائمًا للبخل ناهيًا عن السرف ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تكن بخيلًا منوعًا لا تعطي أحدًا شيئًا ، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله : يد الله مغلولة ، أي نسبوه إلى البخل تعالى ، وتقصد الكرم الوهاب . وقوله : ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك وتخرج أكثر من دخلك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ وهذا من باب اللف والنشر أي فتقعد إن بخلت ملومًا يلومك الناس ويذمونك ويستغفون عنك .

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه . فتكون كالحسير ، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفًا وعجزًا ، فإنها تسمى الحسير ، وهو مأخوذ من الكلال ، وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تَلْذِيهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ : فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَعَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَغْفُو مِنْهُ » .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢) وأحمد في مسنده ٦٥/٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٦/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥١٦/١) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣/٣) .

أَثَرُهُ . وَأَمَّا الْبَخِيلُ : فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لِرِقَّتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَسْبَغُ ^(١) .

وعن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : قال رسول الله ﷺ : « أَنْفِقِي هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِي اللَّهَ عَلَيْكَ ، وَلَا تُوَكِّي فَيُوكِي اللَّهَ عَلَيْكَ » . وفي لفظ : « وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِي اللَّهَ عَلَيْكَ » ^(٢) وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ « إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِي : أَنْفِقِي أَنْفِقِي عَلَيْكَ ^(٣) » وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا وَمَلَكَانِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْسِكًا تَلَفًا ^(٤) » .

وعنه مرفوعاً : « مَا تَقَصَّ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا أَنْفَقَ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ » ^(٥) . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء ، فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ؛ لما له في ذلك من الحكمة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِعْبَادَهُمْ خَيْرًا بَصِيرًا ﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر قد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً ، والفقر عقوبة عياداً بالله من هذا وهذا .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنُوا زُرْقُهُمْ وَإِذَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ كُفْرًا كَانُوا نَجْرًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الولد بولده ؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته . فنهى الله تعالى عن ذلك وقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنُوا ﴾ أي خوف أن تفتقروا في ثاني الحال ، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال : ﴿ تَنْتَحِنُوا زُرْقُهُمْ وَإِذَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ كُفْرًا كَانُوا نَجْرًا ﴾ أي من فقر ﴿ تَنْتَحِنُوا زُرْقُهُمْ وَإِذَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ كُفْرًا كَانُوا نَجْرًا ﴾ أي من فقر ﴿ تَنْتَحِنُوا زُرْقُهُمْ وَإِذَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ كُفْرًا كَانُوا نَجْرًا ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ أي ذنباً عظيماً ، وعن عبد الله بن مسعود ، قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلنَّفْسِ نِدَاءً وَهِيَ خَلْقَكَ ، قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » ، قلت : ثُمَّ أَيُّ ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ » ^(٦) .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ إِنْ كُنْتُمْ كَانَتْ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ .

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنى وعن مقارنته ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ إِنْ كُنْتُمْ كَانَتْ فَحِشَةً ﴾ أي ذنباً عظيماً ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أي وبس طريقاً ومسلِكاً .

وعن أبي أمامة ، أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي بالزنى ، فأقبل القوم عليه فزجروه ، وقالوا : مه مه فقال : « ادنه » فدنا منه قريباً ، فقال : « اجلس » فجلس فقال : « أَعْجِبْنِي لَأَمْلِكَ ؟ » قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم » قال : « أَفَتُحِبُّهُ »

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٣) ومسلم في الزكاة (٧٦ ، ٧٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٩١) ومسلم في الزكاة (٨٨) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٥/٦ ، ٣٤٦) .

(٣) أخرجه الإمام مسلم في الزكاة (٣٧) والإمام أحمد في مسنده (٣١٤/٢) والبيهقي في السنن (١٨٧/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ومسلم في الزكاة (٥٧) والبيهقي في السنن (١٨٧/٤) .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٥/٢) .

(٦) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) ومسلم في الإيمان (١٤١) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٤/١) .

لَا بُيُوتَ لَكُمْ ؟ » قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : « وَلَا النَّاسُ يُجِيبُونَ لِبَنَاتِهِمْ » قال : « أَفَتُحِبُّهُ لِأَخِيكَ ؟ » قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « وَلَا النَّاسُ يُجِيبُونَ لِأَخَوَاتِهِمْ » قال : « أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَلِكَ ؟ » قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « وَلَا النَّاسُ يُجِيبُونَ لِعَمَلَاتِهِمْ » قال : « أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ » قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « وَلَا النَّاسُ يُجِيبُونَ لِخَالَاتِهِمْ » قال : فوضع يده عليه وقال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَأَخْصِنْ فَرْجَهُ ». قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء ^(١) . وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ ذَنْبٍ بَعْدَ الشُّرْكِ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ نُطْفَةٍ وَضَعَهَا رَجُلٌ فِي رَحِمٍ لَا يَحِلُّ لَهُ » ^(٢) .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنْهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ .

يقول تعالى ناهيا عن قتل النفس بغير حق شرعي . كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرَأٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِأَخَذِ ثَلَاثَ : النَّفْسُ بالنفس ، والزَّانِي المحصن ، والثَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ » ^(٣) . وقوله : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا ﴾ أي سلطنة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قودًا ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجانًا . كما ثبتت السنة بذلك . وقد أخذ ابن عباس من عموم هذه الآية ولاية معاوية السلطنة أنه سيملك ؛ لأنه كان ولي عثمان ، وقد قتل عثمان مظلومًا . وكان معاوية يطالب عليًا ؓ أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم ؛ لأنه أموى ، وكان علي يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك ، ويطلب على من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة وأبى أن يبايع عليًا هو وأهل الشام ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه . كما قاله ابن عباس واستنبطه من هذه الآية . وهذا الأمر من العجب .

وقوله : ﴿ فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ﴾ قالوا : معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل . وقوله : ﴿ إِنْهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أي إن الولي منصور على القاتل شرعًا وغالبًا قدرًا . ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ وَأَوْفُوا أَلْكَبَلُ إِذَا كُنْتُمْ وَرَثَةً بِالْقِسْطِ أَلَسْتُمْ بِذَلِكَ حَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة . وقد جاء أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا ، وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ ، وَلَا تَوَلِّينَ مَالَ يَتِيمٍ » ^(٤) . وقوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس ، والعقود التي تعاملونهم بها ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ أي عنه . وقوله :

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٦/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٢٩/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٧٣) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٧/٥) والبيهقي في السنن (١١٨/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨) ومسلم في (القسامة) (٢٥) وأبو داود في السنن (٤٣٥٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٧) وأبو داود في السنن (٢٨٦٨) والبيهقي في السنن (١٢٩/٣) .

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي من غير تطفيف ﴿وَزِنُوا بِالْقِسَاسِ﴾ قرئ بضم القاف ، وكسرهما كالقسطاس^(١) ، وهو الميزان قال مجاهد : هو العدل بالرومية . وقوله : ﴿الْتَسْتَفِيمُ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ، ولا انحراف ، ولا اضطراب ، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم ، ولهذا قال : ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم .

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ .

قال ابن عباس : لا تقل ، وقال العوفي : لا ترم أحداً بما ليس لك به علم ، وقال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، وفي الحديث : «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(٢) وفي الصحيح «مَنْ تَحَلَّمَ حِلْمًا كُلَّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَغْفِدَ يَتَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِقَاعِلٍ»^(٣) . وقوله : ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي سيسأل عنها يوم القيامة ، وتساءل عنه وعما عمل فيها .

﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ لِبَآلَ طُولًا﴾ ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ .

يقول تعالى ناهياً عباده عن التعجر والتبختر في المشية ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي متبخترا متميلاً مشي الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك .

وقوله : ﴿وَلَن تَبْلُغَ لِبَآلَ طُولًا﴾ ، أي بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك ، بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده ، كما ثبت في الصحيح «يَتَنَمَّا رَجُلٌ يَمِشِي فَيَمُنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَعَلَيْهِ بُرْذَانٌ يَتَبَخَّرُ فِيهِمَا إِذْ خَسَفَ بِهِ الْأَرْضُ ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤) . وكذلك أخبر تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته ، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض . وفي الحديث «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيرٌ وَعِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ ، وَمَنْ اسْتَكْبَرَ وَضَعَهُ اللَّهُ فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ ، وَعِنْدَ النَّاسِ حَقِيرٌ ، حَتَّى لَّهُوَ أَبْعَصُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْكَلْبِ وَالْخَنَزِيرِ»^(٥) .

ورأى البخاري العابد رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته ، فقال له : يا هذا ، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته ، قال : فتركها الرجل بعد . ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته ، فقال : إن للشياطين إخواناً . وقوله : ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ وأما من قرأ - سيئه^(٦) - أي فاحشة ، فمعناه عنده كل هذا الذي نهيناه عنه من قوله : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ إلى هنا فهو سيئة مؤاخذ عليها مكروهاً عند الله لا يحبه ولا يرضاه ، وأما من قرأ - سيئه - على الإضافة ، فمعناه عنه كل هذا الذي ذكرناه من قوله : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى هنا فسيئه أي فقيحه

(١) قرأها حمزة والكسائي وخلف وحفص بكسر القاف والباقون بضمها (تقريب النشر ص ١٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في سننه (١٩٨٨) .

(٣) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٢) والإمام أحمد في مسنده (٢١٦/١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٣٨/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٠/٢) .

(٥) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٥/١٠) والمنذري بنحوه في الترغيب والترهيب (٥٦٠/٣) .

(٦) قرأها الكوفيون وابن عامر بضم الهزة والهاء وصلتها بواو لفظاً على التذكير ، والباقون بفتح الهزة وتأنيث منصوبه . تقريب النشر ١٣٤ .

مكروه عند الله .

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتَلَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ .

يقول تعالى : هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة ، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتَلَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا ﴾ أي تلومك نفسك ويلومك الله والخلق ﴿ مَدْحُورًا ﴾ أي مبعداً من كان خير ، قال ابن عباس وقادة : مطروداً ، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ ؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم .
﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكَ لَنَقُولُ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ .

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين عليهم لعائن الله أن الملائكة بنات الله فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، ثم ادعوا أنهم بنات الله ، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً ، فقال تعالى منكراً عليهم : ﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ . أي خصصكم بالذكر ﴿ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا ﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات ، ثم شدد الإنكار عليهم ، فقال : ﴿ إِنَّكَ لَنَقُولُ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ أي في زعمكم أن لله ولداً ، ثم جعلكم ولده الإناث التي تأفون أن يكن لكم ، وربما قتلتموهن بالوؤاد ، فتلک إذا قسمة ضيزى .
﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ .

أي صرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيانات والمواظ ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي الظالمين منهم ، ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أي عن الحق وبعداً منه .
﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَٰهَ دِي الْمَرْثِ سِوَاكَ ۖ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفاً ، لو كان الأمر كما تقولون لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويتفتون إليه الوسيلة والقربة ، فاعبدوه أتم وحده ، كما يعبد من تدعونه من دونه ، فقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه ثم نزه نفسه الكريمة وقُدَّسها فقال : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أي تعالياً كبيراً ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمِينَ غَفُورًا ﴾ .

يقول تعالى : تقدسه السماوات السبع والأرض ، ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أي من المخلوقات ، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره ، عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته .

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس ؛ لأنها بخلاف لغاتكم ، وهذا عام

في الحيوانات والجمادات والنباتات . وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل ^(١) .

وقال آخرون : إنما يسبح من كان فيه روح ، يعنون من - حيوان ونبات - قال قتادة في قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قال : كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بقبرين قال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُهُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالْتَّمِيمَةِ » ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة ، ثم قال : « لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ يَتَّيَسَّرُ » ^(٢) . قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء : إنما قال : ما لم يَتَّيَسَّرَ لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة ، فإذا ييسا انقطع تسبيحهما ، والله أعلم ، وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ حَلِيمًا عَذُورًا ﴾ أي أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله وينظره فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر . كما جاء في الصحيحين « إِنَّ اللَّهَ لَيُغْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَقْلُتْهُ » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظِلْمَةٌ ﴾ الآية ^(٣) .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقفاً .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ﴾ يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن ، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً ، وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ، قالت : لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ جاءت العوراء أم جميل ، ولها ولولة ، وفي يدها فهر وهي تقول : مذمماً أتينا - أو أئينا - قال أبو موسى : الشك مني - ودينه قلينا ، وأمره عصينا ، ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه ، فقال أبو بكر ﷺ : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ، فقال : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » . وقرأ قرآنًا اعتصم به منها ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ قال : فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، قال : فانصرفت وهي تقول : لقد علمت قريش أنني بنت سيدها ^(٤) . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ، ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أي لئلا يفهموا القرآن ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْفًا ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ أي إذا وحدت الله في تلاوتك . وقلت : لا إله إلا الله ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُرْجَانِ رَاجِعِينَ ﴾ على أدبهم ثوراً . ونفور جمع نافر كنفود جمع قاعد ، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل والله أعلم . قال قتادة في قوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ الآية . أن المسلمين لما قالوا : لا إله إلا الله أنكروا ذلك المشركون وكبرت عليهم ، فضاقها إبليس وجنوده ، فأبى الله إلا أن

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة (٥) والبخاري في المناقب (٣٥٧٩) وأحمد في مسنده ٤٦٠/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الجنازة (١٣٧٨) ومسلم في الطهارة (١١١) والترمذي في السنن (٧٠) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) ومسلم في البر (٦٢) والبيهقي في السنن (٩٤/٦) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٦١/٢) والهيثم في مجمع الزوائد (١٤٤/٧) .

يضيها ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فلج ، ومن قاتل بها نصر ، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل ، ويسير الدهر في فقام من الناس لا يعرفونها ولا يقرّون بها .

﴿ تَحْنُ أَعْلَىٰ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْرَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَعْمُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ٥٧ أَنْظِرْ كَيْفَ صَرِيحُكَ لَكَ الْأَمْنَالُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ٥٨ ﴾ .

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش ، حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم ، بما قالوا : من أنه رجل مسحور له رُئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه ، ومنهم من قال : شاعر ، ومنهم من قال : كاهن ، ومنهم من قال : مجنون ، ومنهم من قال : ساحر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ صَرِيحُكَ لَكَ الْأَمْنَالُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ٥٨ ﴾ . أي فلا يهتدون إلى الحق ، ولا يجدون إليه مخلصاً ، وحدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بن زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلساً ، يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه (١) .

﴿ وَقَالُوا لَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَعْنَا لَوْذَا لَمَعُونُ خَلَقًا جَدِيدًا ٥٩ ﴾ . قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ٦٠ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْزِلُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ٦١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتُنَا إِلَّا قَلِيلًا ٦٢ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستعبدین وقوع المعاد ، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك ﴿ لَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَعْنَا ﴾ أي تراباً . وقال ابن عباس ؓ : ﴿ لَوْذَا لَمَعُونُ خَلَقًا جَدِيدًا ﴾ أي يوم القيامة قد بلينا ، وصرنا عدماً لا نذكر . فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم ، فقال : ﴿ قُلْ كُونُوا

حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿١٠﴾ إِذْ هُمَا أَشَدَّ امْتِنَاعًا مِنَ الْعِظَامِ وَالرِّفَاتِ ﴿١١﴾ أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴿١٢﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ الْمَوْتُ . وَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو : لَوْ كُنْتُمْ مَوْتَى لِأَحْيَيْتُكُمْ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنْكُمْ لَوْ فَرَضْتُمْ أَنْكُمْ لَوْ صَرْتُمْ إِلَى الْمَوْتِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْحَيَاةِ لِأَحْيَاكُمْ اللَّهُ إِذَا شَاءَ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ إِذَا أَرَادَهُ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿١٠﴾ أَوْ خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴿١١﴾ يَعْنِي السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ - وَفِي رَوَايَةٍ : مَا شِئْتُمْ فَكُونُوا فَسَيُعِيدُكُمْ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِكُمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿١٢﴾ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ﴿١٣﴾ أَيَّ مَنْ يَعِيدُنَا إِذَا كُنَّا حِجَارَةً ، أَوْ حَدِيدًا ، أَوْ خَلَقًا آخَرَ شَدِيدًا ﴿١٤﴾ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿١٥﴾ أَيُّ الَّذِي خَلَقَكُمْ ، وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا ، ثُمَّ صَرْتُمْ بَشَرًا تَنْتَشِرُونَ ، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ وَلَوْ صَرْتُمْ إِلَى أَيِّ حَالٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿١٦﴾ سَيَنْفِخُ فِيهِمْ نُفُوسَهُمْ ﴿١٧﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ : يَحْرُكُونَهَا اسْتِهْزَاءً .

وَقَوْلُهُ : ﴿١٨﴾ وَيَقُولُونَ مَنْ هُوَ ﴿١٩﴾ إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِالِاسْتِعْبَادِ مِنْهُمْ لَوُقُوعِ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿٢٠﴾ قُلِ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٢١﴾ أَيُّ أَحْذَرُوا ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ قَرِيبٌ إِلَيْكُمْ سَيَأْتِيكُمْ لَا مَحَالَةَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٢٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴿٢٣﴾ أَيُّ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿٢٤﴾ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴿٢٥﴾ أَيُّ تَقُولُونَ كُلُّكُمْ إِجَابَةً لِأَمْرِهِ وَطَاعَةً لِإِرَادَتِهِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿٢٦﴾ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴿٢٧﴾ أَيُّ بِأَمْرِهِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : بِمَعْرِفَتِهِ وَطَاعَتِهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿٢٨﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴿٢٩﴾ أَيُّ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي كُلِّ حَالٍ . وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَشَعَتِ فِي قُبُورِهِمْ ، كَأَنِّي بِأَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ يَقُولُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » (١) . وَفِي رَوَايَةٍ يَقُولُونَ : ﴿٣٠﴾ لَحْمَدُ اللَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴿٣١﴾ وَسَيَأْتِي فِي سُورَةِ فَاطِرٍ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٣٢﴾ وَتَنْظُنُّونَ ﴿٣٣﴾ أَيُّ يَوْمَ تَقُومُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ ، ﴿٣٤﴾ إِنْ لَبِثْتُمْ ﴿٣٥﴾ أَيُّ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ﴿٣٦﴾ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٧﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٣٨﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرَزْتُمْ لَهَا عِيَةً أَوْ حُجَّتًا .

﴿٣٩﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٤٠﴾

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ يَقُولُوا فِي مُحَاوَرَاتِهِمُ الْكَلَامَ الْأَحْسَنَ ، وَالْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ ، نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ ، وَأَخْرَجَ الْكَلَامَ إِلَى الْفِعَالِ ، وَوَقَعَ الشَّرَّ وَالْمُخَاصَمَةَ وَالْمَقَاتِلَةَ ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِآدَمَ وَذَرِيَّتِهِ مِنْ حِينَ امْتَنَعَ مِنَ السَّجُودِ لِآدَمَ ، وَلِهَذَا نَهَى أَنْ يُشِيرَ الرَّجُلُ إِلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ أَيُّ فَرِمَا أَصَابَهُ بِهَا . فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزِعَ فِي يَدِهِ فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ » (٢) .

عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْطٍ ، قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي رَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ ، التَّقْوَى هَهُنَا » (٣) .

﴿٤١﴾ زُرِّيكَ عَلَمٌ بِكَ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكَ أَوْ إِنْ يَسَاءَ يُعَذِّبُكَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٤٢﴾ وَرَبُّكَ أَكْبَرُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٤٣﴾

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/٢) والهيتمي في مجمع الروائد (٨٢/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٧٢) ومسلم في (البر والصلة) (١٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٥١) ومسلم في (البر) (٣٢) .

يقول تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَكْبَرُ بِكُمْ ﴾ أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ إِنْ يَشَأْ يُرْسِلْكُمْ ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإجابة إليه ﴿ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أي إنما أرسلناك نذيرًا فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار . وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ أَكْبَرُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ الْأَبْنَاءِ عَلَى بَعْضٍ ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ كَلِمَ اللَّهِ وَفَعَلَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ »^(١) . فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصية ، لا بمقتضى الدليل فإذا دل على شيء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولى العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة المذكورون نصًا في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَبَيْنَ فُجْ وَابْنِ مَرْيَمَ ﴾ وفي الشورى في قوله ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ولا خلاف أن محمدًا ﷺ أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ﷺ على المشهور ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ تنبيه على فضله وشرفه . وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « حُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَائِهِ فَتُسْرَجُ ، فَكَانَ يَقْرَأُهُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ »^(٢) يعني القرآن .

﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الظُّلُمِ عَنْكُمْ وَلَا تَحْيِيلًا ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رِيَّهُمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم فإنهم لا ﴿ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الظُّلُمِ عَنْكُمْ ﴾ أي بالكلية ، ﴿ وَلَا تَحْيِيلًا ﴾ أي بأن يحولوه إلى غيركم ، والمعنى : أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له ، قال ابن عباس في قوله : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ ﴾ الآية : كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا ، وهم الذين يدعون يعني في الملائكة والمسيح وعزير .

وعن عبد الله في قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رِيَّهُمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ قال : ناس من الجن كانوا يُعْبَدُونَ فَأَسْلَمُوا^(٣) ، وفي رواية قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن ، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء يديهم^(٤) . وفي رواية عن ابن مسعود : كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن فذكره . وقال ابن عباس : هم عيسى وعزير والشمس والقمر ، وقال مجاهد : عيسى والعزير والملائكة ، واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله : ﴿ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رِيَّهُمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة ، وقال : والوسيلة هي القرية . كما قال قتادة . ولهذا قال : ﴿ أَنَّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فبالخوف يكف عن المناهي ، وبالرجاء يكثر من الطاعات ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٤) ومسلم في الفضائل (١٥٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٣) والإمام أحمد في مسنده ٣١٤/٢ والبيهقي في السنن (١٢٧/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٥) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٤) .

عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٨﴾ أَيِ يَنْبَغِي أَنْ يَحْذَرُ مِنْهُ ، وَيَخَافُ مِنْ وَقْعِهِ وَحَصُولِهِ عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْهُ .
 ﴿٥٩﴾ وَلَنْ يَنْزِلَ مِنْ قَرْبِهِ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُكُمْ قَبْلَ يَوْمِ أَلْفَيْكَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٩﴾ .
 هذا إخبار من الله ﷻ بأنه قد حتم وقضى ، بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿٥٩﴾ عَذَابًا شَدِيدًا ﴿٥٩﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم .
 ﴿٥٩﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَهَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مِيعَرَةً فَنَظَلَمُوا بِهَا ﴿٥٩﴾ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ .

عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحي الجبال عنهم فيزعموا ، فقيل له : إن شئت أن نستأني بهم وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوها ، فإن كفروا هلكوا كما أهلك من كان قبلهم من الأمم قال : « لا بل استأني بهم » وأنزل الله تعالى : ﴿٥٩﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥٩﴾ (١) ﴿٥٩﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ﴿٥٩﴾ أَيِ نَبْعَثُ الْآيَاتِ ، وَنَأْتِي بِهَا عَلَى مَا سَأَلَ قَوْمُكَ مِنْكَ ، فَإِنَّهُ سَهْلٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ لَدُنَا إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ بعدما سألوها ، وجرت سنتنا فيهم ، وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها . كما قال الله تعالى في المائدة : ﴿٥٩﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٩﴾ وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ، ناقة تخرج من صخرة عينوها فدعا صالح ﷺ ربه ، فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا ، فلما ظلموا بها أي كفروا بمن خلقها ، وكذبوا رسوله وعقروها ، فقال : ﴿٥٩﴾ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ آيَاتٍ ذَلِكَ وَعَذْوَ عِزٍّ مُكَذِّبٍ ﴿٥٩﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿٥٩﴾ وَهَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مِيعَرَةً فَنَظَلَمُوا بِهَا ﴿٥٩﴾ أي دالة على وحدانية من خلقها ، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها . ﴿٥٩﴾ فَنَظَلَمُوا بِهَا ﴿٥٩﴾ أي كفروا بها ومنعوا شربها ، وقتلوا فأبادهم الله عن آخرهم ، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقوله تعالى : ﴿٥٩﴾ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ . قال قتادة : إن الله تعالى ، يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلمهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود ؓ ، فقال : يا أيها الناس إن ربكم يستعيبكم فأعتبوه . وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب ؓ مرات ، فقال عمر : أحدثتم . والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه : « إِنَّ الشُّعْشُعَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَإِنْهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ ذَلِكَ فَافْرَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ » - ثم قال - : « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَاللَّهُ مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِي عِبْدَهُ أَوْ تَزْنِي أُمَّتُهُ ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحَّحْتُكُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » (٢) . ﴿٥٩﴾ وَلَوْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيحَ الَّتِي أُرْسِلَتْ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنَعْمَ لَهُمْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٥٩﴾ .

(١) أخرجه : أحمد في مسنده ٢٥٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الكسوف (١٠٤٠) ومسلم في الكسوف (١ ، ٣ ، ١٧ ، ٢١) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته ، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس ، قال مجاهد في قوله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ : أي عصمك منهم . وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به . ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْفَرْعَانِ ﴾ ، شجرة الزقوم ^(١) . وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء مجاهد وغيره ، وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق ، لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك ، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه . وجعل الله ذلك ثباتاً وبقيناً لآخرين ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ أي اختباراً وامتحاناً . أما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم ، فكذبوا بذلك ، حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله : هاتوا لنا تمرًا وزبدًا وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : ترقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا ^(٢) . وكل من قال : إنها ليلة الإسراء فسره كذلك بشجرة الزقوم . واختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء ، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم ، قال : لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك ^(٣) - أي في الرؤيا والشجرة - وقوله : ﴿ وَخَوَّفَهُمْ ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ أي تماديًا فيما هم فيه من الكفر والضلال وذلك من خذلان الله لهم . ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا .

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم وذريته ، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم ، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ وقال أيضاً : ﴿ أَرَأَيْتَ أَتَىكَ الْكَلْبُ الْجَرَاءُ وَكَفَرَا بِالرَّبِّ يَحْلُمُ وَيَنْظُرُ ﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ قَالَ ابن عباس : يقول للرب جراءة وكفراً والرب يحلم وينظر ﴿ قَالَ أَتَىكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ قال ابن زيد : لأضلنهم ، وكلها متقاربة ، والمعنى : أرايتك هذا الذي شرفته وعظمته علي لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم .

﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ وَأَسْتَفْزِزُ مِنْ أَسْتَفْزَمَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَلْبِيبُ عَلَيْهِمْ بِصَوْتِكَ وَرَجْلُكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَئْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ .

لما سأل إبليس النظرة قال الله تعالى له : ﴿ أَذْهَبَ ﴾ فقد أنظرتك ، ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ ﴾ أي على أعمالكم ﴿ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ . قال مجاهد : وافراً ، وقال قتادة : موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَفْزِزُ مِنْ أَسْتَفْزَمَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قيل : هو الغناء ، وقال ابن عباس : كل داع دعا إلى معصية الله ﷻ ، وقوله

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٧٤/١) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٦) .

(٣) انظر تفسير الطبري (١٤١/١٥) .

تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا عَلَيْهِمْ بَنِيكَ وَرَجُلًا ﴾ يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ، ومعناه : تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، وهذا أمر قدري . وقال ابن عباس : كل راكب وماش في معصية الله ، وقال قتادة : إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس ، وهم الذين يطيعونه ، تقول العرب : أجلب فلان على فلان ، إذا صاح عليه ومنه نهى في المسابقة عن الجلب والجنب ، ومنه اشتقاق الجلبة ، وهي ارتفاع الأصوات ، وقوله تعالى : ﴿ وَشَارَكُوهُمْ فِي الْآثَمَاتِ وَالْأَوَّلِيَّ ﴾ قال ابن عباس : هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى . وقال عطاء : هو الربا ، وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام ، أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرّمه من أنعامهم ، يعني من البحائر والسوائب ونحوها ، وقال ابن جرير ، والأولى أن يقال : إن الآية تعم ذلك كله . وقوله : ﴿ وَالْأَوَّلِيَّ ﴾ قال ابن عباس : أولاد الزنى ، وقال ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم . وقال قتادة عن الحسن البصري : قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصّروا وصبغوا غير صبغة الإسلام ، وجزأوا من أموالهم جزءاً للشيطان . وقال ابن عباس : هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان . قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب ، أن يقال : كل مولود ولدته أنثى عصي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنى بأمه أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه ؛ لأن الله لم يخصص ، بقوله : ﴿ وَشَارَكُوهُمْ فِي الْآثَمَاتِ وَالْأَوَّلِيَّ ﴾ معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصي الله فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة ^(١) ، وهذا الذي قاله متجه وكل من السلف رحمهم الله ، فسر بعض المشاركة . فغن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ ﷻ : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَخَوَّعَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَخْلَلْتُ لَهُمْ » ^(٢) . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ ، قَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَإِنَّهُ إِنْ يَقْدِرُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَعَذِّمُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس ، أنه يقول إذا حصّص الحق يوم يقضي بالحق : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمُ وَعَدَ لَقِيٍّ وَوَعَدُكُمْ فَآخَلَفْتُمُ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ لإخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين ، وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً ، عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيْطَانِيتهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّغَرِ » ^(٤) ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره .

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٥٢/١٥) . (٢) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٦/١ ، ٢١٧) وأوردته ابن حجر في الفتح (١٩١/١١) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٠/٢) والبيهقي في مجمع الزوائد (١١٦/١) .

﴿ تَزَكُّمُ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَحِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر ، وتسهيله لمصالح عباده لا بتغائهم من فضله في التجارة ، من إقليم إلى إقليم ولهذا قال : ﴿ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَحِيمًا ﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَ الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ .

يخبر تبارك وتعالى ، أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منييين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ ، أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هاربًا فركب في البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك علي عهد لمن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلاأجدنه رعوًا رحيماً ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ﷺ وأرضاه . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَ الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ ، أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر ، ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ أي سجيته هذا ، ينسى النعم ، ويجحدما إلا من عصم الله .

﴿ أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ .

يقول تعالى : أفحسبتم بخروجكم إلى البر ، أمتتم من انتقامه وعذابه ، أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبًا ، وهو المطر الذي فيه حجارة . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أي ناصرًا يرد ذلك عنكم وينقذكم منه .

﴿ أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُبِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا يُوَفِّيهِمْ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : أم أمتتم أيها المعرضون عنا ، بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر ، وخرجوا إلى البر أن يعيدكم في البحر مرة ثانية ، فيرسل عليكم قاصفًا من الريح ، أي يقصف الصواري ويغرق المراكب . قال ابن عباس وغيره : القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها . وقوله : ﴿ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ ، أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا يُوَفِّيهِمْ ﴾ ، قال ابن عباس : نصيرًا وقال مجاهد : نصيرًا ناثراً ، أي يأخذ بثأركم بعدكم .. وقال قتادة : ولا نخاف أحدًا يتبعنا بشيء من ذلك .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَنَقَّضْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها ، ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ ﴾ أي على الدواب من الأنعام ، والحيل ، والبغال ، وفي البحر أيضًا على السفن الكبار والصغار ﴿ وَنَقَّضْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ، أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم

والألوان المشتهية اللذيذة ، والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها ، مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ، أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة .

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِسمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسْمِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تبارك وتعالى : عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم . وقد اختلفوا في ذلك فقال مجاهد وقتادة : أي بنبيهم . وقال بعض السلف : هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث ؛ لأن إمامهم النبي ﷺ . وقال ابن زيد : بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير وروي عن مجاهد أنه قال : بكتبهم ^(١) فيحتمل أن يكون أراد هذا ، وأن يكون أراد ما رواه ابن عباس في قولهم : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِسمِهِمْ ﴾ أي بكتاب أعمالهم : وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُعْجِرِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ الآية . ويحتمل أن المراد ﴿ بِإِسمِهِمْ ﴾ أي ، كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء ﷺ ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم . كما قال : ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ أَنبِيَاءَ يَذْكُرُونَ إِلَى النَّكَارِ ﴾ . وفي الصحيحين : « لِيَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ فَيَتَّبِعَ مَنْ كَانَ يَتَّبِعُ الطَّوَاعِثَ الطَّوَاعِثَ » ^(٢) . الحديث ، وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها كقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ولكن المراد هاهنا بالإمام هو كتاب الأعمال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِسمِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِسْمِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ أي من فرحته وسروره ، بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قد تقدم أن الفتل هو الخيط المستطيل في شق النواة . وقد روي عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِسمِهِمْ ﴾ قال : « يُدْعَى أَحَدُهُمْ فَيُغْفَى كِتَابُهُ بِسْمِهِ ، وَيُمَدُّ لَهُ فِي جَسَمِهِ وَيُبَيِّضُ وَجْهُهُ ، وَيُجْعَلُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ يَتَلَأَلُ ، فَيَنْطَلِقُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَيَرْوُهُ مِنْ بَعِيدٍ فَيَقُولُونَ : اللَّهُمَّ ائْتِنَا بِهِذَا ، وَتَبَارَكَ لَنَا فِي هَذَا فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ لَهُمْ : أَبْشِرُوا ، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَسْوَدُ وَجْهُهُ وَيُمَدُّ لَهُ فِي جَسَمِهِ وَيَرَاهُ أَصْحَابُهُ ، فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا - أَوْ مِنْ شَرِّ هَذَا - اللَّهُمَّ لَا تَأْتِنَا بِهِ فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ : اللَّهُمَّ أَخْرِهِ ، فَيَقُولُ : أَبْعَدْكُمْ اللَّهُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِثْلَ هَذَا » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ ﴾ الآية ، قال ابن عباس : أي في الحياة الدنيا ﴿ أَعْمَىٰ ﴾ أي عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ أي كذلك يكون ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أي وأضل

(١) انظر تفسير الطبري (١٥٩/١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٧) ومسلم في الإيمان (٢٩٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٣٦) وذكره نحوه الحاكم في المستدرک (٢٤٣/٢) .

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس . فمن قوله : ﴿ لَذُلُّوكِ الشَّيْءِ لَكُمْ ﴾ ، وهو ظلامه . وقيل : غروب الشمس أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء . وقوله : ﴿ وَقَرَّانَ الْفَجْرِ ﴾ يعني صلاة الفجر ، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله ، بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلقاً عن سلف وقرناً بعد قرن كما هو مقرر في مواضعه والله الحمد ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ في هذه الآية قال : « تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار » (١) .

وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « فَضَّلَ صَلَاةَ الْجَمِيعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسَ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً ، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ » (٢) .

وفي الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يَتَعَاثِرُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ ، وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ ، فَيُخْرِجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَشَأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ » (٣) وقال ابن مسعود : يجتمع الحرسان في صلاة الفجر فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة كما ورد عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه سئل : أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « صَلَاةُ اللَّيْلِ » ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد ما كان بعد نوم ، وكذلك ثبت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه (٤) . وقال الحسن البصري : هو ما كان بعد العشاء ، ويحمل على ما كان بعد النوم ، واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فقيل : معناه : أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة ، عن ابن عباس ، وهو أحد قولي العلماء ، وأحد قولي الشافعي رحمه الله ، واختاره ابن جرير ، وقيل : إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وغيره من أمته إنما تكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه .

وقوله : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ أي افعَل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمذك فيه الخلائق كلهم ، وخالفهم تبارك وتعالى . قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم (٥) .

ذكر من قال ذلك : عن حذيفة قال : يجمع الناس في صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة ، كما خلقوا قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادي يا محمد : فيقول : « لَبَّيْكَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٧٤/٢) والترمذي في السنن (٣١٣٥) وابن ماجه في السنن (٦٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٧) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٩) ومسلم في المساجد (٢١٠) وأحمد في مسنده (٤٨٦/٢) .

(٤) انظر صحيح البخاري كتاب التهجد (١١٤٦) . (٥) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٩/١٥) .

وَسَعْدُكَ ، وَالْحَيِّزُ فِي يَدِكَ ، وَالشُّرُكُ لَيْسَ إِلَيْكَ ، وَالْمَهْدِيُّ مِنْ هَدَيْتَ ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَمِنْكَ وَإِلَيْكَ ، لَا مُنْجِي وَلَا مُلْجَأَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ سُبْحَانَكَ رَبِّ الْبَيْتِ » (١) .

وقال ابن عباس : هذا المقام المحمود مقام الشفاعة ، وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع . وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ . قلت : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد ، فهو أول من تنشق عنه الأرض ، ويبعث راجعاً إلى المحشر ، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ، ثم نوحاً ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فكل يقول : لست لها ، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول : « أَنَا لَهَا ، أَنَا لَهَا » (٢) .

وفي حديث الصور أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته ، وهو أول داخل إليها وأتمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغهم أعمالهم ، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له ، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ، ولا يساويه في ذلك . ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان .

عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء ، كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع . حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ ، فذلك يوم يعثه الله مقاماً محموداً (٣) .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الشَّمْسَ لَتَذْنُو حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ فَيَبْتِنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَعَاثُوا بِأَدَمَ فَيَقُولُ : لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ ، ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُولُ : كَذَلِكَ ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ بَيْنَ الْخَلْقِ . فَيَمُشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِخَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ ، فَيُؤَمِّدُ بِيَعْتَهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا » . وزادني رواية : « فيومئذ يعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم » (٤) . وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الثَّامِيَّةُ وَالصَّلَاةُ الْفَائِمَةُ ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ ؛ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٥) .

وعن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ الْأَنْبِيَاءِ وَخَطِيبَهُمْ ، وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غَيْرَ فَخْرٍ » (٦) . وفي حديث أبي بن كعب في قراءة القرآن على سبعة أحرف ، قال ﷺ في آخره : « قُلْتُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمَّتِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمَّتِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمَّتِي ، وَأُخْرُثُ

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٧٩/١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥١٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٨) . (٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٥) .

(٥) أخرجه البخاري في الدعوات (٦١٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٤/٣) والبيهقي في السنن (٤١٠/١) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٧/٥) والترمذي في السنن (٣٦١٣) وابن ماجه في السنن (٤٣١٤) .

الثَّالِثَةَ لِيُؤْمَ يَرْغَبَ إِلَيَّ فِيهِ الْخَلْقُ حَتَّىٰ يُزَاهِمَهُمُ الْمَلَائِكَةُ » (١) .

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَلْهَمُونَ ذَلِكَ ، فَيَقُولُونَ : لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَىٰ رَبِّنَا فَأَرَاخَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ : أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ يَدَيْهِ وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ ، وَعَلَّمَكَ أَشْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ حَتَّىٰ يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا . فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ الَّذِي أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ ﷻ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُ : وَلَكِنْ ائْتُوا نُوحًا ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رُسُلِ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَيَأْتُونَ نُوحًا ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَةَ سُؤَالِهِ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُ : وَلَكِنْ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ . فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَلَكِنْ ائْتُوا مُوسَىٰ عَبْدًا كَلَّمَهُ اللَّهُ ، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَةَ فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ لَهُمُ النَّفْسَ الَّتِي قَتَلَ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْ ذَلِكَ . وَيَقُولُ : وَلَكِنْ ائْتُوا عِيسَىٰ عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَتُهُ وَرُوحُهُ فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَلَكِنْ ائْتُوا مُحَمَّدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونِي - قال الحسن هذا الحرف - : فَأَقُومُ فَأَمْسِي يَتَنَ سِمَاطَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - قَالَ أَنَسُ : حَتَّىٰ اسْتَأْذِنَ عَلَىٰ رَبِّي - فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ - أَوْ خَرْتُ - سَاجِدًا لِرَبِّي ، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي - قال : - ثُمَّ يُقَالُ : ازْفَعُ مُحَمَّدٌ قُلْ يُسْمِعْ وَاشْفَعْ تُشْفَعُ ، وَسَلْ تُعْطَى ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأُحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ يَعْلَمُنِيهِ ، ثُمَّ أَسْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - قال : - ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ - أَوْ خَرْتُ - سَاجِدًا لِرَبِّي فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي ، ثُمَّ يُقَالُ : ازْفَعُ مُحَمَّدٌ ، قُلْ يُسْمِعْ ، وَسَلْ تُعْطَى ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ ، وَأَسْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - قال : - ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ - أَوْ خَرْتُ - سَاجِدًا لِرَبِّي فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي ، ثُمَّ يُقَالُ : ازْفَعُ مُحَمَّدٌ ، قُلْ يُسْمِعْ ، وَسَلْ تُعْطَى ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأُحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ يَعْلَمُنِيهِ ، ثُمَّ أَسْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ : يَا رَبِّ مَا بَقِيَ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ » .

فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « فَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَرَىٰ شَعِيرَةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَرَىٰ بُرَّةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ ، مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَرَىٰ ذَرَّةً » (٢) . وعن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « يَبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمْنِي عَلَىٰ تَلٍّ وَيَكْسُونِي رَبِّي ﷻ حُلَّةَ خَضِرَاءَ ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِي فَأَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَقُولَ فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْحَمْدُ » (٣) .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ بِالسُّجُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ لَهُ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ ، فَأَنْظُرَ إِلَىٰ مَا يَتَنَ يَدَيَّ فَأَعْرِفُ أُمْنِي مِنَ الْأُمَمِ ، وَمِنْ خَلْفِي مِثْلُ

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٧٣) والإمام أحمد في مسنده (١٢٧/٥ ، ١٢٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٧٦) ومسلم في الإيمان (٣٢٢) والإمام أحمد في المسند (١١٦/٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٥٦/٣) .

ذَلِكَ ، وَعَنْ يَمِينِي مِثْلُ ذَلِكَ ، وَعَنْ شِمَالِي مِثْلُ ذَلِكَ » . فقال رجل : يا رسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : « هم غر محجلون من أثر الوضوء ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيديهم ، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم » (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتني رسول الله ﷺ بلحم ، ورفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال : « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَذَرُونَ مِمَّ ذَاكَ ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي ، وَيَنْفَذُهُمُ الْبَصَرُ ، وَتَذَرُوهُمُ الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَوْبِ مَا لَا يَطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنتُمْ فِيهِ مِمَّا قَدْ بَلَغَكُمْ ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ؟ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ آدَمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُ ، نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَيَّ نُوحَ ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ نُوحٌ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ قَطُّ . وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي . نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي ، أَذْهَبُوا إِلَيَّ إِبْرَاهِيمَ . فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ : يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، فَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ ، نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي ، أَذْهَبُوا إِلَيَّ مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى عليه السلام فَيَقُولُونَ : يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا ، لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَيَّ عِيسَى فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ : يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرِيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ . أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا . نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَيَّ غَيْرِي ، أَذْهَبُوا إِلَيَّ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَأَقُومُ فَآتَيْتُ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ ، وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَابِدِهِ ، وَحَسَنَ الشَّأْنِ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ، فَيَقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ازْفَعْ رَأْسَكَ ، وَمَنْ لُتْغَطَّهُ ، وَاشْفَعْ تُشْفَعْ ،

فَأَرْفَعَ رَأْسِي فَأَقُولُ : أُمْنِي يَا رَبُّ أُمْنِي ، يَا رَبُّ أُمْنِي يَا رَبُّ ؟ فَيَقَالُ : يَا مُحَمَّدُ أَذْجَلُ مِنْ أُمْنِيكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ . ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، إِنَّ مَا يَتَنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ ، كَمَا يَتَنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ ، أَوْ كَمَا يَتَنَ مَكَّةَ وَيُضْرَى ^(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ » ^(٢) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ سئل عنها فقال : « هِيَ الشَّفَاعَةُ » ^(٣) .

وعنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ قال : « هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَسْفَعُ لَأُمْنِي فِيهِ » ^(٤) .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ .

عن ابن عباس ، قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله ﷻ ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ ، وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة فأمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال الله ﷻ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ الآية . وقال قتادة : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يعني المدينة ، ﴿ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني مكة ، وهذا القول هو أشهر الأقوال . وقال ابن عباس : ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ يعني الموت ، ﴿ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ يعني الحياة بعد الموت وقوله : ﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ قال الحسن البصري في تفسيرها : وعده ربه ليتزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له ، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له . وقال قتادة فيها : إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر ، إلا بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولقراض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، فأكل شديدهم ضعيفهم ، قال مجاهد : ﴿ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ حجة بينة ، واختار ابن جرير قول الحسن وقاتدة ^(٥) ، وهو الأرجح ؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ الآية . وفي الحديث : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ، وقوله : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ الآية ، تهديد ووعد لكفار قريش فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به ، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع ،

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٢٧) والإمام أحمد في مسنده (١٤٤/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٣) والإمام أحمد في مسنده (٢٨١/١) والترمذي في سننه (٣٦١٥ ، ٣١٤٨) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٣٧) . وذكره الطبري في تفسيره (١٨١/١٥) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٤١/٢ ، ٥٢٨) .

(٥) انظر تفسير الطبري (١٨٦/١٥ ، ١٨٧) .

وزحق باطلهم أي اضمحل وهلك ، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ، عن ابن مسعود قال : دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعن بها يعود في يده ويقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ^(١) . ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق ، وشرك وزيف وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله . وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ، وليس هذا إلا لمن آمن به ، وصدقه واتبعه فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة ، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وكفرًا والآفة من الكافر لا من القرآن . قال قتادة : إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي لا يتتفع به ، ولا يحفظه ، ولا يعيه فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .

﴿ وَإِذَا أَمَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ قُلْ كُلُّ يَمَلُّ عَلَى شَاكِلِيهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء ، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية ، وفتح ورزق ونصر ونال ما يريد ، أعرض عن طاعة الله وعبادته ، ونأى بجانبه . قال مجاهد : بعد عنا ، قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَخَنَّكَ إِلَى آلِ بْنِ أَعْرَضَتْ ﴾ وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب ، والحوادث والنوائب ﴿ كَانَ يَئُوسًا ﴾ أي قنط أن يعود ، ويحصل له بعد ذلك خير . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلُّ يَمَلُّ عَلَى شَاكِلِيهِ ﴾ . قال ابن عباس : على ناحيته . وقال مجاهد : على حدته وطبيعته . وقال قتادة : على نيته . وقال ابن زيد : دينه . وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم . ولهذا قال : ﴿ قُلْ كُلُّ يَمَلُّ عَلَى شَاكِلِيهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ أي منا ومنكم ، وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا تخفى عليه خافية . ﴿ وَتَسْتَلْزِمُنَا الرُّوحُ قُلُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

عن عبد الله بن مسعود ؓ قال : بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حرث وهو متوكئ على عسيب إذ مر اليهود . فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ؟ فقال : ما رابكم إليه ، وقال بعضهم : لا يستقبلنكم بشيء تكرهونه ، فقالوا : سلوه فسألوه عن الروح فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً فعلمت أنه يوحى إليه فقامت مقامي فلما نزل الوحي قال : ﴿ وَتَسْتَلْزِمُنَا الرُّوحُ قُلُ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ الآية ^(٢) . وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية ، وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٠) ومسلم في الجهاد (٨٤ ، ٨٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢١) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٩/١) .

بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه . وهي هذه الآية ﴿ وَنَسْأَلُكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ، ما رواه ابن عباس قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل . فقالوا : سلوه عن الروح . فسألوه فنزلت : ﴿ وَنَسْأَلُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . قالوا : أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً . قال وأنزل الله : ﴿ قُلْ لَوْ كَانُ الْخَبْرُ بِدَاكُم لَكُنْتُمْ رَبِّي لَتَفْتَدِ الْخَبْرُ ﴾ الآية ^(١) . وعن عكرمة : قال : سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح ، فأنزل الله : ﴿ وَنَسْأَلُكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ الآية ، فقالوا : تزعم أننا لم نؤت العلم إلا قليلاً ، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿ وَنَنْبُتُ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ قال : فنزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْخَبْرُ بِمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحُرٍ ﴾ الآية . قال : ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب ، وهو في علم الله قليل ^(٢) .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح هاهنا على أقوال :

أحدها : أن المراد أرواح بني آدم . وقال ابن عباس : ذلك أن اليهود . قالوا للنبي ﷺ : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح التي في الجسد ، وإنما الروح من الله ، ولم يكن نزل عليه فيه شيء فلم يجبر إليهم شيئاً . فأتاه جبريل فقال له : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . فأخبرهم النبي ﷺ بذلك . فقالوا : من جاءك بهذا ؟ قال : « جاءني به جبريل به عند الله » فقالوا له : والله ما قاله لك إلا عدونا فأنزل الله ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ .

وقيل : المراد بالروح هاهنا جبريل . قاله قتادة . قال : وكان ابن عباس يكتمه .

وقيل : المراد به هاهنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها ، قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الروح ملك .

وقوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أي من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم . ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى ، والمعنى : أن علمكم في علم الله قليل ، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى ، وقال السهيلي : قال بعض الناس لم يجيبهم عما سألوا ؛ لأنهم سألوا على وجه التعنت ، وقيل : أجابهم . وعول السهيلي على أن المراد بقوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أي من شرعه أي فادخلوا فيه ، وقد علمتم ذلك ؛ لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة ، وإنما ينال من جهة الشرع ، وفي هذا المسلك الذي طرقة ، وسلكه نظر ، والله أعلم . ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس ، أو غيرها وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد ، كسريان الماء في عروق الشجر . وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٩٣/١٥) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٥/١) .

واكتسابها بسببه ، صفات مدح أو ذم فهي إما نفس مطمئنة أو أماراة بالسوء ، قال : كما أن الماء هو حياة الشجر ، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسمًا خاصًا فإذا اتصل بالعنبة ، وعصر منها صار ماء مصطارًا أو خمرًا ، ولا يقال له : ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز ، وكذا لا يقال للنفس : روح إلا على هذا النحو وكذا لا يقال للروح : نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه ، فحاصل ما نقول : إن الروح هي أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ، ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه لا من كل وجه ، وهو معنى حسن ، والله أعلم .

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ ﴾ .

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ ، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . قال ابن مسعود ؓ : يطرق الناس ريح حمراء - يعني في آخر الزمان - من قبل الشام فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ، ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ۝ ﴾ الآية . ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله ، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا ، فإن هذا أمر لا يستطيع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ، ولا مثال له ولا عديل له . وعن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به فأنزل الله هذه الآية . وفي هذا نظر لأن السورة مكية وسياقها كله مع قریش ، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة ، فالله أعلم . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ ۝ ﴾ الآية . أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحق ، وشرحنه وبسطناه ومع هذا ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ ﴾ أي جحودًا للحق وردًا لصواب .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۝ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مَائِدَةُ الْإِسْرَاءِ ۝ أَوِ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن دُحْرُبٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزَيْفِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُ بِهِ سُبْحَانَ رَبِّهِ هَلْ كُنْتَ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝ ﴾ .

عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلاً من بني عبد الدار وأبا البخثري أخا بني الأسد والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيلها ومنبها ابني الحجاج السهميين اجتمعوا - أو من اجتمع منهم - بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنثهم حتى جلس إليهم ، فقالوا : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا

والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مآلاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مآلاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك ريثاً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي - فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك . فقال رسول الله ﷺ : « مَا يَبِي مَا تَقُولُونَ ، مَا جِئْتُمْكُمْ بِمَا جِئْتُمْكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ ، وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَبَلَّغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَإِنْ تَقَبَّلُوا مِنِّي مَا جِئْتُمْكُمْ بِهِ ؛ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ ؛ أَضِيرُ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَخْخِمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » . أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً . فقالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك ، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيى منا بلاداً ولا أقل مآلاً ، ولا أشد عيشاً منا ، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، ولييسر لنا بلادنا ، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخاً صدوقاً فנסألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك وصدوقك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول : فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَا بِهِذَا بُعِثْتُ ؛ إِنَّمَا جِئْتُمْكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ فَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، فَإِنْ تَقَبَّلُوهُ ؛ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ ؛ أَضِيرُ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَخْخِمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » . قالوا : فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك تبتغي ؛ فإنك تقوم بالأسواق ، وتلمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، مَا أَنَا بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا ، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهِذَا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَإِنْ تَقَبَّلُوا مَا جِئْتُمْكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَضِيرُ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَخْخِمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » . قالوا : فأسقط السماء كما زعمت ، أن ربك إن شاء فعل ذلك ، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال لهم رسول الله ﷺ : « ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِكُمْ ذَلِكَ » . فقالوا : يا محمد ؟ أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له : الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد أعذرنا إليك يا محمد . أما والله لا نتركك ، وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً . فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا محمد

عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تجعل لهم ما تخوفهم به من العذاب ، فوالله لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتي معك بصحيفة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أنني لا أصدقك . ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفا لما فاتته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مبادئهم إياه ^(١) .

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيوا إليه ، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً ، فقبل لرسول الله ﷺ : إن شئت أعطيتهم ما سألوا فإن كفروا عذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال : « بَلْ تَفْتَحْ عَلَيْهِمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ النبوع : العين الجارية سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز هاهنا وهاهنا . وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ، ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا ، ولكن علم أنهم لا يهتدون . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ شَقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تشق فيه السماء ، وتهمي وتدلي أطرافها فجعل ذلك في الدنيا ، وأسقطها كسفاً أي قطعاً . كقولهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَانْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ ﴾ . الآية وكذلك سأل قوم شعيب منه . فقالوا : ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما نبي الرحمة ، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين ، فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من بعده لا يشرك به شيئاً . وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال ، أسلم إسلاماً تاماً ، وأتاب إلى الله ﷻ . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ يَتِّ مِنْ ذُرِّيِّ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو الذهب ، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود - أو يكون لك بيت من ذهب - ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ﴾ أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿ وَكَانَ يُؤْمِنُ بِرُفْقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُ ﴾ قال مجاهد : أي مكتوب فيه إلى كل واحد صحيفة هذا كتاب من الله لفلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ أي ﷺ . وتقصد أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه ، وملكوته بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجايبكم إلى ما سألتهم ، وإن شاء لم يجيبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي ، وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك وأمركم فيما سألتهم إلى الله ﷻ .

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي ﷻ لِيَبْجَعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ : لَا يَا رَبِّ وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا - أو نحو ذلك - فَإِذَا جُعِفْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ ، وَإِذَا

(٢) أخرجه : البيهقي في السنن ٨/٩ .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٠٤/١٥) .

شَفِيعُ حِمْدُكَ وَشُكْرُكَ» (١) .

﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي يَتَّبِعُونَ أَفْعَالِي لَرَأَيْتُنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا ۖ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ ﴾ أي أكثرهم ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا ﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثه البشر رسلاً . وقالت الأمم لرسولهم : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ والآيات في هذا كثيرة ، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده : أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته ، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي يَتَّبِعُونَ أَفْعَالِي لَرَأَيْتُنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا ﴾ أي من جنسهم . ولما كنتم أنتم بشرًا بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِإِلَهِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۖ ﴾ .

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به إنه شاهد عليّ وعليكم ، عالم بما جئتمكم به فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام . وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۖ ﴾ أي عليماً بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان ، والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة ولهذا قال :

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فِتْرًا فَلَنُتَّبِعْ فِتْرَتَهُ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنُنَبِّئْهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِي يَتَّبِعُونَ أَفْعَالِي لَرَأَيْتُنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا ۖ ﴾ .

يقول تعالى : مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه ، وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له ، ومن يضل فلن تجد لهم أولياء من دونه أي يهدونهم . وقوله : ﴿ وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ عن أنس بن مالك . قال : قيل : يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : « الذي أمشاهم على أرجلهم قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْشِئَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ » (٢) . وعن حذيفة بن أسد قال : قام أبو ذر فقال : يا بني غفار . قولوا ولا تحلفوا فإن الصادق المصدق حدثني ، أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج ، فوج راكبين طاعمين كاسين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار ، فقال قائل منهم : هذان قد عرفناهما فما بال الذين يمشون ويسعون ؟ قال : « يُلْقِي اللَّهُ الْآفَةَ عَلَى الظُّهْرِ حَتَّى لَا يَبْقَى ظَهْرٌ ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الْحَدِيقَةُ الْمُعْجِبَةُ فَيُطْطِئُهَا بِالشَّارِفِ ذَاتِ الْقَتَبِ فَلَا يَفْقِدُ عَلَيْهَا » (٣) . وقوله : ﴿ عَمَّا ﴾ أي لا يبصرون ، ﴿ وَرَبِّكَ ﴾ يعني لا ينطقون ، ﴿ وَسَمَاءًا ﴾ لا يسمعون ، وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٤/٥) والترمذي في السنن (٢٣٤٧) والطبراني في الكبير (٢٤٥/٨) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٦٠) ومسلم في المناقب (٥٤) الإمام أحمد في مسنده (٣٥٤/٢ ، ٣٦٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٥/٥) .

الدنيا بكمًا وعميًا وصمًا عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه . ﴿ تَأْوِيلُهُمْ ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم ﴿ جَهَنَّمَ كَلِمَاتُ خَبَتْ ﴾ . قال ابن عباس : سكنت ، وقال مجاهد : طفت . ﴿ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أي لهبًا ووهجًا وجمرا .

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُهم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا وَرُقْنًا لَوَلَّوْا هَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُقْنًا لَوَلَّوْا هَذَا ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ . يقول تعالى هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمي والبكم والصمم ، جزاؤهم الذي يستحقونه ؛ لأنهم كذبوا ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أي بأدلتنا وحجتنا ، واستبعدوا وقوع البعث . ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا وَرُقْنًا ﴾ أي بالية نخرة ﴿ أَوَلَمْ يَسْمَعُوا خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية ؟ فاحتج تعالى عليهم ونبيههم على قدرته على ذلك ، بأنه خلق السماوات والأرض فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ يَخْلُقِينَ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ الآية . وقال هاهنا : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم ، وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلا مضروبًا ، ومدة مقدره لا بد من انقضائها وقوله : ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿ إِلَّا كُفُورًا ﴾ إلا تماديًا في باطلهم وضلالهم .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ . يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه : قل لهم يا محمد ، لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق . قال ابن عباس وقتادة : أي الفقر أي خشية أن تذهبوها مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبدًا ؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ . قال ابن عباس وقتادة : أي بخيلًا منوعًا ، وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ نَعِيبْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَاذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ أي لو أن لهم نصيبًا في ملك الله لما أعطوا أحدًا شيئًا ، ولا مقدار نقير ، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهده ، فإن البخيل والجزع والهلع صفة له . وقد جاء في الحديث « يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يُغْنِيْهَا نَفَقَةُ سَحَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ » (١) .

﴿ وَلَقَدْ مَآلَيْنَا مُوسَى نَسِعَ مَائِنَتِ يَنْتَبِذْ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمِينًا مَسْحُورًا ﴾ ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَشْبُورًا ﴾ ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَصِرَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ آسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات ، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهي العصا واليد ، والسنين والبحر ، والظوفان والجراد ،

والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات . قاله ابن عباس . وقال محمد بن كعب : هي اليد والعصا والخمس في الأعراف والطُّمَسَة والحجر ، وقال ابن عباس أيضًا ومجاهد وعكرمة وغيرهم : هي يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع والدم . وهذا القول ظاهر جلبي حسن قوي ، وجعل الحسن البصري السنين ونقص الثمرات واحدة ، وعنده أن التاسعة هي تلقف العصا ما يأفكون ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ . أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً وما نجعت فيهم ، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى آخرها ، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله . كما قال فرعون لموسى : وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ . قيل : بمعنى ساحر والله تعالى أعلم . فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هاهنا ، وهي المعنية في قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي عَصَاكَ فَلَئِنَّ زَآئِدًا مِّنْهُ لَكُنْتُمْ أَكْثَرًا جَاذِبًا وَّلَوْ مُؤَيَّدًا بِتُفَٰهٍ لَا تُغْفَٰرُ ﴾ إلى قوله ﴿ فِي يَتِيمَآئِكَ إِذَا رُفِعُوا وَفَرِيضَةً لَهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . فذكر هاتين الآيتين العصا واليد ، وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها . وقد أوتي موسى الطلح آيات أخرى كثيرة منها : ضربه الحجر والعصا وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر هاهنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً ولهذا قال موسى لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَٰرِرٌ ﴾ ، أي حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به . ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يٰفِرْعَوْنُ مُّشْرِكًا ﴾ . أي هالكاً ، قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس : ملعوناً . وقال أيضًا هو والضحاك : ﴿ مُّشْرِكًا ﴾ أي مغلوباً والهالك - كما قال مجاهد - يشمل هذا كله .

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله : ﴿ عَلِمْتُ ﴾ ^(١) وروي ذلك عن علي بن أبي طالب ، ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون . والمراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا ، واليد ، والسنين ، ونقص من الثمرات ، والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم التي فيها حجج وإبراهين على فرعون وقومه ، وخوارق ودلائل على صدق موسى ، ووجود الفاعل المختار الذي أرسله . وقوله : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِزَهُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها . ﴿ فَأَعْرَضَهُ وَمِنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۖ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَٰءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ . وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة وكذلك وقع . فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ الآيتين . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلاً وكرماً . كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون ، وأموالهم وثمارهم وكنوزهم ، كما قال : ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ ﴾ وقال هاهنا : ﴿ جَنَّاتٍ بِّكَوْنٍ لَّيِّقًا ﴾ . أي

(١) قرأها الكسائي بضم التاء والباقون بفتحها . (تقريب النشر ١٣٥) .

جميعكم أنتم وعدوكم . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : لفيقاً أي جميعاً .

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكِّيٍّ وَزَكَّاهُ لَنَزِيلًا﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد : إنه بالحق نزل أي متضمناً للحق كما قال تعالى : ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ يُعَلِّمُهُ﴾ وَاللَّهُ يَشْهَدُونَ ﴿ ، أي متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه ، وأمره ونهيه وقوله : ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ ، أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يشب بغيره ، ولا زيد فيه ولا نقص منه ، بل وصل إليك بالحق ، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى . وقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ، مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين ، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين . وقوله : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف ، فمعتاه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا . ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة . قاله عكرمة عن ابن عباس : وعن ابن عباس أيضاً أنه قرأ ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ ^(١) بالتشديد أي أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً ، ولهذا قال : ﴿لِتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم أي ﴿عَلَىٰ مَكِّيٍّ﴾ أي مهمل ﴿وَزَكَّاهُ لَنَزِيلًا﴾ أي شيقاً من بعد شيء .

﴿قُلْ ءَايَاتُ رَبِّي أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالَّذِينَ سُبْحَنَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ﴿وَيَجِرُونَ لِالَّذِينَ يَكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ .

يقول تعالى لنبية محمد ﷺ : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جنتهم به من هذا القرآن العظيم ، ﴿ءَايَاتُ رَبِّي أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أي سواء آمنتم به أم لا فهو حق في نفسه أنزله الله ، ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله . ولهذا قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من صالح أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ، وقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه . ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ، ﴿يَجِرُونَ لِالَّذِينَ﴾ جمع ذنن ، وهو أسفل الوجه ﴿سُبْحَنَ﴾ أي لله ﷻ شكراً على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً لأن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب . ولهذا يقولون : ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾ أي تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة ، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثه محمد ﷺ . ولهذا قال : ﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ، وقوله : ﴿وَيَجِرُونَ لِالَّذِينَ يَكُونُ﴾ أي خضوعاً لله ﷻ وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله ، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي إيماناً وتسليماً .

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُوا بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا كَبِيرًا﴾ .

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين النكيرين صفة الرحمة لله ﷻ ، المانعين من تسميته بالرحمن ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله

(١) قرأها الجمهور بالتخفيف وقرأها بالتشديد علي وسعد بن أبي وقاص وأبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وأبو رزين ومجاهد والشعبي وقتادة والأعرج وأبو محيصة . زاد المسير ٩٦/٥ .

أو باسم الرحمن فإنه ذو الأسماء الحسنی ، وقد روى مكحول وابن عباس أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ يقول وهو يقول في سجوده : « يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ » فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو اثنين فأُنزل الله هذه الآية ^(١) ، وقوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ الآية . وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ورسوله الله ﷺ متوار بمكة . ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا ﴾ . قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ، وسبوا من أنزله ، ومن جاء به قال : فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿ وَلَا تُخَافُهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، ﴿ وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ ^(٢) . وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه ، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم ، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع . فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً فأُنزل الله : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿ وَلَا تُخَافُهَا ﴾ ، فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم فلعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به ، ﴿ وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ وعن هلال عن ابن مسعود قال : ﴿ وَلَا تُخَافُهَا ﴾ من أسمع أذنيه ، قال محمد بن سيرين : نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته فليل لأبي بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجي ربي ﷻ وقد علم حاجتي ، فليل : أحسنت . وقيل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرده الشيطان وأوقظ الوسنان ، قيل : أحسنت . فلما نزلت : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ قيل لأبي بكر : ارفع شيئاً ، وقيل لعمر اخفض شيئاً ^(٣) .

وعن ابن عباس ، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها نزلت في الدعاء .

وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : نزلت هذه الآية في التشهد ^(٤) .

وعن ابن عباس فيها قال : لا تصل مراعاة للناس ، ولا تدعها مخافة الناس .

وعن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : أهل الكتاب يخافون ، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به ، ويصيحون هم به وراءه . فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء ، وأن يخافت كما يخافت القوم ، ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سن له جبريل من الصلاة .

وقوله : ﴿ وَقُلْ أَعْتَدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَنْخِذُ لَكَ ﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنی نزه نفسه عن النقائص فقال : ﴿ وَقُلْ أَعْتَدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَنْخِذُ لَكَ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢٧/١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٢٢) ومسلم في الصلاة (١٤٥ ، ١٤٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٣/١) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٢/١٥) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٢/١٥) .

له ، ومديرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له ، قال مجاهد في قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ
الَّذِينَ ﴾ : لم يحالف أحداً ولم يتغ نصر أحد ، ﴿ وَكَرِهَ نَكِيرًا ﴾ أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون
المعتدون علواً كبيراً . وقال قتادة : ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
لَمْ يَخْذَ وَلَدًا ﴾ الآية ، الصغير من أهله والكبير ^(١) . قلت : وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ
سمى هذه الآية آية العز ، وفي بعض الآثار أنها ما قرئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة والله
أعلم .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٣٥/١٥) .

سورة الكهف

ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال

روي عن البراء قال : قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أَقْرَأْ فَلَانٌ فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ تَنْزِلُ عِنْدَ الْقُرْآنِ أَوْ تَنْزَلَتْ لِلْقُرْآنِ » ^(١) . وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير ، كما تقدم في تفسير سورة البقرة . وروي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدُّجَالِ » ^(٢) . وعنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ ، عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّجَالِ » ^(٣) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَصَابَهُ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا يَبِينُ وَيَسِّرُ الْجُمُعَتَيْنِ » ^(٤) ، وورد عنه ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا نَزَلَتْ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٥) .

وورد عن علي مرفوعاً : من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا يَشِيرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا ۖ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ﴾ .

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فوائح الأمور وخواتمها ، فإنه المحمود على كل حال ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض ، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيف ، بل يهدي إلى صراط مستقيم ، واضحاً بيناً جليلاً نذيراً للكافرين بشيراً للمؤمنين . ولهذا قال : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا ۖ ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيفاً ولا ميلاً ، بل جعله معتدلاً مستقيماً ؛ ولهذا قال : ﴿ قَيِّمًا ۖ ﴾ أي مستقيماً ، ﴿ يَشِيرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ ﴾ أي لمن خالفه وكذبه ، ولم يؤمن به وينذره بأساً شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة ﴿ مِّنْ لَّدُنْهُ ﴾ أي من عند الله الذي لا يعذب عباده أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، ﴿ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أَنَّ ﴾

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١١) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٤١) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٤/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٧) والإمام أحمد في مسنده (٤٤٩/٦) وأبو داود في سننه (٤٣٢٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٤٦/٦) . (٤) أخرجه البيهقي في سننه (٢٤٩/٣) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٦٤/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٠٩/٤) .

لَهُمْ أَجْرٌ حَسَنًا ﴿١﴾ أي مثوبة عند الله جميلة ﴿مَكِّيَّةٌ فِيهِ﴾ في ثوابهم عند الله ، وهو الجنة خالدين فيه ﴿أَبَدًا﴾ ، دائماً لا زوال له ولا انقضاء . وقوله : ﴿وَنُذِرُ الَّذِينَ قَالُوا أَتُخَذُ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق : وهم مشركو العرب في قولهم نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله . ﴿تَاللَّهِ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بهذا القول الذي افتروه واتفكوه ، ﴿وَلَا يَلْبِأُهُمْ﴾ أي لأسلافهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز تقديره كبرت كلمتهم هذه . وقيل : على التعجب تقديره أعظم بكلمتهم كلمة . وقرأ ذلك بعض قراء مكة - كبرت كلمة ^(١) - كما يقال : عظم قولك وكبر شأنك ، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر ، فإن هذا تبشيع لمقاتلتهم ، واستعظام لإفكهم ولهذا قال : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراءهم . ولهذا قال : ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ . وفي سبب نزول هذه السورة الكريمة قال ابن عباس : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجوا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالوا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر وعقبة حتى قدما قريش فقالا : يا معشر قريش جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا فسألوهم عما أمروهم به ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « أَخْبِرْكُمْ غَدًا عَمَّا سَأَلْتُمْ عَنْهُ » . ولم يستثن فأنصرفوا عنه ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل ﷺ ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبرائيل ﷺ من الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف فيها معابته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف وقول الله ﷻ : ﴿وَسْتَثْنُونَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ﴾ الآية ^(٢) .

﴿فَلَمَّا كَبِخَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ١ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ٢ ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُا﴾ ٣ .

يقول تعالى مسلماً لرسوله في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان ، وبعدهم عنه : ﴿فَلَمَّا كَبِخَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ ، يعني القرآن ﴿أَسَفًا﴾ يقول : لا تهلك نفسك أسفاً ، قال قتادة : قاتل نفسك غضباً وحزناً عليهم ، وقال مجاهد : جزعاً والمعنى متقارب ، أي لا

(١) قرأها الجمهور على النصب وقرأ ابن مسعود والحسن ومجاهد وأبو زين وغيرهم على الرفع . زاد المسير (١٠٤/٥) .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٣٢١/١ - ٣٣٠

تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإتاما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة ، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ . عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوةٌ خَصْرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرُوا مَاذَا تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النَّسَاءِ » ^(١) . ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها ، وفراغها وانقضائها ، وذهابها وخرابها . فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أي وإنما لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، فنجعل كل شيء عليها هالكا ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ لا يثبت ولا يتنفع به . كما قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ : يهلك كل شيء عليها ويبعد . وقال مجاهد : ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ بلفظاً ، وقال قتادة : الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ يعني الأرض ، وإن ما عليها لفان وبائد . وإن المرجع لإلى الله ، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴾ ^(٢) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ^(٣) فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ^(٤) ثُمَّ بَشَّرْنَاهُمْ بِإِغْرَائِهِمْ أَوْ يُبَدِّلُوا أَمْثَلًا ^(٥) .

يقول الله ﷻ : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يعني يا محمد ، ﴿ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴾ أي ليس أمرهم عجباً في قدرتنا وسلطاننا ، فإن خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار وغير ذلك من الآيات العظيمة ، الدالة على قدرة الله تعالى ، وأنه على ما يشاء قادر ، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف . كما قال مجاهد : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴾ يقول : قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك ، وقال ابن عباس : الذي آتيتك من العلم والسنة ، والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم ، وقال محمد بن إسحاق : ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم ، وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ إليه الفتية المذكورون . وأما الرقيم فقال ابن عباس : هو واد قريب من أيلة . وقال الضحاك : أما الكهف فهو غار الوادي والرقيم اسم الوادي . وقال مجاهد : الرقيم كتاب بنيانهم . ويقول بعضهم : هو الوادي الذي فيه كهفهم . وقال ابن عباس : الرقيم : الجبل الذي فيه الكهف وقال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرقيم الكتاب ، ثم قرأ : ﴿ يَكْتُبُ مَرُومٌ ﴾ وهذا هو الظاهر من الآية ، وهو اختيار ابن جرير ^(٦) . قال : الرقيم : فعيل بمعنى مرقوم ، كما يقال للمقتول : قتيل ، وللمجروح : جريح والله أعلم .

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٦/٦) والترمذي في سننه (٢١٩١) .

(٢) تفسير الطبري (٢٤٩/١٥) .

وقوله : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم ، لئلا يفتنوهم عنه ، فهربوا منهم فلاجؤا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها ، وتسترنا عن قومنا ، ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً ، أي اجعل عاقبتنا رشداً . وقوله : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ عِزِّهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ ، أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف ، فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدرهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبْلُوَ أَىِّ الْحِزْبَيْنِ ﴾ أي المختلفين فيهم ، ﴿ أَحَسَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ قيل : عدداً . وقيل : غاية فإن الأمد الغاية كقوله : سبق الجواد إذا استولى على الأمد .

﴿ تَحَنَّنَ غَضَبُكَ تَوَّاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وَرَبَّنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ ذُوْنِهِ إِلَهًا لَّعَدَّ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُواكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ وَإِذْ اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَمْبُتُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا .

من هنا شرع في بسط القصة وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب ، وهم أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش فعاتمهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل . وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقال مجاهد : بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة . يعني الحلقة فألهمهم الله رشدهم ، وآتاهم تقواهم فآمنوا بربهم أي اعترفوا له بالوحدانية ، وشهدوا أنه لا إله إلا هو ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها على زيادة الإيمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ كما قال : ﴿ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك . وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح ابن مريم فالله أعلم . والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية ؛ فإنهم لو كانوا على دين النصرانية ، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء ، وعن خبر ذي القرنين ، وعن الروح ؛ فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب ، وأنه متقدم على دين النصرانية ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَرَبَّنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول تعالى : وصبرناهم على مخالفة قومهم ، ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد ، والسعادة والنعمة ، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف ، أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم ، وسادتهم وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها ، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس ،

وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ، ويدعوهم إليه ، فلما خرج الناس ليجتمعهم ذلك ، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم ، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السماوات والأرض ، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه ، وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية ، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم جلس تحت ظل الشجرة ، فجاء الآخر فجلس إليها عنده ، وجاء الآخر فجلس إليهما ، وجاء الآخر فجلس إليهم ، وجاء الآخر وجاء الآخر ، ولا يعرف واحد منهم الآخر ، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان ، كما جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اخْتَلَفَ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » (١) . والناس يقولون : الجنسية علة الضم . والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتف بما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم ، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم : تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره . فقال آخر : أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه ، فعرفت أنه باطل ، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله ، الذي خلق السموات والأرض وما بينهما . وقال الآخر : وقال الآخر كذلك . وقال الآخر كذلك . حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة فصاروا يداً واحدة ، وإخوان صدق . فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه فعرف بهم قومهم ، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه ، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه ، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله ﷻ . ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَرَبَّنَا عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ﴾ ولن لنفي التأيد . أي لا يقع منا هذا أبداً ؛ لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً . ولهذا قال عنهم : ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً ، ﴿ هَتَّاءَ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ يقولون : بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك .

فيقال : إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أنى عليهم ، وتهددهم وتوعدهم ، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم ، وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه ، وكان هذا من لطف الله بهم ، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة . وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه ، كما جاء في الحديث : « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالٍ أَحَدِكُمْ غَتَمًا يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجَبَالِ ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ » (٢) . ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ، ولا تشرع فيما عداها ؛ لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع . فلما وقع عزهم على الذهاب والهرب من قومهم ، واختار الله تعالى لهم ذلك ، وأخبر عنهم بذلك في قوله : ﴿ وَإِذْ أَغْرَزْنَاهُمْ مِمَّا يَصِيدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي وإذا فارقتهم وخالفتمهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم . ﴿ فَأَوْرَءْنَا إِلَى الْكَهْفِ

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٣٦) ومسلم في البر والصلة (١٥٩ ، ١٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٩) والإمام أحمد في مسنده (٦/٣) وأبو داود في سننه (٤٢٦٧) .

يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿١٧﴾ أَي يَسْطِ عَلَيْهِمْ رَحْمَةً يَسْتَرْكُم بِهَا مِنْ قَوْمِكُمْ ﴿١٨﴾ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ ﴿١٩﴾ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ﴿٢٠﴾ يَرْفَعُ ﴿٢١﴾ أَي أَمْرًا تَرْتَفِقُونَ بِهِ فَعِنْدَ ذَلِكَ خَرَجُوا هَرَبًا إِلَى الْكَهْفِ فَأَوُوا إِلَيْهِ ، فَقَدَّهُمْ قَوْمُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ وَتَطْلُبُهُمُ الْمَلِكُ . فَيَقَالُ : إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ ، وَعُمِّي اللَّهُ عَلَيْهِ خَيْرُهُمْ كَمَا فَعَلَ بَنِيهِ مُحَمَّدٌ ﷺ وصاحبه الصديق ، حين لجأ إلى غار ثور .

﴿ وَرَأَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّورَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُتُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ .

فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال ؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أي يتقلص الفيء يمنة . كما قال ابن عباس ﴿ تَزَوُّورُ ﴾ أي تميل ^(١) ، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها ، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُتُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه ، وهو من ناحية المشرق . فدل على صحة ما قلناه ، وهذا بين لمن تأمله ، وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب ، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ، ولا عند الغروب ، ولا تزاور الفيء يمينًا ولا شمالًا ، ولو كان من جهة الغرب ، لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ، ولم تزل فيه إلى الغروب فتعين ما ذكرناه ولله الحمد . وقال ابن عباس وغيره : ﴿ تَقَرَّبُتُمْ ﴾ : تركهم . وقد أخبر الله تعالى بذلك ، وأراد منا فهمه وتدبره . ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض ؛ إذ لا فائدة لنا فيه ، ولا قصد شرعي .

وقال : ﴿ وَرَأَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّورَ عَنْ كَهْفِهِمْ ﴾ قال ابن زيد بن أسلم : تميل ، ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُتُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴿٢٢﴾ أي في متسع منه داخلًا بحيث لا تصيبهم ؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم ، قاله ابن عباس : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء ، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ ثم قال : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ الآية أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم ، فإنه من هداه الله اهتدى ، ومن أضله فلا هادي له .

﴿ وَنَحْسَبُهُمْ آيَةً أَخَا وَهُمْ رُوْدٌ وَقَلْبُهُمْ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَكُنْتُ مِنْهُمْ نَاصِبًا ﴾ .

ذكر بعض أهل العلم ، أنهم لما ضرب الله على أذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم ، لئلا يسرع إليها البلى . وقوله تعالى : ﴿ وَقَلْبُهُمْ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ قال بعض السلف : يقبلون في العام مرتين . قال ابن عباس : لو لم يقبلوا لأكلتهم الأرض . وقوله : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : الوصيد الفناء ، وعنه أيضًا : بالباب . وقيل : بالصعيد - وهو التراب - والصحيح أنه بالفناء ، وهو الباب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ قال ابن جريج : يحرس عليهم الباب ،

وهذا من سجيته وطبيعته ، حيث يريض بياهم كأنه يحرمهم ، وكان جلوسه خارج الباب ؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب - كما ورد في الصحيح - ولا صورة ولا جنب ولا كافر ^(١) .
وشملت كلهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحيحة الأخيار ؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخير وشأن . وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴾ . أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والدعر ، فلما يدنو منهم أحد ، ولا تمسهم يد لأمس حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنقضي رقتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم لما في ذلك من الحكمة والحجة البالغة ، والرحمة الواسعة .
﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِسَاءَ لَوْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَسْأَلْكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ .

يقول تعالى : كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئا ، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين ؛ ولهذا تساءلوا بينهم : ﴿ كَمْ لَبِئْتُمْ ﴾ أي كم رقدتم ، ﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ ؛ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار واستيقاظهم في آخر نهار ، ولهذا استدرکوا فقالوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ ﴾ أي الله أعلم بأمركم ، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم فالله أعلم . ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك ، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ﴾ أي فضتكم هذه وذلك أنهم كانوا قد استصبحوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها فتصدقوا منها وبقي منها ، فلهذا قالوا : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها ، والألف واللام للعهد ، ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أي أطيب . ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره ، وقيل : أكثر طعاما .

والصحيح الأول ؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال سواء كان كثيرا أو قليلا وقوله : ﴿ وَلْيَسْأَلْكُمْ ﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه ، يقولون : وليختف كل ما يقدر عليه ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ ﴾ أي : ولا يعلمن ﴿ يَكُم أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس يخافون منهم أن يطبلعوا على مكانكم ، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا ، وإن وافقتهم على العود في الدين ، فلا فلاح لكم في الدنيا ، ولا في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَتَيْنَاهُمْ لَعْنًا غَافِلِينَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ وَعَدَ اللَّهِ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمُ امْرَأَتُهُمْ فَيَقُولُوا هَؤُلَاءِ نِسَاءُ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمْ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ .
يقول تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَتَيْنَاهُمْ لَعْنًا ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ، ﴿ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ وَعَدَ اللَّهِ حَقًّا وَأَنَّ

(١) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣٣٢٢) ومسلم بنحوه في (اللباس) (٨١ - ٨٤) ومسنده الإمام أحمد (٨٠/١) .

الْسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴿ ذَكَرَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُ كَانَ قَدْ حَصَلَ لِأَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ شَكٌّ فِي الْبَيْتِ ، وَفِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ فَبَعَثَ اللَّهُ أَهْلَ الْكَهْفِ حُجَّةً وَدَلَالَةً وَآيَةً عَلَى ذَلِكَ .

وَذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ لِيَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي شَرَاءِ شَيْءٍ لَهُمْ لِأَكْلِهِ تَنَكَّرَ وَخَرَجَ يَمْشِي فِي غَيْرِ الْجَادَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ قَرِيبُ الْمَعْدِ بِهَا ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ تَبَدَّلُوا قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ وَتَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا .

فَجَعَلَ لَا يَرَى شَيْقًا مِنْ مَعَالِمِ الْبَلَدِ الَّتِي يَعْرِفُهَا ، وَلَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا فَجَعَلَ يَتَحِيرُ فِي نَفْسِهِ وَيَقُولُ : لَعَلَّ بِي جُنُونًا ، وَإِنْ عَهْدِي بِهَذِهِ الْبَلَدَةِ عَشِيَّةَ أَمْسٍ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ تَعَجَّلْتُ الْخُرُوجَ مِنْ هَاهُنَا لِأَوَّلَى لِي ، ثُمَّ عَمِدْتُ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يَبِيعُ الطَّعَامَ فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ مَا مَعِيَ مِنَ النِّفَقَةِ ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَبِيعَهُ بَهَا طَعَامًا ، فَلَمَّا رَأَاهَا ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْكَرَهَا وَأَنْكَرَ ضَرْبَهَا ، فَدَفَعَهَا إِلَى جَارِهِ وَجَعَلُوا يَتَذَلَّلُونَهَا بَيْنَهُمْ ، وَيَقُولُونَ : لَعَلَّ هَذَا وَجَدَ كَنْزًا ، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَمْرِهِ وَمَنْ أَيْنَ لَهُ هَذِهِ النِّفَقَةُ لَعَلَّ وَجَدَهَا مِنْ كَنْزٍ وَمَنْ أَنْتَ ؟ فَجَعَلَ يَقُولُ : أَنَا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ، وَعَهْدِي بِهَا عَشِيَّةَ أَمْسٍ ، وَفِيهَا دَقْيَانُوسٌ ، فَنَسَبُوهُ إِلَى الْجَنُونِ ، فَحَمَلُوهُ إِلَى وَلِيِّ أَمْرِهِمْ فَسَأَلُوهُ عَنْ شَأْنِهِ ، وَخَبَرَهُ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِهِ ، وَهُوَ مَتَحِيرٌ فِي حَالِهِ وَمَا هُوَ فِيهِ ، فَلَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ قَامُوا مَعَهُ إِلَى الْكَهْفِ - مَلِكُ الْبَلَدِ وَأَهْلُهَا - حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلَى الْكَهْفِ ، فَقَالَ لَهُمْ : دَعُونِي حَتَّى أَتَقَدَّمَكُمْ فِي الدَّخُولِ لِأَعْلَمَ أَصْحَابِي فَدَخَلَ ، فَيَقَالُ : إِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ ذَهَبَ فِيهِ ، وَأَخْفَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَبْرَهُمْ ، وَيَقَالُ : بَلْ دَخَلُوا عَلَيْهِمْ وَرَأَوْهُمْ ، وَسَلَّمْ عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ وَاعْتَقَقَهُمْ ، وَكَانَ مُسْلِمًا فِيمَا قِيلَ وَاسْمُهُ يَنْدُوسِيْسُ ، فَفَرَحُوا بِهِ وَأَتَسَّوْهُ بِالْكَلامِ ، ثُمَّ وَدَعُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ وَعَادُوا إِلَى مُضَاجَعَتِهِمْ ، وَتَوَفَّاهُمْ اللَّهُ ﷻ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهُ : ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ ﴾ أَيُّ فِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ ، فَمِنْ مَثَبٍ لَهَا وَمِنْ مَنَكْرٍ ، فَجَعَلَ اللَّهُ ظُهُورَهُمْ عَلَى أَصْحَابِ الْكَهْفِ حُجَّةً لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ ، ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رِزْقُهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أَيُّ سَدُّوا عَلَيْهِمْ بَابَ كَهْفِهِمْ وَذَرَوْهُمْ عَلَى حَالِهِمْ ﴿ قَالَ الَّذِينَ ظَلَمُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ فِي الْقَائِلِينَ ذَلِكَ قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ ، وَالثَّانِي : أَهْلُ الشَّرِكِ مِنْهُمْ ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(١) . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ هُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ وَالنَّفُوذِ ، وَلَكِنْ هَلْ هُمْ مَحْمُودُونَ أَمْ لَا ؟ فِيهِ نَظَرٌ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَعْنُ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ » ^(٢) . يَحْذَرُ مَا فَعَلُوا ، وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ أَنَّهُ لَمَّا وَجَدَ قَبْرَ دَانِيَالٍ فِي زَمَانِهِ بِالْعِرَاقِ أَمَرَ أَنْ يَخْفَى عَنِ النَّاسِ ، وَأَنْ تُدْفَنَ تِلْكَ الرِّقْعَةُ الَّتِي وَجَدَهَا عِنْدَهُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَلَا حِمٍّ وَغَيْرِهَا .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَتُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرُوا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ . يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي عِدَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ فَحَكَى ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ ، فَدَلَّ عَلَى

(١) تفسير الطبري (٢٨١/١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٣٠ ، ١٣٩٠) ومسلم في المساجد (١٩ ، ٢١) .

أنه لا قائل برابع ، ولما ضعف القولين الأولين بقوله : ﴿ رَحْمًا بِالْعَالَمِينَ ﴾ أي قولاً بلا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد . ثم حكى الثالث ، وسكت عليه أو قرره بقوله : ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ فدل على صحته ، وأنه هو الواقع في نفس الأمر ، وقوله : ﴿ قَدْ رَفَعْنَا أَعْيُنَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ لإرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقضنا . وقوله : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أي من الناس . قال ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى الله ﷻ كانوا سبعة . وقد قال تعالى : ﴿ فَلَا تَحْزَنْ فِيهِمْ إِلَّا مَرَّةً ظَهَرَ ﴾ أي سهلاً هيناً ، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ، ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب . أي من غير استناد إلى كلام معصوم . وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ، ولا مرية فيه فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال . ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايئٍ إِنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ غُدًّا ۚ ﴾ إِلَّا أَمْ يَشَاءُ لَعَنُوكَ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَنِّي أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۚ .

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ علام الغيوب الذي يعلم ما كان ، وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ ﷺ : لَأُطَوِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً - وفي رواية تسعين امرأة ، وفي رواية مائة امرأة - تِلْدُ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَبِيلَ لَهُ - وفي رواية قال له الملك - قُلْ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَمْ يَقُلْ ، فَطَافَ بِهِمْ فَلَمْ يَلِدْ مِنْهُمْ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً نَضَفَ إِنْسَانٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَالَّذِي تُنْفِسي بِيَدِهِ لَوْ قَالَ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَخْشُ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ » وفي رواية « وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ » ^(١) وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف « غَدًّا أَجِئْكُمْ » فأخبر الوحي خمسة عشر يوماً ، وقوله : ﴿ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قيل : معناه إذا نسيت الاستثناء ، فاستثنى عند ذكرك له ، وعن ابن عباس في الرجل يحلف قال : له أن يستثنى ولو إلى سنة ، ومعنى قوله أنه يستثنى ، ولو بعد سنة أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله ، وذكر ولو بعد سنة ، فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسنة الاستثناء ، حتى ولو كان بعد الحنث ، قاله ابن جرير ﷺ . ونص على ذلك لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ، ومسقطاً للكفارة ، وهذا الذي قاله ابن جرير ﷺ هو الصحيح ، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم . وقال عكرمة : ﴿ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ إذا غضبت .

وروي أيضاً عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَذْكُرُ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الاستثناء فاستثنى إذا ذكرت ، وقال : هي خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثنى إلا في صلة من يمينه ، ثم قال : انفرد به الوليد عن عبد العزيز بن الحصين ، ويحتمل في الآية وجه آخر ، وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد

(١) أخرجه البخاري في كفارات الأيمان (٦٧٢٠) ومسلم في (الإيمان) (٢٣) بلفظ « تسعين امرأة » .

من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى ؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان ، كما قال فتى موسى : ﴿ وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَ ﴾ وذكر الله تعالى يطرد الشيطان ، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان ، فذكر الله تعالى سبب للذكر ولهذا قال : ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ وقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك .

﴿ وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا شِتَاءً ﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَمْ يَغَيِّبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْبَصِرَ بِهِمْ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا .

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله ، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد بالهلالية ، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهاذا قال بعد الثلاثمائة : ﴿ وَازْدَادُوا شِتَاءً ﴾ ، وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا ﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم ، وليس عندك علم في ذلك ، وتوقيف من الله تعالى ، فلا تتقدم فيه بشيء بل قل في مثل هذا : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَمْ يَغَيِّبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . أي لا يعلم ذلك إلا هو ، ومن أطلعه عليه من خلقه .

وقوله : ﴿ أَنْبَصِرَ بِهِمْ وَأَسْمِعْ ﴾ أي إنه لبصير بهم سميع لهم . قال ابن جرير : وذلك في معنى المبالغة في المدح ، كأنه قيل ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه من ذلك شيء . ثم روي عن قتادة في قوله : ﴿ أَنْبَصِرَ بِهِمْ وَأَسْمِعْ ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وقوله : ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر الذي لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ، ولا شريك ولا مشير تعالى وتقدس .

﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مِثْلَهَا ﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعُدْوَانِ وَالشَّيْءِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا .

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس : ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل . وقوله : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مِثْلَهَا ﴾ عن مجاهد ﴿ مُثْلَهَا ﴾ قال : ملجأ وعن قتادة : ولياً ولا مولى ، قال ابن جرير : يقول : إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك ، فإنه لا ملجأ لك من الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَلَدَىٰ فَرْسِكَ الْفَرَسَاتُ لَأَذَاكَ إِلَٰئِي مَعَادٍ ﴾ أي سائلتك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة . وقوله : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعُدْوَانِ وَالشَّيْءِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ، ويهللون ويحمدونه ، ويسبحونه ويكبرونه ، ويسألونه بكرة وعشيّاً من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء ، أو أقوياء أو ضعفاء ، يقال : إنها نزلت في أشرف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار ، وصهيب ، وخباب ، وابن مسعود ، وليفرد أولئك

بمجلس على حدة ، فنهاه الله عن ذلك فقال : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ الآية ، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء .

وعن سعد ابن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرء هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع ، فحدث نفسه فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال ابن عباس : ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ، ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ أي أعماله وأفعاله سفه ، وتفريط وضياح ، ولا تكن مطيعا له ، ولا محبا لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَيْسِرُوا بَعَانَا بِمِائَةٍ كَالْمِئَةِ يُشْوَى الْوُجُوهُ بِشَرِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : قل يا محمد للناس : هذا الذي جئكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أي أرصدنا ، ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ، ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أي سورها وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لِشَرَادِقِ النَّارِ أَرْبَعَةُ مَجْدِرٍ ، كَثَافَةُ كُلِّ جِدَارٍ مَسَافَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً » ^(٢) .

وقال ابن عباس : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال : حائط من نار ، وقوله : ﴿ وَإِنْ يَسْتَيْسِرُوا بَعَانَا بِمِائَةٍ كَالْمِئَةِ يُشْوَى الْوُجُوهُ ﴾ الآية ، قال ابن عباس : المهل الماء الغليظ مثل دردي الزيت ، وقال مجاهد : هو كالدّم والقحيح ، وقال عكرمة : هو الشيء الذي انتهى حره ، وقال آخرون : هو كل شيء أذيب . وقال قتادة : أذاب ابن مسعود شيئا من الذهب في أخذود فلما ائتماع وأزبد قال : هذا أشبه شيء بالمهل . وقال الضحاك : ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود ، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر ، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها فهو أسود منتن غليظ حار ، ولهذا قال : ﴿ يُشْوَى الْوُجُوهُ ﴾ أي من حره إذا أراد الكافر أن يشربه ، وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه ، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَاءُ كَالْمِهْلِ - قال - كَعَكْرِ الزَّيْتِ فَإِذَا قَرُبَ إِلَيْهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ » ^(٣) .

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَنُفْسٌ مِنْ مَلَأٍ مَكِيدٍ ﴾ بِتَجَرُّمٍ قال : « يَقْرُبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّمُ ، فَإِذَا قَرُبَ مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ ، وَوَقَعَتْ فَرْوَةُ رَأْسِهِ ، فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْعَاءَهُ ، يقول الله تعالى :

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩/٣) والترمذي في سننه (٢٥٨٤) والحاكم في المستدرک (٦٠١/٤) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧١/٣) والترمذي في سننه (٢٥٨١) .

﴿وَلَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهَا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ ^(١) وقال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم ، فيأكلون منها فاخطلت جلود وجوههم ، فلو أن ماءً بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالملح ، وهو الذي قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة : ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ أي بئس هذا الشراب ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾ ^(٢) وسألت مُرتفعًا : أي وساءت النار منزلًا ، وموضعًا للارتفاق .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ^(٣) أولئك لهم حَنَّتْ عَيْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يَمْشُونَ فِيهَا مِنْ أَشْوَارٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ يَنُمُ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء نثى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به ، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة فلهم جنات عدن ، والعدن الإقامة ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم . ﴿يَمْشُونَ﴾ أي من الحلية ، ﴿فِيهَا مِنْ أَشْوَارٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر : ﴿وَلَوْ لَوْ وَبِأَسْهُمَ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وفصله هاهنا فقال : ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ فالسندس لباس رفيع رقيق كالقمصان ، وما جرى مجراها ، وأما الإستبرق فغليظ الدياج وفيه بريق ، وقوله : ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الاتكاء قيل : الاضطجاع ، وقيل : التربع في الجلوس ، وهو أشبه بالمراد هاهنا ، ومنه الحديث الصحيح «أما أنا فلا أكل متكئًا» ^(١) فيه القولان . والأرائك جمع أريكة ، وهي السرير تحت الحجلة ، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة والله أعلم .

وقوله : ﴿يَنُمُ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي نعمت الجنة ثوابًا على أعمالهم ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي حسنت منزلًا ، ومقيلًا ومقامًا كما قال في النار : ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ .

﴿وَأَصْرَبَتْ لَهُمْ مَثَلًا رِجْلَيْنِ جَمَلًا لِأَجْدِهِمَا جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهَا بِتَخَلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ ^(٢) كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْطَاهَا وَلَمْ تَطْلُرْ بَيْنَهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾ ^(٣) وَكَانَ لَهُمْ تَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ ^(٤) وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ^(٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ .

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم ، فضرب لهم ولهم مثلًا برجلين جعل الله لأحدهما جنتين - أي بستاتين - من أعناب محفوظتين بالنخيل المحدقة في جنياتهما وفي خلالهما الزروع ، وكل من الأشجار والزروع شمر مقبل في غاية الجودة ؛ ولهذا قال : ﴿كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْطَاهَا﴾ أي أخرجت

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) والحاكم في المستدرک (٣٥١/٢ ، ٤٥٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الأظعمة (٥٣٩٨ ، ٥٣٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٨٦/٥) .

أسفلها كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَلَوٍ مَعِينٍ ﴾ أي جار وسائح .
 ﴿ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْخَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۝ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ .
 يقول تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ ﴾ بأمواله أو بشماره على القول الآخر ، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسابان على جنته التي اغتر بها ، وألهته عن الله ﷻ . ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ وقال قتادة : يصفق كفيه متأسفًا متلهفًا على الأموال التي أذهبها عليها ﴿ وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ، ﴿ يَصْخَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۝ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ اختلف القراء هاهنا فمنهم من يقف على قوله : ﴿ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۝ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله فلا منفذ له منه ، ويتبدى بقوله : ﴿ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ ، ومنهم من يقف على : ﴿ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴾ ويتبدى بقوله : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ ، ثم اختلفوا في قراءة ﴿ الْوَلَايَةُ ﴾ ^(١) فمنهم من فتح الواو من الولاية ، فيكون المعنى هناك المولاة لله أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله ، وإلى مولاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكُفْرَانًا يَمَّا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ومنهم من كسر الواو ، من الولاية أي هنالك الحكم لله الحق ، ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ آلَٰهَةً لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله ﷻ ، كقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أي جزاء ، ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي الأعمال التي تكون لله ﷻ ثوابها خير ، وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير .

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَلِمَةً تَزْلَكُنَّ مِنْ أَسْمَاءٍ فَاخْلُطْ فِيهِ نَبَاتٌ الْاَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝ اَلْمَالُ وَالْبَنُوْنَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ .
 يقول تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ ﴾ يا محمد للناس ، ﴿ مَثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ، ﴿ كَلِمَةً تَزْلَكُنَّ مِنْ أَسْمَاءٍ فَاخْلُطْ فِيهِ نَبَاتٌ الْاَرْضِ ﴾ أي ما فيها من الحب ، فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة . ثم بعد هذا كله ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ يابسًا ، ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيْحُ ﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ أي هو قادر على هذه الحال ، وهذه الحال ، وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل ، كما قال تعالى في سورة يونس : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَلِمَةً تَزْلَكُنَّ مِنْ أَسْمَاءٍ فَاخْلُطْ فِيهِ نَبَاتٌ الْاَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾ الآية . وفي الحديث الصحيح : « الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلُوَّةٌ » ^(٢) ، وقوله : ﴿ اَلْمَالُ وَالْبَنُوْنَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنْتَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي الإقبال عليه ، والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم

(١) قرأها ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم بفتح الواو ﴿ الْوَلَايَةُ ﴾ خفصًا . وقرأها حمزة بكسر الواو ﴿ الْوَلَايَةُ ﴾ بكسر القاف أبيضًا وقرأها أبو عمرو بفتح الواو رفع الحق وواقعه الكسائي في رفع القاف لكنه كسر الولاية . زاد المسير (١٤٧/٥) .

(٢) السلسلة الصحيحة للألباني (١٥٩٢) .

بهم ، والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ . قال ابن عباس وغيره : الباقيات الصالحات الصلوات الخمس . وقال : الباقيات الصالحات سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات الصالحات ما هي ؟ فقال : هي لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وروي عن سعيد بن المسيب ، قال : الباقيات الصالحات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ هُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ » ^(١) . وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « اسْتَغْنُوا مِنْ الْبَاقِيَّاتِ الصَّالِحَاتِ » قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « الملة » . قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ ، وَالتَّسْبِيحُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » ^(٢) .

وفي الحديث : « أَمَّا إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أَمْرَاءُ يَكْذِبُونَ وَيُظْلِمُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَمَالَأَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَلَمْ يَمَالَأَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ . أَلَا وَإِنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ هُنَّ الْبَاقِيَّاتُ الصَّالِحَاتُ » ^(٣) .

وقال ابن عباس في قوله : ﴿ وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ ﴾ هي ذكر الله ، قول : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وتبارك الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله ، والصيام والصلاة والحج والصدقة ، والعق والجهاد ، والصلة وجميع أعمال الحسنات ، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها ، واختاره ابن جرير رحمه الله .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ١٠ وعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ١١ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُتَجَرِّبِينَ مُشْفِقِينَ مِنْهَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ١٢ .

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ ١٠ وَتُسَيِّرُ الْجِبَالَ سَيْرًا ١١ أي تذهب من أماكنها ، وتزول كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَازِمَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّعَابِ ﴾ ١٢ ، وقال : ﴿ وَتَسْتَلُوكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ١٣ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ١٤ لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلًا وَلَا أَمْتًا ﴾ يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض قاعًا صفصفاً ، أي سطحا مستويا لا عوج فيه ، ولا أمتا أي لا وادي ولا جبل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ، ولا مكان يوراي أحداً ، بل الخلق

(١) أخرجه مسلم في (الذكر والدعاء) (٣٢) وأحمد في مسنده (٣٥٦/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) والحاكم في المستدرک (٥١٣/١) والهيثم في مجمع الزوائد (٨٧/١٠) .

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٢/٧) .

كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية . قال مجاهد وقتادة : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ لا حجر فيها ولا غيبة . قال قتادة : لا بناء ولا شجر . وقوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين ، فلم نترك منهم أحدًا لا صغيرًا ولا كبيرًا . كما قال : ﴿ قَدْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾ لَمَجْمُوعُونَ لَكَ بِيَوْمِ تَمُوتُ ﴿ . وقوله : ﴿ وَغَرَضُوا عَلَى رَيْكَ صَفًا ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جمع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًا لَا يَبْقَاؤْنَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ فَقَالَ صَوَابًا ﴾ ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً . كما قال : ﴿ وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا ﴾ وقوله : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هذا تفرغ للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا كائن .

وقوله : ﴿ وَرُضِعَ الْكَاتِبُ ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير ، والفيتل والقطمير ، والصغير والكبير . ﴿ فَتَرَى الْمُتَجَرِّمِينَ مُشْقِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أي من أعمالهم السيئة ، وأفعالهم القبيحة ، ﴿ وَيَقُولُونَ بَوَيْلَنَّا ﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا . ﴿ مَا لَ هَذَا أَلْكَتَبَ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ، ولا عملاً وإن صغر ﴿ إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ أي ضبطها وحفظها . وروي عن سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين ، نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء . فقال النبي ﷺ : « اجْمَعُوا مَنْ وَجَدَ عُودًا فَلْيَأْتِ بِهِ ، وَمَنْ وَجَدَ حَطْبًا أَوْ شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِهِ » قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاباً ، فقال النبي ﷺ : « أترون هذا ؟ فكدلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جَمَعْتُمْ هَذَا ، فَلْيَأْتِ اللَّهَ رَجُلٌ وَلَا يُذْنِبْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ، فَإِنَّهَا مُخْصَاةٌ عَلَيْهِ » ^(١) . وقوله : ﴿ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ أي من خير وشر . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْلَى السَّائِرَةُ ﴾ أي تظهر الخبائث والضمائر . فقد روي عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعْرَفُ بِهِ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَظِلُّ رُبُّكَ أَحَدًا ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ، ولا يظلم أحدًا من خلقه بل يعفو ويصفح ، ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بقدرته ، وحكمته وعدله ، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصي ، ثم ينجي أصحاب المعاصي ، ويخلد فيها الكافرين ، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا ﴾ الآية . عن جابر بن عبد الله قال : بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ فاشترت بعيراً ، ثم شددت عليه رخلًا فسرت عليه شهراً ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله ابن أنيس ، فقلت للبواب : قل له : جابر على الباب ، فقال : ابن عبد الله ، قلت : نعم فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص ، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَحْشُرُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٩٠) والطبراني في الكبير (٦٤/٦) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٢٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري في (الجزية والمواذعة) (٣١٨٦ ، ٣١٨٧) ومسلم في (الجهاد) (١١ ، ١٢) وأحمد في مسنده (١/٤١١) .

أَوْ قَالَ الْعِبَاد - غُرَّةً غُرْلًا بِهِمَا . قلت : وما بهما ؟ قال : « لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ يُصْرَبُ يَسْمَعُهُ مِنْ بَعْدَ ، كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرِيبَ : أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقْضِيَهُ مِنْهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ حَقٌّ حَتَّى أَقْضِيَهُ مِنْهُ ، حَتَّى اللَّطْفَةُ » قَالَ : قُلْنَا كَيْفَ وَهَذَا تَأْتِي اللَّهُ بِكَ حِفَاةَ عِرَاةٍ غُرْلًا بِهِمَا ؟ قَالَ : « بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ » (١) .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا . ﴾

يقول تعالى منها بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأيهم من قبلهم ، ومقرعاً لمن اتبعه منهم ، وخالف خالقه ومولاه ، وهو الذي أنشأه وابتدأه ، وبألطافه رزقه وغذاه ، ثم بعد هذا كله والى إبليس ، وعادى الله ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ أي لجميع الملائكة كما تقدم تقديره في أول سورة البقرة ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُوجٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ أي خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور . فقد روي عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ طِينٍ مُصَوَّبٍ لَكُمْ » (٢) . ونبه تعالى هاهنا على أنه من الجن - أي على أنه خلق من نار - كما قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ . قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ أي من خزان الجنان ، كما يقال للرجل مكى ومدني وبصري وكوفي . وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها .

ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بين أيدينا ، وفي القرآن غنية عن كل ما عدها من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين ينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروه ، وبيّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الرضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس منه ، فرضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقوله : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ أي فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج ، يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكامها ، وفسقت الفأرة من جحرها إذا خرجت منه للعبث والفساد . ثم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٢/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في (الزهد) (٦٠) وأحمد في مسنده (١٥٣/٦ ، ١٦٨) .

قال تعالى مفرغاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه : ﴿ أَفَسَخِّدُونَهُ وَذَرَيْتَهُ أَزَلِكًا مِنْ دُونِ ﴾ الآية . أي بدلاً عني ، ولهذا قال : ﴿ يَنْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ . وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة ، وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس ﴿ وَامْتَنَزُوا أَيَّامَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَقَلَّمْ تَكُونُوا تَقُولُونَ ﴾ .

﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ .

يقول تعالى : هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبید أمثالكم لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض ، ولا كانوا إذ ذاك موجودين ، يقول تعالى : أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومديرها ومقدرها ، وحدي ليس معي في ذلك شريك ، ولا وزير ولا مشير ولا نظير كما قال : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ ولا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴿ الآية ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ قال مالك : أعواناً .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ وَرَدَّ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريباً لهم وتوبيخاً : ﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي في دار الدنيا ، ادعوه اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُنْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ كما قال : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمَ تُدْرَبُ إِلَهُةُ إِلَهُةً يَكُونُوا لَكُمْ عِرًا ﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبَادِيَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ قال ابن عباس : مهلكاً . وقال قتادة : وادياً في جهنم .

وقال أنس بن مالك : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ واد في جهنم من قيح ودم . وقال الحسن البصري : موبقاً عداوة ، والظاهر من السياق هاهنا أنه المهلك ، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره . والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا ، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير . وأما إن جعل الضمير في قوله : ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ عائداً إلى المؤمنين والكافرين ، كما قال عبد الله بن عمرو : إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به . فهو كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِزُ الْمُفَرِّقُونَ ﴾ وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَرَدَّ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك . فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز . وقوله : ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ، ولا بد لهم منها . فعن أبي سعيد عن

رسول الله أنه قال : « إِنَّ الْكَافِرَ لَيَرَىٰ جَهَنَّمَ فَيُطْلَقُ أَنَّهَا مُوَاقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ » ^(١) .
 ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا ﴾ .

يقول تعالى : ولقد بينا للناس في هذا القرآن ، ووضحنا الأمور وفصلناها كي لا يضلوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة ، والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . فعن حسين بن علي أن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله ﷺ طرقة وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال : « ألا تصليان ؟ » فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلي شيئا ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذة ويقول : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا ﴾ ^(٢) .
 ﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ ^(٣) وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَنِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه ، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عيانا ، كما قال أولئك لنبيهم : ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وقالت قريش : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتِنَا بِعَذَابٍ آخِرٍ ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك ، ثم قال : ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ أي يرويه عيانا مواجهة ومقابلة ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أي قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم ، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم ، ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿ لِيُدْحِضُوا بِهِ ﴾ أي ليضعفوا به ﴿ الْحَقَّ ﴾ الذي جاءتهم به الرسل ، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُلًا ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين ، وخوارق العادات التي بعث بها الرسل ، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿ هُزُلًا ﴾ أي سخروا منهم في ذلك ، وهو أشد التأكيد .
 ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ ^(٤) وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْعَدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ﴾ ^(٥) وَبَلَّغَ الْاَقْرَبُ أَهْلَكْتَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ .

يقول تعالى وأي عباد الله أظلم : ﴿ وَمَنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي تناساها وأعرض عنها ، ولم يصغ لها ولا ألقى إليها بالآ . ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ ﴾ أي من الأعمال السيئة ، والأفعال القبيحة ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي أغطيناهم هؤلاء ﴿ أَكِنَّةً ﴾ أي أغطيناهم هؤلاء . ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أي لئلا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٣٠/١٥) (١٧٤٥٠) .

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٢٤) ومسلم في (صلاة المسافرين) (٢٠٦) .

يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿ وَفِي آيَاتِهِمْ وَفَرًّا ﴾ أي صمما معنويا عن الرشاد : ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة . ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ لَغَلَّ لَكُمْ الْعَذَابُ ﴾ . كما قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِكُمْ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ . ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر ، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد ، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد ، وتضع كل ذات حمل حملها . ولهذا قال : ﴿ بَلْ لَّهْم مَوْعِدٌ أَنْ يَحْذَرُوا مِنْ دُونِهِ مَوِيلًا ﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل . وقوله : ﴿ وَتِلْكَ الْأَفْرُوسُ أَفْلَكْتُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكتهم بسبب كفرهم وعنادهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا لِنَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص ، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتهم أشرف رسول وأعظم نبي ، ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْنَهُ لَا أُنَبِّئُكَ حَقَّ أَتْلَعُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِي حُقُبًا ﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْنَهُ إِنَّا عَدَوْنَا لِقَتْنًا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَسِيَا ﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِيئُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرْ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِزِّنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

سبب قول موسى لفتاه - وهو يوشع بن نون - هذا الكلام ، أنه ذكر له أن عبدا من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى ، فأحب الرحيل إليه ، وقال لفتاه ذلك : ﴿ لَا أُنَبِّئُكَ ﴾ أي لا أزال سائرا ﴿ حَقَّ أَتْلَعُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين . قال قتادة وغير واحد : هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب ، وقال محمد ابن كعب القرظي : مجمع البحرين عند طنجة يعني في أقصى بلاد المغرب فالله أعلم . وقوله : ﴿ أَوْ أَمْضِي حُقُبًا ﴾ أي ولو أنني أسير حقبًا من الزمان . عن عبد الله بن عمرو أنه قال : الحقب ثمانون سنة . وقال مجاهد : سبعون خريقًا . وقال ابن عباس : دهرًا ^(١) . وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه ، وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثمة . فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وكان في مكمل مع يوشع عليه السلام ، وطرر من المكمل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع عليه السلام ، وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء ، والماء له مثل الطاق لا يلتصق بعده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أي مثل السرب في الأرض ، قال ابن عباس : صار أثره كأنه حجر . وقال قتادة : سرب من البحر حتى أفضى إلى البحر ، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقًا إلا صار ماء جامدًا .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه ، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه . كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ . وإنما يخرج من المالح على أحد القولين ، فلما ذهب عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿ قَالَ ﴾ موسى لفتاه : ﴿ إِنَّا عَدَوْنَا لِقَتْنًا لِقَتْنًا ﴾

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٣٧/١٥) .

مِنْ سَفَرِنَا هَذَا ﴿٦٠﴾ أَيُّ الَّذِي جَاوَزَا فِيهِ الْمَكَانَ ﴿٦١﴾ نَصَبًا ﴿٦٢﴾ يَعْنِي تَعْبًا ، ﴿٦٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِئْتُ الْخَوْتُ وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا أَلَمْنُنْ أَنْ أَذْكُرْ ﴿٦٤﴾ قَالَ قَتَادَةُ : وَقَرَأَ ابْنُ مَيْسُودٍ : (وَمَا أُنْسَانِيهِ أَنْ أَذْكُرْهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ) وَلِهَذَا قَالَ : ﴿٦٥﴾ وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ ﴿٦٦﴾ أَيُّ طَرِيقِهِ ، ﴿٦٧﴾ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٨﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ﴿٦٩﴾ أَيُّ هَذَا هُوَ الَّذِي نَطْلُبُ ﴿٧٠﴾ فَأَرَادَنَا ﴿٧١﴾ أَيُّ رَجْعًا . ﴿٧٢﴾ عَلَيْنَا إِثْرُهُمَا ﴿٧٣﴾ أَيُّ طَرِيقَهُمَا ﴿٧٤﴾ فَصَصَا ﴿٧٥﴾ أَيُّ يَقْصَانِ أَثَارَ مَشْيِهِمَا وَيَقْفُونَ أَثْرَهُمَا ﴿٧٦﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَالِيَهُ رَحِمَهُ بَيْنَ عَيْنَيْنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٧٧﴾ . وَهَذَا هُوَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْإِحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

عن أبي بن كعب عليه السلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنْ مُوسَى قَامَ خَطِيئًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَشَيْئَلُ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ قَالَ : أَنَا ، فَعَتِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ إِذْ لَمْ يَزِدْ الْعِلْمَ إِلَيْهِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ لِي عَبْدًا يَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ ، قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ قَالَ : تَأْخُذْ مَعَكَ حَوْثًا فَتَجْعَلْهُ يَمْكِلُ فَيَحْبِسُ فَقَدْتِ الْحَوْتَ فَهُوَ ثُمَّ . فَأَخْذَ حَوْثًا فَجَعَلَهُ يَمْكِلُ ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَتَامَا ، وَاضْطَرَبَ الْحَوْتُ فِي الْمِكْمَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ، وَأَفْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحَوْتَ جَزِيَةَ الْمَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحَوْتَ فَاِنْطَلَقَا بِقِيَّةِ يَوْمِهِمَا وَلِيْلَتِهِمَا ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْعَدِيدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ : ﴿٧٨﴾ ءَايِنَا عَدَاةً لَقَدْ لَبِثْنَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٧٩﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النُّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ ، قَالَ لَهُ فَتَاهُ : ﴿٨٠﴾ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَبِئْتُ الْخَوْتُ وَمَا أَسْنِيهِ إِلَّا أَلَمْنُنْ أَنْ أَذْكُرْ وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٨١﴾ ، قَالَ : فَكَانَ لِلْخَوْتُ سَرَبًا ، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا ، فَقَالَ : ﴿٨٢﴾ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرَادَنَا عَلَيْنَا إِثْرُهُمَا فَصَصَا ﴿٨٣﴾ قَالَ : فَارْجِعَا يَقْصَانِ أَثْرَهُمَا حَتَّى انْتَهِيَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجَّى بِثَوْبٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى فَقَالَ الْخَضِرُ : وَأَنْتَ بِأَرْضِكَ السَّلَامُ ، فَقَالَ : أَنَا مُوسَى ، فَقَالَ : مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي بِمَا عَلَّمْتُ رُشْدًا ﴿٨٤﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٥﴾ يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمْنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ ، فَقَالَ مُوسَى : ﴿٨٦﴾ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَسِيرًا وَلَا أَعْبَى لَكَ أَمْرًا ﴿٨٧﴾ قَالَ لَهُ الْخَضِرُ : ﴿٨٨﴾ فَإِنْ أَتَبَعَنِي فَلَا تَتَّبَعْنِي عَنْ فِتْنَةٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٩﴾ . فَاِنْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَفَزِعَتْ سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ ، فَفَرَّقُوا الْخَضِرَ فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوَلٍ ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ لَمْ يُفْجَأَا إِلَّا وَالْخَضِرُ قَدْ قَلَعَ لَوْحًا مِنَ الْأَوَاحِ السَّفِينَةِ بِالْقُدُومِ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوَلٍ ، فَعَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . ﴿٩٠﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَبِئْتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِ عَصَا ﴿٩٢﴾ قَالَ : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِشْيَانًا ، قَالَ : وَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى خَرَفِ السَّفِينَةِ ، فَفَرَّقَ فِي الْبَحْرِ نَفَرَةً أَوْ نَفَرَتَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ : مَا عَلِمَنِي فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ . ثُمَّ خَرَجَا مِنَ السَّفِينَةِ فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ ، إِذْ أَبْصَرَ الْخَضِرُ غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَامَانِ ، فَأَخْذَ الْخَضِرُ رَأْسَهُ فَأَقْلَعَهُ بِيَدِهِ ، فَقَتَلَهُ ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿٩٣﴾ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٩٤﴾

قَالَ أَتَرَأَى لَكَ إِنَّا لَنَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٦﴾ قَالَ : وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٦٨﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنْيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴿٦٩﴾ ، أَي مَائِلًا ، فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ : ﴿٧٠﴾ فَأَقَامَهُمُ . فَقَالَ مُوسَى : قَوْمٌ آتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يَطْعَمُوا ، وَلَمْ يُصَيِّفُونَا ﴿٧١﴾ لَوْ شِئْتَ لَتَنَزَّلْتَ عَلَيْهِمْ أَجْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٣﴾ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَدِدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبِيرًا حَتَّى يَقْصُصَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا » (١) .

قال سعيد بن جبير : كان ابن عباس يقرأ (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا) وكان يقرأ : (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين) .

وعن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الغزاري في صاحب موسى ، فقال ابن عباس : هو خضر ، فمر بهما أي بن كعب ، فدعاه ابن عباس فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سئل السبيل إلى لقيه ، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَتَيْنَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : تَعْلَمُ مَكَانَ رَجُلٍ أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ قَالَ : لَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى : بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَى لقيه ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحَوْتَ آيَةً ، وَقِيلَ لَهُ : إِذَا فَقَدْتَ الْحَوْتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، فَكَانَ مُوسَى يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحَوْتَ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْثَقْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ، فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ . قَالَ مُوسَى : ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٧٥﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ خَضِرٍ فَكَانَ مِنْ شَأْنَيْهِمَا مَا قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ » (٢) .

﴿٧٦﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ وَكَيفَ نَصِيرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٧٩﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٨٠﴾ قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْتَأْذِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨١﴾ .

يخبر تعالى عن قول موسى عليه السلام ﷺ لذلك الرجل العالم - وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى ، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر : ﴿٨٢﴾ هَلْ أَتَيْكَ ؟ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم . وقوله : ﴿٨٣﴾ أَتَيْتَكَ ؟ أي أصحبك وأرافقك ، ﴿٨٤﴾ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ؟ أي مما علمك الله شيئا أسترشد به في أمري من علم نافع ، وعمل صالح . فعندها قال الخضر لموسى : ﴿٨٥﴾ إِنَّكَ لَنَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٦﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتي ، لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك ؛ لأنني على علم من علم الله ما علمك الله ، وأنت على علم من علم الله ما علمني الله . فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿٨٧﴾ وَكَيفَ نَصِيرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٨٨﴾ فإنا أعرف أنك ستنكر علي ما أنت معذور فيه ، ولكن ما اطلعت على حكمته ، ومصالحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك . ﴿٨٩﴾ قَالَ : أي موسى ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴿٩١﴾ أي على ما أرى من أمورك

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٢٥٠) ومسلم في الفضائل (٧٠) وأحمد في مسنده (١١٨/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٧٨) وأحمد في مسنده (١١٦/٥) .

﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أي ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَأْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أي ابتداء ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي حتى أبداك أنا به قبل أن تسألني .

عن ابن عباس ، قال : سأل موسى عليه السلام ربه ﷻ فقال : أي رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ، ولا ينساني . قال : فأأي عبادك أقضى ؟ قال : الذي يقضي بالحق ، ولا يتبع الهوى . قال : أي رب أي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يتغني علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال : أي رب ، هل في أرضك أحد أعلم مني ؟ قال : نعم . قال : فمن هو ؟ قال : الخضر . قال : وأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت . قال : فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله ، وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلم كل واحد منهما على صاحبه . فقال له موسى : إني أحب أن أصحبك . قال : إنك لن تطيق صحبتي قال : بلى قال : فإن صحبتني ﴿فَلَا تَسْتَأْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال : فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه . قال : وبعث الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره . فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء ؟ قال : ما أقل ما رزأ ؟ قال : يا موسى فإن علمي وعلمك في علم الله ، كقدر ما استقي هذا الخطاف من هذا الماء ، وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه ، أو تكلم به فمن ثم أمر أن يأتي الخضر ، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة ، وقتل الغلام وإصلاح الجدار ، وتفسيره له ذلك ^(١) .

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿قَالَ لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسَىٰ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر ، أنهما لما توافقا واصطحبا ، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يتدثه من تلقاء نفسه بشرحه ويأنه . فركبا في السفينة ، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول . يعني بغير أجرة تكرمة للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ، ولججت أي دخلت اللجة ، قام الخضر فخرقها ، واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها . فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكرًا عليه : ﴿أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهذه اللام العاقبة لا لام التعليل .

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قال مجاهد : منكرًا . وقال قتادة : عجبًا ، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط : ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعني وهذا الصنيع فعلته قصداً ، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر علي فيها ، لأنك لم تحط بها خبراً ، ولها دخل هو مصلحة ، ولم تعلمه أنت . ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسَىٰ﴾ أي لا تضيق علي ، ولا تشدد علي . ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : «كَانَتِ الْأَوَّلَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا» ^(٢) .

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْبِحْ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٤٣/١٥) . (٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٢٥) ومسلم في الفضائل (١٧٠) .

يقول تعالى : ﴿ فَأَنْطَلَقًا ﴾ أي بعد ذلك ، ﴿ حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ . وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى ، وأنه عمد إليه من بينهم ، وكان أحسنهم وأجملهم ، وأضوأهم قتلته . وروي أنه قد احتر رأسه ، وقيل : رضخه بحجر ، وفي رواية : اقتلعه بيده والله أعلم . فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول ، وبادر فقال : ﴿ أَفَتَكْتَنَسَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أي صغيرة لم تعمل الحنث ، ولا عملت إثماً بعد قتلته ﴿ يَغْيِرُ نَفْسٍ ﴾ أي بغير مستند لقتله ، ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ أي ظاهر النكارة ، ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فأكد أيضًا في التذكار بالشرط الأول . فلماذا قال موسى : ﴿ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أي أن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ، ﴿ فَلَا تُصِحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ أي قد أعذرت إلي مرة بعد مرة . قال أبي بن كعب : كان النبي ﷺ إذا ذكر أحدًا فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم : « رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا ، وَعَلَى مُوسَى ، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ الْعَجَبَ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ : إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » مثقلة ^(١) .

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُمَا قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَنَحَدَّتْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنِيكَ بِتَأْوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .

يقول تعالى مخبرًا عنهما إنيهما : ﴿ فَأَنْطَلَقَا ﴾ بعد المرتين الأولين ، ﴿ حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وروي عن ابن سيرين ، أنها الأبله . وفي الحديث : « حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ لِقَامًا » ^(٢) أي بخلاء ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾ إسناد الإرادة هاهنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة ، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل ، والانقضاء هو السقوط ، وقوله : ﴿ فَأَقَامَهُمَا ﴾ أي فرده إلى حالة الاستقامة ، وقد تقدم في الحديث أنه رده يديه ، ودعاه حتى رد ميله ، وهذا خارق . فعند ذلك قال موسى له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَنَحَدَّتْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيفونا ، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجانًا ، ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها ، فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك ، ﴿ سَأْنِيكَ بِتَأْوِيلٍ ﴾ أي بتفسير ، ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ .

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنه فقال : إن السفينة إما خرقتها لأعيبها ، لأنهم كانوا يملكون بها على ملك من الظلمة ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صالحة أي جيدة ، ﴿ غَصْبًا ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعبها ، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء يتفنعون به غيرها ، وقد قيل : إنهم أيتام .

﴿ وَأَمَّا الْكُلَّةُ فَكَانَ آبَاؤُهُمْ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يَرِثَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا .

عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « الْغُلَامُ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا » ^(٣)

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٥٦/١٥) وقد روى مسلم نحوه في (الفضائل) (١٧٢) والحاكم في المستدرک (٥٧٤/٢) وأبو داود في سننه (٣٩٨٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢١/٥) .

ولهذا قال : ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أي يحملهما حيه على متابعتة على الكفر ، قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمنين فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب . وصح في الحديث : « لَا يَقْضِي الْمُؤْمِنُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ » ^(١) وقال تعالى : ﴿ وَنَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ أي ولدا أركى من هذا ، وهما أرحم به منه ، وقال قتادة : أبر بوالديه ، وقد تقدم أنهما بدلا جارية . وقيل : لما قتله الخضر كانت أمه حاملا بغلام مسلم ، قاله ابن جريج .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تُلْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة ؛ لأنه قال أولا : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وقال هاهنا : ﴿ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ يعني مكة والطائف ، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته ؛ لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما . قال عكرمة : كان تحته مال مدفون لهما ، وهو ظاهر السياق من الآية ، وهو اختيار ابن جرير رحمته الله . وقال ابن عباس : كان تحته كنز علم ، وقال الحسن البصري : لوح من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يعرف الدنيا ، وتقلبها بأهلها كيف يطعنن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر منهما صلاح ، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء ، وكان ناسجا ، وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة وورد به الحديث المتقدم ، وإن صح لا ينافي قول عكرمة إنه كان مالا ؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحا من ذهب وفيه مال جزيل ، أكثر ما زادوا أنه كان مودعا فيه علم ، وهو حكم ومواعظ والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ، ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم . كما جاء في القرآن ووردت به السنة . قال ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما ، ولم يذكر لهم صلاحا . وتقدم أنه كان الأب السابغ فالله أعلم . وقوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله . وقال في الغلام : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ ﴾ . وقال في السفينة : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَبِيبَهَا ﴾ فالله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدي الغلام ، وولدي الرجل الصالح ، وما فعلته عن أمري ، أي لكنني أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِزِّنَا وَعِلْمَنَّهٖ مِمَّن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ وقال آخرون : كان

رسولاً . وقيل : بل كان ملكاً ، وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً ، بل كان ولياً فالله أعلم . وحكي في كونه باقياً إلى الآن ، ثم إلى يوم القيامة قولان ، ومال ابن الصلاح والنووي إلى بقائه ، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مَن قَبْلِكَ الْخَلْدَ ﴾ ويقول النبي ﷺ يوم بدر : « اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَا تُعْبِدَ فِي الْأَرْضِ » ^(١) وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ، ولا قاتل معه ، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه ؛ لأنه ﷺ كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين الجن والإنس . وقد قال : « لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَيْنِ لَمَا وَسِعَهُمَا إِلَّا أَتْبَاعِي » ^(٢) . وأخبر قبل موته بقليل ، أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف إلى غير ذلك من الدلائل . وروي عنه ﷺ أنه قال : « إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِهِ خَضِرَاءُ » ^(٣) والمراد بالفروة هنا الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات : وقيل المراد بذلك وجه الأرض .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً ، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه ، وأزال المشكل قال : ﴿ تَسْطِعْ ﴾ ، وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً فقال : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ، فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف . كما قال : ﴿ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ، ﴿ وَمَا اسْتَطَعْنَا لَمْ نَقْبًا ﴾ وهو أشق من ذلك فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى والله أعلم . فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ، ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر ، وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع . وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح ، وغيرها أنه يوشع بن نون ، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى ﷺ .

﴿ وَنَسْنُوكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً . يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَنَسْنُوكَ ﴾ يا محمد ، ﴿ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ أي عن خبره . وقد قدما أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية ما يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف .

وقال وهب بن منبه : كان ملكاً وإنما سمي ذا القرنين ؛ لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس . قال : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك الروم وفارس . وقال بعضهم : كان في رأسه شبه القرنين . وقال علي ؑ : كان عبداً ناصحاً لله فناصره ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فسمي ذا القرنين . ويقال : إنما سمي ذا القرنين ؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب .

وقوله : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من

(١) أخرجه مسلم في (الجهاد) (٥٨) وأحمد في مسنده (٣٠/١ ، ٣٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٨/١) .

(٣) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء) (٣٤٠٢) والترمذي في سننه (٣١٥١) .

التمكين والجنود ، وآلات الحرب والحصارات ؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك البلاد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم ، وقوله : ﴿ وَآيَاتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا ﴾ قال ابن عباس : يعني علماً ، وقال قتادة : منازل الأرض وأعلامها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : تعليم الألسنة . قال : كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم .

وعن حبيب بن حماد قال : كنت عند علي عليه السلام ، وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال : سبحانه الله سخر له السحاب ، وقدر له الأسباب ، وبسط له اليد .

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ٨٥ ﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقَرَّ الْمَشْرِقِ وَجَدَهَا تَقَرُّبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِمَّا أَنْ نَتَلَوَّ بِأَنَّا نَحْنُ فِيهِمْ حَسْبًا ٨٦ ﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ٨٧ ﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ٨٨ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ يعني بالسبب المنزل . وقال مجاهد : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ، منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب . وفي رواية عن مجاهد : طرفي الأرض . وقال قتادة : أي أتبع منازل الأرض ومعالمها . وقال الضحاک : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي المنازل . وقال سعيد بن جبیر في قوله : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ قال : علماً ، وقال مطر : معالم وآثار كانت قبل ذلك .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقَرَّ الْمَشْرِقِ ﴾ أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض . وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء ، فمتعذر وما يذكره أصحاب القصص ، والأخبار من أنه سار في الأرض مدة ، والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له . وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب ، واختلاف زنادقتهم ، وكذبهم وقوله : ﴿ وَجَدَهَا تَقَرُّبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي رأى الشمس في منظره ، تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مشبته فيه لا تفارقه . والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة ، وهو الطين . كما قال تعالى : ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ أي طين أملس ، وقال ابن جرير : كان ابن عباس يقول : في عين حمئة ثم فسرهما ذات حمأة . قال نافع : وسئل عنها كعب الأحبار فقال : أنتم أعلم بالقرآن مني ، ولكنني أجدتها في الكتاب تغيب في طينة سوداء .

وعن أبي بن كعب ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرأه حمئة ، وقال ابن عباس : وجدها تغرب في عين حامية . يعني حارة . وقال ابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان ، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب . قلت : ولا منافاة بين معنيهما ؛ إذ قد تكون حارة لجواررتها وهج الشمس عند غروبها ، وملاقاتها الشعاع بلا حائل ، وحمئة في ماء وطن أسود .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أي أمة من الأمم ، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم ، وقوله : ﴿ قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِمَّا أَنْ نَتَلَوَّ بِأَنَّا نَحْنُ فِيهِمْ حَسْبًا ﴾ معنى هذا ، أن الله تعالى مكنه منهم وحكمه فيهم ، وأظفره بهم ، وخيره إن شاء قتل وسبي ، وإن شاء من أو فدى ، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه ، في قوله : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه . ﴿ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ﴾

قال قتادة : بالقتل . وقال السدي : كان يحمي لهم بقر النحاس ، ويضعهم فيها حتى يذوبوا ، وقال وهب بن منبه : كان يسلط الظلمة فتدخل بيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم . وقوله : ﴿ ثُمَّ يَرْدُّ إِيَّكَ رَبِّيْهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴾ أي شديداً بليغاً ، وجيئاً أليماً . وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ أي تابعتنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أي في الدار الآخرة عند الله ﷻ ﴿ وَسَقَوْنَاهُ مِنْ دُونِهَا سِكْرًا ﴾ قال مجاهد : معروفاً . ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ حَقٌّ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِكْرًا ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ .

يقول تعالى ، ثم سلك طريقاً فصار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مر بأمة قهرهم ، وغلبهم ودعاهم إلى الله ﷻ ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آتافهم ، واستباح أموالهم وأمتعتهم ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم . وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوز الأرض طولها والعرض ، حتى بلغ المشارق والمغارب ، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ ﴾ أي أمة ، ﴿ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِكْرًا ﴾ أي ليس لهم بناء يكتنهم ولا أشجار تظلمهم ، وتستريحهم من حر الشمس . قال سعيد بن جببر : كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك .

وقال الحسن - وسئل عن قول الله تعالى : ﴿ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِكْرًا ﴾ - : إن أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغروروا في المياه ، فإذا غربت خرجوا يترعون كما ترعى البهائم . قال الحسن : هذا حديث سمرة . وقال قتادة : ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً ، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعاشهم .

وقيل : لم ينوا فيها بناء قط ، ولم ين عليهم فيها بناء قط . كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس أو دخلوا البحر . وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل . جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها : لا تطلعن عليكم الشمس ، وأنتم بها . قالوا : لا نبرح حتى تطلع الشمس ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس هاهنا فماتوا . قال : فذهبوا هارين في الأرض ، وقوله : ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ قال مجاهد والسدي : علماً أي نحن مطلعون على جميع أحواله ، وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض فإنه تعالى : ﴿ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ حَقٌّ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُتَيْدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْبًا عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ سَدًا ﴾ قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلُوا نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ، ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة ، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد

الترك ، فيعيشون فيها فسادًا ، ويهلكون الحرث والنسل . ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام ، كما ثبت في الصحيحين : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا آدَمُ قِيْلُ : لِيِكَ وَسَعْدِيكَ ، قِيْلُ : ابْعَثْ بَعَثَ النَّارِ . قِيْلُ : وَمَا بَعَثَ النَّارِ ، قِيْلُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَحَيْثُ يَنْشِئُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ، فَقَالَ : إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثُرَتْهُمَا يُأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » ^(١)

قال بعض العلماء : هؤلاء من نسل يافث أبي الترك ، وقال : إنما سمي هؤلاء تركًا ؛ لأنهم تركوا ما وراء السد من هذه الجهة ، ولا فهم أقرباء أولئك ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة .

وقوله : ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أي لاستعجاب كلامهم ، وبعدهم عن الناس ﴿ قَالُوا يَنْذِرُ الْفَرِيقَ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُنْذِرُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يُجْعَلُ لَكَ خَرْبًا ﴾ . قال ابن عباس : أجرًا عظيمًا ، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه ، حتى يجعل بينه وبينهم سدًا ، فقال ذو القرنين بغية وديانة وصلاح وقصد للخير : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه . كما قال سليمان عليه السلام : ﴿ أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا مَاتَنِيَّ اللَّهُ خَيْرٌ مِنَّمَا مَاتَنِيكُمْ ﴾ الآية . وهكذا قال ذو القرنين : الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه ، ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وآلات البناء ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ مَأْوِي زَبَرٌ لَلْعِيدِ ﴿ والزبر : جمع زبرة وهي القطعة منه . قاله ابن عباس : وهي كاللينة ، يقال : كل لبنة زنة قطار بالدمشقي ، أو تزيد عليه ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَتْ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ ، أي وضع بعضه على بعض من الأساس ، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولًا وعرضًا ، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال . ﴿ قَالَ أَنْفُخُوا ﴾ أي أجمع عليه النار ، حتى صار كله نازًا . ﴿ قَالَ مَأْوِي أَنْفُخْ عَلَيْهِ قَطْرًا ﴾ قال ابن عباس : هو النحاس زاد بعضهم المذاب ، ويستشهد بقوله تعالى : ﴿ وَأَسْلَمْنَا لَمْ عَيْنَ الْقَطْرِ ﴾ ولهذا يشبه بالبرد المحبر . وعن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً قال : يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال : « انعثن لي » قال : كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء . قال : « قد رأيته » ^(٢) . وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه ، وجهاز معه جيشًا (سرية) لينظروا إلى السد ، ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا ، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ، ومن ملك إلى ملك ، حتى وصلوا إليه ورأوا بناءه من الحديد ، ومن النحاس . وذكروا أنهم رأوا فيه بابًا عظيمًا ، وعليه أقفال عظيمة ، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك ، وأن عنده حرسًا من الملوك المتاخمة له ، وأنه عال منيف شاق ، لا يستطيع ولا ما حوله من الجبال . ثم رجعوا إلى بلادهم ، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين ، وشاهدوا أهوالًا وعجائب . ثم قال الله تعالى :

﴿ فَمَا اسْطَلَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُمْ نَفْبًا ﴾ ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ ﴿ وَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْقٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَاهُمْ جَمًّا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن يأجوج ومأجوج : إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ، ولا

(١) أخرجه البخاري بنحوه في (الأنبياء) (٣٣٤٨) ومسلم في (الإيمان) (٣٧٩) ، (الفتن) (١١٦) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣١/١٦) .

قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال : ﴿ فَتَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ، ولا على شيء منه . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ لَيَخْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا فَاسْتَخْفِرُونَهُ غَدًا ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدَّ مَا كَانَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مِدَّتُهُمْ ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَعَثَّهُمْ عَلَى النَّاسِ ، حَفَرُوا ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا فَاسْتَخْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَيَسْتَبْشِرُونِي ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ ، فَيَخْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ ، فَيَنْشَقُّونَ الْمِيَاهَ وَيَخْطِصُّنَ النَّاسَ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ ، فَيَزِمُونَ بِسَهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتَرْجَعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ : قَهَرْنَا الْأَرْضَ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ ، فَيَنْتَعِثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَفْعًا فِي رِقَابِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا . قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنْ ذَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمُنَّ ، وَتَشْكُرُ شُكْرًا مِنْ لَحْمِهِمْ وَدِمَائِهِمْ » ^(١) .

قال الترمذي : إسناده جيد قوي ، ولكن متن في رفعه نكارة ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه ، ومن نكارة هذا المرفوع حديث الإمام أحمد : عن زينب بنت جحش ، زوج النبي ﷺ قالت : استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه ، وهو يقول : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيَلُ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فَتُخَالِجُ الْيَوْمَ مِنْ رَذَمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذَا » ، وحلقت . قلت : يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » ^(٢) .

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ، ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق ، ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أي ساواه بالأرض . تقول العرب : ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستويًا لا سنام لها . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أي مساويًا للأرض . وقال عكرمة في قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ ، قال : طريقًا كما كان ، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أي كائنًا لا محالة . وقوله : ﴿ وَزَكَّائِنَا بِمَضْمُونِهِمْ ﴾ أي الناس ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم يدك هذا السد ، ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ، ويفسدون على الناس أموالهم ، ويتلفون أشياءهم . وقال السدي : في قوله : ﴿ وَزَكَّائِنَا بِمَضْمُونِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ : ذاك حين يخرجون على الناس ، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَزَكَّائِنَا بِمَضْمُونِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال : هذا أول يوم القيامة . ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ على أثر ذلك ﴿ لَتَهْبَتُنَّهُمْ جَمًّا ﴾ . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ وَزَكَّائِنَا بِمَضْمُونِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال : إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن . وقوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ الصور كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه ، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وفي الحديث عنه ﷺ « كَيْفَ أَنْتُمْ وَصَاحِبُ الْقُرُونِ قَدْ التَقَمَ الْقُرُونُ ، وَحَتَّى جِبْهَتُهُ وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَرُ » قالوا : كيف نقول . قال : « قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » ^(٣) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥١٠/٢) وابن ماجه في سننه (١٣٦٤/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في (الفتن) (٧٠٥٩) ومسلم في (الفتن) (١ ، ٢) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٨/٦) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٦/١) والترمذي في سننه (٢٤٣١) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٣١/٧) .

وقوله : ﴿ جَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .
 ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْفِ أُولَئِكَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يفعله بالكفار يوم القيامة : أنه يعرض عليهم جهنم أي يبرزها لهم ،
 ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن
 لهم . وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف
 زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » . ثم قال مخبرًا عنهم : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾
 أي تغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى ، واتباع الحق . كما قال : ﴿ وَمَنْ يَقْرَأْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ
 يَقْضِ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ يَقْرَأْ ﴾ . وقال هاهنا : ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره
 ونهيهِ . ثم قال : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْفِ أُولَئِكَ ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم
 ذلك ، ويتنفعون به . ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد
 لهم جهنم يوم القيامة منزلًا .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُخِشَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي
 وَرُسُلِي هُزُلًا ﴾ .

عن مصعب قال : سألت أبي - يعني سعد بن أبي وقاص - عن قول الله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ
 أَعْمَالًا ﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمدًا ﷺ ، وأما
 النصارى فكفروا بالجنة ، وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب . والحرورية الذين ينقضون عهد الله من
 بعد ميثاقه ، فكان سعد ﷺ يسميهم الفاسقين ^(١) . وقال علي بن أبي طالب ، وغير واحد : هم
 الحرورية ، ومعنى هذا عن علي ﷺ أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية ، كما تشمل اليهود
 والنصارى وغيرهم ، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ، ولا هؤلاء بل هي أعم من هذا ، فإن
 هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى ، وقبل وجود الخوارج بالكلية ، وإنما هي عامة في كل
 من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله
 مردود . كما قال تعالى : ﴿ وَجُودُ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴾ عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ ﴿ تَصَلَّى نَارًا خَالِيَةً ﴾ . وقال في هذه
 الآية الكريمة : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي نخبركم ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ ثم فسرهم فقال : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي أعمالًا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ، ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ
 صُنْعًا ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء ، وأنهم مقبولون محبوبون . وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
 رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ ﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا ، وبرايمته التي أقام على وحدانيته وصدق رسله ،
 وكذبوا بالدار الآخرة ، ﴿ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾ أي لا تنقل موازينهم ؛ لأنها خالية عن الخير .
 وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّيِّئُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزُنْ عِنْدَ

اللَّهُ جَنَاحُ بُعُوضَةٍ - قال - : اقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ ﴿١﴾ فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿٢﴾ .
وقوله : ﴿٣﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا ﴿٤﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم ، واتخاذهم
آيات الله ورسله هزواً استهزأوا بهم ، وكذبوهم أشد التكذيب .

﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿٧﴾ .
يخبر تعالى عن عباده السعداء ، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به ،
أن لهم جنات الفردوس . قال مجاهد : الفردوس هو البستان بالرومية . وقال السدي والضحاك :
هو البستان الذي فيه شجر الأعناب . وقال أبو أمامة : الفردوس سرّة الجنة ، وقال قتادة : الفردوس
ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها . وفي الحديث : « إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى
الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة » (١) . وقوله تعالى : ﴿٨﴾ تَزُلَّ ﴿٩﴾ أي ضيافة فإن النزول
الضيافة . وقوله : ﴿١٠﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿١١﴾ أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبداً ﴿١٢﴾ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٣﴾
أي لا يختارون عنها غيرها ، ولا يحبون سواها .

وفي قوله : ﴿١٤﴾ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٥﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها ، مع أنه قد يتوهم فيمن هو
مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله ، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون
عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ، ولا ظعنًا ولا رحلة ، ولا بدلاً .

﴿١٦﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلَمْتُ رَبِّي لَنَدَى الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبِئَالِهِ مِدادًا ﴿١٧﴾ .
يقول تعالى : قل يا محمد ، لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه
وآياته الدالة عليه لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك . ﴿١٨﴾ وَلَوْ جِئْنَا بِبِئَالِهِ ﴿١٩﴾ أي بمثل البحر آخر ، ثم
آخر ، وهلم جزاً بحور تمده ، ويكتب بها لما نفدت كلمات الله كما قال تعالى : ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي
الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّ مِنْ بَيعِهِ مِصْبَعُهُ أَجَبْتَ مَا يُفِدْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١﴾ .
وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها . وقد أنزل
الله ذلك : ﴿٢٢﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلَمْتُ رَبِّي لَنَدَى الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي ﴿٢٣﴾ يقول : لو كانت تلك
البحور مداداً لكلمات الله ، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر ، وبقيت كلمات
الله قائمة لا يفنيها شيء ، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثني عليه كما ينبغي ، حتى
يكون هو الذي يثني على نفسه إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول ، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها
في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها .

﴿٢٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِ عَمَلًا ﴿٢٥﴾ .

روي عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت يقول تعالى لرسوله محمد صلوات
الله وسلامه عليه ﴿٢٦﴾ قُلْ ﴿٢٧﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ، ﴿٢٨﴾ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴿٢٩﴾ فمن

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٦/١٨) ومسلم في المناقبين (١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٢٣) والبيهقي في سننه (١٥/٩ ، ١٥٩) .

زعم أنني كاذب فليات بمثل ما جئت به ، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتكم من قصة أصحاب الكهف ، وخبر ذي القرنين ، مما هو مطابق في نفس الأمر ، لولا ما أطلعني الله عليه وإنما أخبركم ﴿ إِنَّا إِلَهُكُمْ ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له ، ﴿ فَتَنَ كَانُ يَزْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ ما كان موافقاً لشرع الله ، ﴿ وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل ، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ . وقد روي عن طاووس قال : قال رجل : يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية ﴿ فَتَنَ كَانُ يَزْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ . جاء رجل إلى عبادة بن الصامت ، فقال : أنبئني عما أسألك عنه ؟ أرأيت رجلاً يصلي يتنغي وجهه الله ، ويحب أن يحمد ، ويصوم يتنغي وجهه الله ، ويحب أن يحمد ، ويتصدق يتنغي وجهه الله ، ويحب أن يحمد ، ويحج يتنغي وجهه الله ، ويحب أن يحمد ، فقال عبادة : ليس له شيء . إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه .

وعن شداد بن أوس ؓ أنه بكى . فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني ، سمعت رسول الله يقول : « اتَّخَوْفَ عَلَى أُمَّتِي الشُّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ » . قلت : يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمرًا ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراؤون بأعمالهم ، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » ^(١) .

وقال ﷺ يرويه عن الله ﷻ أنه قال : « أَنَا خَيْرُ الشُّرَكَاءِ فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ » ^(٢) .

وعنه ﷺ قال : « إِنْ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ » . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرِّيَاءُ ، يَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُزَاوُونَ فِي الدُّنْيَا ، فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً » ^(٣) .

وفي الحديث أيضاً : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » ^(٤) . وقال ﷺ : « مَنْ أَحْسَنَ الصَّلَاةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ ، وَأَسَاءَهَا حَيْثُ يَخْلُو قَلْبُكَ اسْتِهَانَةً اسْتِهَانًا بِهَا رَبُّهُ ﷻ » ^(٥) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٤/٤) وابن ماجه في سننه (١٤٠٦/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٥ ، ٣٠١/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٩ ، ٢٢٨/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٠٢/١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٨/١) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٥/٤) .

(٥) أخرجه البيهقي في سننه (٢٩٠/٢) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٢١/١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٧/١) .

سورة مريم

روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل ، عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب ﷺ قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ كَهَمَعْنَ ۝ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكِرِيَّا ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِيتُنِي بِرَبِّثٍ مِّنْ عَالٍ يَعْقُوبَ ۝ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله : ﴿ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا ، وقرأ يحيى بن يعمر ، ﴿ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكِرِيَّا ﴾ وزكريا يمد ويقصر قراءتان مشهورتان . وكان نبيا عظيما من أنبياء بني إسرائيل . وورد في الصحيح أنه كان نجارا يأكل من عمل يده في التجارة ^(٢) . وقوله : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ﴾ قيل : إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره ، وقال آخرون : إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله ، كما قال قتادة في هذه الآية : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا ﴾ إن الله يعلم القلب التقى ، ويسمع الصوت الخفي . وقال بعض السلف : قام من الليل ﷺ ، وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول خفية : يا رب ، يا رب ، فقال الله له : لبيك لبيك لبيك ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي ضعفت وخارت القوى ، ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أي اضطرم المشيب في السواد .

والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ، ودلائله الظاهرة والباطنة . وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء ، ولم تردني قط فيما سألتك . وقوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَأْيِ ﴾ قال مجاهد وغيره : أراد بالموالي العصبية . وقال أبو صالح : الكلاله وسبب خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا ، فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه ، فأجيب في ذلك ، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله ، فإن النبي أعظم منزلة ، وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده ، وأن يأنف من وراثته عصباته له ، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم . هذا وجه .

الثاني : أنه لم يذكر أنه كان ذا مال ، بل كان نجارا يأكل من كسب يديه ، ومثل هذا لا يجمع مالا ولا سيما الأنبياء ، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا .

الثالث : أنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تُورَثُ ، مَا تَرَكَتْنَا صَدَقَةٌ » ^(٣) . وعلى هذا فتعين حمل قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِيتُنِي بِرَبِّثٍ ﴾ على ميراث النبوة . ولهذا قال : ﴿ وَرِيتُنِي مِّنْ عَالٍ يَعْقُوبَ ﴾ كقوله : ﴿ وَرِيتُ سُلَيْمَنَ دَاوُدَ ﴾ أي في النبوة ، إذ لو كان في المال لما خصه من بين

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠١/١) . (٢) أخرجه مسلم في الفضائل (١٦٩) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٣٦) ومسلم في الجهاد (٤٩) .

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني ، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني ، ﴿ قَالَ مَلَأْنَاكَ ﴾ أي علامتك ﴿ أَلَّا تَكْلَمَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوي من غير مرض ، ولا علة . قال ابن عباس : اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة . قال ابن زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة . وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ أي متتابعات . وقال مالك عن زيد بن أسلم : ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ من غير خرس ، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ، ﴿ إِلَّا رَمَزًا ﴾ أي إشارة ، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ، ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾ أي أشار إشارة خفية سريعة ﴿ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكرًا لله على ما أولاه . قال مجاهد : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾ أي أشار ، وقال مجاهد في رواية عنه : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ﴾ أي كتب لهم في الأرض .

﴿ يَبْحِثُ خِذْ الْكِتَابَ يَقُوْهُ وَمَاتَيْنَهُ لَكُمْ صَبِيًّا ۝ وَحَنَّاكَ يَْنَ لَدُنَّا وَزَكَوْهُ وَكَانَ نَفِيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝ .

وهذا أيضًا تضمن محذوفاً تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به ، وهو يحيى عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب ، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً ، فلهذا نوه بذكره ، وبما أنعم به عليه ، وعلى والديه فقال : ﴿ يَبْحِثُ خِذْ الْكِتَابَ يَقُوْهُ ﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجهد وحرص واجتهاد ، ﴿ وَمَاتَيْنَهُ لَكُمْ صَبِيًّا ﴾ أي الفهم والعلم ، والجد والعزم ، والإقبال على الخير والإكباب عليه ، والاجتهاد وهو صغير حدث .

وقوله : ﴿ وَحَنَّاكَ يَْنَ لَدُنَّا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ وَحَنَّاكَ يَْنَ لَدُنَّا ﴾ يقول ورحمة من عندنا ، وكذا قال قتادة والضحاك ، وزاد : لا يقدر عليها غيرنا ، وزاد قتادة : رحم الله بها زكريا . وقال مجاهد : ﴿ وَحَنَّاكَ يَْنَ لَدُنَّا ﴾ وتعطفاً من ربه عليه ، وقال عكرمة : ﴿ وَحَنَّاكَ يَْنَ لَدُنَّا ﴾ قال : محبة عليه . وقال ابن زيد : أما الحنان فالحبة . وقال عطاء بن أبي رباح : تعظيماً من لدنا . والظاهر من السياق أن قوله : وحناً معطوف على قوله : ﴿ وَمَاتَيْنَهُ لَكُمْ صَبِيًّا ﴾ أي وآتيناه الحكم وحناً وزكاة ، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب : حنت الناقة على ولدها ، وحننت المرأة على زوجها ، ومنه سميت المرأة حنة من الحنية وحن الرجل إلى وطنه ، ومنه التعطف والرحمة .

وعنه عليه السلام قال : « يَقَى رَجُلٌ فِي النَّارِ يُنَادِي أَلْفَ سَنَةٍ : يَا حَتَّانُ يَا مَتَّانُ » (١) .

وقوله : ﴿ وَزَكَوْهُ ﴾ معطوف على ﴿ وَحَنَّاكَ ﴾ ، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب . وقال قتادة : الزكاة العمل الصالح ، وقال الضحاك : العمل الصالح الزكي . وقال ابن عباس :

﴿ وَزَكَوٰةً ﴾ قال : بركة . ﴿ وَكَانَتْ تَقِيًّا ﴾ طاهرًا فلم يعمل بذنب . وقوله : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَنَازًا عَصِيًّا ﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه ، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى . عطف بذكر طاعته لوالديه ، وبيره بهما ومجانبته عقوقهما ، قولاً وفعلًا ، أمرًا ونهيًا ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَنَازًا عَصِيًّا ﴾ . ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك : ﴿ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال .

قال الحسن : إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي أنت خير مني . فقال له الآخر : أنت خير مني . فقال له عيسى : أنت خير مني سلمت على نفسي ، وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما .

﴿ وَادَّكَّرَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿ قَالَتْ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ .

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا ، عطف بذكر قصة مريم في إيجادها ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب . فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة ، ﴿ وَادَّكَّرَ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ وهي مريم بنت عمران ، من سلالة داود عليه السلام ، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل . وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران ، وأنها نذرتها محررة أي تخدم مسجد بيت المقدس وكانوا يتقربون بذلك . ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة . فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة ، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك ، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكُمْ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف ، وثمر الصيف في الشتاء .

فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام . ﴿ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أي اعتزلتهم وتنحت عنهم ، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس . عن ابن عباس قال : إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت ، والحج إليه وما صرفهم عنه إلا قيل ربك : ﴿ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ قال : خرجت مريم مكانًا شَرْقِيًّا ، فصلوا قبل مطلع الشمس . وعن ابن عباس قال : إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبله ؛ لقول الله تعالى : ﴿ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ ، واتخذوا ميلاد عيسى قبله ^(١) . وقال قتادة : ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ شامعًا متنجيًا . وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ أي استترت منهم وتوارت ، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ، ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أي على

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٧٥/١٦) .

صورة إنسان تام كامل . قال مجاهد والضحاك وغيرهما في قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ : يعني جبرائيل عليه السلام . وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن ، فإنه تعالى قد قال : ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ .

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر ، وهي في مكان منفرد ، وبينها وبين قومها حجاب ، خافته وظنت أنه يريد بها على نفسها . فقالت : ﴿ إِنَّ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيرا له بالله . وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل فخوفته أولا بالله عليه السلام ، قال أبو وائل : قد علمت أن النبي ذو نهيمة ، حين قالت : ﴿ إِنَّ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴿ أي فقال لها الملك مجيئا لها ، ومزيلا لما حصل عندها من الخوف على نفسها : لست مما تظنين ولكني رسول ربك ، أي بعثني الله إليك ﴾ لِأَهْبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴿ أي فتعجبت مريم من هذا . وقالت : كيف يكون لي غلام ، أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور مني الفجور . ولهذا قالت : ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بِنِيًّا ﴾ والبني هي الزانية . ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ ﴾ أي فقال لها الملك مجيئا لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلاما ، وإن لم يكن لك بعل ، ولا يوجد منك فاحشة ، فإنه على ما يشاء قادر . ولهذا قال : ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم ، وخالقهم ، ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبيًا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده .

وعن مجاهد قال : قالت مريم عليها السلام : كنت إذا خلوت حدثني عيسى ، وكلمني وهو في بطني ، وإذا كنت مع الناس سبح في بطني وكبر . وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى ، وقدره ومشيئته ، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد عليه السلام وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها . كما قال تعالى : ﴿ وَرَمِيمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ . قال محمد بن إسحاق : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ فَلَجَّاهَا الْخَمَاضُ إِنْ جَنَعَ النَّخْلُ قَالَتْ بَلِّغْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا .

يقول تعالى مخبرا عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله ما قال ، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى . فذكر غير واحد من علماء السلف : أن الملك هو جبرائيل عليه السلام ، عند ذلك نفخ في جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى . فلما حملت به ضاقت ذرعًا ، ولم تدر ماذا تقول للناس ، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به ، غير أنها أفضت سرها ، وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا . وذلك أن زكريا عليه السلام ، كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك . فحملت امرأته فدخلت عليها مريم فقامت إليها ، فاعتنقتها وقالت : أشعرت يا مريم أني حبلى ؟ فقالت لها مريم : وهل علمت أيضًا أني حبلى . وذكرت لها شأنها ، وما

كان من خبرها ، وكانوا يثبت إيمان وتصديق .

قال مالك رحمه الله : بلغني أن عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة ، وكان حملهما جميعًا معًا ، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم : إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك . قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام ؛ لأن الله جعله يحيى الموتى ، ويرى الأكمه والأبرص . ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام ، فالمشهور عن الجمهور : أنها حملت به تسعة أشهر . وقال عكرمة : ثمانية أشهر . قال : ولهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر ، وقال ابن جريج : أخبرني المغيرة بن عتبة بن عبد الله الثقفي ، سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم قال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت . وهذا غريب ، والمشهور الظاهر أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها ، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها في البيت المقدس يقال له : يوسف النجار ، فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه . فحمل نفسه على أن عرض لها القول فقال : يا مريم إني سأثلك عن أمر فلا تعجلي علي . قالت : وما هو ؟ قال : هل يكون قط شجر من غير حب ؟ وهل يكون زرع من غير بذر ؟ وهل يكون ولد من غير أب ؟ فقالت : نعم ، وفهمت ما أشار إليه . أما قولك : هل يكون شجر من غير حب ، وزرع من غير بذر ؟ فإن الله خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر . وهل يكون ولد من غير أب ؟ فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم فصدقها وسلم لها حالها . ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالرية انتبذت منهم مكانًا قصيًا ، أي قاصيًا منهم بعيدًا عنهم لئلا تراهم ولا يروها .

قال محمد بن إسحاق : فلما حملت به وملأت قلتها ، ورجعت استمسك عنها الدم ، وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون ، حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا . وشاع الحديث في بني إسرائيل ، فقالوا : إنما صاحبها يوسف ، ولم يكن معها في الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس ، واتخذت من دونهم حجابًا فلا يراها أحد ، ولا تراه . وقوله : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تحت إليه . وقوله تعالى لإخبارًا عنها : ﴿ فَأَتَتْ بِبَلَّتَيْنِ مَيْتَ قَبْلَ هَذَا وَكَئِنْ نَسِيتَ مَنَسِيًّا ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتنح بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها . وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية . فقالت : ﴿ بَلَّتَيْنِ مَيْتَ قَبْلَ هَذَا ﴾ أي قبل هذا الحال ، ﴿ وَكَئِنْ نَسِيتَ مَنَسِيًّا ﴾ أي لم أخلق ، ولم أك شيئًا ، قاله ابن عباس ، وقال قتادة : ﴿ وَكَئِنْ نَسِيتَ مَنَسِيًّا ﴾ أي شيئًا لا يعرف ولا يذكر ، ولا يدرى من أنا ، وقال الريح بن أنس : ﴿ وَكَئِنْ نَسِيتَ مَنَسِيًّا ﴾ هو السقط . وقال ابن زيد : لم أكن شيئًا قط ، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت إلا عند الفتنة عند قوله : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

﴿ فَادْنَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنَ قَد جَمَلَ رَبُّكِ تَخَاكُ سَرِيرًا ۝ وَهَزَيْتَ إِلَيْكِ الْجَنَّةَ تَنَزَّلُ عَلَيْكَ فِيهَا رُطَبًا جَنِينًا ۝ فُكِّلَ

وَأَشْرَىٰ وَقَرَىٰ عَيْنًا فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا ﴿١﴾ .

قرأ بعضهم ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ ^(١) بمعنى الذي تحتها ، وقرأ الآخرون ﴿مِنْ تَحْتَهَا﴾ على أنه حرف جر .

واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو ؟ فقال ابن عباس : ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتَا﴾ : جبريل ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، وقال الضحاك : ناداها من أسفل الوادي . وقال مجاهد : ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتَا﴾ قال : عيسى ابن مريم ، وعن سعيد بن جبير أنه ابنها قال : أو لم تسمع الله يقول : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ وقوله : ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ أي ناداها قائلاً : لا تحزني ، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ عن ابن عباس : السري النهر ، وقال مجاهد : هو النهر بالسريانية . وقال قتادة : هو الجدول بلغة أهل الحجاز . وقال السدي : هو النهر واختار هذا القول ابن جرير . وقال آخرون : المراد بالسري عيسى عليه السلام ، والقول الأول أظهر ؛ ولهذا قال بعده : ﴿وَهَزَىٰ بِإِلَيْكَ مِجْنَعَ النُّجْلَةِ﴾ أي وخذي إليك يجذع النخلة ، قيل : كانت يابسة ، قاله ابن عباس ، وقيل : شجرة ، والظاهر أنها لم تكن في إبان ثمرها ، قاله وهب بن منبه . ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً . فقال : ﴿تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي طيبي نفساً ؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية الكريمة .

وقوله : ﴿فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي مهما رأيت من أحد ، ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾ المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك ، لا أن المراد به القول اللفظي ؛ لئلا ينافي ﴿فَلَنِ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾ ، قال أنس بن مالك في قوله : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ : صمتاً ، وفي رواية عن أنس صوماً وصمتاً ، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام . قال ابن إسحاق عن حارثة : كنت عند ابن مسعود ، فجاء رجلان فسلم أحدهما ، ولم يسلم الآخر . فقال : ما شأنك ؟ قال : أصحابه : حلف أن لا يكلم الناس اليوم . فقال عبد الله بن مسعود : كلم الناس وسلم عليهم ، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج - يعني بذلك مريم عليها السلام - ليكون عنزاً لها إذا سئلت .

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ قَالُوا يَبْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا غَرِيْبًا ﴿٢﴾ يَتَّخِذُ هَوْنًا مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَيْعًا ﴿٣﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمَةِ صَبِيًّا ﴿٤﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٥﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٦﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٧﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٨﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك ، وأن لا تكلم أحداً من البشر ، فإنها ستكفي أمرها ويقام بحجتها ، فسلمت لأمر الله ﷻ ، واستسلمت لقضائه . فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله ، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها ، واستمكروه جداً ، وقالوا : ﴿يَبْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا غَرِيْبًا﴾ أي امرأة عظيماً .

(١) قرأ المدنيان وحزمة والكسائي وخلف وحفص وروح (من تحتها) بكسر الميم وخفض التاء ، والباقون بفتح الميم ونصب التاء . انظر

﴿ يَتَأَخَذَ هُنُورٌ ﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة ، ﴿ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْتًا ﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة . فكيف صدر هذا منك ؟ قال علي بن أبي طلحة والسدي : قيل لها : ﴿ يَتَأَخَذَ هُنُورٌ ﴾ ، أي أخي موسى ، وكانت من نسله . كما يقال للتيممي : يا أخا تميم ، وقيل : نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون ، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة . وعن المغيرة بن شعبه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون ﴿ يَتَأَخَذَ هُنُورٌ ﴾ ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ » ^(١) .

قوله : ﴿ يَتَأَخَذَ هُنُورٌ ﴾ الآية . قال قتادة : كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ، ولا يعرفون بالفساد ، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به ، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به . وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته ، وليس بهارون أخي موسى ، ولكنه هارون آخر . وقوله : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أي أنهم لما استرابوا في أمرها ، واستنكروا قضيتها ، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية ، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامته ، فأحالت الكلام عليه ، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه فقالوا متهمكين بها طائنين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم : ﴿ كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ؟ قال ميمون بن مهران : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ قالت : كلموه . فقالوا : على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيّاً . وقال السدي : لما أشارت إليه ، غضبوا وقالوا : لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها . ﴿ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ؟ أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره كيف يتكلم ؟ ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى ، وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه . وقوله : ﴿ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ، تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة . وقوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ . قال مجاهد والثوري : وجعلني معلماً للخير . وفي رواية عن مجاهد : نفاعاً . وقال وهيب بن الورد مولى بني مخزوم : لقي عالم عالم هو فوقه في العلم فقال له : يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي ؟ قال : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد أجمع الفقهاء على قول الله : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ وقيل : ما يركبه ؟ قال : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر أينما كان . وقوله : ﴿ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ كقوله تعالى لحمد ﷺ : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ وقال مالك بن أنس في قوله : ﴿ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ : أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت . ما أئينها لأهل القدر . وقوله : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْ ﴾ أي وأمرني ببر والدي ذكره بعد طاعة ربه ؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته ، وطاعة الوالدين . كما قال تعالى : ﴿ وَوَعَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته ، وبرِّ والدي فأشقى بذلك . وقال بعض السلف : لا تجد

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٢/٤) والترمذي في سننه (٣١٥٥) .

أَحَدًا عَاقًا لَوْلَا دِيهِ إِلَّا وَجَدْتَهُ جَبَّارًا شَقِيًّا ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي وَلَمْ يَمَعْلَانِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ قال : ولا تجد سبيء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ . وقوله : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ لإثبات منه لعبوديته لله ﷻ ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ، ويُبْعَثُ كسائر الخلائق . ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ٣٥ ﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَنْجِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا فَعَلَهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٣٦ وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٣٧ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه : ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يختلف المبطلون والحقون ممن آمن به وكفر به ، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَنْجِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ ﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً . ﴿ إِذَا فَعَلَهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي إذا أراد شيئاً ، فإنما يأمُر به فيصير كما يشاء . كما قال : ﴿ إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ مَا دُمَّ خَلَقْتَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي وما أمر به عيسى قومه ، وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم ، وأمرهم بعبادته فقال : ﴿ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي وما أمر به عيسى قومه ، وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم ، وأمرهم بعبادته فقال : ﴿ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم ، أي قويم من اتبعه رشد ، وهدي ، ومن خالفه ضل وغوى . وقوله : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ، ووضوح حاله ، وأنه عبده ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصممت اليهود - عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية ، وقالوا : كلامه هذا سحر . وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله . وقال آخرون : بل هو ابن الله . وقال آخرون : ثالث ثلاثة . وقال آخرون : بل هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو قول الحق الذي أرشد إليه المؤمنين . وقوله : ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله ، وافترى وزعم أن له ولداً . ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة ، وأجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم ، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه ، كما جاء في الصحيحين : « إِنَّ اللَّهَ لَيُعْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرْقَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَيْمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) . وفي الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافهم » (٢) . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَكْبِرْ أَفْكَا عَنَّا يَسْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيُذِيقَهُمْ فِيهِ الْبَاسَ ﴾ . ولهذا قال هاهنا : ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٦٨٦) والبيهقي في سننه (٩٤/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٣٧٨) (ومسلم في صفات المنافقين) (٤٩ ، ٥٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٤ ، ٤٠١) .

مِنْ شَهِدَ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٣٨﴾ أَيُّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وقد جاء في الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت عنه **عليه السلام** : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ ، وَالنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ » ^(١) .

﴿ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَنْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ^(٣٩) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤١﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة ، ﴿ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَنْصُرْ ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ، ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ يعني يوم القيامة ، ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ﴾ أي في الدنيا ، ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي لا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يعقلون ، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ أي أُنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي فصل بين أهل الجنة ، وأهل النار ، وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه . ﴿ وَهُمْ ﴾ أي اليوم ﴿ فِي غَفْلَةٍ ﴾ عما أُنذروا به يوم الحسرة والندامة . ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدقون به .

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله **ﷺ** : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يُجَاءُ بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبِشٌ أُمْلَحٌ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرِيهِمْ وَيَنْظُرُونُ ، وَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ - قَالَ - : فَيَقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالَ : فَيَشْرِيهِمْ وَيَقُولُونَ : نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ - قَالَ - : فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيَذْبَحُ - قَالَ : وَيُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتُ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتُ » . ثم قرأ رسول الله **ﷺ** : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وأشار بيده ، ثم قال : « أَهْلُ الدُّنْيَا فِي غَفْلَةِ الدُّنْيَا » ^(٢) وعن عبد الله ابن مسعود في قصة ذكرها قال : فليس نفس إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة ، وبيت في النار وهو يوم الحسرة فيرى أهل النار البيت الذي كان قد أعدّه الله لهم لو آمنوا ، فيقال لهم : لو آمنتم وعلمتم صالحاً كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة ، فتأخذهم الحسرة . قال : ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار ، فيقال : لولا أن الله من عليكم .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ قال : من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده . وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف ، وأن الخلق كلهم يهلكون ، ويبقى هو تعالى وتقدس ، ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً . بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم ، الحاكم فيهم فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ، ولا مثقال ذرة . ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَادِقًا نَبِيًّا ﴾ ^(١٠) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَتَّبِعُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ^(١١) يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْغَيْبِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ^(١٢) يَتَّبِعْ لَا تَقْبَلِ الشَّيْطَانَ إِنَّ

(١) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء) (٣٤٣٥) ومسلم في (الإيمان) (٤٦) والإمام أحمد في مسنده (٣١٣/٥) والهيتمي مجمع الزوائد (١٧١/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٧٣٠) ومسلم في الجنة (٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٧٧/٢) .

يعني : صريف القلم بكتابة التوراة . وقال السدي : أدخل في السماء فكلم . وقال قتادة : نجا بصدقه . وقوله : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا آخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ أي : وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه ، فجعلناه نبيا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ قَدْ أَوْتَيْنَاكَ سُؤْلَكَ يَمْوُئِي ﴾ .

قال ابن عباس : قوله : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا آخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ قال : هارون أكبر من موسى ، ولكن أراد وهب نبوته له .

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا .

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام - وهو والد عرب الحجاز كلهم - بأنه كان صادق الوعد . قال ابن جريج : لم يعد ربه عدة إلا أنجزها ، يعني : ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفأها حقها . وقال سهل بن عقيل أن إسماعيل النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه ، فجاء ونسي الرجل ، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال : ما برحت من هاهنا ؟ قال : لا . قال : إني نسيت . قال : لم أكن لأبرح حتى تأتيني . فذلك ﴿ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ (١) .

وقال سفيان الثوري : بلغني أنه أقام في ذلك المكان ينتظره حولاً حتى جاءه . وقال عبد الله بن أبي الحمساء : بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث ، فبقيت له علي بقية ، فوعده أن آتبه بها في مكانه ذلك . قال : فنسيت يومي والغد ، فأتيته في اليوم الثالث ، وهو في مكانه ذلك فقال لي : « يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَاهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِ أَتْنِظُرُكَ » (٢) وقال بعضهم : إنما قيل له ﴿ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ ؛ لأنه قال لأبيه ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الْقَدِيرِينَ ﴾ ، فصدق في ذلك . وقال رسول الله ﷺ : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ » (٣) . ولما كانت هذه صفات المنافقين ، كان التليس بضدها من صفات المؤمنين . ولهذا أثني الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد . وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً ، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به . ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق : من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتني أنجز له ، فجاء جابر بن عبد الله فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطِيتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا » (٤) . يعني : ملء كفيه ، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً ، فغرف بيديه من المال ، ثم أمره بعده فإذا هو خمسمائة درهم ، فأعطاه مثليها معها .

وقوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وفي الصحيح أنه ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ » ، فدل على صحة ما قلناه . وقوله : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ هذا أيضاً من الثناء الجميل ، والصفة الحميدة ، والخلة السديدة حيث كان

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١١٩/١٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٩٦) والبيهقي في السنن (١٩٨/١٠) وذكره الهندي في كنز العمال (٦٨٧٩) .

(٣) أخرجه البخاري في (الشهادات) (٢٦٨٢) ومسلم في (الإيمان) (١٠٧ ، ١٠٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٧/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في (الكفالة) (٢٢٩٦) ومسلم في (الفضائل) (٦٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/٣) .

صابراً على طاعة ربه ﷻ أمراً بها لأهله . كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وَأْمُرْ أهلكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْبِرْ عَلَيْهَا ﴾ الآية . وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : ﴿ إِذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَأَيَّظَ اثْرَأتَهُ فَصَلَّاتَا رَكَعَتَيْنِ ، كُنَّيَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ ^(١) .

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إدرِيسَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ۝ وَوَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝ ﴾ .

ذكر إدريس الطحطاوي بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً ، وأن الله رفعه مكاناً علياً ، وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء ، وهو في السماء الرابعة .

قوله : ﴿ وَوَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ، قال مجاهد : إدريس رفع ، ولم يمت كما رفع عيسى وقال منصور عنه : ﴿ وَوَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ السماء الرابعة . وقال ابن عباس : ﴿ وَوَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ : رفع إلى السماء السادسة فمات بها . وقال الحسن وغيره في قوله : ﴿ وَوَقَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ : الجنة .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَابْنَيْنَا إِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا ﴾ .

يقول تعالى : هؤلاء النبيون وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط ، بل جنس الأنبياء ﷺ . استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴾ الآية . قال السدي وابن جرير : فالذي عنى به من ذرية آدم إدريس ، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم ، والذي عنى به من ذرية إبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل ، والذي عنى به من ذرية إسرائيل موسى ، وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم . قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة ، وهو إدريس فإنه جد نوح ، قلت : هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح ﷺ . وقد قيل : إنه من أنبياء بني إسرائيل أخذاً من حديث الإسراء حيث قال في سلامه على النبي ﷺ : مرحباً بالنبي الصالح ، والأخ الصالح ^(٢) ، ولم يقل والولد الصالح ، كما قال آدم وإبراهيم ﷺ .

وعن مجاهد أنه سأل ابن عباس : أفي ﴿ ص ﴾ سجدة ؟ فقال : نعم . ثم تلا هذه الآية : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ فنبىكم من أمر أن يقتدي بهم . قال : وهو منهم يعني داود ^(٣) . وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا ﴾ أي : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكي جمع باك ، فلهاذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا اقتداء بهم .

﴿ خَلَفَ مِنْ بَيعِمٍ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَسْلَمُونَ شَيْئًا ۝ ﴾ .

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء ﷺ ، ومن اتبعهم من القائميين بحدود الله وأوامره

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٠/٢) وأبو داود في سننه (٧٠/٢) وابن ماجه في سننه (١٣٣٥) .

(٢) أخرجه البخاري في (مناقب الأنصار) (٣٨٨٧) ومسلم في الإيمان (٢٦٣) والإمام أحمد في مسنده (٢٠٩/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٠٦ ، ٤٨٠٧) .

المؤدين فرائض الله التاركين لزواجه ، ذكر أنه خَلَفَ ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أي : قرون آخر ﴿ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ وأقبلوا على شهوات الدنيا وملأوها ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيقولون غيًّا أي : خسارًا يوم القيامة . وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا . فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية ، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة للحديث : « يَتَنَزَّ الْعَبْدُ وَيَتَنَزَّ الشُّرُوكُ تَرْكُ الصَّلَاةِ » ^(١) . والحديث الآخر : « الْعَهْدُ الَّذِي يَتَنَزَّ وَيَتَنَزَّهُمُ الصَّلَاةُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ » ^(٢) . وليس هذا محل بسط هذه المسألة . وقال ابن مخيمرة : إنما أضاعوا المواقيت ، ولو كان تركها كان كفرًا ، وعن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهَوْنَ ﴾ و ﴿ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ و ﴿ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ . فقال ابن مسعود : على مواقيتها . قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك ، قال : ذلك الكفر . قال مسروق : لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس ، فيكتب من الغافلين . وفي إفراطهن الهلكة ، وإفراطهن إضاعتهم عن وقتهن ، وعن يزيد أن عمر بن العزيز قرأ ﴿ خَلَفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ ثم قال : لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت . وقال مجاهد : ذلك عند قيام الساعة ، وذهاب صالح أمة محمد ﷺ ينزرو بعضهم على بعض في الأزقة .

وقال ابن جرير عن مجاهد قال : هم في هذه الأمة يتركون تراكم الأنعام ، والحمر في الطرق لا يخافون الله في السماء ، ولا يستحيون من الناس في الأرض . عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَكُونُ خَلْفٌ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ، وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ، ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَفْقَهُونَ تَرْجِيهِمْ ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةً : مُؤْمِنٌ وَمُتَأَنِّقٌ وَقَاجِرٌ » . وقال بشير : قلت للوليد : ما هؤلاء الثلاثة ؟ قال : المؤمن مؤمن به والمنافق كافر به ، والفاجر يأكل به ^(٣) ، وقال كعب الأحبار : والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله ﷻ ، شرايين للقهوات ، تراكين للصلوات ، لغايب بالكعبات ، رقادين عن العتبات ، مفرطين في الغدوات ، تراكين للجماعات . قال ثم تلا هذه الآية : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَيْنِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ . وقال الحسن البصري : عطلوا المساجد ، ولزموا الضيعات ، وقال أبو الأشهب العطاري : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة ، وإن أهون ما أصنع بالبعد من عبيدي إذا أثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي .

وقوله : ﴿ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ ، قال ابن عباس : أي خسارًا . وقال قتادة : شرًا . وقال عبد الله بن مسعود : واد في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم ، وقال زياد عن أبي عياض : واد في جهنم من قبح ودم . وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ، أي : إلا من رجع عن ترك الصلوات ، واتباع الشهوات ، فإن الله يقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال : ﴿ فَأُولَئِكَ

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٧٨) والترمذي في سننه (٢٦١٩ ، ٢٦٢٠) والبيهقي في سننه (٣٦٦/٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٦/٥) والحاكم في المستدرک (٦/١ ، ٧) والترمذي في سننه (٢٦٢١) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨/٣) والحاكم في المستدرک (٣٧٤/٢) وذكره السيوطي في الدر (٢٧٧ ، ٢٧٣/٤) .

يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَبْلُغُونَ شَيْئًا ۖ وَذَلِكَ لَأَنَّ التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا . وفي الحديث الآخر : « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » ^(١) ، ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئا ؛ ولا قبولوا بما عملوه قبلها ، فينقص لهم مما عملوه بعدها ؛ لأن ذلك ذهب هدرًا ، وترك نسيًا ، وذهب مجانًا من كرم الكريم ، وحلم الحليم .

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ۝ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ۝ ﴾

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن - أي : إقامة - التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب - أي : هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه - وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته ، واستقراره فإن الله لا يخلف الميعاد ، ولا يبدله . كقوله : ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَقْضًى ﴾ أي : كائنا لا محالة . وقوله هاهنا : ﴿ مَأْتِيًا ﴾ أي : العباد صائرون إليه وسيأتونه . ومنهم من قال : ﴿ مَأْتِيًا ﴾ بمعنى : آتيا ؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيت ، كما تقول العرب : أتت علي خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد ؛ وقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقْوًا ﴾ أي : هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له ، كما قد يوجد في الدنيا . وقوله : ﴿ إِلَّا سَلَامًا ﴾ استثناء منقطع كقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقْوًا وَلَا تَأْتِيًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴾ أي : في مثل وقت البكرات ، ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلاً ونهارًا ، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيتها بأضواء وأنوار . كما قال رسول الله ﷺ : « أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ ، لَا يَصْطَقُونَ فِيهَا ، وَلَا يَسْمَخُطُونَ فِيهَا ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ ، آتِيَتُهُمْ وَأَمْسَاتُهُمْ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَمَعَاجِيرُهُمُ الْأَلْوَةُ ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مِثْلُ سَاقِيهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ ، وَلَا تَبَاغُضَ ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًا » ^(٢) وقال أيضًا ﷺ : « الشَّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ تَهْرِي بِبَابِ الْجَنَّةِ فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًا » ^(٣)

قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴾ : مقادير الليل والنهار . وسئل زهير بن محمد عن قول الله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴾ قال : ليس في الجنة ليل هم في نور أبداً ، ولهم مقدار الليل والنهار يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب ، ويفتح الأبواب ^(٤) . وقال قتادة : فيها ساعتان بكرة وعشي ليس ثم ليل ولا نهار ، وإنما هو ضوء ونور . وقال مجاهد : ليس بكرة ولا عشي ، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا ، وقوله : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ﴾ أي : هذه الجنة التي وصفنا

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٥٠) والبيهقي في الكبرى (١٥٤/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣٢٤٥) ومسلم في الجنة (١٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٣/٢ ، ٣١٦) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/١) والحاكم في المستدرک (٧٤/٢) .

(٤) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٢٨/١٦) .

بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين .

﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَلِرْ لِعِبَادِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبرائيل : « مَا يُمَتِّعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ يَمًّا تَزُورُنَا ؟ » قال : فتزلت : ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية ^(١) .

وقوله : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ قيل : المراد ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أمر الدنيا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أمر الآخرة ، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ ما بين النفختين . وقيل : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ ما يستقبل من أمر الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أي : ما مضى من الدنيا ، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أي : ما بين الدنيا والآخرة وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ قال مجاهد : معناه : ما نسيتك ربك . وعن أبي الدرداء يرفعه قال : « مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَمَا حَرَّمَهُ فَهُوَ حَرَامٌ ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيُنْسِيَ شَيْئًا » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ . وقوله : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : خالق ذلك ومدبره ، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه . ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَلِرْ لِعِبَادِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ قال ابن عباس : هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً . وقال عكرمة عن ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه .

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَدَا مَا مِثْلُ لَسَوَفْ أَخْرِجُنِي حَيًّا ﴾ ^(١٠) أَوَّلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ^(١١) فَوَرَبُّكَ لَتَحْضُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينُ ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ^(١٢) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ^(١٣) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته . كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ ^(١٠) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعِظَمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ^(١١) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .

وقال هاهنا : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَوَدَا مَا مِثْلُ لَسَوَفْ أَخْرِجُنِي حَيًّا ﴾ ^(١٠) أَوَّلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿ يستدل تعالى بالبداة على الإعادة يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ، ولم يك شيئاً أفلا يعيده ، وقد صار شيئاً . كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ﴾ وفي الصحيح : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي ، وَأَذَانِي ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُؤْذِنَنِي ، أَمَا تَكْذِبُهُ إِثْبَائِي فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ آخِرِهِ ، وَأَمَا أَذَاهُ إِثْبَائِي فَقَوْلُهُ أَنْ لِي وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَخْذُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » ^(١٢) . وقوله : ﴿ فَوَرَبُّكَ لَتَحْضُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينُ ﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ، ﴿ ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ . قال ابن عباس : يعني : قعوداً . كقوله : ﴿ وَرَبِّي كُلُّ أَتْرَجِيَّةٍ ﴾ وقال السدي : يعني قياماً ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٣١/١ ، ٣٥٧) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٧٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٠/٢) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ يعني من كل أمة ﴿ أَئِيتُهُمْ أَشَدُّ عَلَى الْآخِرِينَ ﴾ ، قال ابن مسعود : يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهاهم جميعاً ، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً وهو قوله : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَئِيتُهُمْ أَشَدُّ عَلَى الْآخِرِينَ ﴾ وقال قتادة : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَئِيتُهُمْ أَشَدُّ عَلَى الْآخِرِينَ ﴾ قال : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَذَاكَؤُا فِيهَا بَيْعًا قَالَتْ أَخْرِطْنَهُمْ لِأَدْلُهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ يَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِيقًا ﴾ المراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب . كما قال في الآية المتقدمة : ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَلَئِن يَنْزِعْكَ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ ﴿ ثُمَّ تَنجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَنَزَّلُ الْأَغْلَالِيكَ فِيهَا جَنَّتًا ﴾ . عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورد فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن . وقال بعضهم : يدخلوها جميعاً ، ثم ينجي الله الذين اتقوا . فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له : إنا اختلفنا في الورد . فقال : يردونها جميعاً ، وقال سليمان بن مرة : يدخلونها جميعاً ، وأهوى بإصبعيه إلى أذنيه وقال : صمماً ، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَبْقَىٰ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ إِلَّا دَخَلَهَا فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَرْدًا وَسَلَامًا ، كَمَا كَانَتْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ حَتَّىٰ إِنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجًا مِّنْ بَرْدِهِمْ ﴾ ﴿ ثُمَّ تَنجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَنَزَّلُ الْأَغْلَالِيكَ فِيهَا جَنَّتًا ﴾ ^(١) . عن قيس بن أبي حازم قال : كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته قال : ما يبكيك ؟ قالت : رأيتك تبكي فبكيت قال : إني ذكرت قول الله ﷻ : ﴿ وَلَئِن يَنْزِعْكَ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا - وفي رواية - وكان مريضاً . وعن أبي إسحاق كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال : يا ليت أُمِّي لم تلدني ، ثم يبكي فقليل له : ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا أنا واردوها ، ولم نخبر أنا صادرون عنها ^(٢) . وقال ابن عينية عن عمرو : أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق فقال ابن عباس : الورد الدخول ، فقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ وردوا أم لا ؟ وقال : ﴿ يَبْقَىٰ قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ أوردوها أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع . وعن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال : له أبو راشد . وهو نافع ابن الأزرق . فقال له : يا ابن عباس رأيت قول الله : ﴿ وَلَئِن يَنْزِعْكَ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ قال : أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا ؟

وعن عبد الله بن مسعود ﴿ وَلَئِن يَنْزِعْكَ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَرُدُّ النَّاسُ كُلَّهُمْ ، ثُمَّ يَصُدُّوْنَ عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ » ^(٣) ، وعن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : يرد الناس جميعاً

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٨/٣) والحاكم في المستدرک (٥٨٧/٤) وأورده السيوطي في الدر (٢٨٠/٤) وقال ابن كثير :

غريب ولم يخرجوه . (٢) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٧/١٦) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٥/١) .

الصراط وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مؤرجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط ، والصراط دحض مزلة عليه حسك كحسك القتاد ، حافته ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس . وعن أبي الأحوص ، عن عبد الله قال : ﴿ وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم سلم ^(١) . وعن حفصة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَدْخُلَ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَحَدٌ شَهِدَ بَذْرًا وَالحُدُيَّةَ » . قالت : فقلت : أليس الله يقول : ﴿ وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ؟ قالت : فسمعتة يقول : ﴿ ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَنْذُرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا ﴾ ^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ تَمْسُهُ النَّارُ إِلَّا نَحْلَةَ الْقَسَمِ » ^(٣) .

قال قتادة في قوله : ﴿ وَلَنْ يَنْكُرَ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ : هو الممر عليها ، وقال ابن زيد ابن أسلم : ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيتها وورود المشركين أن يدخلوها .

وقال ابن مسعود في قوله : ﴿ كَانَ عَلَى رَيْكَ حَتًّا مَقْضِيًّا ﴾ : قسما واجبا : وقال مجاهد : ﴿ حَتًّا ﴾ قال : قضاء ، وقوله : ﴿ ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي إذا مر الخلاق كلهم على النار ، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم ، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط ، وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيخرجون خلقا كثيرا قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم ، وهي مواضع السجود ، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَنْذُرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا ﴾ .

﴿ وَإِذَا نُنَازِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْسَوْنَ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۚ وَكَوْا أَهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ أَحْسَنُ أَتُنْكِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان ، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ أي : أحسن منازل وأرفع دوزا ، وأحسن نديا ، وهو مجتمع الرجال للحديث ، أي : ناديتهم أعمر وأكثر واردا وطارقا ، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم مخفقون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٨/١٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٦) وابن ماجه في سننه (٢٤٨١) والهيثم في مجمع الزوائد (١٠٧/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في (الأيمان والنذور) (٦٦٥٦) ومسلم في (البر والصلة) (١٥٠) والترمذي في سننه (١٠٦٠) .

ونحوها من الدور على الحق !! كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ . وقال قوم نوح : ﴿ أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَلَذَّةُ لَوْ ﴾ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم : ﴿ وَكَذَّبْنَا قُلُوبَهُمْ بَيْنَ قَرْنٍ ﴾ أي : وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ، ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أُنثَىٰ وَرَبِّهَا ﴾ أي : كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً ، قال ابن عباس : المقام المنزل ، والندي المجلس والأثاث المتاع ، والرئي المنظر . وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَفُتِنُوا بِغُلَامَيْنَا فُتِنًا ﴾ ﴿ وَذُوقُوا كَذِبَ الْيَوْمِ ﴾ فالقمام المسكن والنعيم ، والندي المجلس ، والجمع الذي كانوا يجتمعون فيه . وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي كَاذِبِكُمْ لَتَشْكُرَنَّ ﴾ والعرب تسمي المجلس : النادي : وقال قتادة : لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة ، وفيهم قشافة فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿ أَيْ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ ومنهم من قال في الأثاث : هو المال ، ومنهم من قال : الثياب . ومنهم من قال : المتاع والرئي المنظر ، وقال الحسن البصري : يعني الصور ، وكذا قال مالك ﴿ أُنثَىٰ وَرَبِّهَا ﴾ أكثر أموالاً ، وأحسن صوراً ، والكل متقارب صحيح .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق ، وأنكم على الباطل ﴿ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ أي : منا ومنكم ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أي : فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه ، وينقضي أجله ﴿ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ ، يصيبه ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ ، بغتة تأتیه ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ ، حيثذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ في مقابلة ما احتجاجوا به من خيرية المقام ، وحسن الندى . قال مجاهد في قوله : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أي فليدعه الله في طغيانه ، وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه . كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله : ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْذِيكَ هَادُواً إِنْ رَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أُولَئِكَ إِلَهُ مِنْ دُونِ الْتَّائِسِ فَتَشْرُكُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدعون أنكم على الحق ، فإنه لا يضركم الدعاء ، فنكلوا عن ذلك .

﴿ وَزَيْدُ اللَّهِ الَّذِي أَهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْتِ الصَّالِحِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ نَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ .

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه ، وزيادته على ما هو عليه أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًى إِيْمَانًا ﴾ الآيةين . وقوله : ﴿ وَالْبَيْتِ الصَّالِحِ ﴾ قد تقدم تفسيرها ، ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ نَوَابًا ﴾ أي : جزاء ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ أي : عاقبة ومردًا على صاحبها . وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه ثم قال : « إِنَّ قَوْلَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَشَبَّحَانَ اللَّهَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَحُطُّ الْخَطَايَا كَمَا تَحُطُّ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الرِّيحُ ، تُحْذَهُنَّ يَا أَبَا الدُّرْدَاءِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ يَتْنَكَ وَيَتْنَهُنَّ ، هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ، وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » قال أبو سلمة : فكان أبو الدرداء إذا ذكر

هذا الحديث قال : لأهلن الله ، ولأكبرن الله ، ولأسبحن الله ، حتى إذا رأي الجاهل حسب أني مجنون (١) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا ۖ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَنصُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَذًا ۖ وَنُزِقْنَاهُ مِمَّا يَقُولُ ۖ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۖ ﴾ .

عن خباب بن الارت قال : كنت رجلاً قتيلاً وكان لي على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث قال : فإني إذا مت ثم بعثت جنتي ولي ثم مال وولد فأعطيتك . فأنزل الله ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا ۖ ﴾ إلى قوله - ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۖ ﴾ (٢) .

وقال ابن عباس : إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين ، فأتوه يتقاضونه فقال : أأستم ترعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالا وولداً ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به . فضرب الله مثله في القرآن فقال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ۖ ﴾ إلى قوله - ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۖ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَطْلَعَ الْغَيْبَ ﴾ إنكار على هذا القائل ﴿ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا ﴾ يعني : يوم القيامة أي أعلم ماله في الآخرة ، حتى تألى وحلف على ذلك ﴿ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ ، أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك ؟ وقد تقدم أنه الموثق ، وقال ابن عباس ﴿ أَطْلَعَ الْغَيْبَ ﴾ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا قال : لا إله إلا الله ، فيرجو بها . وقال ابن كعب القرظي : ﴿ إِلَّا مَنِ اخْتَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، ثم قرأ : ﴿ إِلَّا مَنِ اخْتَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ وقوله : ﴿ كَلَّا ﴾ هي : حرف ردع لما قبلها ، وتأکید لما بعدها ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي : من طلبه ذلك ، وحكمه لنفسه بما يتمناه ، وكفره بالله العظيم ، ﴿ وَنَنصُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَذًا ﴾ أي : في الدار الآخرة على قوله ذلك ، وكفره بالله في الدنيا ، ﴿ وَنُزِقْنَاهُ مِمَّا يَقُولُ ﴾ أي من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولداً زيادة على الذي له في الدنيا ، بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أي من المال والولد وقال مجاهد : ﴿ وَنُزِقْنَاهُ مِمَّا يَقُولُ ﴾ ماله وولده ، وعن قتادة : ﴿ وَنُزِقْنَاهُ مِمَّا يَقُولُ ﴾ قال : ما عنده وهو قوله : ﴿ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّلَدًا ﴾ وقال قتادة : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ لا مال له ولا ولد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَنُزِقْنَاهُ مِمَّا يَقُولُ ﴾ قال : ما جمع من الدنيا ، وما عمل فيها قال : ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ قال : فرداً من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير .

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يَتَّخِذُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۖ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْذُهُمْ أَوْ لَا تَفْعَلُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا تَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۖ ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون لهم تلك الآلهة ﴿ عِزًّا ﴾ يعترفون بها ويستنصرونها ، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا فقال : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي : بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال

تعالى : ﴿ وَتَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهٌ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ ٨٥ وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَاثُرًا لَمْ آمَنَّا لَهُمْ أَهْدَاءَ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ . وقال السدي : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِبِعَادَتِهِمْ ﴾ أي : بعبادة الأوثان . وقوله : ﴿ وَتَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أي : بخلاف ما رجوا منهم . وقال ابن عباس ﴿ وَتَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : أعوانا . قال مجاهد : عوننا عليهم تخاصمهم ، وتكذيبهم ، وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ وَتَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : قراء . وقال قتادة : قراء في النار يلعن بعضهم بعضا ، ويكفر بعضهم ببعض . وقال السدي : ﴿ وَتَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : الخصماء الأشراء في الخصومة ، وقال الضحاک : ﴿ وَتَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال : أعداء ، قال ابن زيد : الضد البلاء ، وقال عكرمة : الضد الحسرة . وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَثَرًا ﴾ قال ابن عباس : تغويهم إغواء . وقال العوفي عنه : تحرضهم على محمد وأصحابه . وقال مجاهد : تشليهم إشلأ . وقال قتادة : تزعجهم إزعاجا إلى معاصي الله . وقال سفيان الثوري : تغريهم إغراء ، وتستعجلهم استعجالا . وقال السدي : تطغيهم طغيانا . وقال عبد الرحمن بن زيد : هذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْبِضْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقْضِ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴾ أي : لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴾ أي : إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله . وقال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ الآية ، ﴿ قُلْ تَتَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ . وقال السدي : إنما نعد لهم عذابا : السنين والشهور ، والأيام والساعات ، وقال ابن عباس ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴾ قال : نعد أنفاسهم في الدنيا . ﴿ يَوْمَ تَحْشُرُ أَلْمَتَيْنِ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ ۝ وَتَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَدَا ۝ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ .

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله ، وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به ، و انتهوا عما عنه زجروهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وقدأ إليه ، والوفد هم القادمون ركباتا ، ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور في مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه ، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عتقا إلى النار ﴿ وَدَا ﴾ عطاشا .

وعن ابن مرزوق قال : ﴿ يَوْمَ تَحْشُرُ أَلْمَتَيْنِ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ ۝ ﴾ : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها ، وأطيبها ريحا ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أما تعرفني ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيب ريحك ، وحسن وجهك . فيقول : أنا عمك الصالح ، وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه فطالما ركبته في الدنيا ، فهل أركبني فيركبه . فذلك قوله : ﴿ يَوْمَ تَحْشُرُ أَلْمَتَيْنِ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ ۝ ﴾ . وقال ابن عباس : ﴿ يَوْمَ تَحْشُرُ أَلْمَتَيْنِ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ ۝ ﴾ . قال : ركباتا . وعن أبي هريرة ﴿ يَوْمَ تَحْشُرُ أَلْمَتَيْنِ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ ۝ ﴾ قال : على الإبل . وقال قتادة : ﴿ يَوْمَ تَحْشُرُ أَلْمَتَيْنِ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ ۝ ﴾ قال : إلى الجنة ^(١) .

وعن النعمان بن سعيد قال : كنا جلوساً عند علي عليه السلام فقرأ هذه الآية : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ قال : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلاق مثلها عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة (١) .

وقوله : ﴿ وَنَسُوءُ الْكَافِرِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَفْدًا ﴾ أي : عطاشاً ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ ﴾ أي : ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ فَمَا تَأْمُرُ شَفِيعِينَ ﴾ وَلَا صَافِيَّ حَمِيمٍ . وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها ، قال ابن عباس : ﴿ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ قال : العهد شهادة أن لا إله إلا الله ، ويرأى إلى الله من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله ﷻ . وعن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - هذه الآية ﴿ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ ثم قال اتخذوا عند الله عهداً ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقيم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن فعلمنا . قال : قولوا : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلمني إلى عملي يقربني من الشر ، ويباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إلي يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد . قال المسعودي : فحدثني زكريا عن القاسم بن عبد الرحمن ، أخبرنا ابن مسعود وكان يلحق بهن خاتفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك .

﴿ وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ٨٨ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴾ ٨٩ ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُيِّرُوا لِلْجِبَالِ هَذَا ﴾ ٩٠ ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ ٩١ ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ ٩٢ ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مِائَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ ٩٣ ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بَعْدَهُمْ عَهْدًا ﴾ ٩٤ ﴿ وَكَلَّمَهُمْ بَيْنَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرَدًّا ﴾ ٩٥ .

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً فقال : ﴿ وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ٨٨ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ ﴾ أي : في قولكم هذا ، ﴿ شَيْئًا إِذَا ﴾ ٨٩ ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُيِّرُوا لِلْجِبَالِ هَذَا ﴾ ٩٠ ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ ٩١ ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ ٩٢ ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مِائَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ ٩٣ ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بَعْدَهُمْ عَهْدًا ﴾ ٩٤ ﴿ وَكَلَّمَهُمْ بَيْنَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرَدًّا ﴾ ٩٥ .

ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظماً للرب وإجلالاً ؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ، ولا ولد له ولا صاحبة له ، ولا كفاء له ، بل هو الأحد الصمد .

وفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

قال ابن عباس في قوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُيِّرُوا لِلْجِبَالِ هَذَا ﴾ ٩٠ ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ ٩١ قال : إن الشرك فرعت منه السماوات والأرض ، والجبال وجميع الخلاق إلا الثقلين ، وكادت أن تزول منه لعظمة الله ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك ، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين . وقال رسول الله ﷺ : « لَقُتُوا مَوْتَكُمْ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَمَنْ قَالَهَا عِنْدَ مَوْتِهِ

وَجَبَّتْ لَهُ الْجَنَّةُ . فقالوا : يا رسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال : « تِلْكَ أَوْجِبَتْ وَأَوْجِبَتْ » . ثم قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ جِيءَ بِالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا يَنْتَهُنَّ وَمَا تَحْتَهُنَّ فَوُضِعْنَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ ، وَوُضِعَتْ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى لَرَجَحَتْ بِهِنَّ » ^(١) .

وقال الضحاك : ﴿ تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ ﴾ : أي : يتشققن فرقا من عظمة الله . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ : أي : غضبا له ﷺ ﴿ وَتَحْرُ لِيَبَالُ هَذَا ﴾ قال ابن عباس : هداما . وقال سعيد بن جبير : هذا ينكسر بعضها على بعض متتابعات .

وعن عون بن عبد الله قال : إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان هل مر بك اليوم ذكر الله ﷻ ؟ فيقول : نعم ، ويستبشر . قال عون : لهي للخير أسمع أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ، ولا يسمعن غيره ؟ ثم قرأ : ﴿ تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَحْرُ لِيَبَالُ هَذَا ﴾ ٥٠ « أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَا ﴾ وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا أَحَدَ أَضْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ ، وَيُجْعَلَ لَهُ وَلَدٌ وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَذْفَعُ عَنْهُمْ وَيَرْزُقُهُمْ » ^(٢) . وقوله : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أي : لا يصلح له ، ولا يليق به لجلاله وعظمته ؛ لأنه لا كفء له من خلقه ؛ لأن جميع الخلائق عبيد له ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا فِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ ٥١ « لَقَدْ أَحْضَنُمُ وَعَدَهُمْ عَدًّا ﴾ أي : قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ذكرهم وأنثاهم ، وصغيرهم وكبيرهم ، ﴿ وَكُلُّهُمْ مَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴾ أي : لا ناصر له ، ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، ولا يظلم أحدا .

﴿ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ ٥٢ « فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُكَ يَلِسَانُكَ لِشَيْءٍ بِهِ الْمُتَقَرِّبُ وَشِدْرُ بِهِ قَوْمًا لَدَّا ﴾ ٥٣ « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخَشِ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْعَ لَهُمْ رِكْرًا ﴾ . يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات . وهي الأعمال التي ترضي الله ﷻ لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه . وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فَلَانًا فَأَجِبْهُ - قال : فَيَجِبُهُ جِبْرِيلُ ، قال : ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَجِبُوهُ ، قال : فَيَجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ . وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ قَالَ : فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ . قال : فَيَبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ » ^(٣)

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ قال : حبًا . وقال مجاهد عنه : سيجعل

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٦٣/١٦) ورواه مسلم مختصرا من حديث أبي سعيد الخدري في (الجنائز) (١ ، ٢) والإمام أحمد في مسنده (٣/٣)

(٢) أخرجه البخاري في (الأدب) (٦٠٩٩) ومسلم في (صفات المنافقين) (٤٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٥/٤ ، ٤٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٨٥) ومسلم في (البر والصلة) (١٥٧) والإمام أحمد في مسنده (٤١٣/٢)

لهم الرحمن وذا قال : محبة في الناس في الدنيا . وقال سعيد بن جبير عنه : يحبهم ويحبهم يعني إلى خلقه المؤمنين ، وقال العوفي عن ابن عباس أيضًا : الود من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن ، واللسان الصادق ، وقال قتادة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِزًّا ﴾ أي : والله في قلوب أهل الإيمان ، وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم . وقال قتادة : وكان عثمان بن عفان ؓ يقول : ما من عبد يعمل خيرًا أو شرًا إلا كساه الله رداء عمله .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ يعني : القرآن ﴿ يَلِسَانِكَ ﴾ أي : يا محمد ، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ، ﴿ إِنِّي نَزَرْتُ بِهِ الْمُتَقِينَ ﴾ أي : المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ أي : عوجًا عن الحق مائلين إلى الباطل . وقال مجاهد : ﴿ قَوْمًا لَّدَا ﴾ لا يستقيمون . وقال أبو صالح : ﴿ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ عوجًا عن الحق . وقال الضحاك : الألد الخصم . وقال القرظي : الألد الكذاب . وقال الحسن البصري : ﴿ قَوْمًا لَّدَا ﴾ صمًا ، وقال غيره : صم آذان القلوب ، وقال قتادة : يعني : قريشًا ، وقال ابن عباس : ﴿ قَوْمًا لَّدَا ﴾ فجارًا ، وقال ابن زيد : الألد الظلوم ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَاءِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرِينٍ ﴾ أي : من أمة كفروا بآيات الله ، وكذبوا رسله ، ﴿ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ أي : هل ترى منهم أحدًا ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ . قال ابن عباس : يعني صوتًا ، وقال الحسن وقاتدة : هل ترى عيتًا أو تسمع صوتًا ؟ والمركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾ تَزِيلًا مِّنْ عَنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى ﴿٣﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٤﴾ لَّمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِمَّا يَتَّبِعُهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَلَنُفِئَهُ يَعْلَمُ الْيُسْرَى ﴿٦﴾ وَالْخَفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وعن ابن عباس قال ﴿ طه ﴾ يا رجل . وعنه ، وعن سعيد ابن جبير : أنها كلمة بالنبطية معناها : يا رجل . وقال أبو صالح : وهي معربة ، وأسند القاضي عياض في كتابه الشفاء عن الربيع بن أنس قال : كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ، ورفع الأخرى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ طه ﴾ يعني : طأ الأرض يا محمد ﴿ طه ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ ثم قال : ولا يخفى ما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة . وقوله : ﴿ طه ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ قال الضحاك : لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه ، فقال المشركون من قريش : ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى . فأنزل الله تعالى : ﴿ طه ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون ، بل من أتاه الله العلم فقد أراد به خيرا كثيرا . كما ثبت عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » ^(١) . وعن ثعلبة بن الحكم قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْعُلَمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا قَعَدَ عَلَى كُرْسِيِّهِ لِقَضَاءِ عِبَادِهِ : إِنِّي لَمْ أَجْعَلْ عِلْمِي وَحِكْمَتِي فِيكُمْ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ وَلَا أَبَالِي » ^(٢) .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ طه ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ هي كقوله : ﴿ قَارِعُوا مَا يَسِّرُ مِنْهُ ﴾ وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة . وقال قتادة : ﴿ طه ﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ لا والله ما جعله شقاء ، ولكن جعله رحمة ونورا ، ودليلا إلى الجنة ﴿ طه ﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾ إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكروا ، ويتفجع رجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه . وقوله : ﴿ طه ﴾ تَزِيلًا مِّنْ عَنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى ﴿٣﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك رب كل شيء ، ومليكه القادر على ما يشاء ، الذي خلق الأرض وخلق السماوات . وقد جاء في الحديث : أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، وبعد ما بينها والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ، وقوله : ﴿ طه ﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٤﴾ المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ولا تحريف ، ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تمثيل . وقوله : ﴿ طه ﴾ لَّمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِمَّا يَتَّبِعُهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ أي : الجميع ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه ، ومشيتته وإرادته ، وحكمه ، هو خالق ذلك ومالكة وإلهه لا إله سواه ، ولا رب غيره . وقوله : ﴿ طه ﴾ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ قال محمد بن كعب : أي ما تحت الأرض السابعة .

(١) أخرجه البخاري في (العلم) (٧١) ومسلم في (الزكاة) (٩٨) والترمذي في سننه (٢٦٤٥) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣٥٠/١) والألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٨٦٧) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَلْيَرَ وَآخَفَى ﴾ أي : أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلى الذي يعلم السر وأخفى . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ أَلْيَرَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ يَعْلَمُ أَلْيَرَ وَآخَفَى ﴾ ، قال : السر ما أسره ابن آدم في نفسه ﴿ وَآخَفَى ﴾ ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه ، فالله يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك ، وما بقي علم واحد وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة ، وهو قوله : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وقال الضحاك : ﴿ يَعْلَمُ أَلْيَرَ وَآخَفَى ﴾ قال : السر ما تحدث به نفسك ، وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد . وقال سعيد بن جبير : أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا ، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غدا . وقال مجاهد : ﴿ وَآخَفَى ﴾ يعني : الوسوسة . وقال أيضا هو وسعيد بن جبير : ﴿ وَآخَفَى ﴾ أي : ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه . وقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ أي : الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ١١ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَلْعَلْ إِلَيْكُمْ مِنْهَا يَبْقَى أَوْ أَحَدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى ١٢ ﴾ .

من هاهنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم . وسار بأهله قيل : قاصداً بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ومعه زوجته ، فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب ، وجعل يقدح بزند معه ليورى نارا كما جرت له العادة به فجعل لا يقدح شيئاً ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء . فبينما هو كذلك ؛ إذ آنس من جانب الطور نارا ؛ أي : ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه فقال لأهله يشرهم : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَلْعَلْ إِلَيْكُمْ مِنْهَا يَبْقَى ﴾ أي : شهاب من نار . وقوله : ﴿ يَبْقَى ﴾ دل على وجود الظلام . وقوله : ﴿ أَوْ أَحَدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ قال : من يهديني إلى الطريق وكانوا شاتين وضلوا الطريق ، فلما رأى النار قال : إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها .

﴿ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ بِمُوسَى ١٣ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ١٤ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ١٥ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ١٧ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ١٨ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ١٩ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَاهُ ٢٠ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنهَا ﴾ أي : النار ، واقترب منها ﴿ نُودِيَ بِمُوسَى ﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴿ أي : الذي يكلمك ويخاطبك ﴾ ، ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ قال علي بن أبي طالب وغير واحد من السلف : كانتا من جلد حمار غير ذكي ، وقيل : إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة . وقال سعيد بن جبير : كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة . وقيل : ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل ، وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله : ﴿ طُوًى ﴾ قال ابن عباس : هو اسم للوادي ، وكذا قال غير واحد . فعلى هذا يكون عطف بيان ، وقيل : عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه ، وقيل : لأنه قدس

مرتين ، وطوى له البركة وكررت والأول أصح كقوله : ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدِيمِ مَعْرُوفٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنَا أَخَذْتُكَ ﴾ كقوله : ﴿ أَسْطَبَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي ﴾ أي : على جميع الناس من الموجودين في زمانه ، وقد قيل : إن الله تعالى قال : يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس ؟ قال : لا ، قال : لأنني لم يتواضع إلي أحد تواضعك ، وقوله : ﴿ فَاسْتَجِبْ لِمَا يُوْحَى ﴾ أي : استمع الآن ما أقول لك ، وأوحيه إليك ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وقوله : ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴾ أي : وحدني وقم بعبادتي من غير شريك ، ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ ﴾ قيل : معناه صل لتذكرني ، وقيل : معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي ، ويشهد لهذا الثاني ، قول رسول الله ﷺ : « إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ أَوْ غَفَلَ عَنْهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ ﴾ » ^(١) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا ، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ » ^(٢) . وقوله : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴾ أي : قائمة لا محالة ، وكائنة لا بد منها وقوله : ﴿ أَكَادُ أَخْفِيَهَا ﴾ عن ابن عباس ، ﴿ أَكَادُ أَخْفِيَهَا ﴾ يقول : لا أطلع عليها أحداً غيري وقال السدي : ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة ، وهي في قراءة ابن مسعود (أكاد أخفيها من نفسي) يقول : كتمتها من الخلائق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت ، وقال قتادة : ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء والمرسلين ، قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَمْلِكُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وقوله ﷺ : ﴿ لِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي : أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله : ﴿ فَمَنْ يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَمْلِكُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ الآية . المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين ، أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على ملأه في دنياه ، وعصى مولاه واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر . ﴿ فَتَرَدَّى ﴾ أي : تهلك وتعطب ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ عَنْهُ مَا لَهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ .

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُوسَى ۖ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيِّ وَلِيٍّ فِيهَا مَتَارِبٌ ۚ ۝ أُخْرَى ۖ ۝ قَالَ أَلَيْسَ يَتُوسَى ۖ ۝ فَالْقَنَاقِلُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۖ ۝ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَتُعِيدُهُمَا سِيرَتَهُمَا الْأُولَى ۖ ۝ . هذا برهان من الله تعالى لموسى ﷺ . ومعجزة عظيمة ، وخرق للعادة باهر دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله ﷻ ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل . وقوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُوسَى ۖ ﴾ قال بعض المفسرين : إنما قال له ذلك على سبيل الإناس له ، وقيل : إنما قال له ذلك على وجه التقرير ، أي : أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُوسَى ۖ ﴾ استفهام تقرير ، ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أي : أعتمد عليها في حال المشي ، ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيِّ ۖ ﴾ أي أهرز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي . قال الإمام

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٤/٣) والبيهقي في الكبرى (٤٥٦/٢) ومسلم في (المساجد ومواضع الصلاة) (١٦) .

(٢) أخرجه البخاري في (مواقيت الصلاة) (٥٩٧) ومسلم في (المساجد ومواضع الصلاة) (٣١٥) .

مالك : الهش : أن يضع الرجل المحجن في الغصن ، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ، ولا يكسر العود فهذا الهش ولا يخبط .

وقوله : ﴿ وَلِي فِيهَا مَقَارِبٌ أُخْرَى ﴾ أي مصالح ومنافع وحاجات آخر غير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلَيْهَا يَتَوَسَّيْنَ ﴾ أي : هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها ، ﴿ فَأَلْقَنَهَا فَلَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْتَعِي ﴾ أي : صارت في الحال حية عظيمة ثعبانًا طويلًا يتحرك حركة سريعة ، فإذا هي تهتز كأنها جان ، وهو أسرع الحيات حركة ، ولكنه صغير ، فهذه في غاية الكبر ، وفي غاية سرعة الحركة ﴿ تَسْتَعِي ﴾ أي : تمشي وتضطرب ، عن ابن عباس ﴿ فَأَلْقَنَهَا فَلَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْتَعِي ﴾ ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فأكلتها ، ومرت بصخرة فابتلعتها ، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها فولى مدبرًا ، ونودي أن يا موسى خذها فلم يأخذها ، ثم نودي الثانية ، أن خذها ولا تخف . فقيل له في الثالثة : إنك من الأمنين فأخذها .

﴿ وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ لِيُزَيِّنَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿ هَؤُلَاءِ آخِيَ ﴾ أَشَدُّ بُوءَ أَزْوَائِي ﴿ وَأَشْرَكَ فِي أَمْرِي ﴾ كَيْ تَسْمَعَكَ كَثِيرًا ﴿ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا .

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام ، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه كما صرح به في الآية الأخرى ، وهانئا عبر عن ذلك بقوله : ﴿ وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ . وقال مجاهد : ﴿ وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ كفك تحت عضدك ، وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ، ثم أخرجها تخرج تلالًا كأنها فلقه قمر . وقوله : ﴿ تَخْرُجُ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أي : من غير برص ولا أذى ومن غير شين . وقال الحسن البصري : أخرجها والله كأنها مصباح فعلم موسى أنه قد لقي ربه ﷻ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لِيُزَيِّنَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ ، وقوله : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أي : اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فأرًا منه وهاربا ، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم ، فإنه قد طغى وبغى وأثر الحياة الدنيا ، ونسي الرب الأعلى .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿ هَذَا سُؤَالُ مِنْ مُّوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ ﷻ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ فِيمَا بَعَثَهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَخَطَبَ جَسِيمٍ ، بَعَثَهُ إِلَى أَعْظَمِ مُلْكٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ ، وَأَجْبَرَهُمْ وَأَشَدَّهُمْ كَفْرًا ، وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا وَأَعْمَرَهُمْ مُلْكًا ، وَأَطْعَمَهُمْ وَأَبْلَغَهُمْ تَمَرْدًا ، بَلَغَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ ادْعَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ ، وَلَا يَعْلَمُ لِرَعَايَاهِ إِلَهًا غَيْرَهُ ، هَذَا وَقَدْ مَكَثَ مُوسَى فِي دَارِهِ مَدَّةً وَلِيدًا عَنْدهُمْ فِي حِجْرِ فِرْعَوْنَ عَلَى فِرَاشِهِ ، ثُمَّ قَتَلَ مِنْهُمْ نَفْسًا فَخَافَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ فَهَرَبَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمَدَّةَ بِكَمَالِهَا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا بَعَثَهُ رَبُّهُ ﷻ إِلَيْهِمْ نَذِيرًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لِهَذَا قَالَ : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿ أَي : إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ عَوْنِي وَنَصِيرِي ، وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لِي بِذَلِكَ ﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ وَذَلِكَ لِمَا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ اللَّثَغِ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ التَّمْرَةُ وَالْجُمْرَةُ ، فَأَخَذَ الْجُمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ ، وَمَا سَأَلَ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكَلْبَةِ بَلْ بِحَيْثُ يَزُولُ الْعِي ، وَيَحْصُلُ لَهُمْ فَهْمٌ مَا يَرِيدُ مِنْهُ ، وَهُوَ قَدَرُ الْحَاجَةِ ، وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالَ ، وَلَكِنْ

الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت بقية ، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال : ﴿ أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي : يفصح بالكلام ، وقال الحسن البصري : ﴿ وَأَحْلَدُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ قال : حل عقدة واحدة ولو سأل أكثر من ذلك أعطي .

وقال ابن عباس : شكّا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتل وعقدة لسانه ، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردةً ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فاتاه سؤله فحل عقدة من لسانه .

وقوله : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ ﴾ هَرُونَ أَخِي ، وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه ، وهو مساعدة أخيه هارون له . قال ابن عباس أنه قال : نبئ هارون ساعدت حين نبئ موسى عليه السلام . وعن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلاً يقول : أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا : لا ندري . قال : أنا والله أدري ، قال : فقلت في نفسي : في حلفه لا يستثنى إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه . قال : موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت : صدق والله ، قلت : ومن هذا ؟ قال : الله تعالى في الشاء على موسى عليه السلام ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِهاً ﴾ . وقوله : ﴿ أَشَدُّ يَوْمَ آزَوِي ﴾ قال مجاهد : ظهري . ﴿ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ﴾ أي في مشاورتي ﴿ كَيْ سَعَيْكَ كَيْبَرًا ﴾ وتذكره كَيْبَرًا . قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين لله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ أي في اصطفاك لنا ، وبمشتك لنا إلى عدوك فرعون ، فلك الحمد على ذلك .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴾ أَيْ أَقْدَفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدَفِيهِ فِي الْبَرِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّائِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِنِّي وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْتِي ﴿ إِذْ نَسِيتُ لُحْنُكَ فَنَقُولُ هَلْ أَدْلُكُ عَلَى مَنْ يُكْفَلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ .

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل من ربه ﷻ ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون ، وملكه أن يقتلوه ، فحكم الله وله السلطان العظيم ، والقدرة التامة ، أن لا يرى إلا على فراش فرعون ، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَكَ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِنِّي ﴾ أي : عند عدوك جعلته يحبك . قال سلمة بن كهيل : ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِنِّي ﴾ قال : حبيبك إلى عبادي ، ﴿ وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْتِي ﴾ قال قتادة : تغذى على عيني ، وقال معمر بن المثنى : ﴿ وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْتِي ﴾ بحيث أرى ، وقال عبد الرحمن بن زيد : يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف ، وغذاؤه عندهم غذاء الملك فذلك الصنعة . وقوله : ﴿ إِذْ نَسِيتُ لُحْنُكَ فَنَقُولُ هَلْ أَدْلُكُ عَلَى مَنْ يُكْفَلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ ، وذلك أنه لما استقر عن آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأبأها قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْكَ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فجاءت أخته وقالت : ﴿ هَلْ أَدْلُكُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يُكْفَلُونَ لَكُمْ وَهُمْ لَمْ يَحْضَرُوا ﴾ تعني : هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة ، فذهبت به وهم معها إلى أمه ،

فعرضت عليه ثديها فقبله ، واستأجروها على إرضاعه ، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أعظم وأجزل . وفي الحديث : « مَثَلُ الصَّانِعِ الَّذِي يَخْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ كَمَثَلِ أُمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا ، وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا » ^(١) وقال تعالى هاهنا : ﴿ فَرَجَعْنَكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنًا وَلَا تَحْزَنَ ۚ أَي : عليك ﴾ وَقَلَّتْ نَفْسًا ﴾ يعني : القبطي ﴿ فَنَجَّيْنَكَ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَهُوَ مَا حَصَلَ لَهُ بِسَبَبِ عَزْمِ آلِ فِرْعَوْنَ عَلَى قَتْلِهِ فَفَرَّ مِنْهُمْ هَارِبًا حَتَّىٰ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ، وَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۚ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفَنَجَّيْنَكَ فُتُونًا ۚ .

حديث الفتون

سأل سعيد بن جبير عبد الله بن عباس عن قول الله ﷻ لموسى ﷺ : ﴿ وَفَنَجَّيْنَكَ فُتُونًا ۚ : الفتون ما هو ؟ فقال : استأنف النهار يا ابن جبير ، فإن لها حديثًا طويلًا فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون . فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم ﷺ أن يجعل في ذريته أبناء وملوكًا فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم ﷺ . فقال فرعون : كيف ترون ؟ فاثمروا ، وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالًا معهم الشفار ، يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك ؟ فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجالهم والصغار يذبحون قالوا : ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم ، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر ، واتركوا بناتهم ودعوا عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ؛ فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكائرتهم إياكم ، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة . فلما كان من قابل حملت بموسى ﷺ فوقع في قلبها الهم والحزن - وذلك من الفتون يا ابن جبير - ما دخل عليه ، وهو في بطن أمه مما يراد به فأوحى الله إليها فقال : ﴿ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۚ فأمراها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ، ثم تلقيه في اليم فلما ولدت فعلت ذلك لما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان . فقالت في نفسها : ما فعلت يا بني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه . فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فريضة مستقي جوارى امرأة فرعون ، فلما رأيته أخذته ، فأردن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن : إن في هذا مالا ولما إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيمته لم يخرج منه شيئًا حتى دفعه إليها ، فلما فتحته رأت فيه غلامًا ، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط ﴿ وَأَصْبَحَ قُودًا أُرِي مُوسَىٰ قَدَرًا ۚ من ذكر كل شيء ، إلا من ذكر موسى ، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل ، حتى أتى فرعون ، فأستوهبه منه فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم

وأجملتهم ، وإن أمر بذبحه لم ألكم فأتت فرعون فقالت : قرّة عين لي ولك . فقال فرعون : يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي يُخَلِّفُ فِيهِ لَوْ أَقْرَفَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقْرَبَتْ اِمْرَأَتُهُ لَهَذَاهُ اللَّهُ كَمَا هَذَاهَا ، وَلَكِنْ حَزَمَهُ ذَلِكَ » .

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها أن تختار له ظفراً ، فجعل كلما أخذته امرأة منهم لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظفراً تأخذه منها ، فلم يقبل ، وأصبحت أم موسى والها ، فقالت لأختها : قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً أخي ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه . فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون ، والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد ، وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به فقالت من الفرح حين أعياهم الظفورات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا : ما يدريك ما نصحهم له هل تعرفينه ؟ حتى شكوا في ذلك - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك فتركوها . فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعت في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه رثاً ، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يشرونها أن قد وجدنا لابنك ظفراً فأرسلت إليها فأتت بها وبه ، فلما رأت ما يصنع بها قالت : امكثي ترضعي ابني هذا فإنني لم أحب شيئاً حبه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آله خيراً فإنني غير تاركة بيتي وولدي .

وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من يومها ، وأبنته الله نباتاً حسناً ، وحفظه لما قد قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل ، وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم ، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أزييني ابني فوعدتها يوماً تزيرها إياه فيه . وقالت امرأة فرعون لخزانها وظهورها وقهارمتها : لا ييقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك ، وأنا باعثة أميئاً يحصي ما يصنع كل إنسان منكم فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون فلما دخل عليها بجلته وأكرمه وفرحت به ، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه ثم قالت : لآتين به فرعون فلينحلته وليكرمنه ، فلما دخلت به عليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض . فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبير - بعد كل بلاء ابتلي به . وأريد به فتناً - فجاءت امرأة فرعون فقالت : ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال : ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلونني فقالت : اجعل بيني وبينك أمراً يعرف الحق به ، أثت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن إليه فإن بطش باللؤلؤتين ، واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل ، ففرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين ، فانترعهما منه مخافة أن يحرقا

يده . فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعدما كان قد هم به ، وكان الله بالغا فيه أمره ، فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة ، حتى امتنعوا كل الامتناع فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي فاستغاثة الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضبا شديدا ؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل ، وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع ، إلا أم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره ، فوكر موسى الفرعوني فقتله وليس يراهما أحد إلا الله تعالى والإسرائيلي . فقال موسى حين قتل الرجل : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ ثم قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغُفِرَ لَهُ إِنَّهُ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴾ . فأصبح في المدينة خائفا يترقب الأخبار ، فأتى فرعون قفيل له : إن بني إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا يحقنا ولا ترخص لهم فقال : ابغوني قاتله ومن يشهد عليه ؛ فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ، ولا ثبت فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحكمكم فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبنا إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلا من آل فرعون آخر فاستغاثة الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه ، وكره الذي رأى فغضب الإسرائيلي ، وهو يريد أن يبطش بالفرعوني فقال للإسرائيلي : لما فعل بالأمس واليوم إنك لغوي مبين ، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني ، فخاف أن يكون بعدما قال له : إنك لغوي مبين أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني . فخاف الإسرائيلي وقال : ﴿ يَتَوَسَّعُ أَثَرِيذُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته فتاركا . وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : ﴿ يَتَوَسَّعُ أَثَرِيذُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيتهم يطلبون موسى ، وهم لا يخافون أن يفوتهم . فجاء رجل من شيعه موسى من أقصى المدينة ، فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فخرج موسى متوجها نحو مدين لم يلتق بلاء قبل ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه تعالى فإنه قال : ﴿ عَنِّي رُفُوتٌ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴿ يعني بذلك : حابستين غنهما فقال لهما : ما خطبكما معترلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم ، وإنما نسقي من فضول حياضهم فسقى لهما ، فجعل يعترف في الدلو ماء كثيرا حتى كان أول الرعاء ، فانصرفنا بغنهما إلى أيهما ، وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنهما حفلا بطائفا فقال : إن لكما اليوم لشنا . فأخبرتهما بما صنع موسى ، فأمر إحدهما أن تدعوه فأتت موسى فدعته ، فلما كلمه قال : ﴿ لَا تَخَفْ بَيُّوتَ مِنَ الْقَوَارِ الظَّالِمِينَ ﴾ ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته فقالت إحدهما : ﴿ يَتَأَبَّاتِ اسْتَجِرَّةُ إِبْنِ خَيْرٍ مَنْ اسْتَجَرَتْ الْقَوِيُّ الْآمِينَ ﴾

فاحتمله الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته ، فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه ، وأما الأمانة : فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أنني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ، ثم قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين . فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت . فقال له : هل لك أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين علي أن تأجرني ثمانين حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ؟ ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت ستان عدة منه ف قضى الله عنه عدته فأتمها عشراً .

قال سعيد بن جبير : فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، قال : هل تدري أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا . وأنا يومئذ لا أدري ، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك ، فقال : أما علمت أن ثمانيا كانت على نبي الله واجبة لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً ، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي كان وعده ، فإنه قضى عشر سنين فلقيت النصراني فأخبرته ذلك . فقال : الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولي ، فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن فشكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون في القتل ، وعقدة لسانه ؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردئاً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه . فأتاه الله سؤله ، وحل عقدة من لسانه ، وأوحى الله إلى هارون ، وأمره أن يلقاه ، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليه السلام فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما ، ثم أذن بعد حجاب شديد فقالا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ قال : فمن ربكما ؟ فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن ؟ قال : فما تريدان ؟ وذكره القتل فاعتذر بما قد سمعت ، قال : أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بني إسرائيل . فأبى عليه . وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها ، فالتحتم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ، ففعل ، ثم أخرج يده من جيبه فراها يبضاء من غيز سوء يعني : من غير برص ، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول ، فاستشار الملأ حوله فيما رأى ، فقالوا له : ﴿ إِن هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ أَن يَخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمُ الْمُتْلٰكِ ﴾ يعني : ملكهم الذي هم فيه والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب . وقالوا له : اجمع لهما السحرة فإنهم بأرضك كثير ، حتى تغلب بسحرك سحرهما . فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بما يعمل هذا الساحر ؟ قالوا : يعمل بالحيات ، قالوا : فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحيال والعصي الذي نعمل فما أجزنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاري وخاصتي ، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببت ، فتواعدوا يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى .

وقال سعيد بن جبير : فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء ، فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا

فلنحضر هذا الأمر ﴿لَمَّا نَبَّحَ النَّحْرَ إِن كَانُوا هُمْ الْقَائِلِينَ﴾ يعنون : موسى وهارون استهزاء بهما ﴿قَالُوا يَسْأَلُونَ إِمَّا أَنْ تُخْلِقَ وَإِمَّا أَنْ تُكُونَنَّ مَعَهُنَّ الْمَلَائِكَةُ﴾ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ ﴿قَالُوا جَاءَكُمُ رُسُلُهُمْ وَفَالُوا بِعَزَّةٍ فَرَعُونَ إِنَّا لَتَحْنُ الْقَائِلُونَ﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك ، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها ، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جرزاً إلى الثعبان تدخل فيه ، حتى ما أبقّت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعتها فلما عرف السحرة قالوا : لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا ، ولكن هذا أمر من الله ﷻ آمناً بالله وبما جاء به موسى من عند الله ، ونتوب إلى الله بما كنا عليه . فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه ، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَقِيلُوا هَٰذَا كَذِبٌ أَفْكٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْنِ﴾ وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى . فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا مضت أخلف موعدة ، وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم آيات مفصلات كل ذلك يشكو إلى موسى ، ويطلب إليه أن يكفها عنه ، ويوائقه على أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا كف ذلك عنه ، أخلف موعدة ، ونكث عهده حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً ، فلما أصبح فرعون ، ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة ، وأوحى الله إلى البحر : إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التقى على من بقي بعد من فرعون وأشياعه . فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا ، وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه ، وهو غافل فيصير عاصياً لله . فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى : إنا لمدركون افعل ما أمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال : وعدني ربي إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربه ، وكما وعد موسى فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه ، التقى عليهم البحر كما أمر . فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه : إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ييدنه حتى استيقنوا بهلاكه ، ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُوا يَسْأَلُونَ أَجَلًا لَّنَا إِنَّا كُنَّا هُـمْ ءَالِهَةً قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ﴾ ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَّبِعَةٌ مِّمَّا هُمْ فِيهِ﴾ الآية . قد رأيت من العبر وسمعتكم ما يكفيكم ، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً وقال : أطيعوا هارون فإنني قد استخلفته عليكم ، فإنني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها .

فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن ، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم ، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذي كان ، قال : يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح قال : أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ارجع فصم عشراً ثم اثنتي

ففعّل موسى عليه السلام ما أمر به . فلما رأى قومه أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم وقال : إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ، ولكم فيهم مثل ذلك ، فإني أرى أنكم تحتسبون ما لكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ، ولا عارية ، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ، ولا ممسكية لأنفسنا فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقدفوه في ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقته ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم ، وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا ، فقصي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فمر بهارون عليه السلام : يا سامري ألا تلقي ما في يدك وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا ألقياها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال : أريد أن يكون عجلاً ، فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد ، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح وله خوار . قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه ، وكان ذلك الصوت من ذلك . فتفرق بنو إسرائيل فرقاً فقال فرقة : يا سامري ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق فقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا ، وإن لم يكن ربنا فإننا نتبع قول موسى .

وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان وليس ربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل ، وأعلنوا التكذيب به . فقال لهم هارون : ﴿ يَتَقَوَّمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا ، هذه أربعون يوماً قد مضت ، وقال سفهاؤهم : أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه ، فلما كلم الله موسى وقال له ما قال أخبره بما لقي قومه من بعده ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنِ أَسِفًا ﴾ فقال لهم : ما سمعتم في القرآن ؟ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح من الغضب ، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له ، وانصرف إلى السامري فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : قبضت قبضة من أثر الرسول ، وفطنت لها وعميت عليكم ﴿ فَتَذَكَّرْنَا وَكَذَلِكَ سَأَلْتُمْنِي فَنَسِيتُ ﴾ فقال قَدْ هَبْتُمْ فَمَا لَكُمْ فِي الْحَبِوَةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكُمْ مَوْعِدًا أَنْ تَخْلَفَنَّهُمْ وَانْتَظَرُوا إِلَيْنَا الَّذِي ظَلَمْتُمْ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّ فِي أَتْرَابِهِمْ نَسْفًا ﴾ ، ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واعتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا ما عملنا ، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألو الحير ، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض ، فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال : ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتُ أَتْرَابَهُمْ بِمَا فَعَلَ الْأَسْفَهَاءُ مِنْهُمْ ﴾ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به ، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال : ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَغْنِي لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ

يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿٤٠﴾ . فقال : يا رب سألتك التوبة لقومي فقلت : إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي هلا أخرجتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة ، فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا ييالي من قتل في ذلك الموطن ، وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ، واطلع الله على ذنوبهم ، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا ، وغفر الله للقاتل والمقتول . ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أمرهم به أن يبلغهم من الوظائف ، فثقل ذلك عليهم ، وأبوا أن يقرأوا بها ، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيامهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة ، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمرا عجيبا من عظمها فقالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون - قيل ليزيد هكذا قرأت قال : نعم من الجبارين - آمنا بموسى وخرجنا إليه قالوا : نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم ، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، ويقول أناس : إنهم من قوم موسى ، فقال الذين يخافون - بنو إسرائيل : ﴿ قَالُوا يَبْسُوتُ إِنَّا كُنَّا نَدَّخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ فأغضبوا موسى فدعا عليهم ، وسماهم فاسقين ، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين ، وحرماهم عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، وظلل عليهم الغمام في التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا ، وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عنهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك بالحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس ^(١) .

﴿ فَلَيْتَ سِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَصْطَفَيْتَ لِنَفْسِ ﴿٤٣﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نِيَا فِي دِكْرِ ﴿٤٤﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٥﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَنَا لَكُمُ بَدَلُكَ أَوْ يَخْشَى ﴾ .

يقول تعالى مخاطبا لموسى عليه السلام : إنه لبث مقيما في أهل مدين فارا من فرعون وملته يرمي على صهره ، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل ، ثم جاء موافقا لقدر الله وإرادته من غير ميعاد ، والأمر كله لله تبارك وتعالى ، وهو المسيّر عباده وخلقهم فيما يشاء . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُونَ ﴾ قال مجاهد : أي على موعد ، وقال عبد الرزاق : على قدر الرسالة والنبوة . وقوله : ﴿ وَأَصْطَفَيْتَ لِنَفْسِ ﴾ أي : اصطفيتك واجتبيتك رسولا لنفسي أي : كما أريد وأشاء . ذكر البخاري عند تفسيرها حديثا عن رسول الله ﷺ قال : « التقي آدم وموسى فقال موسى : أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة ؟ فقال آدم : وأنت الذي اضطفاك الله برسالته واضطفاك لنفسه وأنزل عليك

التَّوراة ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ فَوَجَدْتَهُ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ^(١) وقوله : ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَلَوْكَ يَابْنَئِي ﴾ أي : بحجبي وبراھمني ومعجزاتي ﴿ وَلَا تَبَيَّنَا فِي ذِكْرِي ﴾ قال ابن عباس : لا تبطلما ، وقال مجاهد عن ابن عباس : لا تضعفا . والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ؛ ليكون ذكر الله عونا لهما عليه وسلطانا كاسرا . وقوله : ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أي تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه ، ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَمْلَأَ بِتَذَكُّرٍ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ . هذه الآية عبرة عظيمة ، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين . وعن الحسن البصري قال في : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَمْلَأَ بِتَذَكُّرٍ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ ، قولاه : إن لك ربنا ولك معادا ، وإن بين يديك جنة ونارا . وقال النزال بن سيرة عن علي في قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَمْلَأَ بِتَذَكُّرٍ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ : ﴿ آتِجْ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّلْهُمْ بِأَلْسِنَةٍ حَسَنَةٍ ﴾ . وقوله : ﴿ لَمْلَمْتُ بِتَذَكُّرٍ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى . أي : يوجد طاعة من خشية ربه كما قال تعالى : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَكِرَ ﴾ أو يخشى فالتذكر الرجوع عن المحذور ، والخشية تحصيل الطاعة . وقال الحسن البصري : ﴿ لَمْلَمْتُ بِتَذَكُّرٍ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ يقول : لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه . ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَىٰ ﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿ قَالَيْنَا قَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَضْلِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِمَّا آتَيْنَاكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

يقول تعالى إخبارا عن موسى وهارون عليهما السلام : أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكرين إليه ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَىٰ ﴾ يعنيان : أن يدر إليهما بعقوبة ، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أن يفرط يعجل . وقال مجاهد : يسلط علينا . وقال ابن عباس : ﴿ أَوْ أَنْ يَطَّغَىٰ ﴾ : يعتدي ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أي : لا تخافا منه فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه لا يخفى علي من أمركم شيء . وأنا معكما بحفظي ونصري وتأيدي . ﴿ قَالَيْنَا قَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس أنه قال : مكثا على باب حينا لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد . وقوله : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : بدلالة ومعجزة من ربك ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِمَّا آتَيْنَاكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ أي : والسلام عليك إن اتبعت الهدى ، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابا كان أوله « بسم الله الرحمن الرحيم مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ . أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، فَأَسْلِمَ تَسْلِمَ يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ » ^(٢) . ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِمَّا آتَيْنَاكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي : قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٣٦) ومسلم في القدر (١٤) .

(٢) أخرجه مسلم في (الجهاد) (٧٤) .

العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته .

﴿ قَالَ فَتَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَالُوا رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۝ قَالَ فَمَآ بَآلُ الْقُرُونِ الْأُولَى ۝ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْصُلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۝ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون : أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق إله كل شيء وربّه ومليكه ، قال : ﴿ فَتَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ؟ أي : الذي بعثك وأرسلك من هو ، فإنني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري . ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۝ ﴾ قال ابن عباس : خلق لكل شيء زوجة . وقال الضحاك عن ابن عباس : جعل الإنسان إنساناً والحصاة حماراً والشاة شاة . وقال مجاهد : أعطى كل شيء صورته . وقال ابن نجيم عنه : سؤى خلق كل دابة ، وقال سعيد بن جبیر : أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة ، ولا للدابة من خلق الكلب ، ولا للكلب من خلق الشاة ، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح ؛ وهياً كل شيء على ذلك ، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح . وقال بعض المفسرين : أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . كقوله تعالى : ﴿ وَاللّٰهُ يَخْتَارُ مَا يُؤْتِيهِ الْغَنَى ۝ ﴾ أي : قدر قدرًا وهدى الخلائق إليه أي : كتب الأعمال والآجال والأرزاق ، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحدون عنه ، ولا يقدر أحد على الخروج منه . يقول : ربنا الذي خلق الخلق وقدر القدر ، وجعل الخليقة على ما أراد . ﴿ قَالَ فَمَآ بَآلُ الْقُرُونِ الْأُولَى ۝ ﴾ أصبح الأقوال في معنى ذلك : أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى ، شرع يحتج بالقرون الأولى أي : الذين لم يعبدوا الله أي : فما بالهم إذ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره ؟ فقال له موسى في جواب ذلك : هم وإن لم يعبدوه ، فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم ، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمار . ﴿ لَا يَبْصُلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ۝ ﴾ أي : لا يشذ عنه شيء ، ولا يفوته صغير ولا كبير ، ولا ينسى شيئاً يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط ، وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدس وتنزه ، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان ؛ أحدهما عدم الإحاطة بالشيء ، والآخر نسيانه بعد علمه فتره نفسه عن ذلك .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۝ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّعَى ۝ مِنهَا خَلَقْنَكُمْ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِن ۝ ﴾ .

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه ﷻ حين سأله فرعون عنه ، فقال : ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ۝ ﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك . ثم قال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ۝ ﴾ وفي قراءة ﴿ مَهَادًا ۝ ﴾ (١) أي : قرارًا تستقرون عليها ، وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها . ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ۝ ﴾ أي : جعل لكم طرقًا تمشون في مناكبها ، ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۝ ﴾ أي : من أنواع النباتات من زروع وثمار ، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع . ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ ۝ ﴾ أي : شيء لطعامكم وفاكهتكم ، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرًا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (مهَادًا) وقرأ أهل الكوفة (مَهْدًا) . انظر حجة القراءات ص ٤٥٣ .

ويسئلا . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : لدلالات وحججاً وبراهين ﴿ لِأُولَى الْأَعْيُنِ ﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة ، على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه . ﴿ مِنهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَفِيهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ أي : من الأرض مبدؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي : وإليها تصيرون إذا متم وبلبتم ﴿ وَفِيهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تُخْرَجُونَ ﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ حضر جنازة ، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ، وقال : منها خلقناكم ، ثم أخذ أخرى ، وقال : وفيها نعيدكم ، ثم أخرى وقال : ومنها نخرجكم تارة أخرى . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا كُلَّهُمْ فِتْنَةً فَإِنَّا نَمُوتُهُم مُّمَاتًا وَنَحْيَاهُمْ فَيُحْيَاهُمْ ﴾ يعني : فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات وعاین ذلك وأبصره ، فكذب بها وأبأها كفرًا وبغيًا . ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٦٠﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخَشِّرَ النَّاسَ شَيْئًا ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى ، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ، ونزع يده من تحت جناحه ، فخرجت بيضاء من غير سوء فقال : هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم ، ولا يتم هذا معك ، فإن عندنا سحرًا مثل سحرك ، فلا يفرنك ما أنت فيه ﴿ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي : يوماً نجتمع نحن وأنت فيه ، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين فعند ذلك ، ﴿ قَالَ ﴾ لهم موسى ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ ﴾ وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم ، واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية ، ولهذا قال : ﴿ وَأَن يُخَشِّرَ النَّاسَ ﴾ أي : جميعهم ﴿ شَيْئًا ﴾ أي : ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح ، قال وهب بن منبه : قال فرعون : يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه . قال موسى : لم أؤمر بهذا ، إنما أمرت بمناجزتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك ، فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً ، وقل له أن يجعل هو . قال فرعون : اجعله إلى أربعين يوماً ففعل . وقال مجاهد وقتادة : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ منصفاً وقال السدي : عدلاً وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾ مستو بين الناس وما فيه ، لا يكون صوت ، ولا شيء يتغيّب بعض ذلك عن مستو حين يرى . ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَقْعُرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَتَسْجُرَكُمْ بِعَدَابٍ وَقَدْ حَآبٍ مِّنْ أَفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَيْنِ بُرْدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمُ الْغُلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون : أنه لما تواعد هو وموسى ﷺ إلى وقت ومكان معينين ، تولى أي : شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته ، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان ، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾ ثم أتى أي : اجتمع الناس لميقات يوم معلوم ، وهو يوم الزينة ، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكفاً على عصاه ، ومعه أخوه هارون ووقفت السحرة بين يدي فرعون صفوفاً ، وهو يعدمهم ويمنيهم يقولون :

﴿إِنَّا لَنَآخِزْنَٰ إِيَّاهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٦٥﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِمَّ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلَيْكُم لَا تَقْتُلُوا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا ﴿٦٧﴾ أَي : لَا تَخِيلُوا لِلنَّاسِ بِأَعْمَالِكُمْ إِيجَادَ أَشْيَاءَ لَا حَقَائِقَ لَهَا ، وَإِنَّمَا مَخْلُوقَةٌ وَلَيْسَتْ مَخْلُوقَةٌ فَتَكُونُونَ قَدْ كَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ . ﴿٦٨﴾ فَيَسْجُذُكُمْ بِمَا لَبِيتُمْ ﴿٦٩﴾ أَي : يَهْلِكُكُمْ بِعُقُوبَةٍ هَلَاكًا لَا بَقِيَّةَ لَهُ ﴿٧٠﴾ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٧١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴿٧٢﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ تَشَاجَرُوا فِيْمَا بَيْنَهُمْ . فَقَائِلُ يَقُولُ : لَيْسَ هَذَا بِكَلَامٍ سَاحِرٍ إِنَّمَا هُوَ كَلَامُ نَبِيٍّ ، وَقَائِلُ يَقُولُ : بَلْ هُوَ سَاحِرٌ ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقوله : ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ﴾ أَي : تَنَاجَوْا فِيْمَا بَيْنَهُمْ ، ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذِهِ لَسِحْرَةٌ﴾ قَالَ السِّحْرَةُ فِيْمَا يَنْبَغِي : تَعْلَمُونَ أَنَّ هَٰذَا الرَّجُلَ وَأَخَاهُ - يَعْنُونَ مُوسَىٰ وَهَارُونَ - سَاحِرَانِ يَرِيدَانِ فِي هَٰذَا الْيَوْمِ أَنْ يَغْلِبَاكُمْ وَقَوْمَكُمْ وَيَسْتَوْلِيَا عَلَى النَّاسِ ، وَتَتَّبِعُهُمَا الْعَامَّةُ وَيُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ . وَقوله : ﴿وَيَذَٰهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنِ﴾ أَي : وَيَسْتَبْدِيَا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ ، وَهِيَ السِّحْرُ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُعْظَمِينَ بِسَبَبِهَا ، لَهُمْ أَمْوَالٌ وَأَرْزَاقٌ عَلَيْهَا ، يَقُولُونَ : إِذَا غَلِبَ هَٰذَانِ أَهْلَكَكُمْ وَأَخْرَجَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَتَفَرَّدَا بِذَلِكَ وَتَمَحَضَتْ لِهَٰمَا الرِّيَاسَةُ بِهَا دُونَكُمْ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْفَتَوَىٰ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَيَذَٰهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنِ﴾ يَعْنِي : مُلْكُهُمُ الَّذِي هُم فِيهِ وَالْعِيشُ . وَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ : يَصْرِفَا وَجْهَهُمَا إِلَى النَّاسِ لِيَهْلِكَ بِهِمَا . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : أَوَّلُو الشَّرْفَ وَالْعِزَّ وَالْأَسْنَانَ . وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ : ﴿بَطَرِيقَتِكُمُ اللَّئِنِ﴾ أَشْرَافُكُمْ وَسُرَوَاتِكُمْ . وَقوله : ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَتْهُمَا صَفًّا﴾ أَي : اجْتَمَعُوا كُلَّكُمْ صَفًّا وَاحِدًا ، وَأَلْقَوْا مَا فِي أَيْدِيكُمْ مَرَّةً وَاحِدَةً لِتَبْهَرُوا الْأَبْصَارَ ، وَتَغْلِبُوا هَٰذَا وَأَخَاهُ ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أَي : مَنْ أَمِنَ ، وَمَنْ هُوَ ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا الْمَلِكَ الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ ، وَأَمَّا هُوَ فَيُنَالُ الرِّيَاسَةَ الْعَظِيمَةَ .

﴿قَالُوا يَمُوتُ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ٧٣﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِئْتُمْ بِخَبَلٍ إِلَىٰ يَدَيْهِمْ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمَا تَنَقَّىٰ ﴿٧٤﴾ فَأَرْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا لَا يَخْفَىٰ لَكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٧٦﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِهِ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَلْقَى السِّحْرَ سِحْرًا قَالُوا مَا نَا رَبِّ هَٰذِهِ وَمُوسَىٰ ﴿٧٨﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى : ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ﴾ أَي : أَنْتَ أَوَّلًا ، ﴿وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿٧٣﴾ أَي : أَنْتُمْ أَوَّلًا لَنَرَىٰ مَاذَا تَصْنَعُونَ مِنَ السِّحْرِ وَلِيُظْهِرَ لِلنَّاسِ جَلِيَّةَ أَمْرِهِمْ . ﴿فَإِذَا جِئْتُمْ بِخَبَلٍ إِلَىٰ يَدَيْهِمْ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمَا تَنَقَّىٰ﴾ . وَفِي الْآيَةِ الْآخَرِ ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَعْصَبُوا لِحِجَابِهِمْ وَجَاءَهُمْ بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَدْعَوْهَا مِنَ الزَّبَقِ مَا كَانَتْ تَحْرُكُ بِسَبَبِهِ ، وَتَضْطَرُّبُ وَتَقِيدُ بِحَيْثُ يَخِيلُ لِلنَّاسِ أَنَّهَا تَسْعَىٰ بِاخْتِيَارِهَا وَإِنَّمَا كَانَتْ حِيلَةً ، وَكَانُوا جَمًّا غَفِيرًا ، وَجَمْعًا كَثِيرًا ، فَأَلْقَىٰ كُلُّ مِنْهُمْ عَصَاً وَحَبْلًا ، حَتَّى صَارَ الْوَادِي مَلَأً حَيَاتٍ يَرْكَبُ بَعْضُهُمَا بَعْضًا ، وَقوله : ﴿فَأَرْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أَي : خَافَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفْتَنُوا بِسِحْرِهِمْ وَيَغْتَرُوا بِهِمْ ، قَبْلَ أَنْ يَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِهِ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ أَنْ أَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِهِ - يَعْنِي : عَصَاكَ - فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا ، وَذَلِكَ أَنَّهَا صَارَتْ تَنِينًا عَظِيمًا هَائِلًا ذَا قَوَائِمٍ وَعُنُقٍ وَرَأْسٍ وَأَضْرَاسٍ ، فَجَعَلَتْ تَتَّبِعُ تِلْكَ الْحَبَالَ وَالْعَصَى حَتَّى لَمْ تَبْقَ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا تَلْقَفَتْهُ وَابْتَلَعَتْهُ ، وَالسِّحْرَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَى ذَلِكَ عِيَانًا جَهْرًا نَهَارًا ضَحْوَةً ، فَقَامَتِ الْمَعْجِزَةُ ، وَاتَّضَحَ الْبَرَهَانُ ، وَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ السِّحْرُ . وَلِهَٰذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فَعَلِمَ

السحرة علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل ، وأنه حق لا مزية فيه ، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء : كن ، فيكون فعند ذلك وقعوا سجداً لله ، وقالوا : آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .

وعن سعيد بن جبيرة قال : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴾ : رأوا منازلهم تبين لهم في سجودهم ، وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة .

﴿ قَالَ مَا نَتَمَنَّوْا لَكُمْ إِذْ مُدَّ إِلَيْكُمُ السَّحَرُ فَلَا تُطِعُوا أَوْيَاكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّتُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْفِرَكَ عَنْ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ : إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُقْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ، ومكابرتة الحق بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة ، والآية العظيمة ، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم ، وغلب كل الغلب ، شرع في المكابرة والبهت ، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال : ﴿ مَا نَتَمَنَّوْا لَكُمْ إِذْ مُدَّ إِلَيْكُمُ السَّحَرُ فَلَا تُطِعُوا أَوْيَاكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّتُمْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ ﴾ : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ ﴾ أي : أنتم أخذتم السحر عن موسى ، واتفقتم أنتم وإياه علي ، وعلى رعيتي لتظهوره ، ثم أخذ يتهددهم فقال : ﴿ فَلَا تُطِعُوا أَوْيَاكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّتُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ أي : لأجعلنكم مثله ولأقتلنكم ولأشهرنكم . قال ابن عباس : فكان أول من فعل ذلك .

وقوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ أي : أنتم تقولون إني وقومي على ضلالة ، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى ، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ، فهانت عليهم أنفسهم في الله ﷻ و ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْفِرَكَ عَنْ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ ﴾ أي : لن نخشرك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ يحتمل أن يكون قسماً ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات ، يعنون لا نخشرك على فاطرنا ، وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدئ خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ أي : فافعل ما شئت ، ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي : إنما لك تسلط في هذه الدار ، وهي دار الزوال ونحن قد رغبتنا في دار القرار ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُقْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا ﴾ أي : ما كان منا من الآثام خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه ، وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ ﴾ قال : أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالفرماء ، وقال : علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض ، قال ابن عباس : فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا : ﴿ إِنَّمَا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُقْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أي : خير لنا منك ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أي : أديم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا ، ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أي : منك عذاباً إن عصي ، والظاهر أن فرعون لعنه الله صمم على ذلك ، وفعله بهم رحمة لهم من الله ؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف ، أصبحوا سحرة وأمسا شهداء .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَى ﴿ جَنَّاتٌ عِدْنُ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ .

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون يحذرونه من نعمة الله ، وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي الخلد ، فقالوا : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ بِحَجْرٍ مَوْجُودٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فَإِنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يُحْيَوْنَ ﴿ كَقَوْلِهِ ﴾ : ﴿ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِتْنَةٌ وَلَا يَحْتَفَتُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُجْزَىٰ كُلُّ كَافِرٍ ﴾ وفي الحديث : « أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا ، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَلَكِنْ أَنَاثُ تُصَيِّبُهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ ، فَتَمِيتُهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا صَارُوا فَخْمًا أَذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ جِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرُ ضَبَائِرَ ، فَبُتُوا عَلَىٰ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ فَيَقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ أَقْبِصُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْتَبِهُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُونُ فِي حَجَمِلِ السَّيْلِ » فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَنْ يَأْتِيَهُمْ مُّؤْتَمِنًا فَمَدَّ عَلَيْهِمُ السَّيْلَ ﴾ أي : ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله ، ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ أي : الجنة ذات الدرجات العاليات ، والغرف الآمنات والمسكن الطيبات . وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ ، مَا يَتَيْنِ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا يَتَيْنِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةٌ ، وَمِنْهَا تَخْرُجُ الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ ، وَالْعَرْشُ فَوْقَهَا ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَأَسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ » ^(٢) . وفي الحديث : « إِنَّ أَهْلَ عِلِّيِّينَ لَيَرَوْنَ مَنْ فَوْقَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَائِبَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ - قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِعَةُ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ : « بَلَىٰ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ » ^(٣) .

وقوله : ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ ﴾ أي إقامة وهي بدل من الدرجات العلى ﴿ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ما كثرين أبدًا ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أي : طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك ، وعبد الله وحده لا شريك له ، واتبع المرسلين فيما جاؤوا به من خير وطلب .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۚ فَاَتَّبَعَهُمْ فَرَعُونُ يَبْجُودُونَ ۚ فَتَشِيبُهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۚ وَأَصَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۚ .

يقول تعالى مخبرًا : أنه أمر موسى ﷺ حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل ، أن يسري بهم في الليل ، ويذهب بهم من قبضة فرعون ، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم لا بمصر لا داع ولا مجيب ، فغضب فرعون فأرسل في المداخن حاشرين أي : من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه يقول : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلَةٌ ۚ وَلَهُمْ لَنَا لَفَاطُونَ ۚ ﴾ . ثم جمع جنده ، واستوسق له جيشه ساق في طلبهم ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ شُرُوفِ الْعَمَاءِ ﴾ أي : عند طلوع الشمس ، ﴿ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ ﴾ أي : نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ۚ ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۚ . ووقف موسى ببني إسرائيل البحر أمامهم ، وفرعون وراءهم فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿ فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ۚ فَضْرَبَ الْبَحْرَ بَعْصَاهُ وَقَالَ : انْفَلِقْ عَلَيَّ يَا ذَنُ اللَّهِ ۚ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ۚ ﴾ . أي : الجبل العظيم فأرسل الله الريح على أرض البحر ، فلفحته حتى صار يابسًا

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٣٠٨) والإمام أحمد في مسنده (١١/٣) والحاكم في المستدرک (٦١٩/٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٦/٢) ، (٣١٦/٥) ، (٣٢١) .

(٣) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) ومسلم في الجنة (١١) .

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون ، ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَبْكُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْشَى أَجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ٨٣ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَبْكُلُ مَّا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿ وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشرا ، فتمت أربعين ليلة أي يصومها ليلا ونهارا ، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك فسارع موسى عليه السلام مبادرا إلى طور ، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أَجْعَلُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمْشَى ﴾ ٨٤ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي ﴿ أي : قادمون ينزلون قريبا من الطور ﴾ ٨٥ وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿ أي : لتزداد عني رضا ، ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَسْلَمُ النَّاسِ ﴾ ٨٦ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل ، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري . ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ ٨٧ أي : بعد ما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم ، هو فيما هو من الاعتناء بأمرهم ، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم ، وفيها شرف لهم ، وهم قوم قد عبدوا غير الله ، ما يعلم كل عاقل له لب ، وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم ولهذا قال : رجع إليهم غضبان أسفا ، والأسف : شدة الغضب . وقال مجاهد : ﴿ غَضِبَنَ أَسِفًا ﴾ أي : جزعا ، وقال قتادة : أسفا حزينا على ما صنع قومه من بعده ﴿ قَالَ يَنْفَوْرَ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًا حَسَنًا ﴾ ٨٨ أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة ، وحسن العاقبة ﴿ أَظْهَالَ عَلَيْكُمْ آلِهَتِي ﴾ ٨٩ أي : في انتظار ما وعدكم الله ، ونسيان ما سلف من نعمه ، وما بالعهد من قدم . ﴿ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ٩٠ أم هاهنا بمعنى : بل ، وهي للإضراب عن الكلام الأول ، وعدول إلى الثاني كأنه يقول : بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ؟ قالوا : أي بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسى وقرعهم : ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا ﴾ ٩١ أي : عن قدرتنا واختيارنا ، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر ، فقدفناها أي ألقيناها عنا . وقد تقدم في حديث الفتون أن هارون عليه السلام هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفرة فيها نار . وهي في رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة ، ويجعل حجرا واحدا ، حتى إذا رجع موسى عليه السلام رأى فيه ما يشاء ، ثم جاء ذلك السامري فألقى عليهما تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول ، وسأل من هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوة ؟ فدعا له هارون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له . فقال السامري عند ذلك : أسأل الله أن يكون عجلا ؟ فكان عجلا له خوار أي : صوت استدراجا وإمهالا ومحنة واختبارا ولهذا قال : ﴿ فَكَذَلِكَ أَتَى النَّاسِ ﴾ ٩٢ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُمُ خُورٌ ﴿ وقال السدي : كان يخور ويمشي فقالوا : أي الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه : ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ ٩٣ أي نسيه هاهنا وذهب يتطلبه . وقال ابن عباس ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي : نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس فقالوا : ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى ﴾ قال : فعكفوا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا قط يعني : مثله يقول الله ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي : ترك ما كان عليه من الإسلام - يعني السامري - قال الله تعالى ردا عليهم وتقريفا لهم وبيانا

لفضيحتهم ، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي : العجل أفلا يرون أنه لا يجيئهم إذا سألوه ، ولا إذا خاطبوه ، ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا أي : في دنياهم ، ولا في آخرهم . قال ابن عباس رحمه الله : لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَقَوَّيْكُمْ فَإِنَّمَا هِيَ إِدْمَانَةٌ تَهْتَويْ بِرُءُوسِكُمْ وَقَدْ أَمَرْتُ بِأَنْ تُعْبَذُوا فَاذْهَبُوا فَتَعَسَا أَلُوفُهُمْ ﴾ قَالَوا لَنْ نَرْجِعَ عَلَيْكَ عَنكِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ .

يخبر تعالى عما كان من نهى هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل وإخباره إياهم إنما هذا فتنة لكم ، وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء بقدره تقديرًا ، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ﴿ فَأَدْعُوا آلَكُمْ وَآلَهُمْ ﴾ أي : فيما أمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه ﴿ قَالَوا لَنْ نَرْجِعَ عَلَيْكَ عَنكِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ أي : لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه ، وخالفوا هارون وحاربه وكادوا أن يقتلوه . ﴿ قَالَ يَهُدُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ ٩٠ ﴿ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصِيَّتَ أَمْرِي ﴾ ٩١ ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ ٩٢ ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ .

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه فرأى ما حدث فيهم من الأمر العظيم ، فامتلاً عند ذلك غضبًا ، وألقى بما كان في يده من الألواح الإلهية ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه . وقال : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ ٩٠ ﴿ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصِيَّتَ أَمْرِي ﴾ ٩١ أي : فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿ أَفْعَصِيَّتَ أَمْرِي ﴾ أي : فيما كنت قدمت إليك وهو قوله : ﴿ تَخَلَّفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ . قال : ﴿ يَبْنَؤُمْ ﴾ ٩٢ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف ، ولهذا قال : ﴿ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ ٩٢ الآية . هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه ، قال : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ ﴾ ٩٣ أن أتبعك فأخبرك بهذا فتقول لي : لم تركتهم وحدهم وفرت بينهم ، ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ ٩٤ أي : وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم ، قال ابن عباس : وكان هارون هائبًا مطيعًا له .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْرِي ﴾ ٩٥ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ ٩٦ ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ ٩٧ ﴿ إِنَّكَ إِلَهُهُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ .

يقول موسى عليه السلام للسامري ، ما حملك على ما صنعت ، وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت ؟ قال ابن عباس : كان السامري رجلًا من أهل باجرما ، وكان من قوم يعبدون البقر ، وكان حب عبادة البقر في نفسه ، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل ، وكان اسمه موسى بن ظفر . وفي رواية عن ابن عباس أنه كان من كرمان . وقال قتادة : كان من قرية سامرا ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ ٩٥ أي : رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ ٩٦ أي : من أثر فرسه هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم . وقال مجاهد : من تحت حافر فرس

جبريل ، وقال : نبد السامري أي : ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل ، فانسبك عجلًا جسدًا له خوار حفيف الريح فيه فهو خواره . ﴿ قَبَذْتُهَا ﴾ أي : ألقيتها مع من ألقى ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي ﴾ أي : حسنته وأعجبها إذ ذاك ، ﴿ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ أي : كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ، ومسه من أثر الرسول ففقتك في الدنيا أن تقول : لا مساس أي لا تماس الناس ، ولا يمسونك ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ أي : لا محيد لك عنه . وقال قتادة : ﴿ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ قال : عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ قال الحسن وقاتدة : لن تغيب عنه . وقوله : ﴿ وَانْظُرْ إِلَيْكَ إِلَهَيْكَ ﴾ أي : معبودك . ﴿ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أي : أقمت على عبادته يعني العجل . ﴿ لَنُخْرِقَنَّهُ ﴾ قال ابن عباس والسدي : سحله بالبارد وألقاه على النار ، وقال قتادة : استحال العجل من الذهب لحما ودمًا ، فحرقه بالنار ثم ألقى رماده في البحر ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ . وعن عمارة بن عبد الله وأبي علي ؑ أن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل ثم صوره عجلًا قال : فعمد موسى إلى العجل ، فوضع عليه البارود فبرده بها - وهو على شط نهر - فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يبعد العجل ، إلا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى : ما توبتنا ؟ قال : يقتل بعضكم بعضًا . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ يقول لهم موسى ﷺ : ليس هذا إلهكم ، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو أي : لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له ، فإن كل شيء فقير إليه عبد له وقوله : ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ نصب على التمييز أي : هو عالم بكل شيء ، أحاط بكل شيء علمًا ، وأحصى كل شيء عددًا ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة . ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ مَنَ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿ خَلِيلَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : كما قصصنا عليك خبر موسى ، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية ، والأمر الواقع كذلك نقص عليك الأخبار الماضية ، كما وقعت من غير زيادة ولا نقص ، هذا ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي : من عندنا ﴿ ذِكْرًا ﴾ وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ كتابًا مثله ، ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق ، وخبر ما هو كائن ، وحكم الفصل بين الناس منه ، وقوله تعالى : ﴿ مَنَ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ أي : كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا ، ولهذا قال : ﴿ مَنَ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ أي : إنما كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم ، ﴿ خَلِيلَيْنِ فِيهِ ﴾ أي : لا محيد لهم عنه ولا انفكاك ﴿ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾ أي : بئس الحمل حملهم .

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ طَرِيقَةٌ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٨﴾ .

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال : « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ » ^(١) ، وجاء في الحديث : « كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ التَّعَمَّ الْقَرْنَ وَحَتَّى جِبْهَتَهُ وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ ؟ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نَقُولُ ؟ قَالَ : « قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » ^(٢) . وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُ الْجُنَّيِّينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا ﴾ قيل : معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال ﴿ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : يتسارون بينهم أي : يقول بعضهم لبعض ﴿ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا عَشْرًا ﴾ أي : في الدار الدنيا لقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها . قال الله تعالى : ﴿ تَحْنُ أَتْلُمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي في حال تناجيهم بينهم ﴿ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ طَرِيقَةٌ ﴾ أي : العاقل الكامل فيهم ﴿ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا يَوْمًا ﴾ أي : لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد ؛ لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد . ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة ، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم ؛ لقصر المدة . ولهذا قال تعالى : ﴿ كَمْ لَيْتَنَّا فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِينِينَ ﴾ ^(٣) قَالُوا لَيْتَنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنِلَ الْعَاثِينَ ﴿١٠٩﴾ فَكَلَّ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٠﴾ أي : إنما كان لبثكم فيها قليلاً لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني ، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف قدتمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي .

﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١١١﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١٢﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١١٣﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول ؟ ﴿ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ أي : يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أي : الأرض ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أي : بساطاً واحداً والقاع : هو المستوي من الأرض والصفصاف تأكيداً لمعنى ذلك . وقيل : الذي لا نبات فيه ، والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم ولهذا قال : ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ أي : لا ترى في الأرض يومئذٍ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ ﴾ أي : يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ، ولكن حيث لا ينفعهم . كما قال تعالى : ﴿ أَنْتَجِعُ يَوْمَ وَأَنْبِئُ نَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ . وقال : ﴿ مُهْطِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ وقال محمد بن كعب القرظي : يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة ، ويطوي السماء ، وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر ، وينادي مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ ﴾ ، وقال قتادة : ﴿ لَا عِوَجَ لَهُمْ ﴾ لا يميلون عنه وقال أبو صالح : لا عوج عنه وقوله : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ قال ابن عباس : سكنت . وقاله السدي ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ قال ابن عباس : يعني وطء الأقدام ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ الصوت الخفي . وقال سعيد بن جبير :

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٦٢/٢) والترمذي في سننه (٣٢٤٤) والحاكم في المستدرک (٥٠٦/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٦/١) ، (٣٧٤/٤) والترمذي في سننه (٢٤٣١) والهيثم في مجمع الزوائد (١٣١/٧) .

الحديث وسره ووطء الأقدام فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل ، أما وطاء الأقدام ، فالمراد سعي الناس إلى المحشر ، وهو مشيهم في سكون وخضوع ، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال فقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُوقٌ وَسَمِيدٌ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ ﴿ وَنَعَتِ الْوُجُوهُ لِلْبَيِّنَاتِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ ﴿ وَمَنْ يَمَلَّ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ ﴾ أي : عنده ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ . كقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم ، وأكرم الخلائق على الله ﷻ أنه قال : « آتِي تَحْتَ الْعَرْشِ وَأَخْبِرُ اللَّهَ سَاجِدًا ، وَيُفْتَحُ عَلَيَّ بِمَحَامِدٍ لَا أَخْصِيهَا الْآنَ فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ أَنْ يَدْعُنِي ثُمَّ يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ ، ازْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعُ وَاشْفَعُ تُشْفَعُ - قال : فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَهْوُدُ » . فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى سائر الأنبياء . وفي الحديث أيضًا « يَقُولُ تَعَالَى أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُ : أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ نِصْفُ مِثْقَالٍ مِنْ إِيمَانٍ ، أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَرِنُ ذَرَّةٌ مِنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالٍ ذَرَّةٌ مِنْ إِيمَانٍ » ^(١) الحديث ، وقوله : ﴿ يَتْلُو مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي يحيط علماً بالخلائق كلهم . ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ كقوله : ﴿ وَنَعَتِ الْوُجُوهُ لِلْبَيِّنَاتِ الْقَوِيَّ ﴾ قال ابن عباس : خضعت وذلت ، واستسلمت لجبارها الحي الذي لا يموت ، القيوم الذي لا ينام ، وهو قيم على كل شيء يدبره ، ويحفظه ، فهو الكامل في نفسه الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به ، وقوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أي : يوم القيامة فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه ، حتى يقتص للشارة الجماء من الشاة القراء ، وفي الصحيح : « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالْحَيَّةُ كُلُّ الْحَيَّةِ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ بِهِ مُشْرِكٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ » ^(٢) وقوله : ﴿ وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم ، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون أي : لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذَرُونَ لِمَ ذَكَرَ ﴾ ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

يقول تعالى : ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقفا لا محالة أنزلنا القرآن بشيرًا ونذيرًا بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عي ﴿ وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : يتركون المآثم

(١) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٧١٢) ومسلم في (الإيمان) (٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٩٤/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في (البر والصلة) (٥٦ ، ٥٧) والإمام أحمد في مسنده (١٠٦/٢) والحاكم في المستدرک (١١/١) .

والحارم والفواحش . ﴿ أَوْ يُخَذِّبُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ وهو : إيجاد الطاعة وفعل القربات ، ﴿ فَفَعَّلَى اللَّهُ أَمَلَكُمْ الْحَقُّ ﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق ووعدته ووعدته حق وورسله حق ، والجنة حق والنار حق ، وكل شيء منه حق ، وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثه الرسل والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة . وقوله : ﴿ وَلَا تَعْبَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْصَلَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ كقوله تعالى : في سورة لا أقسم يوم القيامة ، ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ١٢٥ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ١٢٦ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ١٢٧ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ .

عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة ، فكان مما يحرك به لسانه ، فأنزل الله هذه الآية (١) يعني : أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي ، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن ، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه ، فقال : ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ١٢٥ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي : أن نجمله في صدرك ، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ١٢٧ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ وقال في هذه الآية : ﴿ وَلَا تَعْبَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْصَلَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ أي : بل أنصت ، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده ، ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ أي : زدني منك علماً ، قال ابن عيينة رحمه الله : ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله ﷻ .

﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ ١٢٨ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ ١٢٩ ﴿ فَقُلْنَا يَبَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْقِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى ﴾ ١٣٠ ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ ١٣١ ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ ١٣٢ ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَبَادُمُ هَلْ أَتَاكَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ الْمُنْجَىٰ وَمَلَكَ لَا يَلِكُ ﴾ ١٣٣ ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطُفِفَا يَخِيفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ ١٣٤ ﴿ ثُمَّ اجْنَبْنَاهُ رِبُّهُ فَثَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ .

قال ابن عباس : إنما سمي الإنسان ؛ لأنه عهد إليه فَنَسَى ، وقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه ، وما فضله به على كثير من خلق تفضيلاً ، وبين عداوة إبليس لبني آدم ولأيهم قديماً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ أي : امتنع واستكبر ﴿ فَقُلْنَا يَبَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْقِكَ ﴾ يعني : حواء ﷻ ﴿ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى ﴾ أي : إياك أن تسعى في إخراجك منها فتعذب ، وتعنى وتشقى في طلب رزقك ، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ إنما قرن بين الجوع والعري ؛ لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ وهذان أيضاً متقابلان فالظما : حر الباطن ، وهو العطش والضحي : حر الظاهر . وقوله : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَبَادُمُ هَلْ أَتَاكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْمُنْجَىٰ وَمَلَكَ لَا يَلِكُ ﴾ قد تقدم أنه دلاهما بغرور ﴿ وَكَاسَمَهُمَا إِيَّيْكَمَا لَيْنَ النَّجْوَى ﴾ وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة ، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلأ منها .

وقوله : ﴿ فَأَكْثَلَ مِنْهَا فِدَّتْ لَهَا سَوَاءُ تَهُمَا ﴾ عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ رَجُلًا طَوَالًا كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ ، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَةَ سَقَطَ عَنْهُ لِبَاسُهُ فَأَوَّلُ مَا بَدَأَ مِنْهُ عَوْرَتُهُ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى عَوْرَتِهِ جَعَلَ يَشْتَدُّ فِي الْجَنَّةِ فَأَخَذَتْ شَجَرُهُ شَجَرَةً فَتَارَعَهَا فَتَادَاهُ الرَّحْمَنُ : يَا آدَمُ مَنِي تَفِيؤُ ؟ فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَ الرَّحْمَنِ قَالَ : يَا رَبِّ ، لَا وَلَكِنْ اسْتِخْيَاءً أَرَأَيْتَ إِنْ ثُبْتُ وَرَجَعْتُ أَغَايِدِي إِلَى الْجَنَّةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَثَابَ عَلَيْهِ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وَطِفَا بِتَحْفِيفٍ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ قال مجاهد : يرقمان كهيئة الثوب ، وقال ابن عباس : ينزعان ورق التين ، فيجعلانه على سواتهما وقوله : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَثَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « حَاجَّ مُوسَى آدَمَ فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشَقَيْتَهُمْ ؟ قَالَ آدَمُ : يَا مُوسَى أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ أَتُلَوْنِي عَلَى أَمْرِ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي ؟ - أَوْ قَدَرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » ^(٢) .

﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ ءَابِتُنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿ .

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس : اهبطوا منها جميعاً أي : من الجنة كلكم . ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ قال : آدم وذريته ، وإبليس وذريته ، وقوله : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ قال أبو العالية : الأنبياء والرسل والبيان . ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ قال ابن عباس : لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ أي : خالف أمري ، وما أنزلته على رسولي أعرض عنه ، وتناساه وأخذ من غيره هداية ، ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ أي : ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلالة ، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة . قال ابن عباس : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ قال : الشقاء . وقال أيضاً : إن قومًا ضللاً أعرضوا عن الحق ، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين ، فكانت معيشتهم ضنكاً ، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلقاً لهم معاشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب ، فإذا كان العبد يكذب بالله ، ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته ، فذلك الضنك . وقال الضحاك هو : العمل السيئ والرزق الخبيث ، وعن أبي سعيد في قوله : ﴿ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ قال : يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلعه فيه ، وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله ﷻ : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ : « ضمة القبر له » والموقوف أصح وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ قال : « عَذَابُ الْقَبْرِ » . وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ قال مجاهد لا حجة له ، وقال عكرمة : عُيِيَ عليه كل شيء إلا جهنم ، ويحتمل

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٣٨) .

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٨٧/١) .

أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً . كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ رُجُومِهِمْ عُمِدًا وَنَكْمًا وَصَلَّاهُمْ مَّا وَدَّ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا كَالْأَشْيَاءِ خَلْقًا مَّذْمُومًا ﴾ . ولهذا يقول : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَنتَ كَذَلِكَ فَتَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْشَى ﴾ أي : لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها ، وأغفلتها ، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك ﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا سَأَلُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ فإن الجزء من جنس العمل . فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه ، والقيام بمقتضاه فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص وإن كان متواعداً عليه من جهة أخرى ، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد ، والوعيد الشديد في ذلك ، وفي الحديث « مَا مِنْ رَجُلٍ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَتَسِيَهُ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ يُلْقَاهُ وَهُوَ أَجْذَمٌ » (١) .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ .

يقول تعالى : وهكذا نجازي المفسرين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿ لَمْ يَكُنْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لِمَنْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ أي : أشد ألماً من عذاب الدنيا ، وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه ، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : « إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ » (٢) .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جثتهم به يا محمد كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم ، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر ، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الحالية التي خلفهم فيه يمشون فيها . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي : العقول الصحيحة ، والألباب المستقيمة ، كما قال تعالى : ﴿ أَزَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ ﴾ الآية . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي : لولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة ، لجاءهم العذاب بغتة ، ولهذا قال لنبيه مسلماً له : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي : من تكذيبهم لك ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ يعني : صلاة الفجر . ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعني : صلاة العصر ، كما جاء في الحديث : « إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبُّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤُوسِهِ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ثم قرأ هذه الآية (٣) . وعنه ﷺ قال : « لَنْ يَلْجُ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا » (٤)

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في اللعان (٤) والإمام أحمد في مسنده (٣١٠/١) ، (١٩/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٣٤) ومسلم في (المساجد) (٢١١) والإمام أحمد في مسنده (٣٦٠/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١٣) والإمام أحمد في مسنده (٢٦١/٤) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ أَذَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا مَنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِي سَنَةٍ يَنْظُرُ إِلَى أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ إِلَى أَذَنَاهُ، وَإِنْ أَغْلَاهُمْ مَنْزِلَةً لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْيَوْمِ مَرَّتَيْنِ» (١).

وقوله : ﴿وَمِنْ آتَايَ آتَى نَسِجٍ﴾ أي من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ﴿وَأَلْرَافَ النَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿لَعَلَّكَ زَمَنٌ﴾ كما قال تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى﴾ وفي الصحيح : «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لِيَبِّكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى ، وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَغْطُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : إِنِّي أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، فَيَقُولُونَ : وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَشْحَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» (٢).

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وأمر أهلك بالصلاة وصطر عني لا تشك رزقا نحن نرزقك والنعمة للنقوى .

يقول تعالى لنبه محمد ﷺ لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم ، وإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك ، وقليل من عبادي الشكور . وقال مجاهد : ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ يعني : الأغنياء فقد أتاك خيرا مما أتاهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبَاقًا مِنَ الْمَتَانِ وَالْفَرَاتِ الْعَظِيمِ﴾ لا تمدن عينك الآية . وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحده ولا يوصف ولهذا قال : ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ، وفي الصحيح أن عمر ابن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهم فرآه متوسدا مضطجعا على رمال حصير ، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ واهية معلقة ، فابتدرت عينا عمر بالبكاء ، فقال له رسول الله ﷺ : «مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ ؟» فقال : يا رسول الله إن كسرى وقصر فيما هما فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه فقال : «أَوْ فِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا» (٣).

فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت لها ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله ولم يدخر لنفسه شيئا لغد .

وقال قتادة والسدي : ﴿زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني زينة الحياة الدنيا ، وقال قتادة : ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبليهم وقوله : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي : استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فعلها كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَعْلَوُكُمْ نَارًا﴾ وروي أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها فرجا لم يقم فنقول : لا يقوم الليلة ، كما كان يقوم وكان إذا استيقظ أقام يعني : أهله وقال : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ . وقوله : ﴿لَا تَشْكُ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني : إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحسب كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَّيُّنُ﴾ ولهذا قال : ﴿لَا تَشْكُ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ، وقال الثوري : ﴿لَا تَشْكُ رِزْقًا﴾ أي : لا تكلفك

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩) ومسلم في الجنة (٩) .

(٣) أخرجه البخاري في (المظالم) (٢٤٦٨) .

الطلب . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَثْمَلًا صَدْرَكَ غِنَى وَأَشَدَّ فَقْرَكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا وَلَمْ أَشَدَّ فَقْرَكَ » (١) .

وقوله : ﴿ وَالنَّفْبَةُ لِلْفَتَى ﴾ أي : وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وهي الجنة لمن اتقى الله . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ كَأَنَّ فِي دَارِ عَقْبَةِ بْنِ رَافِعٍ ، وَأَنَا أُتِينَا بِرُطْبٍ مِنْ رُطْبِ ابْنِ طَابٍ ، فَأَوَّلْتُ ذَلِكَ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَنَّ دِينَنَا قَدْ طَابَ » (٢) .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا نَذِيرٌ مِنْ رَبِّهِمْ أُولَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ ﴿ قُلْ كُلُّ مُرْصِدٍ فَرِصَوٌ فَسْتَغْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم : ﴿ لَوْلَا ﴾ أي : هلا يأتينا محمد بآية من ربه أي : بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله ؟ قال الله تعالى : ﴿ أُولَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ يعني : القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة ، ولم يدارس أهل الكتاب . وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها . وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ أُولَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٣) . وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه الصلاة والسلام ، وهو القرآن وإلا فله من المعجزات ما لا يحصى ولا يحصر كما هو مودع في كتبه ، ومقرر في مواضعه ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أي : لو أننا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا : ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال : ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَسَاءَ كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده : ﴿ كُلُّ مُرْصِدٍ ﴾ أي : منا ومنكم ﴿ فَرِصَوٌ ﴾ أي فانتظروا ﴿ فَسْتَغْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴾ أي : الطريق المستقيم . ﴿ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴾ .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤١٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم في (الرؤيا) (١١٨) والإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٣ ، ٢٨٦) .

(٣) أخرجه البخاري في (الاعتصام) (٧٢٧٤) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) .

سورة الأنبياء

عن عبد الله قال : بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق الأول ،
وهن من تلادي ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ١ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدَّيْ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ
وَهُمْ يَلْعَبُونَ ٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتَوْنَ السِّحَرَ وَتَأْتُرُونَهُ
بُصُورًا ٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُهُ بَلْ أَفْتَرْتَهُ
بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ٥ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ٦ .

هذا تنبيه من الله ﷻ على اقتراب الساعة ودنوها ، وأن الناس في غفلة عنها أي : لا يعملون لها
ولا يستعدون من أجلها . عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ، ﴿ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ قال : « في
الدنيا » ^(٢) وقال تعالى : ﴿ أَقْرَبَ النَّاسَ لِسَانُهُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ١٠ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ١١ الْآيَةَ ، وروي عن
عامر بن ربيعة : أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلم فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه
الرجل ، فقال : إني استقطعت من رسول الله ﷺ واديًا في العرب ، وقد أردت أن أقطع لك منه
قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا
عن الدنيا ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي
الذي أنزل الله على رسوله ، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدَّيْ ﴾ أي : جديده إنزاله ﴿ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ كما قال ابن عباس : ما
لكم تسألون أهل الكتب عما بأيديهم ، وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه ؟ وكتابكم أحدث
الكتب بالله تقرأونه محضًا لم يشب ^(٣) ، وقوله : ﴿ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي : قائلين فيما
بينهم خفية ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبيًا لأنه بشر
مثلهم ، فكيف اختص بالوحي دونهم ولهذا قال : ﴿ أَفَتَأْتَوْنَ السِّحَرَ وَتَأْتُرُونَهُ بَصُورًا ﴾ أي :
أفتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر ، وهو يعلم أنه سحر فقال تعالى مجيبًا لهم عما افتروه واختلقوه
من الكذب : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية ،
وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين ، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله
إلا الذي يعلم السر في السماوات والأرض .

وقوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم
ووعيد ، وقوله : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُهُ بَلْ أَفْتَرْتَهُ ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم ،
واختلافهم فيما يصغون به القرآن ، فتارة يجعلونه سحرًا ، وتارة يجعلونه أضغاث

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٨) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٤٠٧/٦) ، وذكره الطبري في تفسيره (٣/١٧) .

(٣) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٣٩) .

أحلام ، وتارة يجعلونه مفترى . وقوله : ﴿ فَلْيَأْنِا يَتَابِعْ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ يعنون : كنانة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَفَهُمْ يَرْثُونَ ﴾ أي : ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها ، فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك ، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك ؟ كلا ، بل : ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَوَجَّهْنَا بَعْضَهُمْ كَلْئَلٍ مَائَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر ، وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَجْبَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءٍ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

يقول تعالى ردًا على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾ أي : جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالًا من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ وقال تعالى : حكاية عمن تقدم من الأمم لأنهم أنكروا ذلك فقالوا : ﴿ أَبَشَرٌ مِثْلُنا ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى ، وسائر الطوائف هل كان الرسل الذين أتوهم بشرًا أو ملائكة ؟ وإنما كانوا بشرًا ، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه ؛ إذ بعث فيهم رسلًا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم ، والأخذ عنهم . وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ أي : بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْآسْوَاقِ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ أي : في الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لَشِرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ ﴾ وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله ﷻ تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه ، وقوله : ﴿ ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ ﴾ أي : الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين ، صدقهم الله وعده وفعل ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَجْبَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءٍ ﴾ أي : أتباعهم من المؤمنين ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي : المكذبين بما جاءت الرسل .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِ إِذَا هُمْ مِنْهَا بِرُكُودٍ ﴾ ﴿ لَا تَرْكَبُوا وَأَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَبِيدًا خَالِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى منبها على شرف القرآن ومحرضا لهم على معرفة قدره : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ قال ابن عباس : شرفكم ، وقال مجاهد : حديثكم وقال الحسن : دينكم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي هذه النعمة ، وتلقونها بالقبول كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْكُرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ هذه صيغة تكثير كما قال : ﴿ فَكَايُنَ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهُمْ وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهِ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ أي : أمة أخرى بعدهم ﴿ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسٍ ﴾ أي : تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم

نبيهم ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي : يفرون هارين ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ ﴾ هذا تهكم بهم نزرًا أي : قيل لهم نزرًا لا تركضوا هارين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ، والمعيشة والمساكن الطيبة ، قال قتادة : استهزاء بهم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُونَ ﴾ أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم ﴿ قَالُوا يَبْرَأْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ اعترفوا بذنوبهم حتى لا ينفعهم ذلك ، ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ أي : ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هججهم ، حتى حصدها لهم حصداً ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَئِيلِينَ ﴾ ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْزِعَ لَكُمْ لُحُودَكُمْ لَنَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِيلِينَ ﴾ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْأُولَىٰ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴾ ﴿ يُسْحِقُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

يعبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق أي : بالعدل والقسط ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْمَقْصُودِ ﴾ وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ، ولا لعباً كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا وَلَكِنْ غُلًّا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْزِعَ لَكُمْ لُحُودَكُمْ لَنَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِيلِينَ ﴾ قال مجاهد : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْزِعَ لَكُمْ لُحُودَكُمْ لَنَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ يعني : من عندنا ، يقول : وما خلقنا جنة ولا ناراً ، ولا موتاً ولا بعثاً ، ولا حساباً . وقال الحسن قتادة وغيرهما : اللهم المرأة بلسان أهل اليمن ، وقال النخعي : ﴿ لَنَخَذْنَاهُ ﴾ من الحور العين ، وقال السدي : والمراد بالهوه هاهنا : الولد . وهذا والذي قبله متلازمان ، وهو كقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِعَ وَلَكَّا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ فزعه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً ولا سيما عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزيز أو الملائكة ﴿ سُبْحَنَهُ وَقَدْ عَلِمَ يَقُولُونَ عُلُوكَ كِبَرًا ﴾ وقوله : ﴿ إِنْ كُنَّا فَعِيلِينَ ﴾ قال قتادة : أي : ما كنا فاعلين . وقال مجاهد : كل شيء في القرآن إن : فهو إنكار . وقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ أي : نبين الحق فيدحض الباطل ، ولهذا قال : ﴿ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أي : ذاهب مضمحل ﴿ وَلَكُمْ الْأُولَىٰ ﴾ أي أيها القائلون لله ولد ﴿ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ أي : تقولون وتفترون . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً فقال : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ أي : لا يستكفون عنها وقوله : ﴿ وَلَا يَسْتَحِيرُونَ ﴾ أي : لا يتعبون ولا يملون ﴿ يُسْحِقُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً ، مطيعون قصداً وعملاً قادرون عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

﴿ أَرِ أَخْذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ ﴾ ﴿ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْتَلَوْنَ ﴾ .

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال : ﴿ أَرِ أَخْذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ ﴾ أي : أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ؟ أي لا يقدرون على شيء من ذلك ، فكيف جعلوها لله ندًا وعبدوها معه ؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفستت السماوات والأرض

فقال : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ أي : في السماوات والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كقوله تعالى : ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ إِذَا لَدَّعَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبِثُوا مِنْهُمْ عَلَى بَعْضِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ وقال هاهنا : ﴿فَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ، أي : تقدس وتزه عن الذي يفترون ويأفكون علوا كبيرا . وقوله : ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعَّلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ أي : هو : الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه ، وعلمه وحكمته ، وعدله ولطفه . ﴿وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ أي : وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗ أَجْمِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .
﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَنِّ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ .

يقول تعالى : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾ يا محمد ، ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ ؟ أي : دليلكم على ما تقولون ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَنِّ﴾ يعني : القرآن ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ يعني : الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون ، وترعمون فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه ، ولهذا قال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ كما قال : ﴿وَسَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وقال : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والفترة شاهدة بذلك أيضا ، والمشركون لا يبرهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ لَا يَسْـَٔفُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَسْمَلُونَ ﴿وَمَا يَبْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ .

يقول تعالى رادًا على من زعم أنه له تعالى وتقدس ولدا من الملائكة : كمن قال ذلك من العرب إن الملائكة بنات الله فقال : ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي : الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ، ومقامات سامية ، وهم له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا ﴿لَا يَسْـَٔفُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَسْمَلُونَ﴾ أي : لا يتقدمون بين يديه بأمر ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية ، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وقوله : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ كقوله : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وآيات كثيرة في معنى ذلك ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي : من خوفه ورهبته ، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أي : ادعى منهم أنه إله من دون الله أي : مع الله ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي : كل من قال ذلك وهذا شرط ، والشرط لا يلزم وقوعه كقوله : ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَنْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .
﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يَوْمِنُونَ﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

يقول تعالى منيها على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير ، فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه ؟ ألم يروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا أي : كان الجميع متصلا بعضه ببعض متلاصقا متراكما بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ، فجعل السماوات سبعا ، والأرض سبعا ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء ، فأمرت السماء وأنبئت الأرض . ولهذا قال : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي : وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئا فشيئا عيانا ، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء .

وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال : أرايتم السماوات والأرض حين كانتا رتقا هل بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار . وعن ابن عمر أن رجلا أتاه يسأله عن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما . قال : اذهب إلى ذلك الشيخ فأسأله ، ثم تعال فأخبرني بما قال لك : قال : فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس : نعم كانت السماوات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، فلما خلق للأرض أهلا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات . فرجع إلى ابن عمر فأخبره . فقال ابن عمر : الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علما ، صدق هكذا كانت ، قال ابن عمر : قد كنت أقول : ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسيره القرآن ؛ فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علما . وقال عطية العوفي : كانت هذه رتقا لا تمطر فأمرت ، وكانت هذه رتقا لا تنبت فأنبئت .

وقال سعيد بن جبير : بل كانت السماء والأرض ملتزقتين ، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك ففقهما الذي ذكر الله في كتابه . وقال الحسن وقادة : كانتا جميعا ففصل بينهما بهذا الهواء وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي : أصل كل الأحياء . وعن أبي هريرة أنه قال : يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأخبرنا عن كل شيء قال : «كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ» . قال : قلت : أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة . قال : «أَفْشِ السَّلَامَ ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» ^(١) .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي : جبالا أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس أي : تضطرب وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها ؛ لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع ، فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء ، وما فيها من الآيات الباهرات ، والحكم والدلالات ، ولهذا قال : ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي : لئلا تميد بهم ، وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي : ثغرا في الجبال يسلكون فيها طرقا من قطر إلى قطر ، ولهذا قال : ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا أَسْمَاءَ سَفَافًا تَحْقُوطًا﴾ أي : على الأرض ، وهي كالقبة عليها كما قال : ﴿وَأَسْمَاءُ بَيْنَتُهَا بِأَيْتٍ وَنَا لُؤَيْسُونَ﴾ فقال : ﴿وَأَسْمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ ، والبناء هو نصب القبة كما قال رسول الله ﷺ : «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» ^(٢) أي خمس دعائم ، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٥/٢) والحاكم في المستدرک (١٢٩/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ومسلم في الإيمان (١٩) .

﴿ تَحْفُظُنَا ﴾ أي : عاليًا محروسًا أن ينال . وقال مجاهد : مرفوعًا . وقوله : ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ أي : لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت ، والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة ، ففسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيورها . ثم قال منبها على بعض آياته : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضياؤه وأنسه ، يطول هذا تارة ، ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ هذه لها نور يخصصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر وفلك آخر ، وسير آخر وتقدير آخر . و ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي : يدورون ، قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة ، قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ، ولا يدور إلا بهن . كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَلَمْ يَجْعَلْ لَّيْلًا سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَلْحُدَّ أَفَّا يَنْ مِتَّ فَهُمْ لَخَالِدُونَ ﴾ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي يا محمد ﴿ أَلْحُدَّ ﴾ أي : في الدنيا بل ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ﴿ وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْمَلَكُوتِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ وقوله : ﴿ أَفَّا يَنْ مِتَّ ﴾ أي : يا محمد ﴿ فَهُمْ لَخَالِدُونَ ﴾ أي : يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ وقوله : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أي : نختبركم بالمصائب تارة ، وبالنعم أخرى ، فننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط . كما قال ابن عباس : ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ يقول نبتليكم . ﴿ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ . بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة . وقوله : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي : فنجازيكم بأعمالكم . ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّ يَخْذُلُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَاءَ الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَوِيكُمْ ءَايَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني : كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿ إِتَّ يَخْذُلُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا ﴾ أي : يستهزئون بك ويتقصونك ويقولون : ﴿ أَهْذَاءَ الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُتَكُمْ ؟ ﴾ يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم ؟ قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي : وهم كافرون بالله ، ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِتَّ يَخْذُلُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَاءَ الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهُتَكُمْ ﴾ ﴿ إِنَّ كَذَابَ لَيْسَانُنَا عَنْ إِلَهِتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَدْرَكَ عَلَيْنَا وَسَوَفَ يُعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَهْلُ سَبِيلٍ ﴾ وقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ أي : في الأمور ، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا ، أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم ، واستعجلت ذلك فقال الله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾ لأنه تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ،

يُوجَلْ ثُمَّ يَعْمَلُ ، وَيَنْظُرُ ثُمَّ لَا يُؤْخَرُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ سَأُولِيكُمْ عِلْمِي ﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٣٨ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ وَجْهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُصْزَرُونَ ٣٩ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدًّا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ٤٠ .
 يخبر تعالى عن المشركين أنهم : يستعجلون أيضًا بوقوع العذاب بهم تكذيبًا وجحودًا ، وكفرًا وعنادًا واستبعادًا . فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ وَجْهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ أي : لو تيقنوا أنهم واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا . ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ﴿ لَمْ يَنْ قَرَّبَهُمْ مُلْكًا مِنَ النَّارِ وَمِنْ قَبْلِهِمْ خُلُقٌ ﴾ ، ﴿ لَمْ يَنْ جَهَنَّمَ يَهَادُ وَمِنْ قَبْلِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ . وقال في هذه الآية : ﴿ حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ وَجْهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ وقال : ﴿ سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قِطْرَيْنِ وَتَقَشَّى وَجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم . ﴿ وَلَا هُمْ يُصْزَرُونَ ﴾ أي : لا ناصر لهم كما قال : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ آلَاءِ مِنْ وَاقٍ ﴾ وقوله : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أي تأتيتهم النار بغتة أي : فجأة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أي : تدعهم فيستسلمون لها حائرين لا يدرون ما يصنعون . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدًّا ﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أي : ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .
 ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَشْرَيْنَا لِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَكَأَنَّهُمْ بِالدِّينِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ٤١ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ٤٢ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ٤٣ .

يقول تعالى مسليًا لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ، ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَشْرَيْنَا لِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَكَأَنَّهُمْ بِالدِّينِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ يعني : من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه ، ثم ذكر تعالى نعمته على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار ، وكلايته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام فقال : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أي : بدل الرحمن يعني غيره . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أي : لا يعترفون بنعمة الله عليهم ، وإحسانه إليهم ، بل يعرضون عن آياته وآلائه ثم قال : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ؟ ﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ ، أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما توهموا لا ، ولا كما زعموا ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم . وقوله : ﴿ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قال ابن عباس : ولا هم منا يصحبون أي : لا يجارون . وقال قتادة : لا يصحبون من الله بخير . وقال غيره : ﴿ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ : يمنعون .

﴿ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِيُونَ ﴾ ٤٤ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ٤٥ وَلَكِنْ مَسَّئَلُهُمْ نَفْحَةً مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوَلِنَا إِيَّاهُ كُنَّا ظَالِمِينَ ٤٦ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ٤٧ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين : إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ، وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيء . ثم قال واعظاً لهم : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ . اختلف المفسرون في معناه ، وقد أسلفناه في سورة الرعد ، وأحسن ما فسر بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْكَفْرِ ﴾ . والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة ، وإنجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال : ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ . يعني بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾ أي : إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي ، ولكن لا يجدي هذا عن أعمى الله بصيرته ، وختم على سمعه وقلبه . ولهذا قال : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصَّوْتُ الذِّعَاءِ إِذَا مَا يُنذِرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَكِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي : ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ، ليعترفن بذنوبهم ، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا . وقوله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أي : ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه . وقوله : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ ، شُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ شُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ » ^(١) . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ اللَّهَ ﷻ يَسْتَخْلَصُ رَجُلًا مِّنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعُونَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مَدَ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظْلَمْتُكَ كِتَابِي الْخَافِظُونَ ؟ قَالَ : لَا يَا رَبِّ . قَالَ : أَفَلَاكَ عَذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ ؟ قَالَ : فَبِهَتْ الرَّجُلُ . فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى إِنْ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ لَا ظَلَمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَيُخْرِجُ لَهُ بَطَاقَةً فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَيَقُولُ : أَحْضَرُوهُ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ . قَالَ : فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ ، وَالبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ . قَالَ فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ ، وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ قَالَ : وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ مَعَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ^(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « تُوَضَّعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُوزَنُ بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ ، وَيُوضَعُ مَا أُخْصِيَ عَلَيْهِ فَيَمْلَأُ بِهِ الْمِيزَانُ قَالَ : فَيَبْتَعُ بِهِ إِلَى النَّارِ . قَالَ : فَإِذَا أُذْهِبَ بِهِ إِذَا صَاحِبٌ مِّنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ ﷻ يَقُولُ : لَا تَعْبَلُوا فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ ، فَيُوزَنُ بِبَطَاقَةٍ فِيهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُضِيَ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ حَتَّى يَمِيلَ بِهِ الْمِيزَانُ » ^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٦٨٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٢) والترمذي في سننه (٢٦٣٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٢١/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٨٢/١٠) .

وعن عائشة أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه فقال : يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأضر بهم وأستهم فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ ، وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلاً لَكَ عليهم ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافاً لَكَ وَلَا عَلَيْكَ ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتَصَصَ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ الَّذِي يَمُوتُ قِبْلَكَ » فجعل الرجل يكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف فقال رسول الله : « مَا لَهُ أَمَا يَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ » ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم ^(١) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُخْفَوُونَ ﴾ ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُكُونُوا ﴾ .

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما وبين كتابيهما . ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ قال مجاهد : يعني : الكتاب . وقال أبو صالح : التوراة وقال قتادة : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق الله بين الحق والباطل . وقال ابن زيد : يعني : النصر . وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد والحلال والحرام ، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب وهداية وخوفاً ، وإنابة وخشية ولهذا قال : ﴿ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : تذكيراً لهم وعظة ، ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ كقوله : ﴿ مَنْ حَتَّى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَهُ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ ، ﴿ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُخْفَوُونَ ﴾ أي : خائفون وجلون ، ثم قال تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يعني : القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُكُونُوا ﴾ أي أفنتكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور ؟

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ ﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَمَلَوا عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا مَلَا عِبِيدَةً ﴾ ﴿ قَالِ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴾ ﴿ قَالَ بَلْ زَعَمْتَ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع ، وأنه خرج به بعد أيام فنظر إلى الكوكب والمخلوقات فتبصر فيها ، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ، فعامتها أحاديث بني إسرائيل ، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقة الصحيح ، وما خالف شيئاً من ذلك ردناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدق ولا نكذب ، بل نجعله وقفاً ، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين ، ولو

كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم ، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة . والمتصود هاهنا أن الله تعالى أخبر أنه قد أتى إبراهيم رسده من قبل أي : من قبل ذلك . وقوله : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عَالِينَ ﴾ أي : وكان أهلاً لذلك ، ثم قال : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله ﷻ فقال : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ؟ أي : معتكفون على عبادتها .

وعن الأصبع بن نباتة قال : مر علي عليه السلام على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسه ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا مَلَكًا وَعِبْدِينَ ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال . ولهذا قال : ﴿ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم ، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم ، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا بِمِلْحٍ أَمْ أَنْتَ مِنَ النَّاصِيحِينَ ﴾ ؟ يقولون : هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعتبا أو محققاً فيه ، لم نسمع به قبلك . ﴿ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرْنَاهُ ﴾ أي : ربكم الذي لا إله غيره وهو الذي خلق السماوات والأرض ، وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن ، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي : وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ وَنَالَهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِيرِينَ ﴾ فَعَمَلُهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَمْ يَلْعَلَهُمْ إِلَهُ يَرْجِعُهُمْ ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فُلَانُ هَذَا يَتَّبِعُنَا يَنْبَرِيهِ ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَرُّهُمْ إِنِّ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ ﴾ .

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدهم أصنامهم أي ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أي : إلى عيدهم ، وكان لهم عيد يخرجون إليه ، قال السدي : لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه : يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال : إني سقيم فجعلوا يمشون عليه وهو صريع فيقولون : مه ! فيقول : إني سقيم ، فلما جاز عاتمتهم وبقي ضعفاؤهم قال : ﴿ وَنَالَهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ ﴾ فسمعه أولئك . وقال أبو الأحوص عن عبد الله قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس قال : ﴿ وَنَالَهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِيرِينَ ﴾ فسمعه ناس منهم . وقوله : ﴿ فَعَمَلُهُمْ جُدَادًا ﴾ أي : حطاماً كسرهما كلها ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَمْ يَلْعَلَهُمْ ﴾ كما قال : ﴿ فَرَجَّ عَلَيْهِمْ مَتَرًا بِأَلْيَمِينَ ﴾ وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَهُ يَرْجِعُهُمْ ﴾ ذكروا أنه وضع القدم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار

فكسرها ، ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : في صنيعه هذا . ﴿ قَالُوا سِعِينَا فَنَّى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي : قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم ﴿ سِعِينَا فَنَّى ﴾ أي : شائبًا يذكركهم ﴿ يُقَالُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، قال ابن عباس : ما بعث الله نبيًا إلا شائبًا ، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب وتلا هذه الآية : ﴿ قَالُوا سِعِينَا فَنَّى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ قَالُوا فَأَنَّى يؤتَى عَلَى آعْيُنِ النَّاسِ ﴾ أي : على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم . وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرًا ، ولا تملك لها نصرًا فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟ ﴿ قَالُوا أَأَتَتْكَ هَذِهِ بَنَاتُنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ١١٠ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَيْدُهُمْ هَذَا ﴾ يعني : الذي تركه لم يكسره ﴿ فَتَنَّاوَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ وإنما أراد بهذا أن يادروا من تلقاء أنفسهم ، فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد . وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : ثنتين في ذات الله قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُمُ كَيْدُهُمْ هَذَا ﴾ وقوله : ﴿ إِنْ سَقِمْ ﴾ قال وبيننا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلاً ، فأتى الجبار رجل فقال : إنه قد نزل هاهنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختي . قال : فاذهب فأرسل بها إلي ، فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فراها : أهوى إليها فتناولها ، فأخذ أخذًا شديدًا فقال ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأولين فقال : ادعي الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابها فقال : إنك لم تأتني بإنسان ، وإنما أتيتني بشيطان أخرجها وأعطاها هاجر . فأخرجت وأعطيته هاجر فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته . وقال : مهيم ؟ قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر » قال محمد بن سيرين فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يا بني ماء السماء .

﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ١١١ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ ١١٢ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ ١١٣ أَوَلَمْ تَكُ لَكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحرصاتهم لآلهتهم فقالوا : ﴿ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها ﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أي : أطرقوا في الأرض فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ قال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ وقال السدي : ﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أي : في الفتنة ، وقال ابن زيد : في الرأي . وقول قتادة أظهر في المعنى ؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزًا ، ولهذا قالوا له : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾

فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لا تنطق ؟ فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ أي : إذا كانت لا تنطق ولا تضر ، فلم تعبدونها من دون الله ﴿ أَفَلَا لَكُمْ عِلْمٌ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر . فأقام عليهم الحجة ، وألزمهم بها ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا إِنْتِهَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ الآية .
﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ قلنا ينار كوفي بزكا وسلكنا على إبراهيم ﴿ وَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ .

لما دحضت حجتهم وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم فقالوا : ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًا ، قال السدي : حتى إن كانت المرأة تمرض فتندر إن عوفيت أن تحمل حطبًا لحريق إبراهيم ، ثم جعلوا في جوبة من الأرض ، وأضرموها نارا فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها ، وجعلوا إبراهيم ^{عليه السلام} في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب من فارس الأكراد ، فلما ألقوه قال : حسبي الله ونعم الوكيل . كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال : « حسبي الله ونعم الوكيل » ، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ^{عليه السلام} حين قالوا : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ^(١) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ^ﷺ : « لما أُلقي إبراهيم ^{عليه السلام} في النار قال : اللَّهُمَّ إِنَّكَ فِي السَّمَاءِ وَاحِدٌ ، وَأَنَا فِي الْأَرْضِ وَاحِدٌ أَغْبِدُكَ » ^(٢) ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال : لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك . وقال شعيب الجبائي : كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة فالله أعلم . وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا وأما من الله فبلى ، ويروى عن ابن عباس أيضا قال : لما أُلقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر فأرسله ، قال : فكان أمر الله أسرع من أمره قال الله : ﴿ يَنَارُ كُوفِي بَرَكًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِِبْرَاهِيمَ ﴾ قال : لم يبق نار في الأرض إلا طفت ، وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أحد يومئذ بنار ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه . وعن علي بن أبي طالب : ﴿ قُلْنَا يَنَارُ كُوفِي بَرَكًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِِبْرَاهِيمَ ﴾ قال : لا تضر به ، وقال ابن عباس : لولا أن الله ^ﷻ قال : ﴿ وَسَلَامًا ﴾ لآذى إبراهيم بردها ، وقال قتادة : ولم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار ، إلا الوزغ . وقال الزهري : أمر النبي ^ﷺ بقتله وسماه فويسقا . وقوله : ﴿ وَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيدا فكادهم الله ، ونجاه من النار فغلبوا هنالك ، وقال عطية العوفي : لما أُلقي إبراهيم في النار جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه فأحرقته مثل الصوفة .

﴿ وَبَيَّنَّا لَهُ الْآرِضَ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ وَوَبَيَّنَّا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿ وَلَا جَعَلْنَا

(١) أخرجه البخاري في (التفسير) (٤٥٦٣) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠١/٨) والسيوطي في الدر المنثور (٣٢٢/٤) .

صَلِيلِينَ ﴿٧١﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٢﴾ وَلَوْ لَمْ يَأْمُرْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَوَعَيْنَاكَ مِنَ الْقَرِيْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ لَلْبَيْتِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسِيقِينَ ﴿٧٣﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٤﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم : أنه سلمه الله من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة منها . وعن أبي بن كعب في قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ قال : الشام وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة ، وقال قتادة : كان بأرض العراق فأجابه الله إلى الشام ، وكان يقال للشام : أعقار دار الهجرة وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وبها يهلك المسيح الدجال ﴿ وَوَعَيْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ قال عطاء ومجاهد : عطية ، وقال ابن عباس وقتادة : النافلة ولد الولد ، يعني أن يعقوب ولد لإسحاق ﴿ فَفَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَبِنَ وَزَكَوْهُ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : سأل واحداً فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة . ﴿ وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ أي : الجميع أهل خير وصلاح ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً ﴾ أي : يقتدى بهم ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي : يدعون إلى الله بإذنه ، ولهذا قال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ﴾ من باب عطف الخاص على العام . ﴿ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴾ أي : فاعلين لما يأمرون الناس به ، ثم عطف بذكر لوط ، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام ، واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى : ﴿ فَتَمَنَّاهُ لَوْ لَوْ ﴾ وقال إني مهاجرٌ إِيَّكَ رَبِّي ﴿ فَآتَاهُ اللَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، وَبَعَثَهُ إِلَى سِدُومَ وَأَعْمَالَهَا ، فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ، فَأَهْلَكَمُ اللَّهُ وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ، ولهذا قال : ﴿ وَوَعَيْنَاكَ مِنَ الْقَرِيْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ لَلْبَيْتِ لَأَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسِيقِينَ ﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٤﴾ .

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٥﴾ .

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وقال نوح : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أي الذين آمنوا به كما قال : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ وقوله : ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل ، وكانوا يتصدون لأذاه ، ويتواصون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على خلافه ، وقوله : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أي : ونجيناه وخلصنا منتصراً من القوم ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : أهلكهم الله بعامه ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد ، كما دعا عليهم نبيهم .

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَ فِيهِ غَسَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لَهُمْ شَهِيدِينَ ﴾ فَهَمَّهَا ﴿٧٦﴾

سُلَيْمَنَّ وَكَلَّا مَائِنًا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالِ يُسَبِّحُنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٨﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخَوِّصَكُمْ مِنْ بَاسِكُمْ فَبَلَّ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٩﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨٠﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّونَ لَهُ وَيَمْلُوكُ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ .

قال ابن عباس : النفس الرعي ، وقال شريح والزهرى وقادة : النفس لا يكون إلا بالليل زاد قتادة : والهمل بالنهار ، وعن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخُوضَانِ فِي الْغَرِيِّ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده ، فأفسدته قال : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها فذلك قوله : ﴿ فَفَهَنْتَهَا سُلَيْمَنَّ ﴾ وعن مسروق قال : الحرث الذي نفشت فيه الغنم ، إنما كان كرمًا فلم تدع فيه ورقة ولا عنقودًا من غنم إلا أكلته ، فأثوا داود فأعطاهم رقابها فقال سليمان : لا بل تؤخذ الغنم فيعطاهم أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ، ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه ، حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم ، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم . وقوله : ﴿ فَفَهَنْتَهَا سُلَيْمَنَّ وَكَلَّا مَائِنًا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى أياه الحسن فبكى قال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة ، فقال الحسن البصري : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكمًا يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم قال تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخُوضَانِ فِي الْغَرِيِّ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ فأتى الله على سليمان ولم يذم داود ثم قال - يعني الحسن - : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثًا : لا يشترى به ثمنًا قليلًا ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحدًا ثم تلا : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا الْنَاسَ وَخَشَوْا اللَّهَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا بِهَاجَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

قلت : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله تعالى ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما من سواهم ؛ فقد ثبت عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » ^(١) . وفي السنن : القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار . وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكما إلى داود ، فقضى به للكبرى فخرجتا ، فدعاهما سليمان ، فقال : هاتوا السكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى » ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في (الاعتصام) (٧٣٥٢) ومسلم في الأفضية (١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٧) ومسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٣٢٢/٢) .

وقوله : ﴿ وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ الآية ، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء ، فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويًا ، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب جدًا ، فوقف واستمع لقراءته وقال : « لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » قال : يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لجبرته لك تحبيرًا ^(١) . وقوله : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَفِّيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعني : صنعة الدروع . قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح ، وهو أول من سردها حلقًا كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَهُ لَلْحَدِيدِ ﴾ ^(٢) أَيْ أَعْمَلَ سَيْفَيْنِ وَقَدَرًا فِي السَّمَاءِ أَي : لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ، ولا تغلظ المسمار فتقيد الحلقة ولهذا قال : ﴿ لِيُخَفِّيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعني : في القتال ﴿ فَهَذَا أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ ؟ أي : نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم . وقوله : ﴿ وَاسْلَيْتَنَّا الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أي : وسخرنا لسليمان الريح العاصفة . ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ﴾ يعني أرض الشام . ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيول ، والجمال والحياض والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله ، فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به ، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشمه ، قال الله تعالى : ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجَّتُهُ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ ﴾ . قال سعيد بن جبير : كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي ، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ، ثم يأمر الطير فتظلمهم ، ثم يأمر الريح فتحملهم . وقوله : ﴿ وَفِي السَّحَابِ شَيْطَانِينَ مِنْ قَبُوسَاتٍ لَكُمْ ﴾ أي : في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك : ﴿ وَيَسْخَرُونَ عَسَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي غير ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ عَوَاسٍ ﴾ ^(٣) وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ . وقوله : ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء بل كل في قبضته ، وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه ، والقرب منه بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ^(٤) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ .

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية ، فابتلي في ذلك كله ، وذهب عن آخره ثم ابتلي في جسده يقال بالجذام في سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله ﷻ ، حتى عافه الجليس ، وأفرد في ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله ، وقد قال النبي ﷺ : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ » ^(٥) وفي الحديث الآخر : « يُمْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابةٌ زِيدَ فِي بَلَاءِهِ » ^(٦) وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٤٣/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/١) والترمذي في سننه (٢٣٩٨) .

قال : « إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً ، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا مِنْ أَحْصَى إِخْوَانِهِ لَهُ كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَزُورَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لَصَاحِبِهِ : تَعْلَمُ وَاللَّهِ لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبُهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَزَحْمُهُ اللَّهُ فَيَكْشِفْ مَا بِهِ فَلَمَّا رَاحَا إِلَيْهِ لَمْ يَضِيرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا أَذْرِي مَا تَقُولُ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأَكْفُرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةً أَنْ يَذْكُرَا اللَّهَ إِلَّا فِي حَقِّ » قَالَ : وَكَانَ يَخْرُجُ فِي حَاجَتِهِ ، فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتْ أَمْرَاتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ ، فَأَوْخَى اللَّهُ إِلَى أَيُّوبَ فِي مَكَانِهِ أَنْ ﴿ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ^(١) وعن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة ، فتنحى أيوب فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت : يا عبد الله أين ذهب هذا المبتلى الذي كان هاهنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئباب فجعلت تكلمه ساعة . فقال : ويحك أنا أيوب قالت : أتسخر مني يا عبد الله فقال : ويحك أنا أيوب قد رد الله جسدي ، وبه قال ابن عباس ، ورد عليه ماله وولده عياناً ومثلهم معهم ، وقال وهب بن منبه : أوحى الله إلى أيوب قد رددت عليك أهلَكَ ومالك ومثلهم معهم ، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاكَ ، وقرب عن صحابتك قرباناً ، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيكَ . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لَمَّا عَافَى اللَّهُ أَيُّوبَ أَمَطَرُ عَلَيْهِ جَرَادًا مِنْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ يَأْخُذُ مِنْهُ بِيَدِهِ وَيَجْعَلُهُ فِي نَوْبِهِ قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : يَا أَيُّوبُ أَمَا تَشْبَعُ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ وَمَنْ يَشْبَعُ مِنْ رَحْمَتِكَ ؟ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمَنْ لَهُمْ مَعَهُ ﴾ قد تقدم عن ابن عباس أنه قال : ردوا عليه بأعيانهم ، وقال مجاهد : قيل له : يا أيوب إن أهلَكَ لك في الجنة أتيتك بهم ، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناكَ مثلهم . قال : لا بل أتركهم في الجنة ، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا ، وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به . ﴿ وَذَكَرْنَاهُ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء أننا فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به في الصبر على مقادورات الله ، وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة في ذلك .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٣) وَأَذَلَّوْنَهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ . وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام وقد تقدم ذكره في سورة مريم ، وكذا إدريس عليه السلام ، وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي ، وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً ، وحكماً مقسطاً . وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم . قال مجاهد : رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ، ويقمهم له ويقضي بينهم بالعدل ، ففعل ذلك فسمي ذا الكفل .

وعن كنانة بن الأخنس قال : سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر : ما كان ذو الكفل بنبي ولكن كان - ويعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٣٣٢٠) والهيتمي بنحوه في مجمع الزوائد (٢٠٨/٨) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٨٢/٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٣١/٤) .

الكفل من بعده فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل .

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ٨٧ فاستجبنا له ونجّيناه من الغم وكذلك نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٨٨ .

هذه القصة مذكورة هاهنا وفي سورة الصافات وفي سورة ن ، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه ، وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ، ثم تضرعوا إلى الله تعالى ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ كَذِبًا كَفْتُمُ عَذَابَ الْآخِرِي فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَنَعْتَمَنَ إِلَىٰ يَمِينِ ﴾ .

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة ، فلجّجت بهم وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً ، فأبوا ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً قال الله تعالى ﴿ فَسَاءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام ، وتجرّد من ثيابه ، ثم ألقي نفسه في البحر ، وقد أرسل الله سبحانه حوتاً يشق البحار ، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقي نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك تكون له سجنًا ، وقوله : ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ يعني : الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة . وقوله : ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا ﴾ قال الضحاك لقومه . ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت . وقال عطية العوفي : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي : نقضي عليه كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير ، فإن العرب تقول قدر وقدر بمعنى واحد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي : قدر وقوله : ﴿ فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وذلك أنه ذهب به في البحر يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره فعند ذلك وهنالك قال : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿ وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منييين إلينا ، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء فقد جاء التّرجيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء . وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينه مني ثم لم يرّد عليّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء ؟ مرتين قال : لا وما ذاك ؟ قلت : لا إلا أنني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينه مني ثم لم يرّد عليّ السلام ، قال : فأرسل عمر إلي عثمان فدعاه فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت . قال سعد : قلت : بلى حتى حلف وحلفت قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى ، وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بي آنفاً ، وأنا أحدث نفسي بكلمة

سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة ، قال سعد : فأنا أنبيئك بها إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله ، حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال : « مَنْ هَذَا أَبُو إِسْحَاقَ ؟ » قال : قلت : نعم يا رسول الله ، قال : « فَمَهْ ؟ » قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك قال : « نَعَمْ دَعْوَةُ ذِي الثَّوْنِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحَوْبِ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُثْلِمَ رَبِّهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ » ^(١) . وعنه ﷺ : « مَنْ دَعَا بِدَعَاءِ يُونُسَ اسْتَجِيبَ لَهُ » ^(٢) قال أبو سعيد : يريد به ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وعن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسمُ الله الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ ، دَعْوَةُ يُونُسَ بْنِ مَتَّى » قال : قلت : يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هي ليونس بن متى خاصة وَلِجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةٌ ، إِذَا دَعَوْا بِهَا أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ : ﴿ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصْحِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فَهُوَ شَرْطٌ مِنَ اللَّهِ لِمَنْ دَعَاهُ بِهِ » ^(٣) .

﴿ وَكَرِهْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ^(٤) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَعَيْنَا لَهُ نَجْوَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً ، ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أي : خفية عن قومه ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أي : لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة قال الله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَعَيْنَا لَهُ نَجْوَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ أي : امرأته قال ابن عباس : كانت عاقراً لا تلد ، فولدت ، وقال عطاء : كان في لسانها طول فأصلحها الله ، وفي رواية : كان في خلقها شيء فأصلحها الله ، والأظهر من السياق الأول . وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي : في عمل القربات ، وفعل الطاعات . ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ قال الثوري : رغباً فيما عندنا ورهباً مما عندنا ، ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ قال ابن عباس أي : مصدقين بما أنزل الله وقال . مجاهد : مؤمنين حقاً . وقال أبو العالية : خائفين . وقال أبو سنان : الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً ، وعن مجاهد أيضاً : أي متواضعين ، وقال الحسن وقتادة والضحاك : أي : متذللين لله ﷻ وكل هذه الأقوال متقاربة ، وقال عبد الله بن حكيم : خطبنا أبو بكر ﷺ قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله ، وتشوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله ﷻ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ .

﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَجْعَهَا فَتَفْخَأُ فِيهَا مِنْ زَوْجِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى ﷺ مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى ﷺ فيذكر

(٢) ذكره الحاكم في المستدرک (٥٨٤/٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٠/١) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠٧/١٩) (١٨٧٢٤) .

أولاً : قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ؛ لأن تلك مربوطه بهذه ، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر ، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم ، وهاتنا ذكر قصة زكريا ، ثم أتبعها بقصة مريم بقوله : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَرَّجَهَا وَوَجَدْنَاهَا مَكِينًا ﴾ ، يعني : مريم عليها السلام ، كما قال في سورة التحريم : ﴿ وَنَزَّهَتْ بَنَاتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ وقوله : ﴿ وَحَمَلْنَاهَا وَابْنَهَا مَائَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي : دلالة على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله : ﴿ وَلَنَجْعَلَ لَّهُنَّ الْوَنِينَ ﴾ قال ابن عباس في قوله : ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ : الجن والإنس .

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ٩٢ ﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهَةٍ بِرِجْوَةٍ ٩٣ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ٩٤ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ٩٥

قال ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ يقول : دينكم دين واحد ، وقال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ » يعني : أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله . وقوله : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : اختلف الأمم على رسلها ، فمن بين مصدق لهم ومكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ كُلُّ إِلَهَةٍ بِرِجْوَةٍ ﴾ أي : يوم القيامة ، فيجازي كل بحسب عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ أي قلبه مصدق وعمل عملاً صالحاً ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ ﴾ كقوله : ﴿ إِنْ أَتَاكَ نَفْسٌ بِأَمْرٍ مِّنْ أَحْسَنَ عَمَلٍ ﴾ أي لا يكفر سعيه ، وهو عمله ، بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا لَهُمْ كَاتِبُونَ ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء .

﴿ وَكَرَّمُوا عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكَنَاهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ٩٦ ﴾ حَقَّتْ لِمَنِ الْوَيْلُ إِذَا قُضِيَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ بَيْنَ كَلْبٍ وَنَسْلِئُونَ ٩٧ وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بَيُّوتَهُمْ كَعُنَىٰ فِي غَفَلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلَّ كَعُنَىٰ ظَلِيلَةٍ ٩٨

يقول تعالى : ﴿ وَكَرَّمُوا عَلَى قَرْبَةٍ ﴾ قال ابن عباس : وجب يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة . وعن ابن عباس أيضاً أنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ، والقول الأول أظهر والله أعلم . وقوله : ﴿ حَقَّتْ لِمَنِ الْوَيْلُ إِذَا قُضِيَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام بل من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث ، أي أمي الترك والترك شذمة منهم : ﴿ حَقَّتْ لِمَنِ الْوَيْلُ إِذَا قُضِيَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ بَيْنَ كَلْبٍ وَنَسْلِئُونَ ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد والحذب : هو المرتفع من الأرض قاله ابن عباس ، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ هذا إخبار عالم ما كان وما يكون ، الذي يعلم غيب السماوات والأرض لا إله إلا هو . وعن عبد الله بن أبي يزيد قال : رأى ابن عباس صبيانياً ينزو بعضهم على بعض يلعبون ، فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج ^(١) ، وقد ورد ذكر

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١١٦/١٩) (١٨٧٤٤) .

خروجهم في أحداث متعددة من السنة النبوية . فعن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله ﷻ : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ فيغشون الناس ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض حتى أن بعضهم ليمر بالنهر ، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابسا ، حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر ، فيقول : قد كان ها هنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس أحد ، إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء ، قال : ثم يهرأ أحدهم حربته ، ثم يرمي بها إلى السماء ، فترجع إليه مخضبة دما للبلاء والفتنة . فبينما هم على ذلك بعث الله ﷻ دودا في أعناقهم كنفج الجراد الذي يخرج في أعناقهم ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو ؟ قال : فينحدر رجل منهم محتسبا نفسه قد أوطئها على أنه مقتول ، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض ، فينادى : يا معشر المسلمين : ألا أبشروا إن الله ﷻ قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم رعي إلا لحومهم ، فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط » ^(١) .

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق ، فعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيُخْرِجَنَّ هَذَا الْبَيْتَ ، وَلَيَغْتَمِرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ » ^(٢) . وقوله : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل ، والبلابل أزفت الساعة ، واقترب فإذا كانت ووقعت قال الكافرون : هذا يوم عسر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا مِنْ شَخْصَةٍ أَنْبَشَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿ بَيِّنَاتًا ﴾ أي : يقولون : يا ويلنا ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ أي : في الدنيا ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴾ ^(٣) لو كانت هؤلاء آلهة ما وردوها وكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ^(٤) لهم فيها زفيرٌ وهم فيها لا يسمعون ^(٥) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَةُ أُولَئِكَ عَنِهَا مَعْدُونٌ ^(٦) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ^(٧) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿ يقول تعالى مخاطبا لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان . ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قال ابن عباس : أي : وقودها يعني كقوله : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ وقال ابن عباس أيضا : ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ يعني شجر جهنم ، وفي رواية : يعني حطب جهنم بالزنجية ، وقال مجاهد : حطبها . وقال الضحاك : أي ما يرمى به فيها .

وكذا قال غيره ، والجميع قريب وقوله : ﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴾ أي : داخلون ﴿ لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا ﴾ يعني : لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٧/٣) وابن ماجه في سننه (٤٠٧٩) والحاكم في المستدرک (٢٤٥/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧/٣) .

صحيحة ، لما وردوا النار وما دخلوها . ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي : العابدين ومعبوداتهم كلهم فيها خالدين ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَشِهيقٌ ﴾ والزفير خروج أنفاسهم والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ .

قال ابن مسعود : إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توايت من نار فيها مسامير من نار ، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره ثم تلا عبد الله ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ قال عكرمة : الرحمة . وقال غيره : السعادة ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله ، وهم الذين أسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال : ﴿ هَذَا جَزَاءُ الَّذِينَ إِلَّا الْإِخْسَافُ ﴾ فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجاهم من العذاب ، وحصل لهم جزيل الثواب فقال : ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَيْثُ سَاءَ ﴾ أي : حريقها في الأجساد ، وعن أبي عثمان ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَيْثُ سَاءَ ﴾ قال : حيات على الصراط تلسعهم فإذا لسعتهم قال : حس حس .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي مَا اسْتَنَّتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ فسلمهم من الحذور والمهروب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب . وعن ابن عباس قال في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ : فأولئك أولياء الله يملكون على الصراط مراً هو أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثثاً فهذا مطابق لما ذكرناه ، وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين ، وخرج منهم عزيز والمسيح . كما قال ابن عباس ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴾ ثم استثنى فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ فيقال : هم الملائكة وعيسى ، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله ﷻ . وقال ابن عباس : نزلت في عيسى ابن مريم وعزيز ﷺ .

وقال مجاهد ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ . قال : عيسى وعزيز والملائكة . وقال الضحاك : عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر . وقوله : ﴿ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا الْقَرْعُ الْأَكْبَرُ ﴾ قيل : المراد بذلك الموت وقيل : المراد بالفرع الأكبر النفخة في الصور . وقيل : حين يؤمر بالعبد إلى النار . وقيل : حين تطبق النار على أهلها . وقيل : حين يذبح الموت بين الجنة والنار ، وقوله : ﴿ وَنَلْقَاهُمْ لَمَّا أَصْبَحُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يعني ، تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم : ﴿ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أي فأملوا ما يسركم .

﴿ يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ كما بدأنا . أَوَّلَ خَلْقِي يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلين . يقول تعالى هذا كائن يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وعن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ الْأَرْضَ وَتَكُونُ السَّمَاوَاتُ بِمِيزَانِهِ ﴾ ^(١) . وعن ابن عباس قال : يطوي الله السماوات السبع بما فيها من

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (١٩) .

الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة ، يطوي ذلك كله يمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة ، وقوله : ﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ قيل : المراد بالسجل الكتاب ، وقيل : المراد بالسجل ها هنا ملك من الملائكة ، وعن ابن عمر في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ ، قال : السجل ملك فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبها نوراً . والصحيح عن ابن عباس : أن السجل هي الصحيفة . قاله علي بن أبي طلحة والعوفي عنه ، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم يطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب بمعنى المكتوب كقوله : ﴿ قَلَمًا أَسْكَنَّا وَتَلَّهُ لَبِيبِينَ ﴾ أي على اللببين ، وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ يعني : هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم ، وذلك واجب الوقوع ؛ لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل ، وهو القادر على ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ وعن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « إِنَّكُمْ مَخْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ ﷻ حِفَاةٌ غُرَاةٌ غُرَاةٌ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » وذكر تمام الحديث ^(١) . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ قال : يهلك كل شيء كما كان أول مرة .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ ^(٢) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ^(٣) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ .

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَحَسَلُوا الْأَمْلَاحَ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَبَئِنَّ أَيْدِيهِمْ إِلَى اللَّهِ آتِضِينَ لَمْ ﴾ وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية ، وهو كائن لا محالة ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ قال الأعمش : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ فقال الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن . وقال مجاهد : الزبور : الكتاب ، وقال ابن عباس وغير واحد : الزبور الذي أنزل على داود ، والذكر التوراة ، وعن ابن عباس الذكر : القرآن . وقال سعيد بن جبير : الذكر الذي في السماء . وقال مجاهد : الزبور الكتب بعد الذكر ، والذكر أم الكتاب عند الله ، وكذا قال زيد بن أسلم : وهو الكتاب الأول . وقال الثوري : هو اللوح المحفوظ ، وقال عبد الرحمن ابن زيد : الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء ، والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك ، وقال ابن عباس : أخبر الله ﷻ في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون .

وقال ابن عباس ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ قال : أرض الجنة وقال أبو الدرداء : نحن الصالحون ، وقال السدي : هم المؤمنون ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ أي : إن في

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٤٠) ومسلم في الجنة (٥٦) وأحمد في مسنده (٢٣٥/١) .

هذا القرآن الذي أنزلناه على محمد ﷺ . ﴿ بَلِّغْنَا ﴾ لمنفعة وكفاية ﴿ لِقَوْمٍ عَصِيبٍ ﴾ ، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه ، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان ، وشهوات أنفسهم وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين - أي أرسله رحمة لهم - كلهم ، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ، ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة كما قال تعالى في صفة القرآن : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبُشْرَىٰ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي مَآذِنِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وعن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ادع على المشركين ؟ قال : « إِنِّي لَمْ أَتُبَّ لَنَاثًا ، وَإِنَّمَا يُعِثُّ رَحْمَةً » ^(١) وعن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزة : يا معشر قريش إن محمداً نزل يثرب ، وأرسل طلابه ، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً ، فاحذروا أن تمروا طريقه أو تقاربوه ، فإنه كالأسد الضاري ، إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم ، والله إن له لسحرة ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين ، وإنكم قد عرفتم عداوة بني قيلة - يعني الأوس والخزرج - فهو عدو استعان بعدو ، فقال له مطعم بن عدي : يا أبا الحكم والله ما رأيت أحداً أصدق لساناً ولا أصدق موعداً من أخيكم الذي طردتم وإذا فعلتم الذي فعلتم ، فكونوا أكف الناس عنه ، قال أبو سفيان بن الحارث : كونوا أشد ما كنتم عليه إن ابني قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، وإن أطعتموني ألقائهم خير كنانة أو تخرجوا محمداً من بين ظهرانيهم فيكون وحيداً مطروداً ، وأما ابنا قيلة فوالله ما هما وأهل دهلك في المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم وقال :

سَأَمْنَحُ جَانِبًا مِنِّي غَلِيظًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وَبُعْدٍ
رِجَالُ الْخَزْرَجِئَةِ أَهْلٌ ذُلٌّ إِذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ حِدٍّ

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ قال « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَقْتُلُهُمْ وَلَا صَلْبُتُهُمْ وَلَا هُدْيَتُهُمْ وَهُمْ كَارِهِوْنَ ، إِنِّي رَحْمَةٌ بَعَثْتَنِي اللَّهُ وَلَا يَتَوَفَّانِي حَتَّى يُظْهِرَ اللَّهُ دِينَهُ ، لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ ؛ أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ ، وَأَنَا الْعَاقِبُ » ^(٢) .

وعن عمرو بن أبي قرعة الكندي قال : كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان : يا حذيفة إن رسول الله ﷺ خطب فقال : « أَيُّمَا رَجُلٍ سَبَّيْتُهُ فِي غَضَبِي أَوْ لَعَنْتُهُ ، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَغْضَبُ كَمَا تَغْضِبُونَ ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي اللَّهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ فَأَجْعَلُهَا صَلَاةً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٣) . فإن قيل فأبي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس : في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ قال : من آمن بالله

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) والطبراني في الكبير (١٨٩/١٩) .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٣٢٠) والتفسير (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (١٢٤ ، ١٢٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٥) أبو داود في سننه (٤٦٥٩) .

واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَعَلَّ أَنْتُمْ شُكِّلْتُمْ ﴾ ١٠٨ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ مَآذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرَىٰ أَذْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ ١٠٩ ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ ١١٠ ﴿ وَإِنْ أَذْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ١١١ ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ١١٢ .

يقول تعالى أمرا رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين ﴿ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَعَلَّ أَنْتُمْ شُكِّلْتُمْ ﴾ أي : متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له . ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي : تركوا ما دعوتهم إليه . ﴿ قُلْ مَآذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أي : أعلمتكم أنني حرب لكم كما أنكم حرب لي ، بريء منكم كما أنتم برآء مني ، كقوله : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِنَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّا نَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَأَنذِرْ لِبَنِيهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أي : ليكن علمك وعلمهم بنذ العهد على السواء وهكذا ها هنا . ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ مَآذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أي : أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك .

وقوله : ﴿ وَإِنْ أَذْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ أي : هو واقع لا محالة ، ولكن لا علم لي بقربه ، ولا يبعده ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أي : إن الله يعلم الغيب جميعه ، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم ، وسيجزيهم على ذلك ، على القليل والجليل . وقوله : ﴿ وَإِنْ أَذْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومناع إلى حين ؟ قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومناع إلى أجل مسمى ، ﴿ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ أي : افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة : كانت الأنبياء ﷺ يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك . كان ﷺ إذا شهد غزاة قال : ﴿ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ﴾ . وقوله : ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي : على ما يقولون ويفترون من الكذب ، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك ، والله المستعان عليكم في ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ ١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مُرْمِضَةٍ عَمَّا أَرْسَعَتْ وَتَضَعُ كُلَّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾
يقول تعالى أمرا عباده بتقواه ، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وقد اختلف
المفسرون في زلزلة الساعة ، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ؟ أو
ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجدانهم كما قال تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ٣﴾
وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٤ . وقال تعالى : ﴿إِذَا رَمَتْ الْأَرْضُ رِبًّا ٥﴾ وَنَسَبَتِ الْجِبَالُ بُسًا ٦ الآية . فقال
قائلون : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة ، وقال علقمة في قوله : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ ١﴾ : قبل الساعة ^(١) ، وعن غامر الشعبي قال : هذا في الدنيا قبل القيامة ،
وفي حديث الصور عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَرَعَ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ ، فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ فَهَوَّ وَاضْمَعَهُ عَلَىٰ فِيهِ شَاحِصٌ يَبْصُرُهُ إِلَى الْعَرْشِ يَنْتَظِرُ مَتَى
يُؤْمَرُ» ، قال أبو هريرة : يا رسول الله وما الصور ؟ قال : قرن . قال : فكيف هو ؟ قال : « قَرْنٌ عَظِيمٌ
يُنْفَخُ فِيهِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ : الْأُولَى : نَفَخَةُ الْفَرْع . وَالثَّانِيَةُ : نَفَخَةُ الصُّعْقِ . وَالثَّالِثَةُ : نَفَخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ، يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفَخَةِ الْأُولَى فَيَقُولُ : انْفُخْ نَفَخَةَ الْفَرْع ، فَيَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ
الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَيَأْمُرُهُ فَيَمُدُّهَا وَيُطَوِّلُهَا وَلَا يَفْشَرُ وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا يَنْظُرُ
هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ٧﴾ فَتَسِيرُ الْجِبَالُ فَتَكُونُ تُرَابًا ، وَتَرْجُ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا رِجًّا ، وَهِيَ الَّتِي
يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاحِفَةُ ٨﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِقَةُ ٩ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ ١٠ . فَتَكُونُ الْأَرْضُ كَالسَّفِينَةِ
الْمُوقَبَةِ فِي الْبَحْرِ تَضْرِبُهَا الْأَمْوَاجُ تَكْفُفُهَا بِأَهْلِهَا ، وَكَالْقَنْدِيلِ الْمُلَقَّى بِالْعَوْسِ تُرْجَحُهُ الْأَرْوَاحُ فَيَمْنَدُ
النَّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا ، فَتُذْهِلُ الْمَرَاضِعُ ، وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ ، وَيَشِيْبُ الْوِلْدَانُ ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً حَتَّى
تَأْتِيَ الْأَقْطَارَ ، فَتَلْقَاهَا الْمَلَائِكَةُ فَتَضْرِبُ وَجُوهَهَا فَتَرْجِعُ ، وَيُؤَلِّي النَّاسُ مُذِيرِينَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ،
وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿يَوْمَ النَّادِ ١١﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَذِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ
مِنْ هَادٍ ١٢﴾ . فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ إِذْ انْصَدَعَتِ الْأَرْضُ مِنْ قَطَرٍ إِلَى قَطَرٍ ، وَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا ، فَأَخَذَهُمْ
لِذَلِكَ مِنَ الْكَرْبِ مَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ ، ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا هِيَ كَالْمُهْلِ ، ثُمَّ خُسِفَ شَمْسُهَا
وَقَمَرُهَا ، وَانْتَثَرَتْ نُجُومُهَا ، ثُمَّ كُشِطَتْ عَنْهُمْ - قال رسول الله ﷺ : وَالْأَمْوَاتُ لَا يَغْلَمُونَ بِشَيْءٍ
مِنْ ذَلِكَ ١٣ . قال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : ﴿فَنَفِخَ مِنْ فِي السَّمَكَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ
شَاءَ اللَّهُ ١٤﴾ قال : « أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفرع إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ،
ووقاهم الله شر ذلك اليوم ، وآمنهم وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، وهو الذي يقول الله :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّكَ زَلْزَلَهُ السَّاعَةَ شَفْءٌ عَظِيمٌ ١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾ (١) وهذا الحديث الغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة ، أضيفت إلى الساعة لقربها منها ، كما يقال : أشرط الساعة ، ونحو ذلك والله أعلم . وقال آخرون : بل ذلك هول وفرع وزلزال ، ولبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور ، واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث منها : عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال - وهو في بعض أسفاره - وقد تقارب من أصحاب السير ، رفع بهاتين الآيتين صوته - : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّكَ زَلْزَلَهُ السَّاعَةَ شَفْءٌ عَظِيمٌ ٣﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٤﴾ ، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي ، وعرفوا أنه عند قول يقوله : فلما دنوا حوله قال : « أَتَذَرُونَ أَيُّ يَوْمَ ذَاكَ ، ذَاكَ يَوْمٌ يُنَادِي آدَمُ الطَّيِّبُ ، فَيُنَادِيهِ رَبُّهُ ﷻ فَيَقُولُ : يَا آدَمُ ابْعَثْ بَعَثَكَ إِلَى النَّارِ . فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارِ ؟ فَيَقُولُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ » ، قال : فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا أيضًا حكمه ، فلما رأى ذلك قال : « أَبْشِرُوا وَاعْمَلُوا ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتْمَا مَعَ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا كَثُرَتْمَا يُأْجَرُجُ وَمَأْجُوجُ ، وَمَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ » - قال : فسرى عنهم - ثم قال : « اْعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَحْرِ أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّائِيَّةِ » (٢) .

وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال : لما نزلت ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّكَ زَلْزَلَهُ السَّاعَةَ شَفْءٌ عَظِيمٌ ٥﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٦﴾ قال : نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال : « أَتَذَرُونَ أَيُّ يَوْمَ ذَاكَ ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذَلِكَ يَوْمَ يَقُولُ اللَّهُ لآدَمَ : ابْعَثْ بَعَثَ النَّارِ . قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارِ ؟ قَالَ : تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ » .

فأنشأ المسلمون يكون فقال رسول الله ﷺ : « قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوءَةً قَطُّ إِلَّا كَانَ يَتَرَنُّ يَذْهَبُهَا جَاهِلِيَّةٌ قَالَ : فَيُؤْخَذُ الْعَدُوُّ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنْ تَمَّتْ وَإِلَّا كَمَلَتْ مِنَ الْمُتَافِقِينَ ، وَمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْأُمِّ إِلَّا كَمَثَلِ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّائِيَّةِ ، أَوْ كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَحْرِ - ثم قال : إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ - فَكَبِّرُوا ثُمَّ قَالَ : إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ - فَكَبِّرُوا ثُمَّ قَالَ : إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » ، فكبروا . ثم قال : ولا أدري أقال : الثلاثين أم لا (٣) .

وعن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا آدَمُ فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ . قَالَ : يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارِ ؟ قَالَ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ - أَرَاهُ قَالَ : تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ، فَحَيْثُ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا ،

(١) أورده ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٦/١٩) (١٨٨٣٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٦٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٢/٤) .

وَيَشِيبُ الرَّيْلُ . ﴿ وَرَى النَّاسَ سُكْرَى وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ . فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم . قال النبي ﷺ : ﴿ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تَشْعِمَانَهُ وَتَشَعُّونَ ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ ، أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ ، إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ - فَكَبِّرْنَا ، ثُمَّ قَالَ : ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ - فَكَبِّرْنَا ، ثُمَّ قَالَ : شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ﴾ . فكبرنا ^(١) .

وعن عائشة عن النبي ﷺ قال : ﴿ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِفَاءً غُرَاءً غُرْلًا ﴾ ، قالت عائشة : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : ﴿ يَا عَائِشَةُ إِنَّ الْأَمْرَ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَلِكَ ﴾ ^(٢) .

والأحاديث في أهوال يوم القيامة ، والآثار كثيرة جدًا لها موضع آخر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَفْءٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مقطع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب ، والزلازل هو ما يحصل للنفس من الرعب والفرع كما قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْهَا ﴾ هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسرنا له ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أي : فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه ، تدهش عنه في حال إرضاعها له ، ولهذا قال : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ولم يقل مرضع ، وقال : ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أي عن رضيعها قبل فطامه ، وقوله : ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي : قبل تمامه لشدة الهول ﴿ وَرَى النَّاسَ سُكْرَى ﴾ وقرئ ﴿ سكرى ﴾ ^(٣) أي : من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

﴿ وَين النَّاس من يُجْدِل في الله يغيّر عليه ويتبع كل شيطان مريد ﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ .

يقول تعالى دائمًا لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى معرضًا عما أنزل الله على أنبيائه متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل ، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء ولهذا قال في شأنهم وأشباههم . ﴿ وَين النَّاس من يُجْدِل في الله يغيّر عليه ﴾ أي : علم صحيح ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلُّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴿ قَالَ مجاهد : يعني الشيطان يعني : كتب عليه كتابة قدرية . ﴿ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴾ أي اتبعه وقلده . ﴿ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي : يضلّه في الدنيا ، ويقوده في الآخرة إلى عذاب

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٤١) ومسلم (٢٠١) .

(٢) أخرجه البخاري في (أحاديث الأنبياء) (٣٣٤٩) ومسلم في (الجنة) (٥٨) والإمام أحمد في مسنده (٥٣/٦) .

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (سكرى) بفتح السين وكسر الكاف من غير ألف والباقيون بضم السين وفتح الكاف وألف (انظر :

تقريب النشر من : ١٤٥) .

السعير ، وهو الحار المؤلم المقلق ، المزعج . وعن أبي مالك قال : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث . وعن أبي كعب المكي قال : قال خبيث من خبيثاء قريش : أخبرنا عن ربكم من ذهب هو أو من فضة أو من نحاس هو ؟ فتقعقت السماء قعقة - والقعقة في كلام العرب الرعد - فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه ، وقال مجاهد : جاء يهودي فقال : يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو من در أم من ياقوت ؟ قال : فجاءت صاعقة فأخذته .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُفِئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لَكُمْ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَبَرَى الْأَرْضَ هَائِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِ الْمَوْتُ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ .

لما ذكر تعالى المخالف للبعث النكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أي : في شك ﴿ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ وهو المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد ، يوم القيامة ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ ﴾ أي : أصل برئه لكم من تراب وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام . ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أي : ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين . ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقه حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ، ورجلان وسائر الأعضاء ، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقىها ، وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي كما تشاهدونها ﴿ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُفِئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لَكُمْ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : وتارة تستقر في الرحم لا تلقىها المرأة ولا تسقطها ، كما قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله تعالى من حسن وقبح ، وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقي أو سعيد ، كما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق :

« إِنْ خُلِقَ أَحَدُكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَعَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ » (١) .

وعن الشعبي ، عن علقمة عن عبد الله قال : النطفة إذا استقرت في الرحم ، جاءها ملك بكفه فقال : يا رب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل : غير مخلقة لم تكن نسمة وقدفتها الأرحام دماً ، وإن قيل : مخلقة . قال : أي رب ذكر أو أنثى ، شقي أو سعيد ما الأجل وما الأثر ، وبأي أرض

يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله . فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله . فيقال له : اذهب إلى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة قال : فتخلق فتعيش في أجلها ، وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في الأرض ، ثم تلا عامر الشعبي ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة ، وإن كانت غير مخلقة قذفها الأرحام دماً ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة . وعن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال : «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ ، فَيَقُولُ : أَيُّ رَبِّ أَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ : وَيَكْتُبَانِ . فَيَقُولُ : أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فيقول الله ويكتبان ، ويكتب عمله وأثره ورزقه ، وأجله ، ثم تطوى الصحف فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص » ^(١) . وقوله : ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أي : ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً ، ويلطف به ويحن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار ؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ﴾ أي يتكامل القوي ويتزايد ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر ، ﴿ وَرَيْنَكُمْ مِّن يُّنُوفٍ ﴾ أي : في حال شبابه وقواه ﴿ وَرَيْنَكُمْ مَّن يُّرَدُّ لِيَكَ أَرْدَى الْأُمْرِ ﴾ وهو : الشيخوخة والهزم ، وضعف القوة والعقل والفهم ، وتناقص الأحوال من الخرف ، وضعف الفكر ؛ ولهذا قال : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَذَرَى الْأَرْضَ هَائِلَةً ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة ، وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء . وقال قتادة : غبراء متهشمة . وقال السدي : ميتة ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَيْجٍ ﴾ أي : فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها ، وربت أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشجار النبات في اختلاف ألوانها وطعومها ، وروائحها وأشكالها ومنافعها . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَيْجٍ ﴾ أي : حسن المنظر طيب الريح . وقوله : ﴿ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْخَقُّ ﴾ أي : الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿ وَأَنْتُمْ بَيْنَ يَدَيْ أَلْوَقِ ﴾ أي : كما أحيا الأرض الميتة ، وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُتَّى أَلْوَقِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أي : يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم ربما ويوجدهم بعد العدم . كما قال تعالى : ﴿ وَصَرَّبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَأْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ . والآيات في هذا كثيرة .

وعن أبي رزين العقيلي واسمه لقيط بن عامر أنه قال : يا رسول الله أكلنا يرى ربه ﷻ يوم القيامة

(١) أخرجه مسلم في (القدر) (٢) والإمام أحمد في مسنده (٧ / ٤) .

وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَنْظُرُ إِلَى الْقَمَرِ مُخْلِطًا بِهِ ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فَاللَّهُ أَعْظَمُ » قال : قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أَمَّا مَرَزَتْ بِوَادِي أَهْلِكَ مُجْجَلًا ؟ » ، قال : بلى . قال : « ثُمَّ مَرَزَتْ بِهِ يَهْتَرُ خَضِرًا ؟ » قال : بلى قال : « فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ، وَكَذَلِكَ آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ » وعن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور دخل الجنة ^(١) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ﴾ ﴿ فَأَنَّى يُعْطِيهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ بَذَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ﴾ أي : بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى ، وقوله : ﴿ فَأَنَّى يُعْطِيهِ ﴾ . قال ابن عباس وغيره : مستكبر عن الحق إذا دعي إليه ، وقال زيد ابن أسلم أي : لاوي عطفه وهي رقبته ، يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق ، ويشني رقبته استكباراً كقوله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ ثُيُوتٍ ﴿٧٧﴾ فَتَوَكَّلَ بِرُكْبِهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ وقال لقمان لابنه : ﴿ وَلَا تَصَغِيرَ خَنَكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : تميله عنهم استكباراً عليهم ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنَّا مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال بعضهم : هذه لام العاقبة ؛ لأنه قد لا يقصد ذلك ، ويحتمل أن تكون لام التعليل . ثم إما أن يكون المراد بها المعاندون ، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله . ثم قال تعالى : ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ وهو الإهانة والذل ، ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ . ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَذَاكَ ﴾ أي : يقال له هذا تقريباً وتوبيخاً ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيمِ ﴿٧٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٧٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ . وقال الحسن : بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْأَمِينُ ﴿٨٠﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٨١﴾ يَدْعُوا لَمَن صَرَفَهُمْ عَنْ قُرْبِ مَن نَّفَعُهُمْ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ لِلْعَشِيرَةِ ﴾ .

قال مجاهد وقتادة وغيرهما ﴿ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ على شك . وقال غيرهم : على طرف ، ومنه حرف الجبل أي طرفه أي دخل في الدين على طرف ، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر . قال ابن عباس : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء . وقال ابن أبي حاتم : عن ابن عباس قال : كان

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١١/٤) والحاكم في المستدرک (٥٦٠/٤) .

ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم وجدوا عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به . وإن وجدوا عام جدوبة ، وعام ولاد سوء ، وعام قحط قالوا : ما في ديننا هذا خير . فأنزل الله على نبيه : ﴿ وَبَيْنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ الآية .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه ، وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه ، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أي : ارتد كافرا . وقوله : ﴿ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أي : فلا هو حصل من الدنيا على شيء ، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْأَبْسُ ﴾ أي : هذه الخسارة العظيمة ، والصفقة الخاسرة . وقوله : ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ أي : من الأصنام والأنباد يستغيث بها ويستنصرها ، ويسترزقها وهي لا تنفعه ولا تنصره ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَدْعُوا لِمَن صَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ أي : ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها ، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن . وقوله : ﴿ لَيْسَ أَلْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴾ قال مجاهد : يعني الوثن ، يعني بشس هذا الذي دعاه من دون الله مولى ، يعني : وليا وناصر . ﴿ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴾ وهو المخالط والمعاشر . واختار ابن جرير أن المراد لبش ابن العم والصاحب ^(١) ﴿ مَن يَبْعُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ فَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ وقول مجاهد : إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام والله أعلم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .
لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء ، عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا بإيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات ، وتركوا المنكرات ، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات ، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء ، قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

﴿ مَن كَانَ يَظُنْ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعْبَثُ ۖ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ .

قال ابن عباس من كان يظن أنه لن ينصر الله محمدا ﷺ في الدنيا والآخرة ، ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ ﴾ أي بحبل ﴿ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أي سماء بيته ﴿ ثُمَّ لِيَقْطَعْ ﴾ يقول : ثم ليختنق به . وكذا قال مجاهد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبِّ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أي : ليتوصل إلى بلوغ السماء ، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء ، ﴿ ثُمَّ لِيَقْطَعْ ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك ، وقول ابن عباس وأصحابه أظهر في المعنى ، وأبلغ في التهكم ، فإن المعنى : من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه ، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لا محالة ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ الآية . ولهذا قال : ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُمْ مَا يَغِيطُ ﴾ قال السدي : يعني من شأن محمد ﷺ ، وقال عطاء الخراساني : فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ . وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أي القرآن . ﴿ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي : واضحات في لفظها ومعناها حجة من الله على الناس ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾ أي : يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وله الحكمة التامة في ذلك ﴿ لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعَّلُ وَهُمْ يَسْتَلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالنَصَارَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ، ومن سواهم من اليهود والصابئين ، والنصارى والمجوس ، والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره ، فإنه تعالى : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ويحكم بينهم بالعدل ، فيدخل من آمن به الجنة ومن كفر به النار ، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم ، وما تكن ضمائرهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً ، وسجود كل شيء مما يختص به . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : من الملائكة في أقطار السماوات والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن ، والدواب والطيور ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يَسْجُدُ بَحْمِيهِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص ؛ لأنها قد عبدت من دون الله ، فبين أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربوبة مسخرة ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾ الآية . وعن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال : « أَتَذَرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فَإِنَّهَا تَذْهَبُ فَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ ، ثُمَّ تُسْتَأْمَرُ فَيُؤَيِّدُكَ أَنَّ يُقَالَ لَهَا : ارجعي من حيث جِئْتِ » ^(١) . وعنه ﷺ قال : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ خَلَقَانِ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، وَإِنَهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ يَمُوتُ أَحَدٌ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَجَلَّى لِيَشِيءُ مِنْ خَلْقِهِ خَشَعَ لَهُ » ^(٢) . وقال أبو العالية : ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته . وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمال ، وعن ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله إني رأيتني الليلة - وأنا نائم - كأنني أصلي خلف شجرة فسجدت ، فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، وضع عني بها وزراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ، ثم سجد فسمعتته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة ، وقوله : ﴿ وَالْدَّوَابُّ ﴾ أي : الحيوانات كلها وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣١٩٩) ومسلم في الإيمان (٢٥٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (١١٧٧) وابن ماجه في سننه (١٢٦٢) .

نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ، فرب مركوبة خيراً أو أكثر ذكراً لله تعالى من راكبها ^(١) .

وقوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّارِ ﴾ أي : يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر . ﴿ وَمَن يُّنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن تَكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ . وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال : قيل لعلي إن ها هنا رجلاً يتكلم في المشيئة . فقال له علي : يا عبد الله ، خلقت الله كما يشاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السُّجْدَةَ اغْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَتَكَبَّرُ يَقُولُ : يَا وَيْلَةَ أَمْرِ ابْنِ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ ، وَأَمْرُثُ بِالسُّجُودِ فَأَيُّتُ فَلِيَ النَّارُ ﴾ ^(٢) .

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رَيْبِهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ قَوْقِرُ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ ^(٣) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ^(٤) وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَديدٍ ^(٥) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ .

ثبت عن أبي ذر أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رَيْبِهِمَا ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر ^(٦) . وعن علي بن أبي طالب أنه قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة ، قال قيس : وفيهم نزلت ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رَيْبِهِمَا ﴾ قال : هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ^(٧) . وقال قتادة في قوله : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رَيْبِهِمَا ﴾ اختصم المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضي على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلق الله الإسلام على من ناوأه وأنزل : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رَيْبِهِمَا ﴾ . وقال قتادة في قوله : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رَيْبِهِمَا ﴾ مصدق ومكذب . وقال مجاهد في هذه الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث ، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية : هم المؤمنون والكافرون . وقال عكرمة : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رَيْبِهِمَا ﴾ هي الجنة والنار . قالت النار : اجعلني للعقوبة . وقالت الجنة : اجعلني للرحمة ، وقول مجاهد وعطاء : إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها ، ويتنظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله ﷻ ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق ، وظهور الباطل . ولهذا قال : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ أي : فصلت لهم مقطعات من النار ، قال سعيد بن جبير : من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ﴿ يُصَبُّ مِنْ قَوْقِرُ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ ^(٨) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ^(٩) أي : إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة . وقال سعيد بن جبير : هو النحاس المذاب ، أذاب ما

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٥٦٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٣) والإمام أحمد في مسنده (٤٤٠/٢) وابن ماجه في سننه (١٠٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٤٣) . (٤) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٤٤) .

الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ وقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب . وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ فِيهَا تَحِيَّةٌ وَسَلَامًا ﴾ لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به يقال لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ وقوله : ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ ﴾ أي : إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به ، وأسده إليهم . كما جاء في الحديث الصحيح : « إِنَّهُمْ يُلْهِمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهِمُونَ النَّفْسَ » ^(١) . وقد قال بعض المفسرين في قوله : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أي : القرآن وقيل : لا إله إلا الله ، وقيل : الأذكار المشروعة ﴿ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ ﴾ أي : الطريق المستقيم في الدنيا ، وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالسَّبِيلِ الْكَرَّاءِ الَّذِينَ جَعَلَتْهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً أَلْعَكِفُ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ بَرِدَ فِيهِ بِإِلْحَامٍ يُظْلَمُ تُذِقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام ، وقضاء مناسكهم فيه ، أي : ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله . ﴿ وَالسَّبِيلِ الْكَرَّاءِ ﴾ أي : ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر . وقوله : ﴿ الَّذِينَ جَعَلَتْهُ لِّلنَّاسِ سَوَاءً أَلْعَكِفُ فِيهِ وَالْبَاءُ ﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وقد جعله الله شرعًا سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه . ﴿ سَوَاءً أَلْعَكِفُ فِيهِ وَالْبَاءُ ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رباة مكة وسكناها . قال ابن عباس : ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام . وقال مجاهد : ﴿ سَوَاءً أَلْعَكِفُ فِيهِ وَالْبَاءُ ﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل ، وقال قتادة : سواء فيه أهله وغير أهله ، وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف ، فذهب الشافعي رحمته الله إلى أن رباة مكة تملك وتورث وتؤجر ، واحتج بحديث عن أسامة بن زيد قال : قلت : يا رسول الله أنزل غدا في دارك بمكة ؟ فقال : « وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ ؟ » ثم قال : « لَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ وَلَا الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ » ^(٢) وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارًا بمكة ، فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم ، وبه قال طاوس وعمرو بن دينار ، وذهب إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر ، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن علقمة بن نضلة قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وما تدعى رباة مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن ^(٣) . وعن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها . وكان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم ، وكان عمر بن الخطاب ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج في عرصاتها ، فكان أول من يوب داره سهيل بن عمرو ،

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٩/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في (الحج) (٤٤) ومسلم في (الحج) (٤٣٩) . (٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣١٠٧) .

فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك فقال : أنظرني يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجرًا ، فأردت أن أتخذ بايين يحسان لي ظهري . قال : فلك ذلك إذا .

وعن عبد الله بن عمرو موقوفًا : من أكل كراء بيوت في مكة أكل نارًا وتوسط الإمام أحمد فقال : تملك وتورث ولا توجر جمعًا بين الأدلة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ يُظْلَمِ نُذُقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ قال بعض المفسرين من أهل العربية : الباء هاهنا زائدة . كقوله : ﴿ تَنْتَبُثُ بِالذَّهْنِ ﴾ أي : تنبت الدهن ، وكذا قوله : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ ﴾ تقديره إلحادًا والأجود أنه ضمن الفعل هاهنا معنى يهيم ، ولهذا عده بالباء فقال : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ ﴾ أي : يهيم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار وقوله : ﴿ يُظْلَمِ ﴾ أي : عامدًا قاصدًا أنه ظلم ليس بمأول . وعن ابن عباس : هو التعمد . وقال ابن عباس : بظلم : بشرك ، وقال مجاهد : أن يعبد فيه غير الله ، وقال العوفي عن ابن عباس : بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك ، وتقتل من لا يقتلك ، فإذا فعل ذلك وجب له العذاب الأليم ، وقال مجاهد : ﴿ يُظْلَمِ ﴾ يعمل فيه عملاً سيئًا ، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازمًا عليه وإن لم يوقعه . وعن عبد الله قال : ما من رجل يهيم بسيئة فتكتب عليه ، ولو أن رجلًا بعدن أبين هم أن يقتل رجلًا بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم . قال مجاهد : إلحاد فيه : لا والله وبلى والله . وقال سعيد بن جبير : شتم الخادم ظلم فما فوقه . وقال ابن عباس : تجارة الأمير فيه . وعن ابن عمر : بيع الطعام بمكة إلحاد . وقال سعيد بن جبير : قال ابن عباس في قول الله : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ يُظْلَمِ ﴾ قال : نزلت في عبد الله بن أنيس أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري ، ثم ارتد عن الإسلام ، ثم هرب إلى مكة ، فنزلت فيه ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ يُظْلَمِ ﴾ يعني : من لجأ إلى الحرام بإلحاد يعني : بميل : عن الإسلام ، وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد ولكن هو أعم من ذلك بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ۖ فَجَعَلَهُمْ كَصَفِ مَأْكُولٍ ﴾ أي : دمرهم وجعلهم عبرة ونكالًا لكل من أراد بسوء ، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « يَغْزَوُ هَذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِيْئِدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ حُصِفَ بِأُولِهِمْ وَآخِرُهُمْ » ^(١) الحديث . ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَآذِنِ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

هذا فيه تقرير وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت أي : أرشده إليه ، وسلمه له وأذن له في بنائه ، واستدل به كثير ممن قال : إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق ، وأنه لم يبن قبله كما ثبت في الحديث عن أبي ذر قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع

(١) أخرجه البخاري في (الحج) (٤٩) .

أول؟ قال : « المَسْجِدُ الْحَرَامُ » قلت : ثم أي ؟ قال : « يَثُتُ الْمَقْدِسُ » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » . وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ الْآيَتِينَ . وقال تعالى هَاهُنَا : ﴿ أَنْ لَا تَشْرِكْ فِي شَيْئًا ﴾ أي : ابنه علي اسمي وحدي ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي ﴾ قال قتادة : من الشرك . ﴿ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أي : اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها . ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ أي : في الصلاة ولهذا قال : ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشترعان إلا مختصين بالبيت ، وقوله : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ أي ناد في الناس بالحج داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك بينائه فذكر أنه قال : يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه : وقيل : على الحجرة ، وقيل : على الصفا ، وقيل : على أبي قبيس ، وقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدبر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك ، وهذا مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقوله : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ الآية . قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً ؛ لأنه قدمهم في الذكر فدل على الاهتمام بهم ، وقوة همهم ، وشدة عزمهم ، وعن ابن عباس قال : ما أساء على شيء إلا أنني وددت أنني كنت حججت ماشياً لأن الله يقول : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ والذي عليه الأكثر أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله ﷺ ، فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه الصلاة والسلام . وقوله : ﴿ يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ مَجْزٍ ﴾ يعني : طريق كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجَالًا مَسْجُودًا ﴾ وقوله : ﴿ عَمِيْقٍ ﴾ أي : بعيد .

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَارِ مَقْلُوبَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْعَتِهِ الْآخِرَةِ فَكُلُوا مِنْهَا وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

قال ابن عباس : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ قال : منافع الدنيا والآخرة : أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى . وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبايح والتجارات . وكذا قال مجاهد : وغير واحد إنها منافع الدنيا والآخرة كقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَثَارِ مَقْلُوبَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْعَتِهِ الْآخِرَةِ ﴾ . عن ابن عباس ؓ : الأيام المعلومات : أيام العشر . وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلُ مِنْهَا فِي هَذِهِ ؟ » قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ إِلَّا رَجُلٌ يَخْرُجُ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَزِجْ بِشَيْءٍ » ^(١) . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَمَلُ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ » ^(٢) . وقال البخاري : وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر ،

(١) أخرجه البخاري في العيدين (٩٦٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٥/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٦/٤) .

فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما . وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً : أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله : ﴿ وَالْقَمَرَ ۝ وَالْيَالَ عَشَرَ ﴾ وقال بعض السلف : إنه المراد بقوله : ﴿ وَأَتَمَّتْهَا بِعَشْرِ ﴾ وفي سنن أبي داود : أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ؟ . وعن أبي قتادة قال : سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة ؟ قال : « أُخْتِيبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ » ^(١) ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر ، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله ^(٢) ، وبالجملة فهذا العشر قد قيل : إنه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث ، وفصله كثير على عشر رمضان الأخير ؛ لأن هذا يشرع في ما ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره ، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه ، وقيل : ذاك أفضل ؛ لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، وتوسط آخرون فقالوا : أيام هذا أفضل وليالي ذاك أفضل . وبهذا يجتمع شمل الأدلة ، والله أعلم .

قول ثان في الأيام المعلومات : قال ابن عباس : الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده . قول ثالث : روي أن ابن عمر كان يقول : الأيام المعلومات والمعدودات من جميعهن أربعة أيام : فالأيام المعلومات يوم النحر ، ويومان بعده ، والأيام المعدودات : ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ يعني به ذكر الله عند ذبحها . قول رابع : إنها يوم عرفة ، ويوم النحر ويوم آخر بعده . وعن زيد بن أسلم قال : المعلومات : يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق . وقوله : ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿ ثَمِينَةً زَوْجَ ۝ الْآيَةِ ۝ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرًا ۝ الْقَوِي ۝ ﴾ استدلل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي ، وهو قول غريب . والذي عليه الأكثر أن من باب الرخصة أو الاستحباب ، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه : أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها ^(٣) . قال مالك : أحب أن يأكل من أضحيته لأن الله يقول ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ . قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين ، فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل . قال مجاهد في قوله : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ : هي كقوله : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ أَلْبَاسٍ الْفَقِيرِ ﴾ قال عكرمة : هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس ، وهو الفقير المتعفف : وقال مجاهد : هو الذي لا ييسط يده ، وقال قتادة : هو الزمن . وقال مقاتل بن حيان : هو الضرير وقوله : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَكْتُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : هو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ، ونحو ذلك ، وقال عكرمة عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَكْتُهُمْ ﴾ قال : التفت المناسك . وقوله : ﴿ وَلِيُؤْفُوا تَذْوَرَهُمْ ﴾ قال ابن عباس :

(١) أخرجه مسلم في (الصيام) (١٩٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٨/٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٠/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في (الحج) (١٤٧) والإمام أحمد في مسنده (٣٣١ ، ٣٢١/٣) .

(٤) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (١٩٤/١٧ ، ١٩٥) .

يعني نحر ما نذر من أمر البدن . وقال مجاهد : ﴿ وَلَيُؤْفَوْا نَذْرَهُمْ ﴾ نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج . وقال مجاهد ﴿ وَلَيُؤْفَوْا نَذْرَهُمْ ﴾ . قال : الذبائح . وقال عكرمة : ﴿ وَلَيُؤْفَوْا نَذْرَهُمْ ﴾ قال : حجهم . وقوله : ﴿ وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قال مجاهد : يعني الطواف الواجب يوم النحر . وعن أبي حمزة قال : قال لي ابن عباس : أتقرأ سورة الحج ؟ يقول الله تعالى : ﴿ وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق .

قلت : وهكذا صنع رسول الله ﷺ ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر ، بدأ برمي الجمرة فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت . وفي الحديث عن ابن عباس أنه قال : أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض ^(١) . وقوله : ﴿ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يحب الطواف من وراء الحجر ؛ لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم وإن كانت قريش قد أخرجه من البيت حين قصرت بهم النفقة ، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ، ولم يستلم الركنين الشاميين ؛ لأنهما لم يتما على قواعد إبراهيم العتيقة . عن الحسن البصري في قوله : ﴿ وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ قال : لأنه أول بيت وضع للناس ، وعن عكرمة أنه قال : إنما سمي البيت العتيق لأنه أعتق يوم الفرق زمان نوح . وقال خصيف : إنما سمي البيت العتيق ؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط . وعن مجاهد : أعتق من الجبارة أن يسلطوا عليه . وعن مجاهد : لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك وعن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ » ^(٢) .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَتُمْ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝ حُفَّتْ لِي غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ﴾ .

يقول تعالى هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقي عليها من الثواب الجزيل . ﴿ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ ﴾ أي : ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ، ويكون ارتكابها عظيمًا في نفسه . ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أي : فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل ، قال مجاهد في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ ﴾ قال : الحرمة مكة والحج والعمرة ، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها . وقوله : ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَتُمْ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : أحللنا لكم الأنعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . وقوله : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به والمنخقة الآية ^(٣) ، وقوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ ومن هاهنا لبيان الجنس أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وقرن الشرك بالله بقول الزور . كقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَا يَرْبُّهُ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا مَعْلُومٌ ﴾ ومنه شهادة الزور . وفي

(١) أخرجه البخاري في (الحج) (١٧٥٥) والإمام أحمد في مسنده (٤١٦/٣) .

(٢) قال ذلك الطبري في تفسيره وحكاه عن قتادة (٢٠٢/١٧) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣١٧٠) .

الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله . قال : « الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَغُفُوقُ الْوَالِدَيْنِ » - وَكَانَ مَتَكًّا فَجَلَسَ فَقَالَ : « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ » . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت ^(١) .

وعن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائمًا فقال : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ﷻ » ثم تلا هذه الآية : ﴿ فَاتَّخِذُوا الرِّجْسَ مِنَ الْآثَرِينِ وَأَخْتَبِرُوا قَوْلَ الزُّورِ ۖ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ ﴾ ^(٢) وعن ابن مسعود أنه قال : تعدل شهادة الزور الإشراك بالله ثم قرأ هذه الآية ، وقوله : ﴿ حُفَاءَ لِلَّهِ ﴾ أي : مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصدًا إلى الحق ولهذا قال : ﴿ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ ثم ضرب للمشرك مثلًا في ضلاله وهلاكه ، وبعده عن الهدى فقال : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : سقط منها . ﴿ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ ﴾ أي : تقطعه الطيور في الهواء . ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ﴾ أي بعيد مهلك لمن هوى فيه ، ولهذا جاء في حديث البراء : إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا تَوَفَّتْهُ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ وَصَعِدُوا بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، فَلَا تُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بَلْ تُطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا مِنْ هُنَاكَ ، ثُمَّ ، قرأ هذه الآية ^(٣) . ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعِيرًا اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ ۖ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ جَحْلَهَا إِلَىٰ آيَاتِنَا الْقَتِيلِ ۖ ﴾ .

يقول تعالى هذا ﴿ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعِيرًا اللَّهُ ۖ ﴾ أي : أوامره ﴿ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوَّى الْقُلُوبِ ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن . كما قال ابن عباس : تعظيمها استسمانها واستحسانها . وقال أبو أمامة عن سهل : كنا نسمن الأضحية بالمدينة ، وكان المسلمون يسمنون ^(٤) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « دَمُ عَفْرَاءٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ دَمِ سَوْدَاوَيْنِ » ^(٥) قالوا : والعفراء هي البيضاء يياضًا ليس بناضع ، فالبيضاء أفضل من غيرها ، وغيرها يجزئ أيضًا لما ثبت عن أنس أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين ^(٦) . وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن كحيل يأكل في سواد ، ويمشي في سواد - أي فيه نكتة سوداء في هذه الأماكن ^(٧) ، وعن أبي رافع أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوئين ^(٨) ، وعن علي ؓ قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، وأن لا نضحى مقابلة ولا مدبرة ولا شرقاء ولا خرقاء ^(٩) قال مالك : إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ وإلا أجزأ .

(١) أخرجه البخاري في (الأدب) (٥٩٧٦) ومسلم في (الإيمان) (١٤٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢١/٤) وأبو داود في سننه (٣٥٩٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨٨/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في (الأضاحي) باب (٧) في أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٧/٢) والبيهقي في الكبرى (٢٧٣/٩) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٨/٤) .

(٦) أخرجه البخاري في (الأضاحي) (٥٥٥٤) .

(٧) أخرجه مسلم في (الأضاحي) (١٩) والترمذي في سننه (١٤٩٦) والإمام أحمد في مسنده (٧٨/٦) .

(٨) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٩٥) وابن ماجه في سننه (٣١٢٢) .

(٩) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٢/١) وأبو داود في سننه (١٤٩٨) وأبو داود في سننه (٢٨٠٤) .

وأما المقابلة : فهي التي قطع مقدم أذنها . والمدابرة : من مؤخر أذنها . والشرقاء : هي التي قطعت أذنها طولاً . قاله الشافعي والأصمعي ، وأما الخرقاء : فهي التي خرقت السمة أذنها خرقاً مدوراً ، والله أعلم .

وعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : « أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَصْحَابِي : الْعَوْرَاءُ الْبَيْتُ عَوْرُهَا ، وَالْمَرِيضَةُ الْبَيْتُ مَرَضُهَا ، وَالْعَرْجَاءُ الْبَيْتُ ضَلْعُهَا ، وَالْكَيْسِيرَةُ الَّتِي لَا تَنْقَى » ^(١) . وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي ؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى ؛ فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة كما هو ظاهر الحديث ، واختلف قول الشافعي في المريضة مرضاً يسيراً على قولين : وعن عتبة بن عبد السلمي أن رسول الله ﷺ نهى عن المصفرة ، والمستأصلة ، والبخقاء ، والمشيع ، والكسيرة ، فالمصفرة : قيل : الهزيلة ، وقيل : المستأصلة الأذن ، والمستأصلة مكسورة القرن . والبخقاء هي : العوراء . والمشيع : هي التي لا تزال تشيع خلف الغنم ولا تتبع لضعفها ؛ والكسيرة العرجاء . فهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضرب عند الشافعي خلافاً لأبي حنيفة . وقد روي عن أبي سعيد قال : اشترت كبشاً أضحي به فعدا الذئب فأخذ الألية ، فسألت النبي ﷺ فقال : « ضح به » ولهذا جاء في الحديث أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، أي : أن تكون الهدية أو الأضحية سمينة حسنة . وعن عبد الله بن عمر قال : أهدي عمر نجيباً فأعطني بها ثلاثمائة دينار فأثنى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني أهديت نجيباً فأعطيني بها ثلاثمائة دينار أفأبيعها وأشتري بثمانها بدنأ ، قال : « لا ، انحرها إياها » ^(٢) . وقال ابن عباس : البدن من شعائر الله ، وقال محمد بن أبي موسى الوقوف ومزدلفة ، والجمار والرمي ، والخلق والبدن من شعائر الله ، وقال ابن عمر : أعظم الشعائر البيت . وقوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ ﴾ أي : لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها ، وأوبارها وأشعارها ، وركوبها إلى أجل مسمى . قال ابن عباس في قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : ما لم تسم بدنأ . وقال مجاهد في قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : الركوب واللبن والولد ، فإذا سميت بدنة أو هدياً ذهب ذلك كله ، وقال آخرون : بل له أن يتنفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك . وعن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال : « اركبها » قال : إنها بدنة قال : « اركبها ويحك » في الثانية أو الثالثة ^(٣) ، وفي رواية : « اركبها بالمعزوف إذا أُخِجَتْ إِلَيْهَا » ^(٤) . وعن علي : أنه رأى رجلاً يسوق بدنة ومعها ولدها فقال : لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها ، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها . وقوله : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْبَيْتِ ﴾ أي : محل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق - وهو الكعبة - كما قال تعالى : ﴿ هَذَا بَلَدٌ بَلَّغَ الْكَمَةِ ﴾ . وقال : ﴿ وَالْهَدْيَ مَكْرُومًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ . وعن عطاء قال : كان ابن عباس يقول : كل من طاف بالبيت فقد

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٠/٤) وأبو داود في سننه (٢٨٠٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤٥/٢) وأبو داود في سننه (١٧٥٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٤) ومسلم في الحج (٣٧١) .

(٤) أخرجه مسلم في (الحج) (٣٧٥) .

حل . قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْمَقِيِّ ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْتَرِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اسْلُمُوا وَيَتَرِ الْمَخِيَّتِينَ ٣٥ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِينَ عَلَى مَا آصَابَهُمْ وَالْمُقِيِي الصَّلَاةِ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك ، وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل . وقال ابن عباس : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ قال : عيداً . وقال عكرمة : ذبحاً ، وقال زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ : إنها مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها . وقوله : ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْتَرِ ﴾ كما ثبت عن أنس قال : أتني رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمى وكبر ، ووضع رجله على صفاحهما ^(١) . وعن زيد بن أرقم قال : قلت أو قالوا : يا رسول الله ما هذه الأضاحي ؟ قال : « شَتَّةُ أَيْكُمُ إِبْرَاهِيمَ » قالوا : ما لنا منها ؟ قال : « بكل شجرة حسنة » قال : فالصوف ؟ قال : « بكل شجرة من الصوف حسنة » ^(٢) .

وقوله : ﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اسْلُمُوا ﴾ أي : معبودكم واحد ، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ، ونسخ بعضها بعضاً ، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ولهذا قال : ﴿ فَلَهُ اسْلُمُوا ﴾ أي أخلصوا ، واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿ وَيَتَرِ الْمَخِيَّتِينَ ﴾ قال مجاهد : المطمئنين . وقال الضحاك : المتواضعين . وقال السدي : الوجلين . وقال عمرو بن أوس : الخبتين الذي لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا . وقال الثوري : ﴿ وَيَتَرِ الْمَخِيَّتِينَ ﴾ قال : المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له ، وأحسن بما يفسر بما بعده وهو قوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : خافت منه قلوبهم ﴿ وَالصَّادِينَ عَلَى مَا آصَابَهُمْ ﴾ أي : من المصائب ، قال الحسن البصري : والله لنصبرن أو لنهلكن ﴿ وَالْمُقِيِي الصَّلَاةِ ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة السبعة وبقية العشرة أيضاً ، وقرأ ابن السميع ﴿ وَالْمُقِيِي الصَّلَاةِ ﴾ بالنصب ، وعن الحسن البصري ﴿ وَالْمُقِيِي الصَّلَاةِ ﴾ وإنما حذف النون هنا تخفيفاً ، ولو حذف للإضافة لوجب خفض الصلاة ، ولكن على سبيل التخفيف ، فنصبت أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه . ﴿ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي : وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلهم وأقاربهم ، وفقرائهم ومحاويجهم ، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله ، وهذه بخلاف صفات المنافقين ، فإنهم بالعكس من هذا كله .

﴿ وَاللَّذَاتِ جَعَلْنَهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَّتْ جُنُوبَهَا فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَائَ الْمَعَزِّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممثلاً على عبده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره ، وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام ، بل هي أفضل ما يهدي إليه كما قال تعالى : ﴿ لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَكَتَى وَلَا الْفَلَاحَةَ وَلَا ءَايَاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ﴾ الآية ، قال عطاء في قوله : ﴿ وَاللَّذَاتِ جَعَلْنَهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ :

(١) أخرجه البخاري في (الأضاحي) (٥٥٦٥) ومسلم في الأضاحي (١٧ ، ١٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٨/٤) وابن ماجه في سننه (٣١٢٧) .

البقرة والبعير ، وقال مجاهد : إنما البدن من الإبل .

قلت : أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه ، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين : أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح الحديث ، ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، كما ثبت في الحديث عن جابر قال أمرنا رسول الله ﷺ : أن نشترك في الأضاحي البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ^(١) . وقال إسحاق بن راهويه وغيره : بل تجزئ البقرة والبعير عن عشرة ، ﴿ لَكَرَّ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ يَوْمَ النَّحْرِ عَمَلًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ إِهْرَاقِ دَمٍ ، وَإِنَّهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا ، وَأَغْلَافِهَا وَأَشْعَارِهَا ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعُ مِنَ الْأَرْضِ فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا » ^(٢) . وقال سفيان الثوري : كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن فقيل له : تستدين وتسوق البدن ؟ فقال : إني سمعت الله يقول : ﴿ لَكَرَّ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أَنْفَقْتَ الْوَرَقَ فِي شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ نَحِيرَةِ يَوْمِ عِيدٍ » ^(٣) ، وقال مجاهد : ﴿ لَكَرَّ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ قال : أجر ومنافع ، وقال إبراهيم النخعي : يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها ، وقوله : ﴿ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً ﴾ عن جابر بن عبد الله قال : صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى ، فلما انصرف أتني بكبش فذبحه ، فقال : « بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحَّ مِنْ أُمَّتِي » ^(٤) .

وعن جابر قال : ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد فقال حين وجههما : « وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَائِفاً ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ، وَمَحْيَايَ ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمِّهِ » . ثم سمي الله وكبر وذبح ^(٥) . وعن أبي رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين ، فإذا صلى وخطب الناس أتني بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية ، ثم يقول : « اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعًا مِنْ شَهِدَ لَكَ بِالتَّوْحِيدِ وَشَهِدَ لِي بِالْبَلَاغِ » . ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ثم يقول : « هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ » فيطعمهما جميعاً للمساكين ، ويأكل هو وأهله منهما ^(٦) . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً ﴾ قال : قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى قامت على ثلاث ، وفي الحديث عن ابن عمر : أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها ، فقال : ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ ^(٧) ، وعن جابر : أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه مسلم في (الحج) (١٣٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٣/٣ ، ٢٩٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣١٢٦) والترمذي في سننه (١٤٩٣) .

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه (٢٨٢/٤) والبيهقي في الكبرى (٢٦١/٩) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٧/٤) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥٦/٣) وأبو داود في سننه (٢٨١٠) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٦٧/١) وابن ماجه في سننه (٣١٢١) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨ ، ٦) (٣٩١) .

(٧) أخرجه البخاري في (الحج) (١٧١٣) ومسلم في الحج (٣٥٨) وأبو داود في سننه (١٧٦٨) .

ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها^(١) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا ﴾ قال مجاهد يعني : سقطت إلى الأرض ، وهو رواية عن ابن عباس . وقال ابن عباس : ﴿ فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يعني : نحرت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا ﴾ يعني ماتت وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد ؛ فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها . ويؤيده حديث شداد بن أوس : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ ، وَلِيُحَدِّثَ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلِيُزِيحَ ذَبِيحَتَهُ »^(٢) . وعن أبي واقد الليثي قال : قال رسول الله : « مَا قُطِعَ مِنْ الْبَيْهَمَةِ وَهِيَ حَيَّةٌ فَهُوَ مَيْتَةٌ »^(٣) . وقوله : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ ﴾ قال بعض السلف قوله : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمر بإباحة . وقال مالك : يستحب ذلك ، وقال غيره : يجب ، وهو وجه لبعض الشافعية . واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر . فعن ابن عباس : القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل . وقال ابن عباس : القانع المتعفف ، والمعتر السائل ، وقال الحسن البصري ومقاتل بن حيان ومالك بن أنس : القانع هو الذي يقنع إليك ويسألك ، والمعتر الذي يعترك يتضرع ولا يسألك ، وقال سعيد بن جبيرة : القانع هو السائل ، قال : وقال زيد بن أسلم : القانع المسكين الذي يطوف ، والمعتر : الصديق والضعيف الذي يزور ، وعن مجاهد أيضًا : القانع جارك الغني الذي يصبر ما يدخل بيتك ، والمعتر : الذي يعتزل من الناس ، وعنه أن القانع هو الطامع ، والمعتر هو الذي يعتز بالبدن من غني أو فقير . وعن عكرمة : القانع أهل مكة ، واختار ابن جرير أن القانع : هو السائل لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال والمعتر من الاعتراء : وهو الذي يتعرض لأكل اللحم ، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء فثلث لصاحبها يأكله ، وثلث يهديه لأصحابه ، وثلث يتصدق به على الفقراء ، لأنه تعالى قال : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ ﴾ وفي الحديث : « إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ ادِّخَارِ لَحْمِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثِ فُكُلًا ، وَادِّخَرُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ »^(٤) وفي رواية : « فَكُلُوا وَادِّخَرُوا وَتَصَدَّقُوا » وفي رواية « فَكُلُوا وَأَطِيعُوا وَتَصَدَّقُوا » . والقول الثاني : أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله في الآية المتقدمة ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ ﴾ .

ولقوله في الحديث : « فَكُلُوا وَادِّخَرُوا وَتَصَدَّقُوا » فإن أكل الكل فقيل لا يضمن شيئاً وبه قال ابن شريح من الشافعية ، وقال بعضهم : يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها ، وقيل : يضمن نصفها ، وقيل : ثلثها ، وقيل : أدنى جزء منها . وهو المشهور من مذهب الشافعي . وأما الجلود : فعن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي : « فَكُلُوا وَتَصَدَّقُوا ، وَاسْتَمْتَعُوا بِجُلُودِهَا وَلَا تَبِيعُوهَا » ومن العلماء من رخص في بيعها ، ومنهم من قال يقاسم الفقراء فيها .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٧٦٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الذبائح (٥٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٣/٤) وأبو داود في سننه (٢٨١٥) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢١٨/٥) والترمذي في سننه (١٤٨٠) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٢) وأبو داود في سننه (٢٨١٢) .

مسألة : عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَوَّلَ مَا تَبَدُّأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ ثُمَّ نَرْجِعَ فَتُخَرَّ فَمَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ شَيْئًا ، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ ، فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ الثَّوْبِ فِي شَيْءٍ » ^(١) . فهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء : إن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين ، زاد أحمد : وأن يذبح الإمام بعد ذلك لما جاء في الحديث : وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام ، وقال أبو حنيفة : أما أهل السواد من القرى ونحوها فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر ؛ إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم . وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام ، والله أعلم . ثم قيل : لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده . وقيل : يوم النحر لأهل الأمصار لتيسر الأضاحي عندهم ، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده . وقيل : يوم النحر ويوم بعده للجميع . وقيل : ويومان بعده وبه قال الإمام أحمد ، وقيل : يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده . وبه قال الشافعي لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال : « أَيَّامُ التَّشْرِيقِ كُلُّهَا ذَبْحٌ » ^(٢) . وقيل : إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجة ، وهو قول غريب وقوله : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمُ لَعْنَتَهَا لَكُمُ لَعْنَتُهُمْ ﴾ يقول تعالى من أجل هذا : ﴿ سَخَّرْنَا لَكُمُ لَعْنَتَهَا ﴾ أي : ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم خاضعة إن شئتم ركبتهم ، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتهم . كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلَاتٍ مَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنَ لَكُمُ مَلَائِكَةٌ مَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ فَتَبَوَّءُوا لَهُمْ حُرُمَاتٍ وَأُولَٰئِكَ أَهْلُ حُرْمَاتِهِمْ ﴾ ^(٣) . وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمُ لَعْنَتَهَا لَكُمُ لَعْنَتُهُمْ ﴾ .

﴿ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنَّ بِنَاؤَهُ الْقَوَىٰ يَنْكُمُ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى : إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها ، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دماؤها ، فإنه تعالى هو الغني عما سواه ، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لألهتهم ، وضعوا عليها من لحوم قراينهم ، ونضحوا عليها من دماؤها فقال تعالى : ﴿ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا ﴾ . وعن ابن جريح قال : كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودماؤها . فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله : ﴿ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنَّ بِنَاؤَهُ الْقَوَىٰ يَنْكُمُ ﴾ أي : يتقبل ذلك ويجزي عليه كما جاء في الصحيح : « إِنْ أَلَّ اللَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُورِكُمْ وَلَا إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ^(٤) . وجاء في الحديث « إِنْ الصَّدَقَةُ لَتَقَعُ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ » ^(٥) . معناه أنه سبق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله ، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا والله أعلم ، وقال الضحاک : سألت عامراً الشعبي عن جلود الأضاحي

(١) أخرجه البخاري في العيدين (٩٦٨) مسلم في (الأضاحي) (٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٢/٤ ، ٣٠٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٢/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في (البر والصلة) (٣٤) والإمام أحمد في مسنده (٢٨٥/٢ ، ٥٣٩) وابن ماجه في سننه (٤١٤٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (١٤٩٣) وابن ماجه في سننه (٣١٢٦) من قوله : « وإن الدم ... إلخ » .

فقال : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُوهَهَا وَلَا يَمَّاؤُهَا ﴾ إن شئت فبيع ، وإن شئت فأمسك ، وإن شئت فتصدق .
 وقوله : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ أي : من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿ إِثْكَرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ أي
 لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه ، وما يحبه ويرضاه ، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه . وقوله :
 ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين في عملهم القائمين بحدود الله ، المتبعين ما شرع لهم .
 مسألة : وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصيباً ،
 وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً واحتج لهم بما رواه أبو هريرة مرفوعاً : « مَنْ وَجَدَ سَقَةً فَلَمْ يُضَحِّ
 فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّاتًا » ^(١) على أن فيه غرابة ، واستكره أحمد بن حنبل وقال ابن عمر : أقام رسول
 الله ﷺ عشر سنين يضحي . وقال الشافعي وأحمد : لا تجب الأضحية بل هي مستحبة : لما جاء في
 الحديث « لَيْسَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ » ^(٢) وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته ،
 فأسقط ذلك وجوبها عنهم ، وقال أبو سريحة : كنت جازاً لأبي بكر وعمر فكانا لا يضحيان خشية
 أن يقتدي الناس بهما ، وقال بعض الناس : الأضحية سنة كفاية إذا قام بها واحد من أهل دار أو
 محلة أو بيت سقطت عن الباقي لأن المقصود إظهار الشعار . وقد روي عن محنف بن سليم أنه
 سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات : « عَلَى كُلِّ أَهْلٍ يَبْتَ فِي كُلِّ عَامٍ أَضْحَاةٌ وَغَيْرَةٌ ، هَلْ تَذَرُونَ
 مَا الْغَيْرَةُ ؟ هِيَ الَّتِي تَدْعُونَهَا الرَّجِيَّةَ » ^(٣) وقال أبو أيوب : كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ
 يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته ، فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس فصار كما ترى ^(٤) ،
 وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله ^(٥) . وأما مقدار سن الأضحية : فقد
 روي عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً إِلَّا أَنْ تَغْشَرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ
 الضَّأْنِ » ^(٦) ومن هاهنا ذهب الزهري إلى أن الجذع لا يجزئ . وقابله الأوزاعي ، فذهب إلى أن
 الجذع يجزئ من كل جنس وهما غريبان ، والذي عليه الجمهور إنما يجزئ الثني من الإبل والبقر
 والمعز ، أو الجذع من الضأن ، فأما الثني من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة ،
 ومن البقر ما له ستان ، ودخل في الثالثة ، وقيل : ما له ثلاث ، ودخل في الرابعة ، ومن المعز : ما له
 ستان ، وأما الجذع من الضأن : فقيل : ما له سنة . وقيل : عشرة أشهر . وقيل : ثمانية ، وقيل :
 ستة أشهر ، وهو أقل ما قيل في سنه وما دونه فهو حمل ، والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم ،
 والجذع شعر ظهره نائم ، قد انفرك صدعين ، والله أعلم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

يخير تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه ، وأنابوا إليه شر الأشرار ، وكيد الفجار ،
 ويحفظهم ويكلوهم وينصرهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢١/٢) والحاكم في المستدرک (٣٨٩/٢) ، (٢٣٢/٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٧٨٩) والهندي في كنز العمال (١٥٨٥٦) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٣/٢) والترمذي في سننه (١٥١٨) وابن ماجه في سننه (٣١٢٥) .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (١٥٠٥) وابن ماجه في سننه (٣١٤٧) . (٥) أخرجه البخاري في (الأحكام) (٧٢١٠) .

(٦) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٣) والإمام أحمد في مسنده (٣١٢/٣) ، وأبو داود في سننه (٢٧٩٧) .

اللَّهُ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿١﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَثُورٍ ﴾ أي : لا يحب من عباده من اتصف بهذا وهو : الخيانة في اليهود والمواثيق لا يفني بما قال ، والكفر : المجدد للنعم فلا يعترف بها .

﴿ أُوْنِ لِلَّذِينَ يُفْتَنُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَ صَوْمِعٌ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ .

قال ابن عباس : نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف : هذه أول آية نزلت في الجهاد . واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية . وعن ابن عباس قال : لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن . قال ابن عباس : فأنزل الله ﷻ : ﴿ أُوْنِ لِلَّذِينَ يُفْتَنُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ^(١) قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : فعرفت أنه سيكون قتال . ورواه الإمام أحمد وزاد : قال ابن عباس : وهي أول آية نزلت في القتال . وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يذلوا جهدهم في طاعته كما قال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْتَضَلْتُمُ فَضْئِلُوا الْوُكَاةَ فَلَمَّا تَمَّا بِدُرٍّ قَدْ خَلَّ فِثَّةُ حُنَّ صَعَّ لَمْرَبُ أَرْزَاقًا ذِكًّا وَلَوْ لَشَاءَ اللَّهُ لَانْفَضَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ سَيُجْزَوْنَ بِأَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُذْهِبَ عَنْهَا غَمُّهُمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْلِفُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَنْفُصْ صُدُورَ قَوِيٍّ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَسِرْ اللَّهُ إِلَيْكُمْ جُنُودًا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ ﴾ . والآيات في هذا كثيرة ، ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وقد فعل .

وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأتق به ؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً ، فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقي لشق عليهم . ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ ، وكانوا نيفاً وثمانين قالوا : يا رسول الله ألا نغيل على أهل الوادي - يعنون أهل منى - ليالي منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إني لم أومر بهذا » ^(٣) . فلما بغى المشركون ، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله ، وشردوا أصحابه شذر مذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ، ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه ، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومقلاً يلجأون إليه شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك فقال تعالى : ﴿ أُوْنِ لِلَّذِينَ يُفْتَنُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أي : ما كان لهم إلى قومهم إساءة ، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له . وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر ، وأما عند

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٦٢/٣) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦١/١) .

المشركين فإنه أكبر الذنوب كما قال تعالى : ﴿ يَزِيدُكَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود : ﴿ وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي : لولا أنه يدفع يقوم عن قوم ، ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفستت الأرض ، ولأهلك القوي الضعيف . ﴿ فَذَرَتْ صَوْبُغٌ ﴾ وهي : المعابد الصغار للربان . وقال قتادة : هي معابد الصابيين . وفي رواية عنه : صوامع الجوس . وقال مقاتل بن حيان : هي البيوت التي على الطريق ﴿ وَبَيْعٌ ﴾ وهي أوسع منها ، وأكثر عابدين فيها وهي للنصارى أيضًا . وعن مجاهد وغيره : أنها كنائس اليهود ، وحكى السدي : عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود . ومجاهد إنما قال : هي الكنائس ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَصَلَوْتُ ﴾ قال ابن عباس : الصلوات : الكنائس . وكذا قال عكرمة والضحاك وقاتادة : إنها كنائس اليهود ، وهم يسمونها صلوات . وحكى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى . وقال أبو العالية وغيره : الصلوات معابد الصابيين . وقال مجاهد : الصلوات : مساجد لأهل الكتاب ، ولأهل الإسلام بالطرق وأما المساجد فهي للمسلمين ، وقوله : ﴿ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ فقد قيل الضمير في قوله : ﴿ يُذَكِّرُ فِيهَا ﴾ ، عائد إلى المساجد ؛ لأنها أقرب المذكورات ، وقال الضحاك : الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا ، وقال ابن جرير : الصواب لهدمت صوامع الربان ، وبيع النصارى ، وصلوات اليهود ، وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب ^(١) .

وقال بعض العلماء : هذا ترق من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهي أكثر عمارا وأكثر عبادا وهم ذوو القصد الصحيح . وقوله : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَتَّيَّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُنِيبُ أَقْنَانُكَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُمْ وَأَضَلُّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وبعزته لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب ؛ بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه ، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور . قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ . ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ آقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

قال عثمان بن عفان : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ آقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا : ربنا الله ثم مكنا في الأرض ، فأقمنا الصلاة وآتينها الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ، فهي لي ولأصحابي . وقال أبو العالية : هم أصحاب محمد ﷺ . وقال عطية العوفي : هذه الآية كقوله : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَالنَّبِيَّةُ لِلْمَنَفِقِ ﴾ وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا .

(١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٣٤/١٧) .

﴿وَلَنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٣٨﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٣٩﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٠﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مُعْتَصِلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه : ﴿وَلَنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ - إلى أن قال - ﴿وَكَذَّبَ مُوسَى ﴾ أي : مع ما جاء به من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي : أنظرتهم وأخرتهم . ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي : فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم ؟! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه أنا ربكم الأعلى ، وبين إهلاك الله له أربعون سنة . وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال : « إِنْ اللَّهُ لَيُعْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . ثم قرأ : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّهُ أَخَذَهَا آيَةً شَدِيدَةً ﴾ ^(١) . ثم قال تعالى : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أي : كم من قرية أهلكناها . ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي مكذبة لرسولها ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ قال الضحاك : سقوفها أي : قد خربت منازلها ، وتعطلت حواضرها . ﴿وَيَبْرِئُ مُعْتَصِلَةٌ ﴾ أي : لا يستقى منها ، ولا يريدها أحد بعد كثرة إراديها والازدحام عليها . ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ قال عكرمة : يعني : البيض بالجنس . وقال آخرون : هو : المنيف المرتفع . وقال آخرون : المشيد المنيع الحصين ، وكل هذه الأقوال متقاربة ، ولا منافاة بينها ، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ، ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم . كما قال تعالى : ﴿أَتَيْنَا تَكْوِيْنًا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نُبَيِّنُ ﴾ وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : بأبدانهم وبفكرهم أيضاً .

﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي : فيعتبرون بها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ أي : ليس العمى عمى البصر وإنما العمى عمر البصيرة ، وإن كانت القوة الباصرة سليمة ، فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر .

﴿وَسَتَجْلِبُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَالْآيَةُ لِلْمُصْبِرِ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿وَسَتَجْلِبُوكَ بِالْعَذَابِ ﴾ أي : هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله ، واليوم الآخر كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَرْسِلْ رِجْلًا يَمْذَابِ إِلَيْنَا ﴾ ، وقوله : ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أي : الذي قد وعد من إقامة الساعة ، والانتقام من أعدائه ، والإكرام لأوليائه . وقوله : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي : هو تعالى لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء ، وإن أجل وأنظر وأمل . ولهذا قال بعد هذا : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَالْآيَةُ لِلْمُصْبِرِ ﴾ .

الْمَصِيرُ ﴿١﴾ . عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ يَنْصَفُ يَوْمَ خُمْسِمِائَةِ عَامٍ » ^(١) ، وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنِّي لَا زُجُوَ أَنْ لَا تَعْبَزَ أَتْمِي عِنْدَ رَبِّهَا أَنْ يُؤَخَّرَهُمْ يَنْصَفَ يَوْمَ » قيل لسعد : وما نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة ^(٢) . وعن ابن عباس : ﴿ وَلَئِكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ قال : من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض . وقال مجاهد : هذه الآية كقوله : ﴿ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِمَّنِ السَّمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

﴿ قُلْ يَكْفِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ^(٣) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به ﴿ قُلْ يَكْفِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : إنما أرسلني الله إليكم نذيرًا لكم بين يدي عذاب شديد ، وليس إلي من حسابكم من شيء ، أمركم إلى الله : إن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب إليه ، وإن شاء أضل من كذب عليه الشقاوة ، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار . ﴿ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ﴿ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ^(٤) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٥﴾ أي : آمنت قلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : مغفرة لما سلف من سيئاتهم ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم ، قال محمد بن كعب القرظي : إذا سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فهو الجنة . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ ﴾ قال مجاهد : يشطون الناس عن متابعة النبي ﷺ ، وكذا قال عبد الله بن الزبير : مشطون ، وقال ابن عباس : معاجزين . مراغمين ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها أجارنا الله منها . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَيِّمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(٦) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٧﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨﴾ .

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرائق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظنًا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسله ، ولم أرها مسنده من وجه صحيح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه ، أي لا يهيدنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء ، قال ابن عباس : ﴿ إِذَا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٦/٢) والترمذي في مسنده (٢٣٥٣) وابن ماجه في مسنده (٤١٢٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٠/١) .

تَمَنَّيَ أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ ﴿٥٥﴾ يقول : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، وقال مجاهد : ﴿إِنَّا تَمَنَّيَ﴾ يعني : إذا قال . ويقال : أمنيته قراءته .

﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ يقرأون ولا يكتبون قال البغوي : وأكثر المفسرين قالوا : معنى قوله : ﴿تَمَنَّيَ﴾ أي تلا وقرأ كتاب الله ، ﴿أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ﴾ أي في تلاوته . وقال الضحاك : ﴿إِنَّا تَمَنَّيَ﴾ إذا تلا . قال ابن جرير ، هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، وقوله : ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع ، قال ابن عباس : أي : فيطيل الله ﷻ ما ألقى الشيطان . وقال الضحاك : نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي : بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة ، والحجة البالغة ؛ ولهذا قال : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي : شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك ، واعتقدوا أنه صحيح من عند الله وإنما كان من الشيطان . قال ابن جريج : ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون . ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم المشركون . وقال مقاتل بن حيان هم : اليهود . ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي : في ضلال ومخالفة وعناد ﴿بِمَسِيرٍ﴾ أي : من الحق والصواب . ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَتُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي : وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل ، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره ، بل هو كتاب عزيز ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقوله : ﴿فَتُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي يصدقوه وينقادوا له . ﴿فَتُخَيِّطَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي : تخضع وتذل له قلوبهم ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَهُدَى الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا : فيرشدهم إلى الحق واتباعه ، ويوفقههم لمخالفة الباطل واجتنابه ، وفي الآخرة : يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ، ويحزحهم عن العذاب الأليم والدركات .

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ ۝٥٦﴾ أَلْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٥٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في مرية أي : في شك وريب من هذا القرآن . وقال سعيد بن جبير : منه أي : بما ألقى الشيطان ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قال مجاهد : فجأة ، وقال قتادة : ﴿بَغْتَةً﴾ بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرثهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون . وقوله : ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ﴾ قال أبي بن كعب : هو يوم بدر ، قال عكرمة ومجاهد في رواية عنهما : هو يوم القيامة لا ليل له . وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد ولهذا قال : ﴿أَلْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ كقوله : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . وقوله : ﴿أَلْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٥٧﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٥٨﴾ أي : آمنت قلوبهم

وصدقوا بالله ورسوله ، وعملوا بمقتضى ما علموا ، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : كفرت قلوبهم بالحق وجحدته ، وكذبوا به وخالفوا الرسل ، واستكبروا عن اتباعهم ، ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أي : مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِلَى اللَّهِ لَهُمْ خَبَرٌ الرَّزْقِينَ ۖ لَيَدْخُلَنَّهُمْ دُخْلًا رَّضْوَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَكِيدٌ حَلِيمٌ ۝ ﴾ ذلك ومن عاقب يمثّل ما عوقب به ثم يغى عليه لينصرتّه الله إياك الله لعفو عفور .

يخبر تعالى عن خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلباً لما عنده ، وترك الأوطان والأهلين والخلان ، وفارق بلاده في الله ورسوله لدين الله ، ﴿ ثُمَّ قُتِلُوا ﴾ أي : في الجهاد ﴿ أَوْ مَاتُوا ﴾ أي : حتف أنفسهم من غير قتال على فرشهم ، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُثْقُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ وقوله : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أي : ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ لَهُمْ خَبَرٌ الرَّزْقِينَ ۖ ﴾ . ﴿ لَيَدْخُلَنَّهُمْ دُخْلًا رَّضْوَنًا ﴾ أي : الجنة كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتْرَفِينَ ۖ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَتَّىٰ يَمِيزَ ۖ فَاخْبِرْ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ الرَّاحَةُ وَالرِّزْقُ ، وَجَنَّةٌ كَمَا قَالَ مَا هُنَا : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ثم قال : ﴿ لَيَدْخُلَنَّهُمْ دُخْلًا رَّضْوَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَكِيدٌ حَلِيمٌ ﴾ أي : بمن يهاجر ويجاهد في سبيله ، وبمن يستحق ذلك ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي : يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه . فأمّا من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر ، فإنه حي عند ربه يرزق . كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر ، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه ، وعظيم إحسان الله إليه ، قال شرحبيل بن السمط : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم فمر بي سلمان - يعني الفارسي - فقال : لاني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا أُجِرَى اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ الْأَجْرِ ، وَأُجِرَى عَلَيْهِ الرِّزْقُ ، وَأَمِنْ مِنَ الْقَتَائِنِ وَأَقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِلَى اللَّهِ لَهُمْ خَبَرٌ الرَّزْقِينَ ۖ ﴾ لَيَدْخُلَنَّهُمْ دُخْلًا رَّضْوَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَكِيدٌ حَلِيمٌ ﴾ » ^(١) . وعن همام أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان : كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ فمر بجناتين إحداهما : قتيل والأخرى متوفى ، فمال الناس على القتيل ، فقال فضالة : ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتيل في سبيل الله ، فقال : والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت ، اسمعوا كتاب الله ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا ﴾ حتى بلغ آخر الآية .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٦٨/٤) .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ الآية . ذكر مقاتل بن حيان وابن جرير : أنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعا من المشركين في شهر محرم فناشدهم المسلمون لثلاثا يقاتلوهم في الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا قتالهم ، وغيروا عليهم فقاتلهم المسلمون ، فنصرهم الله عليهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَمَفُوءٌ غَفُورٌ ﴾ ^(١) .

﴿ ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدٌ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَدٌ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝ ﴾ .

يقول تعالى منها على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء ، كما قال : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْغَنِيُّ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فُلُجُ الْيَدِ فِي الْفَهَامِ وَفُلُجُ الْفَهَامِ فِي الْيَدِ وَتُعِزُّ الْغَنِيَّ مِنْ الْيَدِ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِتَرْجُحِ كَسْبِ . ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا ، ومن هذا في هذا ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أي : سميع بأقوال عباده بصير بهم ، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم . ولما تبين أنه المتصرف في الوجود ، الحاكم الذي لا معقب لحكمه قال : ﴿ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أي : الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له ؛ لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وكل شيء فقير إليه ، دليل لديه ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ أي : من الأصنام والأنداد ، والأوثان وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل ؛ لأنه لا يملك ضرًا ولا نفعًا . وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ كما قال : ﴿ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وقال هو : ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ؛ لأنه العظيم الذي لا أعظم منه العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَنُصِيجُ الْأَرْضِ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٧﴾ لَمْ يَأْتِ السَّمَكُونَ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَهُمُ الْغَوْفُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَاقَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَتُسَبِّحُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٠﴾﴾

وهذا أيضًا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه وأنه يرسل الرياح فتثير سحابًا ، فيمطر على الأرض الجزر التي لا نبات فيها ، وهي هامة يابسة سوداء محملة ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ افْتَحَتْ وَرَبَتْ ﴾ وقوله : ﴿ فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ أي خضراء بعد يباسها ومحوها ، وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء ، فالله أعلم .

لا يخفى عليه خافية ، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبت به . وقال : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ
الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

(۱) ذکرہ ابن جریر فی تفسیرہ (۲۵۶/۱۷) .

وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٧﴾ .

ولهذا قال أمية بن أبي الصلت ، أو زيد بن عمرو بن نفيل :

وقولا له من ينبت الحب في الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا

ويخرج منه حبه في رؤوسه ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي : ملكه جميع الأشياء ، وهو غني عما سواه وكل شيء فقير إليه عبد لديه . وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي : من حيوان وجماد ، وزروع وثمار ، كما قال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿وَالْفَلَكَ تَجَرَّى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي : بتسخيره وتسييره أي في البحر العجاج ، وتلاطم الأمواج تجري الفلك بأهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة ، فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ، ومنافع من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه ﴿وَيُسَبِّحُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي : لو شاء لأذن للسماء ، فسقطت على الأرض ، فهلك من فيها ، ولكن من لطفه ورحمته ، وقدرته يسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءَوُّفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مع ظلمهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَلَنْ رَّبِّكَ لَدُوٌّ مَّغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَلَنْ رَّبِّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ، وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ كقوله : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ومعنى الكلام : كيف تجعلون لله أندادا ، وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف . ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر فأوجدكم . ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي : يوم القيامة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي جحود .

﴿لِكُلِّ أَتَمَةٍ جَعَلْنَا مَنَسْكَاهُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْآخِرَةِ وَأَدْعُ إِلَيْ رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلَكٌ مَّدَى مُسْتَقِيمٍ﴾^{٦٨} ولأن جندلوك فقل الله أعلم بما تعملون^{٦٩} الله يحكم بينكم يوم القيمة فيما كنتم فيه تختلفون . يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا ، قال ابن جرير : يعني لكل أمة نبي منسكا . قال : وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ، ويتردد إليه إما لخير أو شر . قال : ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها ، فإن كان كما قال من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكا . فيكون المراد بقوله : ﴿فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي : هؤلاء المشركون ، وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكا جعلنا قدرنا كما قال : ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْبَأٌ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿هُم نَاسِكُوهُ﴾ أي : فاعلوه ، فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق أي : هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته ، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَدْعُ إِلَيْ رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلَكٌ مَّدَى مُسْتَقِيمٍ﴾ أي : طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود . وهذه كقوله : ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مَّآبِئِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَيْ رَبِّكَ﴾ . وقوله : ﴿وَلَنْ جَدُّلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ كقوله : ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ

أَشْرَ بَرِيعُونَ يَمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ . وقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ فِيهِ كُنْ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ولهذا قال : ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْقَادِرُ مَا أَرْتُمُوهَا وَمَا أَفْوَاهُكُمْ وَقُلْ مَا آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ الآية .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ . يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وأنه محيط بما في السموات ، وما في الأرض ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وأنه تعالى يعلم الكائنات كلها قبل وجودها ، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ . كما ثبت ، عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدَرُ مَقَادِيرِ الْخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » (١) . قال ﷺ : « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقَ الْقَلَمِ قَالَ لَهُ : اكْتُبْ قَالَ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ ، فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٢) . وقال ابن عباس : خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى : اكتب ، فقال القلم : ما أكتب ؟ قال : علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة . فذلك قوله للنبي ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضًا ، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه ، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره ، وهذا يعصي باختياره ، وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علمًا ، وهو سهل عليه ، يسير لديه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

﴿ وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَكُمْ بِنَزَلٍ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَشْنُ الْعَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا ، يعني : حجة وبرهانًا كقوله : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ مَا لَكُمْ بِنَزَلٍ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي : ولا علم لهم فيما اختلقوه واتفكوه ، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة ، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ أي : من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال ، ثم قال : ﴿ وَإِذَا نُتِلَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أي : وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج ، والدلائل الواضحات على توحيد الله ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ﴾ أي : يكادون يبادرون الذين يحتجون

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٦) والإمام أحمد في مسنده (١٦٩/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣١٧/٥) والترمذي في السنن (٣٣١٩) وأبو داود في السنن (٤٧٠٠) .

عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ، ويسطون إليهم أيديهم وألستهم بالسوء ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لهؤلاء ﴿ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم ، وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا ، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تبالغون منهم إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم . وقوله : ﴿ وَيَسَّ الْصَبْرُ ﴾ أي : وبس النار مقيلاً ومنزلاً ، ومرجعاً وموثلاً ومقاماً .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ ﴾ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّلَبِ وَالْمَلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلُ ﴾ أي : لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ أي : أنصتوا وتفهموا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ أي : لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد ، على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك . كما قال أبو هريرة مرفوعاً : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ، فَلْيَخْلُقُوا مِثْلَ خَلْقِي ذَرَّةً أَوْ ذُبَابَةً أَوْ حَبَّةً » ^(١) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال الله ﷻ : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ؛ فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » ^(٢) . ثم قال تعالى أيضاً : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ﴾ أي : هم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك ، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال : ﴿ ضَعْفَ الطَّلَبِ وَالْمَلُوبِ ﴾ قال ابن عباس : الطالب : الصنم ، والمطلوب : الذباب ، واختاره ابن جرير ^(٣) وهو ظاهر السياق . وقال السدي : الطالب : العابد ، والمطلوب : الصنم ، ثم قال : ﴿ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي : ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه من التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي : هو القوي الذي بقدرته خلق كل شيء ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْتَمِينُ ﴾ وقوله : ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أي قد عز كل شيء فقهره وغلبه فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار .

﴿ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق ذلك منهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩١/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٥٥٩) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٢/٢) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٦٥/١٧) .

كما قال : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وقوله : ﴿ يَتْلُو مَا يَشَاءُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي : يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به ، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم كما قال : ﴿ عَلِيمُ الْغُيُوبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَخْتَفِي ۚ رَحِيمًا ۝ لَيْسَ لَهُ أَقْدَارٌ أَلْبَعُوا رَسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْنَسَ كُلَّ فَوْءٍ عَدُوًّا ۚ فَهُوَ سَبْحَانَهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُ لَهُمْ ، حَافِظٌ لَهُمْ ، نَاصِرٌ لِحُجَّتِهِمْ .

﴿ يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَسُجِدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَخَصَصُوا لِلَّهِ ذِكْرًا ۚ وَكَانَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَكَوْنُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۚ ۝﴾

اختلف الأئمة - رحمهم الله - في هذه السجدة الثانية من سورة الحج ، هل هي مشروع السجود فيها أم لا ؟ على قولين : وقد قدمنا عند الأولى : حديث عن النبي ﷺ قال : « فَضَّلْتُ سُورَةَ الْحَجِّ بِسُجْدَتَيْنِ فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْهُمَا فَلَا يَقْرَأَهُمَا » ^(١) . وقوله : ﴿ وَحِيدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ حِمَاكُمْ ﴾ أي : بأموالكم وألستكم وأنفسكم كما قال تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ وقوله : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ أي : يا هذه الأمة الله اصطفاكم ، واختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم ، وخصكم بأكرم رسول وأكمل رسول وأكمل شرع . ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي : ما كلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجًا ومخرجًا . فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين ، تجب في الحضر أربعا ، وفي السفر تقصر إلى ثنتين ، وفي الخوف يصلها بعض الأئمة ركعة كما ورد به الحديث . وتصلى رجالا وركبانا مستقبلي القبلة ، وغير مستقبلها ، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها . والقيام فيها يسقط لعذر المرض ، فيصلها المريض جالسا ، فإن لم يستطع ؛ فعلى جنبه ، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ الشَّمْعَةِ » ^(٢) . وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : « بَشِّرَا وَلَا تُنْفَرَا ، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا » ^(٣) ولهذا قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ من ضيق . وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نَقُولُ لَكَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيظٌ ﴾ أي : من ضيق بل وسعه عليكم كلمة أيكم إبراهيم . قال : ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أيكم إبراهيم .

قلت : وهذا المعنى في هذه الآية كقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نَقُولُ لَكَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيظٌ ﴾ وعن ابن عباس في قوله : ﴿ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ قال : الله ﷻ . وقال عبد الرحمن ابن زيد ﴿ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني : إبراهيم وذلك لقوله : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ قال ابن جرير : وهذا لا وجه له لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأئمة

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٢١/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٨) ومسلم في الأشربة (٧١) .

في القرآن مسلمين . وقد قال الله تعالى : ﴿ هُوَ سَنَّكُمْ السُّلَيْبَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ قال مجاهد : الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ، وفي الذكر ﴿ وَفِي هَذَا ﴾ يعني : القرآن وكذا قال غيره . قلت : وهذا هو الصواب ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ هُوَ آتَيْنَاكُمْ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه ملة أبيهم الخليل ، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة ، بما نوه به من ذكرها ، والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يتلى على الأحرار والرهبان فقال : ﴿ هُوَ سَنَّكُمْ السُّلَيْبَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل هذا القرآن ﴿ وَفِي هَذَا ﴾ روي عنه عليه السلام قال : « مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جِثِّي جَهَنَّمَ » قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : « نَعَمْ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى ، فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللَّهِ الَّتِي سَمَّاكُمْ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ » ^(١) . ولهذا قال : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : إنما جعلناكم هكذا أمة وسطًا عدولًا خيارًا مشهودًا بعدالتكم عند جميع الأمم ، لتكونوا يوم القيامة ﴿ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها . فلماذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم ، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك . وقوله : ﴿ فَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أي : قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض ، وطاعة ما أوجب ، وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

وقوله : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ ﴾ أي اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيّدوا به ﴿ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي : حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ يعني : نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء .

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِمُؤْتِيهِمْ حَسِبُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١ .

عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ، ورفع يديه وقال : « اللَّهُمَّ رِزْقًا وَلَا تَقْضِنَا ، وَأَكْرَمًا وَلَا تُهِنَّا ، وَأَعْظَمًا وَلَا تَحْرِمْنَا ، وَآثِرًا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا ، وَارْضَ عَنَّا وَارْضِنَا » ثم قال : « لَقَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةُ » . ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر (١) .

وعن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله ﷺ حتى انتهت إلى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَلَقَ اللَّهُ جَنَّةَ عَذْنٍ بِيَدِهِ لَبَنَةٌ مِنْ دُرَّةٍ يَبْصَاءُ ، وَلَبَنَةٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ خُمْرَاءُ ، وَلَبَنَةٌ مِنْ زَبْزَجْدَةٍ خَضْرَاءُ ، يَلَاطُهَا الْمِسْكُ ، وَخَضْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ ، وَحَشِيشُهَا الزُّعْفَرَانُ ثُمَّ قَالَ لَهَا : انْطِقِي . قَالَتْ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فَقَالَ اللَّهُ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يُجَاوِرُنِي فِيكَ بَخِيلٌ » . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : قد فازوا وسعدوا ، وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذا الأوصاف ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ خَاشِعُونَ ﴾ خائفون ساكنون . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الخشوع : خشوع القلب ، وقال الحسن البصري : كان خشوعهم في قلوبهم ، ففضوا بذلك أبصارهم ، وخفضوا الجناح . وقال محمد بن سيرين : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ، فلما نزلت هذه الآية : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم . والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وأثرها على غيرها ، وحيث تكون راحة له وقرة عين كما قال النبي ﷺ : « حُبِّبَ إِلَيَّ الطَّيِّبُ ، وَالنِّسَاءُ ، وَجُعِلَتْ قُوَّةُ عَنَّتِي فِي الصَّلَاةِ » (٣) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤/١) والترمذي في سننه (٣١٧٣) والحاكم في المستدرک (٥٣٥/١) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٩٢/٢) والهيثي في مجمع الزوائد (٣٩٧/١٠) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٨/٣) .

وعن سالم بن أبي الجعد ، عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا بلال أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ » ^(١) .
 وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِفْوٍ مُّعْضُوتٍ ﴾ أي : عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم ،
 والمعاصي كما قاله آخرون ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا
 بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ
 لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ها هنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية ، وإنما
 فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة ، إنما هي ذات
 النصب والمقادير الخاصة ، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة قال تعالى في سورة الأنعام
 وهي مكية : ﴿ وَكَانُوا حَقَّةً يَوْمَ حَصَايِهِ ﴾ وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ها هنا زكاة النفس من
 الشرك والدنس . كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ وَقَدْ غَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ وكقوله : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ
 الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس ، وزكاة
 الأموال ؛ فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا ، والله أعلم .
 وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
 فَمَنْ ابْتَغَىٰ زَوْجًا ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أي : والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما
 نهاهم الله عنه من زنى ولواط ، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم
 من السراري ، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ، ولا حرج ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
 مَلُومِينَ ﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ زَوْجًا ذَلِكَ ﴾ أي غير الأزواج والإماء ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أي المعتدين . وقد
 استدلل الإمام الشافعي رحمه الله ، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ
 لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ قال : فهذا : الصنيع خارج عن هذين
 القسمين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ ابْتَغَىٰ زَوْجًا ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ .
 وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أي : إذا أؤتمنوا لم يخونوا ، بل يؤدونها إلى أهلها .
 وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « آيَةُ الْمُنَافِقِ
 ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي : يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود :
 سألت رسول الله ﷺ : فقلت : يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصَّلَاةُ عَلَىٰ وَفَّيْهَا »
 قلت : ثم أي ؟ قال : « يَرْوِي الْوَالِدَيْنِ » قلت : ثم أي ؟ قال : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٣) . وقال ابن
 مسعود في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ : يعني مواقيت الصلاة . وقال قتادة : على
 مواقيتها وركوعها وسجودها ، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة ، واختتمها
 بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ : « اسْتَقِيمُوا وَلَكِنْ تَحْضُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٤/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٧/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٣٤) ومسلم في الإيمان ب (٣٦) رقم ١٣٩ .

أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ ^(١) . ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ ^(٢) . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ وفي الصحيح عنه ﷺ قال : « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ . وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ » ^(٣) . وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلَانِ : مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ ، فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ » ^(٤) . وقال مجاهد : ما من عبد إلا وله منزلان ؛ منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة ، ويهدم بيته الذي في النار ، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة ، ويبني بيته الذي في النار . فالْمُؤْمِنُونَ يرثون منازل الكفار ؛ لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك ، لو كانوا أطاعوا ربهم ﷻ . بل أبلغ من هذا أيضًا . وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ : هَذَا فُكَاكُكَ مِنَ النَّارِ » ^(٥) . قلت : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ ^(١) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ^(٢) ثُمَّ خَلَقْنَا الطُّفْلَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ^(٣) ثُمَّ لَئِنْ كُنْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَنُتَوَنَّى ^(٤) ثُمَّ لَئِنْ كُنْتُمْ لَنَفِيضِينَ ^(٥) .

يقول تعالى مخبرًا عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين ، وهو آدم ﷺ خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون . وقال ابن عباس : ﴿ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ قال : من صفوة الماء وقال مجاهد : ﴿ مِنْ سُلَالَةٍ ﴾ أي : من مني بني آدم ، وقال ابن جرير : إنما سمي آدم طينًا لأنه مخلوق منه . وقال قتادة : استل آدم من الطين ، وهذا أظهر في المعنى ، وأقرب إلى السياق ؛ فإن آدم ﷺ خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون ، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ^(١) . وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ » ^(٢) . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً ﴾ ^(٣) هذا الضمير عائد على جنس الإنسان كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَيَدَأُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ^(٤) ثُمَّ جَعَلَ سَلَمٌ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ^(٥) أي ضعيف كما قال : ﴿ أَرَأَيْتُمْ نَظْفَةً مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ ^(٦) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ^(٧) يعني : الرحم معد لذلك مهياً له ^(٨) إِنَّ قَدَرِ مَقْلُوبٍ ^(٩) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ^(١٠) أي مدة معلومة ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٧/٥ ، ٢٨٢) وابن ماجه في سننه (٢٧٧ ، ٢٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٥/٢) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٥) والهندي في كنز العمال (٢٩١٣) .

(٤) أخرجه : مسلم في التوبة (٤٩) وأحمد في مسنده ٤١٠/٤ .

(٥) الترمذي في السنن (٢٩٥٥) وأبو داود في السنن (٤٦٩٣) والحاكم في المستدرک ٦١/٢ .

وأجل معين حتى استحكم ونقل من حال إلى حال ، وصفة إلى صفة ولهذا قال ها هنا : ﴿ تَرَى خَلْقَنَا الثُّلُفَةَ عِلْقَةً ﴾ أي ثم صيرنا النطفة ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره ، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة ، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة . قال عكرمة وهي دم ﴿ فَخَلَقْنَا أَلْفَافَةً مُضْغَةً ﴾ وهي : قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط . ﴿ فَخَلَقْنَا أَلْفَافَةً عِظْمًا ﴾ يعني : شكلناها ذات رأس ويدين ، ورجلين بعظامها وعصبتها وعروقها . وفي الصحيح عنه عليه السلام : « كُلُّ جَسَدٍ ابْنِ آدَمَ يَتَلَي إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ » ^(١) . ﴿ فَكَسَوْنَا الْفُطْرَةَ لَحْمًا ﴾ أي : جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ تَرَى أَنْشَأْتُهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ أي : ثم نفخنا فيه الروح فتحرك ، وصار خلقًا آخر ، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب . ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ . وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكًا فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث . فذلك قوله : ﴿ تَرَى أَنْشَأْتُهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ يعني : نفخنا فيه الروح . وقال ابن عباس : ﴿ تَرَى أَنْشَأْتُهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ يعني : نقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلًا ، ثم نشأ صغيرًا ، ثم احتلم ، ثم صار شابًا ، ثم كهلاً ، ثم شيخًا هرمًا ، ونحو ذلك ولا منافاة ، فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات ، والأحوال والله أعلم .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : « إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَجْمَعُ خَلْقَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : رِزْقُهُ ، وَأَجَلُهُ ، وَعَمَلُهُ ، وَهَلْ هُوَ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ؟ فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ يَعْمَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيُخْتَمَ لَهُ يَعْمَلُ أَهْلُ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ يَعْمَلُ أَهْلُ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيُخْتَمَ لَهُ يَعْمَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا » ^(٢) .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى الثُّلُفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَاذَا ؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ ، وَأَثَرُهُ وَمَصِيبَتُهُ وَرِزْقُهُ ، ثُمَّ تُطَوَّى الصَّحِيفَةُ فَلَا يُزَادُ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ » ^(٣) .

وقوله : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ يعني : حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال ، وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق . قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ لَنَسِتُونَ ﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ﴿ تَرَى إِنَّكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ يعني : النشأة الآخرة ﴿ تَرَى اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ يعني : يوم المعاد . وقيام الأرواح إلى الأجساد ، فيحاسب الخلائق ، ويوفي كل عامل عمله إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر .

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٥) ومسلم في الفتن (١٤١ ، ١٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٩٣٠٨ ومسلم في القدر (١) والإمام أحمد في مسنده (٣١٥/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٤) .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان . كما قال تعالى : ﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ . وهكذا في أول الم السجدة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والأرض ، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين ، وفيها أمر المعاد وغير ذلك من المقاصد .

وقوله : ﴿ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ قال مجاهد : يعني : السموات السبع ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ ﴾ أي : ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ، ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعه ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والزمان والبحار والقفار والأشجار . ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْرُسُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ثَلَاثِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ ١ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ٢ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين ٣ وإن لكم في الأنعام لبهزة شفيكم مما في بطونكم ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ٤ وعليها وعلى الفلك تحملون ٥ . يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر ، أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به حتى أن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزروعها ، ولا تحمل دمنها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى ، كما في أرض مصر ويقال لها : الأرض الجزر ، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها ، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر فيسقي أرض مصر ، ويدر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه ؛ لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال ، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور ، وقوله : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض ، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ أي : لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباح والبراري ، والقفار لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ، ولا لسقي لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض ، بل ينجر على وجهها لفعلنا . ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلفظه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً ، فيسكنه في الأرض ، ويسلكه ينابيع في الأرض ، فيفتح العيون والأنهار ، ويسقي به الزروع والثمار تشربون منه ودوابكم وأنعامكم ، وتغتسلون منه وتطهرون منه وتنظفون فله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ يعني : فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق . ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي : ذات منظر حسن وقوله : ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ أي :

فيها نخيل وأعناب ، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره ، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره ، وقوله : ﴿ لَكَزَ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ أي : من جميع الثمار . وقوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ، ومنه تأكلون . وقوله : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ يعني الزيتون ، والطور ، هو الجبل . وقال بعضهم : إنما يسمى طوراً ، إذا كان فيه شجر ، فإن عري عنها سمي جبلاً لا طوراً والله أعلم . و ﴿ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ هو طور سينين ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون ، وقوله : ﴿ تَبَّتْ يَالْدُهْنِ ﴾ قال بعضهم : الباء زائدة ، وتقديره تبنت الدهن .

كما في قول العرب ألقى فلان يده أي : يده ، وأما على قول من يضمن الفعل ، فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصَنَعَ ﴾ أي : آدم ﴿ يَلَاكِينَ ﴾ أي : فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباح . عن أبي أسيد ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُوا الزَّيْتِ وَأَدْهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةِ مُبَارَكَةٍ » ^(١) . وعن الصعب بن حكيم بن شريك بن نمله قال : ضفت عمر بن الخطاب ؓ ليلة عاشوراء فاطعمني من رأس بعير بارد وأطعمنا زيتاً ، وقال : هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ . وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِمِثْلِ شَفِيقِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وَعَلَيْهَا وَكَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع ، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ، ويأكلون من حملانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ويركبون ظهورها ، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم . كما قال تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ لَكُمْ بَلَلٌ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿ وَكَمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَسَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَصَّوْا بِهِ حَتَّى حَبِطَ ﴾ .

يخبر تعالى عن نوح ﷺ : حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ، ﴿ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون من الله في إشراككم به ؟ فقال : الملائكة وهم السادة والأكابر منهم ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعنون : يترفع عليكم ويتعاضد بدعوى النبوة ، وهو بشر مثلكم فكيف أوحى إليه دونكم ؟ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ أي : لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ، ولم يكن بشراً ، ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ أي : يبعثه البشر في آبائنا الأولين يعنون بهذا أسلافهم ، وأجدادهم في الدهور الماضية . وقوله : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ ﴾ أي : مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم ، واختصه من بينكم بالوحي ﴿ فَرَصَّوْا بِهِ حَتَّى حَبِطَ ﴾ أي : انتظروا به ريب المنون واصبروا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٩٧/٣) والترمذي في السنن (١٨٥١ ، ١٨٥٢) وابن ماجه في السنن (٣٣٢٠) .

عليه مدة حتى تستريحوا منه .

﴿ قَالَ رَبِّ امْكُتِرْ بِمَا كَذَّبُونِ ۝ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ امْكُتِرْ فَلَمَّا كَذَّبْنَا بِأَعْيُنِنَا فَوَّحْنَا فَإِذَا جَاءَ أَهْلُنَا وَقَارَ الشَّوْخُ فَاسْلُفْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ۝ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ تَعَمَّدَ اللَّهُ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْهُ مُزَلَّاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَلَئِنْ كُنَّا لَبَشِيرِينَ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه : ﴿ رَبِّ امْكُتِرْ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها ، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي : ذكر وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك ، وأن يحمل فيها أهله ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أي : من سبق عليه القول من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ أي : عند معاناة إنزال المطر العظيم لا تأخذك رافة بقومك وشفقة عليهم ، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون ، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان . وقوله : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ تَعَمَّدَ اللَّهُ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ ﴾ كما قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ ۝ وَإِنَّا لَآ إِلَهَ إِلَّا رَبُّنَا مُسْتَقِيمُونَ ﴾ وقد امثل نوح عليه السلام هذا كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ آتِكُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ يُخْرِجُهَا وَتُرْسِنُهَا ﴾ فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه . وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْهُ مُزَلَّاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : إن في هذا الصنيع ، وهو إنجاء المؤمنين ، وإهلاك الكافرين آيات : أي لحججا ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى فاعل لما يشاء ، قادر على كل شيء عليم بكل شيء . وقوله : ﴿ وَلَئِنْ كُنَّا لَبَشِيرِينَ ﴾ أي : لختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَلِيلَتُمْ ۝ أَعْبُدْكُمْ أَكْثَرَ إِذَا مِثْمُ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظْلًا أَكْثَرَ مَخْرُجُونَ ۝ هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تَعُدُّونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ رَبِّ امْكُتِرْ بِمَا كَذَّبُونِ ۝ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصِحْنَنَّ نَدِيرِينَ ۝ فَلَاخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً فَبَعَثْنَا لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين قيل : المراد بهم عاد ، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم ، وقيل المراد : بهؤلاء ثمود لقوله : ﴿ فَلَاخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فكذبوه وخالفوه لكونه بشرا مثلهم ، وكذبوا بقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجسماني وقالوا : ﴿ أَعْبُدْكُمْ أَكْثَرَ إِذَا مِثْمُ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظْلًا أَكْثَرَ مَخْرُجُونَ ۝ هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تَعُدُّونَ ﴾ أي : بعد ذلك . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي :

فيما جاءكم به من الرسالة والنبذة والإخبار بالمعاد ﴿ وَمَا تَحْنُ لَهُ يَوْمَئِذٍ ﴾ ٤٢ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُ ﴿ أَي : استفتح عليهم الرسول ، واستنصر ربه عليهم ، فأجاب دعاءه ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصِخَّنَّ نَارُهُمْ فِي أَلْيَسٍ ﴾ ٤٣ أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتكم به ﴿ فَالْخَذَّاتُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ﴾ ٤٤ أي : وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم . والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة ﴿ تَذِيرٌ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾ ٤٥ . وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ ٤٦ أي : صرعى هلكى كغثاء السيل ، وهو الشيء الحقيقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه ﴿ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ٤٧ كقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴾ ٤٨ أي : بكفرهم وعنادهم ، ومخالفة رسول الله فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم .

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ٤٩ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَهْلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِنُونَ ﴿ ٥٠ ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا نَذِيرًا كُلَّ مَا جَاءَهُ أُمَّةٌ رَسُولُهُمْ كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَاهُ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ٤٩ أي : أمما وخلائق ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَهْلَهَا وَمَا يَسْتَحْزِنُونَ ﴾ ٥٠ يعني : بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه ، قبل كونهم أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، وخلفا بعد سلف ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُوحًا نَذِيرًا ﴾ ٥١ قال ابن عباس : يعني يتبع بعضهم بعضا . وقوله : ﴿ كُلَّ مَا جَاءَهُ أُمَّةٌ رَسُولُهُمْ كَذَّبُوهُ ﴾ ٥٢ يعني : جمهورهم وأكثرتهم كقوله تعالى : ﴿ يَحْزَنُوا عَلَى الْيَسَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ٥٣ وقوله : ﴿ فَأَتَيْنَاهُ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا ﴾ ٥٤ أي : أهلكتناهم . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ ٥٥ أي : أخبارا وأحاديث للناس كقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْفُوعَهُمْ كُلَّ مَرْفُوعٍ ﴾ ٥٦ .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ٥٧ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿ ٥٨ فَقَالُوا أَتُؤْتِينَا لِسَانًا وَيُنَزِّلُنَا وَقَوْمُهُمْ لَنَا عِذُونَ ﴾ ٥٩ فَكَذَّبُوهُمْ فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿ ٦٠ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ٦١ . يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى ﷺ وأخاه إلى فرعون وملأه ، بالآيات والحجج الدامغات ، وأن فرعون وقومه استكبروا عن الانقياد لأمرهما لكونهما بشرين . كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر تشابهت قلوبهم ، فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم في يوم واحد أجمعين . وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهي ، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط ، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامه بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ٦٢ . ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ٦٣ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ أنه جعلهما آية للناس ، أي : حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، وقوله : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ٦٣ قال ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ، وقال : ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ ٦٤ أي : ذات خصب ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ ٦٥ يعني : ماء ظاهرا . وقال مجاهد : ربوة مستوية ، وقال سعيد بن جبير ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ٦٦ استوى الماء فيها . وقال قتادة : ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ ٦٧ الماء الجاري . ثم اختلف المفسرون في

مكان هذه الربوة من أي أرض هي ؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ليس الرابي إلا بمصر ، والماء حين يسيل يكون الرابي عليها القرى ، ولولا الرابي غرقت القرى . وهو بعيد جدًا ، وعن سعيد بن المسيب قال : هي دمشق قال : وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك . وعن ابن عباس ﴿ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال : إنها دمشق . عن مجاهد : ﴿ وَأَوَّاهُنَّهَا إِلَى رَبِّهِ ﴾ قال : عيسى ابن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها . وعن أبي هريرة يقول في قول الله تعالى : ﴿ وَأَوَّاهُنَّهَا إِلَى رَبِّهِ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ . قال : هي الرملة من فلسطين ، وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَوَّاهُنَّهَا إِلَى رَبِّهِ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال : المعين الماء الجاري ، وهو النهر الذي قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ وكذا قال الضحاك وقتادة : ﴿ إِلَى رَبِّهِ ذَاتَ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ هو بيت المقدس فهذا والله ألم هو الأظهر ، لأنه المذكور في الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضًا ، وهذا أولى ما يفسر به الأحاديث الصحيحة ثم الآثار .

﴿ يَأْتِيَهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّبِيبَاتِ وَاعْتَلُوا صَبِيحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرًّا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝ فَذَرْنَاهُمْ فِي عَصْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ۝ انْجَسَبُونَ أَنَّمَا يُذَمِّرُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝ شَاجَّ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ .

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح فقام الأنبياء ﷺ بهذا أتم القيام ، وجمعوا بين كل خيرًا قولًا وعملاً ، ودلالة ونصيحة ، فجزاهم الله عن العباد خيرًا . قال الحسن البصري في قوله : ﴿ يَأْتِيَهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّبِيبَاتِ ﴾ قال : أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ، ولا حلوكم ولا حامضكم ، ولكن قال : انتهوا إلى الحلال منه . وقال سعيد بن جبيرة يعني : الحلال ، وفي الصحيح : « وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَغَى الْغَنَمَ » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ وَأَنَا ؛ كُنْتُ أَزْعَاهَا عَلَى قَوَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ » ^(١) وفي الصحيح : « إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ » ^(٢) وفي الصحيحين « إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ ، وَأَحَبُّ الْقِيَامِ إِلَى اللَّهِ قِيَامُ دَاوُدَ ، كَانَ يَتِمُّ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَتِمُّ شُدُسَهُ ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، وَلَا يَزُورُ إِذَا لَاقَى » ^(٣) . وقوله : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي : دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملة واحدة وهو : الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ . وقوله : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ ذُرًّا ﴾ أي : الأمم الذين بعث إليهم الأنبياء ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال ؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدين . ولهذا قال : متهددا لهم ومتوعدا : ﴿ فَذَرْنَاهُمْ فِي عَصْرَتِهِمْ ﴾ أي : في غيهم وضلالهم ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي : إلى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى : ﴿ ذَرْنَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في (الإمارة) (٢٢٦٢) .

(٢) أخرجه البخاري في (البيوع) (٢٠٧٢) .

(٣) أخرجه البخاري في (التهدد) (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) .

وقوله : ﴿ اَيْحْسِبُونَ اَنَّمَا نُثَبِّرُهُمْ بِهِ مِنْ تَالِئِ يَوْمَيْنِ ۚ ﴾ شَأْنُهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ يعني : أياظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيههم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ، ومعزتهم عندنا ! ؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ اَمْوَالًا وَاَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم ، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجا وانظارا وإملاء . ولهذا قال : ﴿ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اِنَّمَا تُنَمِّلُ لَهُمْ لِيُذَادُوا اِسْمًا ۚ ﴾ . وقال : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ عَيْبًا ﴾ والآيات في هذا كثيرة ، قال قتادة في قوله : ﴿ اَيْحْسِبُونَ اَنَّمَا نُثَبِّرُهُمْ بِهِ مِنْ تَالِئِ يَوْمَيْنِ ۚ ﴾ شَأْنُهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْخَيْرِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ . قال : مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم ، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح . وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ يَتَنَكَّمُ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ يَتَنَكَّمُ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحْبَبَهُ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : « عُشْمُهُ وَظُلْمُهُ ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيَنْفِقَ مِنْهُ ، فَيَبَارِكَ لَهُ فِيهِ وَلَا يَتَصَدَّقَ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ ، وَلَا يَتْرُكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ ؛ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، إِنَّ الْحَيِّثَ لَا يَمْحُو الْحَيِّثَ » (١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ يَتَابَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۚ ﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَافِقُونَ ﴿ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ ﴾ أي هم مع إحسانهم وإيمانهم ، وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ يَتَابَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يؤمنون بآياته الكونية ، والشرعية ، كقوله تعالى إخبارا عن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ : ﴿ وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ ﴾ أي : أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه ، وما شرعه الله فهو إن كان أمرا فمما يحبه ويرضاه ، وإن كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه ، وإن كان خيرا فهو حق . ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ، ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدا صمدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه لا نظير له ولا كفاء له ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون ، أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط . عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويذني ويشرب الخمر وهو يخاف الله ﷻ ؟ قال : « لَا يَا بِنْتُ الصَّدِيقِ ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيُصُومُ وَيَتَصَدَّقُ ، وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ ﷻ » (٢) . وقد قرأ آخرون هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ ﴾ أي : يفعلون ما يفعلون وهم خائفون . وروي هذا مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قرأها كذلك .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والمذري في الترهيب (٥٤٩/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٥/٦) والترمذي في السنن (٣١٧٥) .

﴿ وَلَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ٦٢ ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴾ ٦٣ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ ﴾ ٦٤ ﴿ لَا تَخْتَرُوا الْيَوْمَ الْكُفْرَ إِنَّا لَا نَضُرُّوهُ ﴾ ٦٥ ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفِيكُمْ نَكِصُونَ ﴾ ٦٦ ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ ٦٧ .

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه : لا يكلف نفساً إلا وسعها أي إلا ما تطيق جملة والقيام به ، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء . ولهذا قال : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ بِالْحَقِّ ﴾ يعني كتاب الأعمال ﴿ وَهُوَ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي : لا يخسرون من الخير شيئاً ، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين . ثم قال منكرها على الكفار والمشركين من قريش : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ ﴾ أي : في غفلة وضلالة ﴿ مِنْ هَذَا ﴾ أي : القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ . وقوله : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَلٌ ﴾ أي : سيئة من دون ذلك ، يعني : الشرك ﴿ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴾ . قال : لا بد أن يعملوها ، وقال آخرون : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴾ أي : قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها ، قبل موتهم لا محالة لتحقق عليهم كلمة العذاب . وقد قدمنا في حديث ابن مسعود : « قَوْلَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَذْخُلَهَا » (١) .

قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ ﴾ يعني : حتي إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ ﴾ أي : يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ أَزِلُّ الْقَوْمَ وَمَهَلُكُمْ قَلِيلٌ ﴾ ٦٣ ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ لَا تَخْتَرُوا الْيَوْمَ الْكُفْرَ إِنَّا لَا نَضُرُّوهُ ﴾ أي : لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتكم أو سكتكم لا محيد ولا مناص ولا وزر ، لزم الأمر ووجب العذاب . ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفِيكُمْ نَكِصُونَ ﴾ أي : إذا دعيتم أيتيم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ ذَلِكَُمْ يَأْتُهُ إِذَا دَعَىٰ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ . وقوله : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ في تفسيره قولان : أحدهما : أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق ، وإياهم إياه استكباراً عليه ، واحتقاراً له ولأهله ، فعلى هذا الضمير في به فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الحرم أي مكة ذموا ؛ لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام . والثاني : أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة والثالث : أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ، ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر ، فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم ، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء . وقيل : المراد بقوله : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ أي : بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به ، كما قال ابن عباس : إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ فقال : مستكبرين بالبيت يقولون نحن أهل سامرا . قال : كانوا

(١) أخرجه البخاري في (القدر) (٦٥٩٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٨٢/١) والترمذي في (السنن) (٤) .

يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ، ويهجرونه وقد أطب ابن أبي حاتم ها هنا بما هذا حاصله .
﴿ أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُكْرَوَاتٌ ﴿ ٦٩ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لِلْحَقِّ كَرِهَاتٌ ﴿ ٧٠ ﴾ وَلَوْ أَنْتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنْتَبَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿ ٧١ ﴾ أَمْ تَتْلُوهُمْ حَرَمًا فَتَخْرُجُ رَيْكٌ خَيْرٌ مِنَ الرِّزْقِ ﴿ ٧٢ ﴾ وَلَئِنْ لَدَعَوْهُمْ إِلَى صَرْطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ ٧٣ ﴾ وَلَئِنْ لَدَيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ ﴿ ٧٤ ﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿ ٧٥ ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف ، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهاهم نذير ، فكان اللاتق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها ، والقيام بشكرها وتفهمها ، والعمل بمقتضاها آتاء الليل وأطراف النهار . كما فعله النجباء منهم من أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنه ، وقال قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ ﴾ ٦٨ إذن والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك . ثم قال منكراً على الكافرين من قريش : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُكْرَوَاتٌ ﴾ ٦٩ أي أنهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته ، وصيائنه التي نشأ بها فيهم ؟ أي أفقدرون على إنكار ذلك والمباهة فيه ؟ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته . وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم . وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سألوه وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفارا لم يسلموا ، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك . وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ ٧٠ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه : تقول القرآن أي : افتراه من عنده أو أن به جنونا لا يدري ما يقول ، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به ، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن ، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ، ولا يستطيعون أبد الأبد . ولهذا قال : ﴿ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لِلْحَقِّ كَرِهَاتٌ ﴾ ٧٠ يحتمل أن تكون هذه جملة حالية أي في حالة كراهة أكثرهم للحق ، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنْتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ ٧٠ قال مجاهد : الحق هو الله ﷻ ، والمراد : لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أي : لفساد أهوائهم واختلافها ، كما أخبر عنهم في قولهم : ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ٧١ ثم قال : ﴿ أَمْ يَقِيمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ ٧٢ . وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَسْكَنْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ ٧٣ . ففي هذا كله تبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى : هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره وتديره خلقة تعالى ، وتقديس فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ أَنْتَبَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ٧١ .

يَذْكُرُهُمْ ﴿١﴾ أَي : القرآن ﴿٢﴾ فَهَمُّ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضٌ ﴿٣﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿٤﴾ أَرَنْتَهُمْ خَرَمًا ﴿٥﴾ قَالَ الْحَسَنُ : أَجْرًا ، وَقَالَ قَتَادَةُ : جَعَلًا ﴿٦﴾ فَخَرَجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴿٧﴾ أَي : أَنْتَ لَا تَسْأَلُهُمْ أَجْرَةَ وَلَا جَعَلًا ، وَلَا شَيْئًا عَلَى دَعْوَتِكَ لِإِيَّاهُمْ إِلَى الْهُدَى ، بَلْ أَنْتَ فِي ذَلِكَ تَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ جَزِيلَ ثَوَابِهِ كَمَا قَالَ : ﴿٨﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهَوُ لَكُمْ إِنِ اجْتَبَى إِلَا عَلَى اللَّهِ ﴿٩﴾ وَقَالَ : ﴿١٠﴾ وَجَلَّةٌ مِنَ آقَصَا الْمَدِينَةِ بِطَلِّ يَسَعَى قَالَ يَفْقَهُوا أَتَّبِعُوا الْمُتَرَسِّلِينَ ﴿١١﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَكْبِرُ أَجْرًا .

وقوله : ﴿١٢﴾ وَلِلَّهِ لَتَدْعُوهُنَّ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّتُوكَ ﴿١٤﴾ عَنْ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي تَمَسِّكَ بِحُجْرَتِكُمْ هَلُمُّ عَنِ النَّارِ ، هَلُمُّ عَنِ النَّارِ ، وَتَغْلِبُونَنِي تَتَفَاحَمُونَ فِيهَا تَفَاحَمُ الْفَرَّاشُ وَالْجَنَادِبُ ، فَأَوْشِكُ أَنْ أُرْسِلَ حُجْرَتُكُمْ وَأَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، فَتَرُدُّونَ عَلَيَّ مَعًا وَأَشْتَاتَا أَغْرِفُكُمْ بِسِمَاتِكُمْ وَأَسْمَائِكُمْ ، كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ الْغَرِيبَ مِنَ الْإِبِلِ فِي إِبِلِهِ ، فَيَذْهَبُ بِكُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ ، فَأَتَانِيذُ فِيكُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، أَيُّ رَبِّ قَوْمِي ، أَيُّ رَبِّ أُمَّتِي ، فَيَقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَحَدُثُوا بِغَدَاكَ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يَنْشَوْنَ بِغَدَاكَ الْقَهْقَرَى عَلَى أَغْفَابِهِمْ ، فَأَعْرِفُنْ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ شَاةَ لَهَا نَعَاءٌ يُنَادِي : يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ، فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا قَدْ بَلَغْتُ ، وَلَا أَعْرِفُنْ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رِعَاءٌ يُنَادِي : يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ! فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ بَلَغْتُ ، وَلَا أَعْرِفُنْ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ فَرَسًا لَهَا خَنْحَمَةٌ فَيُنَادِي : يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ! فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ بَلَغْتُ ، وَلَا أَعْرِفُنْ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ سِقَاءً مِنْ أَدَمَ يُنَادِي : يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ ! فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ بَلَغْتُ » (١) .

وقوله : ﴿١٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّتُوكَ ﴿١٦﴾ أَي : لَعَادُونَ جَائِرُونَ مَنْحَرِفُونَ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : نَكَبَ فُلَانٌ عَنِ الطَّرِيقِ إِذَا زَاغَ عَنْهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿١٧﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ مُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ بِعَمَلِهِمْ ﴿١٨﴾ يخبر تعالى عن غلظتهم في كفرهم بأنه لو أراح عنهم الضر وأفهمهم القرآن ، لما انقادوا له ولا استمعروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿١٩﴾ وَلَوْ رَزَقْنَاهُ إِذْ وَفَّقُوا عَلَى الْكُفْرِ لَفَعَلُوا بَلَاءَيْنَا بُرْدًا وَلَا تَكْذِبْ يَكَاذِبَ رِيبًا وَلَكُونِ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ بَلْ بَدَأْنَاهُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ بِعَنِ عَنَّا ﴿٢١﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿٢٢﴾ يَسْتَعْوِينَ ﴿٢٣﴾ . فَهَذَا مِنْ بَابِ عِلْمِهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَكُونُ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كُلُّ مَا فِيهِ ﴿٢٤﴾ وَلَوْ ﴿٢٥﴾ فَهُوَ مِمَّا لَا يَكُونُ أَبَدًا .

﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُرُهُمْ ﴿٢٧﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبِيلُونَ ﴿٢٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٩﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَنُبْعُوثُ ﴿٣٣﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَادَنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٤﴾ .

يقول تعالى : ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴿٣٦﴾ أَي : ابْتَلَيْنَاهُمْ بِالْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ ﴿٣٧﴾ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَعُرُهُمْ ﴿٣٨﴾ أَي : لَمَّا رَدَّهُمْ عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُخَالَفَةِ ، بَلْ اسْتَمَرُّوا عَلَى غِيهِمْ وَضَلَالِهِمْ ﴿٣٩﴾ فَمَا

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٥٦/١) .

﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ؟ ومن هو رب العرش العظيم ؟ يعني الذي هو سقف المخلوقات كما جاء في الحديث : « شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، إِنْ عَزَمْتُهُ عَلَى سَعَاوَاتِهِ هَكَذَا » . وأشار بيده مثل القبة ^(١) . وقال الضحاک عن ابن عباس : إنما سمي عرشاً لارتفاعه . وقال مجاهد : ما السماوات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة . وعن ابن عباس قال : العرش لا يقدر قدره أحد . وفي رواية : إلا الله ﷻ .

ولهذا قال ما هنا : ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : الكبير ، وقال في آخر السورة : ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴾ أي : الحسن البهي فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر . وقال ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه .

وقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِئُ ﴾ ؟ أي : إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به ؟ ﴿ قُلْ مَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِهِ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : بيده الملك ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أي : متصرف فيها ، وكان رسول الله ﷺ يقول : « لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ » . وكان إذا اجتهد في اليمين قال : « لَا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ » ^(٢) . فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿ وَهُوَ يُجِيبُ وَلَا يُجَاوَزُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره ، وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه . ولهذا قال الله ﴿ وَهُوَ يُجِيبُ وَلَا يُجَاوَزُ عَلَيْهِ ﴾ أي : وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه ، الذي له الخلق والأمر ، ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف ، وما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله : ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي : سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴾ ؟ أي : فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره ، مع اعترافكم وعملكم بذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله . وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك . كما قال في آخر السورة ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادم إلى ما هم فيه من الإلحاد والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال . كما قال الله عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ . ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبِثُوا عَلَى صُحُفٍ سَبَّحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصَوِّرُونَ ۝ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك ، والتصرف والعبادة . فقال تعالى :

(١) رواه أبو داود في السنن (٤٧٢٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٦/٤ ، ٢٤٣/٥) .

﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي : لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم منسق ، كل من العالم العلوي والسفلي ، مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ ﴾ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر ، وخلافه فيعملو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو : أنه لو فرض صانعان فصاعداً ، فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزاً ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ؛ فيكون محالاً . فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ؛ كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ أي : عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً . ﴿ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي : يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون .

﴿ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرَبِّئِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِإِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ .

يقول تعالى أمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرَبِّئِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي : إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم . كما جاء في الحديث « وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَتَوَقَّئِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُفْتُونٍ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ أي : لو شئت لأريناك ما نحل بهم من النقم ، والبلاء والحن . ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس ، وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستحلب خاطره ، فتعود عدواته صداقة ، وبغضه محبة . فقال تعالى : ﴿ أَدْفَعْ بِإِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴿ الآية . أي : وما يلهم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة ﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي : على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح . ﴿ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أمره الله أن يستعين من الشيطان ؛ لأنهم لا تنفع معهم الحيل ، ولا ينقادون بالمعروف . وقوله تعالى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ أي : في شيء من أمري ، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور ، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل ، والجماع والذبح ، وغير ذلك من الأمور . ولهذا كان ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ ، وَمِنَ الْغَرَقِ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَخْبِطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ » ^(٢) . ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٨﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٢٣٣) ومالك في الموطأ (القرآن ٩٠) وأحمد في مسنده ٥٢/٤ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٢) .

وَمِنْ ذَرِّيَّتِهِم بِرَزْخٍ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠١﴾ .

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ، وقيلهم عند ذلك ، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ، ولهذا قال : ﴿ رَبِّ ارْجُونِي ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا بَرَكْتَ كَلَّا ۝ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَرَبِّيَ الظَّالِمِينَ لَمْ يَرَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ لَنَا مَرَّةٌ مِمَّنْ سَبَلُ ۝ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِشُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَبَعَاثَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ ۝ ﴾ فذكر تعالى في آيات كثيرة أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ، ويوم النشور ، ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم . وقوله ها هنا : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ مَوْ قَالَتْهَا ۝ ﴾ كلا : حرف ردع وزجر أي : لا نجيبه إلى ما طلب ، ولا نقبل منه . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ مَوْ قَالَتْهَا ۝ ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : أي : لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله : كلا أي لأنها كلمة أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً ، هو كلام منه ، وقول لا عمل معه ، ولورؤى لما عمل صالحاً ، ولكن يكذب في مقالته هذه . وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذَرِّيَّتِهِم بِرَزْخٍ ۝ ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى : ﴿ مِنْ ذَرِّيَّتِهِم جَهَنَّمَ ۝ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ذَرِّيَّتِهِم عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ﴾ أي : يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث « فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا فِيهَا » ^(١) أي : في الأرض .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ ۝ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ لِنَارٍ وَمِنْ فِيهَا كَلِيلُ خُورٍ ۝ ﴾ . يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور ، ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ ۝ ﴾ أي : لا تنفع الأنساب يومئذ ، ولا يرثي والد لولده ، ولا يلوي عليه ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، ثُمَّ نَادَىٰ مَنَادٌ : أَلَا مِنْ كَانَ لَهُ مِظْلَمَةٌ فَلْيَأْخُذْ حَقَّهُ ، قَالَ : فَيُفْرَحُ الْمَرْءُ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْحَقُّ . عَنْ الْمُسَوِّدِ بْنِ مَخْرَمَةَ ۝ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي يَغِيظُنِي مَا يَغِيظُهَا ، وَيُنْشِطُنِي مَا يُنْشِطُهَا ، وَإِنْ الْأَنْسَابُ تَنَقَّطَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا نَسَبِي وَسَبَبِي وَصَهْرِي » ^(٢) . وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عنه ﷺ قال « فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي يُرِيئُنِي مَا يُرِيئُهَا وَيُؤْذِنِي مَا آذَاهَا » ^(٣) وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ أي : من رجحت حسناته على سيئاته ، ولو بواحدة . قاله ابن عباس ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ أي : الذين فازوا فنجوا من النار ، وأدخلوا الجنة . وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ ﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ۝ ﴾ أي : خابوا وهلكوا ، وباعوا بالصفقة الخاسرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ ﴾ أي :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٠٧١) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٣/٤) والبيهقي في السنن (٦٤/٧ ، ٢٠١/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في (النكاح) (٥٢٣٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٩٣ ، ٩٤) .

ما كُثِنَ فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون . ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَتَقَشُّ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَّا سَبَقَ لَهَا أَهْلُهَا تَلْقَاهُمْ لَهَايِبًا ، ثُمَّ تَلْفَحُهُمْ لَفْحَةً فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ لَحْمٌ إِلَّا سَقَطَ عَلَى الْعُرْقُوبِ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعني : عابسون ، وقال عبد الله بن مسعود : ألم تر الرأس المشيط الذي بدا أسنانه ، وقلصت شفتاه .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تُلَىٰ عَلَيَّكَ فُكْتُهُ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾

هذا تفریع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك . فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تُلَىٰ عَلَيَّكَ فُكْتُهُ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴾ : أي : قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت إليكم الكتب ، وأزلت شبهكم ، ولم يبق لكم حجة . كما قال تعالى : ﴿ كَلَّمَآ أَنزَلْنَا فِيهَا فَوْجٌ سَالَمٌ خَرَّسَتْ أَلْسِنُهُمْ نَذِيرٌ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ قَدْ جَلَدْنَا نَذِيرٌ فَكَلْبُنَا وَقَلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن مَّوَدٍّ إِنَّا أَنشُرُ إِلَّا فِي سَلَاحٍ كَبِيرٍ ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ﴿ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ : أي : قد قامت علينا الحجة ، ولكن كنا أشقى من أن نناقدها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها . ثم قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ : أي : ارددنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة . كما قال : ﴿ فَأَعْرِضْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلَٰكِن يُّشْرِكُ بِهِ تَزْمِنُؤُا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ : أي : لا سبل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذ وحده المؤمنون .

﴿ قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِرَاجًا حَتَّىٰ أَسْوَأَكُمْ دَرَكَىٰ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار ، والرجعة إلى هذه الدار . يقول : ﴿ أَخْسِرُوا فِيهَا ﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أي : لا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، فإنه لا جواب لكم عندي . قال ابن عباس : ﴿ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ قال : هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه . وعن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكا ، فلا يجيبهم أربعين عاما ، ثم يرد عليهم إنكم ما كُثِنَ فيها : هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ، ثم يدعون ربهم فيقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ قال : فوالله ما ينس القوم بعدها بكلمة واحدة . وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم قال : فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق .

ثم قال تعالى مذكرا لهم بذنوبهم في الدنيا ، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين ، وأوليائه فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤٨٨/٤) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٣/٥) .

يَغْرِبًا ﴿١١٢﴾ أَي : فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي ﴿١١٣﴾ حَتَّىٰ أَسْأَلَكُمْ ذِكْرِي ﴿١١٤﴾ أَي : حملكم بغضهم على أن أنسيتم معاملتي ﴿١١٥﴾ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَاعُونَ ﴿١١٦﴾ أَي : من صنعهم وعبادتهم كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَتَنَاهَوْنَ﴾ ﴿١١٧﴾ وَإِذَا مَرَأَتْهُمُ ابْنَتُهُنَّ يَتَفَضَّلْنَ عَلَيْهِنَّ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَمَّا جَازَىٰ بِهِ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ فَقَالَ : ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ ﴿١١٨﴾ أَي : على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿١١٩﴾ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١٢٠﴾ أَي : جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة ، والجنة والنجاة من النار .

﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنِلَ الْعَايِينَ ﴿١٢٢﴾ قَدْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ أَنَحْسِبُهُمْ رَبًّا وَأَنكُم مَّعْبُودَاتٌ إِنَّا لَا نَرْجِعُهُمْ ﴿١٢٤﴾ فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٢٥﴾ .

يقول تعالى منها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ أَي : كم كانت إقامتكم في الدنيا ؟ ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنِلَ الْعَايِينَ﴾ ﴿١٢٢﴾ أَي : الحاسبين . ﴿قَدْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٢٣﴾ أَي : مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾ أَي : لما أثرتم الفاني على الباقي ، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ ، ولا استحققتهم من الله سخطة في تلك المدة اليسيرة ، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا .

قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ ، قَالَ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا : لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » - قَالَ : « لَنِعْمَ مَا تَجَوَّزْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ رَحِمْتِي وَرُضَوَانِي وَجَحَّتِي ؛ امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ ؟ » ثُمَّ قَالَ : « يَا أَهْلَ النَّارِ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا : لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . فَيَقُولُ : بِئْسَ مَا تَجَوَّزْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ نَارِي وَسَخِطِي امْكُثُوا فِيهَا مُخَلَّدِينَ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿أَنَحْسِبُهُمْ رَبًّا وَأَنكُم مَّعْبُودَاتٌ﴾ ﴿١٢٤﴾ أَي : أظفنتم أنكم مخلوقون عبثًا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل للبعث أي : لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة ، وإقامة أوامر الله ﷻ ﴿وَأَنكُم لَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ أَي : لا تعودون في الدار الآخرة . كما قال تعالى : ﴿أَنَحْسِبُ الْإِنْسَانَ أَن بُرِكَ لَهُ شَيْءٌ﴾ : يعني هملاً ، وقوله : ﴿فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ ﴿١٢٤﴾ أَي : تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك . ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ ﴿١٢٥﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أي : حسن المنظر بهي الشكل . عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز : أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر ، وشقي عبد أخرجه الله من رحمته وحرّم جنة عرضها السماوات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم ، وخافه ، وباع نافذاً بياق وقليلًا بكثير وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين ، وسيكون من بعدكم الباقيين حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم

إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ﷻ قد قضى نجه ، وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد ، وقد فارق الأحباب ، وباشر التراب ، وواجه الحساب ، مرتين بعمله غني عما ترك فقير إلى ما قدم . فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواليقه ، ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف رداؤه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . عن حسن بن عبد الله أن رجلاً مصاباً مر به عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ . حتى ختم السورة فبرأ . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « بِمَاذَا قَرَأْتَ فِي أُذُنِهِ ؟ » فأخبره . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ رَجُلًا مَوْتًا قَرَأَهَا عَلَى جَبَلٍ لَرَأَى » (١) .

وروي عن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ قال : فقرأناها فغنمنا وسلمنا . وعن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أَمَانُ أُمَّتِي مِنَ الْعَرْقِ إِذَا رَكِبُوا السَّفِينَةَ ، بِاسْمِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ ، وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمَوْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » (٢) .

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ .

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواه ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له أي : لا دليل له على قوله فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ وهذه جملة معترضة ، وجواب الشرط في قوله : ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أي : الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي : لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال لرجل : « مَا تَعْبُدُ ؟ » قال : أعبد الله وكذا وكذا ، حتى عد أصناماً . فقال رسول الله ﷺ : « فَأَتَيْهِمْ إِذَا أَصَابَكَ ضَرْفُ دَعْوَتِهِ كَشَفَهُ عَنْكَ ؟ » قال : الله ﷻ . قال : « فَأَتَيْهِمْ إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَدَعْوَتُهُ أَعْطَاكَهَا ؟ » قال : الله ﷻ . قال : « فَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى أَنْ تَعْبُدَ هَؤُلَاءِ مَعَهُ أَمْ حَسِبْتَ أَنْ تَغْلِبَ عَلَيْهِ ؟ » . قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله ﷺ : « تَعْلَمُونَ وَلَا يَعْلَمُونَ » فقال الرجل بعدما أسلم : لقيت رجلاً خصمني (٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ هذا إرشاد من الله الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس ، والرحمة معناها أن يسدده ويوقفه في الأقوال والأفعال .

(١) ذكره البخاري في تفسيره ٤٦/٥ .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٥/١١) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧٤/١٨ ، والهندي في كنز العمال ٥٠٨٤ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ الْأَزْنِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ .

يقول تعالى هذه ﴿ سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ، ولا ينفي مع ما عداها . ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قال مجاهد : أي بينا الحلال والحرام ، والأمر والنهي والحدود . وقال البخاري : ومن قرأ - فرضناها - يقول : فرضناها عليكم وعلى من بعدكم ^(١) ﴿ وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ ﴾ أي : مفسرات واضحات ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ الْأَزْنِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ . يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزاني لا يخلو أن يكون بكراً ، وهو الذي لم يتزوج ، أو محصناً وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح ، وهو حرٌ بالغ عاقل ، فأما إذا كان بكراً لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية . ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده . عند جمهور العلماء خلافاً لأبي حنيفة رحمته الله ، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب . وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين من رواية الزهري في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيقاً - يعني أجيئاً - على هذا فزني بامرأته ، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبروني أن على ابني جلد مائة جلدة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى : الْوَلِيدَةُ وَالْعَتَمُ رُدٌّ عَلَيْكَ ، وَعَلَى اثْنِكَ مِائَةُ جَلْدَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ، وَاغْدُ يَا أَتَيْشُ » - لِرَجُلٍ مِّنْ أَسْلَمَ - « إِلَى امْرَأَةٍ هَذَا فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمُهَا » فغدا عليها فاعترفت فرجمها ^(٢) . وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج ، فأما إذا كان محصناً ، وهو قد وطئ في نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم .

كما قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أما بعد أيها الناس فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، فَكَانَ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ فَقَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، وَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فَأَحْشَى أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ لَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَيُضِلُّوهُ بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ قَدْ أَنْزَلَهَا اللَّهُ . فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف ^(٣) . وروي عن عمر بن الخطاب : « إِيَّاكُمْ أَنْ تَهْلِكُوا عَنْ آيَةِ الرَّجْمِ » ^(٤) وعن زيد بن ثابت : كنا نقرأ :

(١) صحيح البخاري في التفسير (تفسير سورة النور) .

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (٢٥) والإمام أحمد في مسنده (١٥٥/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في (الحدود) (١٥) وابن ماجه في (الحدود) (٩) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣ ، ٣٦/١) .

(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) قال مروان : ألا كتبها في المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفيما عمر بن الخطاب فقال : أنا أشفيكم من ذلك ، قال : قلنا : فكيف ؟ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ قال : فذكر كذا وكذا ، وذكر الرجم فقال : يا رسول الله اكتب لي آية الرجم قال : « لَا أَسْتَطِيعُ الْآنَ » هذا أو نحو ذلك ^(١) .

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير ^(٢) . ورجم رسول الله ﷺ ماعزًا والغامدية ^(٣) . وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلداهم قبل الرجم ، وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة والألفاظ بالاختصار على رجمهم . وليس فيها ذكر الجلد ، ولهذا كان مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية ، والرجم للسنن ، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما أتى بسراجة وكانت قد زنت ، وهي محصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة فقال : جلدها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ ^(٤) . وفي الحديث : « خُذُوا عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهْنُ سَيْلًا ، الْبَكْرُ بِالْبَكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ، وَالنَّيْبُ بِالنَّيْبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ » ^(٥) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أي : في حكم الله ، أي لا ترأفوا بهما في شرع الله وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد ، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك . قال مجاهد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل . عن عباد بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعَاوَا الْحُدُودَ فِيمَا يَتَنَكَّمُ ، فَمَا بَلَغْنِي مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجِبَ » ^(٦) وفي الحديث الآخر : « لِحَدِّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ حَيٌّ لِأَهْلِهَا مِنْ أَنْ يَمُتُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا » ^(٧) وقيل المراد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم ، وليس المراد الضرب المبرح . قال الشعبي : ﴿ وَلَا تَأْخُذْ بِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : رحمة في شدة الضرب .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي : فافعلوا ذلك ، وأقيموا الحدود على من زنى ، وشددوا عليه بالضرب ، ولكن ليس مبرحاً ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد جاء عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها . فقال : « وَلَكَ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ » . وقوله تعالى : ﴿ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردهما ، قال الحسن البصري : في قوله : ﴿ وَلَشَهِدَ »

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٧٩٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (٢٥) والإمام أحمد في مسنده (١١٥/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في (الحدود) (١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣) والإمام أحمد في مسنده (٨/١ ، ٢٣٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٩٣/١ ، ١١٦ .

(٥) أخرجه مسلم في (الحدود) (١٢) وأبو داود في السنن (٤٤١٥) والإمام أحمد في مسنده (٣١٧ ، ٣١٣/٥) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٧٦) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٦٢/٢) وابن ماجه في السنن (٨٤٨/٢) والنسائي في السنن (٧٥/٨) .

عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ : يعني : علانية وعن ابن عباس : الطائفة : الرجل فما فوقه . وقال مجاهد : الطائفة : الرجل الواحد إلى الألف . قال سعيد بن جبير ﴿ طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : يعني رجلين فصاعداً ، وقال الزهري : ثلاثة نفر فصاعداً ، وقال مالك : الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفي شهادة في الزنى إلا أربعة شهداء فصاعداً . وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصري : عشرة . وقال قتادة : أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أي : نفر من المسلمين ؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا . وقال نصر بن علقمة : في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : ليس ذلك للفضيحة إنما ذلك ليدعوا الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

﴿ الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، أي لا يطاوعه على مراده من الزنى إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك ﴿ وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ ﴾ أي عاص بزناه ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ لا يعتقد تحريمه . قال ابن عباس ؓ في قوله : ﴿ الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ : ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع ، لا يزني بها إلا زان أو مشرك . وقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفاف بالرجال الفجار . وقال ابن عباس : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : حرم الله الزنى على المؤمنين . وقال قتادة : حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا ذلك . فقال : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسْكِنَاتٍ وَلَا مُنْجَنَاتٍ أَخْدَانُ ﴾ . وعن عبد الله بن عمر ؓ : أن رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها : أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه ، قال : فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها قال : فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ « ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ الْمُتَشَبِّهَةُ بِالرِّجَالِ ، وَالِدَيُّوثُ . وَثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ ، وَمُذْمِنُ الْخَمْرِ ، وَالْمُتَّانُ بِمَا أُعْطِيَ » ^(٢) . وعن شعبة مولى ابن عباس ؓ قال : سمعت ابن عباس سأل رجل فقال : إني كنت ألم بامرأة آتت منها ما حرم الله ﷻ علي ففرق الله ﷻ من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها فقال أناس : إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة . فقال ابن عباس : ليس هذا في هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلي .

وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة . قال ابن أبي حاتم : عن سعيد بن المسيب قال : ذكر عنده ﴿ الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ قال : كان يقال نسختها التي بعدها ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنْكُمْ ﴾ قال : كان يقال الأيما من المسلمين . ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَابْتُلُوهُنَّ ثَلَاثِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤﴾ .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٩/٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٤/٢) .

هذه الآية الكريمة فيها بين حكم جلد القاذف للمحصنة هي : الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقدوف رجلاً ، فكذلك يجلد قاذفه أيضاً ، وليس فيه نزاع بين العلماء ، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِثْبَتِهِ شَهَدَةُ فَاجِدُوهُمْ ثَنَيْنِ جَدَّةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَدَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام :

أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة . الثاني : أنه ترد شهادته أبداً . الثالث : أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس ، ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا ﴾ الآية . واختلف العلماء في هذا الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ، فترفع التوبة الفسق فقط ويبقى مردود الشهادة دائماً - وإن تاب - أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانفض سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا ؛ فذهب الإمام مالك وأحمد والشافعي : إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق ، وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ؛ فيرتفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبداً . وقال الضحاك : لا تقبل شهادته - وإن تاب - إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان ، فحينئذ تقبل شهادته ، والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَدَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْمَرٍ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ١١ وَالْخَافِئَةُ أَنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ١٢ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ١٣ وَلَئِنْ خَفِيَ عَنْكَ غَضَبُ اللَّهِ فَلْيَنْصِبْ لَهُ مِائَةَ أُسْرَةٍ أَفَرَأَيْتُ إِنْ كُنَّ نَجَسًا ١٤ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج ، وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر ﷺ ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعي عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربع شهداء إنه لمن الصادقين أي : فيما رماها به من الزنى ﴿ وَالْخَافِئَةُ أَنْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي ، وحرمت عليه أبداً ويعطيها مهرها ، ويتوجب عليها حد الزنى ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . أي فيما رماها به ﴿ وَالْخَافِئَةُ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ يعني : الحد ﴿ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ١٣ ﴾ وَلَئِنْ خَفِيَ عَنْكَ غَضَبُ اللَّهِ فَلْيَنْصِبْ لَهُ مِائَةَ أُسْرَةٍ أَفَرَأَيْتُ إِنْ كُنَّ نَجَسًا ١٤ . فخصها بالغضب كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ، ورميها بالزنى إلا وهو صادق معذور . وهي تعلم صدقه فيما رماها به ، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها والمغضوب عليه هو يعلم الحق ثم يحيد عنه . ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ، ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ أي : لحرمت ولشق عليكم كثير من أموركم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ ﴾ أي : على عباده ، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه . وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة .

قال ابن عباس : لما نزلت ﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْفَحْشَاءَ لَمْ يُفْعَلُوا بِاللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ ؟ » فقالوا : يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيـره . فقال سعد : والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق وأنها من الله ، ولكنني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيج به ولا أحرکه حتي آتي بأربعة شهداء ، فو الله إني لا آتي بهم حتي يقضي حاجته - قال : فما لبثوا إلا يسيراً - حتي جاء هلال بن أمية ، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه ، وسمع بأذنيه ، فلم يهيج به حتي أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً ، فرأيت بعيني ، وسمعت بأذني ، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه ، واجتمعت عليه الأنصار وقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويطلق شهادته في الناس ، فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً . وقال هلال : يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله يعلم إني لصادق . فو الله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله الوحي ، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربع وجهه ؛ يعني : فأمسكوا عنه حتي فرغ من الوحي فنزل ﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلاَ يَكُنْ لَهُمْ شَهِدَةٌ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْيِهِمْ أَتَبَعُ شَهَدَتِهِم بِاللَّهِ ﴾ الآية . فسري عن رسول الله ﷺ فقال : « أُبَشِّرُ يَا هَلَالُ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكَ فَرْجاً وَمَخْرَجاً » ، فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربي ﷻ . فقال رسول الله ﷺ : « أُرْسِلُوا إِلَيْهَا » فأرسلوا إليها ، فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا ، فقال هلال : والله يا رسول الله لقد صدقت عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : « لَاعْنُوا بَيْنَهُمَا » فقيل لهلال : اشهد ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كانت الخامسة قيل له : يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن الموجبة التي توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها . فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل للمرأة : اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، وقيل لها عند الخامسة : اتقي الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب ، فتلكأت ساعة وهتت بالاعتراف ثم قالت : والله لا أفصح قومي . فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد . وقضى أن لا يبت لها عليه ، ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها ، وقال : « إِنْ جَاءَتْ بِه أُصْبِيْهَبُ أُرِيْشَخْ خِمَشَ السَّاقِيْنَ فَهُوَ لِهَلَالٍ ، وَإِنْ جَاءَتْ بِه أَوْرَقُ جَعْدًا جَمَالِيًّا خَدْلَجَ السَّاقِيْنَ سَابِغَ الْاَلَيْتِيْنَ فَهُوَ الَّذِي رُمِيَتْ بِه » . فجاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين . فقال رسول الله ﷺ :

«لَوْلَا الْإِيمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ» قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميراً على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب (١) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآلَاكِ عَصَبَةً يَنْكُرُوا لَهُمْ خَيْرٌ لَّكَ لِكُلِّ آتَمِرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

هذه العشر الآيات نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية ، التي غار الله ﷻ لها ولنبية صلوات الله وسلامه عليه ، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ . فقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآلَاكِ عَصَبَةً يَنْكُرُوا﴾ أي : جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة ، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به . وجوزه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن ، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة .

ذكر الإمام أحمد : أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ودنونا من المدينة . أذن ليلة بالرحيل ، فقامت حين أذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه .

قالت : وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشن اللحم ، إنما يأكلن العلقه من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فبحث منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناني فمتم . وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلى فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رأيته ، وقد كان رأيته قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي . والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة ، غير استرجاعه حين أناخ راحته فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول . فقدمنا المدينة ، فاشتكت حين قدمناها شهراً والناس يغيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك . وهو يريني في وجهي أنني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : « كيف

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٨/١) ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة .

تيكم ؟ » فذلك الذي يريني ، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقيت ، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو مثيرنا ، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا . وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية . وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح - وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأما ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثانة بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بسمما قلت ، تسبين رجلاً شهد بدرًا ؟ فقالت : أي هتاه ألم تسمعي ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ قلت : فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم ثم قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت له : أتأذن لي أن آتي أبوي ، قالت : وأنا حيثنأ أريد أن أتقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي رسول الله ﷺ ، فجنبت أبوي فقلت لأمي : يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أي بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيعة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلت : سبحان الله وقد تحدث الناس بها ! . فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي . قالت : فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود ، فقال أسامة : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً . وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضييق الله عليك والنساء سواها كثير . وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريدة فقال : « أي بريدة هل رأيت من شيء يريك من عائشة ؟ » فقالت له بريدة : والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله .

فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول ، قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَغْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، قَوْلَهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي » .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه . وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عباد وهو سيد الخزرج ، وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحبيت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عباد : كذبت لعمر الله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافق ، فتأور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكنوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبوي يظنان أن البكاء فالق كبدي ، قالت : فبينما هما جالسان عندي ، وأنا أبكي إذا

استأذنت علي امرأة من الأنصار ، فأذنت لها فجلست تبكي معي . فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس . قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : « أَمَا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيْقَةً فَسَيَبْرُئُكَ اللَّهُ ، وَإِنْ كُنْتَ أَلْمَعَتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ وَتَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ » . قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبي : أجب عني رسول الله . فقال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . قالت : فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن - : والله لقد علمت ، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريقة والله يعلم أنني بريقة لا تصدقونني ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنني منه بريقة لتصدقني ، فو الله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصَبْرٌ جَيِّدٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشي قالت : وأنا والله أعلم حيثذا أنني بريقة ، وأن الله تعالى مبرئي براءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ، ولشأنني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها . قال : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه : قالت فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أَبَشِّرِي يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللَّهُ ﷻ فَقَدْ بَرَأَكَ » قالت : فقلت لي أُمي قومي إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ﷻ هو الذي أنزل براءتي وأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِنْفِكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ العشر الآيات كلها . فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر ﷺ - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقربته منه وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فقال أبو بكر : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه . وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري فقال : « يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ ؟ » فقالت : يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيراً . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ ، فعصمها الله تعالى بالورع . وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك .

قال ابن شهاب : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط ^(١) . وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : لما ذكر من شأني الذي ذكر ، وما علمت به ، قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً ، فتشهد فحمد الله وأثنى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٥/٦) .

عليه بما هو أهله . ثم قال : « أَمَا بَعْدُ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أَنْتَاسِ أَبْنَوَا أَهْلِي ، وَابَيْمُ اللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا وَمَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ شَوْءٍ ، وَأَبْنَوْهُمْ بِمَنْ ؟ ! وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ شَوْءٍ قَطُّ ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ ، وَلَا غَيْبٌ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِيَ » . فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : يا رسول الله ائذن لنا أن نضرب أعناقهم فقام رجل من الخزرج - وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل - فقال : كذبت أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد وما علمت . فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي ومعي أم مسطح فعثرت ، فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : أي أم تسبين ابنك ؟ فسكتت ، ثم عثرت الثانية فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : أي أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت : تعس مسطح فانتهرتها فقالت : والله ما أسبه إلا فيك . فقلت : في أي شأني ؟ قالت : فبقرت لي الحديث فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله ، فرجعت إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً ، ووعكت وقلت لرسول الله ﷺ : أرسلني إلى بيت أبي ، فأرسل معي الغلام ، فدخلت الدار ، فوجدت أم رومان في السفلى وأبا بكر فوق البيت يقرأ . فقالت أم رومان : ما جاء بك يا بنية فأخبرتها ، وذكرت لها الحديث . وإذا هو لم يبلغ منها مثل الذي بلغ مني ، فقالت يا بنية : خففي عليك الشأن ، فإنه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها ، وقيل فيها ، فقلت : وقد علم به أبي ؟ قالت : نعم قلت : ورسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ورسول الله ﷺ فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ فنزل ، فقال لأمي ما شأنها : قالت : بلغها الذي ذكر من شأنها ففاضت عيناه ﷺ فقال : أقسمت عليك يا بنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت ، ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتي فسأل عني خادمتي فقالت : يا رسول الله لا والله ما علمت عليها عيباً إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينيها . وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدقني رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به فقالت : سبحان الله والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر ، وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له ، فقال : سبحان الله ، والله ما كشفت كنف أثني قط .

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فقتل شهيداً في سبيل الله قالت : وأصبح أبوي عندي فلم يزالا حتى دخل علي رسول الله ﷺ وقد صلى العصر ، ثم دخل . وقد اكتنفتني أبوي عن يميني وعن شمالي ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد يا عائشة إن كنت قارفت سوءاً أو ظلمت فتوبني إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده » . قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار فهي جالسة بالبواب فقلت : ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً فوعظ رسول الله ﷺ ، فالتفت إلى أبي فقلت له : أجب رسول الله ﷺ قال : فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمي فقلت : أجيبي رسول الله ﷺ قالت : ماذا أقول ؟ فلما لم يجيبها تشهدت ، فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت : أما بعد فوالله إن قلت لكم إنني لم أفعل والله ﷻ يشهد إنني لصادقة ما ذاك بنافعي عندكم لقد تكلمتم به ، وأشربت قلوبكم ، وإن قلت لكم إنني قد فعلت والله يعلم أنني لم أفعل لتقولن قد باءت على نفسها . وإنني والله ما أجد لي ولكم

مثلاً - والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ . وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته ، فسكننا فرفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه ويقول : « أبشيري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك » . قالت : وكنت أشد ما كنت غضباً فقال لي أبوي : قومي إليه فقلت : لا والله لا أقوم إليه ، ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه .

وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدنيها فلم تقل إلا خيراً ، وأما أختها حمزة بنت جحش فهلكت فيمن هلك . وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت والمنافق عبد الله بن أبي ابن سلول ، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمزة ، قالت : فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَالُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ ﴾ يعني : أبا بكر ﴿ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ ﴾ يعني : مسطحاً إلى قوله : ﴿ أَلَا تَحِثُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فقال أبو بكر : بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا . وعاد له بما كان يصنع ^(١) . فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أي : الكذب والبهت والافتراء ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ أي : جماعة منكم ﴿ لَا تَحْصَوْهُ شَرًّا لَكُمْ ﴾ أي يا آل أبي بكر . ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا ، ورفعة منازل في الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم : ﴿ لَا يَأْنِيهِ أَنْ يَبْلُغَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ الآية . ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنهما ، وهي في سياق الموت قال لها أبشيري : فإنك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكراً غيرك ، ونزلت براءتك من السماء ^(٢) .

وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب : أنا التي نزل تزويجي من السماء . وقالت عائشة : أنا التي نزل عذري في كتاب الله حين حملني صفوان بن المعطل على الراحلة . فقالت لها زينب : يا عائشة ما قلت حين ركبتها ؟ قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل . قالت : قلت كلمة المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ أي : لكل من تكلم في هذه القضية ، ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب . ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ قيل : ابتداء به ، وقيل الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه . ﴿ ثُمَّ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي على ذلك . ثم الأكثرون على أن المراد بذلك : إنما هو عبد الله بن أبي ابن سلول قبحه الله تعالى ولعنه ، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث . وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ، ومآثر وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ بشعره ، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ : « هَاجِهِمْ وَجَبْرِيلُ مَعَكَ » ^(٣) . وقال مسروق : كنت عند عائشة رضي الله عنها ، فدخل حسان بن ثابت ، فأمرت فألقي له وسادة ، فلما

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦١) ومسلم في التوبة (٥٦) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٥٠) .

(٣) أخرجه البخاري في (بدء الخلق) (٣٢١٣) ومسلم في (فضائل الصحابة) (١٥٣) وأحمد في مسنده (٢٨٦/٤ ، ٣٠١) .

خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا ؟ يعني يدخل عليك - وفي رواية قيل لها : أتأذنين لهذا يدخل عليك - وقد قال الله ﴿ وَالَّذِي نَفْسُكَ كَبَرْتُمْ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ؟ قالت : وأي عذاب أشد من العمى . وكان قد ذهب بصره لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم . ثم قالت : إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ - وفي رواية أنه أنشدنا عندما دخل عليها شعرا يمتدحها به فقال :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرَيْبَةٍ وَتُضْبِحُ غَزْنِي مِنْ لَحْمِ الْغَوَائِلِ
فَقَالَتْ : أَمَا أَنْتِ فَلَسْتَ كَذَلِكَ ^(١) .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَذُكِّرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ فَادَّانُوا لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، وما ذكر من شأن الإفك . فقال تعالى : ﴿ لَوْلَا ﴾ يعني : هلا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أي : ذلك الكلام الذي رमित به أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أي : قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى . وقد قيل : إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامراته . كما روي أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله ﷻ من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية أي كما قال أبو أيوب وصاحبتة ، وقوله تعالى : ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلخ أي : هلا ظنوا الخير ، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به . هذا ما يتعلق بالباطن . وقوله : ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي : بالسنتهم ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : كذب ظاهر على أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فإن الذي وقع لم يكن رية ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، ولو كان هذا الأمر فيه رية لم يكن هكذا جهرة ، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورا ، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو : الكذب البحت ، والرعونة الفاحشة الفاجرة ، والصفقة الخاسرة . قال الله تعالى : ﴿ لَوْلَا ﴾ أي هلا ﴿ جَاءُوا عَلَيْهِ ﴾ أي على ما قالوه ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به . ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَذُكِّرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ فَادَّانُوا لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : في حكم الله كاذبون فاجرون .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ يَأْفَاكُمُ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَخْسِئُونَ حُنًى وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل

توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة . ﴿ لَسْتَ فِي مَآ أَفْضَرُ مِنْ قَضِيَةِ الْإِفْكَ ﴾ ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة ، كمسطح وحسان وحمئة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين ، كعبد الله بن أبي ابن سلول ، وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ، ولا ما يعارضه . وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجع عليه . قال تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قال مجاهد : أي يرويه بعضكم عن بعض يقول : هذا سمعته من فلان وقال فلان كذا ، وذكر بعضهم كذا ، وقرأ آخرون ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ فغن عائشة أنها كانت تقرأها كذلك ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي : تقولون ما لا تعلمون ، ثم قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أي : تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين ، وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً ، ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً ، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله ﷻ يغار لهذا ، وهو ﷻ لا يقدر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ وفي الحديث : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ شُحْطِ اللَّهِ لَا يَذَرِي مَا تَبْلُغُ ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبَعَدَ مِمَّا يَبِينُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ » . وفي رواية « لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا » ^(٢) .

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ يعظكم الله أن تعودوا لئلا يبدأ إن كنتم مؤمنين ﴿ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . هذا تأديب آخر بعد الأول الأمر بظن الخير أي : إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة ، فأولى أن ينبغي الظن بهم خيراً ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالاً ، فلا ينبغي أن يتكلم به فإن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَجَاوَزَ لِأَمْتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ » ^(٣) ، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ أي : ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ، ولا نذكره لأحد . ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله ، وحليلة خليله . ثم قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ أي : ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً أي فيما يستقبل ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر . ثم قال تعالى : ﴿ وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شرعه وقدره .

(١) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٧٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٧) والإمام أحمد في مسنده (٤٦٩٣) .

(٣) أخرجه البخاري في (الأيمان والنذور) (٦٦٦٤) ومسلم في (الأيمان) (٢٠١ ، ٢٠٢) وأحمد في مسنده (٢٩٣٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ فقام بذهنه شيء منه ، وتكلم به فلا يكسر منه ، ولا يشيعه ويذيعه . فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح . ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أي : بالحد وفي الآخرة بالعذاب . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : فردوا الأمور إليه ترشدوا . فعن ثوبان عن النبي ﷺ قال : « لَا تُؤْذُوا عِبَادَ اللَّهِ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ ، وَلَا تَطْلُبُوا عِزَّائِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عِزَّ عِزَّةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللَّهُ عِزَّتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ »^(١) .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أي : هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم ، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية ، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليه ، ثم قال تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ يعني : طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ . هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة ، وأبلغها وأوجزها وأحسنها . قال ابن عباس : ﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ عمله ، وقال عكرمة : نزغاته . وقال قتادة : كل معصية فهي من خطوات الشيطان . وقال أبو مجلز : النذور في المعاصي من خطوات الشيطان . وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إني حرمت أن أكل طعاماً وسماء ، فقال : هذا من نزغات الشيطان ، كفر عن يمينك وكل ، وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشاً . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أي : ولولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها ، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً . ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال . ﴿ وَلَا يَأْتِيَنَّ أُولُوا الْأَفْضَالِ مِنْكُمْ وَالتَّائِبِينَ أَنْ يَقُولُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِيَنَّ ﴾ من الآية وهي الحلف أي لا يحلف ﴿ أُولُوا الْأَفْضَالِ مِنْكُمْ ﴾ أي : الطول والصدقة والإحسان ﴿ وَالتَّائِبِينَ ﴾ أي : الجدة ﴿ أَنْ يَقُولُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : لا تحلفوا أن لا تصلوا قريباتكم . المساكين والمهاجرين . وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام . قال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ أي : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى ؟ وهذا من حلمه - تعالى - وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم . وهذه الآية نزلت في الصديق ﷺ حين

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٩/٥) والهيثم في مجمع الزوائد (٨٧/٨) .

حلف أن لا ينفع مسطح بن أثانة بنافعة أبداً ، بعد ما قال في عائشة ما قال ، كما تقدم في الحديث ، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه ، شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والمنة - يعطف الصديق على قريه ونسيه ، وهو مسطح بن أثانة ، فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكيناً لا مال له ، إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه ، وكان من المهاجرين في سبيل الله ، وقد زلّ زلقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف ، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب . فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ الآية . فإن الجزء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ، وكما تصفح يصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : والله لا أنزعها منه أبداً في مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبداً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ لَأُوْمِنَتِ لِمَثْوًى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٢٣ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٤ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ٢٥ .

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات . خرج مخرج الغالب المؤمنات ، فأمهات المؤمنات أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولا سيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنه . وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفي بقية أمهات المؤمنات قولان : أصحهما أنهن كهي ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ لِمَثْوًى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ الآية : كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية . وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي الله عنها . فقال ابن عباس في الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ لَأُوْمِنَتِ ﴾ قال : نزلت في عائشة خاصة . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : رميت بما رميت به ، وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس عندي إذ أوحى إلي ، قالت : وكان إذا أوحى إلي أخذه كهية السبات ، وإنه أوحى إلي وهو جالس عندي ، ثم استوى جالساً يمسح على وجهه وقال : « يَا عَائِشَةُ أَبْشِرِي » قالت : فقلت : بحمد الله لا بحمدك فقراً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ لَأُوْمِنَتِ ﴾ حتى بلغ ﴿ أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ ^(١) . ليس فيه أن الحكم خاص بها ، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها ، وإن كان الحكم يعمها كغيرها . ولعله مراد ابن عباس ، ومن قال كقوله والله أعلم .

وقال الضحاك : المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء . وقال ابن عباس في الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ لَأُوْمِنَتِ ﴾ الآية ، يعني أزواج النبي صلى الله عليه وسلم رماهن أهل النفاق ، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب ، وباؤوا بسخط من الله . فكان ذلك في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم نزل بعد ذلك ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدِلَّةٍ يُرْسِلْهُنَّ إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة ، فالتوبة تقبل والشهادة ترد . وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم

(١) أورده ابن جرير في تفسيره (١٣٨/١٨) .

ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « الشُّرُوكُ بِاللَّهِ ، وَالسُّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرُّخْفِ ، وَقَذْفُ الْحَصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . قال ابن عباس : إنهم - يعني : المشركين - إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة . قالوا : تعالوا حتى نجحد فيجحدون ، فيختم على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتُمون الله حديثاً . وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرِفَ الْكَافِرُ بِعَمَلِهِ فَيُجْحَدُ وَيُخَاصِمُ ، فَيَقَالُ لَهُ : هَؤُلَاءِ جِيرَانُكَ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ . فَيَقُولُ : كَذَبُوا . فَيَقَالُ : أَهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ . فَيَقُولُ : كَذَبُوا ، فَيَقَالُ : اخْلِفُوا فَيُخْلِفُونَ ، ثُمَّ يُصْبِئُهُمُ اللَّهُ فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ ، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ » (٢) . وقال قتادة : ابن آدم والله إن عليك لشهوداً غير متهمة من بدنك ، فراقبهم واتق الله في سرّك وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن ، فليفعل ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ دِينَهُمْ ﴾ أي : حسابهم . وكل ما في القرآن دينهم أي : حسابهم ، ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم ، وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة ، وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب : يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ، وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ أي : وعده ووعدته وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه .

﴿ أَلَمْ يَنْتِ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول - قال : ونزلت في عائشة وأهل الإفك . واختاره ابن جرير ، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبته أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به . وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء ، وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم . أي : ما كان الله لي يجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة ؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً . ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي : هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان . ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أي : بسبب ما قيل فيهم من الكذب . ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي : عند الله في جنات

(١) أخرجه البخاري في (الوصايا) (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) وأبو داود في السنن (٢٨٧٤) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٣٥/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٥١/١٠) والهندي في الكنز (٣٨٩٧٩) .

النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة . وروي أنه جاء أسير بن جابر إلى عبد الله فقال : لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبني . فقال عبد الله : إن الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما يستقر حتى يلفظها ، فيسمعها الرجل عنده يتلها فيضمها إليه ، وإن الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضمها إليه ، ثم قرأ عبد الله ﴿ الْحَيِّثُ لِلْحَيِّثِ وَالْحَيِّثُ لِلْحَيِّثِ وَالْحَيِّثُ لِلْحَيِّثِ وَالْحَيِّثُ لِلْحَيِّثِ ﴾ الآية . ويشبه هذا ما روي مرفوعاً : « مثل هذا الذي يسمع الحكمة ، لا يحدث إلا بشراً ما سمع كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال : اجزر لي شاة . فقال : اذهب فخذ بأذن أيها شئت ، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم »^(١) .

﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٢) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آجِعُوا فَأَجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾^(٣) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ .

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك في استئذان أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده . وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات ، فإن أذن له وإلا انصرف . كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً ، فلم يؤذن له انصرف . ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي ، وإني سمعت النبي ﷺ يقول : « إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنَ لَهُ فَلْيَنْصَرِفْ » . فقال عمر : لتأتيني على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضرباً ، فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري ، فأخبر عمر بذلك ، فقال : ألهاني عنه الصفتى بالأسواق^(٤)

وعن أنس أو غيره أن النبي ﷺ استأذن على سعد بن عباد فقال : « السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ » فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً ورد عليه سعد ثلاثاً ولم يسمعه . فرجع النبي ﷺ فأتبعه سعد . فقال : يا رسول الله بأي أنت وأمي ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني ، ولقد رددت عليك ولم أسمعك ، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيبا فأكل نبي الله ﷺ فلما فرغ قال : « أَكَلْ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارُ ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ ، وَأَفْطَرْتُ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ »^(٥) . وقد روي عن قيس بن سعد - هو ابن عباد - قال : زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ » فرد سعد ردّاً خفياً . قال قيس : فقلت : ألا تأذن لرسول الله ﷺ ؟ فقال : دعه يكثر علينا من السلام ، فقال رسول الله ﷺ : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ » فرد سعد ردّاً خفياً ، ثم قال رسول الله ﷺ : « السلام عليك ورحمة الله » ثم رجع رسول الله ﷺ وأتبعه سعد . فقال : يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٣/٢) وابن ماجه في السنن (١٣٩٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٤٥) ومسلم في الأدب (٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧) وأحمد في مسنده (٤٠٣/٤) وأبو داود في السنن (٥١٨٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٣) .

عليكم ردًا خفيًا لتكثر علينا من السلام . قال : فانصرف معه رسول الله ﷺ وأمر له سعد بغسل فاغتسل ، ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَاتَكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ » قال : ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام ، فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حمازًا قد وطئ عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ فقال سعد : يا قيس اصحب رسول الله ﷺ ، قال قيس : فقال رسول الله ﷺ : « اُزَكِّبْ » . فأبيت . فقال : « إِمَّا أَنْ تُزَكِّبَ وَإِمَّا أَنْ تُنْصَرِفَ » قال : فانصرفت (١) .

ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف لتقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره . فعن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول : « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ » وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور (٢) . وعن هذيل قال : جاء رجل - قال عثمان : سعد - فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب - قال عثمان مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ : « هَكَذَا عَنْكَ - أو هكذا - فَإِنَّمَا الاسْتِئْذَانُ مِنَ النَّظَرِ » (٣) . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَوْ أَنَّ امْرَأً أَطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، فَحَذَفْتَهُ بِخَصَاةٍ فَفَقَاتَ عَيْنَهُ مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ » (٤) . وعن جابر قال : أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي فدقت الباب فقال : « من هذا » فقلت أنا . قال : « أنا أنا » كأنه كرهه (٥) . وإنما كره ذلك ؛ لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها ، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأننا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس بالمأمور به في الآية . وقال ابن عباس : الاستئناس الاستئذان ، وعن كلدة بن الحنبل أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبنا وجداية وضغائيس ، والنبي ﷺ بأعلى الوادي قال : فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن . فقال ﷺ : « اُزَجِّعْ قُلَّ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخُلْ » . وذلك بعدما أسلم صفوان (٦) . وعن أم إياس قالت : كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة : فقلن : ندخل ؟ فقالت : لا ، قلن لصاحبتكن تستأذن فقالت : السلام عليكم أندخل ؟ قالت : ادخلوا . ثم قالت : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ الآية . وعن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها لا والد ولا ولد ، ولأنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال . قال : فنزلت ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا ﴾ الآية .

وقال ابن جرير : عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخي زينب امرأة عبد الله بن مسعود ، عن زينب رضي الله عنها قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح ويزق كراهة أن يهجم منا

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥٢/٢ ، ١٣٨/٣ ، ٤٢١) وأبو داود في السنن (٥١٨٥) والطبراني في الكبير (٣٥٠/١٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥١٨٦) .

(٣) أخرجه أبو داود (٣٤٤/٤) وذكره ابن حجر في الفتح (٢٤٤/١٢) والسيوطي في الدر المنثور (٢٩/٥ ، ٣٩) .

(٤) أخرجه البخاري في (الدييات) (٦٩٠٢) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٣/٣) وأبو داود في سننه (٣٤٨/٤) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤١٤/٣) وأبو داود في السنن (٥٧/٦) والترمذي في السنن (٢٧١٠) .

على أمر يكرهه . ﴿ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾ قال مجاهد : تتنحنحوا أو تنخموا .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله : إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه . ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً - وفي رواية - ليلاً يتخونهم ^(١) . وفي الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهاراً ، فأناخ بظاهاها وقال : « انْتَظِرُوا حَتَّى تَدْخُلَ عِشَاءٌ - يعني آخر النهار - حَتَّى تَمْتَشِطَ الشَّيْئَةُ ، وَتَسْتَحِدَّ الْمَغِيْبَةُ » ^(٢) . وقال قتادة في قوله : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾ هو : الاستئذان ثلاثاً ، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع ، أما الأولى : فليسمع الحي . وأما الثانية : فليأخذوا حذرهم . وأما الثالثة : فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا . ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم ، فإن للناس حاجات ، ولهم أشغال والله أولى بالعذر . وقال مقاتل بن حيان : في قوله : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ . كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول : حيث صباحاً وحييت مساءً ، وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه ، فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ونحو ذلك ، فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله في ستر وعفة ، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن . فقال تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ الآية . وهذا الذي قاله مقاتل حسن ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني : الاستئذان خير لكم بمعنى : هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن . ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّبِعُوا فَاتَّبِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أي : إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿ فَاتَّبِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أي : رجوعكم أزكى لكم وأطهر . ﴿ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها . أن أستاذن على بعض إخواني ، فيقول لي : ارجع فأرجع وأنا مغتبط ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّبِعُوا فَاتَّبِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ . وقال سعيد بن جبير في الآية : أي : لا تقفوا على أبواب الناس ، وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ﴾ الآية . هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها ، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها لغير إذن كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى . قال ابن عباس : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ ثم نسخ واستثنى فقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ﴾ وقال آخرون : هي بيوت التجار كالحانات ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة وغير ذلك ، والأول أظهر والله أعلم .

﴿ قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَبَعْضُهُمْ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يَمَّا يَصْنَعُونَ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في (النكاح) (١٢٠) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (١٠) ومسلم في الرضاع (٥٨) والإمارة (١٨١) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٨/٣ ، ٣٠٣) .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حُرِّم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعاً . كما روي عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري ^(١) . وفي رواية : « أَطْرِقْ بِصَرِّكَ » يعني انظر إلى الأرض ، والصرف أعم فإنه قد يكون إلى الأرض ، وإلى جهة أخرى ، والله أعلم .

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ » قالوا : يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَيْتَمْتُمْ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ » . قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ، وَرُذُ السَّلَامِ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ » ^(٢) . وعنه ﷺ : « اكْفُلُوا لِي بِسِتِّ أَكْفُلٍ لَكُمْ بِالْحِجَةِ ، إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبُ ، وَإِذَا أَوْثَقَ فَلَا يَخُشُّ ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يُخْلِفُ ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، وَاحْفَظُوا قُرُوبَكُمْ » ^(٣) وفي الحديث : « مَنْ يَكْفُلْ لِي مَا يَتَنَ لِحَبِيْبِهِ وَمَا يَتَنَ رَجُلِيْهِ أَكْفُلْ لَهُ الْجَنَّةُ ؟ » ^(٤) . وعن عبيدة قال : كل ما عصي الله به فهو كبيرة . وقد ذكر الطرفين . فقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب - كما قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب ؛ ولذلك أمر الله بحفظ الفروج ، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَحَافِظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنى . كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِيْنَ هُمْ يُفَرِّجُهُمْ حَافِظُوْنَ ﴾ الآية . وتارة يكون بحفظه من النظر إليه . كما جاء في الحديث : « احْفَظْ غَوْزَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِيْنُكَ » ^(٥) . ﴿ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ ﴾ أي : أظهر لقلوبهم ، وأتقى لدينهم كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصرته . ويروى في قلبه . عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى مَخَاسِنِ امْرَأَةٍ ، ثُمَّ يَغْضُ بَصَرَهُ إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ خَلَاوَتَهَا » ^(٦) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظْلُهُ مِنَ الزَّنى أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَرَنَى الْعَيْنَيْنِ النَّظْرُ ، وَرَنَى اللِّسَانَ الثُّطُقُ ، وَرَنَى الْأَذْنَينِ الْاسْتِمَاعُ ، وَرَنَى الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ ، وَرَنَى الرَّجْلَيْنِ الْخَطْيُ ، وَالنَّفْسُ تَمْنَى وَتَشْتَهِي ، وَالْفَرْجُ يَصْدُقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ » ^(٧) . وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد ، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك ، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان ، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً .

(١) أخرجه مسلم في (الآداب) (٩١) .

(٢) أخرجه البخاري في (المظالم) (٢٤٦٥) ومسلم في (السلام) (٣) .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٣/١) والمنبري في الترغيب والترهيب (٣/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٤) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/٥) وأبو داود في السنن (٤٠١٧) والترمذي في السنن (٢٧٩٤) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٦/٢) .

(٧) أخرجه البخاري في (الاستئذان والقدر) (٦٦١٢ ، ٦٢٤٣) والإمام أحمد في مسنده (٣١٧/٢) .

لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقربة من غير حسر . وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم ، وقال مالك عن الزهري : ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ : الخاتم والخلخال . ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيُضِرَّنَّ بِخُفَّرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعني : المقانع يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وترايبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك . بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها ، وذوائب شعرها وأقربة أذانها ، فأمر الله المؤمنات أن يسترن في هياتهن وأحوالهن . والخمر جمع خمار ، وهو ما يخمر به . أي يغطي به الرأس ، وهي التي تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلَيُضِرَّنَّ ﴾ وليشدن ﴿ بِخُفَّرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعني : على النحر والصدر فلا يرى منه شيء . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله ﴿ وَلَيُضِرَّنَّ بِخُفَّرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ شقن مروطهن فاخترن بها ^(١) ، وعنهما أيضا : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلَيُضِرَّنَّ بِخُفَّرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزهرن فشققنها من قبل الحواشي فاخترن بها . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَبْرِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِيُعْلَوْنَهُنَّ ﴾ أي : أزواجهن ﴿ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ أي : أزواجهن ﴿ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ . كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزینتها ، ولكن من غير تبرج . وقد روي عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية : ﴿ وَلَا يَبْرِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِيُعْلَوْنَهُنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ ﴾ حتى فرغ منها وقال : لم يذكر العم ولا الحال ؛ لأنهما ينعتان لأبائهما . ولا تضع خمارها عند العم والحال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره . وقوله : ﴿ أَوْ زِينَتُهُنَّ ﴾ يعني تظهر بزینتها أيضا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك وإن كان محذورا في جميع النساء إلا في نساء أهل الذمة أشد فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع . فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتزجر عنه . وقد قال رسول الله ﷺ : « لَا تُبَاشِرِ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ تَتَعَفَّيْهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا » ^(٢) . وعن الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة : أما بعد : فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ قال ابن جرير : يعني من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة لأنها أمتها . وقال الأثرون : بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء . واستدلوا بالحديث أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال - وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ إِنَّمَا هُوَ أَبُوكَ وَعَلَامُكَ » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ النَّبِيعَاتِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ يعني : كالأجراء والأنبياء الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٥٨) .

(٢) أخرجه البخاري في (النكاح) (٥٢٤٠ ، ٥٢٤١) والترمذي في السنن (٢٧٩٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤١٠٦) وذكر الهندي في كنز العمال (٢٥٢٣١) .

ذلك في عقولهم وله وخوث ، ولا همة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن . قال ابن عباس : هو المغفل الذي لا شهوة له . وقال مجاهد : هو الأبله ، وقال عكرمة : هو الخنث الذي لا يقوم ذكره . وفي الصحيح : أن مخنثا كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة . فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة يقول : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بشمان فقال رسول الله ﷺ : « أَلَا أَرَى هَذَا يَغْلُمُ مَا هَا هُنَا ؟ لَا يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ » . فأخرجه فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة ليستطعم ^(١) . وعن أم سلمة أنها قالت : دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث وعندها عبد الله بن أبي أمية يعني أخاها والخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غدا فعليك بابة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بشمان . قال فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : « لَا يَدْخُلُ هَذَا عَلَيْكَ » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ لِرَبِّهِ ظَهْرًا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ يعني : لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه بحيث يعرف ذلك ، ويدريه ويفرق بين الشواء والحساء ، فلا يمكن من الدخول على النساء .

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِيَّاكُمْ وَالْدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ » قيل : يا رسول الله أفرايت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الآية كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ، ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه . فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك . وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورا ، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ إلى آخره ، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ، فيشم الرجال طيبها . عن أبي موسى ؓ عن النبي ﷺ أنه قال : « كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْجَلِيسِ فِيهِ كَذَا وَكَذَا » يعني زانية ^(٤) . وعن أبي هريرة ؓ قال : لقيته امرأة شم منها ريح الطيب ولذيلها إعصار . فقال : يا أمية الجبار جئت من المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : تطيبت ؟ قالت : نعم . قال : إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول : « لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ امْرَأَةٍ تَطِيبُ لِهَذَا الْمَسْجِدِ حَتَّى تَرْجِعَ فَتَغْسِلَ غَسْلَهَا مِنَ الْجَنَابَةِ » ^(٥) . وعن ميمونة بنت سعد أن رسول الله ﷺ قال : « الرَّافِلَةُ فِي الزَّيْتَةِ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا كَيْثَلٌ ظُلْمَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا نُورَ لَهَا » ^(٦) ، ومن ذلك أيضا أنهم ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج . وقوله تعالى : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي : افعلا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة ، والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما

(١) أخرجه مسلم في (السلام) (٣٣) والبيهقي في السنن (٩٦/٧) .

(٢) أخرجه مسلم في (السلام) (٣٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٠/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في (السلام) (٢٠) والترمذي في السنن (١١٧١) والإمام أحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٧٨٦) والإمام أحمد في المسند (٣٩٤/٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٨) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٦/٢) وأبو داود في السنن (٤١٧٤) .

(٦) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٤) .

أَيَسِّنَّكُمْ فَمَا يُؤْتِيهِمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴿١﴾ هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة ، وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر لإرشاد واستحباب لا أمر تحتّم ، وإيجاب بل السيد مخير . إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكتبه . وذهب آخرون : إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذًا بظاهر هذا الأمر . وقال البخاري ، وقال روح عن ابن جريج : قلت لعطاء : أوجب علي إذا علمت له مالاً أن أكتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجباً . وقال عمرو بن دينار . قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنسا المكاتبه ، وكان كثير المال فأبى فانطلق إلى عمر رضي الله عنه فقال : كاتبه فأبى فضربه بالدرة ، ويتلو عمر رضي الله عنه ﴿ فَمَا يُؤْتِيهِمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ فكاتبه ^(١) . وقوله تعالى ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ . قال بعضهم : أمانه ، وقال بعضهم : صدقاً ، وقال بعضهم : مالاً ، وقال بعضهم : حيلة وكسباً . وروي عنه عليه السلام قال : « إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ حِرْفَةً وَلَا تُؤْسِلُوهُمْ كَلَّا عَلَى النَّاسِ » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْتَوْهُمْ مِمَّا مَلَكَ اللَّهُ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ ﴾ . اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم : معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها . ثم قال بعضهم : مقدار الربع ، وقيل : الثلث ، وقيل النصف ، وقيل : جزء من الكتابة من غير حد . وقال آخرون : هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة . وقال إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ وَأَوْتَوْهُمْ مِمَّا مَلَكَ اللَّهُ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ ﴾ قال : حث الناس عليه مولاه وغيره ، وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب . وقد تقدم في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ » ^(٣) . فذكر منهم المكاتب يريد الأداء . والقول الأول أشهر .

وقال سعيد بن جبير : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتباً لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته ، ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب . وقال ابن عباس في الآية : ﴿ وَأَوْتَوْهُمْ مِمَّا مَلَكَ اللَّهُ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ ﴾ . قال : ضعوا عنهم من مكاتبته . وقال محمد بن سيرين في الآية : كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ ﴾ الآية كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت : فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك . وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول ، فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن ، ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم .

ذكر الآثار الواردة في ذلك

روي عن الزهري قال : كانت جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها : معاذة يكرهها على الزنى فلما جاء الإسلام نزلت : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ ﴾ الآية ^(٤) . وقال السدي : أنزلت هذه

(١) أخرجه البخاري في (المكاتب) باب (١) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤٥/٥) .

(٣) أخرجه : أحمد في مسنده (٢٥/٢) والترمذي في السنن (١٦٦٥) والحاكم في المستدرک (٢١٧/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في التفسير (٢٦ ، ٢٧) والحاكم في المستدرک ٣٩٧/٢ .

الأية الكريمة في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليوافقها إرادة الثواب منه والكرامة له . فأقبلت الجارية إلى أبي بكر ﷺ ، فشكت إليه ذلك فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أبي : من يعذرنا من محمد ؟ يقلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَرْدَنَ حَصْحَا ﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له .

وقوله تعالى : ﴿ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ أي : من خراجهن ومهورهن وأولادهن . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن ^(١) . وفي رواية : « مهرُ البغي خبيث ، وكسبُ الحجام خبيث ، وثمنُ الكلب خبيث » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَمِهِنَّ عُفُوٌّ رَجِيمٌ ﴾ . أي : لمن . وقال ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم ، ولائمهن على من أكرههن . وقال الحسن في هذه الآية ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَمِهِنَّ عُفُوٌّ رَجِيمٌ ﴾ قال لمن : والله لهن والله . وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رُفِعَ عَنِ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتَكْرِهُوا عَلَيْهِ » ^(٣) .

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ يعني : القرآن فيه آيات واضحة مفسرات . ﴿ وَمَثَلُ الْيَزِيدِ خَلُوفٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي : خبراً عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخَرِينَ ﴾ أي : زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم . ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلَّتَّائِبِينَ ﴾ أي لمن اتقى الله وخافه . قال علي بن أبي طالب ﷺ في صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله . ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي زُنُجَابٍ أَلْبَانٍ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُونُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ نِشَاءُ وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول : هادي أهل السموات والأرض . قال مجاهد : يدبر الأمر فيهما نجموهما وشمسهما وقمرهما . وقال أنس بن مالك : إن الله يقول : نوري هدى . وعن أبي بن كعب في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ﴾ . قال : هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره ، فضرب الله مثله فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به ، فكان أبي بن كعب يقرؤها ﴿ مثل نور من آمن به ﴾ فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره . وقال السدي في قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فبنوره أضاءت السموات والأرض . وفي الصحيحين : كان رسول الله ﷺ إذا قام من

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩٩/٢) ، (٣٤١/٤) وابن ماجه في السنن (٢١٦٥) .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (٤١ ، ٤٢) أحمد في مسنده (٤٦٤/٣) وأبو داود في السنن (٣٩) والترمذي في السنن (١٢٧٥) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٦٥٩/١) .

الليل يقول : «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ » ^(١) الحديث . وعن ابن مسعود قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه . وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ في هذا الضمير قولان : أحدهما : أنه عائد إلى الله ﷻ أي : مثل هداه في القلب المؤمن ، قاله ابن عباس ﴿ كَيْشْكُورُ ﴾ والثاني : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام تقديره : مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَتَنْ كَانَ عَلَى بَنِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَتَلَوْتُ شَاهِدًا مِنْهُ ﴾ فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل ، الذي لا كدر فيه ولا انحراف . فقوله : ﴿ كَيْشْكُورُ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل ، هذا هو المشهور . ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا يَضَبَّاحُ ﴾ وهو الزبالة التي تضيء . وقال العوفي عن ابن عباس : قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَيْشْكُورُ فِيهَا يَضَبَّاحُ ﴾ وذلك : أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ : كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَيْشْكُورُ ﴾ والمشكاة كوة في البيت ، قال : وهو مثل ضربه الله لطاعته ، فسمى الله طاعته نورًا ، ثم سماها أنواعًا شتى . وقال مجاهد : هي الكوة بلغة الحبشة . وزاد بعضهم فقال : المشكاة الكوة التي لا منفذ لها . وعن مجاهد : المشكاة الحوادث التي يعلق بها القنديل . والقول الأول أولى ، وهو : أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل . ولهذا قال : ﴿ فِيهَا يَضَبَّاحُ ﴾ وهو النور الذي في الزبالة . قال أبي بن كعب : المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره . وقال السدي : هو السراج . ﴿ أَلْيَضَبَّاحُ فِي ضَبَّاحَةٍ ﴾ أي : هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية . وقال أبي بن كعب وغير واحد : وهي نظير قلب المؤمن . ﴿ أَلْرَجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة من الدر أي : كأنها كوكب من در . وقرأ آخرون دريء ودريء بكسر الدال وضمها مع الهمزة من الدرء وهو الدفع ^(٢) . وذلك أن النجم إذا رمي به يكون أشد استتارة من سائر الأحوال ، والعرب تسمي ما لا يعرف من الكواكب دراري . قال أبي ابن كعب : كوكب مضيء . وقال قتادة : مضيء مبين ضخم . ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ ﴾ أي : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة . ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل أو عطف بيان . ﴿ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ﴾ أي : ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ولا في غربها ، فيخلص عنها الفياء قبل الغروب ، بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجيء زيتها صافيًا معتدلًا مشرقًا . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ﴾ قال : هي شجرة بالصحراء لا يظللها شجر ، ولا جبل ولا كهف ، ولا يوارئها شيء وهو أجود لزيتها . وقال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ﴾ : هي بصحراء ، وذلك أصفى لزيتها . وقال ابن أبي حاتم : عن عكرمة - وسأله رجل عن قوله تعالى : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ﴾ - قال :

(١) أخرجه البخاري في (التوحيد) (٧٤٩٩) ومسلم في (صلاة المسافرين) (١٩٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٥٨/١) .

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص (دُرِّيٌّ) وقرأ حمزة وأبو بكر (دُرِّيَّة) وقرأ أبو عمرو والكسائي (يُورِيَّة) .

تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها ، فإذا غربت غربت عليها ، فذلك أصفى ما يكون من الزيت .

وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ﴾ أنها في وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب . وقال أبي بن كعب : هي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت لا إذا طلعت ، ولا إذا غربت قال : فكذلك هذا المؤمن قد أجبر من أن يصيبه شيء من الفتن ، وقد يتلى بها فيثبته الله فيها فهو بين أربع خلل : إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلي صبر ، وإن أعطي شكر ، فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات . قال سعيد بن جبير في قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ﴾ : هي وسط الشجر لا تصيبها الشمس شرقاً ولا غرباً ، وقال عطية العوفي : هي شجرة في موضع من الشجر يرى ظل ثمرها في ورقها ، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب . وقال ابن أبي حاتم : عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ﴾ : ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ، ولكنها شرقية غربية ، وأولى هذه الأقوال القول الأول : وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس تفرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتهما والطف ، قال تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : يعني : لضوء إشراق الزيت .

وقوله تعالى : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ قال ابن عباس : يعني بذلك إيمان العبد وعمله . وقال مجاهد والسدي : يعني نور النار ، ونور الزيت ، وقال أبي بن كعب : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور ؛ فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة . وقال السدي : نور النار ، ونور الزيت حين اجتماعاً أضاءاً ولا يضيء واحد بغير صاحبه . كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعاً ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه . وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أي : يرشد الله إلى هدايته من يختاره ، كما جاء في الحديث : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يُؤَمِّدُ فَمَن أَصَابَ مِنْ نُورِهِ يَوْمُئِذٍ اهْتَدَى ، وَمَنْ أخطأ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ ﷻ » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِ ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هده في قلب المؤمن ختم الآية بقوله : ﴿ وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكِلُ شَيْءٌ عَلَيْهِ ﴾ أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال . عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ : قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السَّرَاجِ يُزْهِرُ ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ ، وَقَلْبٌ مُنْكَوَسٌ ، وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ . فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُنْكَوَسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ ، وَمِثْلُ النَّفَاقِ فِيهِ كَمِثْلُ الْقَرْحَةِ يَمُدُّهَا الدَّمُ وَالْقَيْحُ ، فَأَيُّ الْمُدَّتَيْنِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٦/٢ ، ١٩٧) والهيثم في مجمع الزوائد (١٩٣/٧) وذكره الهندي في الكنز (٥٨٢) ،

غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ ^(١) .

﴿ فِي يُؤْتِي أذنَ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْفُؤَادِ وَالْأَصْوَالِ ﴾ ٣٦ ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَالِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ٣٧ ﴿ لِيَجْزِيَهمَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل مثلاً ، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوتها التي يعبد فيها ويوحد . فقال تعالى : ﴿ فِي يُؤْتِي أذنَ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ أي : أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو ، والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها . كما قال ابن عباس في : ﴿ فِي يُؤْتِي أذنَ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ نهى الله سبحانه عن اللغو فيها . وقال قتادة : هي هذه المساجد أمر الله ﷺ بيناتها وعمارتها ، ورفعها وتطهيرها . وفي الحديث : « مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَتَّبِعِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ » ^(٢) . والأحاديث في هذا كثيرة جداً . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ الْمَسَاجِدِ » قال ابن عباس : أزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى . وعن بريدة أن رجلاً أنشد في المسجد فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النبي ﷺ : « لَا وَجَدْتُ إِلَّا مَا نَبَيْتَ الْمَسَاجِدَ لِمَا نَبَيْتَ لَهُ » ^(٣) .

ومن حديث ابن عمر مرفوعاً قال : خصال لا تنبغي في المسجد : لا يتخذ طريقاً ، ولا يشهر فيه سلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا يثر فيه نبل ، ولا يمر فيه بلحم نبيء ، ولا يضرب فيه حد ، ولا يقتض فيه أحد ، ولا يتخذ سوقاً ^(٤) . وعن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ قال : « جَنَّبُوا الْمَسَاجِدَ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ ، وَشِرَاءَكُمْ وَتَبَعَكُمْ ، وَخُصُومَاتِكُمْ ، وَرَفَعَ أَصْوَاتِكُمْ ، وَإِقَامَةَ حَدُودِكُمْ ، وَسَلَّ شُيُوفَكُمْ ، وَاتَّخَذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ ، وَجَمَرُوهَا فِي الْجَمْعِ » ^(٥) . أما أنه لا يتخذ طريقاً فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه . وفي الأثر : إن الملائكة لتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه ، وأما أنه لا يشهر فيه السلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا يثر فيه نبل ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به لكثرة المصلين فيه . ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذي أحداً . وأما النهي عن المرور باللحم النبيء فيه ، فلما يخشى من تقاطر الدم منه . كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلوث ، وأما أنه لا يضرب فيه حد ، ولا يقتض منه فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع ، وأما أنه لا يتخذ سوقاً ، فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه . فإنه إنما بني لذكر الله والصلاة فيه كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد : « إِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧/٣) والهيتمي في المجمع الزوائد (٦٣/١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٧/١) .

(٢) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٤٥٠) ومسلم في (الزهد) (٤٣، ٤٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٩٣/١) .

(٣) أخرجه مسلم في (المساجد) (٨٠، ٨١) وابن خزيمة في صحيحه (١٣٠١) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٤٧/١) وفي إسناده ضعف .

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (٧٥٠) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٥/٢، ٢٦) وفي إسناده ضعف .

لِهَذَا ، إِنَّمَا يُنِيتُ لِذِكْرِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ فِيهَا » ^(١) . ثم أُمِر بسجل من ماء فأهريق على بوله ، وفي الحديث الثاني : « جَنَّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ » ^(٢) وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم . « وَمَجَانِينَكُمْ » يعني : لأجل ضعف عقولهم ، وسخر الناس بهم فيؤدي إلى اللعب فيها ، ولما يخشى من تقديرهم المسجد ونحو ذلك . « وَيَتَعَكَّمُونَ وَشِرَاءَكُمْ » كما تقدم « وخصوصاتكم » يعني التحاكم والحكم فيه ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا يتصب لفصل الأقضية في المسجد ؛ بل يكون في موضع غيره ؛ لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر ، والألفاظ التي لا تناسبه ، ولهذا قال بعده : « ورفع أصواتكم » .

وعن السائب بن يزيد الكندي قال : كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل فنظرت ، فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فائتني بهذين فجئته بهما فقال : من أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قال : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ؛ ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ ^(٣) . وقوله : « وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ وَسَلَّ شُيُوفَكُمْ » قدما . وقوله : « وَاتَّخِذُوا عَلَىٰ أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ » يعني : المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريتا من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون ، ويتوضؤون وغير ذلك . وقوله : « وَجَمْرُوهَا فِي الْجَمْعِ » يعني بخروها في أيام الجمع ؛ لكثرة اجتماع الناس يومئذ .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تَضَعُ عَلَىٰ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي شَوْقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا » . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرج إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة . فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه . ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة ^(٤) . وعند الدارقطني مرفوعاً : « لَا صَلَاةَ لَجَارِ الْمَسْجِدِ إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » ^(٥) وفي السنن « بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِالثَّوْرِ النَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٦) . ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى وأن يقول كما ثبت عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول : « أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَبِرُوحِهِ الْكَرِيمِ ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » . قال : فإذا قال ذلك ، قال الشيطان : حفظ مني سائر اليوم ^(٧) . وروى عن أبي أسيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ . وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ » ^(٨) . وعنه عليه السلام : « إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ »

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٦/١) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٧٥٠) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٥/٢ ، ٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري في (الصلاة) (٤٧٠) .

(٤) أخرجه البخاري في (الأذان) (٦٤٧) .

(٥) أخرجه البيهقي في سننه (٧٥/٣) والدارقطني في سننه (٤٢٠/١) .

(٦) أخرجه الترمذي في سننه (٢٢٣) وأبو داود (٥٦١) وابن ماجه (٧٨١) .

(٧) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٦) وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤٥٩/٢) .

(٨) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين) (٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٥/٥) .

وَلْيُقَلِّلْ : اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَسِّلْهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلْيُقَلِّلْ : اللَّهُمَّ اغْصِنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ^(١) . فهذا الذي ذكرناه مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك كله محاذرة الطول داخل في قوله تعالى : ﴿ فِي يَبُوتِ أَيْنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ وقوله : ﴿ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ أي : اسم الله وقوله تعالى : ﴿ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ قال ابن عباس يعني : يتلى كتابه ، وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْفُؤَادِ وَالْأَصَالِ ﴾ أي : في البكرات والعشيات . والأصال جمع أصيل وهو آخر النهار . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن هو الصلاة . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني بالغدو صلاة الغداة ويعني : بالأصال صلاة العصر ، وهما أول ما افترض الله من الصلاة ، فأحب أن يذكرهما ، وإن يذكر بهما عباده . ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْفُؤَادِ وَالْأَصَالِ ﴾ يعني : الصلاة ومن قرأ من القراءة ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْفُؤَادِ وَالْأَصَالِ ﴾ بفتح الباء ^(٢) من ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ على أنه مبني لما لم يسم فاعله وقف على قوله : ﴿ وَالْأَصَالِ ﴾ وقفا تاما وابتدأ بقوله : ﴿ رِجَالٌ لَا لُتْهِمِهِمْ شِحْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . وكأنه مفسر للفاعل المحذوف .

وأما على قراءة من قرأ : ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بكسر الباء فجعله فعلا ، وفاعله ﴿ رِجَالٌ ﴾ فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل لأنه تمام الكلام فقوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية ونياتهم ، وعزائمهم العالية التي بها صاروا عمارا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتزجيده . وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا ، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا » ^(٣) .

وعنه رضي الله عنه قال : « خير مساجد النساء قعر بيوتهن » ^(٤) هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحدا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب . كما ثبت في الصحيح عن عبد الله ابن عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَمْتَنُوا إِتَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ » ^(٥) . وفي رواية : « وَيُؤْتُوهُنَّ خَيْرَ لِهْنٍ » ^(٦) . وفي رواية « وَلْيُخْرِجْنَ وَهْنُ تَقِلَاتٍ » ^(٧) . وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : « إِذَا شَهِدْتَ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمَسْ طَبِيبًا » ^(٨) . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان نساء المؤمنین يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس ^(٩) ، وعنهما أيضا أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من

(١) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين) (٦٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٢٥/٥) .

(٢) قرأ ابن عامر وأبو بكر (يُسَبِّحُ) بفتح الباء والباقون بكسرها (انظر : تقريب النشر ص : ١٤٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٧/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في (الجمعة) (٩٠٠) ومسلم في (الصلاة) (١٣٦) وأبو داود في سننه (٥٦٥ ، ٥٦٦) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٥٧٠) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٧٦/٢) وأبو داود في سننه (٥٦٦) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٣٨/٢) وأبو داود في سننه (٥٦٥) .

(٨) أخرجه مسلم في (الصلاة) (١٤٢) وابن خزيمة في صحيحه (١٦٨٠) .

(٩) أخرجه البخاري في (مواقيت الصلاة) (٢٧) ومسلم في (المساجد) (٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢) .

المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل (١).

وقوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ يبعها ، وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ؛ لأن ما عندهم ينفذ وما عند الله باق . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ أي : يقدمون طاعته ومراده ومحبه . وعن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة تركوا بياعتهم ونهضوا إلى الصلاة . فقال عبد الله بن مسعود : هؤلاء من الذين ذكر في كتابه : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية . وقال الضحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها . وقال مطر الوراق : كانوا يبيعون ويشترون ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة . وقال ابن عباس : ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ : عن الصلاة المكتوبة . وقال السدي : عن الصلاة في جماعة . وقال مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها ، وقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ أي : يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار أي : من شدة الفرع وعظمة الأحوال . كقوله : ﴿ وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُخِزُّهُمْ يَوْمَ تَشْخَضُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ وقوله تعالى هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أي : هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله : ﴿ وَزَيَّدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ ﴾ أي : يتقبل منهم الحسن ، ويضاعفه لهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرًّا ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا ﴾ الآية ، وقال ها هنا : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً ، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً ثم تلا قوله : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ . عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لِيُؤْثِرَهُمْ أَجُورَهُمْ وَزَيَّدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ ﴾ قال : أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا (٢) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَلُهُمْ كَرَامٍ يَقِيعُ بِحَسَبِ الظَّنَّانِ مَا هَ حَقٌّ إِذَا جَاءَهُمْ لَرِ بَحْدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَاقُهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١) أو كطُلُمَتٍ فِي بَحْرِ لَيْلِي يَشْتَلُهُ مَوْجٌ مِّنْ قَوِيهِ مَوْجٌ مِّنْ قَوِيهِ سَابَّ طُلُمَتٌ بَعْضُهَا قَوْفٌ بَعْضٌ إِذَا أَخْرَجَ بَدُوهُ لَرِ يَكْدُ بَرْنَاهُ وَمَنْ لَرِ يَجْعَلُ اللَّهُ لَرِ نُورًا فَمَا لَرِ مِنْ نُورٍ .

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار ، فأما الأول من هذين المثلين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا في نفس الأمر على شيء ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كانه : بحر طام ،

(١) أخرجه البخاري في (الأذان) (٨٦٩) ومسلم في (الصلاة) (١٤٤) وأبو داود في سننه (٥٦٩) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣/٦) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١٠٨/٤) .

والقيعة جمع قاع كجار وجيرة ، والقاع أيضًا واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران ، وهي : الأرض المستوية المتسعة ، وفيه يكون السراب . وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار . وأما الآل : فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض . فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، يحسبه ماء قصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لَرَّ يَحْذُو شَيْئًا ﴾ فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً وأنه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل ، إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع . كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْآءً نَّتُثِّرُهُ ﴾ . وقال هاهنا : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَاقَهُ حِسَابُهُ ﴾ . وفي الحديث أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله . فيقال : كذبتُم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون ؟ فيقولون : يا رب عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سرب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون فيتهافون فيها ^(١) . وهذا المثال لذوي الجهل المركب . فأما أصحاب الجهل البسيط وهم : الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ قال قتادة : ﴿ لُّجِّيٍّ ﴾ هو : العميق . ﴿ يَنْشَبُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُوْهُ لَرَّ يَكْذِبُهَا ﴾ أي : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام مثل القلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ، ولا يدري أين يذهب . بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب ؟ قال : معهم ، قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري . وقال ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ يَنْشَبُهُ مَوْجٌ ﴾ الآية . يعني : بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر ، كقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَسْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَظَلَمَهُ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً ﴾ الآية . وقال أبي ابن كعب في قوله تعالى : ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ فهو يتقلب في خمسة من الظلم ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَرَّ يَجْمَلِ اللَّهُ لَهُ نَوْراً فَمَا لَهُ مِنْ نَّوْرِ ﴾ أي : من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائل بائر كافر . كقوله : ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَ هَادِي لَمْ ﴾ وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السماوات والأرض أي : من الملائكة والأناسي ، والجان والحیوان ، حتى الجماد . كما قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ ﴾ أي : في حال طيرانها تسبح ربها وتعبد بتسبيح ألهما ، وأرشدنا إليه وهو يعلم ما هي فاعلة . ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أي : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ . ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، ولا معقب لحكمه . ﴿ وَلِلَّهِ اللَّهُ الصَّيْدُ ﴾ أي : يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء . ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا وَعَلُوا ﴾ الآية . هو الخالق المالك ألا له الحكم في الدنيا والأخرى ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ ﴿ يَلْبَسُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو : الإزجاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي : يجمعه بعد تفرقه . ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ أي : متراكما أي : يركب بعضه بعضا . ﴿ فَتَرَى الْوَدَّكَ ﴾ أي : المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أي من خلله . قال عبيد بن عمير بن الليثي : يبعث الله الميثرة فتقم الأرض قمما ، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب . وقوله : ﴿ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ قال بعض النحاة ﴿ مِنْ ﴾ الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبعيض ، والثالثة لبيان الجنس ، وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله : ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ معناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد ، وأما من جعل الجبال هاهنا كناية عن السحاب ، فإن من الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضا ، لكنها بدل من الأولى ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي : بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد فيكون قوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ رحمة لهم ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : يؤخر عنهم الغيث ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي : بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم ، وإتلاف زروعهم وأشجارهم ، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . وقوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته . وقوله تعالى : ﴿ يَلْبَسُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيرا ، ويقصر الذي كان طويلا ، والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أي : لدليلا على عظمته تعالى . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ . وما بعدها من الآيات الكريمة .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحرركاتها وسكناتها من ماء واحد . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطيور . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ كالإنعام وسائر الحيوانات .

ولهذا قال : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : بقدرته لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .
﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ مُبَيَّنًّا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة كثيرًا جدًا ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعليلها أولي الأبواب والبصائر والنهى . ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَآلِ رَسُولٍ وَآطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ لِقَوْمٌ يَقُولُ يَأْتُوا إِلَيْنَا مُذْعِبِينَ ﴾ ﴿ أَلَيْسَ لِقُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَرَأَيْتُمْ أَن تَقَابَلُوا أَن يَحْفَافُوا أَنَّ يُحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَلَّا يَكُنْ لَهُمْ الْفُتُلُوكُ ﴾ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ حَتَّى يُنْفِقَ فَاُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يظنون يقولون قولاً بالسنتهم ﴿ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَآلِ رَسُولٍ وَآطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي : يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية . أي : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه . وعن سمرة مرفوعاً : « مَنْ دُعِيَ إِلَى سُلْطَانٍ فَلَمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ » . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ لِقَوْمٌ يَقُولُ يَأْتُوا إِلَيْنَا مُذْعِبِينَ ﴾ أي : وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين . وهو معنى قوله : ﴿ مُذْعِبِينَ ﴾ وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ، ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله . ثم فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ، ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ لِقُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ الآية . يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم . وأياً ما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم ، وما هو منطوق عليه من هذه الصفات . وقوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَكُنْ لَهُمُ الْفُتُلُوكُ ﴾ أي : بل هم الظالمون الفاجرون . والله ورسوله مبران مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى الله ورسوله عن ذلك .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا ييغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي : سماعاً وطاعةً . ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المهروب فقال تعالى : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . وقال قتادة في هذه الآية : ﴿ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ . ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقيباً بدرياً أحد نقباء الأنصار ، أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة في

عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وأن لا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمرك بمعصية الله بواحا فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله . وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا في جماعة والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة . قال : وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين .

وقوله : ﴿ وَنَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ، ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل . وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير ، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِدُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ طَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْأَمِينُ .

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لكن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُفْسِدُوا ﴾ أي لا تحلفوا ، وقوله : ﴿ طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ ﴾ قيل : معناها طاعتكم طاعة معروفة أي : قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه ، وكلما حلفتكم كذبتكم . فهم من سجيبتهم الكذب حتى فيما يختارونه . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُيِلَتْ لَئِنْ نَصَرْتُمْ وَاللَّهُ شَهِيدٌ لِّمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُيِلُوا لَا يَصْرُفُهُمْ وَلَئِنْ نَصَرْتُمْ لَيُؤْتِيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصْرَفُونَ .

وقيل : المعنى في قوله : ﴿ طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ ﴾ أي : ليكن أمركم طاعة معروفة أي : بالمعروف من غير حلف ، ولا أقسام كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف فكونوا أنتم مثلهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي ، فالحلف وإظهار الطاعة ، والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق ، فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى لا يروج عليه شيء من التدليس بل هو بضماير عباد ، وإن أظهروا خلافها . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أي : اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله . وقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي : تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به . ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ أي : بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿ وَإِنْ طَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ وذلك : لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْأَمِينُ ﴾ . كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ .

﴿ وَدَّعَ اللَّهُ الَّذِينَ هَامُوا يَنْكُرُوا الصَّلَاةَ لِيَسْتَظْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَظْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ

بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ .

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي : أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد . وليبدلهم من خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة : فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب ، وأرض اليمن بكمالها . وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر ، وإسكندرية وهو المقوقس . وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحابه رضي الله عنهم وأكرمهم . ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فلم شعث ما وهي بعد موته ﷺ وأخذ جزيرة العرب ومهدا ، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتحوا طرقاً منها وقتلوا خلقاً من أهلها . وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ، ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها ، وتوفاه الله ﷻ ، واختار له ما عنده من الكرامة . ومن على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق ، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس . وكسر كسرى وأهان غاية الهوان ، وتقهر إلى أقصى مملكته ، وقصر قصر وانتزع يده عن بلاد الشام ، وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالهما في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة . ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص . وبلاد القيروان ، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن . ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَسَيَلْتُ مَلِكُ أُمِّي مَا زَوَى لِي مِنْهَا » ^(١)

فها نحن تنقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا .

روي عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا » . ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني ، فسألت أي ما ذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : قال : « كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ » ^(٢) . وفي رواية : أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك .

(١) أخرجه مسلم في (الفتن) (١٩) وأبو داود في السنن (٤٢٥٢) والترمذي في سننه (٢١٧٦) .

(٢) أخرجه مسلم في (الإمارة) (٦) .

وذكر معه أحاديث أخر ، وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلاً ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر ، فإن كثيراً من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء . فأما هؤلاء : فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون ، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً ، وقد وجد منهم أربعة على الولاة ، وهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي عليه السلام ، ثم كانت بعدهم فترة ، ثم وجد منهم من شاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى ، ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً . وعن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال : « الخِلافةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَصُوصًا » ^(١) . وقال أبو العالية في قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ الآية . قال : كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح . فصبروا على ذلك ما شاء الله . ثم إن رجلاً من الصحابة قال : يا رسول الله أبدأ الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لَنْ تَضْبِرُوا إِلَّا لَيَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلِكِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِئًا لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ » . وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، فأدخل عليهم الخوف ، فاتخذوا الحجة والشرط وغيروا فغير بهم ^(٢) . وقال بعض السلف : خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حق في كتاب الله ، ثم تلا هذه الآية ، وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ الآية . كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه : « أَتَغْرِفُ الْحِيرَةَ ؟ » قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها قال : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظُّلُمَةُ مِنَ الْحِيرَةِ ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ ، وَلَتُفْتَحَنَّ كَنْزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمَزَ » . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نَعَمْ كِسْرَى بْنُ هُرْمَزَ وَلَيَبْذُلَنَّ الْمَالُ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ » قال عدي بن حاتم : فهذه الظلمة تخرج من الحيرة فتطوف بالبیت في غیر جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكون الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها ^(٣) . وعن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَا وَالرَّفْعَةِ ، وَالْدِّينِ وَالنَّصْرِ ، وَالتَّمَكُّينِ فِي

(٢) أورده النيسابوري بنحوه في أسباب النزول ص ١٨٣ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٠/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٧/٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨) وأورده الهندي في كنز العمال (٧٩/٤) .

الأرض ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلًا الْآخِرَةَ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ يَبْدُوْنَ لِي لَا يَشْكُرُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . وعن معاذ بن جبل قال : بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرجل قال : « يَا مُعَاذُ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : « يَا مُعَاذُ بُنْ جَبَلِ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال : « يَا مُعَاذُ بُنْ جَبَلِ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : « هَلْ تَذَرِي مَا حَقَّقَ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « حَقَّقَ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » . قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : « يَا مُعَاذُ بُنْ جَبَلِ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : « فَهَلْ تَذَرِي مَا حَقَّقَ الْعِبَادُ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فَإِنَّ حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي : فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه ، وكفى بذلك ذنبًا عظيمًا . فالصحابه رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ﷻ وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم . أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييدًا عظيمًا ، وحكموا في سائر العباد والبلاد . ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم . ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وفي رواية - حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ - وفي رواية - حَتَّى يَقَاتِلُوا الدُّجَالَ - وفي رواية - حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَهُمْ ظَاهِرُونَ » ^(٣) . وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ لَا تَحْصَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجِزَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَمَاؤُنْهُمْ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بإقامة الصلاة وهي : عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة وهي : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أي : سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وترك ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك أن من فعل هذا أن الله سيرحمهم . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَحْصَنَ ﴾ أي : لا تظن يا محمد أن ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : خالفوك وكذبوك ﴿ مُنْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : لا يعجزون الله بل الله قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَاؤُنْهُمْ ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي : بئس المال مآل الكافرين ، وبئس القرار وبئس المهاد .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَنْبِذَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يُلَاقُوا أَلْهَمُوا لَكُمْ تِلْكَ مَرَاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْدَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٢٠/١٠) وأورده الهندي في كنز العمال (٢٢٠/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في (اللباس) (٥٩٦٧) ومسلم في (الإيمان) (٥٠) وأحمد في مسنده (٢٢٨/٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (المناقب) (٣٦٤١) ومسلم في (الإيمان) (٢٤٧) وأحمد في مسنده (٩٣/٤) .

الْعَلَمُ فَلْيَسْتَنْذِرُوا كَمَا اسْتَنْذَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾
وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجِينَ بِرِيشَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيماهم ، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال : الأول : من قبل صلاة الغداة لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا في فرشهم . ﴿ وَبَيْنَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ﴾ أي : في وقت القيلولة لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله . ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ . لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال ، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال . ولهذا قال : ﴿ تِلْكَ عَوَازَاتُ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي : إذا دخلوا في غير حال غير هذه الأحوال ، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم ، ولا عليهم إن رأوا شيئًا في غير تلك الأحوال ، لأنه قد أذن لهم في الهجوم ولأنهم طوافون عليكم أي : في الخدمة وغير ذلك . ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم . ولهذا روي أن النبي ﷺ قال في الهرة : « إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَافِينَ عَلَيْكُمْ - أَوِ الطَّوَافَاتِ - » ^(١) ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء ، وكان عمل الناس بها قليلًا جدًا أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس . كما قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات ، فلم يعملوا بهن : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ ﴾ إلى آخر الآية . والآية التي في سورة النساء : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ ﴾ الآية . والآية التي في الحجرات : ﴿ إِنْ أَصْرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْئَكُمْ ﴾ . وعن ابن عباس أيضًا قال : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإني لآمر جاري هذه تستأذن علي ^(٢) . وعن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي . ﴿ لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ قال : لم تنسخ قلت : فإن الناس لا يعملون بها فقال : الله المستعان .

وقال السدي : كان أناس من الصحابة ؓ يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ، ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة . فأمرهم الله أن يأمرؤا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا والله أعلم أن رجلًا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا للنبي ﷺ طعامًا ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن . فقالت أسماء : يا رسول الله ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها - وهما في ثوب واحد - غلامهما بغير إذن فأنزل الله في ذلك : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ ﴾ إلى آخرها . وما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْإِفْئَلُ مِنْكُمْ الْعَلَمُ فَلْيَسْتَنْذِرُوا كَمَا اسْتَنْذَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٥) وأبو داود في سننه (٧٥ ، ٧٦) والترمذي في سننه (٦٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥١٩١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٦/٥) .

في العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعني بالنسبة إلى أجانبيهم ، وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث . قال ابن أبي كثير : إذا كان الغلام رباعيًا ، فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وقال في قوله : ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه . وقوله : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ قال سعيد بن جبير : هن : اللواتي انقطع عنهن الحيض ، ويحسن من الولد ﴿ أَلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أي : لم يبق لهن تشوق إلى الزواج ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أي ليس عليهن من الحجر في التستر كما على غيرها من النساء . قال ابن عباس : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَتَّقُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ ﴾ الآية . فنسخ واستثنى من ذلك القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا الآية ^(١) . قال ابن مسعود في قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ : الجلباب أو الرداء . وقال أبو صالح : تضع الجلباب ، وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار . وقال سعيد بن جبير وغيره في قراءة عبد الله بن مسعود (أن يضعن من ثيابهن) وهو الجلباب من فوق الخمار ، فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره بعد أن يكون عليها خمار صفيق . وقال سعيد بن جبير في الآية : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة . وقوله : ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ أي وترك وضعهن لثيابهن ، وإن كان جائزًا خير وأفضل لهن والله سميع عليم .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِشُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي رفع لأجله الحرج عن الأعمى ، والأعرج والمريض . ها هنا ، فقال عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يقال : إنها نزلت في الجهاد ، وجعلوا هذه الآية ها هنا كالتي في سورة الفتح ، وتلك في الجهاد لا محالة أي : أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم . وكما قال تعالى في سورة براءة : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرَضِ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذَرِيءٌ ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَغْلَطَ ذَرِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وقيل : المراد ها هنا أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى ؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، وربما سبقه غيره إلى ذلك ، ولا مع الأعرج ، لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه ، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره ، فكهروا أن يؤاكلهم لئلا يظلموهم ، فأُنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك ، وقال الضحاك : كانوا قبل البعثة يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تقدّرًا وتعزّزًا ، ولئلا يتفضلوا

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤١١)

عليهم ، فأنزل الله هذه الآية . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ الآية . كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمرضى إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته ، فكان الزمنى يتخرجون من ذلك . يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم . وقال السدي : كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتسحفه المرأة بشيء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم ، فقال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم ليغطف عليه غيره في اللفظ ، وليساوي به ما بعده في الحكم ، وتضمن هذا البيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء في الحديث : « أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ » ^(١) .

وقوله : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَهْمَتِكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ ﴾ هذا ظاهر ، وقد استدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض . وأما قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ ﴾ فقال السدي : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمنتهم . ويقولون : قد أحللتنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء فأنزل الله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ ﴾ وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أي : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ، ولا يكرهون ذلك . وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه . وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَيْبًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية : وذلك لما أنزل الله ﴿ يَتَأْتِيهَا الْذِّبَاتُ ءَامِنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ . قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكف الناس عن ذلك فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ . وكانوا أيضًا يأنفون ويتخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم في ذلك فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَيْبًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ . وقال قتادة : كان هذا الحمي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية ، حتى إن الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَيْبًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل . وعن وحشي بن حرب أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع . قال : « لَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ » ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٩/٢) وأبو داود في السنن (٣٥٣٠) وابن ماجه في السنن (٢٢٩١ ، ٢٢٩٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠١/٣) وابن ماجه في السنن (٣٢٨٦) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ۖ ﴾ . قال سعيد بن جبير وغيره : يعني : فليسلم بعضكم على بعض . وقال جابر بن عبد الله : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة . قال ابن جريج : قلت لعطاء : أوجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم ؟ قال : لا ، ولا أوتر وجوبه عن أحد ولكن هو أحب إلي وما أدعه إلا ناسيًا . وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين . وقال قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنه كان يؤمر بذلك . وحدثنا أن الملائكة ترد عليه . وعن أنس قال : أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال : « يَا أَنَسُ أَسْبَغِ الْوُضُوءَ يَزِدُّ فِي عُفْرِكَ ، وَسَلِّمْ عَلَى مَنْ لَقَيْكَ مِنْ أُمَّتِي تَكْثُرُ حَسَنَاتُكَ ، وَإِذَا دَخَلْتَ - يَغْنِي بَيْتَكَ - فَسَلِّمْ عَلَى أَهْلِكَ يَكْثُرُ خَيْرٌ بَيْتِكَ ، وَصَلِّ صَلَاةَ الضُّحَى فَإِنَّهَا صَلَاةُ الْأَوَايِنِ قَبْلَكَ ، يَا أَنَسُ ازْحَمِ الصَّغِيرَ ، وَوَقِّرِ الْكَبِيرَ تَكُنْ مِنْ رُفَقَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) . وقوله : ﴿ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ . قال ابن عباس : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله ، سمعت الله يقول : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ فالتشهد في الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ثم يدعوا لنفسه ويسلم ^(٢) . والذي ورد عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ يخالف هذا والله أعلم . وقوله : ﴿ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة ، والشرائع المتقنة المبرمة نبه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بيانًا شافيًا ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَفْتَوْكَ لَبِغِضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وهذا أيضًا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة ، أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك . أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه - والحالة هذه - إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك ، فإنه من المؤمنين الكاملين ، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء . ولهذا قال : ﴿ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ ﴾ الآية . وقد قال رسول الله ﷺ : « إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيَسَلِّمْ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيَسِتِ الْأَوَّلَى بِأَحَقِّ مِنَ الْآخِرَةِ » ^(٣)

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٣٥٧١) .

(٢) مسلم في (الصلاة) (٦٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/٢) وأبو داود في السنن (٥٢٠٨) والترمذي في السنن (٢٧٠٦) .

﴿ لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرُّسُلِ بَيْنَكُمْ كَدُّعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوَإِذَا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد يا أبا القاسم . فنهاهم الله ﷺ عن ذلك إعظاماً لنبية ﷺ قال : فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله . وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ وأن يبجل ، وأن يعظم وأن يسود ، وقال مقاتل في قوله : ﴿ لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرُّسُلِ بَيْنَكُمْ كَدُّعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ . يقول : لا تسموه إذا دعوتوه يا محمد ، ولا تقولوا : يا ابن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا : يا نبي الله يا رسول الله ، وقال ابن أسلم : أمرهم الله أن يشرفوه ، هذا قول ، وهو الظاهر من السياق . والقول الثاني في ذلك : أن المعنى : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا .

وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوَإِذَا ﴾ قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - ويعني بالحديث الخطبة - فليؤذون ببعض أصحاب محمد ﷺ ، حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبي ﷺ فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب بطلت جمعته . وقال السدي : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم . وقال قتادة في قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوَإِذَا ﴾ يعني : لوإذا عن نبي الله وعن كتابه . وقال سفيان : من الصف ، وقال مجاهد : ﴿ لَوَإِذَا ﴾ : خلافاً وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أي : عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه ، وطريقته وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان . كما ثبت في الصحيحين : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » ^(١) أي : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً . ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي : في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَّاشَ ، وَهَذِهِ الدُّوَابُّ اللَّائِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَقْلِبُهُنَّ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا - قَالَ - فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ أَنَا أَحَدٌ يَحْجِزُكُمْ عَنِ النَّارِ ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ ، فَتَقْلِبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا » ^(٢) . ﴿ أَلَا إِنَّ إِلَهًا لِي فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْعَفُونَ إِلَيْهِ يُفْثِنُهُمْ يَمَّا عُمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم . فقال : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، وقد للتحقيق كما قال قبلها :

(١) أخرجه البخاري في (البيوع) (٢١٤٤) والإمام مسلم في الأفضية (١٨) وأحمد في مسنده (١٤٦/٦ ، ١٨٠ ، ٢٥٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (١٩) وأحمد في مسنده (٣٩٢/٣) .

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَنْحِذُ وَلَكَا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ نَعْدُهُ نَفِيرًا .

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزل على رسوله الكريم من القرآن العظيم . ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة . ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نَزَلَ فعل من التكرار والتكرار وسماء هاهنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام . وقوله : ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء . فقال : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه فقال : ﴿ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ﴾ . وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أي : إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ الذي : جعله فرقاناً عظيماً ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال ﷺ : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » ^(١) . وقال : « إِنِّي أُعْطِيتُ خُمُسًا لَمْ يَعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي » فذكر منهن كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّبِعْنَهَا أُنَاسٌ مِنْ رِشْوَةٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جِزْيَةٌ مِنْ قَبْلِهِمْ كَبُرَتْ بِقُلُوبِهِمْ وَالْحَقُّ لَا يُعْطُونَ الْقُلُوبَ لِمَنْ لَمْ يُعْطِ الْقُلُوبَ لَعَلَّهُمْ قَدْ عَصُوا رَبَّهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

والأرض ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهو الذي يحيي ويميت . وهكذا قال ها هنا : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَنْحِذُ وَلَكَا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ ﴾ . ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك . ثم أخبر أنه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ نَعْدُهُ نَفِيرًا ﴾ أي : كل شيء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شيء ، وربّه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره وتديره وتسخيره وتقديره .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا ﴾ .

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء المالك لأزمة الأمور ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة ، بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فكيف يملكون لعبادتهم ؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا ﴾ أي : ليس لهم من ذلك شيء ، بل ذلك كله مرجعه إلى الله ﷻ الذي هو يحيي ويميت ، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم . ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْسَبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وقوله : ﴿ قَالَمًا هِيَ زَجْرًا وَهِيَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . فهو الله الذي لا إله غيره ، ولا رب سواه ولا تبغي العبادة إلا له ؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذي لا والد ، ولا عدل ولا

(١) أخرجه مسلم في (المساجد) (٣) والإمام أحمد في مسنده (١١٦/٤) .

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم ، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الظَّلَمَ ﴾ يعنون : كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه . ﴿ وَيَتَّبِعُنِي فِي الْأَشْرَاقِ ﴾ أي : يتردد فيها ، وإليها طلباً للتكسب والتجارة . ﴿ تَوَلَّى أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ يقولون : هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه . وهذا كما قال فرعون : ﴿ فَلَوْلَا آتَيْنِي آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُتَعَرِّينَ ﴾ . وكذلك قال هؤلاء على السواء ، تشابهت قلوبهم . ولهذا قالوا : ﴿ أَوْ يُقَالُ إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ أي : علم كنز ينفق منه . ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أي : تسير معه حيث سار . وهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن له الحكمة في ترك ذلك ، وله الحجة البالغة . ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَّفُوا لَكَ الْأَمْتَلُ فَضَلُّوا ﴾ أي : جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر ، وكلها أقوال باطلة . كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك . ولهذا قال : ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى ، فإنه ضال حيثما توجه ، لأن الحق واحد ، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً .

ثم قال تعالى مخبراً نبيه : أنه إن شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا ، وأفضل وأحسن . فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ الآية . قال مجاهد يعني : في الدنيا . قال : وقرش يسمون كل بيت من حجارة قصر ، كبيراً كان أو صغيراً . قال خيشمة : قيل للنبي ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لا نعطه نبياً قبلك ، ولا نعطي أحداً من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال : « اجتمعوها لي في الآخرة » . فأنزل الله ﷻ في ذلك : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ أي : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذبت وعناداً لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال . ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أي أروصدنا : ﴿ لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم . قال سعيد بن جبير ﴿ سَعِيرًا ﴾ واد من قيح جهنم . وقوله : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ أي جهنم . ﴿ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يعني : في مقام المحشر . قال السدي : من مسيرة مائة عام ﴿ سَمِعُوا لَمَّا تَنَبَّأَ زَكَرِيَّا ﴾ أي : حنقاً عليهم كما قال تعالى : ﴿ إِذَا أَتَوْا فِيهَا سَمِعُوا لَمَّا شَهِقَا وَهِيَ تَفُورُ ۝ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أي : يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله . وفي الحديث « مَنْ يَثْلُ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ أَوْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ وَالِدَيْهِ ، أَوْ انْتَهَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَلْيَبْرَأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ - وفي رواية - فَلْيَبْرَأْ بَيْنَ عِتْنِي جَهَنَّمَ مَقْعَدًا » . قيل : يا رسول الله وهل لها من عيين ؟ قال : « أَمَا سَمِعْتُمْ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ الآية (١) . وعن أبي وائل قال : خرجنا مع عبد الله - يعني ابن مسعود - ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار ، وينظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل الربيع ليسقط ، فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ

سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١﴾ فصعق - يعني الربيع - وحملوه إلى أهل بيته ، فربطه عبد الله إلى الظهر ، فلم يبق ﴿٢﴾ . قال ابن عباس : إن الرجل ليجر إلى النار ، فتزوي وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول : لها الرحمن مالك ؟ قالت : إنه يستجير مني فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يا رب ما كان هذا الظن بك ، فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تسعني رحمتك ، فيقول : أرسلوا عبدي . وإن الرجل ليجر إلى النار ، فتشبهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وقوله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ ﴾ قال عبد الله بن عمرو قال : مثل الرج في الرمح أي : من ضيقه . روي عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أنه سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ ﴾ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! إِنَّهُمْ لَيُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتْدُ فِي الْحَاطِيطِ » (١) . وقوله : ﴿ مُقَرَّبِينَ ﴾ قال أبو صالح : يعني مكثفين . ﴿ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أي : بالويل والحسرة والخيبة . ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا ﴾ الآية . عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « أَوَّلُ مَنْ يُكْتَسَى حُلَّةٌ مِنَ النَّارِ إِبْلِيسُ ، فَيَضَعُهَا عَلَى حَاجَتَيْهِ وَيَسْتَحْبِبُهَا مِنْ خَلْفِهِ ، وَذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ يُنَادِي : يَا ثُبُورَاهُ ، وَيُنَادُونَ : يَا ثُبُورَهُمْ ، حَتَّى يَقْفُوا عَلَى النَّارِ فَيَقُولُ : يَا ثُبُورَاهُ . وَيَقُولُونَ : يَا ثُبُورَهُمْ . فَيَقَالُ لَهُمْ : لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا . وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » (٢) . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا ﴾ الآية : أي : لا تدعوا اليوم ويلًا واحدًا وادعوا ويلًا كثيرًا . وقال الضحاك : الثبور : الهلاك ، والأظهر : أن الثبور يجمع الهلاك ، والويل والخسار والدمار . كما قال موسى لفرعون : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُثَبَّرًا ﴾ أي : هالكًا .

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَاصِبًا ﴾ ﴿ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَثْثُولًا ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء ، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده ؟ التي أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء ومصيرًا على ما أطاعوه في الدنيا ، وجعل مآلهم إليها . ﴿ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ من الملاذ ، من مآكل ومشارب وملابس ، ومسكن ومراكب ، ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب أحد . وهم في ذلك خالدون أبدًا دائمًا سرمدًا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، ولا يغون عنها حولًا . وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم ، ولهذا قال : ﴿ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَثْثُولًا ﴾ أي : لا بد أن يقع وأن يكون . كما حكاها علماء العربية أن معنى قوله : ﴿ وَعْدًا مَثْثُولًا ﴾ أي : وعدًا واجبًا . وقال ابن عباس : ﴿ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَثْثُولًا ﴾ يقول : فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه . وقال محمد بن كعب القرظي : إن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ .

وقال أبو حازم : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا فأعجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله : ﴿ وَعْدًا مَثْثُولًا ﴾ .

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦٤/٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٢/٣) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَسْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَا أَنْتُمْ أَصْلَانِمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾^(١)
 قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٧﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُكُمْ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ نَقْدُهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٨﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَسْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ . قال مجاهد : هو عيسى ، والعزير والملائكة ﴿ فَيَقُولُ مَا أَنْتُمْ أَصْلَانِمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ﴾ الآية . أي فيقول تبارك وتعالى للمعبودين : أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم ؟ ولهذا قال تعالى : مخبرًا عما يجيب به المعبودون يوم القيامة ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قرأ الأكرهون بفتح النون من قوله : ﴿ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدًا سواك ، لا نحن ولا هم ، فنحن ما دعونهم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم ، من غير أمرنا ولا رضانا ، ونحن برآء منهم ، ومن عبادتهم . وقرأ آخرون ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾^(١) أي : ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فإننا عبيد لك فقراء إليك . وهي قرية المعنى من الأولى ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ ﴾ أي : طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر أي : نسوا ما أنزلته إليهم على السنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ . قال ابن عباس أي : هلكي ، وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري أي : لا خير فيهم . قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُكُمْ ﴾ أي : فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنهم يقيرونكم إلى الله زلفى . وقوله : ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ أي : لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ، ولا الانتصار لأنفسهم . ﴿ وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ ﴾ أي : يشرك بالله ﴿ نَقْدُهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَظُنُّ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين ، إنهم يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذية له ، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ؛ فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخواص الباهرة ، والأدلة الظاهرة ، ما يستدل به كل ذي لب سليم ، وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله ، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَظُنُّ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ﴾ أي : اخترنا بعضهم ببعض ، وبلونا بعضهم ببعض لنعلم من يطيع من يعصي ولهذا قال : ﴿ أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أي : بمن يستحق أن يوحى إليه . ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك . وقال محمد بن إسحاق في قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَظُنُّ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ﴾ قال :

(١) قرأ أبو جعفر (أن نَتَّخِذَ) بضم النون وفتح الحاء والباءون بفتح النون وكسر الحاء (انظر : تقريب النشر ص ١٥١) .

يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت . ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليكم بهم . وفي صحيح مسلم عن رسول الله : « يَقُولُ اللَّهُ إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُتَبَلِّ بِكَ » (١) . وفي المسند عن رسول الله ﷺ : « لَوْ شِئْتُ لَأَجْزَى اللَّهُ مَعِيَ جِبَالَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ » (٢) . وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبيا ملكا ، أو عبدا رسولا ، فاختار أن يكون عبدا رسولا (٣) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أُنْزِلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رُسُلًا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ۝ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ۝ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْأَ نَشْتُلُوهُ ۝ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن تعنت الكفار في كفرهم ، وعنادهم في قولهم : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ أي : بالرسالة ، كما تنزل على الأنبياء . كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَا أَوْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﴾ ويحتمل أن يكون مرادهم ها هنا ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فنراهم عيانا ، فيخبرونا أن محمدا رسول الله كقولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ قِيَلًا ﴾ . ولهذا قالوا : ﴿ أَوْ نَرَى رُسُلًا ﴾ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أي : هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث ، اخرجي إلى سموم وحميم ، وظل من يحوم ، فتأني الخروج ، وتنفق في البدن فيضربونه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْنَهُمْ ﴾ الآية . ولهذا قال في هذه الآية الكريمة : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ . وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم ، فإنهم يشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ تَحَنُّنًا إِلَى الْوَالِدِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۝ نَزَّلًا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴾ .

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب ، إن كنت تعمريه ، اخرجي إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان (٤) . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى ﴾ يعني يوم القيامة . ولا منافاة بين هذا وما تقدم ، فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

(١) أخرجه مسلم بنحوه في (الجنة وصفة نعيمها) (٦٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٦٣/١ بنحوه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٣٢١/٢ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ١٤٠/٦ ، والنسائي في السنن (جناز ٩) .

﴿ وَيَقُولُونَ حَبْرًا نَّحْجُورًا ﴾ أي : وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم . وأصل الحجر المنع ، ومنه يقال : حجر القاضي على فلان ، إذا منعه التصرف إما لفلس أو سفه ، أو صغر أو نحو ذلك . ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، ومنه يقال : للعقل حجر ؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق . والغرض أن الضمير في قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عائد على الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ﴾ الآية ، هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر ، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء ، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصاً ، وعلى الشريعة المرضية فهو باطل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْكَ مَسْثُورًا ﴾ . قال مجاهد والثوري : ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ أي عمدنا ، وعن علي عليه السلام في قوله : ﴿ هَبْكَ مَسْثُورًا ﴾ قال : شعاع الشمس إذا دخل الكوة ، وعن ابن عباس : قال : هو الماء المهرق ، وفي رواية عن علي عليه السلام ﴿ هَبْكَ مَسْثُورًا ﴾ . قال : الهباء وهج الدواب ، وقال قتادة : أما رأيت يس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الورق . وعن عبيد بن يعلى قال : وإن الهباء الرماد إذا ذرته الريح ، وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية . وذلك أنهم عملوا أفعالاً اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحداً ؛ إذ إنها لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية . كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًاوِ اسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَرَيمٍ يَقَعَرُ يَحْسَبُ الْظُلْمَانُ مَاءً حَرًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَرَّ يَحْدَهُ شَيْئًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أي : بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا ، وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار ؛ فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم والنجاة من النار . فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية . فقال تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ قال ابن عباس : إنما هي ساعة ، فيقبل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقبل أعداء الله مع الشياطين مقرنين . وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار ، فيقبل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار . وقال عكرمة : إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقبولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة ، فكانت قبولتهم في الجنة ، وأطمعوا كبد حوت فأشبعهم كلهم . وذلك قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ . وقال عبد الله بن مسعود قال : لا يتنصف النهار حتى يقبل هؤلاء وهؤلاء . ثم قرأ : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَنَّةِ ﴾ وقال ابن عباس في قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ . قال : قالوا في الغرف من الجنة ،

الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لَهَا الْقُرْآنَ وَالْقَوْمَ فِيهِ الْآيَةُ فَكَانُوا إِذَا تَلَّى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ أَكْثَرُوا اللَّغْطَ وَالْكَلَامَ فِي غَيْرِهِ حَتَّى لَا يَسْمَعُونَهُ . فهذا من هجرانه وترك الإيمان به ، وترك تصديقه من هجرانه . وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامثال أوامره ، واجتناب زواجه من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان في الأمم الماضية ؛ لأن الله جعل لكل نبي عدوا من المجرمين يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم . ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أي : لمن اتبع رسوله وأمن بكتابه ، وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة . وإنما قال : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدي أحد به ، وتغلب طريقتهم طريقة القرآن فهذا قال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الآية .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَزَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . يقول تعالى عن كثرة اعتراض الكفار وتعتهم ، وكلامهم فيما لا يعنيههم ، حيث قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أي : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحى إليه جملة واحدة . كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالنوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجما في ثلاث وعشرين سنة ، بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به . كقوله : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾ الآية . ولهذا قال : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَزَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ . قال قتادة : بيناه تبيينا . وقال ابن زيد : وفسرناه تفسيرا ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي : بحجة وشبهة ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أي : ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجابناهم بما هو الحق في نفس الأمر ، وأبين وأوضح ، وأفصح من مقالاتهم . قال ابن عباس : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي : يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ الآية . أي إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحا ومساء ، وليلاً ونهاراً ، سفراً وحضرًا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كما نزل الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء ، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله تعالى ، وقد جمع الله القرآن الصفتين معا ، ففي الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِقُرْآنٍ عَلَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلًا ﴾ .

ثم قال تعالى مخبرا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . وفي الصحيح أن رجلا قال : يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : (إِنَّ

الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ قَادِرٌ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ ﴿ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنُنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ ﴿ وَقَمْ نُوجُ لَنَا كَذِبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّيِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ ﴿ وَكُلًّا صَبَرْنَا لَهُ الْأَمَثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْفَرِّقَةِ الْآلِيَّ أَنْطَرْتَ مَطَرَ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرْتَضُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ شُكْرًا ﴾ .

يقول تعالى متوعدًا من كذب رسوله محمدًا ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه ، ومحذره من عقابه ، وأليم عذابه بما أحله بالأثم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى ، وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرًا أي نبيًا مؤازرًا ، ومؤيدًا وناصرًا ، فكذبهما فرعون وجنوده . ف ﴿ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِالْكَافِرِينَ أَشْرَافًا ﴾ . وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحًا ﷺ ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول ، فإنهم كانوا يكذبون . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَمْ نُوجُ لَنَا كَذِبُوا الرُّسُلَ ﴾ ولم يعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله ﷻ ، ويحذرهم نقمه ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ولهذا أغرقهم الله جميعًا ، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ أي : عبرة يعتبرون بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّيِّ ﴾ قد تقدم على قصتهما في غير ما سورة ، كسورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة . وأما أصحاب الرس فقال ابن عباس : هم أهل قرية من قرى ثمود . وقال عكرمة : أصحاب الرس بفلج ، وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة . وقال عكرمة : الرس برسو فيها نبيهم أي دفنوه فيها . واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ أي : وأما أضعاف من ذكر أهلكتهم كثيرة . ولهذا قال : ﴿ وَكُلًّا صَبَرْنَا لَهُ الْأَمَثَلُ ﴾ أي : بينا لهم الحجج ، ووضحنا لهم الأدلة ، كما قال قتادة : وأزحنا الأعدار عنهم ﴿ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴾ أي : أهلكتنا إهلاكًا . كقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَدْنِ نُوْحٍ ﴾ والقرن هو الأئمة من الناس كقوله : ﴿ ثُمَّ أَفْشَانَا مِنْ بَدْنِهِ قُرُونًا كَثِيرًا ﴾ وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة ، وقيل : بمائة ، وقيل : بشمانين ، وقيل : أربعين ، وقيل غير ذلك ، والأظهر أن القرن : هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد ، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر . كما ثبت في الصحيحين : « خَيْرُ الْقُرُونِ قُرُونِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » (٢) . ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْفَرِّقَةِ الْآلِيَّ أَنْطَرْتَ مَطَرَ السَّوَاءِ ﴾ يعني قرية قوم لوط وهي : سدوم التي أهلكتها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل . وقوله ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرْتَضُونَهَا ﴾ أي : فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب ، والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ، وبمخالفتهم أوامر الله . ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ شُكْرًا ﴾ يعني : المارئين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشورًا ؛ أي معاذًا يوم القيامة .

(١) أخرجه البخاري في (الرقاق) (٦٥٢٣) ومسلم في (المنايق) (٥٤) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في (فضائل أصحاب النبي) (٣٦٥٠) ومسلم في (فضائل الصحابة) (٢١٠ - ٢١٤) .

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۖ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْإِهْتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ ۖ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۖ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۖ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۖ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۖ﴾ .

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه . كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُؤًا﴾ الآية . يعنونه بالعبث والنقص . وقال ها هنا : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي : على سبيل النقص والازدراء فقبحهم الله . وقوله تعالى : ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْإِهْتِنَا﴾ يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام ، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها . قال الله تعالى متوعدا لهم ومتهددا : ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ﴾ الآية . ثم قال تعالى لنبيه منبها أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال ؛ فإنه لا يهديه أحد إلا الله ﷻ . ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ أي : مهما استحس من شيء ورأه حبيبا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه . ولهذا قال ها هنا : ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول . ثم قال تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الآية . أي : هم أسوأ حالا من الأنعام السارحة ، فإن تلك تفعل ما خلقت له ، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له فلم يفعلوا ، وهم يعبدون غيره ، ويشركون به مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۖ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۖ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَوُا وَلِالنَّوْمِ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۖ﴾ .

من ها هنا ۖ في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة . فقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ . قال ابن عباس وابن عمر : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي : دائما لا يزول . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي : لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف ؛ فإن الضد لا يعرف إلا بضده . وقال قتادة : دليلا تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي : الظل . وقيل : الشمس . ﴿يَسِيرًا﴾ أي : سهلا . قال ابن عباس : سريعا . وقال مجاهد : خفيا . وقال السدي : قبضا خفيا حتى لا يقي في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه . وقال أيوب بن موسى في الآية : ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قليلا . وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَوُا﴾ أي : يلبس الوجود ويغشاه . كما قال تعالى : ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَتَتَّقَى ۖ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي : قاطعا للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معا . ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي : ينتشر الناس فيه لمعايشهم ، ومكاسبهم وأسبابهم .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا لِّبَرِّ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۖ لِّنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَبْنًى وَشَقِيقَهُ ۖ وَمَا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَلَا نَاسِيًّا ۖ كَثِيرًا ۖ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَنَّى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا ۖ﴾ .

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات أي : بمجيء السحاب بعدها ، والرياح أنواع فمنها : ما يثير السحاب ، ومنها : ما يحمله ، ومنها : ما يسوقه ، ومنها : ما يكون بين يدي السحاب مبشرا ، ومنها : ما يكون قبل ذلك تقم الأرض ، ومنها : ما يلقي السحاب ليمطر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ أي : آلة يتطهر بها كالسحور والوجور وما جرى مجراهما . فهذا أصبح ما يقال في ذلك . وعن خالد بن يزيد قال : كنا عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء فقال خالد بن يزيد : منه من السماء ، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر ، فيذبه الرعد والبرق . فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات ، فأما النبات فمما كان من السماء . وروي عن عكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة . وقوله تعالى : ﴿ لَنُخَيِّطَ بِهِ بَلَدًا قَيْنًا ﴾ أي : أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهي هامة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الحياة عاشت واكتست رباها أنواع الأزهار والألوان ﴿ وَشَقِيقَةً مِمَّا خَلَقْنَا أَنْثًا وَنَاقِيًا كَثِيرًا ﴾ أي : وليشرب منه الحيوان من أنعام ، وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم ، وزرعهم وثمارهم . كما قال تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَى مَثَلِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّطُ الْأَرْضَ بِمَدِّ مَوْتٍ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا ﴾ أي : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب يمر على الأرض ، ويتعدها ويتجاوزها إلى الأخرى ، فيمطرها ويكفيها ، ويجعله غدقاً ، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة ، والحكمة القاطعة . قال ابن عباس : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء . ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَكْفُرُوا ﴾ أي : ليدذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات . أو ليدكر من منع المطر ، إنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَكْفُرُوا ﴾ قال عكرمة : يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، وفي الحديث أنه عليه السلام قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أَتَذَرُونَّ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا ؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » (١) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَغَشَّيْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ فلا نطعم الكافرين ونهزمهم به جهاداً كبيراً ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أَلْجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعلهم نسباً وصهرًا وكان ربك قديراً ﴿ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَغَشَّيْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ يدعوهم إلى الله ﷻ ، ولكننا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن . ﴿ وَلَنُنَزِّلُ أُمُّ الْقُرْآنِ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ . وفي الصحيحين : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » (٢) . وفيهما : « وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (١٢٥) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٢٥٠/١) .

قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُثَبِّتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ^(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا تُلَاحِظْ الْكَافِرِينَ وَيَحْزَنْهُمْ بِهِ ﴾ يعني بالقرآن ﴿ جَهَنَّمَ كَبِيرًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّارُ جَهَنَّمَ الْكَافِرُ وَالْمُتَّقِينَ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ لَّجَاجٌ ﴾ أي : خلق المائين الحلو والمالح ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه ، لاحتياجهم إليه أنهارًا وعيونًا في كل أرض بحسب حاجتهم ، وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم . وقوله تعالى : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ لَّجَاجٌ ﴾ أي : مالح مرزاق لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب : البحر المحيط ، وبحر القلزم ، وبحر فارس ، وما شاكلها وشابها من البحار الساكنة التي لا تجري ، ولكن تموج وتضطرب ، وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح . ومنها ما فيه مد وجزر ، ففي أول كل شهر يحصل منها مدٌ وفيض ، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله ﷻ مالحة ، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء ، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوي الأرض بما يموت فيها من الحيوان ، ولما كان ماؤها ملحًا كان هواؤها صحيحًا وميتها طيبة . ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر أنتوضأ به ؟ فقال : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ ، الْحُلُّ مِثْلُهُ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجَهَنَّمَ بَرْزَخًا ﴾ أي : بين العذب والمالح ﴿ بَرْزَخًا ﴾ أي : حاجزًا وهو ليس من الأرض ﴿ وَجَهَنَّمَ بَرْزَخًا ﴾ أي : مانعًا من أن يصل أحدهما إلى الآخر . كقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَنَجْعَلُ فِيهَا جَذَلًا أَنْتُمْ كَذِبُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ الآية . أي خلق الإنسان من نقطة ضعيفة فسواه وعدله ، وجعله كامل الخلقة ذكيرًا وأنثى كما يشاء . ﴿ فَجَعَلْنَا نِسَاءَ صِهْرًا ﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهرًا ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَهًا رَبَّهُ سَبِيلًا ﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَمِعَ يَحْسُدُونَ وَكَفَى بِهِ يَذُنُّوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبِّحْ لَهُ حَمْدًا خَيْرًا ﴾ وَلَئِن قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْجِبْ لِمَا نَأْمُرُكَ بِذَلِكَ نَقُولُ .

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا ، بلا دليل قادم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء ، والشهوي والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم وويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ أي : عونًا في سبيل الشيطان على حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون . قال مجاهد : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ قال : يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه ، وقال سعيد بن جبير : عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك . وقال زيد بن أسلم : مواليًا ، ثم قال تعالى لرسوله صلوات

(١) أخرجه البخاري في (التيمم) (١) ومسلم في المساجد (٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٧/٢) .

اللَّهُ وسلامه عليه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين ، مبشِّرًا بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي : على هذا البلاغ ، وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ﴿ لَنْ شَأْنِكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي : طريقًا ومسلًكًا ، ومنهجًا يقتدي فيها بما جئت به ، ثم قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِهِنَا الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ أي : في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً الذي هو : ﴿ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَيَحْيِي مَحْيَدِيَّةً ﴾ أي : اقرن بين حمده وتسميحه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ» . أي : أخلص له العبادة والتوكل . كما قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴾ أي : بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْأَشْيَاءَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أي : يدبر الأمر ، ويقضي الحق وهو خير الفاصلين . وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴾ أي : استعلم عنه من هو خير به عالم به ، فاتبعه واقتد به . وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴾ . قال مجاهد : ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك . وقال شمر بن عطية : هذا القرآن خير به .

ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ أي لا نعرف الرحمن ، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن . كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكتاب : « ائْتِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ^(١) . ولهذا أنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي : هو الله ، وهو الرحمن . ﴿ ائْتِجِدُوا لِي سُبُوحًا ﴾ أي : لمجرد قولك ﴿ وَادْعُهُمْ قَوْلًا ﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ، ويفردونه بالإلهية ويسجدون له .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَكِرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا .

يقول تعالى ممجِّدًا نفسه على جميل ما خلق في السماوات من البروج وهي الكواكب العظام ، وقيل : هي قصور في السماء للحرس . والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ وهي : الشمس المنيرة التي هي كالسراج في

(١) سيرة ابن هشام (٣٣١/٣) .

الوجود ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ أي : مشرقاً مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس . ثم قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي : يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذاك كما قال تعالى : ﴿لَا تَسْمَشُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي : جعلها يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له ﷻ ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل . وقد جاء في الحديث الصحيح : « إِنْ اللَّهُ ﷻ يَسْطُ يَدُهُ بِاللَّيْلِ لِيُثَوِّبَ مُسِيءَ النَّهَارِ ، وَيَسْطُ يَدُهُ بِالنَّهَارِ لِيُثَوِّبَ مُسِيءَ اللَّيْلِ »^(١) . وقال ابن عباس في الآية : من فاته شيء من الليل أن يعمل أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل . وقال مجاهد : ﴿خِلْفَةً﴾ أي : مختلفين ، أي هذا بسواده وهذا بضياؤه .

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا^(٢) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا^(٣) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا^(٤) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا^(٥) .

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي : بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار . كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ الآية . وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صلب ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتضع ، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال : ما بالك أنت مريض ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة . وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله : « إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتَوْهَا وَانْتُمْ تَشْعَوْنَ ، وَاتَّوَعْنَا وَعَالَيْكُمُ الشَّكِينَةُ ، فَمَا أَذْرَكُكُمْ مِنْهَا فَصَلُّوا ، وَمَا فَاتَكُمْ فَأْتُوا »^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي : إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيئ لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً . كما كان رسول الله ﷺ لا تزيد شدة الجاهل عليه إلا حلماً . وكما قال تعالى : ﴿وَإِذَا سَكِرُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ الآية . عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله ﷺ وسب رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام ، فقال رسول الله ﷺ : «أما إن ملكاً بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا . قال له : بل أنت ، وأنت أحق به . وإذا قلت له وعليك السلام : قال : لا بل عليك وأنت أحق به »^(٧) . وقال مجاهد : ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ يعني قالوا : سداً ، وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفًا من القول . وقال الحسن البصري : قالوا سلام عليكم إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل . فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي : في طاعته وعبادته . ولهذا قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي : ملازماً دائماً . ولهذا قال الحسن في قوله : ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه

(١) أخرجه مسلم في (التوبة) (٣١) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في (المساجد) (١٥١ - ١٥٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٥/٥) .

عكرمة : أودية في جهنم يعذب فيها الزناة . وقال قتادة : نكالا : كنا نحدث أنه في واد جهنم . وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بني : إياك والزنى فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة . وقال السدي : ﴿ يَلْقَى أَثَامًا ﴾ جزاء ، وهذا أشبه بظاهر الآية ، وبهذا فسرهما بما بعده مبدلاً منه وهو قوله تعالى : ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : يكرر عليه ويغلظ . ﴿ وَيَخَذُّ عَلَيْهِ مِثْقَالًا ﴾ أي : حقيراً ذليلاً . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ أي : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ أي : في الدنيا إلى الله ﷻ من جمع ذلك ، فإن الله يتوب عليه . وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل . ولا تلغوض بين هذه وبين آية النساء ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ الآية . فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل . وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ في معنى قوله : ﴿ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قولان أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال ابن عباس في الآية : هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات فحولها إلى الحسنات . فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وقال غطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيراً . وقال سعيد بن جبير : أبدلهم الله عبادة الأوثان عبادة الرحمن ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات . وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح . وأبدلهم بالشرك إخلاصاً ، وأبدلهم بالفجور إحصاناً ، وبالكفر إسلاماً ، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين .

والقول الثاني : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر . فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة ، وإن وجدته مكتوباً عليه ؛ فإنه لا يضره ، وينقلب حسنة في صحيفته . كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف ؛ فعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ ، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا إِلَى الْجَنَّةِ ، يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيَقُولُ : نَحْنُوا عَنْهُ كِتَابَ ذُنُوبِهِ وَسَلُّوهُ عَنْ صِغَارِهَا قَالَ : فَيَقَالُ لَهُ : عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا ، وَكَذَا وَكَذَا ، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا ، وَكَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ . لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا . فَيَقَالُ : فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةٌ . فَيَقُولُ : يَا رَبِّ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا » . فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ^(١) ، حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولاً يحدث قال : أنه جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله رجل غدر وفجر ، ولم يدع حاجة ولا داجة إلا احتطفها يمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبة ؟ فقال النبي ﷺ : « أَلَسَلَعْتَ ؟ » قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . فقال النبي ﷺ : « فَإِنَّ اللَّهَ غَافِرٌ لَكَ مَا كُنْتَ كَذَلِكَ ، وَمُبْدِلٌ سَيِّئَاتِكَ حَسَنَاتٍ » . فقال : يا رسول الله وغدراتي وفجراتي ؟ فقال :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/١) والترمذي في السنن (٢٥٩٥ ، ٢٥٩٦) .

«وَعَذْرَاتِكُمْ» . فولى الرجل يكبر ويهمل^(١) . ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً ، كبيراً أو صغيراً ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُذَّبُ إِلَى اللَّهِ مُتَابًا ﴾ . أي : فإن الله يقبل توبته . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ الآية . أي لمن تاب إليه .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قِسْرَةً اخْتِارَ وَأَجْعَلْ لَنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ . وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور ، قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق ، والكفر واللغو والباطل ، وقال محمد ابن الحنفية : هو اللغو والغناء . وقال الضحاك والربيع بن أنس : هو أعياد المشركين . وقال عمر بن قيس : هي مجالس السوء والخنا . وقال مالك عن الزهري : شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه . كما جاء في الحديث : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَجْلِسُ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ »^(٢) . وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ أي : شهادة الزور وهي : الكذب متعمداً على غيره . كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ « أَلَا أَنْبِيَكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ » ثلاثاً . قلنا : بلي يا رسول الله ، قال : « الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، وَغُفُوقُ الْوَالِدَيْنِ » . وكان متكئاً فجلس فقال : « أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ » . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت^(٣) . والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي : لا يحضرونه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أي : لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ، ولم يتدنسوا منه بشيء . ولهذا قال : ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ . وهذه أيضاً من صفات المؤمنين ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ، ولا يتغير عما كان عليه ، بل يبقى مستمراً على كفره ، وطغيانه وجهله وضلاله . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَؤُلَاءِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إِيْمَانًا وَهُمْ يَتَّبِعُونَ ﴾ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ . فقوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي : بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه ، فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى . قال مجاهد : قوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ قال : لم يسمعوا ، ولم يبصروا ، ولم يفقهوا شيئاً ، وقال الحسن البصري رحمه الله : كم من رجل يقرؤها ويخبر عليها أصم أعمى . وقال قتادة : لم يصموا عن الحق ، ولم يعموا فيه ، فهم والله قوم عقلوا عن الحق ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن عون : سألت الشعبي قلت : الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم ؟ قال : فتلا هذه الآية : يعني أنه لا يسجد معهم ؛ لأنه لم يتدبر أمر السجود ، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة

(١) أورده البيهقي في دلائل النبوة (٩٠/٦) والسيوطي في الدرر (٨٠/٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في صحيحه (٢٨٠١) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٧٨/١) وذكره الهندي في كنز العمال (٢٧٤٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري مسلم في الإيمان (١٤٣) وأحمد في مسنده (١٣١/٣) .

من أمره ، ويقين واضح بين وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يعني : الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له . قال ابن عباس : يعنون من يعمل بطاعة الله ، فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة . قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . وسئل الحسن البصري عن هذه الآية ، فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله ، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً ، أو ولد ولد ، أو أختا ، أو حميماً مطيعاً لله ﷻ ، قال ابن جريج في قوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ : يعبدونك فيحسبون عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر . وقال ابن زيد : يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام . وقال جبير بن نفير : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله ﷺ ، لوددنا أننا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت ، فاستغضب المقداد ، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيراً . ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه لا يدري لو شاهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشرف حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة جاهلية ، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه ، وهو يعلم أن حبيب في النار ، وأنها التي قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قال ابن عباس والحسن : أئمة يقتدى بنا في الخير . وقال غيرهم : هداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعدياً إلي غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآباً ، ولهذا ثبت عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، أَوْ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ » (١) .

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا كَسَبُوا وَيُفْتَنُونَ فِيهَا نَفْسَةً وَسَلَامًا ۖ خَلِيلِينَ فِيهَا حُسْنٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ قُلْ مَا يَعْبُؤُنِي بِكَ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۖ .

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة ، والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي : المتصفون بهذه ﴿ يُجْزَوْنَ ﴾ يوم القيامة ﴿ الْغُرَّةَ ﴾ وهي الجنة . قال الضحاك والسدي : سميت بذلك لارتفاعها ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أي : على القيام بذلك ﴿ وَيُفْتَنُونَ فِيهَا ﴾ أي : في الجنة . ﴿ نَفْسَةً وَسَلَامًا ﴾ أي يتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما

صبرتم ، فنعم عقبى الدار ، وقوله تعالى : ﴿ خَلِّدِينَ فِيهَا ﴾ أي : مقيمين لا يظعنون ، ولا يحولون ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ، ولا ييغون عنها حولا . كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِّدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي : حسنت منظرا ، وطابت مقبلا ومنزلا . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي ﴾ أي : لا يبالي ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ، ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا . قال مجاهد : ﴿ قُلْ مَا يَعْْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي ﴾ يقول : ما يفعل بكم ربي ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي ﴾ الآية يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحب إليهم الإيمان كما حبه إلى المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي : فسوف يكون تكذيبكم لازما لكم يعني : مفضيا لعذابكم وهلاككم ، ودماركم في الدنيا والآخرة ، ويدخل في ذلك يوم بدر . وقال الحسن البصري : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي : يوم القيامة ، ولا منافاة بينهما .

سورة الشعراء

ورفع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها سورة الجامعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَّرَ ۝ يَلَّاكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْغَيْبِ ۝ لَمَّاكَ بَنِيحُ نَفْسِكَ ۝ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصِيصِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُنْجِيًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَنَجٍ كَرِيمٍ ۝ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿ يَلَّاكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْغَيْبِ ﴾ أي : هذه آيات القرآن المبين . أي : البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل ، والغي والرشاد . وقوله تعالى : ﴿ لَمَّاكَ بَنِيحُ نَفْسِكَ ﴾ أي : مهلك . ﴿ نَفْسِكَ ﴾ أي : مما تحرص وتحزن عليهم . ﴿ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا ﴾ . قال مجاهد والحسن : ﴿ لَمَّاكَ بَنِيحُ نَفْسِكَ ﴾ أي : قاتل نفسك .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصِيصِينَ ﴾ أي : لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً ، ولكن لا نفعل ذلك لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ الآية . فنفذ قدره ، ومضت حكمته ، وقامت حاجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُنْجِيًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس . كما قال تعالى : ﴿ يَحْزَنُونَ عَلَى الْأَيْدِي مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ . ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿ وَسَيَعْلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه ، وجلال قدره ، وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض ، وأنبث فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان . قال الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ ﴾ أي : دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض ، ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل خالفوا أمره وارتكبوا نهيهِ . وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي : بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال ابن إسحاق : العزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره ، وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

﴿ وَإِنَّ نَادِيَّ رَبِّكَ مُوَسِّعٌ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قَوْمٌ فَرِحُوا أَنْ لَا يَذُنُّوا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَلِّمُونِي ۝ وَيَضِيقُ

صَدْرِي وَلَا يَطْلُقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَكُمْ عَلَى ذُنُوبٍ قَلْخَافٌ أَنْ يَقْتُلُونَكُمْ ﴿١١﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِبَنَاتَيْنَا إِنَّمَا مَعَكُم مُّسْتَبْعُونَ ﴿١٢﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٤﴾ قَالَ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْتُ فِيمَا مِنْ عَمْرِي سَيْنَ ﴿١٥﴾ وَقَعَلْتُ فَعَلْتُكَ الْآتِي فَعَلْتُ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٧﴾ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَنَا خِجْنَتَكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩﴾ .

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَنْ أَتَى الْقَوْمَ الْفَٰلِغِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمٌ فِرْعَوْنُ لَا يَنْقُورُ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضْحَكُوا صَدْرِي وَلَا يَطْلُقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَكُمْ عَلَى ذُنُوبٍ قَلْخَافٌ أَنْ يَقْتُلُونَكُمْ ﴿١٤﴾ هَذِهِ أَعْدَارُ سَأَلَ مِنَ اللَّهِ إِزَاحَتَهَا عَنْهُ . كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٥﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿١٦﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَكُمْ عَلَى ذُنُوبٍ قَلْخَافٌ أَنْ يَقْتُلُونَكُمْ ﴿١٧﴾ أَي : بِسَبَبِ قَتْلِ الْقَبْطِيِّ الَّذِي كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ مِنْ بِلَادِ مِصْرَ . ﴿قَالَ كَلَّا ﴿١٨﴾ أَي : قَالَ اللَّهُ لَا تَخَفْ مِنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ : ﴿سَنُثَبِّتُكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا - أَي بَرَهَانًا - فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِبَنَاتَيْنَا أَنْتَا وَبَنَاتُكُمَا الْفٰلِغِينَ ﴿١٩﴾ . ﴿فَاذْهَبَا بِبَنَاتَيْنَا إِنَّمَا مَعَكُم مُّسْتَبْعُونَ ﴿٢٠﴾ . كَقَوْلِهِ : ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٢١﴾ أَي : إِنِّي مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَكَلَاءَتِي ، وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي ﴿٢٢﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ . أَي كُلِّ مَنْ أَرْسَلَ إِلَيْكَ ﴿٢٤﴾ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٥﴾ أَي : أَطْلَقَهُمْ مِنْ إِسَارِكَ وَقَبْضَتِكَ ، وَقَهْرِكَ وَتَعْذِيكِ ، فَإِنَّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْمُؤْمِنُونَ ، وَحِزْبُ الْمُخْلِصُونَ ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى ذَلِكَ ، أَعْرَضَ فِرْعَوْنُ هُنَالِكَ بِالْكَلْبِيَّةِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْاِزْدِرَاءِ وَالْغَمُضِ ، فَقَالَ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْتُ فِيمَا مِنْ عَمْرِي سَيْنَ ، أَي أَمَا أَنْتَ الَّذِي رَبَّنَا ، وَفِي بَيْتِنَا ، وَعَلَى فِرَاسِنَا ، وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مَدَّةً مِنَ السِّنِينَ . ثُمَّ بَعْدَ هَذَا قَابَلْتَ ذَلِكَ الْإِحْسَانَ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ ، أَنْ قَتَلْتَ مِنْ رَجُلًا ، وَجَحَدْتَ نِعْمَتَنَا عَلَيْكَ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ أَي : الْجَاهِلِينَ . ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا ﴿٢٧﴾ أَي : فِي تِلْكَ الْحَالِ . ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٨﴾ أَي : قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيَّ ، وَيَنْعَمَ عَلَيَّ بِالرَّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٩﴾ أَي الْجَاهِلِينَ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : ﴿فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَنَا خِجْنَتَكُمْ ﴿٣٠﴾ الْآيَةُ ، أَي أَنْفَصَلَ الْحَالُ الْأَوَّلُ ، وَجَاءَ آخِرُ فَقَدْ أَرْسَلَنِي اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ أَطَعْتَهُ سَلِمْتَ ، وَإِنْ خَالَفْتَهُ عَطِبْتَ . ثُمَّ قَالَ مُوسَى : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٣١﴾ أَي : وَمَا أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وَرَبِّتَنِي مُقَابِلَ مَا أَسَأْتُ إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ، فَجَعَلْتَهُمْ عِبِيدًا تَصْرِفُهُمْ فِي أَعْمَالِكَ وَمَشَاقِّ رَعِيَّتِكَ ، أَفِيْفِي إِحْسَانِكَ إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمَا أَسَأْتُ إِلَى مُجْمُوعِهِمْ . أَي : لَيْسَ مَا ذَكَرْتَهُ شَيْعًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَعَلْتَ بِهِمْ .

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ مُّؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رُكُوعًا رَبِّ عِبَادِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمُجْرِبٌ ﴿٣٦﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ تَقُولُونَ ﴿٣٧﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ ، وذلك لأنه كان يقول لقومه : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴿٣٣﴾ . ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴿٣٤﴾ وَكَانُوا يَجْحَدُونَ الصَّانِعَ جَلَّ وَعَلَا ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَهُمْ سِوَى فِرْعَوْنَ . فَلَمَّا قَالَ لَهُ مُوسَى : إِنِّي رَسُولُ

لَسَنَرٌ عَلَيْهِ ﴿٣٨﴾ أي : فاضل بارع في السحر . فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لامن قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به فقال : ﴿٣٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ﴿٤٠﴾ الآية . أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه ، وأنصاره وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا علي فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿٤١﴾ قَالُوا آتِنَا آيَةً وَأَنْتَ وَابْنُكَ فِي الدَّائِنِ حَشِيرٌ ﴿٤٢﴾ بَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلَيْهِ ﴿٤٣﴾ أي : أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك ، وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فغلبه أنت وتكون لك النصره والتأييد ، فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله لهم في ذلك ليجمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

﴿٤٤﴾ فَجِئَ السَّحَرَةُ لِيَلْقَيْنَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٤٥﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُنْجِمُونَ ﴿٤٦﴾ لَعَلَّآ نَبِّئُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْفَالِقِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِرُفْعُونَ إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَالِقِينَ ﴿٤٨﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَمْ يَأْتِ الْفَوْزَ مَا أَنْتُمْ مُتَّفِقُونَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا جَاهِلْتُمْ وَعَصَيْتُمْ وَقَالُوا يَعْزُونَ لَنَا لَنَحْنُ الْفَالِقُونَ ﴿٥١﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴿٥٣﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْفَالِقِينَ ﴿٥٤﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٥٥﴾ .

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط ، في سورة الأعراف وفي سورة طه ، وفي هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان . ﴿٥٦﴾ بَلْ تَقْزِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَفْسُوتُمْ ﴿٥٧﴾ . ولهذا جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس ، وأصنعهم وأشدهم تخيلاً في ذلك ، وكان السحرة جمعا كثيرا ، وقال قائلهم : ﴿٥٨﴾ لَعَلَّآ نَبِّئُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْفَالِقِينَ ﴿٥٩﴾ ولم يقولوا تنبئ الحق ، سواء كان من السحرة أو من موسى بل الرعية على دين ملكهم . ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴿٦١﴾ أي : إلى مجلس فرعون ، وقد ضربوا له وطاقا ، وجمع خدمه وحشمه ، ووزرائه ورؤساء دولته ، وجنود مملكته . فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا أي : هذا الذي جمعنا من أجله . فقالوا : ﴿٦٢﴾ إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَالِقِينَ ﴿٦٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٦٤﴾ أي : وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي ، فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿٦٥﴾ قَالُوا يَسْمُوتُ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٦﴾ قَالَ بَلْ الْفَوْزُ ﴿٦٧﴾ وقد اختصر هذا ما هنا ، فقال لهم موسى : ﴿٦٨﴾ الْفَوْزَ مَا أَنْتُمْ مُتَّفِقُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا جَاهِلْتُمْ وَعَصَيْتُمْ وَقَالُوا يَعْزُونَ لَنَا لَنَحْنُ الْفَالِقُونَ ﴿٧٠﴾ . وهذا كما تقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئا : هذا بنواب فلان ﴿٧١﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٧٢﴾ أي : تختطفه وتجمعه من كل بقعة ، وتبتلعه فلم تدع منه شيئا . قال تعالى : ﴿٧٣﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ إلى قوله : ﴿٧٥﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٧٦﴾ . فكان هذا أمرا عظيما جدًّا ، وبرهانا قاطعا للعذر ، وحجة دامغة . وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا غلبوا ، وخضعوا وأمنوا بموسى في الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، فغلب فرعون غلبا لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحا جريئا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . فعدل إلى المكابرة والعناد ، ودعوى الباطل فشرع يتهدهم ويتوعددهم ويقول :

﴿إِنَّمَا لَكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ عَلَيْهِ تَكُونُونَ سَاجِدِينَ﴾ وقال : ﴿إِنَّ هَذَا لَكُنْزٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْبَيْتَةِ﴾ الآية .
 ﴿قَالَ مِمَّا أَشْتَرُ لَمْ يَلِدْ وَأَنْتُمْ لَا تعلمُونَ﴾ الآية عَلَيْهِ تَكُونُونَ سَاجِدِينَ فَلَسَوْفَ نَأْتِيَنَّكُمْ وَأَيُّكُمْ مُّسْتَكْبِرٌ
 وَلَا صَاحِبَ إِلَٰهٍ ﴿١٥﴾ قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِلَّا إِنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا مُغْلَبُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغَيِّرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَابِينَ ﴿١٧﴾ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ؛ ولهذا لما قال لهم
 فرعون : ﴿مِمَّا أَشْتَرُ لَمْ يَلِدْ وَأَنْتُمْ لَا تعلمُونَ﴾ أي : كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا علي
 في ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإني أنا الحاكم المطاع . ﴿إِنَّمَا لَكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
 عَلَيْهِ تَكُونُونَ سَاجِدِينَ﴾ . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ،
 فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل
 والصلب فقالوا : ﴿لَا صَبْرَ لَنَا﴾ أي : لا حرج ولا يضربنا ذلك ولا نبالي به ﴿إِنَّا لَكُنَّا مُّغْلَبُونَ﴾
 أي : المرجع إلى الله ﷻ وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء . ولهذا قالوا : ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغَيِّرَ لَنَا رَبُّنَا
 خَطَابِينَ﴾ أي ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر . ﴿كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي :
 بسبب أننا بادرنا قوماً من القبط إلى الإيمان فقتلهم كلهم .

﴿وَأَوْتَيْنَاهُ الْكِتَابَ وَبَيَّنَّا لِلنَّاسِ آيَاتِهِ﴾ الآية ﴿فَأَرْسَلَ رَسُولَهُ فِي الْبَلَدَيْنِ حَنِينًا﴾ الآية ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلَةٌ﴾ الآية ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِآيَاتِنَا﴾ الآية
 ﴿وَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ غِلَاظٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآية ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَارِيرٍ كَثِيرَةٍ﴾ الآية ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ﴾ الآية .
 لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع
 ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج
 بني إسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه ﷻ .
 خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً . وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من
 المفسرين وقت طلوع القمر . وذكر مجاهد عليه السلام أنه كشف القمر تلك الليلة فالله أعلم .

فلما أصبحوا وليس في ناديه دافع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون ، واشتد غضبه على بني
 إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين أي : من يحشر الجند ويجمعه
 كالنقباء ، والحجاب ونادى فيهم : ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلَةٌ﴾ أي : لطائفة
 قليلة . ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَئِذٍ بِآيَاتِنَا﴾ أي : كل وقت يصل منهم إلينا يعيظنا . ﴿وَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ غِلَاظٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية : نحن
 كل وقت نحذر من غائلتهم ، وقرأ طائفة من السلف ﴿وَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ غِلَاظٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية : مستعدون
 بالسلح ، وإني أريد أن أستأصل شأنتهم وأبهد خضرأتهم فجوزي في نفسه ، وجنده بما أراد لهم
 قال الله تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآية ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَارِيرٍ كَثِيرَةٍ﴾ الآية : فخرجوا من هذا النعيم إلى
 الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية ، والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق ، والملك والجاه الوافر في
 الدنيا . ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ﴾ كما قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِقَ
 الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ﴾ الآية .

﴿فَأَتَيْنَاهُمُ مَّشْرِيقَ الْبَحْرِ فَأَنقَلَبُوا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ﴾ الآية ﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الثَّغَمَانِ قَالِ اصْحَبْتُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ الآية ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾
 ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَاطَّوَاسٍ عَلَٰطِيرٍ﴾ الآية ﴿وَأَلْقَيْنَا نَمْرًا وَأَحْمَقِينَ﴾ الآية

وَمِنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِنٌ رَّجِيمٌ ﴿٤١﴾ .
 ﴿ فَأَنْبَتُهُمْ ثُغْرِيقًا ﴾ أي : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها . ﴿ فَلَمَّا تَرَكْنَا الْجَبَانَ ﴾ أي : رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك . ﴿ قَالَ أَصْحَابُ ثُغْرِيقٍ إِنَّا لَنَذَرُكُمْ ﴾ وذلك أنهم انتهوا بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وقد أدركهم فرعون بجنوده ، فلماذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَنَذَرُكُمْ ﴾ ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَكُونُ ﴾ أي : لا يصل إليكم شيء مما تحذرون ، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم ، وهو ﷻ لا يخلف الميعاد . وأوحى الله إلى موسى : ﴿ أَوَ أَضْرِبُ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ . فضربه بها ففياها سلطان الله الذي أعطاه فانفلق . قال الله تعالى : ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : كالجبل الكبير . وقال عطاء الخرساني : هو الفج بين الجبلين ، قال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق ، وزاد السدي : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر ، فلفحته فصار يساً كوجه الأرض . قال تعالى : ﴿ فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَسًى لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا غَتًى ﴾ . وقال في هذه القصة : ﴿ وَارْتَلَيْنَا نَمَ الْآخَرِينَ ﴾ أي : هنالك . قال ابن عباس : ﴿ وَارْتَلَيْنَا ﴾ أي : قربنا من البحر فرعون وجنوده ، وأدنيناهم إليه ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿ أي : أنجينا موسى وبني إسرائيل ، ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد . وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِنٌ رَّجِيمٌ ﴿ تقدم تفسيره .

﴿ وَاتَّلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا مِنْ سَمَاءٍ قَدِ انْشَقَّتْ لَنَا ﴾ قَالُوا بَلْ يَنْصُرُونَكُم بَعْضُهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ أَوْ يَتَّبِعُونَكُمْ كَذَلِكَ يَقُولُونَ ﴿ قَالُوا أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله ، وخليله إبراهيم ﷺ إمام الحنفاء . أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقنطوا به في الإخلاص ، والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من قبل ، أي : من صغره إلى كبره ، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ﷻ : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا مِنْ سَمَاءٍ قَدِ انْشَقَّتْ لَنَا ﴾ أي : مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ أَوْ يَنْصُرُونَكُم أَوْ يَخْشَوْنَ ﴿ قَالُوا بَلْ يَدْعُونَا رَبًّا مُتَكَبِّرًا ﴾ كَذَلِكَ يَقُولُونَ يعني : اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فعند ذلك قال لهم إبراهيم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فلتخلص إلي بالمساءة . فإني عدو لا أبالي بها ، ولا أفكر فيها . وهذا كما قال هود ﷻ : ﴿ إِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا آيَاتِي بِرِئَةٍ وَمَا تَشْرِكُونَ ﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ

يَنَاصِيحُهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٨﴾ . وهكذا تبرا إبراهيم من آلهتهم فقال : ﴿ وَكَفَيْتَ أَخَاكَ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخْلُوفُوا أَتُكْرَمُونَ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَأةٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ٦٩ ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴾ ٧٠ ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً ﴾ يعني لا إله إلا الله .
 ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ٧١ ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ٧٢ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ٧٣ ﴿ وَالَّذِي يُؤَيِّسُ ثَمَرَ الْبَحْرِ ﴾ ٧٤ ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ٧٥ .

يعني : لا أعبد الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أي : هو الخالق الذي قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه فكل يجري على ما قدر له ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أي : هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه ، وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبا . كما قالت الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَوَّلُكُمْ أَمْ أَلْبَسَ اللَّهُ أَفْئِدَتَهُمْ فِيهِمْ ثُمَّ رُشِدًا ﴾ وكذا قال إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أي : وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿ وَالَّذِي يُؤَيِّسُ ثَمَرَ الْبَحْرِ ﴾ أي : هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أي : لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجَنَّةَ بِالْصَّلَاحِينَ ﴾ ٧٦ ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ٧٧ ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ ٧٨ ﴿ وَأَغْفِرْ لِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ ﴾ ٧٩ ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ ٨٠ ﴿ إِلَّا مَنْ أَفَى اللَّهُ يَاقْلِبَ سَلِيمٌ ﴾ ٨١ .
 وهذا سؤال من إبراهيم ﷺ أن يؤتیه ربه حكما ، قال ابن عباس : وهو العلم ، وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدي : هو النبوة . وقوله : ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أي : اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة ، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار : « اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى » . قالها ثلاثا ^(١) . وفي الحديث في الدعاء : « اللَّهُمَّ أُخِيَّتَا مُسْلِمَيْنِ ، وَأَمِيَّتَا مُسْلِمَيْنِ ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مُبْدَلِينَ » ^(٢) . وقوله : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أي : واجعل لي ذكرا جميلا بعدي أذكر به ، ويقتدى بي في الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ٨٢ ﴿ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ٨٣ ﴿ كَذَلِكَ يُخَوِّرُ الْمُتَّخِذِينَ ﴾ ٨٤ . وقوله تعالى : ﴿ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أي : أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي ، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم . وقوله : ﴿ وَأَغْفِرْ لِي ﴾ الآية . كقوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم ﷺ .
 كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ . وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه ، فقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمَا نَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٣٧) ومسلم في السلام (٤٦) وأحمد في مسنده ٤٨/٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٤/٣) .

يَكُذِّبُونَ وَيَتَنَبَّأُونَ الْمَدَوَةَ وَالْغَمَّاءَ أَبَدًا حَتَّى تَقُوتُوا بِإِلَهِكُمْ وَنَعَدُهُمْ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿١٠٤﴾ وَقوله ﴿١٠٣﴾ وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٢﴾ أي : أجزني من الخزي يوم القيامة ، ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ فَيَقُولُ أَبُوهُ : فَالْيَوْمَ لَا أَغْصِيكَ . فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، فَأَيُّ خِزْيٍ أُخْزِي مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ . فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنِّي خَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا إِبْرَاهِيمُ انْظُرْ نَحْتَ رَجُلِكَ ، فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ » ^(١) .

وقوله ﴿١٠٢﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿١٠١﴾ أي : لا يقي المرء من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا . ﴿١٠٠﴾ وَلَا بَنُونَ ﴿٩٩﴾ أي : ولو افتدى بمن على الأرض جميعًا ، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له ، والتبري من الشرك وأهله . ولهذا قال ﴿٩٨﴾ لِمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى اللَّهِ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩٧﴾ أي : سالم من الدنس والشرك . قال ابن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وقال ابن عباس : القلب السليم : أن يشهد أن لا إله إلا الله ، وقال مجاهد ﴿٩٦﴾ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٩٥﴾ يعني من الشرك . قال أبو عثمان النيسابوري : هو القلب السالم من البدعة المظلمة إلى السنة .

﴿وَأَرْسَلَتْ الْجَنَّةَ الْمُنْقِنِينَ﴾ ^(٩٤) وَوَرِثَتِ الْجَنَّةُ لِلْعَالَمِينَ ^(٩٣) وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ^(٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْبَصِرُونَ ^(٩١) فَكَبَّكُوا فِيهَا لَهُمْ وَالْعَالُونَ ^(٩٠) وَحُوتُوا إِلَيْهِمْ أَجْمَعُونَ ^(٨٩) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ^(٨٨) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ^(٨٧) إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ^(٨٦) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ^(٨٥) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ^(٨٤) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ^(٨٣) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ^(٨٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ^(٨١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ رَحِيمٌ ^(٨٠) .

﴿وَأَرْسَلَتْ الْجَنَّةَ﴾ أي : قربت وأدنت من أهلها مزخرفة مزينة لناظرها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا ، وعملوا لها في الدنيا ﴿وَوَرِثَتِ الْجَنَّةُ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي : أظهرت وكشفت عنها ، وبدت منها عنق فزفت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر ، وقيل لأهلها تقريبًا وتوبيخًا ﴿إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من دُونِ اللَّهِ هَلْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْبَصِرُونَ ﴿٩١﴾ أي : ليست الآلهة التي عبدتموها من دُونِ اللَّهِ من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئًا ، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون . وقوله ﴿فَكَبَّكُوا فِيهَا لَهُمْ وَالْعَالُونَ﴾ . قال مجاهد يعني : قد هوى فيها . وقال غيره : كبوا فيها ، والكاف مكررة . كما يقال : صرصر والمراد : أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعواهم إلى الشرك . ﴿وَحُوتُوا إِلَيْهِمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي : ألقوا فيها عن آخرهم ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ أي : يقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار ، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٨٣﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّي الْعَالَمِينَ ﴿٨٢﴾ أي : نجعل أمركم مطاعًا كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ قال بعضهم يعني : من الملائكة . كما يقولون ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٤٩٩/٨) وأخرجه بنحوه الحاكم في المستدرک (٢٣٨/٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٠/٣) .

تَعْمَلُ ﴿١٠٥﴾ . وكذا قالوا : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي : قريب . قال قتادة : يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع . ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون ، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . ثم قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي : إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد آية أي : لدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله ، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتُ ﴿١٠٩﴾ إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا أَمِينًا ﴿١١٠﴾ فَاقْنُتُوا اللَّهَ وَآلِطُونِي ﴿١١١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ فَاقْنُتُوا اللَّهَ وَآلِطُونِي﴾ .

هذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله نوح عليه السلام . وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد ، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ومحذراً من ويل عقابه ، فكذب قومه ، فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل . فلهذا قال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتُ ﴿١٠٩﴾ أَي : ألا تخافون الله في عبادتكم غيره . ﴿إِنَّ لَكُمْ رَسُولًا أَمِينًا﴾ أي : إني رسول من الله إليكم أمين فيما بعثني الله به ، أبلغكم رسالات ربي ، ولا أزيد فيها ، ولا أنقص منها ﴿فَاقْنُتُوا اللَّهَ وَآلِطُونِي ﴿١١١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الآية . أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم بل أدرج ثواب ذلك عند الله ﴿فَاقْنُتُوا اللَّهَ وَآلِطُونِي﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي ، وأمانتي فيما بعثني الله به . ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذِلُونَ ﴿١١٣﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٥﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ .

يقولون : لا تؤمن لك ولا تتبعك ، وتأسى في ذلك بهؤلاء الأردلين الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا ولهذا : ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذِلُونَ ﴿١١٣﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي : وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه ، لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص ، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي ، وأكل سرائرهم إلى الله ﷻ ﴿إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٥﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي : إنما بعثت نذيراً فمن أطاعني واتبعني ، وصدقني كان مني وأنا منه . ﴿قَالُوا لَيْنَ لَوْ تَنَزَّلَتْ يَتَّبِعُكَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْهُومِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَدْ كَذَّبْتُ ﴿١١٨﴾ فَأَفْطَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَمَّا وَجَّهِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْهُورِ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَفْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد . وقالوا في الآخر : ﴿لَيْنَ لَوْ تَنَزَّلَتْ يَتَّبِعُكَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْهُومِينَ﴾ أي : لمن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْهُومِينَ﴾ أي : لترجمنك ، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه . فقال : ﴿رَبِّ إِنِّي قَدْ كَذَّبْتُ ﴿١١٨﴾ فَأَفْطَحْ بَيْنِي

وَيَسْتَهْمَتَهُمْ ۖ الْآيَةُ ۖ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ إِنِّي مَمْلُوءٌ فَأُنصِرْ ۖ ﴾ إلى آخر الآية . وقال هاهنا : ﴿ فَأَنجِيْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَائِكِ الشَّعْثُونِ ۖ ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ۖ . والمشحون هو المملوء بالأمعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين أي : أنجينا نوحا ومن اتبعه كلهم ، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۖ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ۖ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۖ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۖ ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّي الْعَالَمِينَ ۖ ﴾ أَتَنْتَوْنَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةً تَنْبُتُونَ ۖ ﴿ وَتَسْتَحْدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۖ ﴾ وَإِذَا بَلَغَشْتُ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۖ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۖ ﴿ أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَمِ رِيحِينَ ۖ ﴾ وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ ۖ ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ ﴾ .

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام ، إنه دعا قومه عادًا ، وكان قومه يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل قريتا من حضر موت متاخمة بلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح . كما قال في سورة الأعراف ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ ﴾ . وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب ، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة والأموال ، والجنات والأنهار ، والأبناء . والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله هودًا إليهم ، رجلًا منهم فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه ، فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال : ﴿ أَتَنْتَوْنَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةً تَنْبُتُونَ ۖ ﴾ اختلف المفسرون في الريح بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة ، يبنون هناك بنيانًا محكمًا هائلًا باهرًا . مغلما مشهورًا ﴿ تَنْبُتُونَ ۖ ﴾ أي : وإنما تفعلون ذلك عبثًا لمجرد اللعب واللهو ، وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكر عليهم نبههم عليهم السلام ذلك ؛ لأنه تضییع للزمان ، وإتعا ب للأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَتَسْتَحْدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۖ ﴾ قال مجاهد : المصانع البروج المشيدة والبنیان المخلد . وفي رواية عنه : بروج الحمام . وقال قتادة : هي مأخذ الماء . روي أن أبا الدرداء عليه السلام لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنیان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم فنأدى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ؟ ألا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ؟ إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملمهم غرورًا ، وأصبح جمعهم بورًا ، وأصبحت مساكنهم قبورًا ، ألا إن عادًا ملكت ما بين عدن و عمان خيلًا وركابًا ، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟ . وقوله : ﴿ وَإِذَا بَلَغَشْتُ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۖ ﴾ أي : يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴾ أي : اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ، ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۖ ﴾ أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَمِ رِيحِينَ ۖ ﴿ وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ ۖ ﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ ﴿ أي : إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم . ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ۖ ﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۖ ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ۖ ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۖ ﴾ .

﴿ أَتَنْتَوُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴾ ١٤٦ فِي جَنَّتٍ وَعَبُورٍ ١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلَمَهَا هَاضِمٌ ١٤٨ وَتَنْتَحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا قَرِيرِينَ ١٤٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٥٠ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٢ .

يقول لهم واعظاً لهم ومحذرهم نعم الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المخذورات ، وأنبأ لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والشمرات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنَحْلٍ طَلَمَهَا هَاضِمٌ ﴾ قال ابن عباس : أنبع وبلغ فهو هاضم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : معشبة ، وقال : إذا رطب واسترخى . وعن أبي العلاء قال : هو المذنب من الرطب . وقال مجاهد : هو الذي إذا يس تهشم وتفتت وتناثر . وقال مجاهد : حين يطلع تقبض عليه فهضمه فهو من الرطب الهضم ومن اليابس الهشيم تقبض عليه فهشمه . وقال قتادة : الهضم الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الشرة وركب بعضها بعضاً فهو هضم ؛ وقال مرة : هو الطلع حين يفرق ويخضر . وقال الحسن البصري : هو الذي لا نوى له .

وقوله : ﴿ وَتَنْتَحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا قَرِيرِينَ ﴾ قال ابن عباس : يعني : حاذقين . وفي رواية عنه شهرين أشرين ، وهو اختيار مجاهد وجماعة ولا منافاة بينهما ، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكنها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم . ولهذا قال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أي : أقبِلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبده وتوحدوه ، وتسبحوه بكرة وأصيلاً . ﴿ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ يعني : رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ، ومخالفة الحق .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ١٥٣ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٥٤ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لِمَا شِئْتُمْ وَلَكِنْ شِئْتُمْ بِيَوْمٍ مَّالُومٍ ١٥٥ وَلَا تَسْهَوْا يَسْوَءِ قَبْأَتِكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ لَئِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ١٥٩ .

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبیهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم ﷻ أنهم : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴾ قال مجاهد : يعنون من المسحورين . وروى أبو صالح عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴾ يعني من المخلوقين .

والأظهر في هذا قول مجاهد : أنهم يقولون : إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك . ثم قالوا : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ يعني : فكيف أوحى إليك دوننا ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم ، وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء - وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا ، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح عليه السلام العهد والميثاق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه ، فأعطوه ذلك . فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ، ثم دعا الله ﷻ أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها ، فأمن بعضهم ، وكفر أكثرهم ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لِمَا شِئْتُمْ وَلَكِنْ شِئْتُمْ بِيَوْمٍ مَّالُومٍ ﴾ يعني : ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ﴿ وَلَا تَسْهَوْا يَسْوَءِ قَبْأَتِكُمْ عَذَابٌ لِمَا شِئْتُمْ وَلَكِنْ شِئْتُمْ بِيَوْمٍ مَّالُومٍ ﴾ يعني : ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ﴿ وَلَا تَسْهَوْا يَسْوَءِ قَبْأَتِكُمْ عَذَابٌ لِمَا شِئْتُمْ وَلَكِنْ شِئْتُمْ بِيَوْمٍ مَّالُومٍ ﴾

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٦٠﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى ، ويتنفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً وريّاً ؛ فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تماثلوا على قتلها وعقرها ﴿١٦١﴾ فَمَقَرُّوْهَا فَاصْبَحُوا نَدِيْمِيْنَ ﴿١٦٢﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴿١٦٣﴾ وهو : أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿١٦٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ ﴿١٦٦﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ لُوطُ النَّاصِيَةِ ﴾ ﴿١٦٧﴾ إِذْ قَالَ لَهَا لَتُؤْمِنُنَّ لَوْ أَنِّي أَمْرُهُمْ لُوطٌ أَلَّا تَتَّقُوْنَ ﴿١٦٨﴾ إِنَّي لَكُمْ رَسُولُ أَيْمٍ ﴿١٦٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٧٠﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن بَعْزٍ إِنِّي أَخْشَىٰ لَإِنِّي أَخَذْتُ مِنَ رَبِّ النَّصِيْةِ ﴿١٧١﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام ، وهو لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام . وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليه السلام ، وكانوا يسكنون سدوم ، وأعمالها التي أهلكها الله بها ، وجعل مكانها بحيرة متنتة خبيثة ، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال بيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك ؛ فدعاها إلى الله تعالى أن يعبدوه وحده لا شريك له ؛ وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الإناث . ولهذا قال تعالى :

﴿ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ أَمِنَ الْعَالَمِيْنَ ﴾ ﴿١٦٧﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٨﴾ قَالُوا لَيْنَ لَّكَ تَنْتَهُ بَلُوطٌ لَّتَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَخَرِّجِيْنَ ﴿١٦٩﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِيْنَ ﴿١٧٠﴾ رَبِّ يَخْنِيْ وَأَهْلِيْ مِنَّا يَعْْمَلُونَ ﴿١٧١﴾ فَجَنَّبَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِيْنَ ﴿١٧٢﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيْرِ ﴿١٧٣﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِيْنَ ﴿١٧٤﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِيْنَ ﴿١٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ﴿١٧٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ ﴿١٧٧﴾ .

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسايتهم اللاتي خلقهن الله لهم ما كان جوابهم له إلا أن قالوا : ﴿ لَيْنَ لَّكَ تَنْتَهُ بَلُوطٌ ﴾ أي : عما جئتنا به ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَخَرِّجِيْنَ ﴾ أي : ننفيك من بين أظهرنا . فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه ، وأنهم مستمرّون على ضلالتهم تبرأ منهم . قال : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِيْنَ ﴾ أي : المبغضين لا أحبه ولا أرضى به ، وإني بريء منكم ، ثم دعا الله عليهم فقال : ﴿ رَبِّ يَخْنِيْ وَأَهْلِيْ مِنَّا يَعْْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَجَنَّبَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِيْنَ ﴾ أي : كلهم . ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيْرِ ﴾ وهي : امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها ، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود ، وكذا في الحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِيْنَ ﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴿١٧٤﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ النَّاصِيَةِ ﴾ ﴿١٧٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَّا تَتَّقُوْنَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّي لَكُمْ رَسُولُ أَيْمٍ ﴿١٧٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٧٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن بَعْزٍ إِنِّي أَخْشَىٰ لَإِنِّي أَخَذْتُ مِنَ رَبِّ النَّصِيْةِ ﴿١٧٩﴾ .

هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل ها هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي : شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغيضة ، كانوا يعبدونها ؛ فلهذا لما قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لم يقل : إذا قال لهم أخوهم شعيب : وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَكُمْ شُعَيْبُ ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يفتن لهذه التكلفة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين . ومنهم من قال : ثلاث أمم . وقوله : ﴿ أَصْحَابُ لَيْكَةِ ﴾ قوم شعيب ، وقاله إسحاق بن بشر ، وقال غير جوير : أصحاب الأيكة ومدين هما واحد والله أعلم . والصحيح : أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما في قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة . ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْسَنِينَ ﴾ ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ﴿ وَأَتَقُوا الذِّلَّ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالْجَلَّةَ الْأُولَى ﴾ .

يأمرهم عليه السلام بإفءاء المكيال والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أي : إذا دفعتم للناس فكمّلوا الكيل لهم ، ولا تبسخوا الكيل فتعطوه ناقصاً ، وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافياً ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْسَنِينَ ﴾ . والقسطاس : هو الميزان ، وقيل : هو القبان . قال بعضهم : هو معرب من الرومية . قال مجاهد : القسطاس المستقيم هو العدل بالرومية . وقال قتادة : القسطاس العدل . وقوله : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أي : لا تنقصوهم أموالهم ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ يعني قطع الطريق . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَتَقُوا الذِّلَّ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالْجَلَّةَ الْأُولَى ﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، قال ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ وَالْجَلَّةَ الْأُولَى ﴾ : خلق الأولين . وقرأ ابن زيد : ﴿ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا ﴾ .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَئِنْ الْكَذِبِينَ ﴾ ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم . حيث قالوا : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ يعنون : من المسحورين ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَئِنْ الْكَذِبِينَ ﴾ أي : تتعمد الكذب فيما تقول لا أن الله أرسلك إلينا ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ قال الضحاك : جانباً من السماء . وقال قتادة : قطعاً من السماء . وقال السدي : عذاباً من السماء . وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَانْظُرْ عَلَيْنَا جِسَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية . وهكذا قال هؤلاء الكفار الجاهلة . ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية . ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم . وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوهم جزاء وفاً . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله ﷻ جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يُمكنهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ، ولهيباً ووهجاً عظيماً ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففي الأعراف : ذكر أنهم أخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَتُوسُفَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ نَحْمُودَنَّ فِي مَلِئْنَا ﴾ فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفي سورة هود قال : ﴿ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ ﴾ وذلك لأنهم استهزأوا بنبي الله في قولهم : ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتَّكِفَ مَا يَنْبَغُ مَائَاتُونَ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي آمُورِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيلُ الرَّشِيدُ ﴾ قالوا : ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال : ﴿ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ ﴾ الآية . وها هنا قالوا : ﴿ فَأَسِطَّ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الآية . على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه . ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . قال ابن عباس : بعث الله عليهم رعدة وحراً شديداً فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة ، فأظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم نارا . قال ابن عباس : فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ^(١) . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَلَئِنْ رَأَيْتَ

﴿ وَلَئِنْ لَنُزِيلُ رَبِّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ يَلْسَانٌ عَرَفِيٌّ ثِينٌ . يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ وَلَئِنْ ﴾ أي : القرآن ﴿ لَنُزِيلُ رَبِّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أي : أنزله الله عليك وأوحاه إليك . ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ وهو جبريل عليه السلام . ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ أي : نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ يا محمد : سالماً من الدنس والزيادة والنقص ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ أي : لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له . وقوله تعالى : ﴿ يَلْسَانٌ عَرَفِيٌّ ثِينٌ ﴾ أي : هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون بيناً واضحاً ظاهراً للعدر ، مقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة ، وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن إذ قال لهم : « كَيْفَ تَرَوْنَ بَرَاءِسَ قَهَا ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها . قال : « فَكَيْفَ تَرَوْنَ قَوَاعِدَهَا ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد تمككها . قال : « فَكَيْفَ تَرَوْنَ جَزْيَهَا ؟ » قالوا : ما أحسنه وأشد سواده . قال : « فَكَيْفَ تَرَوْنَ رَحَاَهَا اشْتَدَارَتْ ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : « فَكَيْفَ تَرَوْنَ بَرَقَهَا أَوْمِضُ ، أَمْ خَفُفَ ، أَمْ يَشُقُّ شَقًّا ؟ » قالوا : بل

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٩٤/١٩) وفيه وثقة بدلاً من رعدة والوثقة : ندى يجيء من حميم الحر من قبل البحر مع سكون الريح وهو ما يعرف الآن بالرطوبة .

يشق شقًا . قال : « الْحَيَاءُ الْحَيَاءُ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ » . قال : فقال رجل : يا رسول الله بأبي وأمي ما أفصحك ما رأيت الذي هو أعرب منك . قال : فقال : « حق لي ، وَإِنَّمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِیَشَانِي ، وَاللَّهُ يَقُولُ ﴿ يَلْسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ » ^(١) ، وقال سفيان الثوري . لم ينزل وحى إلا بالعربية ، ثم ترجم كل نبي لقومه واللسان يوم القيامة بالسريانية فمن دخل الجنة تكلم بالعربية .

﴿ وَلَئِنَّ لِيَ لِنُذِيرِ الْأُولِينَ ﴾ ^(٢) أَوْزَرَ يَكُنْ لَمْ يَلَمْ أَن يَلْمَهُ عَلَّمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٣﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٤﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٥﴾ .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه . كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيئاً في ملكه بالنبشارة بأحمد ﴿ رَأَى قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ .

والزبر : هاهنا هي الكتب ، وهي جمع زبور ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال الله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أي : مكتوب عليهم في صحف الملائكة ثم قال تعالى : ﴿ أَوْزَرَ يَكُنْ لَمْ يَلَمْ أَن يَلْمَهُ عَلَّمُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أي : أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها والمراد : العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ، ومبعثه وأمته . كما أخبر بذلك من آمن منهم : كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي عن أدركه منهم ومن شاكلهم . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ الآية . ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن : إنه لو نزل على رجل من الأعاجم من لا يدري من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به . ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٥﴾ . كما أخبر عنهم في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(٦) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ . حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٧﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٨﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٩﴾ أَفِيعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٠﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٢﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا لَمَّا مُنِذِرُونَهُمْ ﴿١٤﴾ ذَكَرُوا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٥﴾ .

يقول تعالى : كذلك سلكنا التكذيب والكفر ، والجحود والعناد أي : أدخلناه في قلوب الجاهلِينَ . ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : بالحق . ﴿ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ، ولهم سوء الدار . ﴿ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي : عذاب الله بغتة . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٩﴾ أي : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا في زعمهم بطاعة الله . وقوله تعالى : ﴿ أَفِيعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ إنكار عليهم ، وتهديد لهم ، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكديماً واستبعاداً : اثنا بعذاب الله . كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعْجِلْكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الآيات . ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ ^(١٢) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَتَّبَعُونَ ﴿٢١٠﴾ أي : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملينا لهم برهة من الدهر ، وحيناً من الزمان ، وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَتَّبَعُونَ﴾ .

وفي الحديث الصحيح : «يُؤْتَى بِالْكَافِرِ فَيُغَمَسُ فِي النَّارِ غَمَسَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ رَأَيْتَ نَعِيمًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا كَانَ فِي الدُّنْيَا ، فَيُضْبَعُ فِي الْحِنَةِ صَبِغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ» ^(١) . أي : ما كان شيئاً كان .

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة إلا بعد الإعذار إليهم ، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم ، وقيام الحجة عليهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا أَمَلْنَاكَ مِنْ قَرَبٍ إِلَّا مَّا مُنْذِرُونَ﴾ ﴿ذَكَرْنِي وَمَا كُنَّا غَالِيِينَ﴾ . كما قال تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ . ﴿وَمَا نَزَّلْنَا بِهٍ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿وَمَا يَبْنِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿وَمَا نَزَّلْنَا بِهٍ الشَّيْطَانِ﴾ ، ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه ما ينبغي لهم أي : ليس هو من بغيتهم ، ولا من طلبتهم لأن من سجايهم الفساد ، وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونور وهدي ، وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة . ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا يَبْنِي لَهُمْ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي : ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك . قال الله تعالى : ﴿لَوْ أَرَدْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّصَوِّدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ .

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملكت حرماً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشبه الأمر . وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأنيده لكتابه ولرسوله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ . كما قال تعالى مخبراً عن الجن : ﴿وَأَنَّا لَسْنَا لَمَّةً فَوَجَدْنَا مِلَّةَ حَرَمًا شَدِيدًا وَشَبَّأُ﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلآنَ يَجِدُ لَهَا شِبَاءًا وَرَصْدًا﴾ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ . ﴿فَلَا تَنفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿وَلَقَبِضْ جُنَاكَ لِمَنِ أَنْبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَإِنْ عَصَاكَ قُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَيَوَكِّلْ عَلَى الْمَرْزُوقِ الْبَرَّحِيمِ﴾ ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ جِبْنَ تَقَوْمٍ﴾ ﴿وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجَدِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبراً أن من أشرك به عذبه . ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين أي الأدينين إليه ، وأنه لا يخلص أحداً منهم ، إلا إيمانه بربه ﷻ . وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَإِنْ عَصَاكَ قُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة ،

بل هي فرد من أجزائها . كما قال تعالى : ﴿ لِنُذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لِنُذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ . وفي صحيح مسلم : « الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنَ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » ^(١) . وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة . فعن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما أنزل الله ﷻ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا ، فصعد عليه ثم نادى : « يَا صَبَاحَا » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي فِهْرٍ ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ صَدْتُمْوَنِي ؟ » قالوا : نعم . قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ يَتَنَزَّلُ بِإِذْنِي عَذَابٌ شَدِيدٌ » . فقال أبو لهب : بئنا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ^(٢) .

وعن عائشة قالت : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ . قام رسول الله ﷺ فقال : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَفْلِكَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ » ^(٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمم وخص فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار ، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رحماً سألها بيلالها » ^(٤) .

وعن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « مَنْ يَضْمَنْ عَنِّي دِينِي وَمَوَاعِيدِي ، وَيَكُونُ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ ، وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ؟ » فقال رجل لم يسمه شريك : يا رسول الله أنت كنت بحراً من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر - ثلاثاً - قال : فعرض ذلك على أهل بيته فقال علي : أنا ^(٥) .

ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه في أهله يعني : إن قتل في سبيل الله ، كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل . فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ . فعند ذلك أمن ، وكان أولاً يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ولم يكن أحد في بني هاشم إذ ذاك أشد إيماناً ، وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ من علي رضي الله عنه ، ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ . ثم كان بعد هذا ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الرَّحِيمِ ﴾ أي :

(١) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٢٤٠) .

(٢) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٣٥٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/١) .

(٣) أخرجه مسلم في (الإيمان) (٣٥٠) والإمام أحمد في مسنده (١٨٧/٦) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٠/٢) والترمذي في سننه (٣١٨٥) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١١٦/١) والهندي في الكنز (٣٦٤٠٨) .

في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك ، وناصرك ومظفرك ، ومعلي كلمتك ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لِّمَن يَشَاءُ ۚ إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾ . قال ابن عباس : ﴿ الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لِّمَن يَشَاءُ ﴾ يعني : إلى الصلاة ، وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده ، وقال الحسن : إذا صليت وحدك ، وقال الضحاك : أي : من فراشك أو مجلسك . وقال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لِّمَن يَشَاءُ ﴾ قائما وجالسا وعلى حالاتك . وقوله تعالى : ﴿ وَتَقَلَّبُ فِي السَّجَدِ ﴾ قال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ لِّمَن يَشَاءُ ﴾ قال : في الصلاة يراك وحدك ، ويراك في الجمع . وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه . ويشهد لهذا ما صح في الحديث « سَوُّوا صُفُوفَكُمْ فَإِنِّي أَرَأَيْكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي » ^(١) . وروى من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : يعني تقبله من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبيا . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴾ تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ۖ وَأَكْتُمُ كَذِبُوتَ ۖ وَالشَّعْرَاءَ يَمَسُّهُمْ الْهَاسُ ۖ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ وَأَتَتْهُمْ يُقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَمْ يُقَلِّبُونَ ﴾ . يقول تعالى مخاطبا لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق ، وأنه شيء وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رئي من الجن ، فنه الله ﷻ جناب رسوله عن قولهم وافتراءهم ، وبه أن ما جاء به ، إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيلة ووحية نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قبل الشياطين . فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ، ويشابههم من الكهان الكذبة . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَيْتُكُمْ ﴾ أي : أخبركم . ﴿ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي : كذوب في قوله وهو : الأفَّاك ﴿ أَثِيمٍ ﴾ وهو : الفاجر في أفعاله . فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراه من الكذبة الفسقة . فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة . ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أي : يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ^(٢) . ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس ، فيحدثون بها فيصدقهم الناس في ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء . كما صح بذلك الحديث ، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : « إِنَّهُمْ لَيَشْوُونَ بِشَيْءٍ » . قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقا ، فقال النبي ﷺ : « تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطِفُهَا الْجِنُّ فَيَقْرَؤُهَا فِي أُذُنٍ وَلَيْسَ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجِ ، فَيَخْلُطُونَ مَعَهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذِبَةٍ » ^(٣) . وعن سفيان حدثنا عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ صَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَانَتْهَا سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، فَإِذَا قُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرْقُوا السَّمْعِ ، وَمُسْتَرْقُوا

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٢٥) وأحمد في مسنده ٩٨/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦١) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦١) ومسلم في (السلام) (١٢٢ ، ١٢٤) وأحمد في مسنده (٢١٨/١) .

السَّمْعَ هَكَذَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ - وَصَفَهُ شَفِيانٌ يَتَدَبَّرُهَا وَبَدَّدَ يَمِينَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ الشَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ ، فَرُبَّمَا أَذْرَكَهُ الشُّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَذْرِكُهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةٍ . يُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا : كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَصْدُقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴾ قال ابن عباس : يعني : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن ، وقال عكرمة : كان الشعراء يتهاجيان ، فينتصر لهذا فقام من الناس ، ولهذا فقام من الناس . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴾ . وعن يحنس مولى مصعب بن الزبير ، عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر فقال للنبي ﷺ : « خُذُوا الشَّيْطَانَ - أَوْ أَمْسِكُوا الشَّيْطَانَ - لَأَنْ يَمْتَلِي جَوْفَ أَحَدِكُمْ فَيَخَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِي شِعْرًا » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ قال ابن عباس : في كل لغو يخوضون . وقال الضحّاك عن ابن عباس : في كل فن من الكلام . قال مجاهد وغيره : قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها مرة في شتمة فلان ، ومرة في مدح فلان . وقال قتادة : الشاعر يمدح قومًا يباطل ، ويذم قومًا يباطل . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه . وهذا الذي قاله ابن عباس ﷺ هو الواقع في نفس الأمر . فإن الشعراء يتبحرون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ، ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم . ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيهم إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حدًا هل يقام عليه بهذا الاعتراف أو لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون على قولين . وقد ذكر محمد بن إسحاق ومحمد بن سعد في الطبقات ، والزبير بن بكار في كتاب الفكاهة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : استعمل النعمان بن عدي بن فضلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر فقال :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَشَنَاءُ أَنَّ خَلِيلَهَا
إِذَا شِفْتُ غَشْتَنِي دَهَاقِينَ قَرْوِيَةً
فَإِنْ كُنْتُ نَذْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْؤُهُ
بِمَيْسَانَ يُشَقَّى فِي زُجَاجٍ وَحَنَمٍ
وَرَقَاصَةٍ تَحْنُو عَلَيَّ كُلِّ مَبْسَمٍ
وَلَا تَشْقِينِي بِالْأَضْعَرِ الْمُتَشَلِّمِ
تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ

فلما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال : أي والله إنه ليسوؤني ذلك ومن لقيه فليخبره أنني قد عزلته . وكتب إليه عمر : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حَمْدُكَ تَزِيلُ الْكَتَبَ مِنْ أَمْرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيِّ ﴾ غَايِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ الْكُتُبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿ (أما بعد) فقد بلغني قولك : لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْؤُهُ تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدِّمِ وایم الله إنه ليسوؤني وقد عزلتك ، فلما قدم على عمر بكتبه بهذا الشعر فقال : والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن

(١) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٧٠١) والترمذي في السنن (٣٢٢٣) وابن ماجه في سننه (١٩٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٣) .

والله لا تعمل لي عملاً أبداً . وقد قلت ما قلت فلم يذكر أنه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه ذمه عمر رضي الله عنه ، ولامه على ذلك وعزله به .

وقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عن أبي الحسن سالم البراد بن عبد الله مولى تميم الداري قال : لما نزلت : ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء قتلا النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال : « أنتم » . ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال : « أنتم » ﴿وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال : « أنتم » ^(١) هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية يذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتنح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه .

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن عمه وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كان يهجو ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وعن ابن عباس أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ثلاث أعطينهن قال : « نَعَمْ » قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك ، قال : « نَعَمْ » قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : « نَعَمْ » وذكر الثالثة ^(٢) ، ولهذا قال تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قيل : معناه ذكروا الله كثيراً في كلامهم ، وقيل : في شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين ، وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : « اهْجُئْهُمْ - أَوْ - هَاجِئْهُمْ وَجَبْرِيلُ مَعَكَ » ^(٣) . وعن كعب بن مالك ، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله ﷻ قد أنزل في الشعراء ما أنزل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيفِهِ وَلِسَانِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ فَكَأَنَّ مَا تَزُومُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ الثُّبُلِ » ^(٤) . وقوله تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ الآية . وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٥) . قوله تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ يعني : من الشعراء وغيرهم . وقيل : المراد بهم : أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كتب أبي في وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر ، وينتهي الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٨/٢) . (٢) أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة) (١٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري في (المغازي) (٤١٢٣) ومسلم في (فضائل الصحابة) (٥٣ ، ١٥٧) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٦/٣) والبيهقي في السنن (٣٢٩/١٠) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٦/٢) والحاكم في المستدرک (١١/١) والدارمي في السنن (٤٢٠/٢) .

فهرس المجلد الثاني

٦٥١	تفسير سورة الأعراف
٧٣٢	تفسير سورة الأنفال
٧٦٧	تفسير سورة التوبة
٨٣٥	تفسير سورة يونس
٨٦٥	تفسير سورة هود
٨٩٣	تفسير سورة يوسف
٩٢٣	تفسير سورة الرعد
٩٤٣	تفسير سورة إبراهيم
٩٦٣	تفسير سورة الحجر
٩٧٩	تفسير سورة النحل
١٠١٣	تفسير سورة الإسراء
١٠٥٩	تفسير سورة الكهف
١٠٩٣	تفسير سورة مريم
١١١٩	تفسير سورة طه
١١٤٩	تفسير سورة الأنبياء
١١٧٣	تفسير سورة الحج
١٢٠٧	تفسير سورة المؤمنون
١٢٢٧	تفسير سورة النور
١٢٧١	تفسير سورة الفرقان
١٢٩١	تفسير سورة الشعراء